



أوراق الندوة الدولية التي نظمتها وحدة الدراسات العمانية في جامعة آل البيت بالتعاون مع
سفارة سلطنة عُمان في المملكة الأردنية الهاشمية

بتاريخ: ٢٧-٢٩ جمادى الآخرة ١٤٢٧هـ / ٢٣-٢٥ تموز ٢٠٠٦م

إعداد وتحرير

د. سعيد جبر أبو خضر د. محمد محمود الدروبي

قسم اللغة العربية وآدابها قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة آل البيت

جامعة آل البيت

المجلد الثاني

منشورات جامعة آل البيت

١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٧/٧/٢٠١٣)

٩٢٤,١

الندوة الدولية : الخليل بن احمد الفراهيدي (المفرق : ٢٠٠٦)
الخليل بن احمد الفراهيدي / تحرير سعيد جبر محمد ابو
خضر، محمد محمود الدروبي. - المفرق : جامعة آل البيت،
٢٠٠٧.

() ص. (سلسلة الدراسات العمانية: ٦)

ر.١: (٢٠٠٧/٧/٢٠١٣)

الواصفات: / اللغويون / اللغة العربية / التراجع /

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر: ٢٠٠٧/٧/٢٠١٣

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: ٢٠٠٧/٧/٢٠١٣

❖ جميع حقوق هذا الكتاب محفوظة، غير مسموح بطبع أي جزء من أجزاء
هذا الكتاب، أو اختزانه في أي نظام لاختزان المعلومات واسترجاعها، أو نقله
على أية هيئة أو بأية وسيلة سواء أكانت إلكترونية أو شرائط ممغنطة أو
ميكانيكية، أو استنساخاً، أو تسجيلاً أو غيرها، إلا في حالات الاقتباس
المحدودة بغرض الدراسة مع وجوب ذكر المصدر ويعتبر الكتاب ملكاً لجامعة
آل البيت.

❖ الآراء والأفكار المذكورة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن سياسة آل البيت.

التنفيذ الضوئي والإخراج الفني

أمل عالم الخازم

المتابعة والإشراف

سلمة شحاترة

تلفون ٥٦٠٨٠٠٠ فاكس ٥٦٧٢٦٣١

ص.ب ٥٩١ - عمان - ١١١١٨ الأردن

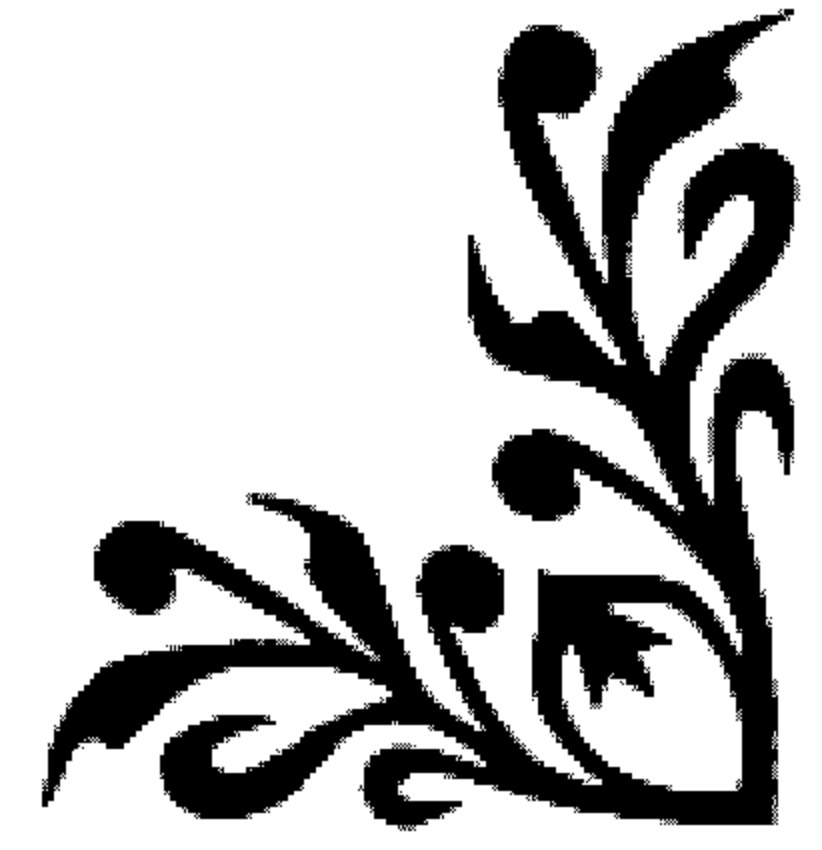


صورة الخليل الفراهيدي في التراث النقدي العربي

مكتبة جامعة باتنة

د. معمر حجيج

جامعة باتنة - الجزائر





صورة الخليل الفراهيدي في التراث النقدي العربي

د. معمر حجيج

المدخل:

إن صورة الخليل بن أحمد في التراث العربي النقدي من الصور الناصعة الأصيلة الثرية المبدعة الموسوعية حتى أصبحت هذه الصورة نفسها تجميعاً لمعارف وثقافات، وفي الحقيقة فإن مقاربة النقاد من الخليل تمثل مشهداً ثابتاً متكرراً عند أي ناقد أو مفكر له وزنه في الفكر النقدي الأدبي أو الفكر الفلسفي والديني، بل صارت مساحة نظرية الخليل النقدية المعرفية النسقية الثقافية تحضر عند المبدعين أنفسهم حين يحاولون تحديد مساحة عطائهم العلمي والإبداعي، وأصبح تجميع هذه الآراء يشكل نظرية متكاملة لسانية أسلوبية عروضية يطلق عليها النظرية الخليلية عند بعض الدارسين بروحها المنهجي العلمي المنفتح، والمتجاوز إلى تخوم معرفية أخرى، الأمر الذي يمكن أن نتلمس فيها الأساس الخليلي لما يعرف بالمنهج الثقافي؛ لأن حضور الخليل في النسق المعرفي النقدي العربي هو في جوهره تجميع لكل العلوم الأدبية وغير الأدبية، بل أكثر من هذا فإن منظومة أنساقه الدلالية المعرفية سواء ما يرجع منها إلى نظام الشعر أو الإيقاع أو النسقية في التكوين والتوليد والتحليل والجمال البلاغي اللساني لأي نوع من الخطاب، بل أصبح هذا النظام يطمح لأن يكون كونياً في تصوره وتفسيره ونظريته المعرفية الإبداعية، ويمكن لنا الإشارة إلى نظريات نقدية عربية مشهورة لم يتم تكوينها بمعزل عن النظرية الخليلية، هي نظرية التصوير الإبداعي، والائتلاف، والنظم، والتناسب، وستؤول هذه النظريات لتصبح أساساً لمناهج نقدية حديثة.

وفي الحقيقة فإن النظرية الخليلية تميزت أكثر في المكون اللساني الصوتي الإيقاعي الشعري بقابليته للتلون اللحني الموسيقي بما يختزنه من طاقة نغمية يتغير كل مرة بحسب نوع الأداء، ومن ثم فهو من الوسائل الرمزية التي يتجدد مدلولها الإيحائي في تجاذب مغناطيسي لما يموج في ذات المبدع أو المتلقي، ولما تستشرفه

من عوالم روحية جمالية متحررة من الحدود الدلالية للألفاظ التي يهيمن عليها العقل بحدود منطقته، أو الواقع برتابته في الانطلاق نحو جوهر الشعرية الحقيقية الصافية، ولا عجب إن ربط بين الشعر والموسيقى والغناء والرياضيات والفلسفة والزهد، والتصوف ومن ثم كان منطلق الموسيقى من النظام الصارم للرياضيات لينغمس في التصورات الفلسفية، ويتجنح بأجنحة الخيال ليحط في غيبوبة الوجد الزهدي والصوفي، وفي النهاية يصارع لاكتساب ديمومة وجوده في كنف الشعرية الحقيقية.

إن المكون الإيقاعي السيميائي بتصور خليلي يرجع إلى البدء حيث كان الوجود حرفاً للتهجية عن حلم، والكشف عن أسرار رمزيته حين يصبح نغماً شعرياً بعد أن كان طلسمًا سحرياً ومفتاحاً للتنجيم وهتكا لأسرار الغيب.

إن الرمزية السيميائية للإيقاع الشعري تبدأ من الحرف لتنتهي إلى سنفونية نغمية لا قرار لها غير نقل الروح من عالم الوجود الطيني إلى عالم النغم الشعري، هذه هي مجمل القضايا التي ستدور حولها المداخلة ونطمح إلى تعميقها معرفياً وجمالياً.

والصورة العامة لشخصية الخليل في التراث النقدي العربي تبدو في دوائر متداخلة ومتداولة في كل العصور بل يزداد وهجها كلما أتى عصر لاحق، وتختصر صورته في عدة دوائر منها: (دائرة السيرة الذاتية، ودائرة جهود معارفه ودائرة علوم وعقريات عصره، ودائرة ابتكاره للعروض خاصة)، وكل دائرة لها وهجها المعرفي الخاص تجتمع في الدائرة الكلية للخليل بما لها وما عليها في الإبداع والريادة العلمية، وتنتقل هذه الدائرة الكلية عبر العصور في التراث النقدي والحضاري العربي بفضل تلامذته والدارسين لجهوده العلمية، وهذه الصور تساعدنا على تشكيل دائرة نقدية كبرى نصلح عليها بنظريات الشعرية العربية الأساسية، ثم تزداد هذه الدائرة وهجا حتى تصل منتهاهما عند حازم وابن خلدون، ثم يبعث وهجها من جديد في الخطاب الحوارية الجدلي النقدي الحدائي المطعم بأحدث النظريات النقدية في مسائل الأسلوب الشعري، وبخاصة الإيقاع ومكوناته وطابعه وجمالياته في ضوء نظريات المدارس الشعرية الحديثة وبخاصة الرمزية التي غلبت المكون الشعري الإيقاعي على بقية المكونات الأخرى.

دوائر صور الخليل في التراث النقدي العربي:

١- دائرة سيرة الخليل:

تصور لنا أغلب الكتب النقدية في مختلف العصور شخصية الخليل بكونه عالما بارزا في مجالات المعرفة في عصره، بل كان رائدا في أكثر من مجال معرفي، وبخاصة في العروض وما يدور في فلكه من علوم اللغة والبلاغة والصوتيات والإيقاع والغناء، بالإضافة إلى صورة المسلم المثالي في زهده وعبادته وجهاده وسلوكه الاجتماعي، وهذه الصورة أصبحت نمطية تتكرر عند أغلب النقاد، يقول عنه الإشبيلي: "كان الخليل بن أحمد النحوي من أزهد الناس وأعلاهم نفسا وكان الملوك يقصدونه ويبدلون له الأموال فلا يقبل منها شيئا وكان يحج سنة ويغزو سنة حتى مات رحمه الله"^(١)، وقد أورد السيوطي رأي سفيان بن عيينة في الخليل فقال: "من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل بن أحمد"^(٢)، وأورد رأيا آخر للنضر بن شميل الذي يقول عنه: "كنا نميل بين ابن عون والخليل بن أحمد أيهما نقدم في الزهد والعبادة فلا ندري أيهما نقدم"^(٣)، ثم يعود فيقول عن الخليل: "ما رأيت أحدا أعلم بالسنة بعد ابن عون من الخليل بن أحمد"^(٤)... ثم يقول: "أكلت الدنيا بأدب الخليل وكتبه وهو في خص لا يشعر به"^(٥)، كما تتميز شخصيته بالوفاء والروح الإنسانية وجاء في مجمع الأمثال أن الخليل بن أحمد كان "يساير صاحبها له فانقطع شسع نعله فمشى حافيا فخلع الخليل نعله وقال من الجفاء أن لا أواسيك في الحفاء"^(٦).

كما تبدو شخصية الخليل محبة للعلم فقال فيه: "اجعل ما في كتبك رأس المال وما في قلبك للنفقة ومن أمثال التجار رأس المال أحد الربحين"^(٧).

وعلى الرغم من هذه الصورة الفطرية العفوية العبقرية المثالية التي لا يتصف بها إلا من نهل من منبع النبوة الصحيحة والثقافة الإنسانية الصافية غير أن هناك صورة مقابلة أخرى هامشية تكشف لنا عن شخصية أخرى شكاكة مغرورة متساهلة في كسب ود ومجالسة وصحبة من هو مطعون في إسلامه وعقيدته ومعروف بشعوبيته، وأورد صاحب خزانة الأدب نصا يكشف هذه الصفات يقول:

"إياك أن تثبت على صحبة أحد قبل أن تطيل اختباره فيحكى أن ابن المقفع خطب من الخليل صحبته فجأوبه إن الصحبة رقى ولا أضع رقي في يدك حتى أعرف كيف ملكتك، واستمل من عين من تعاشره وتفقد في فلتات الألسن وصفحات الأوجه ولا يحمك الحياء على السكوت عما يضرك أن لا تبينه فإن الكلام سلاح السلم وبالأنين يعرف ألم"^(٨).

وقد اهتمت أيضا كتب النقد بالكلام عن أصدقاء الخليل ومجالسه العلمية، وقد لا تتفق مع الصورة الأولى، وهذا ما ذكره أبو تمام في حماسته من: "أن عبد الله كاتب بليغ جيد الكلام فصيح العبارة له حكم وأمثال، وكان الخليل بن أحمد يحب أن يراه وكان ابن المقفع يحب ذلك أيضا فجمعهما عباد بن عباد المهلبي فتحدثا ثلاثة أيام ولياليهن فقيل لل خليل كيف رأيت عبد الله قال ما رأيت مثله وعلمه أكثر من عقله، وقيل لابن المقفع كيف رأيت الخليل قال ما رأيت مثله وعقله أكثر من علمه. قالوا وكان ابن المقفع زنديقا قال المهدي بن المنصور ما وجدت كتاب زندقة إلا أصله ابن المقفع"^(٩)، ثم يستعرض الأسماء ومن تسمى أولا حتى يصل إلى الخليل فيقول: "أول من سمي بعد النبي أحمد أبو الخليل واضع العروض ولذلك يقال فيه الخليل بن أحمد"^(١٠)، وروى صاحب الأغاني رأي أبي محمد، وهو واحد من جلسائه فقال: "صرت يوما إلى الخليل بن أحمد والمجلس غاص بأهله فقال لي ها هنا عندي فقلت أضيق عليك فقال إن الدنيا بحذافيرها تضيق عن متباغضين وإن شبرا في شبر لا يضيق عن متحابين قال: وكان الخليل لأبي محمد صافي الود"^(١١) ثم يتكلم عن الصداقة بين ابن المقفع وال خليل فيقول: "كنت ألقى الخليل بن أحمد فيقول لي أحب أن يجمع بيني وبين عبد الله بن المقفع وألقى ابن المقفع فيقول أحب أن يجمع بيني وبين الخليل بن أحمد فجمعت بينهما فمر لنا أحسن مجلس وأكثره علما ثم افترقنا فلقيت الخليل فقلت له يا أبا عبد الرحمن كيف رأيت صاحبك قال ما شئت من علم وأدب إلا أنني رأيت كلامه أكثر من علمه ثم لقيت ابن المقفع فقلت كيف رأيت صاحبك فقال ما شئت من علم وأدب إلا أن عقله أكثر من علمه ناظر الكسائي وغلبه"^(١٢)، وهذه الأخبار تتناولها الكتب النقدية المشرقية والمغربية،

وتعيد تكرارها فهذا صاحب نفع الطيب، وهو مغربي يعيد كثيرا من الصور الخاصة بسيرة الخليل ومواقفه وعلمه الشائع عند نقاد عصره^(١٣).

٢. دائرة جهوده المعرفية:

أ. رأيه في الشعراء والشعر وعلومه:

للخليل بن أحمد آراء في الشعراء وشعرهم تناقلها النقاد وبنوا عليها بعض آرائهم النقدية، بل بعض المقولات النقدية أصبحت ترد كالمبادئ النقدية العامة مثل قوله: "الشعراء أمراء الكلام، بصرفونه أنى شاءوا؛ وجائز لهم ما لا يجوز لغيرهم: من إطلاق المعنى وتقييده، ومن تصريف اللفظ وتعقيده، ومد مقصوره، وقصر ممدوده، والجمع بين لغاته، والتفريق بين صفاته.

وقال: الشعر حلية اللسان، ومدرجة البيان، ونظام الكلام، مقسوم غير محذور، ومشارك غير محصور، إلا أنه في العرب جوهرى، وفي العجم صناعى^(١٤).

ب. رأيه في حرفة الأدب والأدباء:

قال الخليل: حرفة الأدب آفة الأدباء، وفي الكتاب المبهج: حرفة الأدب حرفة، وفي غيره: حرفة الأدب حرفة ويروى لنفر من الأدباء والشعراء منهم الخليل والحموي قولهم:

ما ازددت في أدبي حرفا أسر به إلا تزيدت حرفا دونه شوم
إن المقدم في حذق بصنعتة أنى توجه منها فهو محروم^(١٥)

ونقل يعقوب بن داود هذا الحوار النقدي بينه وبين الخليل فقال: "لقيت الخليل ابن أحمد يوما بالبصرة فقال لي يا أبا عبد الله دفنا الشعر واللغة والفصاحة اليوم فقلت وكيف ذلك قال هذا حين انصرفت من جنازة رؤبة^(١٦)، وهذه العبارة النقدية ترددت حين موت الشاعر الفرنسي الكبير فيكتور هيغو فقال عنه واحد من النقاد: اليوم دفن قرن من الشعر.

وإذا كان الكشف عن أوزان الشعر يدخل ضمن التطور الحاسم للشعرية العربية فإن بعض الآراء النقدية تتخذ منه حجة للطعن الديني في قيمة الشعر

ووظيفته، وفي هذا السياق ينقل أحد المتأخرين بأن "أهل العروض مجمعون على أنه لا فرق بين صناعة العروض وصناعة الإيقاع إلا أن صناعة الإيقاع تقسيم الزمان بالنغم وصناعة العروض تقسم الزمان بالحروف المسموعة فلما كان الشعر ذا ميزان يناسب الإيقاع والإيقاع ضرب من الملاهي لم يصلح ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم" (١٧).

ج. الخليل والعلم والعلماء:

قال الخليل: "تكثر من العلم لتعرف وتقل منه لتحفظ" (١٨)، وقال أيضا: "اجعل تعليمك دراسة لعلمك واجعل مناظرة المتعلم تنبيهها لك على ما ليس عندك" (١٩). وكل العلوم الشعرية تحتاج إلى معرفة الأشكال الخطية وكيفيات النطق بها: "ويشهد لذلك ما حكى أن الخليل رحمه الله قال يوما لطلبته كيف تتطوقون بالجيم من جعفر فقالوا جيم فقال إنما نطقتم بالاسم، ولم تلفظوا بالمسؤول عنه ثم قال الجواب جه لأنه المسمى من الكتاب يريد جيما مفتوحة وإنما أتى فيها بالهاء ليتمكن الوقف عليها" (٢٠)، ومن تلامذته "عبد الله بن هارون بن السميد مولى قريش من أهل البصرة وأخذ العروض من الخليل بن أحمد فكان مقدا فيه... وكان يقول أوزانا من العروض غريبة في شعره، ثم أخذ ذلك عنه ونحا نحوه فيه رزين العروضي فأتى فيه ببدايع جمّة وجعل أكثر شعره من هذا الجنس" (٢١).

د. معرفته بأخبار الشعراء:

وتبدو هذه في قصة "مفاوضات امرئ القيس وقبائل أسد... عن أبي عبيدة قال أخبرني سيبويه النحوي أن الخليل بن أحمد أخبره قال قدم على امرئ القيس بن حجر بعد مقتل أبيه رجال من قبائل بني أسد كهول وشبان فيهم المهاجر بن خدّاش ابن عم عبيد بن الأبرص وقبيصة بن نعيم، وكان في بني أسد مقيما، وكان ذا بصيرة بمواقع الأمور وردا وإصدارا يعرف ذلك له من كان محيطا بأكناف بلده من العرب فلما علم بمكانهم أمر بإنزالهم، وتقدم بإكرامهم والإفضال عليهم، واحتجب عنهم ثلاثا فسألوا من حضرهم من رجال كندة فقال هو في شغل بإخراج ما في خزائن حجر من السلاح والعدة. فقالوا اللهم غفرا إنما قدمنا في أمر نتناسى به ذكر ما سلف،

ونستدرك به ما فرط، فليبلغ ذلك عنا فخرج عليهم في قباء وخف وعمامة سوداء وكانت العرب لا تعتم بالسواد إلا في الترات فلما نظروا إليه قاموا^(٢٢).

هـ. العروض مقياس نقدي:

إن قيمة علم العروض للخليل تحولت إلى مقياس يقيس بها الشعراء أفقهم الإبداعي، وهذا مما نفهمه مما أورده صاحب كتاب الأغاني من قول أبي العتاهية "لو شئت أن أجعل كلامي كله شعرا لفعلت... وسئل هل تعرف العروض فقال أنا أكبر من العروض وله أوزان لا تدخل في العروض"^(٢٣).

وكما اختلف الفلاسفة حول البلاغة والفلسفة أيهما أسبق لتكون له الريادة المعرفية فقد تناولوا هذه القضية بين العروض والغناء وحاولوا تحديد العلاقة بينهما، وفي هذا السياق كان أبو النضير يزعم أن الغناء على تقطيع العروض ويقول هكذا كان الذين مضوا يقولون وكان مستهزئاً بالغناء حتى تعاطى أن يغني وكان إبراهيم الموصلي يخالفه في ذلك ويقول العروض محدث والغناء قبله بزمان^(٢٤)، وجاء المتأخرون فاستفادوا من النظرية الخليلية في جعلها تفتح على مجال الغناء والألحان الأمر الذي طور أشعارهم فقال ابن بسام كان لأبي عبد الله "ديوان شعر كبير معروف وله في العروض تصنيف مشهور مزج فيه بين الألحان الموسيقية والآراء الخليلية"^(٢٥)، وسئل ابن سريج عن قول الناس فلان يصيب وفلان يخطئ وفلان يحسن وفلان يسيء فقال المصيب المحسن هو الذي يشبع الألحان ويملا الأنفاس ويعدل الأوزان ويفخم الألفاظ ويعرف الصواب ويقم الإعراب ويستوفي النغم الطوال ويحسن مقاطيع النغم القصار ويصيب أجناس الإيقاع ويختلس مواقع النبرات ويستوفي ما يشاكلها في الضرب من النقرات فعرضت ما قال على معبد فقال لو جاء في الغناء قرآن ما جاء إلا هكذا^(٢٦).

٢. دائرة عصر الخليل:

حاول الخليل بن أحمد أن يتحدى عصره، وهو عصر الرواد والعبقريات في مختلف مجالات المعرفة فأقدم على خوض تجارب معرفية رائدة، في العروض والإيقاع والنغم والبلاغة والنحو واللغة والتفسير والحديث بالإضافة إلى تجارب في

الإبداع الشعري والأدبي جعلت منه ظاهرة متفردة في عصره، وفي كل العصور الأمر الذي أكسبه موقعا في تاريخ المعارف العربية المليئة بالتحدي، وبخاصة في اتجاهه إلى الكشف عن أشكال معرفية لصيقة بالشخصية الحضارية العربية العريقة الدائرة في شعريته وبلاغته ولسانه بمنظار جديد يتجاوز الركون إلى الذوق العربي الذي كان يآلف الممارسة الفطرية الفعلية ليحولها إلى نغم متخيل بوزن وإيقاع في مستوى الأبيات والمزج بين اللغة وأدائها، والتفريد بنظام قافوي، وكانت هذه الأشكال ومضات دلالية إيحائية لأنغام بأنساق جرسية مشحونة بالتجربة النفسية الفنية المتكاملة التي تجعل منها معادلا موضوعيا استعاريا ذوقيا للوجداني العربي.

هذه المعرفة العروضية اللسانية الصوتية الخطية تمثل البنية الإيقاعية الشعرية بذهنية خيالية مخالفة لمنطق الذوق العام غير العلمي، كما حاول تجذير ذلك بدوائر هندسية أساسها الأنساق الصوتية الموقعية الفضائية، ويكون بطلها الحرف المتحرك والساكن الذي هو مكن أسرار الشعرية في حضان الألفاظ، وهكذا يكون قد اختار الوسطية بين الحرف الطلسم الصرف في عالم الشعرية الذي لا يصلنا منه غير أصداء ترن في آذاننا فنستعذبها أنغاما، وبين الثانية بمنطقها العلمي الرياضي الذي يزن بميزان الذهب، وكان بهذا التصور رائدا في استيعاب ما يسمى مبادئ اللسانيات الحديثة في الفونولوجية.

وقد حاولنا تجميع هذه الملامح المعبرة عن شخصية الخليل وعصره، التي جاءت في شكل إشارات مقتضبة في مجموعة من الكتب النقدية المعروفة أو بعض المصادر التي يغلب عليها صفة النقد ومنها: البيان والتبيين للجاحظ وبعض رسائله وطبقات ابن سلام وديوان الحماسة ومقدمتها ونقد الشعر لقدامة بن جعفر والأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، وعيار الشعر لابن طباطبا، والعمدة لابن رشيق ومنهاج البلغاء لحازم وخرانة الأدب لتقي الدين الحموي والمثل السائر لضياء الدين الموصلي ومقدمة ابن خلدون، والمستطرف في كل فن مستظرف لشهاب الدين الإشبيلي، وصبح الأعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندي، وبعض المصادر اللغوية الأخرى التي اقتبست من الكتب النقدية مثل المزهرة للسيوطي.

وقدم لنا الجاحظ في رسائله صورتين عن الخليل تبدوان متناقضتين من جهة ومتكاملتين من جهة أخرى، ففي الرسالة الأولى التي عقدها حول "ما بين العداوة والحسد" وفيها يستعرض الجاحظ بأسلوبه المعهود المبني على المنطق الكلامي، وملاحظة الوقائع بدقة أوجه الحسد وأسباب العداوة بين الناس ويصنّفه تصنيفاً سلمياً قيماً تدرجياً نفسياً، اجتماعياً، سياسياً، وبخاصة بين العلماء والمؤلفين للكتب في شتى الفنون والمعارف والعلوم، وينتقل بعد ذلك إلى صورة شخصية الخليل في سياق مجموعة من الشخصيات العلمية المعروفة التي يستظل بوهجهم المعرفي الخصب كثير من نوي الطموح العلمي قصد الشهرة بانتحال أفكارهم وعلمهم أو بالاختفاء وراء أسمائهم بما وجود به عطاؤهم العلمي في السياق العام الذي يطبع الحياة الفكرية والأدبية والثقافية زمن الجاحظ، وطرق الاغتصاب كثيرة منها الطعن بغير علم أو حق في صحة المعرفة العلمية، أو الطعن في العمل العلمي لدى السلطة التي كلفت بإنجازه، أو تأليف كتب ونسبها إلى هؤلاء العلماء الذين ترسخ علمهم وأصبحوا محل ثقة في كل العصور، وفي هذا السياق تأتي صورة الخليل يقول بلسان هؤلاء المنتحلين لعلم غيرهم: "وربما ألفت الكتاب الذي دونه في معانيه وألفاظه، فأترجمه باسم غيري، وأحيله على من تقدمني عصره مثل ابن المقفع والخليل، وسلم صاحب بيت الحكمة، ويحي بن خالد والعتابي، ومن أشبه هؤلاء من مؤلفي الكتب.." (٢٧).

ويجمع في الصورة الثانية بين ابن المقفع والخليل في رسالة المعلمين، وهذا الجمع له ما يبرره، يقول عن الخليل ويتخذ منه صورة بيداغوجية يستفيد منها كل عالم في عدم اعتقاده النجاح والبروز في أي معرفة كانت إذا كان قد نجح في ابتكار حقل معرفي لم يسبق إليه، وهذا السبق قد يؤدي بصاحبه إلى نوع من الغرور يقول الجاحظ: "قد يكون الرجل يحسن الصنف والصنفين من العلم، فيظن بنفسه عند ذلك أنه لا يحمل عقله على شيء إلا نفذ به فيه، كالذي اعترى الخليل ابن أحمد بعد إحساسه في النحو والعروض، أن ادعى العلم بالكلام وبأوزان الأغاني، فخرج من الجهل إلى مقدار لا يبلغه أحد إلا بخذلان الله تعالى. فلا حرمانا الله تعالى عصمته، ولا ابتلانا بخذلانه" (٢٨).

إن صورة الخليل تأتي ضمن مسار بعض العلوم بكونه حلقة أساسية في صيرورته على غرار الأخبار المعروفة التي تروى عن ظهور علم النحو بأن أبا الأسود وضع شيئاً .. ثم جاء بعده ميمون الأقرن فزاد عليه ثم جاء بعده عنبسة ابن معدان المهري فزاد عليه ثم جاء بعده عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي وأبو عمرو بن العلاء فزادا عليه ثم جاء بعدهما الخليل بن أحمد الأزدي وتتابع الناس واختلف البصريون والكوفيون في بعض ذلك فهذا ما بلغني من أمر النحو في أول وضعه وكذلك العلوم كلها يوضع منها في مبادئ أمرها شيء يسير ثم يزد بالتدريج إلى أن يستكمل آخرها^(٢٩)، كما ذكر أحد النقاد رواد كل علم في الطب والنحو وعلم الكلام والنجوم وغريب القرآن والفقهاء حتى الوصول إلى الخليل فيقول عنه: "أول من عمل العروض الخليل بن أحمد وهو أول من صنف اللغة مرتبة على حروف المعجم صنف كتابه العين"^(٣٠).

وصورة الخليل وعصره أصبحت مجالاً بلاغياً لوصف أحوال العصور العلمية، وهكذا يصف صاحب نفع الطيب علماء عصره فلم يجد أحسن من تشبيههم بعصر الخليل وسيبويه يقول: "إنهم في هذا العصر كأصحاب عصر الخليل وسيبويه"^(٣١).

٤. دائرة المبتكر للعروض والقافية:

يتساءل كايزر عن ماهية الإيقاع؟ ويرى أن هذا يُعدّ: "من أعقد الأسئلة، التي اختلفت الآراء حولها. وليست في الأدب فقط، فالموسيقى تتحدث عن الإيقاع أيضاً، وتتحدث عنه أيضاً فنون وعلوم أخرى، وشارك في النقاش الفلاسفة وعلماء النفس وعلماء الطبيعة وحتى رجال السياسة، وقد تحدث أفلاطون بصفته رجل دولة عن إيقاعات معينة أراد أن يبعتها عن دولته، ولسنا في حاجة هنا إلى تتبع المناقشات المتعلقة بمشكلات الإيقاع منذ اليونان حتى أعماقها الفلسفية الأخيرة، ولسنا في حاجة إلى أن نحكم، ما إذا كان الإيقاع ظاهرة طبيعية مع الإشارة في أثناء ذلك إلى تلاطم الأمواج، وزمجرة الرياح، وهزيم الرعد إلى آخره، أم أنه يشكل على العكس من ذلك خصيصة إنسانية مميزة مقدرة عقلية... الإيقاع مرتبط بالزمن بصفته أبعد

أفق وهذا الرأي، الذي يمثله اليوناني أرسطو كسينوس الترنتي لا نزاع فيه والإيقاع يحتاج، لكي يكون حيويًا ملموسًا، إلى قاعدة حسية تنتهي في الزمن واستقبال الإيقاع" (٣٢).

ولا شك بأن دراسة أي مجال علمي كالإيقاع له بداياته وتطوره والصورة التي انتهى إليها، وهذه الريادة وتكرارها في الخطاب النقدي لها دلالة قيمة ومعرفية فكيف جاءت في هذا الخطاب النقدي حين تعرضها لرأي الخليل أو علمه وفي هذه الحالة تتسم بهيمنة المعرفي عن النقدي والتاريخي عن الجمالي، ومن النقاد الذين ذكروا الخليل بهذه الكيفية الجاحظ الذي تناوله في فصل من صدر كتابه في طبقات المغنين، ويرى فيه أن الفلاسفة المتقدمين حددوا أصول الآداب وما يتفرع عنها من علوم مثل: علم النجوم أو ما يعرف اليوم بعلم الفلك وعلم الكيمياء والطب، وعلم اللحون، وفي هذا الأخير تظهر شخصية الخليل الفذة يقول: "ومنها اللحون ومعرفة أجزائها وقسمها، ومقاطعها ومخارجها ووزنها، حتى يستوي على الإيقاع ويدخل في الوتر وغير ذلك مما اقتصرنا من ذكره على أسمائه وجمله، اجتنابًا للتطويل، وتوخيا للاختصار. وقصدنا للأمر الذي إليه انتهينا، وأياه أردنا. والله الموفق وهو المستعان" (٣٣).

ولم يزل أهل كل علم فيما خلا من الأزمنة يركبون منهاجه، ويسلكون طريقه، ويعرفون غامضه، ويسهلون سبيل المعرفة بدلائله، خلا الغناء، فإنهم لم يكونوا عرفوا علله وأسبابه ووزنه وتصاريفه، وكان عملهم به على الهاجس وعلى ما يسمعون من الفارسية والهندية إلى أن نظر الخليل البصري في الشعر ووزنه، ومخارج ألفاظه، وميز ما قالت العرب منه، وجمعه وألفه، ووضع فيه الكتاب الذي سماه العروض، وذلك أنه عرض جميع ما روي من الشعر وما كان به عالما، على الأصول التي رسمها، والعلل التي بينها، فلم يجد أحدا من العرب خرج منها، ولا دونها. فلما أحكم وبلغ منه ما بلغ، أخذ في تفسير النغم واللحون، فاستدرك منه شيئا، ورسم له رسما احتذى عليه من خلفه، واستتمه من عني به.

وكان إسحاق بن إبراهيم الموصللي أول من حذا حذوه، وامتلأ هديه، واجتمعت

له في ذلك آلات لم تجتمع للخليل بن أحمد قبله، منها معرفته بالغناء، وكثرة استماعه إياه وعلمه بحسنه من قبيحه، وصحيحه من سقيم^(٣٤).

ويتكرر ذكر الخليل عند ابن سلام إما بالتصريح الاسمى أو في سياق القضايا النقدية، وهكذا فقد ذكر ابن سلام في طبقات فحول الشعراء الخليل ثلاث مرات سواء بالتصريح باسمه أو تفهم من خلال طرح بعض القضايا النقدية التي ترجع إلى علوم الأدب وعلمائه من النحاة واللغويين والنقاد وخص سيبويه بعلم النحو والخليل بعلم العروض فقال عنه: "كان الخليل بن أحمد وهو رجل من الأزدي من فراهيد... استخرج من العروض واستبطن منه ومن علله ما لم يستخرج أحد ولم يسبقه إلى مثله سابق من العلماء كلهم"^(٣٥)، كما جاء الخليل عند ذكره لعيوب القافية، واستشهد بقصة النابغة المعروفة مع المغنية^(٣٦)، كما تحضر صورة الخليل عند تعداده لعيوب القافية بلسان علماء عاصروه أو تتلمذوا عليه أو جاعوا بعده ثم يعدد ذلك بقوله: "عيوب الشعر أربعة الزحاف والسناد والإقواء والإيطاء والإكفاء وهو الإقواء والزحاف أهونها وهو أن ينقص الجزء عن سائر الأجزاء فينكره السمع وينقل على اللسان وهو في ذلك جائز والأجزاء مختلفة فمنها ما نقصانه أخفى ومنها ما نقصانه أشنع قال الهذلي:

لعلك إما أم عمرو تبدلت سواك خليلا شامي تستخيرها

فهذا مزاحف في كاف سواك وهو خفي ومن أنشده:

لعلك إما أم عمرو تبدلت خليلا سواك شامي تستخيرها

فهذا أفظع وهو جائز"^(٣٧).

"والإقواء هو الإكفاء مهموز وهو أن يختلف إعراب القوافي فتكون قافية مرفوعة وأخرى مخفوضة أو منصوبة وهو في شعر الأعراب كثير ودون الفحول من الشعراء ولا يجوز لمولد لأنهم قد عرفوا عيبه والبدوي لا يابيه له فهو أعذر فقلت ليونس أكان عبيد الله بن الحر يقوي قال الإقواء خير منه يعني من فوقه من الشعراء يقوي غير أن الفحول قد استجازوا في موضع نحو قول جرير:

عرين من عرينة ليس منا برئت إلى عرينة من عرين
عرفنا جعفرًا وبنى عبيد وأنكرنا زعانف آخرين^(٣٨)

وقلت لخلف من يقول:

إذا كنت في حاجة مرسلا فأرسل حكيمًا ولا توصه

قال يقال للزبير بن عبد المطلب فقلت فالخليل يقول هذا خطأ في بناء

القوافي حين يقول:

وإن باب أمر عليك التوى فشاور لبيا ولا تعصه

لقوله ولا توصه كان يقول لا يتفق هذا فقال خلف أخطأ الخليل نراها

جائزة^(٣٩).

"وجاء من المضارع وهو بحر قليل الاستعمال جدا، ومنهم من لم يعده بحرا ولا^(٤٠) جاء فيه شعر معروف وقيل إنه لم يسمع من العرب، وقال أبو العباس العتابي في كتابه المسمى بنزهة الأبصار في أوزان الأشعار: إن الخليل جعله جنسا وأحسبه قاسه، وما أدري ما روي في كتب العروض أمصنوع هو أم مسموع من العرب انتهى كلام العتابي^(٤١)."

جدوى علم العروض في الإبداع والتقد:

تجعلنا هذه الحكاية عن الخليل أمام إشكالية دور علم العروض في الإبداع الشعري والنقدي فقد "حكى أن الخليل بن أحمد مع تقدمه في اللغة ومهارته في العربية واختراعه علم العروض الذي هو ميزان شعر العرب لم يكن يتهاى له تأليف الألفاظ السهلة لديه الحاصلة المعاني في نفسه على صورة النظم إلا بصعوبة ومشقة وكان إذا سئل عن سبب إعراضه عن نظم الشعر يقول ياباني جیده وأبی رديئه مشيرا بذلك إلى أن طبعه غير مساعد له على التأليف المرضي الذي تحسن نسبه إلى مثله^(٤٢)."

وتعد هذه القضية من أهم القضايا النقدية التي اهتم بها النقاد وكان مدارها علم العروض للخليل، ومن ثم تبدو صورة شخصية الخليل في أول عمل نقدي

منهجي في تاريخ الأدب العربي، ويبدو هذا في كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر ومن مقدمة الكتاب يأخذ حيزاً مهماً بحسب تقسيم قدامة للعلوم التي لها علاقة بالأدب ويحصرها في علم العروض ووزنه، وعلم القوافي ومقاطعته وعلم غريبه ولغته، وعلم معانيه والمقصد منه وعلم جيد الشعر من رديئه، ويرى العناية بالأقسام الأربعة الأولى لا فائدة منها لا في الإبداع الشعري ولا في نقده والمهم عنده القسم الأخير الذي يميز به بين جيد الشعر ورديئه، ونعتقد أن مجهود الخليل العلمي مرتبط بهذه الأقسام الأربعة التي تمثل ما يعرف بالمستويات الأسلوبية الشعرية ومكوناتها: النظام الوزني القافوي الإيقاعي، والنظام التركيبي النحوي، ونظام معجمه اللغوي ومستوياته والنظام الدلالي، وينكر فائدتها جملة وتفصيلاً ونقف عند الوزن والقوافي التي يقول عنهما: «وإن خصا بالشعر وحده فليست الضرورة داعية إليهما لسهولة وجودهما في طباع أكثر الناس من غير تعلم ومما يدل على ذلك أن جميع الشعر الجيد المستشهد به إنما هو لمن كان قبل وضع الكتب في العروض والقوافي، ولو كانت الضرورة إلى ذلك داعية لكان جميع هذا الشعر فاسداً أو أكثره؛ ثم ما نرى أيضاً من استغناء الناس عن هذا العلم بعد واضعيه إلى هذه الوقت فإن من يعلمه ومن لا يعلمه ليس يعول في شعر إذا أراد قوله إلا على ذوقه دون الرجوع إليه فلا يتأكد عند الذي يعلمه صحة ذوق ما تراخف منه بأن يعرض عليه، فكل هذا العلم مما يقال فيه إن الجهل به غير ضائر وما كانت هذه حاله فليست تدعو إليه ضرورة.

فأما علم جيد الشعر من رديئه فإن الناس يخطون في ذلك منذ تفقهوا في العلوم، فقليلاً ما يصيبون، ولما وجدت الأمر على ذلك، وتبينت أن الكلام في هذا الأمر أخص بالشعر من سائر الأسباب الأخرى، وأن الناس قد قصرُوا في وضع كتاب فيه، رأيت أن أتكلم في ذلك بما يبلغه الوسع»^(٤٣).

ولكنه بعد هذا الإنكار لأهمية العلوم السابقة ينتقل إلى حد الشعر ولم يستطع أن يتجاوز ما استخف به من وزن وقافية ومعنى ولغة، وهذه العناصر الأربعة لا يمكن الإمام بها دون الإمام بعلمها.

ويتكرر هذا التهوين من دور علمي العروض والقافية في الإبداع الشعري ونقده، ومن ثم يتكلم صاحب البرهان في وجوه البيان الذي نسب خطأ إلى قدامة بن جعفر عن الاختراع اللغوي، وفي خضم ذلك يذكر اختراع الخليل بن أحمد للعروض ومصطلحاته يقول: "وأما الاختراع فهو ما اخترعت له العرب اسما لم تكن تعرفه... وأخرج الخليل ألقاب العروض، فسمى بعض ذلك الطويل وبعضه المديد، وبعضه الهزج، وبعضه الرجز، وقد ذكر أرسطوطاليس ذلك وقال: إنه مطلق لكل أحد احتاج إلى تسمية شيء ليعرف به أن يسميه بما شاء من الأسماء" (٤٤).

ويتكلم صاحب البرهان عن ماهية أسلوب الشعر، وما يتميز به عن النثر وبخاصة في الجوازات اللغوية النحوية التي لها علاقة بالبنية العروضية فيقول: "فأما عذرهم الشاعر في التقصير واغتفارهم له العيوب، فقد جوزوا له من قصر الممدود، وحذف الحركة، وتخفيف الهمزة، وصرف ما لا ينصرف، ما لم يجيزوه للمتكلم، فأجازوا له في الوزن استعمال الزحاف والتخرم في القافية والإكفاء والإقواء والسناد والإيطاء والتضمين. وكل ذلك عيوب وهي على من استعمل البديهة وقال الشعر على الهاجس والسجية أقل عيبا منها على استعمال الروية والتفكير، وكرر النظر والتدبير؛ وقد ذكر الخليل وغيره في أوزان الشعر وقوافيه ما يغني من نظر فيه ويغنينا عن تكلف شرح ذلك إذ كنا نرى أن تكلف ما قد فرغ منه عناء لا فائدة فيه، إلا أنا نذكر جملة من ذلك في باب استخراج المعنى تدعو الضرورات إلى ذكر ما فيه إن شاء الله" (٤٥).

ويقدم ابن رشيق صورة عن الخليل بن أحمد وبخاصة في كل ما يتعلق بالبنية الإيقاعية الموسيقية في كتابه العمدة في صناعة الشعر ونقده يقول: إن "اللفظ إذا كان منشورا تبدد في الأسماع وتدرج في الطباع ولم يستقر منه إلا المفرطة في اللطف فإذا أخذه سلك الوزن وعقد القافية تألفت أشناته وازدوجت فرائده وأمن السرقة والغصب وقد أجمع الناس على أن المنشور في كلامهم أكثر وأقل جيدا محفوظا وأن الشعر أقل وأكثر جيدا محفوظا لأن في أدناه من زينة الوزن والقافية ما يقارب به جيد المنشور... فإن احتج أحد على تفضيل النثر على الشعر بأن

القرآن منثور وقد قال تعالى وما علمناه الشعر وما ينبغي له قيل له إن الله بعث رسوله آية وحجة على الخلق وجعل كتابه منثورا ليكون أظهر برهانا بفضله على الشعر الذي من عادة صاحبه أن يكون قادرا على ما يحب من الكلام وتحدى جميع الناس من شاعر وغيره^(٤٦).

وفي باب اختيار المعجم الأدبي لمتون الخطابة والشعر والرسائل والمعارف العلمية والفكرية يكشف ابن وهب الكاتب عما يمكن تسميته بلغة أسلوبية السجلات التي ترى لكل مجال أدبي أو معرفي له لغة أسلوبية الخاصة به ومن ثم كان ازدهار مجالات الأساليب وتنوعها في العصر العباسي لكثرة مجالات المعرفة والكلام والجدل والخطابة والشعر ومنها اللغة المصطلحية المفهومية الطارئة في القاموس التداولي العربي وبخاصة عند المتكلمين وأساليب جدلهم، والتي جلبوها من قراءاتهم الفلسفية يذكر مثلا من الألفاظ الشائعة عندهم الكيفية والكمية والمائية والكمون والتولد والجزء والطفرة وأشباه ذلك، وهذا خلق انشقاقا لسانيا وهوة تواصلية جديدة لم تعرفها الحياة الثقافية العربية من قبل الأمر الذي قسم المجتمع إلى طوائف جغرافية لسانية اجتماعية طائفة العوام والطغام وطائفة الفقهاء وطائفة اللغويين وطائفة المتكلمين والمتفلسفين.

وقد ارتبط الجديد من المفاهيم بالطائفة الأخيرة التي تعرف جفوة كبرى تصل إلى القطيعة العقائدية بينها وبين بقية الطوائف الأخرى، وعلى الرغم من زهد الخليل وصفاء عقيدته ورسوخ إيمانه فإنه لم يسلم من الريب في عقيدته ورميه بالزندقة لاشتغاله بمجال معرفي جديد يستلزم منظومة مفاهيم ومصطلحات جديدة، وهذا ما يفهم من هذا الخبر الذي أورده صاحب البرهان أو نقد النثر بقوله: "إن الطغام والعوام، ومن علم له بالكلام إذا سمعوا ألفاظا لم يعهدوها، ولم يقفوا على معانيها ربما اعتقدوا في قائلها الكفر، واستحلوا دمه، ولذلك شهد بعض سفلة العوام على الخليل وأصحابه بالزندقة لما سمعهم يذكرون أجناس العروض، ويقطعون الشعر، فورد عليه من ذلك ما لم يفهمه، فظن أنه زندقة، حتى قال الخليل فيه:

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت تعلم ما تقول عذلتكا

لكن جهلت مقالتي فعذلتني وعلمت أنك جاهل فعذرتك»^(٤٧)

و- حدود البيان والجمال وعلومهما:

جاء في المثل السائر عن البيان والجمال وعلومهما، وكان عروض الخليل الجوهرة الوسطى لهما يقول ابن الأثير: "من أجل ذلك قيل شيان لا نهاية لهما البيان والجمال وعلى هذا فإذا ركب الله تعالى في الإنسان طبعاً قابلاً لهذا الفن فيفتقر حينئذ إلى ثمانية أنواع من الآلات"^(٤٨) النوع الأول معرفة علم العربية من النحو والتصريف النوع الثاني معرفة ما يحتاج إليه من اللغة وهو المتداول المؤلف استعماله في فصيح الكلام غير الوحشي الغريب ولا المستكره المعيب النوع الثالث معرفة أمثال العرب وأيامهم ومعرفة الوقائع... النوع الرابع الاطلاع على تأليفات من تقدمه من أرباب هذه الصناعة المنظومة منه والمنثورة والتحفظ للكثير منه النوع الخامس معرفة الأحكام السلطانية الإمامة والإمارة والقضاء والحسبة وغير ذلك النوع السادس حفظ القرآن الكريم والتدرب باستعماله وإدراجه في مطاوي كلامه النوع السابع حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار الواردة عن النبي والسلوك بها مسلك القرآن الكريم في الاستعمال النوع الثامن وهو مختص بالناظم دون النثر وذلك علم العروض والقوافي الذي يقام به ميزان الشعر.. وما يجوز فيه من الزحاف وما لا يجوز فإن الشاعر محتاج إليه ولسنا نوجب عليه المعرفة بذلك لينظم بعلمه فإن النظم مبني على الذوق ولو نظم بتقطيع الأفاعيل لجاء شعره متكلفاً غير مرضي وإنما أريد للشاعر معرفة العروض لأن الذوق قد ينبو"^(٤٩) عن بعض الزحافات ويكون ذلك جائزاً في العروض وقد ورد للعرب مثله فإذا كان الشاعر غير عالم به لم يفرق بين ما يجوز من ذلك وما لا يجوز وكذلك أيضاً يحتاج الشاعر إلى العلم بالقوافي والحركات ليعلم الروي والردف وما يصح من ذلك وما لا يصح، فإذا أكمل صاحب هذه الصناعة معرفة هذه الآلات وكان ذا طبع مجيب وقريحة مواتية فعليه بالنظر في كتابنا هذا والتصفح لما أودعناه من حقائق علم البيان ونبهنا عليه من أصول ذلك وفروعه على أن الذي ذكرناه من هذه الآلات الثماني هو كالأصل لما يحتاج إليه الخطيب والشاعر ومعرفة ضرورية لا بد منها"^(٥٠).

ز. من نقد جزني إلى فلسفة جمالية:

ويبدو هذا في نصين نقديين مكررين عند ابن سلام وقدامة بن جعفر، ومؤداه أن الخروج أو الانزياح القليل في البنية الإيقاعية أو غيرها تزيد الشعر جمالا، والكثرة تنقلنا إلى الطرف المقابل القبح الكلي الذي ينزع أي جمال عن الشعر، ويعتمد ابن سلام في حكمه ودرجة استحسانه أو استهجانته على هذه النظرية الشعرية الجمالية الفلسفية من خلال بيت شعري دخله زحاف فأثار جدلا نقديا فيقول: "مزاحف خفي ومن قال لأدين أو لغص بالماء شاربهُ فهو أفضع، وهو أكثر من أن يعد وكان الخليل بن أحمد يستحسنه في الشعر إذا قل في البيت والبيتين فإذا توالى وكثر في القصيدة سمج، فإن قيل كيف يستحسن منه شيء وقد قيل هو عيب قال يكون هذا مثل القبل والحول واللتغ في الجارية قد يشتهي القليل منه الخفيف وهو إن كثر عند رجل في جوار أو اشتد في جارية هجن وسمج والوضح في الخيل يستطرف ويشتهي خفيفه مثل الغرة والتحجيل فإذا كثر وفشا كانت هجنة ووهنا وخفيف البلق يحتمل في الخيل ولم أر أبلق قط ولم أسمع به سابقا"^(٥١) هذه بعض النماذج النقدية التي جاءت في طبقات الشعراء وكان الخليل بن أحمد محورها.

وقدامة بن جعفر من النقاد المشهورين والمعروفين والرواد في كثير من القضايا النقدية الذين استشهدوا بأقوال الخليل وآرائه في مسائل نقدية تخص بعض القواعد النصية وعلاقتها بالقواعد اللغوية وهذا نص نقدي اعتمد فيه على رأي الخليل في تحديد بعض صور عيوب القافية، ويكرر ما قاله ابن سلام ليؤكد تلك الفلسفة الجمالية التي تتأسس على مبدأ الندرة والقلّة فيقول: "قال خالد ابن أخي أبي ذؤيب الهذلي والصحيح كما أشار محقق الكتاب خالد بن زهير وأبو ذؤيب خاله:

لعلك إما أم عمرو تبدلت سواك خليلا شامي تستخيرها

فهذا مزاحف في كاف سواك ومن أنشد خليلا سواك كان أشنع. قال كان الخليل بن أحمد رحمه الله يستحسنه في الشعر إذا قيل منه البيت والبيتان فإذا توالى وكثر في القصيدة سمج، قال إسحاق فإن قيل كيف يستحسن وعيب قلنا قد يكون مثل الحول واللتغ في الجارية يشتهي القليل منه الخفيف فإن كثر هجن وسمج والواضح

في الخيل يستظرف خفيفة الغرة والتجليل فإذا فشا وكثر كانت هجنة ووهنا قال وخفيف البلق يحتمل ولم أر أبلق سابقا ولم أسمع به^(٥٢)، وقدامة يعيد ما قاله ابن سلام، وهذا التكرار أو النقل الحرفي كثير في الخطاب النقدي العربي القديم.

ص. مسائل بلاغية لغوية:

ونكر صاحب خزانة الأدب تحديد الخليل لبعض المصطلحات البلاغية مثل الطباق، قال الأصمعي المطابقة أصلها وضع الرجل موضع اليد في مشي نوات الأربع وقال الخليل بن أحمد يقال طبقت بين الشينين إذا جمعت بينهما على حد واحد^(٥٣). وقد تقرر أن المطابقة الجمع بين الضدين عند غالب الناس سواء كانت من اسمين أو من فعلين أو غير ذلك، قال الأخفش وقد سئل عنها: أجد قوما يختلفون فيها فطائفة وهم الأكثر يرون أنها الشيء وضده وطائفة يزعمون أنها اشتراك المعنيين في لفظ واحد.

وقال الأخفش من قال إن المطابقة اشتراك المعنيين في لفظ واحد فقد خالف الخليل والأصمعي، فقيل أو كانا يعرفان ذلك فقال: سبحان الله من أعلم منهما بطيبه وخبيثه وما أحسن ما أتى الأخفش في الجواب بالمطابقة...^(٥٤).

الخليل ونظريات الشعرية العربية في التراث النقدي:

نحاول استعراض حقيقة النظرية الإيقاعية الشعرية العروضية وبعض النظريات النقدية أو ما شبهها في التراث النقدي العربي التي دار في محيطها المعرفي، وأهمها نظرية الائتلاف ونظرية النظم ونظرية التماسك ونظرية البنية الخلدونية ونظرية الانسجام.

١. النظرية الجمالية الإيقاعية الشعرية الخليلية:

يمكن التمييز بين ثلاثة مستويات متداخلة في الشعر، وفي هذا التمييز يصبح في إمكان أي دارس تجلية القوانين العامة المتحركة في العمليات الإبداعية في بنيات الشعر وأساليبه؛ وهذه الثلاثة الكلية عند اندماجها تصبح كائنا يختلف عن المكونات بصفة جزئية أو بصفة تجميعية، لأنه يتشكل بمنطق خاص به لا بمنطق

أي مستوى من هذه المستويات اللسانية أو العروضية. كما أن "الوظيفة الشعرية تسقط مبدأ التماثل لمحور الاختيار على محور التأليف، ويرفع إلى مرتبة الوسيلة المكونة للمتواليبة: "كما يقول ياكبسون (R. Jakobson^(٥٥))، ويخضع هذان المحوران في الإبداع الشعري لمحور ثالث: هو المحور العروضي؛ وتتشكل البنية الأساسية الموسيقية للنص الشعري العربي من هذه المتواليات الإيقاعية (وحدات الأوزان الصغرى والكبرى)، وقوالب القافية، والموازنات الصوتية ضمن علاقات الائتلاف والاختلاف، ولم يغب هذا التصور عن القدامى، ويظهر ذلك في مفاهيم الائتلاف^(٥٦) عند قدامة، والتناسب^(٥٧) عند حازم، ومعايير عمود الشعر عند المرزوقي^(٥٨)، ونظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني^(٥٩)، وهذه الجهود مكنتهم من التمييز بين مختلف المستويات في قواعد نظم الشعر، واكتشاف النظام الدوري الصوتي من خلال علم العروض، وهذا الاكتشاف له أهميته، ولعل النقد الحديث ينطلق من هذه الدورية ليعمق فهمه للشعر، لكن نقدنا القديم لم يستطع بلورة هذه المكونات الأساسية للشعرية العربية بشكل كامل وواضح في نظريات عامة تكشف عن جوهر العلاقات بين هذه المستويات التي تميز الشعر عما عداه؛ غير أن النقد الحديث يوسع ميدان نظريته للدائرية فهو يرى بأن "كل وزن دائري" في مواجهة النثر الذي هو "امتدادي" في وزنه ويدور دائما حول نفسه، وقدم جيرارد هو بكنس Gerard Hopkins هذا التعريف للوزن الذي أخذه ياكبسون... وتبنى هذه الدائرية على عناصر صوتية تتغير من لغة إلى أخرى^(٦٠).

أما إشكالية الهيمنة بين هذه المستويات فيكاد يتفق أغلب المنظرين على أن الغلبة دائما للوزن إن وجد صراع بين هذه المستويات في الشعر، وبخاصة في القصيدة العربية القديمة، يقول جون كوهين: "إن البحر دائما هو الذي ينتصر وينبغي أن تخضع الجملة لمتطلباته"^(٦١).

أ. الأنظمة الإيقاعية والنظام الخليلي:

وعلى العموم فإن الدراسة الأسلوبية للبنية العروضية للشعر العربي في نشأته، وما تلاها من عصور تقتضي بعض الملاحظات منها:

١- إن الدراسة الأسلوبية الدقيقة والمقنعة والملائمة للبنية العروضية للشعر العربي ونظامها اللساني تتوخى النظرية الكمية الخليلية، وهذا لا يمنع من الاستئناس بالنظريات الصوتية في المقاطع والنبر أو الارتكاز والتنغيم إن كان ذلك ضروريا لتفسير بعض الجوانب الأسلوبية الصوتية، ويمكن بفضلها تعميق النظرية الخليلية أو توسيعها، لأن النظرية الخليلية كما يرى بعض الباحثين استطاعت أن تصل إلى بناء نموذج بإمكانه وصف البنية العروضية للشعر العربي، وكل المحاولات الأخرى التي اتجهت إلى بناء العروض على أساس نبري أو مقطعي لم تفلح لأن افتراضاتها مبنية على أسس خرافية، وهذا يعود إلى "أن اللغة العربية ليست نبرية، ثم إن النبر وإن ارتبط بالكلمات فالكلمات لا تثبت في موقع من البيت، وإن ارتبط بالتفعيلات فإن النبر يكون في هذه الحالة خاصا بالأداء وليس باللغة"^(٦٢).

وهذا شيء طبيعي فإن قواعد العروض لا يمكن أن تكون شيئا آخر مناقضا لخصائص تلك اللغة الصوتية، وتحليل هذا المستوى يحتاج "إلى معلومات نحوية وصرفية. فالنبر في الإسبانية يحتاج إلى معرفة الأزمنة، وفي الإنجليزية إلى معرفة المقولات النحوية. ويحتاج أيضا التحليل الصوتي إلى معرفة الحدود بين الوحدات"^(٦٣)، ويحتاج العروض العربي إلى معرفة القواعد النحوية والصرفية والفنولوجية والخطية، وهذا الاختلاف بين اللغات في أسسها الصوتية يجعلها تختلف أيضا في أسسها العروضية.

كما يمكن فهم المكون الموسيقي في الشعر بوصفه تجاوزا للاستعمال الغري للغة، ومن ثم تصبح الألفاظ تتضمن دلالة إضافية تقوي الدلالة الصرفية، والنحوية، وبهذه الدلالة النوعية تصير البنية اللغوية العروضية كلها سياقاً أصغر حاضراً في حالة التجاوز الكلي للبنية اللغوية النثرية الغائبة التي تشكل السياق الأكبر بحسب مفهوم ريفاتير (M.Riffaterre)، والذي كان مجالاً للشك في تطبيقه على عناصر الإيقاع المعقدة بالوزن أو ذات المواقع الثابتة: (الوزن والقافية) لكونهما أنساقاً مكررة تفتقد إلى عنصر الغرابة والإثارة اللتين ينشأ بمقتضاهما السياق الأصغر، وهذا الفهم يمكن له أن يساعد على تجاوز بعض الصعوبات التي تواجه هذه

النظرية. يقول بليث: "... إن تحديد السياق الأصغر ثم الأكبر يظل مثيراً للجدل. ثم إننا لا نتبين كيف نستطيع أن ندمج في مثل هذا التصور متواليات تكرارية (مثل الوزن والقافية)، وعدا ذلك يجب أخذ مساهمات هذا التصور بعين الاعتبار"^(٦٤).

والنظرية الخليلية مبنية على وحدات صوتية متكررة تبدأ بالمتحرك والساكن ثم الأسباب والأوتاد والفواصل والأجزاء، وهذه السلاسل الصوتية تنتهي عند البيت؛ وهي أكبر وحدة مكررة بالتالي، وهي: "خصيصة مشتركة بين جميع أشعار العالم.. وهذا التجزيء قد أنجز بطرق متعددة منها: الصوتية، ومنها الخطية، ومنها النحوية، ومنها الدلالية"^(٦٥)؛ والبيت الشعري العربي في القصيدة العمودية يحقق الاكتفاء العروضي والخطي والنظمي، والدلالي في أغلب الأحيان^(٦٦).

ب. التوليدية والتحليلية في النظام الإيقاعي العروضي الخليلي:

إذا كانت وظيفة الأوزان إما توليدية أو تحليلية، فإن نظام الخليل تحليلي بالدرجة الأولى لأنه يستخلص الأنساق الموسيقية من الواقع الشعري، وفي الوقت نفسه فهو توليدي لأنه يعتمد على التصور النظري للوصول إلى أوزان مهمة ضمن الدوائر العروضية^(٦٧).

كما أن البحر في مستوى القصيدة ليس إلا تكراراً لواحد من "مجموعة من نماذج للبيت لها صفة مشتركة، وهذه الصفة كامنة في اقتصار الاختلاف بين النموذجين على العروض أو الضرب، ونماذج البيت وعددها هو عدد أضرب العروض، وهو عند الخليل ثلاثة وستون، وأصبحت سبعة وستين منذ أن أضيف المتدارك إلى مجموعة البحور"^(٦٨).

هذه أهم الصور التوزيعية الإيقاعية العروضية؛ وبهذه الطبيعة المزدوجة لنظام الإيقاع العروضي في الشعر العربي نتصوره وليد بنية ذهنية فطرية تقوم بعمليات معقدة من خلال تحويل عملية إسقاط محور الاختيار على محور التوزيع إلى متواليات صوتية متساوية في إيقاعها الموسيقي المتكرر على مستوى الأبيات، فهو من هذا المنظور يصير توليداً من توليد، وقريب منه ذلك التصور القديم الذي يرى أن أي كلام موزون هو تحويل عن النثر في الأصل، وهذا في الاتجاه الإيجابي، ويمكن أن يقع

العكس فيتحول النظم إلى نثر^(٦٩)، ويعنون بها نزع الوزن والقافية من الكلام، ومن ثم يتغير بالضرورة محورا التركيب والاختياري باتجاهه نحو المماثلة، وهكذا يتم التقاطع والتداول بين نظامين: لغوي وعروضي؛ الأول أصلي والثاني تابع له؛ وشأن التابع أن يستمد قواعده من الأصل؛ هذا التصور فرض نفسه على كثير من العروضيين، والنقاد القدامى، وهم يختصرون الاختلاف الجوهرى الشكلى الأسلوبى بين الشعر والنثر فى تصور كمى بحت، وهكذا تصور القدامى الشعر بأنه مجرد عملية تجميعية لعناصر أربعة هي: (كلام + وزن + قافية + معنى)، وهذه النظرة لا تقتصر على النقاد العرب وحدهم، وإنما هي عامة فى مفاهيم النقد القديم بحسب ما ذكره رولان بارت فى تمثيله لنظرة الكلاسيكيين إلى ماهية الشعر والنثر بمعادلتين: (شعر = نثر + وزن + قافية + صورة)، والنثر = (شعر - وزن - قافية - صورة)^(٧٠).

كما أن فرضية الارتباط بين نظام اللغة وقواعدها، ونظام العروض وقواعده أدى ببعض الباحثين إلى تقرير تماثلهما فى النموذجين التوليدي والتحليلي؛ يقول مصطفى حركات: "تنقسم النماذج اللغوية أساسا إلى نوعين من النماذج:

أ- النموذج المولد: وهو الذى تنتج قواعده عناصر لغة معينة أى السلاسل التى تتركب بواسطة قاموس أو ألفباء معين.

ب- النموذج التحليلي: وهو النموذج الذى يمكن بواسطة التحقق من أن سلسلة معينة تنتمي، أو لا تنتمي إلى لغة معينة. ونماذج العروض تنقسم، مثل النماذج اللغوية إلى صنفين:

أ- النموذج المولد: وهو الذى ينتج بواسطة نظام من قواعد اللغة الإيقاعية التى ينطبق عليها الشعر، وفى هذا الصدد يلزمنا أن نشير إلى أن العروض لا ينظر إلى المكونات الصوتية إلا من وجهين الساكن والمتحرك.

ب- النموذج التحليلي فى العروض ينطلق من مثال معين (بيت من الشعر) تستخلص منه سلسلة من السواكن والمتحركات ويحاول أن يحدد مكوناته وانتماءه إلى أصناف وزنية معروفة^(٧١)؛ ويعنى ذلك كما يقول جون كوهين: "إن علم اللغة أصبح "علما" منذ أن اعتنق دي سوسير (F.De.Saussure) وجهة النظر الحولية،

بأن عناصر تحليل اللغة كامنة فيها، والشاعرية ينبغي أن تعتمد نفس المبدأ^(٧٢) يجب ألا يفهم الحضور المكثف للوظيفة التحليلية على أنه استبعاد كلي للوظيفة التوليدية، بل هما متلازمتان في الوجود بالقوة والوجود بالفعل حتى وإن غابت إحداهما على مستوى إدراك كلية الظاهرة.

وما نصلح عليه بالمكون العروضي التوليدي التحويلي يجعل البنية السطحية للمكون التركيبي بنية عميقة ثانية لبنية سطحية عروضية ثانية، وهكذا يكون الشعر في مكوناته تجاوزا لمكونات أخرى مثل الصور البيانية، كما يعنى ذلك أن المكون الصوتي يمكن أن يتشكل بحسب بنيات مجردة تنشأ في بداية الأمر في كنف اللغة المشكلة للنص الشعري، ثم تتحرك في اتجاهات جدلية مختلفة فتأخذ من حقائق الفنون الأخرى، ومن الظواهر الأخرى بالإضافة إلى عوامل الشحن الدلالي الجمالي، ومن هذا المنطلق يمكن لنا تصور البنية الإيقاعية تصورا توليديا لكون "الوحدة الوزنية هي الموقع"، وتوالي الوحدات العروضية (أسباب وأوتاد) معروف سلفا لأي بحر، في العروض التقليدي، غير أنه، إلى ذلك الحد لا يكون شيء مما هو لساني قد حدد، أي أننا لا نعلم بعد ما هي الوحدات اللسانية التي ستحل بتلك المواقع، ولا الطريقة التي سيتم بها التفريق (لسانيا) بين المواقع^(٧٣)، وكما يقول جاك روبرو: "فإن اختيار هذه المعطيات اللسانية التي، من جهة، والقواعد التي توجه استعمالها في البيت، من جهة أخرى، هو الذي سيحدد التحولات الممكنة في البنية العميقة لتصير بنية سطحية، أي تحويل الوزن إلى بيت"^(٧٤)، وفي الحقيقة فإن العملية مضاعفة في عملية الأطراف المتحاورة عند ولادة النص الشعري، بمعنى أن هناك بنية عروضية عميقة يكون محور اختيارها على مستوى البيت مرة واحدة مكررة، وهذا يفرض محورا توزيعيا مكررا من (الأسباب والأوتاد)؛ التي تسمى "مواقع"، وتمثل المستوى العميق، والحركات والسكنات، أو المقاطع الطويلة والقصيرة تمثل المستوى السطحي، والانتقال من المستوى إلى الآخر يتم بقواعد التحقيق، وهي إما أن تكون التعاريف الخاصة للأسباب والأوتاد، أو القواعد الخاصة بالزحافات والعل^(٧٥)، ثم يتقاطع المكون التركيبي، والمكون العروضي

بعد التمثيل اللساني للبنية العروضية بوحدات معجمية بداية (من الأصوات الرامزة لها والعديمة المعنى وانتهاء إلى الأصوات الفعلية المكونة لوحدات لسانية دالة؛ وهذه الحقيقة تنطبق على الاستعارة نفسها فهي كما يقول جيرار جينات (G.Genette): "حلم، والحلم بالنسبة لليقظة ليس انزياحا وإنما هو عكسها وكيف إذن نقول عما هو عكس الانزياح؟ نقول عنه إنه في علاقة ضدية، وهكذا يكون الشعر ضد النثر" وهذا يدل على أن التواصل الدلالي السيميائي العروضي لا يتعرف على نفسه كاملا إلا بالتواصل السيميائي الدلالي للغة طبيعية، وهذه ليست إشكالية العروض وحده، وإنما هي إشكالية عامة تخص بعض الفروع السيميائية التي لا تمتلك الاستقلالية التامة في تركيبها ودلالاتها التي تكون نتيجة للقوة الإبداعية الناشئة من تيار ضد النثرية أو هي "اختصار لانزياح، أو هي انزياح لانزياح سلبي"^(٧٦).

٢. نظرية الائتلاف:

لقد بنى قدامة كل نقده على قانون الائتلاف والعلاقات بين هذه العناصر التي تؤدي بعلاقاتها وأوضاعها مع بعضها إلى ظواهر أسلوبية شعرية قيمية ثنائية هي الجودة والرداءة، وتحدد كل منها من خلال صور الكمال لهذه العناصر وصور أخرى يعترها النقص والعيوب فإذا كانت تامة نتج عنها الشعر الجيد، وإذا كانت معيبة نتج عنها شعر رديء، الأمر الذي يجعل الإنسان في حيرة من أمر هذا الناقد الذي حاول التنظير لشعرية عربية ونقدها العلمي المنهجي، ثم يستبعد علومها التي أصبحت في العصر الحاضر علوما تعتمد عليها المناهج النقدية الحديثة الشعرية والبنوية والسيميائية وغيرها.

وإذا كنا قد نتفق مع الناقد بكون الشاعر الموهوب الكامل المستوعب للمهمة الشعرية بفعل نشوء ذوق واضح من الممارسة والقراءات، فإننا لا نتفق معه في الخلط بين المهمتين: الإبداعية والنقدية، كما أن المبدع يمكن له أن يستغني عن معرفة هذه العلوم ويستعيز عنها بالموهبة والذوق فإن الناقد لا يمكن له أن يجهل هذه العلوم ويمارس المهمة النقدية المنهجية المؤسسة على حقائق علمية.

لبعضهم عن أبي عمر: غلام ثعلب عن ثعلب: أن العرب تعلم أولادها قول الشعر بوضع غير معقول... ويسمون ذلك الوضع "المتير"، ثم بعد ذلك يقارن بين نظرية الاصطلاح في اللغة والتوقيف من جهة، والعروض من جهة ثانية فلا يرى فيهما إلى أن "الله أجرى على لسان بعضهم من النظم ما أجرى، وفطنوا لحسنه فتتبعوه من بعد، وبنوا عليه وطلبوه ورتبوا فيه المحاسن التي يقع الإطراب بوزنها، وتهش النفوس إليها، وجمع دواعيهم وخواطرهم على استحسان وجوه من ترتيبها، واختيار طرق تنزيها وعرفهم محاسن الكلام ودلهم على كل طريقة عجيبة ثم أعلمهم عجزهم الإتيان بمثل القرآن" (٧٩)؛ وهكذا ينهي كلامه ليصل إلى المدرج البلاغي الجمالي في الأدب العربي، ويؤكد الحلقة المفقودة بين بلاغة القرآن وغيره، ويوصلنا هذا النص إلى تأكيد أشياء منها: إن الباقلاني يقرن بين المشكلات الفلسفية في الوجود الأول للغة، وبين مشكلة نظام الإيقاع الشعري؛ كما يؤكد وجود القابلية عند الإنسان لتوليد ما لا نهاية من تشكيلات الأنغام؛ وهذا يعود إلى الفطرة والاكْتساب في آن واحد، وبهذا يكون نظام الإيقاع الموسيقي في الشعر العربي توليدياً بالفطرة والاكْتساب، وتحليلياً بالتقطيع والقياس كأى شيء آخر يحل ويقاس بأبعاده الهندسية المعروفة، وهذا ليس فيه أي تناقض لأنه كما يقول باشلار (G.Bachelard) "بالواقع نتوصل.. إلى الكمية الممثل (Qantite figuree)، وهي في منزلة بين الملموس والمجرد، في منطقة متوسطة حيث يدعي العقل التوفيق بين الرياضيات والاختيار، بين القوانين والوقائع.

"...إن الملموس صار يتقبل الإعلام الهندسي... فهو تزواج بين المعرفة العقلية والرياضية والشعورية" (٨٠)، وهذا الإدراك المبكر لعمليات التوالد الإيقاعي في النظرية العربية للنص والتي كما رأينا تسير حتى أحدث النظريات العلمية كان بإمكانها أن تطور البحث الأسلوبي للشعرية العربية لكن الارتباط بالمرجعيات المعيارية والتحليلية لم يساعد على تطوير هذه النظرية التوليدية التحويلية التفسيرية للمكون العروضي، وهذه النصوص تقدم لنا مراحل التشكل والتوليد والتحويل على مستوى المكون العروضي الأساسي والتحويلي، والمرحلة الأولى اصطلاحنا على

تسميتها بالوحدات العروضية الموسيقية البيضاء لأنها تكون رمزية صوتية محضة، والمرحلة الثانية تنشأ من المكون التحويلي والتي أطلقنا عليها مصطلح الوحدات المنجزة العروضية اللسانية الشعرية.

هذا من شأنه أن يحسم الجدل بين الذين يقولون باستحالة تصور وزن مستقل عن المعنى، وبين الذين يرون بأن النظم يمكن أن يوجد دون معنى، لأن الوزن بحسب رأي جورج ستيفورت مستقل عن المعنى، ومن ثم لنا الحق في تصور البنية الوزنية لأي بيت بمعزل عن معناه، وتبدأ الأولى من النواتين الصوتيتين المتمثلتين في "الأسباب" و"الأوتاد"، وكيفما كان تشكل نظامها الموسيقي الشعري.

٤. نظرية النظم:

وتناولت الكتب النقدية والبلاغية مفهوم النسق والنظم، وربما أكثر البلاغيين استعمالاً لمفهوم النسق عبد القاهر الجرجاني ويكون في المعاني كما يكون في الألفاظ وقد يخص مستوى من مستويات النظم والأسلوب، فهذا عبد القاهر الجرجاني وهو من أبرز البلاغيين يجعل النسق ظاهرة عامة تحكم نظريته في النظم التي ما كان ليصوغها لولا نظرية الوزن العروضي الخليلية، وقد يعني طريقة في الأداء من الواجهة التداولية يقول: "إن زعمت أنك جعلته قائلاً له من حيث إنه نطق بالكلم وسمعت ألفاظها من فيه على النسق المخصوص فاجعل راوي الشعر قائلاً له فإنه ينطق بها ويخرجها من فيه على الهيئة والصورة التي نطق بها الشاعر وذلك ما لا سبيل لك إليه فإن قلت إن الراوي وإن كان نطقاً بألفاظ الشعر على الهيئة والصورة التي نطق بها الشاعر فإنه لم يبتدئ فيها النسق والترتيب وإنما ذلك شيء ابتدأه الشاعر"^(٨١) ويذكر رأي بعضهم في تخصيص النسق في غير الوزن "إن التحدي وقع إلى أن يأتوا بمثله في فصاحته وبلاغته لأن الوزن ليس هو من الفصاحة والبلاغة في شيء إذ لو كان له مدخل فيهما لكان يجب في كل قصيدتين اتفقتا في الوزن أن تتفقا في الفصاحة والبلاغة فإن عاد بعض الناس طول الإلف لما سمع من أن الإعجاز في اللفظ إلى أن يجعله في مجرد الوزن كان قد دخل في أمر شنيع وهو أن يكون قد جعل القرآن معجزاً لا من حيث هو كلام

ولا بما كان لكلام فضل على كلام فليس بالوزن ما كان الكلام كلاما ولا به كان كلام خيرا من كلام وهكذا السبيل إن زعم زاعم أن الوصف المعجز هو الجريان والسهولة ثم يعني بذلك سلامته من أن تلتقي فيه حروف تنقل على اللسان لأنه ليس بذلك كان الكلام كلاما ولا هو بالذي ينتهي أمره إن عد في الفضيلة إلى أن يكون الأصل وإلى أن يكون المعول عليه في المفاضلة بين كلام وكلام فما به كان الشاعر مقلقا والخطيب مصقعا والكاتب بليغا ورأينا العقلاء حيث نكروا عجز العرب عن معارضة القرآن قالوا إن النبي تحداهم وفيهم الشعراء والخطباء والذين يدلون بفصاحة اللسان والبراعة والبيان وقوة القرائح والأذهان والذين أوتوا الحكمة وفصل الخطاب ولم نرهم قالوا أن النبي عليه السلام تحداهم وهم العارفون بما ينبغي أن يصنع حتى يسلم الكلام من أن تلتقي فيه حروف تنقل على اللسان^(٨٢).

٥. نظرية الانسجام الفني:

حاول صاحب خزنة الأدب أن يبلى نظرية الانسجام التي تلتقي مع نظرية التناسب عند حازم وهي من النظريات التي تعد الأصول الفعلية للأسلوبية العربية يقول: "ولولا الإطالة لذكرت ما دخل فيما أوردته من الزحاف وقد أوردت هنا خمسة عشر بحرا، ولم أذكر المتدارك إذ هو محدث اخترعه المتأخرون ولم تعرفه العرب في الزمن المتقدم، وهو خارج عن الخمسة عشر بحرا... وأما الانسجام في النظم فقد تقدم وتقرر..."^(٨٣)، وهذا النص يدرس مختلف الأنساق العروضية وما يدخل عليها من الزحافات والعلل المقبولة التي لا تكسر نظام الانسجام الذي يحكم الذوق العربي في استحسانه لأنغامه واستهجانه لأنغام أخرى.

٦. نظرية التناسب:

كان حازم من النقاد الذين بلوروا نظرية التناسب في العلاقة بين نظام الإيقاع وطابعه والانفعالات والمعاني، كما كشف عن نظام البنية الإيقاعية للشعر من خلال مكان الإثارة أو النقلة كما يسميها في زحافات وعلل الأنساق العروضية، والتي تخلق ما يشبه السياق الأصغر يقول: "لما كان ما يدركه الإنسان لا يخلو من أن يكون شيئا بسيطا لا تتنوع فيه أصلا أو أن يكون له تنوع من جهة

ما يكون من الأشياء المركبة، وكانت شيمة النفس التي جبلت عليها حب النقلة من الأشياء التي بها استماع إلى بعض، كانت جديرة أن تسأم التماذي على الشيء البسيط الذي لا تتوع فيه بنقلها من شيء إلى شيء، وتأمل غيره، مما يكون تتوع ذلك الشيء إليه أيضا تحب النقلة من الشيء المتنوع إلى غيره من المتنوعات كلها تحتل من التماذي عليه ما لا تحتل من التماذي على ما لا تتوع له أصلا^(٨٤)، وهل يجوز لنا بعد هذه الحقائق الشك في عجز القدامى عن استيعاب عادات لغتهم وما يناسبها من أنظمة الإيقاع حال التعبير بها في أشعارهم؟

إن الخليل بن أحمد كان أقرب منا للمنابع الفطرية للغة العربية، وشعرها؛ وأكثر إدراكا لعادات العرب وفلسفتهم الجمالية سواء من منطق الشعور أو اللاشعور، ويمكن لنا أن نجزم بأن نظامه الوزني كان الأجدر بوصف البنية العروضية للشعر العربي إلى يومنا هذا، وبخاصة إن طعم بحقائق اللسانيات والصواتة الوظيفية والنحو التوليدي، والأسلوبية البنائية السيميائية، ومن ثم فلا يمكن تجاهل دور المقاطع المنبورة في إيقاع موسيقى الشعر العربي.

وهذا ما أكد عليه كريماس عند تحديده لمفهوم النغمية (PROSODIE) حيث يقول: "يستخدم مفهوم النغمية في دراسة وحدات التخطيط التعبيري التي تتجاوز الفونيم؛ فهي وحدات فوق المقاطع تسمى بوجه عام وحدات تنغمية، ولم يتم بصفة كافية إحصاء أصناف هذه الوحدات التي تتضمن جميع أنواع الظواهر التنغمية مثل: النبر، والنغم، والجرس، والفواصل، والبدايات، والإيقاع وهذا الميدان ما زال بكرا، ويمكن أن يكون مجالا للدراسات النقدية، والسيميائية، والشعرية والموسيقية"^(٨٥)؛ والتنغمية هي مظهر من مظاهر الدلالات الهامشية على المستوى القواعدي "حيث يمكن لعبارة لغوية أن تحتوي على قدر عال من الإيحاء يتواعم مع مدى طاقتها على تحمل قدر كبير من التنغيمات"^(٨٦).

٧. نظرية البنية الإيقاعية الخلدونية:

يقول ابن خلدون: "الأسلوب عند أهل هذه الصناعة... لا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفة البلاغة والبيان والإعراب، ولا باعتبار

إفادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض، فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية، وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال...^(٨٧).

وأبرز الذين تعرضوا لتحليل هذا النص النقدي كشفوا عن أصالته وقيمته، كما ربطوا بينه، وبين النظرية التوليدية التحويلية، ولم يروا في الصورة الذهنية غير البنية العميقة لشوسكي N. Chomsky^(٨٨)، لكن ما يجب التركيز عليه أن ابن خلدون هنا يتكلم عن الأسلوب الشعري الذي هو محصلة لتفاعل مستويات ثلاثة ينتج عنها مركب بفعل نشاط ذهني خيالي نظري فطري ومكتسب في آن واحد، وهذا المفهوم قريب من مفهوم ياكسون في تحويل المجاور إلى متوالية لسانية ذات وظيفة شعرية، لكنه من جانب آخر يتجاوز كثيرا تصورات معاصريه في النظر إلى الأسلوب بكونه شيئا كلياً، إنه العمل الشعري الذي إن فكك مات، وهذا التصور نفسه هو ما يذهب إليه بعض الأسلوبيين المعاصرين ومنهم داماسو ألونسو حيث يقول: فكرة علم الأسلوب "التي نسبها إلي رينه ويليك R. Wellek يعني دراسة تتابع الصوت، والبحر، وما إلى ذلك" ووحدات المعنى (المعجم الشعري) والنظم أو الأسلوب لكن علم الأسلوب الذي لم أطبقه فحسب بل حاولت أن أعرفه دراسة كل شيء يبرز خصوصية العمل الأنبي^(٨٩).

يقول ابن خلدون: "وليس كل وزن يتفق في الطبع استعمله العرب في هذا الفن، وإنما هي أوزان مخصوصة يسميها أهل تلك الصناعة البحور، وقد حصروها في خمسة عشر بحراً بمعنى لأنهم لم يجدوا للعرب من غيرها من الموازين الطبيعية نظماً"^(٩٠).

وكما كان الشعر موجوداً بالطبع في أهل كل لسان لأن الموازين على نسبة واحدة في أعداد المتحركات والسواكن وكتابتها موجودة في طباع البشر"^(٩١).
وبهذا التصور للبنيتين في الركنين التركيبي والعروضي ينشأ ذلك الأزواج

لتوالد البنيات الشعرية؛ بنيتان عميقتان: تركيبية وعروضية، وبنيتان سطحيّتان: تركيبية وعروضية أيضاً، ومن تشاكلهما وتفاعلها وتوحدتهما تظهر البنية السطحية الثانية الشعرية الممثلة لهما معاً؛ وهذا التصور التوليدي للبنية العروضية تجاهله بعض الأسلوبين المعاصرين، ومنهم ميشال شريم الذي يلغي البنية المجردة البيضاء العروضية، في حين أن النظرية المعرفية البنائية تتصور مثل هذه البنيات في كل الظواهر وأنساقها؛ يقول: "إن الوزن على أهميته الموسيقية الكبرى يختلف عن مفهومنا للموسيقى؛ إذ إن الأوزان هي رسوم خيالية مجردة بينما الموسيقى التي نحن بصددنا تتبع من الأصوات التي ندرکها بحواسنا"^(٩٢)، وعلى أية حال فإننا لكي نتأكد من هذا التلازم بين فطرية النغمة وتعلمها، واستقلاليتها، وتبعيتها للمادة اللسانية، فهذا الاضطراب في الفهم مصدره تغير العلاقات بين البنيتين بحيث تسود مرة فطرية النغمة، ومن ثم تتمحي الحدود بين البنيتين، أو تنقلص إلى أبعد حد، ومرة يبرز أكثر الجانب التعليمي العروضي، ومن ثم يتسع التباين بينهما.

الحواشي.

- (١) شهاب الدين الإبيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ج ١، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦، ص ٣٠٥.
- (٢) السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، ج ١، تحقيق: فؤاد منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ص ٥٢.
- (٣) المكان نفسه.
- (٤) المكان نفسه.
- (٥) المكان نفسه.
- (٦) الميداني، مجمع الأمثال، ج ١، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، ص ٢٩٧.
- (٧) الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ج ١، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط ١، ١٩٦٥م، ص ٣٢٣.
- (٨) نقي الدين الحموي، خزنة الأدب، ج ٣، تحقيق: عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٥م، (د.ط.)، ص ٢١٤.

- (٩) المرزوقي، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، ج ١، تحقيق: أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٩٩١م، ص ٣٥٧.
- (١٠) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق: يوسف علي طويل، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٩٨٧م، ج ١، ص ٤٩٠.
- (١١) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج ٢٠، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت ط ٢، ص ٢٣٩.
- (١٢) المكان نفسه.
- (١٣) المقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٢، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، ص ٨٢٧.
- (١٤) الحصري، زهر الآداب، ج ٣، تحقيق: زكي مبارك، دار الجيل، بيروت، ط ٤، ص ٦٨٧.
- (١٥) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ج ١، ص ٦٥٨.
- (١٦) الأصفهاني، الأغاني، ج ٢٠، ص ٣٧٠.
- (١٧) السيوطي، المزهرة في علوم اللغة وأنواعها، ج ٢، ص ٣٩٩.
- (١٨) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ط ١، ١٩٦٨م، ص ١٤١.
- (١٩) المصدر نفسه، ص ١٤٨.
- (٢٠) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢٣، ص ١٧٤.
- (٢١) الأصفهاني، الأغاني، ج ٦، ص ١٦٩.
- (٢٢) المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٢٢.
- (٢٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٦.
- (٢٤) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٩٠.
- (٢٥) المقرئ، نفع الطيب، ج ٧، ص ٢٦.
- (٢٦) أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني، ج ١، ص ٣٠٤.
- (٢٧) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج ١، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩١م، ص ٣٥٠-٣٥١.
- (٢٨) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج ٣، ص ٤٤.
- (٢٩) ضياء الدين، المثل السائر، ج ١، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥م، ص ٣١.
- (٣٠) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ١، ص ٤٧٨.
- (٣١) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ١، ص ٢٢١.
- (٣٢) فولفغانغ كايزرر، العمل الفني اللغوي، ترجمة: أبو العبد دودو، ج ٢، دار الحكمة، الجزائر،

٢٠٠٠م، ص ٣٧٨.

(٣٣) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج ٣، ص ١٣٢.

(٣٤) المكان نفسه.

(٣٥) ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ص ٢٢.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ٦٩.

(٣٧) المكان نفسه.

(٣٨) المكان نفسه.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٢٤٦.

(٤٠) تقي الدين الحموي، خزانة الأدب، ج ١، تحقيق: عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٥م، (د.ط)، ص ٤١٩.

(٤١) المصدر نفسه، ص ٤٢٠.

(٤٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ٢، ص ٣٤٥.

(٤٣) قدامة ابن جعفر، نقد الشعر، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط ١، ١٩٨٠م، هامش ص ٦١-٦٢.

(٤٤) أبو الحسين بن إسحاق بن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تحقيق: حنفي محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة، مصر، ص ١٢٦.

(٤٥) أبو الحسين بن إسحاق بن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تحقيق: حنفي محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة، مصر، ص ١٢٨-١٢٩.

(٤٦) ابن رشيق، العمدة، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط ٤، ١٩٧٢م، ص ١٩-٢٠.

(٤٧) أبو الحسين بن إسحاق بن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص ١٩٨.

(٤٨) المثل السائر، ج ١، ص ٢٨.

(٤٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٧.

(٥٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٨.

(٥١) ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ص ٧٠.

(٥٢) قدامة ابن جعفر، نقد الشعر، هامش ص ١٧٩-١٨٠.

(٥٣) تقي الدين الحموي، خزانة الأدب، ج ١، ص ١٥٦.

(٥٤) المصدر نفسه، ص ١٦٧.

(٥٥) رومان ياكبسون، قضايا الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومبارك حنوز، دار توبقال، الدار

- البيضاء، المغرب، ١٩٨٨م، ص ٣٣٤.
- (٥٦) قدامة، نقد الشعر، ص ١٦٥-١٦٦. إن مفهوم الائتلاف بين اللفظ، والوزن عند قدامة ليس إلا المحور الاختياري العروضي.
- (٥٧) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، ط ٣، ١٩٨٦م، ص ٢٢٧.
- (٥٨) المرزوقي، مقدمة شرح ديوان الحماسة، تحقيق: أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٩م، ص ٩.
- (٥٩) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد رشيد رضا، دارالمعرفة، بيروت لبنان، ١٩٨١م، ص ٦٣.
- (٦٠) جون كوهين، بناء لغة الشعر، ترجمة: أحمد درويش، مكتبة الزهراء، القاهرة، ١٩٨٥م، ص ٦٦-٦٧.
- (٦١) جون كوهين، بناء لغة الشعر، ص ٩١.
- (٦٢) د. مصطفى حركات، قواعد الشعر، العروض والقافية، طبع المؤسسة الوطنية، الجزائر، ١٩٨٩م، ص ٢٢٩-٢٣٠.
- (٦٣) إدريس السفروسني، مدخل إلى الصوارة التوليدية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط ١، ص ١٧.
- (٦٤) هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، ترجمة: محمد العمري، دار توبقال، الدار البيضاء، ص ٣٨.
- (٦٥) مصطفى حركات، قواعد الشعر، ص ٢٤.
- (٦٦) محمد بنيس، ظاهر الشعر العربي الحديث، دار العودة بيروت، ١٩٧٩م، ص ٦٣.
- (٦٧) مصطفى حركات، قواعد الشعر، العروض والقافية، ص ١٨.
- (٦٨) مصطفى حركات، كتاب العروض، ص ٣٩.
- (٦٩) أحمد بن الاثير، جوهر الكنز، تحقيق: د. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، ص ٦٠٧.
- (٧٠) R, Barthes , Le degre zero de l ecriture Edition du seuils paris, 1972p 33
- (٧١) مصطفى حركات، المعالجة الآلية لأوزان الشعر العربي، حوليات جامعة الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٤، ١٩٨٨م، ص ٢٥.
- (٧٢) جون كوهين، بناء لغة الشعر، ترجمة: أحمد درويش، ص ٥٥.
- (٧٣) محمد العمري، البنية الصوتية في الشعر، الدار العالمية للكتاب، الدار البيضاء المغرب، ط ١، ١٩٩٠م، ص ١٦٩.
- (٧٤) المرجع نفسه، ص ١٦٩.
- (٧٥) مصطفى حركات، القصيدة العربية بين النظرية والتطبيق، ص ٢٢.

- (٧٦) G,Genette,figure,2 ,Editoin du seuils,paris,1969,p. 152
- (٧٧) محمد العلمي، العروض والقافية، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٤٠٤هـ، ص٧٣.
- (٧٨) المرجع نفسه، ص٣٧.
- (٧٩) الباقلائي، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمدصفي، دار المعارف، مصر، ط٥، ١٩٨١م، ص٦٢-٦٣.
- (٨٠) غاستون باشلار، تكوين العقل العلمي، ترجمة: خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط٣، ١٩٨٦م، ص٧.
- (٨١) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٢٧٤.
- (٨٢) المصدر نفسه، ص٣٤٢.
- (٨٣) تقي الدين الحموي، خزانة الأدب، ج١، ص٤٢١.
- (٨٤) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص٢٤٥.
- (٨٥) sémiotique dictionnaire raisonné de la théorie du langage ,greimas ,J, courtes, J A, hachette, paris ,1979,p366
- (٨٦) محمد محمد يونس علي، وصف اللغة العربية دلاليًا، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس ليبيا، ١٩٩٣م، ص١٦١.
- (٨٧) ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، القاهرة، ط٢، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨، ص١٤١٠-١٤١١.
- (٨٨) شكري محمد عياد، مدخل إلى علم الأسلوب، أصدقاء الكتاب، القاهرة، ط٣، ١٩٩٦م، ص٢٠.
- (٨٩) مجموعة من النقاد، حاضر النقد الأدبي، ترجمة محمود الربيعي، دار المعارف بمصر، ط١، ١٩٧٥م، ص١٥١.
- (٩٠) ابن خلدون، المقدمة، ص١٤١٦.
- (٩١) المرجع نفسه، ص١٤٣٥.
- (٩٢) ميشال شريم، دليل الدراسات الأسلوبية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٨٤م، ص١٠١.

**الخليل بن أحمد الفراهيديّ
في المصادر الأندلسيّة**

٢٠٠٥

د. أمانة سليمان محمد البنوي
الجامعة الأردنيّة - الأردن





الخليل بن أحمد الفراهيدي في المصادر الأندلسية

د. أمينة سليمان البدوي

ملخص:

تناولت هذه الدراسة المصادر الأندلسية التي أوردت أخبار الخليل بن أحمد الفراهيدي ومكانته، ونقلت من شعره وأقواله، والتي اهتمت بكتابه العين، وبآرائه في بعض المسائل اللغوية، مقارنة إياه بعلماء الأندلس من النحاة، وقد تتبعت الباحثة هذه الأخبار في المصادر ووقفت على هذه الإشارات عن الخليل ومكانته، وهذه الدراسة أقرب ما تكون إلى التتبع الأفقي لأخبار الخليل، لقلة المعلومات المتوافرة عنه، ولعدم انتظامها، إلا فيما يتعلق بكتابه العين والمقارنات والمختصرات عليه.

- مكانة الخليل:

مما لا شك فيه أن للخليل مكانة عند الأندلسيين، حيث يقول عنه الزبيدي في لحن العوام بأنه الذي: "فتح أبواب النحو ومدّ أطنابه، وأوضح عله، وبلغ أقصى حدوده، واستوعب فيه غاية مراده، وكان في علمه فذاً لا نظير له، وفرداً لا قرين معه"^(١). ثم كان ما ألف بعده على قدر الحاجة وحسب الضرورة، تحصيناً للغة، وإصلاحاً لما فسد من الكلام^(٢).

كما يقول عنه في طبقات اللغويين: "وكان الخليل ذكياً فطناً شاعراً، واستنبط من العروض ومن علل النحو ما لم يستنبط أحد، وما لم يسبقه إلى مثله سابق"^(٣). "وضع كتاباً في الألحان وتراكيب الأصوات، ولم يكن قبل ذلك قد عالج وتراً، ولا كثرت مشاهدته للمغنين"، إذ يقول:

اعمل بعلمي ولا تنظر إلى عملي ينفعك عملي ولا يضررك تقصيري^(٤)

وهذا الكتاب في علم الأصوات لم يصلنا، ويعكس ذكره اهتمام الأندلسيين بالموسيقى والألحان الذي نعرفه، وانتشار الغناء ومجالس الطرب، والذي أفضى فيما بعد إلى ابتكار فن التوشيح.

ويضاهاه جاحظ المغرب الحجاري عبد الله بن إبراهيم صاحب المسهب أدبه
الغزير بأدب الخليل، يقول مخاطباً عبد الملك بن سعيد:

عليك أحوالي الذكرُ الجميلُ فجئتُ و من ثنائِك لي دليلُ
أجلُ طرْفاً لديّ فإنّ عندي من الآداب ما يحوي الخليل^(٥)

وعُدَّ الخليل عند الأندلسيين من نوابر الدهر، لما أتى به من علم، من ذلك
قول الرّاضي بن المعتمد بن العباد يجاوب أباه، وقد خاطبه طاعناً عليه وهازئاً به:

أتريدُ منّي أن أكونَ الخليلُ كمن غدا في الدهرِ نادر^(٦)

وقد تأثر بعض الشعراء بمعاني أقوال الخليل، ونظموا ذلك شعراً، حيث
دخل الأديب غانم بن الوليد المخزومي على باديس بن حيّوس صاحب غرناطة،
فوسّع له على ضيقٍ كان في المجلس، فقال:

صيرَ فؤادك للمحبوبِ منزلةً سمّ الخياطِ مجالاً للمحبّينِ
ولا تسامحْ بغيضاً في معاشره فقلّما تسعُ الدُّنيا بغيضينِ

وهذا مأخوذ من قول الخليل وقد دخل عليه بعض أصدقائه وهو على نمرقة
صغيرة، فرحّب به وأجلسه مكانه، فقال له الرجل: إنها لاتسعنا، فقال له الخليل: ما
تضايق سمّ الخياطِ بمتحابين، ولا اتسعت الدُّنيا لمتباغضين^(٧).

وسمع ابن عبد ربه هذا، فقال أيضاً:

صلّ من هويتَ وإن أبدى معاتبه فأطيبُ العيشِ وصلّ بينَ خلّينِ
واقطعْ حبائلَ خلّ لائلته فربّما ضاقت الدُّنيا باثنينِ^(٨)

ويذكر ابن عبد ربه، آراء الخليل ويردّ عليها، من ذلك" ما زعمه الخليل أن
المعتلّ ما كان مخالفاً لأجزاء حشوه بزحافٍ أو سلامة، ولم يقل بحسنٍ أو قبح، ألا
تري أن القبض في مفاعيلن في الطويل حسن، والكفّ فيه قبيح، والقبض في
مفاعيلن في الهزج قبيح والكفّ فيها حسن"^(٩).

ولم يقل ذلك من مكانة الخليل عنده، يقول:

وليسَ للخليلِ من نظيرِ في كلّ ما يأتي من الأمورِ

لكنه فيه نسيخٌ وحده ما مثله من قبله وبعده^(١٠)

ولعل الأندلسيين إذا أرادوا أن ينقدوا الخليل، ولما تطالعهم مكانة الخليل، فإنهم يستدركون أنفسهم، ويعودون لامتحاحه، لكن ذلك لم يمنعهم من الإدلاء بأرائهم.

ما ورد من شعر الخليل وأقواله:

وأوردت بعض المصادر شعراً للخليل، في مناسبات، أو دللت به لبعض الموضوعات، من ذلك ما نقله ابن عبد ربه عن أبي جعفر البغدادي أن مجموعة من الشعراء مدحوا جعفر بن سليمان بن عباس صديق الخليل فمطلهم بالجائزة، وكان الخليل غائباً، فلما قدم أخبروه، فكتب إليه:

لا تقبلنَّ الشعرَ ثمَّ تعقه وتنامُ والشعراءُ غيرُ نيامِ
واعلم بأنهم إذا لم يُنصفوا حكموا لأنفسهم على الحكامِ
وجناية الجاني عليهم تنقضي وعقابهم باقٍ على الأيامِ^(١١)

ومما نقل عنه في باب البخلاء، شعر لطيف في وصف بخيل، قوله:

كفاه لم تُخلقا للندی ولم يكُ نحلها بدعة
فكف عن الخير مقبوضةً كما نقصت مائة سبعة
وكف ثلاثة آلافها وتسع مئيتها لها شرعة^(١٢)

ويورد له ابن عبد ربه قوله في الرِّياض:

يا صاحبَ القصرِ نعمَ القصرِ والوادي بمنزِلِ حاضِرٍ إن شئتَ أوبادي
تُرْفى به السِّنُّ والظُّلمان واقفةً والنونُ والضبُّ والأنعامُ والحادي^(١٣)

ويضمّن صاحب العقد في آخر كلِّ مقطعة يوردها في حديثه عن أعاريض الشعر وعلل القوافي بيتاً قديماً داخلاً في معناها من الأبيات التي استشهد بها الخليل في عروضه، لتقوم به الحجة^(١٤). من ذلك استشهاده بشعر الخليل في المسبغ والمرفل:

أقيموا بني النعمان عنا صدوركم وإلا نقيموا صاغرين الرؤوسا^(١٥)

ويدلّ هذا على اعتبار الخليل حجة في هذا العلم، ومدى ثقة الأندلسيين بمعرفته وطول باعه في علم العروض.

ومما نقل عنه في عدم رضاه في النظر بالنجوم، قوله:

أبلغا عني المنجم أنني كافرٌ بالذي قضته الكواكب
عالمٌ بأن ما يكون وما كان ن بحتم من المهيمين واجباً
شاهدٌ بأن من يفوض أو يجبرُ زارٍ على المقاديرِ كاذبٌ^(١٦)

ومما ورد من شعره ودلّ على عفة نفسه وكرمها، ما روي عنه وقد كتب إليه سليمان بن علي الهاشمي يستدعيه، وبعث إليه بكساً ومال وفاكهة، فقبل الفاكهة وصرف ما سوى ذلك، وكتب إليه:

أبلغ سليمان أنني عنه في سعة وفي غنى غير أنني لستُ ذا مالٍ
سخي بنفسي أنني لا أرى أحداً يموتُ هزلاً ولا يبقى على حالٍ
فالرزقُ عن قدرٍ لا العجزُ ينقصُهُ ولا يزيدُك فيه حولٌ محتالٍ
والفقرُ في النفس لا في المالِ تعرفُهُ ومثلُ ذاك الغنى في النفس لا المالِ
والمالُ يغشى أناساً لا أصولَ لهم كما تُغشى أصولُ الدندنِ البالي^(١٧)

وقد تأثر ابن اللبانة (ت ٥٠٧هـ) شاعر المعتمد بن عبّاد بالبيت الأخير،

بقوله:

فالجودُ كالمزني قد يُسقى بصيبه شوكُ القنادِ ولا يُسقى به الزهرُ^(١٨)

ومن شعره لسليمان بن قبيصة، وقد أهدى إليه هدية فردّها، وقال:

وزلةٌ يكثرُ الشيطانُ إن نُكرت منها التعجبُ جاءت من سليمانا
لا تعجبين لخيرٍ زلّ عن يده فالكوكبُ النحسُ يسقي الأرضَ أحياناً^(١٩)

ومما نقل من أقوال الخليل في الشعر ما جاء في كتاب زهر الآداب للحصري القيرواني: "الشعر حلية اللسان، ومدرجة البيان، ونظام الكلام، مقسومٌ غيرٌ محظور، ومشاركٌ غيرٌ محصور، إلا أنه في العرب جوهرية، وفي العجم

صناعي^(٢٠). ثم يصف الشعراء بأنهم أمراء الكلام لأنّ ما يباح لهم لا يجوز لغيرهم، من إطلاق المعنى وتقييده، ومن تصريف اللفظ، ومدّ المقصور وقصر الممدود وغير ذلك^(٢١).

وسئل الخليل: مالك لا تقول الشعر؟ قال: الذي أريده لا أجده، والذي أجده لا أريده^(٢٢). وسئل: أيّ بيت تقوله العرب أشعر؟ قال: البيت الذي لا يحجبه عن القلب شيء^(٢٣).

ومن أقواله فيم أوردّه صاحب العقد في طبائع الإنسان قوله: "إنك لا تعرف خطأ معلمك حتى تجلس عند غيره"^(٢٤).

وللاختيارات دلالة خاصّة، حيث تحمل ذوق أصحابها، وقد استهوت هذه الأبيات والأقوال الأندلسيين دون غيرها، للطاقة بعضها، أو ربّما الإعجاب بها وبالخليل، أو قد يكون لإيراد بعضها دلالات لتأكيد فكرة أرادها الأندلسيون، مثل أبيات عدم الرضا عن النجوم، لعلمنا بموقف الأندلسيين من التّجيم، أو رفض التّكسّب بالشعر، وعفة النفس في طلب المال.

كتاب العين:

وممن روى كتاب العين بمصر من الأندلسيين، قاضي الجماعة بقرطبة منذر بن سعيد البلوطي، حيث رحل حاجاً سنة ثمان وثلاثمائة^(٢٥)، وقيل إنّ هذه النسخة من الكتاب محرّفة، ذلك أنّ الحكم المستنصر بالله أمر بمقابلة كتاب العين للخليل في دار الملك بقرطبة، أحضر من الكتاب نسخاً كثيرة، ومن جملتها نسخة القاضي، فظهر فيها التغيير والتصحيف في مواضع، وجاءت بعض الأبيات فيها مكسورة^(٢٦)، وقد أمر الحكم بجمعه في كتاب مختصر العين للزبيدي، حيث يقول في مقّمة الكتاب: "هذا كتاب أمر بجمعه وتأليفه أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله، أطال الله بقاءه، وعناية منه بالعلم... ذهبت فيه إلى اختصار الكتاب المعروف بكتاب العين، المنسوب إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي، بأن تؤخذ عيونه، ويلخص لفظه، ويحذف حشوه، ويسقط فضول الكلام المتكرّرة فيه، لتقرب بذلك فائدته، ويسهل حفظه، ويخفّ على الطالب جمعه"^(٢٧).

ثم ينفي أن يكون هذا الخلل في الكتاب من الخليل، بقوله: "ونحن نربأ بالخليل عن نسبة هذا الخلل إليه، أو التعرض له للمقاومة له والردّ عليه، بل نقول: إن الكتاب لا يصحّ ولا يثبت عنه"^(٢٨).

ثم يفسّر ويعلّل سبب ما وقع فيه من الخلل بقوله: "وأكبر الظنّ فيه، أن الخليل سبّب أصله، ورام تثقيف كلام العرب به، ثم هلك قبل تمامه، فتعاطى إتمامه من لا يقوم في ذلك مقامه"^(٢٩).

وقد حذف الزبيدي الفضول والتكرار، وتخلص من الشواهد الشعرية، التي كان يعجّ بها كتاب العين، كما تخلص من الشواهد الأخرى، ولم يبق إلا قليلاً من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة، ونجده لا يتردد في نقل مواد من أبوابها إلى أبواب أخرى يراها أليق وأجدر^(٣٠). ويسوق المحقق نماذج من التحريفات والتصحيحات التي وقع عليها في كتاب العين، وردت سالمة صحيحة في مختصر الزبيدي^(٣١).

ومما أورده المقرئ عمّا فعله الزبيدي، قوله: "وكان كتاب العين للخليل مختلّ القواعد، فامتعض له هذا الإمام، وصقل صدأه كما يصقل الحسام، وأبرزه في أجمل منزع، حتى قيل: هذا ممّا أبدع واخترع"^(٣٢).

وقد أشار ابن خلدون أن الخليل كان سابق الحلبة في تأليف كتاب العين، بعد أن فسدت ملكة اللسان العربي في حركات الإعراب، وأورد ابن خلدون نظام البناء في كتاب العين، ثم أشار إلى ما قام به الزبيدي، لكنه ذكر أنه اختصره وحذف منه المهمل، لهشام بن الحكم المستنصر^(٣٣)، وقد يكون أمّته بعد موت الحكم المستنصر. ثم يذكر تأثر الأندلسيين بنظام البناء عند الخليل، كابن سيده من أهل دانية في كتابه المحكم، وقد زاد ابن سيده في كتابه التعرّض لاشتقاقات الكلم وتصاريحها، ولخصه محمد بن أبي الحسين صاحب المستنصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس وقلب ترتيبه في اعتبار ترتيب الكلم على غرار ترتيب كتاب الصّاح^(٣٤).

إذن لم يقف الأندلسيون على كتاب العين إلا بالتنقيح وحذف المهمل أو الزيادة أو الاستفادة من بنائه في الترتيب.

- مسائل في اللغة.

وقد صحح الزبيدي كلمات ومسائل في النحو واللغة، مستندا في ذلك إلى ما روي عن الخليل من قول، أو شعر، من ذلك:

ويقولون للسقط يكون فيه الكتب، "قَمَطِر" والصواب "قِمَطِر" والجمع "قِمَاطِر" وأنشد للخليل:

ليس بعلم ما حوى القِمَطِرُ
ما العلم إلا ما حواه الصِّدْرُ^(٣٥)

ومن ذلك قولهم: "قادوم"، والصواب: "قَدوم" وأنشد الخليل:

يا ابنةَ عجلانٍ ما أصبرني على خطوبٍ كنجبتِ بالقَدومِ^(٣٦)

وهناك مسائل أخرى^(٣٧).

- تعصب الأندلسيين.

ولعل ما تعرض له الأندلسيون من صعوبات حين ارتحلوا قسراً إلى المشرق، بعد سقوط المدن الأندلسية، جعلهم يببالغون في تعصبهم لعلمائهم على حساب علماء المشرق، من ذلك مقارنة أثير الدين أبا حيان أحد علماء اللغة المرتحلين للمشرق، بالخليل: "كان أمير المؤمنين في النحو، والشمس السافرة شتاء في الصحو، والمتصرف في هذا العلم فإليه الإثبات والمحو... فلو رآه الخليل لكان بعينه قذاه..."^(٣٨).

ويعتز أثير الدين بنفسه وبالأندلسيين، من خلال حديثه عن دورهم في إحياء علم النحو، يقول:

وما زال منا أهل أندلس له جهاذٌ تبدي فضله وتناجده
أثار أثير الدين للنحو كامناً وعالجه حتى تبدت قواعده
إذا مغربي حط بالثغر رحله تيقن أن النحو أخفاه لأحده^(٣٩)

ولعله يببالغ في تعصبه للأندلسيين، فكيف يرى أن المغاربة أقدر على دراسته واستجلاء مسأله في حين أن المشاركة هم الأصل في وضع قواعده.

ولا ننسى الفترة الزمنية الممتدة بين الخليل الذي توفي ما بين (١٧٠-١٧٥هـ)، وأثير الدين المتوفى (٥٧٤٥هـ) والتي تجعل مثل تلك المقارنة متجوّزة وغير منصفة.

ويشتطّ ابن شهيد في رسالته التّوابع والزّوابع في النيل من كتاب العين، بقوله: "هو عندي في زنبيل"^(٤٠).

وقد أشارت بعض المصادر الأندلسية للخليل بإشارات عابرة، وترجمت له باقتضاب^(٤١).

هذه بعض الأخبار التي استطاعت الباحثة أن تعثر عليها عن الخليل في المصادر الأندلسية، وهي في مجملها قليلة، وتعطي صورة تحمل دلالات على مكانة الخليل والاهتمام به، لاسيما بكتابه العين والتأثر به من قبل نحويي الأندلس، ولا تخلو تلك الإشارات من أحكام عامّة، أو أحكام فيها انطباعات خاصّة شخصية، أو لها علاقة بظروف خاصّة.

وهذه الدراسة أقرب ما تكون إلى التتبع الأفقي لأخبار الخليل، لقلة المعلومات المتوافرة عنه، وعدم انتظامها، إلّا فيما يتعلّق بكتاب العين والمقارنات والمختصرات.

ولعلّ شهرة الخليل بن أحمد وطول باعه في هذه العلوم أغنت عن الوقوف المستفيض عند أخباره، وأنّ علمه انعكس إفادة مباشرة أو غير مباشرة فيما تضمنته كتبهم وآراؤهم، أو في تقسيمهم لكتبهم على غرار كتاب العين، وأنّ بعض هذه المواقف التي ارتجلوها ارتجالاً وحفظوها عن الخليل، تعني كثرة مطالعتهم لكتبه، فالمرء لا يرتجل إلاّ مما كان قد تدارسه وعلق بفكره وقلبه، كما تعطي صورة عن اهتمامهم بالخليل، وحبهم أخلاقه، وتدارسهم كتبهم، وإفادتهم من علمه.

والله وليّ التّوفيق.

الحواشي.

- (١) الزبيدي، أبوبكر محمد بن حسن الإشبيلي، لحن العوام، تحقيق، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٠، ص ٦٠ .
- (٢) المصدر السابق، ص ٦٠ .
- (٣) الزبيدي، أبو بكر محمد بن حسن الإشبيلي، طبقات النحويين واللخويين، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، محمد الخانجي بمصر، ط١، ١٩٥٤، ص ٤٣ .
- (٤) ابن سعيد المغربي، علي بن موسى، المغرب في حلى المغرب، تحقيق، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٥٥، ج٢، ص ٢٥ .
- (٥) الأوثيني، أبو عبيد البكري، سمط اللآلي، تحقيق، عبد العزيز الميمني، مطبعة لجنة التأليف، مصر، ١٩٣٦، ص ٨١٥ .
- (٦) ابن الأثير، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي، الحلة السراء، تحقيق، حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط١٩٨٥، ج٢، ص ٧٤ .
- (٧) الأزدي، علي بن ظافر، بائع البدائه، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الأنجلو مصريّة، ١٩٧٠، ص ٣٦٦ .
- وقد أورد ابن بسام الشنتريني الأبيات وقول الخليل في الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق، سالم البدري، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٩١، ج١، ص ٥٣٧. "للحبيبين"، وفي النفع طبعة دار صادر، ج٣، ص ٢٦٥ .
- (٨) الذخيرة، ج١، ص ٥٣٧ .
- (٩) العقد الفريد، مكتب تحقيق التراث، دار إحياء التراث، بيروت/ لبنان، ط١٩٩٩، ج٣، ص ٣٩١ .
- (١٠) المصدر السابق، ج٥، ص ٤٠٦ .
- (١١) السابق، ج٥، ص ٢٦٩ .
- (١٢) السابق، ج٦، ص ٢٠٢، طبقات النحويين، ص ٤٥ .
- (١٣) العقد، ج٥، ص ٣٨٤ .
- (١٤) السابق، ج٥، ص ٣٩٠ .
- (١٥) السابق، ج٥، ص ٣٨٧ .
- (١٦) طبقات النحويين، ص ٤٤. وقد ورد البيتان الأول والثاني في سمط اللآلي، ص ٨١٥ - ٨١٦ .
- (١٧) المصدر السابق، ص ٤٣. الدندن: أصول الشجر .
- (١٨) الذخيرة، ج٣، ص ٤٣٦ .
- (١٩) التادلي، أبو العباس أحمد بن عبد السلام التادلي، الحماسة المغربية، تحقيق، محمد رضوان

- الذآيه، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق، ص ١٣٧٤. والكوكب النحاس: الذي لا يطر الأرض نوؤه .
- (٢٠) الحصري القيرواني، أبو إسحق إبراهيم بن علي، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق، علي محمد البجآوي، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٩٥٣، ج٢، ص٦٣٣.
- (٢١) المصدر السابق، ج٢، ص٦٣٣.
- (٢٢) العقد، ج٥، ص٢٨٨.
- (٢٣) السابق، ج٥، ص٢٧٢.
- (٢٤) السابق، ج٦، ص٢٨٢.
- (٢٥) النفع، ج٢، ص٢١.
- (٢٦) بدائع البدائنه، ص٥٢، ٥٣.
- (٢٧) الزبيدي، أبو بكر محمد بن حسن الإشبيلي، مختصر العين، تحقيق، حامد الشانلي، دار الكتب، بيروت - لبنان، ط١٩٩٦، ج١، ص٤١.
- (٢٨) المصدر السابق، ج١، ص٤٢.
- (٢٩) السابق نفسه.
- (٣٠) السابق، مقدمة المحقق، ص٢٠.
- (٣١) انظر، مقدمة المحقق، ص٢٤-٣٠.
- (٣٢) النفع، ج٣، ص٤٧٦.
- (٣٣) لحن العوام، ص٣٠٦.
- (٣٤) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، دار القلم، ودار صادر، بيروت، ط٥، ١٩٨٤، ج١، ص٥٤٨.
- (٣٥) لحن العوام، ص١٤٠.
- (٣٦) مقدمة ابن خلدون، ج١، ص٥٤٩.
- (٣٧) انظر لحن العوام، الصفحات: ٦٠، ٢٧٦، ٢٧٣، ٢٨٧، ٣٠٣، ٣١١.
- (٣٨) النفع، ج٢، ص٥٣٧.
- (٣٩) ديوان أبي حيان الأندلسي، تحقيق، أحمد مطلوب وخديجة الحديشي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٩٦. انظر القصيدة كاملة، ص٥٠-٥٦.
- (٤٠) ابن شهيد الأندلسي، رسالة التوابع والزوابع، صححها وحقق ما فيها، بطرس البستاني، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦، ص١٢٤.
- (٤١) انظر، ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، تحقيق، محمد عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ١٩٦٢، ص٣٨.

الخليل بن أحمد عبقرى العلماء

١٩٩٤ ١٤١٦ هـ

د. يوسف بن محمود فجال
جامعة الملك سعود - السعودية





الخليل بن أحمد عبقرى العلماء

د. يوسف بن محمود فجال

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد:
فقد خلد تاريخنا المجيد على صفحاته إضاءات مشرقة لأناس حبوا الإنسانية
عطاءً علمياً ومعرفياً عظيماً، بات رافداً لمن أتى بعدهم، ومن بين هؤلاء العالم
الكبير الخليل بن أحمد الفراهيدي.

"الخليل" يأتي في طليعة أولئك الذين تَسَنَّمُوا ذُرْوَةَ التَّميِّزِ في العلم، والذين
حفظَ لهم التاريخُ تلكَ المكانةَ العظيمةَ على مرَّ أدوارِهِ، واعترفَ بنبوغِهِم النادرِ
وعطائِهِم الوافرِ .

أخلص الخليل للغة العربية، وحبَّها حبَّه، ومنحها اهتمامه، وصرفَ لها جُلَّ
عمره، شارحاً لعلومها وموضحاً ومؤصلاً ومبتكراً، فكان له فضلُ السبقِ في إبرازِ
كثيرٍ من معالمها العظيمة .

وبحثي هذا إشراقاً ومُساهمةً في دراسة طرف من شخصية الخليل بن أحمد
الفراهيدي، لعلِّي أضيفُ به جهداً جديداً في استكناه شخصيته العبقرية الفذة، ووسمته
بـ "الخليل بن أحمد عبقرى العلماء"، وهو يتحدث عن جانبين من جوانب شخصيته:

الأول: الخليل بن أحمد في عيون العلماء.

والثاني: طرف من أقواله وحكمياته.

وقد عرضت في الجانب الأول تعريفاً موجزاً عن الخليل، ثم أتبعته بنظرة
العلماء إلى الخليل، وكان ذلك فيما يأتي: ما قيل في علمه، ما قيل في مخترعاته، ما
قيل في شعره، ما قيل في تعبيره للمنام، ما قيل في ذكائه، ما قيل في زهده، ما قيل
في ورعه وتقواه، ما قيل في عبادته وعلمه بالسنة، ما قيل في مكارم أخلاقه، ما قيل
في الثناء عليه في سوى ما سبق، ما قيل في مذهبه، الخليل بن أحمد مضرب المثل،
ثم ختمت هذا المبحث في الذين ردُّوا عليه.

وعرضت في الجانب الثاني طائفة من أقوال الخليل وعباراته في جانب الحكم والمواعظ والأخلاق والنصح، مستبعداً الأقوال والآراء اللغوية والنحوية والصرفية، من تصحيح كلمة أو تركيب، أو تدقيق عبارة أو مصطلح؛ إذ لهذا بابه الواسع ومجاله المستقل.

وكان الحديث في هذا المبحث عما يأتي: كلامه في أهل العلم، كلامه على العلماء، في العلم وتعليمه، في أنواع العلوم، عدم التعجل في الجواب، في التدين وأصول الدين، في الزهد، من دعاء الخليل لنفسه، ما يُنتَقَعُ به في هذه الدنيا، في الأخوة والصداقة، في المحبة، حكم عامة، تقسيمات متعددة لأمر مختلف، في تقسيم الناس، في أكمل ما يكون الإنسان عقلاً، ثلاث يُنسى المصائب، وختمت المبحث هذا في بيانه لخمسة من الأنبياء ذوي اسمين.

ثم ختمت بحثي هذا بخاتمة عرضت فيها خلاصة ما كتبت، وأبرز النتائج التي توصلت إليها، ثم ألحقت بالمبحث المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها فيه، وفهرساً للموضوعات.

والله أسأل أن يكون عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن أكون قد وفقت في تجلية جانب من صورة الخليل في تراثنا العربي الأصيل، وأن يلقى بحثي القبول والفائدة. والله وليي، ونعم المولى.

الخليل بن أحمد في عيون العلماء.

الخليل^(١) هو أبو عبد الرحمن، الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم، البصري الفراهيدي الأزدي اليماني، ويقال: الفرهودي^(٢).

وفراهيد، ويحمد: بطنان من الأزدي. وفراهيد جمع فرهود، وهو ولد الأسد بلغة أزد شنوءة، وقيل: الفراهيد صغار الغنم^(٣).

انحدر من قرية عمانية إلى البصرة، وولد سنة مئة هجرية^(٤)، وتوفي سنة ١٧٠هـ، وقيل: ١٧٥هـ^(٥)، وقيل ١٦٠هـ^(٦)، وقيل غير ذلك^(٧).

وذكر في سبب وفاته أنه قال: "أريد أن أقرب نوعاً من الحساب تمضي به الجارية إلى البقال، فلا يمكنه ظلمها، ودخل المسجد، وهو مُغفل فكره في ذلك،

فصدمته سارية، وهو غافل عنها بفكره، فانقلب على ظهره، فكانت سبب موته.
وقيل: بل كان يُقَطَّع بحراً من العروض^(٨). والله أعلم بالصواب.

ما قيل في علمه:

كان للخليل أثرٌ عظيمٌ في صنيع الحياة العقلية العربية الإسلامية، فالدارس لعدد من علوم العربية كاللغة والنحو والصرف والعروض وأصولها لا بد أن يقف بداءة عند الشخصية المؤسسة لهذه العلوم، ومن كانت له اليد الطولى والقدم الراسخة في رسم معالم هذه العلوم، فعندما نقرأ كتاباً في النحو أو الصرف فإنه نتاج اللبنة الأولى التي وضعها الخليل، وعندما نبحث ونكتب في العروض فإنه - كذلك - تابع ومكمل لما كتبه الخليل واخترعه، والأمر ذاته ينطبق على أصول اللغة ومعانيها. ولا تجد كتاباً من كتب التفسير أو الحديث أو الفقه، ناهيك عن كتب اللغة أو النحو أو الصرف يخلو من تعليقة أو فائدة أو لطيفة كان الخليل مرجعيتها، من بيان معنى لغوي، أو اصطلاح نحوي أو صرفي أو عروضي أو غير ذلك.

وإذا تتبعت كلام العلماء في الخليل، فستجد إسناد لفظة (الأولية) له كثيرة؛ فهو أول من كتب في العروض والقوافي^(٩)، وهو أول من ضبط اللغة^(١٠)، وهو أول من حصر أشعار العرب^(١١).

وإذا راجعنا كلام العلماء في وصف علمه فستجد أنك تقف أمام علم من الأعلام الشوامخ، وعبقرى من عباقرة الدنيا، ونادرة من نواذر الزمان، وهذا ما دعا الإمام الشافعي بأن يقول: "وقد كنتُ أحبُّ أن أرى الخليلَ بنَ أحمدَ"^(١٢).

أما علم النحو فقد نبواً بفضل الخليل أعلى ذروة وصل إليها في القرنين الأول والثاني للهجرة، فلم يكن في شيوخ الخليل وشيوخهم من يدانيه بما نهض به، ولم يكن في تلامذته وتلامذتهم من يجاربه سوى سيبويه، وكل من جاء بعده يعرف مكانه، ويُجِلُّه، ويُكَبِّرُهُ.

وتتضح قيمة الخليل في تاريخ النحو العربي في أنه أكمل الأسس التي وضعها النحاة منذ أبي الأسود الدؤلي حتى أيامه، فهم الذين قاموا بعملية الاستقراء، ووضع الأصول، واستنباط النظم اللغوية، وهو الذي نظر فيما جمعه فأكمل

استقراءهم، وعمق أصولهم، وفَسَّرَ النُّظْمَ تفسيراً يقوم على ربط الظواهر بعضها ببعض، والنظر إلى اللغة على أنها صرح محكم البنيان، منطقي التركيب. ولما ألف سيبويه كتابه اتكأ في معظم الأبواب على علم الخليل، مصرحاً باسمه كثيراً، ومكتفياً بقوله: "وسألته" أو "قال" أو "وقلت له" من غير أن يُصرِّح باسمه، فالخليل هو الأصل في كتاب سيبويه، لذا قيل ليونس بعد موت سيبويه: إن سيبويه صنَّف كتاباً في ألف ورقة من علم الخليل، فقال: ومتى سمع سيبويه هذا كله من الخليل؟! جيئوني بكتابه، فلما رآه قال: يجب أن يكون صدق فيما حكاه عن الخليل، كما صدق فيما حكاه عني" (١٣).

وسيبويه لم يُظهر لنا شيخه راوياً ومستقراً بقدر ما أظهره قائساً ومعللاً، فقد جاء الخليل وبين يديه مادة مستقراة ضخمة، فرأى من واجبه أن يستخدم ملكاته في تحليل ظواهرها وتفسيرها وقياس بعضها على بعض، ولم يُنبطه ذلك عن أن يلتبس لكلام العرب مصادر جديدة للمادة اللغوية، فارتحل إلى البادية، وتقل بين الحجاز ونجد وتهامة، وغيرها (١٤)، بحثاً عن المادة اللغوية التي يُوثق بها، ويُطمئن إلى دراستها.

وأما في اللغة فقد كانت همته فيه همة الكبار، والهمم الكبار تُزيح الجبال، فجمع ألفاظ أمة من الأمم، ألفاظ اللغة في معجم، هو أول معجم لغوي في تاريخ العربية. وليس من المبالغة أن نذهب إلى أن الخليل أعظم نحوي حملته أرض العراق، بل أعظم نحوي على مدى العصور. وقد نقل ابن العماد الحنبلي انعقاد الإجماع على أنه "لم يكن أحد أعلم بالنحو من الخليل" (١٥).

وعن اللغة فقد صرح العلماء بأنه "يحفظ نصف اللغة" (١٦)، ويقال: "ثلث اللغة" (١٧). وعن مصدر علمه في اللغة أورد العلماء إجابته للكسائي حين سأله عن ذلك، فقال: "من بوادي الحجاز ونجد وتهامة" (١٨). وقال النووي في معرض نقله عنه: "إمام أهل اللغة والعربية مطلقاً" (١٩). ونصوص العلماء في الثناء على علمه مستقبضة شائعة، ومن ذلك:

قال السيرافي: "وكان من أهل البصرة جماعة انتهى إليهم علم اللغة والشعر، وكانوا نحويين، منهم الخليل بن أحمد، وأبو عبدة معمر بن المثني النيمي، والأصمعي عبد الملك بن قريب، وأبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري، وهؤلاء المشاهير في اللغة والشعر، ولهم كتب مصنفة" (٢٠).

وقال نشوان الحميري: "وَفَتَّقَ عَيُونَ النُّحُوِّ وَشَرَّحَ عِلْمَهُ، وَهُوَ صَاحِبُ كِتَابِ الْعَيْنِ الَّذِي هُوَ أَسْلُكُ لِكِتَابِ اللُّغَةِ وَمِنْهُ تَفَرَّعَتْ" (٢١).

وقال القفطي: "واستتبط أيضاً من علم النحو ما لم يُسَبِّقَ إليه، وحصر علم اللغة بحروف المعجم، وسماه كتاب العين" (٢٢).

وقال أبو الطيب اللغوي: "وأبدع الخليل بدائع لم يُسبق إليها، فمن ذلك تأليفه كلام العرب على الحروف في الكتاب المسمى بكتاب (العين) فإنه هو الذي رتب أبوابه، وتوفى من قبل أن يحشوه" (٢٣).

وقال ثعلب: "إنما وقع الغلط في كتاب العين لأن الخليل رسمه ولم يحشئه، ولو كان حشاه ما بقي فيه شيئاً، لأن الخليل رجل لم ير مثله" (٢٤).

وقد رأيت في بعض كتب التراجم (٢٥) من يروي عن أبي جعفر الرؤاسي أنه عمل كتاباً في النحو وسماه الفيصل، فبعث الخليل إليه يستعيره، فوجه به إليه، فقرأه الخليل وتعلم النحو منه ووضع كتابه، واستدل على ذلك بما في كتاب سيبويه من ذكره، إذ يقول: قال الكوفي. ويرمي من روى ذلك إلى الاستدلال على أن النحو البصري تابع للنحو الكوفي.

وكان في النفس شيء من هذا النقل، وحررت في أمره، إذ هو يناقض ما عُرِفَ عن عقلية الخليل العبقرية. وكم كان سروري بالغاً الغاية حينما عثرت على نصٍ يجلي الحقيقة، فقد ذكر ياقوت الحموي أن هذا من تقصير الكوفيين بالبصريين والغض منهم والعصبية ضدهم، وأن واضع هذه القصة هو أبو بكر ابن الأنباري الكوفي، وقد قال ياقوت بعد روايته لهذه القصة وأمثالها عن ابن الأنباري: "وهذا متى سُمِعَ عِلْمٌ أَنَّهُ لَا يَقُولُهُ إِلَّا عَصْبِي" (٢٦).

بل قال المبرد عن كتاب الرؤاسي: "وقد زعم بعضُ الناس أنه صنَّفَ كتاباً في النحو، فدخلَ البصرةَ لِيُعْرِضَهُ على أصحابنا فلم يُلْتَقَتْ إليه، أو لم يَجْسُرْ على إظهارِهِ لما سَمِعَ كَلَامَهُمْ" (٢٧).

وأما علم العروض فهو مخترعه ومبتكره ومؤسس دعامته، ومما يروى في وضعه ما نُقل عن الخليل: "أنه تعلق بأستار الكعبة، وقال: اللهم ارزقني علماً لم يسبقني إليه الأولون، ولا يأخذه إلا عني الآخرون، ثم رجع وعمل العروض" (٢٨).

وقد ذُكر أنه كان له علم بالإيقاع، وأن له فيه كتاب اسمه (النغم)، وأن معرفته في الإيقاع والأنغام أحدثت له علم العروض (٢٩). وأوليته في هذا العلم سائرة، والنصوص على ذلك معلومة، ومن ذلك:

قول أبي الطيب اللغوي: "ومما أبدع فيه الخليل اختراعه العروض التي حضرت على أوزان العرب، وألحقت المفحّمين بالمطبوعين" (٣٠).

وقال نشوان الحميري: "وكان الخليل ذكياً فطناً لطيفاً عالماً، وهو أول من استخرج علم العروض وابتدعه" (٣١).

وقال القفطي: "نحوي، لغوي، عروضي، استنبط من العروض وعمله ما لم يستخرجه أحد، ولم يسبقه إلى علمه سابق من العلماء كلهم" (٣٢).

وقال السيرافي: "كان الغاية في استخراج مسائل النحو، وتصحيح القياس فيه، وهو أول من استخرج العروض، وحصر أشعار العرب بها، وعمل أول كتاب العين المعروف المشهور الذي به يتهاى ضبط اللغة" (٣٣).

ما قيل في مخترعاته:

لم يقتصر اختراع الخليل على علم العروض، بل أحدث أنواعاً من الشعر ليست على أوزان العرب، ومن ذلك اختراعه لبحر المتدارك.

قال أبو الطيب اللغوي: "وأحدث الخليل أنواعاً من الشعر ليست على أوزان العرب... للخليل بن أحمد قصيدة على (فَعَلَنَ فَعَلَنَ) ثلاثة متحركات وساكن، وأخرى على (فَعَلَنَ فَعَلَنَ) بمتحرك وساكن، فالتى على ثلاثة متحركات قصيدته التي فيها:

سُئِلُوا فَأَبَوْا فَلَقْدَ بَخُلُوا
أَبَكَيْتَ عَلَى طَلَلِ طَرَبَا

والتي على (فعلن) ساكن العين قوله:

هَذَا عَمَرُو يَسْتَعْفِي مِن
فَانهَوْا عَمْرًا إِنِّي أَخْشَى
لَيْسَ الْمَرءُ الْحَامِي أَنْفَا

زِيدَ عِنْدَ الْفَضْلِ الْقَاضِي
صَوَّلَ اللَّيْثَ الْعَادِي الْمَاضِي
مِثْلَ الْمَرءِ الضَّمِيمِ الرَّاضِي

فاستخرج المحدثون من هذين الوزنين وزناً سموه: (المخلع)، وخطوا فيه
بين أجزاء هذا وأجزاء هذا^(٣٤).

والخليل أول من جمع حروف المعجم في بيت واحد، وهو:

صِفْ خَلْقَ خَوْدِ كَمِثْلِ الشَّمْسِ إِذْ بَزَغَتْ

يَحْظَى الضَّجِيعُ بِهَا نَجْلَاءُ مِعْطَارِ^(٣٥)

وقال: "أنا أول من سمى الأوعية ظروفاء؛ لأنها جعلت ظرفاً للأدب

والنظافة"^(٣٦).

ما قيل في شعره:

لم يكن الخليل بن أحمد مكثراً من قول الشعر، قال ابن النديم: "وكان شاعراً
مقللاً"^(٣٧)، وكان جُلُّ شعره البيتين والثلاثة ونحوها في الأداب، ومع ذلك فقد كان
قوي الألفاظ، حسن المعاني.

وقد سئل عن قلة شعره فقال: "لأنى أبى رديته، ويأباني جيده"^(٣٨).

ووصف ابن العماد الحنبلي شعره فقال: "وكان شاعراً مقللاً مطبوعاً"^(٣٩).

وأما نشوان الحميري فقال: "وكان الخليل شاعراً فصيحاً"^(٤٠).

وعد أبو الطيب اللغوي من بدائعه في الشعر، أنه أتى بثلاثة أبيات على قافية
واحدة يستوي لفظها، ويختلف معناها، وأراد بهذا أن يبين أن تكرار اللفظ في القوافي
ليس بضائر إذا لم يكن المعنى واحداً، وأنه ليس بإيطاء، والأبيات:

يا ويح قلبي من تواعي الهوى
أتبعتهم طرفي وقد أمعنوا
بانوا وفيهم طفلة حُرَّة
تفتّر عن مثل أقاحي الغروب
إذ رحل الجيران عند الغروب !
ودمع عيني كفيض الغروب

فالغروب الأول: غروب الشمس. والغروب الثاني: جمع غرب وهو الدلو العظيمة المملوءة. والغروب الثالث: جمع غرب، وهي الوهاد المنخفضة^(٤١).

وهذا طرف من شعره:

فمن ذلك ما روي عنه أنه كان يقطع العروض، فدخل عليه ولده في تلك الحالة، فخرج إلى الناس وقال: إن أبي قد جن، فدخل الناس عليه فرأوه يقطع العروض، فأخبروه بما قال ابنه، فقال له:

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني
لكن جهلت مقالتي فعذلتني
أو كنت تعلم ما تقول عذلتك
وعلمت أنك جاهل فعذرتك^(٤٢)

وروي عنه أيضاً:

وقبلك ذاوى الطبيب المريض
فكن مستعداً لدار الفناء
فعاش المريض ومات الطبيب
فإن الذي هو آت قريب^(٤٣)

وقال في عيسى بن عمر النقي:

بطل النخو جميعاً كلّه
ذاك إكمال وهذا جامع
غير ما أحدث عيسى بن عمر
فهما للناس شمس وقمر^(٤٤)

وقال:

كفالك لم تخلقاً للندى
فكف عن الخير مقبوضة
وأخرى ثلاثة آلافها
ولم يك لومها بدعة
كما خط عن مئة تسعة
وتسع مئتها لها شرعة^(٤٥)

ونظر في النجوم فأبعد النظر، ثم لم يرض بذلك فقال:

أبلغا عني المنجم أنني
عالم أن ما يكون وما كا
كافر بالذي قضته الكواكب
ن بحتم من المهين واجب^(٤٦)

شاهد أن ما يفوض أو يُجـ
سبرُ زارٍ على المقاديرِ كاذبٍ^(٤٧)

وقال:

عُذْرُكَ عِنْدَ رَبِّكَ مَبْسُوطٌ
وَالذَّنْبُ عِنْدَ مِثْلِكَ مَخْطُوطٌ
لَيْسَ بِمَسْخُوطٍ فِعَالٌ امْرِي
كُلُّ الَّذِي يَفْعَلُ مَسْخُوطٌ^(٤٨)

وروي أن سليمان بن حبيب أهدى إليه هدية لم يرضها، فكتب إليه:

أهدى إليّ أبو أيُّوبٍ فأكهةً
مِنَ أَرْضِ سِنْدَانَ يَا لَهِ مِنْ طُرْفِ
هَدِيَّةٍ لَمْ تَكُنْ عِنْدِي بِفَائِدَةٍ
وَلَا هَدَايَا ذَوِي الْإِنْعَامِ وَالشَّرْفِ^(٤٩)

قال الثعالبي^(٥٠): "وقال الخليل في سليمان بن حبيب، وأجاد:

وَزَلَّةٌ يُكْتَبَرُ الشَّيْطَانُ إِنْ ذُكِرَتْ
مِنْهَا التَّعَجُّبُ جَاءَتْ مِنْ سَلِيمَانَا
لَا تَعْجَبَنَّ لِخَيْبٍ زَلٌّ عَنْ يَدِهِ
فَالكَوْكَبُ النَّخْسُ يَسْقِي الأَرْضَ أَحْيَانَا"

وقال:

وَمَا هِيَ إِلَّا لَيْلَةٌ ثُمَّ بِوَمُهَا
وَحَوْلٌ إِلَى حَوْلٍ وَشَهْرٌ إِلَى شَهْرٍ
مَطَايَا يُقَرَّبُنَ الْجَدِيدَ إِلَى الْبَلَى
وَيُذْنِبِينَ أَشْلَاءَ الْكِرَامِ إِلَى الْقَبْرِ
وَيَتَرَكُنَ أَزْوَاجَ الْغِيُورِ لَغَيْرِهِ
وَيَقْسَمُنَ مَا يَحْوِي الشَّحِيحُ مِنَ الْوَفْرِ^(٥١)

وقال:

العَيْنُ تُبْصِرُ مَا تَهْوَى وَتَنْقُذُهُ
فَنَظَرُ الْقَلْبِ لَا يَخْلُو مِنَ النَّظَرِ
إِنْ كُنْتَ لَسْتَ مَعِيَ فَالذِّكْرُ مِنْكَ مَعِيَ
يَرَاكَ قَلْبِي وَإِنْ غُيِّبْتَ عَنِّي بَصَرِي^(٥٢)

ما قيل في تعبيره للمنام:

ذكر الأصمعي أن الخليل كان من أَعْبَر من رأى للرؤيا. وذكر أنه سأله مرة عن اللؤلؤ في المنام فقال: هو القرآن^(٥٣).

ما قيل في ذكائه:

لا داعي للتدليل على ذكاء الخليل، فذلك من باب التعريف بالمعرف، فاختراع علم العروض، وتأصيله لعلم النحو، شاهدان قويان على ذلك. وقد بهر الأقدمون أمام عبقريته وذكائه، وعبروا عن ذلك بتعابير كثيرة، وساقوا على ذلك القصص والأمثال، قال أبو الطيب اللغوي: "وكان الخليل أعلم الناس وأذكاهم، وأفضل الناس وأتقاهم"^(٥٤).

وقد سمع محمد بن سلام مشايخه يقولون: "لم يكن للعرب بعد الصحابة أنكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع، ولا كان في العجم أنكى من ابن المقفع ولا أجمع"^(٥٥).

واجتمع مرة بمكة أدباء كل أفق، وكانوا يتذكرون أمر العلماء، فجعل أهل كل بلد يرفعون علماءهم ويصفونهم ويقدمونهم، حتى جرى ذكر الخليل، فلم يبق أحد إلا قال: "الخليل أذكى العرب، وهو مفتاح العلوم ومصرفها"^(٥٦).

وقال الشريشي: "وقالوا: لا يجوز الصراط بعد الأنبياء والصحابة أدق ذهنًا من الخليل"^(٥٧).

وحكيت عن ذكائه قصص أقرب ما تكون للخيال، فيقال: "إنه كان عند رجل دواء لظلمة العين ينتفع به الناس، فمات واحتاج الناس إليه.

فقال الخليل: أله نسخة معروفة؟ قالوا: لا.

قال: فهل له آنية كان يعملها فيها؟ قالوا: نعم.

فقال: جيئوني بها. فجاؤوه.

فجعل يشم الإناء، ويخرج نوعاً نوعاً حتى أخرج خمسة عشر نوعاً. ثم سأل عن جمعها ومقدارها، فعرف ذلك، فعمله وأعطاه الناس فانتفعوا به.

ثم وجدت النسخة في كتب الرجل، فوجدوا الأخطأ ستة عشر خطأ، كما ذكر الخليل لم يفته منها إلا خطأ واحد"^(٥٨).

ويقال أيضاً: "كتب إليه ملك اليونان كتاباً باليونانية، فخلا به شهراً حتى فهمه، فقيل له في ذلك، قال: قلت: لا بد أن يفتح الكتاب باسم الله تعالى وما أشبهه، فبنيت أول الحروف على ذلك حتى انقاست لي" (٥٩).

ومما ذكر في ذلك أيضاً ما رواه الخليل عن نفسه، قال: "اجتزت في بعض أسفاري براهب في صومعة، فوقفت عليه والمساء قد أزف جداً، وخفت من الصحراء، فسألته أن يدخلني.

فقال: من أنت؟.

قلت: الخليل بن أحمد.

فقال: أنت الذي يزعم الناس أنك وجية واحد في العلم بعلم العرب.

فقلت: كذا يقولون، ولست كذلك.

فقال: إن أجبتني عن ثلاث مسائل جواباً مقنعاً فتحت لك الباب، وأحسنت ضيافتك، وإلا لم أفتح لك.

فقلت: وما هي؟

قال: ألسنا نستدل على الغائب بالشاهد؟

فقلت: بلى.

قال: فأنت تقول أن الله تعالى ليس بجسم، ولا عرض، ولسنا نرى شيئاً بهذه الصفة!.

وأنت تزعم أن الناس في الجنة يأكلون ويشربون ولا يتغوطون، وأنت لم تر أكلاً ولا شارباً إلا متغوطاً.

وأنت تقول أن نعيم أهل الجنة لا ينقضي، وأنت لم تر شيئاً إلا منقضياً.

فقلت له: بالشاهد الحاضر استدلت على ذلك كله.

أما الله تعالى فإنما استدلت عليه بأفعاله الدالة عليه ولا مثل له، وفي الشاهد مثل ذلك وهو الروح التي فيك وفي كل حيوان تعلم أنك تحس بها وهي تحت كل شعرة منا ونحن لا ندري أين هي، ولا كيف هي، ولا ما صفتها، ولا ما جوهرها، ثم نرى الإنسان يموت إذا خرجت ولا يحس بشيء يخرج منه، وإنما استدلتنا عليها

بأفعالها وبحركاتها وتصرفنا بكونها فينا.

وأما قولك: أن أهل الجنة لا يتغوطون مع الأكل، فالشاهد لا يمنع ذلك، إلا ترى الجنين يتغذى في بطن أمه ولا يتغوط؟!.

وأما قولك: أن نعيم أهل الجنة لا ينقضي مع أن أوله موجود، فإننا نجد أنفسنا نبتدئ الحساب بالواحد، ثم لو أردنا أن لا ينقضي لما لا نهاية له لم نزل نكرر الواحد ونكرر أعددته إلى ما لا انقضاء ولا انتهاء له.

ففتح الباب لي وأحسن ضيافتي^(٦٠).

ما قيل في زهده:

كما أجمع العلماء على أصالة علم الخليل، وبراعته، وتقننه، وذكائه، فقد أجمعوا كذلك على زهده وتقواه وورعه، بل أجمعوا على أنه كان من أزهد الناس، وأنه كان فيه في طبقة لا تُدرك.

يقول عنه ابن الأنباري: "سيد أهل الأدب قاطبة، في علمه وزهده"^(٦١).

وهؤلاء تلامذته يصفون زهده في الدنيا وإعراضه عنه، ويحكون وقائع عن ذلك، فيقول علي بن نصر: "كان الخليل بن أحمد من أزهد الناس، وأعلام نفساً، وأشدّهم تعقفاً"^(٦٢).

ويروي تلميذه النضر بن شميل حيرة أهل زمانه فيمن يقدمون في الزهد ابن عون أو الخليل فيقول: "كنا نمثل بين ابن عون والخليل بن أحمد، أيهما نقم في الزهد والعبادة؟ فلا ندري أيهما نقم!"^(٦٣).

ويقول وهب بن جرير: "قل من كان بظاهرة البصرة من العلماء والزهاد إلا كان في باطنها مثله، يضعه أهل البصرة حباله، وكان يُعدُّ الخليل بن أحمد في الظاهرة نظيرة"^(٦٤).

ولم يكن زهد الخليل عن عدم إقبال الدنيا عليه، أو عن بُعد عطايا الملوك عنه، أو عن قصور فكره وعقله عن تحصيل المال.

فهذا تلميذه النضر بن شميل يقول: "أكلت الدنيا بعلم الخليل بن أحمد وكتبه، وهو في خص لا يشعُرُ به أحد"^(٦٥).

ويقول أيضاً: "أقام الخليل في خص من أخصاص البصرة، لا يقدر على فلس، وأصحابه يكسبون بعلمه الأموال، ولقد سمعته يقول: إني لأغلق على بابي، فما تجاوزه هممتي" (٦٦).

لله درك يا خليل ما أزهتك! إني لأغلق على بابي، فما تجاوزه همتي!.
ولقد كان الملوك يقصدونه ويتعرضون له لينال منهم، ولم يكن يفعل، فهذا سليمان بن علي من الأهواز، وجه إلى الخليل - وكان في البصرة - سليمان بن حبيب بن المهلب؛ لتأديب ولده، وترغيبه في المال والعطاء، ويستدعيه.
فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبزاً يابساً، وقال: كل، فما عندي غيره، وما دمت أجدته فلا حاجة لي إلى سليمان.

فقال له الرسول: فما أبلغه عنك؟.

فأنشأ يقول:

أبلغ سليمان أني عنه في سعة	وفي غنى غير أني لست ذا مال
سخرت بنفسي أني لا أرى أحداً	يموت هزلاً ولا يبقى على حال
والفقر في النفس لا في المال تعرفه	ومثل ذلك الغنى في النفس لا المال
فالرزق عن قدر لا العجز ينقصه	ولا يزيدك فيه حول محتال
والمال يغشى أناساً لا أصول لهم	كما تغشى أصول الذنر البالي

فلما بلغ سليمان قطع جارية عليه عنه. فقال الخليل:

إن الذي شق في ضامن	لي الرزق حتى يتوفاني
حرممتي خيراً كثيراً فما	زادك في مالك حرماني

فبلغت سليمان فأقامته وأقعدته، وكتب إلى الخليل يعتذر، وأضعف جائزته، فقال الخليل:

وزلّة يكثر الشيطان إن ذكرت

منها التعجب جاءت من سليماننا

لا تعجبين لخير زل عن يده

فالكوكب النخس يسقي الأرض أحياناً (٦٧)

وقد كان مصدرُ عيشِ الخليلِ من بستانٍ له خلفه عليه أبوه بالخريبة^(٦٨).

ما قيل في ورعه وتقواه:

كان الخليل ورِعاً تقياً ديناً، مشهوداً له بذلك^(٦٩)، محكياً عنه قصصاً عدة في الورع والتقوى والصلاح.

ومن ذلك ما رواه الضحاك بن مخلد: "دخلنا على الخليل بن أحمد قبل وفاته بأيام فقال: والله ما فعلت قط فعلاً أخاف على نفسي منه - وكان لي فضل فكر - صرفته إلى غيرها، وما علمتُ أنني كذبتُ متعمداً قط، وأرجو أن يغفر الله لي التأويل"^(٧٠).

ما قيل في عبادته وعلمه بالسنة:

وصف العلماءُ الخليلَ بالعبادة والصدق والعلم بالسنة. قال ابن حجر العسقلاني: "صدوق عالم عابد"^(٧١). وقال الشريشي حاكياً عن محمد بن حميد: "قال: تزوجت إلى جيران الخليل، فنزلت عليهم، فكنت أسمع قرآن الخليل طول الليل، فقالوا لي: ما عرفنا من هذا الرجل إلا ما ترى، وإنه ليغيب عنا في غزو وحج فنتوحش إليه"^(٧٢). وقال تلميذه النضر بن شميل: "ما رأيت رجلاً أعلم بالسنة بعد ابن عون من الخليل بن أحمد"^(٧٣). بل قد ذكر عنه أنه كان يحج سنة، ويغزو سنة، حتى جاءه الموت^(٧٤).

ما قيل في مكارم أخلاقه:

كان الخليل صاحب خلقٍ ولطفٍ، وقد حكى عنه في هذا قصص أقرب للخيال. ومن ذلك ما حكاه محمد بن مناذر، قال: "كنت أمشي مع الخليل بن أحمد فانقطع شينعي، فخلع نعلَه. فقلت: ما تصنع؟ قال أواسيك في الحفاء"^(٧٥). ومما حكى عنه أيضاً أنه كان "إذا استفاد من أحد شيئاً أراه أنه استفاد منه، وإذا أفاد إنساناً شيئاً لم يره بأن أفاده شيئاً"^(٧٦).

ما قيل في الثناء عليه في سوى ما سبق:

يكاد الأقدمون لا يتركون ثناءً إلا خصوا به الخليل، ولا يدعون وصفاً حسناً

إلا جعلوه المتقدم فيه، وقد رأينا وصفهم له بالعلم والفضل والزهد والعفة والورع وكرم الخلق، بل لم يتركوا وصفاً حسناً في سوى ما تقدم إلا خصّوه به، ومن أقوال العلماء في ذلك ما يأتي:

يروى عن سفيان الثوري أنه كان يقول: "من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك، فلينظر إلى الخليل بن أحمد" (٧٧).

وشبيه به ما روي عن أبي عمرو بن العلاء قال: "من أحب أن ينظر إلى رجل صيغ من ذهب فلينظر إلى الخليل بن أحمد، ثم أنشأ يقول:

قد صاغه الله من مسك ومن ذهب وصاغ راحته من عارض هطل" (٧٨).

وقال أبو الطيب اللغوي: "ولم يكن في علماء البصريين من قطع عليه أنه منقطع القرين مثل الخليل بن أحمد... قال سوار بن عبد الله بن سوار: حدثني أبي

قال: شهد الخليل عند سوار بن عبد الله شهادات، فقبله فيها كلها" (٧٩).

وقال يحيى بن خالد البرمكي: "أربعة ليس في فنهم مثلهم: أبو حنيفة في فنه، والخليل بن أحمد في فنه، وابن المقفع في فنه، والفزاري في فنه" (٨٠).

وقال ابن النديم: "قرأت بخط أبي الفتح النحوي -صاحب بني القرات-: وكان صدوقاً منقراً باحثاً" (٨١).

وقال ابن خلكان: "وكان الخليل رجلاً صالحاً عاقلاً حليماً وقوراً" (٨٢).

ما قيل في مذهبه:

نشأ الخليل إباضياً بحكم ما فطن له من هوى عشيرته (٨٣)، ثم لازم أيوب السختياني، المتوفى سنة ١٣١هـ، وكان سنياً محدثاً فقيهاً ثبّتاً، وكان من صغار التابعين (٨٤)، ويبدو أنه كان صاحب الأثر الكبير في تحوله إلى مذهب أهل السنة.

ويؤيد ذلك نصوص عدة عن العلماء، ومن ذلك: قول إبراهيم الحربي: "كان أهل العربية كلهم أصحاب أهواء، إلا أربعة فإنهم كانوا أصحاب سنة: أبو عمرو ابن العلاء، والخليل بن أحمد، ويونس بن حبيب البصري، والأصمعي" (٨٥).

وقال خلف بن المثني: "كان يجتمع بالبصرة عشرة عشر في مجلس لا يُعرف مثلهم في تضاد أديانهم، الخليل بن أحمد سني، والسيد الحميري رافضي، وصالح

ابن عبد القدوس ثنوي، وسفيان بن مجاشع صفري، وبشار بن برد خليع ماجن،
 وحماد عجرد زنديق، وابن رأس الجالوت يهودي، وابن نظير متكلم، وعمرو ابن
 أخت المؤيد مجوسي، وروح بن سنان الحراني صابئي^(٨٦).
 ومنه قول تلميذه النضر بن شميل: "ما رأيت رجلاً أعلم بالسنة بعد ابن عون
 من الخليل بن أحمد"^(٨٧).

ورجح الدكتور مهدي المخزومي تحول الخليل من مذهب السنة إلى مذهب
 الشيعة^(٨٨)، ودلل على ذلك بشبه لا تثبت صحتها أمام الأدلة والحجج، فمعرفة
 انتماء الشخص إلى عقيدة ما لا بد له من نص يثبت ذلك، والنصوص التي أوردتها
 أنفاً تنفي ذلك، بيد أنه لم يأت إلا بنص واحد في التذليل على ذلك، وهو نص
 خاطئ، وقد بين الدكتور جعفر عباينة في كتابه مكانة الخليل بن أحمد في النحو
 العربي^(٨٩) خطأ ذلك فقال: "ذهب مهدي المخزومي... إلى أن الخليل كان يتشيع،
 وإنه كان من شيعة جعفر بن محمد، وذكر أن مصدره في ذلك مخطوطة (إنباء
 الرواة) بدار الكتب. وحينما عدت إلى تلك المخطوطة، وهي مصورة برقم ٢٥٧٩
 تاريخ، وجدت في الجزء الأول من القسم الثالث لوحة ٢٩٠ أن الذي كان يتشيع،
 وكان من شيعة جعفر بن محمد هو حمران بن أعين الطائي المقرئ النحوي الذي
 تسبق ترجمته ترجمة الخليل، وأن ذلك ورد خطأ وسهواً من الكاتب في ترجمة
 الخليل (لوحة ٢٩٢)، وقد شطب عليه في الأصل للتنبيه على زيادته".

الخليل بن أحمد مضرب المثل:

لعلم الخليل وتقدمه فيه، وإبداعه، وزهده، وورعه، وشهرته ضرباً به
 العلماء والأدباء والشعراء الأمثال.

فقال إسحاق الموصلي يهجو الأصمعي، وحسبك بالأصمعي:

أليس من العجائب أن كلباً أصمّمعَ باهليّاً يستطيلُ!
 ويزعمُ أنه قد كان يُفتي أبا عمرو ويسأله الخليلُ

وقال خالد النجار يهجو التَّوَجِّيَّ:

يا من يزيدُ تمقُّناً
والله لو كنتَ الخليلَ
وتباغُضاً في كلِّ لَحْظَةٍ
لما كتَبْنَا عنكَ لَفْظَةً

وقال عمارة بن عقيل بن بلال بن جريرة:

لولا الإلهُ وأنَّبي مُتَخَوِّفٌ
ألقي مسائلَ في العروضِ تَعْمُنَا
مما أقولُ لَعْنَتُ قَبْرِ خَلِيلِ
من فاعلنِ مستفعلنِ وفعولِ

وقال أبو تمام حبيب بن أوس الطائي يهجو عياش بن لهيعة الحضرمي:

فقدنُكَ من زَمَانٍ شَرًّا فقد
مَحَتْ نَكْبَاتُهُ سُبُلَ المعالي
فما حِيلُ الأريبِ بساتراتِ
فما حِيلُ الأديبِ بمدركاتِ
فلو نشر الخليل له لعَفَّتْ
فما أدري عَمَايَ عن ارتيادي
وغالت حادثاتُك كلَّ غُولِ
وأطفأ ليلُهُ سُرُجَ العقولِ
فضائحه ولا لُبُّ الأصيلِ
عجائبه ولا فكرُ الأصيلِ
بلادته على فِطْنِ الخليلِ
دَهَانِي أم عَمَاكَ عن الجميلِ

وأنشدونا عن المبرد:

لم يدْرِ ما عِلْمُ الخليلِ فيقْتَدِي
ببيانِ ذاكِ ولا حدودَ المنطقِ^(٩٠)

الرد عليه:

ما رأيت أحداً تكلم عن الخليل في علمه أو دينه أو خلقه أو زهده أو ورعه

إلا جعله المقدم في ذلك.

ولم يقع هناك انتقادٌ أو استدراكٌ عليه إلا من خلال كتاب العين، فقد استدرك

عدد من العلماء على مواده بالزيادة أو النقص أو الخطأ. وممن استدرك عليه:

المفضل بن سلمة وعمل في ذلك كتاباً^(٩١). ومنهم عبد الله بن محمد الكرمانى، وأبو

بكر بن دريد، والجهضمي، والسدوسي^(٩٢)، وابن درستويه^(٩٣). واستدرك عليه-

أيضاً- أبو تراب^(٩٤) وخطأه في أماكن، وزاد ما زعم أنه نقصه من اللغة في

أبوابه، ونقص ما زعم أن الخليل زاده في غير بابيه، وهذب ذلك تهذيباً زعم أنه

الصواب، وصنّف في ذلك مؤلفاً سماه: الاستدراك على الخليل^(٩٥).
وينكشف سرّ ما وقع فيه الخليل من الخطأ في كتاب العين ما قاله ثعلب:
"إنما وقع الغلط في كتاب العين لأن الخليل رسمه ولم يحشّه، ولو كان حشاه ما بقي
فيه شيء، لأن الخليل رجل لم يُر مثله"^(٩٦).

إذن فالخطأ الواقع في كتاب العين ليس من الخليل، بل هو من غيره. وقال
ابن خلكان: "وأكثر العلماء العارفين باللغة يقولون: إن كتاب العين في اللغة
المنسوب إلى الخليل بن أحمد ليس تصنيفه، وإنما كان قد شرع فيه ورثب أوائله،
وسمّاه بـ (العين)، ثم مات فأكمّله تلامذته النضر بن شميل ومن في طبقتهم، وهم
مؤرّج السدوسي، ونصر بن علي الجهضمي، وغيرهما، فما جاء الذي عملوه
مناسباً لما وضعه الخليل في الأول، فأخرجوا الذي وضعه الخليل منه، وعملوا
أيضاً الأول، فلهذا وقع فيه خللٌ كثير يبعد وقوع الخليل في مثله"^(٩٧).

طرف من أقواله وحكمياته:

عرضنا في المبحث السابق عن صورة الخليل في التراث، ورأينا اتفاق
العلماء على أوليته وتفوقه في عدد من العلوم، وعرفنا أن هذا لم يكن ليصدر لولا
عقلية علمية عبقرية، تسنمت ذروة التميز في العلم، وعالم نابغة كالخليل حباه الله
ذهناً وقادراً، ونظراً ثاقباً، علينا أن نقترئ كلامه وأقواله وحكمياته حتى نفيد منها
علماً غزيراً، وأدباً جمّاً، بل وطريقاً يُحتذى به.

لذا تتبعت كتب التراث فوجدت طرفاً عظيماً من هذه الأقوال والحكميات،
وكان مدارها على العلم وتعلّمه وتعليمه وأهله، وأيضاً على عدم التعجل في
الجواب، وعلى التدين وأصول الدين، وكذلك في الزهد، وبعض ما كان الخليل
يدعو لنفسه، وما يُنتفع به في هذه الدنيا، وكذلك في معرفة الأخوة والصدقة،
والمحبة، ثم عرضت لحكم عامة، وعرضت لتقسيمات متعددة لأمر مختلف،
ولتقسيمه للناس، وكذلك رأيه في أكمل ما يكون الإنسان عقلاً، وثلاث يُنسين
المصائب، وخمسة من الأنبياء ذوي اسمين. وهذا تفصيل ذلك.

في أهل العلم:

"إن لم يكن أهل القرآن والحديث أولياء الله فليس لله في الأرض ولي" (٩٨).
 "إن لم تكن هذه الطائفة - يعني أهل العلم - أولياء الله تعالى فليس لله ولي" (٩٩).

في كلامه على العلماء:

"نظر الخليل في فقه لأبي حنيفة، فقيل له: كيف تراه؟ فقال: أرى جداً وطريقاً جدياً، ونحن في هزلٍ وطريق هزل" (١٠٠).
 "اجتمع الخليل وابن المقفع ليلة بطولها يتذاكران وافترقا، فسئل الخليل عن ابن المقفع، فقال: رأيت رجلاً علمه أكثر من عقله.
 وقيل لابن المقفع: كيف رأيت الخليل؟ فقال: رأيت رجلاً عقله أكثر من علمه" (١٠١). وروى أنه قال فيه: "علمٌ وافرٌ، وعقلٌ قاصر" (١٠٢).
 وأقبل سيبويه على الخليل فقال له: "مرحباً مرحباً بزائرٍ لا يمل". قال أبو عمر المخزومي، وكان كثير المجالسة للخليل: "ما سمعتُ الخليل يقولها لأحدٍ إلا لسيبويه" (١٠٣).

في العلم وتعليمه:

"إن لم تعلم الناس ثواباً، فعلمهم لتدرس بتعليمهم علمك، ولا تجزع من تفرع السؤال فإنه ينبئك على علم ما لم تعلم" (١٠٤). و"أكثر من العلم لتفهم، واختر قليلاً منه لتحفظ" (١٠٥). و"إذا أردت أن تعلم العلم لنفسك فاجمع من كل شيء شيئاً، وإذا أردت أن تكون رأساً في العلم فعليك بطريق واحد" (١٠٦). و"إذا أردت أن تعلم خطأ معلمك من صوابه، فجالس غيره" (١٠٧). و"العلوم أفعال، والسؤالات مفاتيحها" (١٠٨).
 و"أدركت بعض ما أنا فيه باطراح الحشمة بيني وبين المعلمين، ومن رقى وجهه في طلب العلم رقى علمه" (١٠٩). و"إذا أخطأ بحضرتك من تعلم أنه يأنف بإرشادك فلا ترد عليه خطأه؛ فإنك إذا نبهته على خطئه أسرعت إفادته، واكتسبت عداوته" (١١٠).
 و"اجعل ما تكتب بيت مال، وما في صدرك للتفقه" (١١١). و"الاحتفاظ بما في صدرك أولى من درس ما في كتابك" (١١٢). و"ذاكر بعلمك تذكر ما عندك، وتستفد ما ليس عندك" (١١٣).

في أنواع العلوم:

"العلوم أربعة: فعلم له أصل وفرغ، وعلم له أصل ولا فرغ له، وعلم له فرغ ولا أصل له، وعلم لا أصل له ولا فرغ. أما الذي له أصل وفرغ فالحساب، ليس بين أحد من المخلوقين فيه خلاف. وأما الذي له أصل ولا فرغ له فالنجوم، ليس لها حقيقة يبلغ تأثيرها في العالم، يعني الأحكام والقضايا على الحقيقة. وأما الذي له فرغ ولا أصل له فالطب، أهله منه على التجارب إلى يوم القيامة. والعلم الذي لا أصل له ولا فرغ فالجدل. قال أبو بكر الصولي: يعني الجدل بالباطل" (١١٤).

عدم التعجل في الجواب:

"إن الرجل يُسأل عن المسألة ويعجل في الجواب فيصيب فأثمته، ويُسأل عن مسألة فينتبئ في الجواب فيخطئ فأحمدته" (١١٥).

في التدين وأصول الدين:

"إذا قلت: أنا مؤمن، فأى شيء بقي؟! (١١٦). وما كان جدلاً إلا أتى بعده جدلٌ يُبطله" (١١٧). و"حسب امرئٍ من الشرِّ أن يرى في نفسه فساداً لا يصلحُه، ومن علم بفساد نفسه علم بصلاحها، وأقبح التحول أن يتحول المرء من ذنب إلى غير توبة ولا إقلاع عنه" (١١٨). وكان الخليل يُكثرُ إنشاد بيت الأخطل:
 "وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجذُ ذخراً يكون كصالح الأعمال" (١١٩).

في الزهد:

"سئل الخليل بن أحمد عن التزهد فقال: لا يطلبُ المفقودَ حتى تَفْقُدَ الموجودَ" (١٢٠).

"وقيل له: ما الجود؟ فقال: بذلُ المجهود. قيل له: فما الزهد؟ قال: أن لا تَطْلُبَ المفقودَ حتى تَفْقُدَ الموجودَ" (١٢١).

من دعاء الخليل لنفسه:

"وكان الخليل بن أحمد يقول: اللهم اجعلني عندك من أرفعِ خلقك، واجعلني في نفسي من أوضعِ خلقك، وعند الناس من أوسطِ خلقك" (١٢٢).

وقال: ثلاثة أشياء أنا أحبها لنفسي، ولمن أحب رُشدُه: أحب أن أكون بيني وبين ربي من أفضل عبادِه، وأكون بيني وبين الخليقة من أوسطهم، وأكون بيني وبين نفسي من شرهم، قال عبد الله بن داود: لو كُتِبَ شيءٌ بالذهب لُكُتِبَ هذا^(١٢٣).

ما ينتفع به في هذه الدنيا:

روي عن سيبويه أنه قال: "رأيت الخليل بن أحمد في المنام، فقال لي: رأيت ما كنا فيه؟ فإنني لم أنتفع بشيءٍ منه، إنما انتفعت بقولي: سبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر"^(١٢٤). وقيل الرائي هو علي بن نصر الجهضمي^(١٢٥). وروي المنام كالآتي: "رأيت الخليل بن أحمد في المنام، فقلت له: ما فعل بك ربك؟ قال غفر لي. قلت: بم نجوت؟ قال: بلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، قلت: كيف وجدت علمك، أعني العروض والأدب والشعر؟ قال: وجدته هباءً منثوراً"^(١٢٦).

في الأخوة والصدقة:

"أربع تعرف بهن الأخوة: الصفح قبل الانتقاد له، وتقديم حسن الظن قبل التهمة، وبذل الود قبل المسألة، ومخرج العذر قبل العتب، ولذلك نقول:

أخوك الذي يعطيك قبل سؤاله ويصفح عند الذنب قبل التعتب
يقدم حسن الظن قبل اتهامه ويقبل عذر المرء عند جهالته"^(١٢٧)

و"لا توأصلن صديقاً إلا بعد تجربة، وإذا صادقته فلا تقاطعه، فمؤمن بلا صديق خير من مؤمن كثير الأعداء"^(١٢٨). و"الرجل بلا صديق كاليمين بلا شمال"^(١٢٩). و"قيل له: إن استفساد الصديق أهون من استصلاح العنوّ. فقال: نعم، كما أن تخريق الثوب أهون من نسجه"^(١٣٠).

في المحبة:

وقال اليزيدي: "قدم الخليل بن أحمد عليّ وأنا على طنفسة، فأوسعت له عليها، فأبى إلا القعود معي عليها، ثم قال: مهلاً، إن الموضع الضيق يتسع بالمتحابين، وإن الواسع من الأرض ليضيق بالمتباغضين، ثم أنشأ الخليل يقول:

يقولون لي دار المحبين قد دنت وأنت كئيب، إن ذا لعجيب
 فقلت: وما تُغني الديارُ وقُربها إذا لم يكن بين القلوب قريباً^(١٣١)
 ودخل على الخليل بعض إخوانه وهو على نمرقة صغيرة، فرحب به
 وأجلسه معه في مكانه، فقال لل خليل : إنها لا تحملنا. فقال له الخليل: "ما تضايق
 سمُ الخياط لمحبين، ولا اتسعت الدنيا بمتباغضين"^(١٣٢).

حكم عامة:

"الدنيا أمد والآخرة أبد"^(١٣٣). و"الناس في سجن ما لم يمتازحوا"^(١٣٤).
 و"التواني إضاعة، والحزم بضاعة، والإنصاف راحة، واللجاج وقاحة"^(١٣٥).
 و"لا تَرْتَنَّ على مُعْجَبٍ خَطَأً فَيَسْتَفِيدَ مِنْكَ عِلْمًا، وَيَتَّخِذَكَ بِهِ عَدُوًّا"^(١٣٦). قال
 الرياشي: ذكرت هذا للجاحظ، فقال لي: "سبحان الله هذا واحد فرد، وبيتيم فذ"^(١٣٧).
 و"من نَمَّ إليك نَمَّ عليك، ومن أخبرك بخبر غيرك أخبر غيرك بخبرك"^(١٣٨). و"ما
 رأيت ظالماً أشبه بمظلومٍ من حاسدٍ نفسٍ دائمٍ، وعقلٍ هائمٍ، وحزنٍ لائم"^(١٣٩). وقال
 الأصمعي: "أنشدني الخليل لنفسه:

اعْمَلْ بَعْلَمِي وَإِنْ قَصُرَتْ فِي عَمَلِي يَنْفَعُكَ عِلْمِي، وَلَا يَضُرُّكَ تَقْصِيرِي"^(١٤٠)
 "حَسْبُكَ مِنْ دَهْرِكَ هَذَا الْقَوْتُ مَا أَكْثَرَ الْقَوْتُ لِمَنْ يَمُوتُ"^(١٤١)

تقسيمات متعددة لأمر مختلف:

"الأمر على ثلاثة أنحاء - يعني على ثلاثة أوجه-: شيء يكون البتة،
 وشيء لا يكون البتة، وشيء قد يكون وقد لا يكون. فأما ما لا يكون فما مضى من
 الدهر لا يرجع، وأما ما يكون البتة فالقيامه تكون لا محالة، وأما شيء قد يكون
 وقد لا يكون فمثل قَدْ يَمْرُضُ وَقَدْ يَصِحُّ"^(١٤٢).

و"الناس على ثلاثة أوقات: وقت مضى عنك فلن يعود إليك، ووقت أنت فيه
 فانظر كيف يخرج عنك، ووقت أنت تنتظره وقد لا تبلغ إليه"^(١٤٣).

و"الأيام ثلاثة: فمعهود وهو أمس، ومشهود وهو اليوم، وموعود وهو
 الغد"^(١٤٤).

و"الدنيا أصداد متجاورة، وأشباه متباينة، وأقارب متباعدة، وأبعاد متقاربة" (١٤٥).

و"إذا خرجت من منزلي لقيت أحد ثلاثة: إما رجلاً أعلم بشيء منى، فذلك يومُ الفائدة، أو مثلي فذلك يومُ مذاكرة، أو دوني فذلك يومُ ثواب" (١٤٦).

و"المحال: الكلام لغير شيء، والمستقيم: كلام لشيء، والغلط: كلام لشيء لم تُرِدْهُ، واللغو: كلام لشيء ليس من شأنك، والكذب: كلام لشيء تغرُّ به" (١٤٧).

في تقسيم الناس:

"من الناس من يدري ويدري أنه يدري فذاك عالم فاتبعوه. ومنهم من يدري ولا يدري أنه يدري فذاك ضال فأرشدوه. ومنهم من لا يدري ويدري أنه لا يدري فذاك طالب فعلموه. ومنهم من لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذاك جاهل فاحذروه" (١٤٨).

و"الناس أربعة، فكلم ثلاثة وواحد لا تكلمه، قال: رجل يعلم وهو يعلم أنه يعلم فكلمه. ورجل يعلم ولا يعلم أنه يعلم فكلمه. ورجل لا يعلم وهو يعلم أنه لا يعلم فكلمه. ورجل لا يعلم وهو يرى أنه يعلم فلا تكلمه" (١٤٩).

وقال الخليل: "الناس ثلاثة: فائنان يُعلمان، وواحد لا يُعلم. رجل عالم يعلم أنه عالم هذا يُعلم. ورجل عالم لا يعلم أنه عالم فهذا يُعلم وهو يرى أنه يعلم، فهذا لا يُعلم" (١٥٠).

في أكمل ما يكون الإنسان عقلاً: "أكمل ما يكون الإنسان عقلاً وذهناً إذا بلغ أربعين سنة، وهي السن التي بعث الله تعالى فيها محمداً ﷺ، ثم يتغير وينقص إذا بلغ ثلاثاً وستين سنة، وهي السن التي قبض فيها رسول الله ﷺ، وأصفي ما يكون ذهن الإنسان في السحر" (١٥١).

ثلاث ينسين المصائب:

وقال الخليل: "ثلاثة تُنسيني المصائب: مرُّ الليالي، والمرأة الحسنة، ومحادثة الرجال" (١٥٢).

خمسة من الأنبياء ذوو اسمين:

قال الخليل بن أحمد: "خمسة من الأنبياء ذوو اسمين: محمد وأحمد نبينا ﷺ، وعيسى والمسيح، وإسرائيل ويعقوب، ويونس وذو النون، وإلياس وذو الكفل" (١٥٣).
 وقليل أولئك العلماء الذين تُجمع كتبُ التاريخ على نبوغهم وعبقريتهم وعلميتهم بله صلاحهم وتقواهم وزهدهم. الخليل بن أحمد الفراهيدي أخذ أولئك. أولئك الذين سطر التاريخ كل ما استطاع أن يُسطرّه فيهم، بل الخليل فوق ذلك كلّهُ، إذ كان محوراً لصنيع الحياة العقلية العلمية العربية الإسلامية.

ففي النحو هو مفتق عيونه، وشارح علله، ومستتبط أحكامه، ومصحح قياسه. وليس بصحيح ما روي من أن الخليل استعار كتاب الفيصل للرؤاسي منه، وتعلم النحو منه ووضع كتابه، بل هذا من تقصير الكوفيين بالبصريين وعصبيتهم ضدهم. وفي اللغة هو أول من ضبطها، وأول من حصرها في معجم اسمه (العين)، الذي هو أصل كتب اللغة ومنه تفرعت، وهو الذي يحفظ نصف اللغة أو ثلثها. وفي العروض هو مخترعه، ومبتكره، ومؤسس دعامته، لم يسبقه إلى علمه سابق من العلماء كلهم.

"الخليل" باختصار إمام أهل اللغة والعربية مطلقاً. وقد كان الخليل شاعراً مقلداً مطبوعاً فصيحاً، غير أنه مقلد من الشعر، وجل شعره كان البيتين أو الثلاثة، وقد سئل عن ذلك فأجاب: "لأنى أبى رديئة ويأباني جيده".

وكان الخليل أنكى العرب، حتى قيل: "لا يجوز الصراط بعد الأنبياء والصحابة أنق ذهناً من الخليل"، وقد حكى عن نكائه قصص أقرب ما تكون للخيال. وكان الخليل أزهد الناس، وأعلاهم نفساً، وأشدّهم تعففاً، أقام في حص من أخصاص البصرة لا يشعر به أحدٌ، وأصحابه يكسبون بعلمه الأموال، ولم يكن ذلك لعدم إقبال الدنيا عليه، أو بعد عطايا الملوك عنه، بل كان ذلك زهداً في الدنيا، فقد كان يقول: "إني لأغلق على بابي، فما تجاوزه همّتي".

وكان الخليل ورعاً تقياً ديناً صالحاً عاقلاً حليماً وقوراً، موصوفاً بالعبادة والصدق والعلم بالسنة، وكان الغاية في مكارم الأخلاق.

ولم يترك العلماء ثناءً إلا خصوا به الخليل، حتى كان مضرب المثل في علمه وإبداعه وزهده وورعه، فهو رجلٌ خلق من الذهب والمسك.
ولم يذكره أحدٌ بنقيصةٍ أبداً، إلا ما استُتْرِك عليه في كتاب العين، والسرُّ في هذا أن العينَ رسمه الخليل ولم يحشهُ، فوقع فيه خللٌ يبعد وقوعه في مثله.
أما مذهبه الديني فهو من أهل السنة والجماعة بلا منازع، ومن ادَّعى تشيُّعَهُ فهو ادعاء بلا دليل.

هذا عن الخليل في عيون العلماء. ولما عرفت.. كان لزاماً علينا أن نقترئ كلامه وأقواله وحكمياته حتى نُفيد منها علماً غزيراً، وأدباً جماً، بل وطريقاً يُحتذى به. ففيها فوائد وحكم عن العلم وتعلمه، وفوائد عن العلماء، وفوائد عن العلوم، وعن أصول الدين والتدين، وعن الزهد، وعن ما يُنتَفَعُ به في هذه الدنيا، وعن الأخوة والصدقة، وعن المحبة، وعن دعاء الخليل لنفسه، وغير ذلك.
ولا ريب أننا نقف أمام رجل اعترف الدهر بنبوغته النادر، وعطائه الوافر، بل هو منارة العربية ودارسيها، نعم.. الخليل بن أحمد عبقرى العلماء.

الحواشي.

- (١) مترجم له في إرشاد الأريب، ج ١١، ص ٧٢-٧٧. ووفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٤٤-٢٤٨.
- والبداية والنهاية، ج ١٣، ص ٥٦٢-٥٦٥. وشذرات الذهب، ج ١، ص ٢٧٥-٢٧٧.
- (٢) انظر: أخبار النحويين البصريين، ص ٥٤. والفهرست، ص ٦٣. وإشارة التعيين، ص ١١٤.
- (٣) انظر: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٤٨. وإشارة التعيين، ص ١١٤.
- (٤) إنباه الرواة، ج ١، ص ٣٨١.
- (٥) انظر: تاريخ العلماء النحويين، ص ١٣٢. ووفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٤٨. وإشارة التعيين، ص ١١٤. والبداية والنهاية، ج ١٣، ص ٥٦٥. والبلغة، ص ٩٩.
- (٦) انظر: نزهة الألباء، ص ٤٨. وإرشاد الأريب، ج ١١، ص ٧٧.
- (٧) انظر: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٤٨. والبداية والنهاية، ج ١٣، ص ٥٦٥.
- (٨) إنباه الرواة، ج ١، ص ٣٨١. ووفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٤٨.
- (٩) انظر: إشارة التعيين، ص ١١٤.
- (١٠) انظر: نزهة الألباء، ص ٤٦.
- (١١) انظر: المكان نفسه.
- (١٢) إرشاد الأريب، ص ١٧، ص ٣٠٠.
- (١٣) بغية الوعاة، ج ٢، ص ٢٢٩.
- (١٤) نزهة الألباء، ص ٦٩. وإنباه الرواة، ج ٢، ص ٢٥٨.
- (١٥) شذرات الذهب، ج ١، ص ٢٧٧. وانظر: مراتب النحويين، ص ١٠٦. وإرشاد الأريب، ج ٦، ص ١٠.
- (١٦) أخبار النحويين البصريين، ص ٦٨. ونزهة الألباء، ص ١٣١.
- (١٧) إرشاد الأريب، ج ١٩، ص ١٩٧.
- (١٨) نزهة الألباء، ص ٦٩. وإنباه الرواة، ج ٢، ص ٢٥٨.
- (١٩) تهذيب الأسماء واللغات، ج ٤، ص ٩١.
- (٢٠) أخبار النحويين البصريين، ص ٦٧.
- (٢١) الحور العين، ص ١٦٤-١٦٥.
- (٢٢) إنباه الرواة، ج ١، ص ٣٧٨.
- (٢٣) مراتب النحويين، ص ٥٧.
- (٢٤) المكان نفسه.
- (٢٥) انظر: الفهرست، ص ٩٦. وإرشاد الأريب، ج ١٨، ص ١٢٢.

- (٢٦) انظر: إرشاد الأريب، ج ٥، ص ١١٥-١١٦.
- (٢٧) انظر: المصدر نفسه، ج ١٨، ص ١٢٣.
- (٢٨) مراتب النحويين، ص ٥٨. وانظر: إنباه الرواة، ج ١، ص ٣٧٧. ووفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٤٤.
- (٢٩) انظر: إنباه الرواة، ج ١، ص ٣٧٨.
- (٣٠) مراتب النحويين، ص ٥٨.
- (٣١) الحور العين، ص ١٦٤-١٦٥.
- (٣٢) إنباه الرواة، ج ١، ص ٣٧٧.
- (٣٣) أخبار النحويين البصريين، ص ٥٤. وانظر: الفهرست، ص ٦٤. ونزهة الألباء، ص ٤٥-٤٦.
- (٣٤) مراتب النحويين، ص ٥٩. وانظر: إنباه الرواة، ج ١، ص ٣٧٧.
- (٣٥) بغية الوعاة، ج ١، ص ٥٥٩.
- (٣٦) شرح مقامات الحريري للشريشي، ج ٣، ص ١٨٩.
- (٣٧) الفهرست، ص ٦٤.
- (٣٨) الحور العين، ص ١٦٥.
- (٣٩) شذرات الذهب، ج ١، ص ٢٧٦.
- (٤٠) الحور العين، ص ١٦٥.
- (٤١) مراتب النحويين، ص ٦٠.
- (٤٢) انظر: أخبار النحويين البصريين، ص ٥٥. ونزهة الألباء، ص ٤٦-٤٧.
- (٤٣) انظر: أخبار النحويين البصريين، ص ٥٦. ونزهة الألباء، ص ٤٧.
- (٤٤) انظر: أخبار النحويين البصريين، ص ٤٩. ونزهة الألباء، ص ٢٢. والنجوم الزاهرة، ج ٢، ص ١١.
- (٤٥) الحور العين، ص ١٦٥.
- (٤٦) تاريخ العلماء النحويين، ص ١٢٥.
- (٤٧) طبقات النحويين واللغويين، ص ٤٧-٤٨.
- (٤٨) تاريخ العلماء النحويين، ص ١٢٧.
- (٤٩) المصدر نفسه، ص ١٢٨.
- (٥٠) الشكوى والعتاب، ص ١٦٢.
- (٥١) شذرات الذهب، ج ١، ص ٢٧٦.
- (٥٢) الإخوان، ص ١٤٠. وانظر: إرشاد الأريب، ج ٨، ص ٢٦٩.
- (٥٣) مراتب النحويين، ص ١٠١.

- (٥٤) المصدر نفسه، ص ٥٥.
- (٥٥) المكان نفسه.
- (٥٦) المكان نفسه.
- (٥٧) شرح مقامات الحريري، ج ٣، ص ١٨٧.
- (٥٨) بغية الوعاة، ج ١، ص ٥٥٩.
- (٥٩) شرح مقامات الحريري، ج ٣، ص ١٨٨.
- (٦٠) الوافي بالوفيات، ج ١٣، ص ٢٤٣.
- (٦١) نزهة الألباء، ص ٤٥.
- (٦٢) مراتب النحويين، ص ٥٦.
- (٦٣) انظر: نزهة الألباء، ص ٤٨.
- (٦٤) مراتب النحويين، ص ٥٦.
- (٦٥) انظر: نزهة الألباء، ص ٤٨.
- (٦٦) إنباء الرواة، ج ١، ص ٣٨٠. وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٤٥.
- (٦٧) القصة بأبياتها وأشعارها متفرقة في الكتب الآتية: أخبار النحويين البصريين، ص ٥٥. وطبقات النحويين واللغويين، ص ٤٧. ونزهة الألباء، ص ٤٧. وإنباء الرواة، ج ١، ص ٣٧٩-٣٨٠. ووفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٤٦.
- (٦٨) انظر: مراتب النحويين، ص ٥٦. والفهرست، ص ٦٤. وإشارة التعيين، ص ١١٤.
- (٦٩) الحور العين، ص ١٦٥.
- (٧٠) مراتب النحويين، ص ٥٧.
- (٧١) تقريب التهذيب، ج ١، ص ١٩٥.
- (٧٢) شرح مقامات الحريري، ج ٣، ص ١٨٧.
- (٧٣) انظر: نزهة الألباء، ص ٤٨.
- (٧٤) انظر: مراتب النحويين، ص ٥٦. وإشارة التعيين، ص ١١٤.
- (٧٥) مكارم الأخلاق، ص ٩٤. والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج ٢، ص ٢٤٢.
- (٧٦) شعب الإيمان، ج ٢، ص ٢٧٧.
- (٧٧) انظر: نزهة الألباء، ص ٤٨.
- (٧٨) أمثال الحديث، ص ٦٧.
- (٧٩) مراتب النحويين، ص ٦٧.
- (٨٠) مراتب النحويين، ص ٦٨. وإرشاد الأريب، ج ١٧، ص ١١٨.
- (٨١) الفهرست، ص ٦٤.

- (٨٢) وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٤٥.
- (٨٣) انظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي أعماله ومنهجه، ص ٤٧. ومكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي، ص ٢٦.
- (٨٤) انظر: شذرات الذهب، ج ١، ص ١٨١.
- (٨٥) نزهة الألباء، ج ٢٧، ص ١٢٣.
- (٨٦) الوافي بالوفيات، ج ١٣، ص ٨٩.
- (٨٧) انظر: نزهة الألباء، ص ٤٨.
- (٨٨) انظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي أعماله ومنهجه، ص ٤٦-٤٩.
- (٨٩) ص ٢٦ الحاشية.
- (٩٠) انظر: مراتب النحويين، ص ٦٩-٧٠. وشرح مقامات الحريري، ج ٣، ص ١٩٠. وانظر مزيداً من الأبيات التي قيلت في تشبيه نوي الفضل بالخليل في إنباه الرواة، ج ١، ص ٣٥٦، ج ٣، ص ٢١٧.
- (٩١) انظر: نزهة الألباء، ص ٢٠٢.
- (٩٢) انظر: الفهرست، ص ٦٥.
- (٩٣) شرح مقامات الحريري، ج ١٣، ص ٥٦٤. ووفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٤٧. والبدية والنهاية، ج ١٣، ص ٥٦٤.
- (٩٤) عالم لغوي، خراساني. مترجم له في إنباه الرواة، ج ٤، ص ١٠٢-١٠٣.
- (٩٥) إنباه الرواة، ج ٤، ص ١٠٢-١٠٣.
- (٩٦) مراتب النحويين، ص ٥٧.
- (٩٧) وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٤٧.
- (٩٨) شرف أصحاب الحديث، ص ٥٠.
- (٩٩) انظر: أخبار النحويين البصريين، ص ٥٤. ونزهة الألباء، ص ٤٨.
- (١٠٠) مراتب النحويين، ص ١٠٥.
- (١٠١) إنباه الرواة، ج ١، ص ٣٨١.
- (١٠٢) إرشاد الأريب، ج ٩، ص ١١٢.
- (١٠٣) إنباه الرواة، ج ٢، ص ٣٥٢. وإرشاد الأريب، ج ١٦، ص ١١٨.
- (١٠٤) شرح مقامات الحريري، ج ٣، ص ١٨٨.
- (١٠٥) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٨٩.
- (١٠٦) إرشاد الأريب، ج ١، ص ٧٣.
- (١٠٧) شرح مقامات الحريري، ج ٣، ص ١٨٩. وانظر: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٤٥.

- (١٠٨) شرح مقامات الحريري، ج ٣، ص ١٨٩.
- (١٠٩) المكان نفسه.
- (١١٠) المكان نفسه.
- (١١١) المكان نفسه. ومعجم الأدياء، ج ٨، ص ١٧٣.
- (١١٢) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه، ص ٦٩.
- (١١٣) فتح المغيث، ج ٢، ص ٣٨١. والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج ٢، ص ٢٧٤.
- (١١٤) إنباه الرواة، ج ١، ص ٣٨١-٣٨٢.
- (١١٥) فتاوى ابن الصلاح، ص ١٦. وأنب المفتي والمستفتي، ج ١، ص ٨٢.
- (١١٦) اعتقاد أهل السنة، ج ٥، ص ٩٦١.
- (١١٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢٨.
- (١١٨) شرح مقامات الحريري للشريشي، ج ٣، ص ١٨٩.
- (١١٩) إنباه الرواة، ج ١، ص ٣٨٠.
- (١٢٠) تاريخ دمشق، ج ٥٦، ص ١١٩.
- (١٢١) شرح مقامات الحريري للشريشي، ج ٣، ص ١٨٩.
- (١٢٢) تفسير ابن كثير، ج ٣، ص ٤٤٩. وانظر: التواضع والخمول، ص ٤٦.
- (١٢٣) شرح مقامات الحريري للشريشي، ج ٣، ص ١٨٩.
- (١٢٤) الاستنكار، ج ٨، ص ٥٦٠.
- (١٢٥) اقتضاء العلم العمل، ص ٩٢.
- (١٢٦) اقتضاء العلم العمل، ص ٩٣. وانظر: فيض القدير، ج ٣، ص ١٠١. وبغية الوعاة، ج ١، ص ٥٦٠.
- (١٢٧) جزء ابن عمشليق، ص ٥٠. وانظر: إنباه الرواة، ج ١، ص ٣٨٢.
- (١٢٨) آداب الصحبة، ص ٦٢.
- (١٢٩) شرح مقامات الحريري، ج ٣، ص ١٨٩.
- (١٣٠) المكان نفسه.
- (١٣١) المتحابين في الله، ص ٧٤. وانظر: أدب الإملاء والاستملاء، ص ١٣١. وإنباه الرواة، ج ٤، ص ٣٣. وكشف الخفاء، ج ٢، ص ١٨٩.
- (١٣٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج ٢، ص ٨٦٠.
- (١٣٣) شرح مقامات الحريري، ج ٣، ص ١٨٩.
- (١٣٤) المكان نفسه.
- (١٣٥) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٩٠.

- (١٣٦) كشف الخفاء، ج ٢، ص ٢٨٣.
- (١٣٧) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج ٢، ص ١٥٤.
- (١٣٨) شعب الإيمان، ج ٧، ص ٥٢١. وآداب الصحبة، ص ٩٢.
- (١٣٩) شعب الإيمان، ج ٥، ص ٢٧٣. وانظر: كشف الخفاء، ج ١، ص ٣٥٩.
- (١٤٠) مراتب النحويين، ج ١٠٥. الحور العين، ص ١٦٥.
- (١٤١) الزهد الكبير، ج ٢، ص ٩٠. وانظر: كشف الخفاء، ج ١، ص ١١٦.
- (١٤٢) لسان العرب (بقت)، ج ٢، ص ٧.
- (١٤٣) المقصد الأرشد، ج ٢، ص ٣٨٨.
- (١٤٤) شرح مقامات الحريري، ج ٣، ص ١٨٨.
- (١٤٥) مراتب النحويين، ص ١٠٥.
- (١٤٦) شرح مقامات الحريري، ج ٣، ص ١٨٩.
- (١٤٧) لسان العرب (حول)، ج ١١، ص ١٨٦.
- (١٤٨) مراتب النحويين، ص ٢١.
- (١٤٩) العقل وفضله، ص ٦٧.
- (١٥٠) المعرفة والتاريخ، ج ٢، ص ٢٣.
- (١٥١) وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٤٥.
- (١٥٢) بغية الوعاة، ج ١، ص ٥٥٩.
- (١٥٣) تاريخ دمشق، ج ٢، ص ٣٠. ج ١٧، ص ٣٧٠.

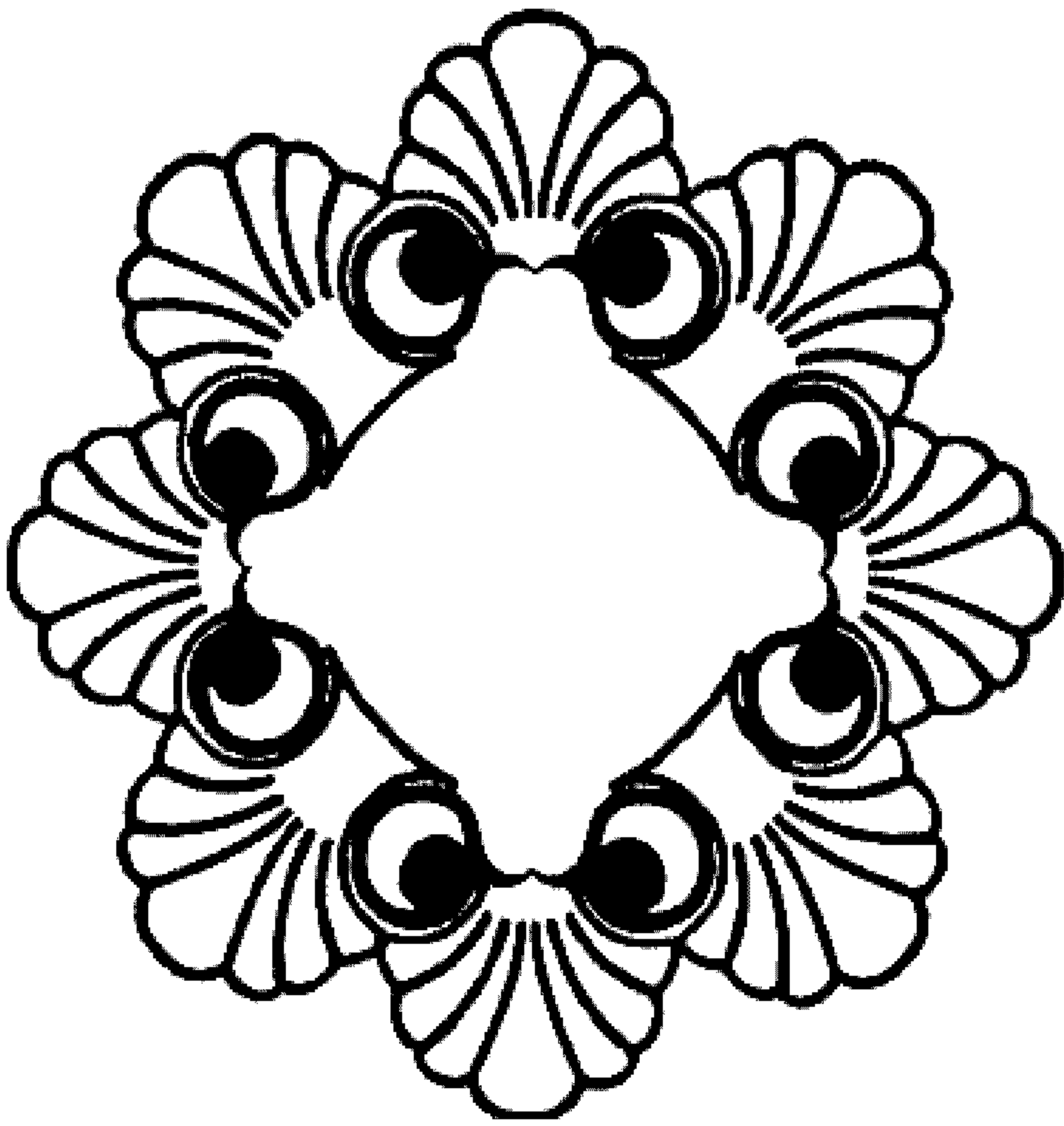
المصادر والمراجع.

- آداب الصحبة: لأبي عبد الرحمن السلمي، تح: مجدي فتحي السيد، دار الصحابة بطنطا، الأولى، ١٤١٠هـ.
- أخبار النحويين البصريين: لأبي سعيد السيرافي، تح: د. محمد البناء، دار الاعتصام، الأولى، ١٤٠٥هـ.
- الإخوان: لأبي بكر القرشي، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ببيروت، الأولى، ١٤٠٩هـ.
- أدب الإملاء والاستملاء: للسمعاني، تح: ماكس فايسفايلر، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.
- إرشاد الأريب (معجم الأدياء): لياقوت الحموي، دار الفكر العربي بالقاهرة، الأولى، ١٤٠٦هـ.
- الاستذكار: للقرطبي، تح: سالم محمد عطا ومحمد علي معوض، دار الكتب العلمية ببيروت، الأولى، ٢٠٠٠م.
- إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين: لعبد الباقي اليماني، تح: د. عبدالمجيد دياب، مركز الملك فيصل بالرياض، الأولى، ١٤٠٦هـ.
- اعتقاد أهل السنة: لأبي القاسم اللالكائي، تح: د. أحمد سعد حمدان، دار طيبة بالرياض، ١٤٠٢هـ.
- اقتضاء العلم العمل: للبغدادي، تح: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ببيروت، الرابعة، ١٣٩٧هـ.
- أمثال الحديث: لابن خالد الرامهرمزي، تح: أحمد عبد الفتاح تمام، مؤسسة الكتب ببيروت، الأولى، ١٤٠٩هـ.
- إنباء الرواة على أنباء النحاة: للقفطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي بالقاهرة، الأولى، ١٤٠٦هـ.
- البداية والنهاية: لابن كثير، تح: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، الأولى، ١٤١٩هـ.

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: للسيوطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، الثانية، ١٣٩٩هـ.
- البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة: للفيروزآبادي، تح: محمد المصري، جمعية إحياء التراث بالكويت، الأولى، ١٤٠٧هـ.
- تاريخ دمشق: لابن عساكر، تح: محب الدين العمري، دار الفكر ببيروت، ١٩٩٥م.
- تاريخ العلماء النحويين: للتوحي، تح: عبد الفتاح الحلو، جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية بالرياض، ١٤٠١هـ.
- تفسير ابن كثير: دار الفكر ببيروت، ١٤٠١هـ.
- تقريب التهذيب: لابن حجر العسقلاني، تح: محمد عوامة، دار الرشيد بسوريا، الأولى، ١٤٠٦هـ.
- تهذيب الأسماء واللغات: للنووي، دار الكتب العلمية ببيروت.
- التواضع والخمول: لأبي بكر القرشي، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ببيروت، الأولى، ١٤٠٩هـ.
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: للخطيب البغدادي، تح: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف بالرياض، ١٤٠٣هـ.
- جزء ابن عمشليق: لمحمد بن إسحاق، تح: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن بالقاهرة.
- الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه.
- الحور العين: لنشوان الحميري، تح: كمال مصطفى، دار آزال ببيروت، الثانية، ١٩٨٥م.
- الخليل بن أحمد الفراهيدي أعماله ومنهجه: د. مهدي المخزومي، دار الرائد العربي ببيروت، الثانية، ١٤٠٦هـ.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: لعلي الشنتريني، تح: إحسان عباس، دار الثقافة ببيروت، ١٤٧١هـ.

- الزهد الكبير: للبيهقى، تح: عامر أحمد حيدر، مؤسسة الكتب ببيروت، الثالثة، ١٩٩٦م.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: لابن العماد الحنبلي، دار المسيرة ببيروت، الثانية، ١٣٩٩هـ.
- شرح مقامات الحريري: للشريشي، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية ببيروت، الأولى، ١٤١٩هـ.
- شرف أصحاب الحديث: للبغدادي، تح: د. محمد سعيد خطي أوغلي، دار إحياء السنة بأنقرة.
- شعب الإيمان: للبيهقى، تح: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية ببيروت، الأولى، ١٤١٠هـ.
- الشكوى والعتاب وما وقع للخلان والأصحاب: للثعالبي، تح: د. إلهام عبدالوهاب المفتي، المجلس الوطني للثقافة والفنون بالكويت، الأولى، ١٤٢١هـ.
- طبقات النحويين واللغويين: للزبيدي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، الثانية، د.ت.
- العقل وفضله: لابن أبي الدينا، تح: لطفي محمد الصغير، دار الراية بالرياض، الأولى، ١٤٠٩هـ.
- العين: للخليل بن أحمد، تح: د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي، الأعلمي ببيروت، الأولى، ١٤٠٨هـ.
- الفهرست: لابن النديم، دار المعرفة ببيروت، د.ت.
- فيض القدير: للمناوي، المكتبة التجارية بمصر، الأولى، ١٣٥٦هـ.
- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس: للعجلوني، دار إحياء التراث ببيروت، الثالثة، ١٣٥٢هـ.
- لسان العرب: لابن منظور، دار صادر ببيروت، ١٣٧٤هـ.
- المتحابين في الله: لابن قدامة المقدسي، دار الطباع بدمشق، الأولى، ١٤١١هـ.
- مراتب النحويين: لأبي الطيب اللغوي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار

- نهضة مصر بالقاهرة، د.ت.
- المعرفة والتاريخ: ليعقوب الفسوي، تح: خليل المنصور، دار الكتب العلمية ببيروت، ١٤١٩هـ.
- المقصد الأرشد: لابن مفلح، تح: د. عبد الرحمن العثيمين، مكتبة الرشد بالرياض، الأولى، ١٤١٠هـ.
- مكارم الأخلاق: لأبي بكر القرشي، تح: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن بالقاهرة، ١٤١١هـ.
- مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي: د. جعفر نايف عبابنة، دار الفكر بعمّان، الأولى، ١٤٠٤هـ.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: لابن تغري بردي، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية ببيروت، الأولى، ١٤١٣هـ.
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء: لابن الأنباري، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر بالقاهرة، د.ت.
- الوافي بالوفيات: للصفدي، تح: دوروتيا كرافولسكي، فرانز شتانيير، ١٤١١هـ.
- وفيات الأعيان وأنباء أنباء الزمان: لابن خلكان، تح: د. إحسان عباس، دار صادر ببيروت، د.ت.



**شعر الخليل بن أحمد الفراهيديّ: جمع
وتحقيق ودراسة**

مجلد اول

أ. د. سعود عبد الجابر

جامعة العلوم التطبيقية الخاصة - الأردن



شعر الخليل بن أحمد الفراهيدي: جمع وتحقيق ودراسة

أ.د. سعود عبد الجابر

المقدمة:

الخليل بن أحمد الفراهيدي لغوي وعالم وأديب عبقرى، عاش في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي. وهو واضع أسس علم النحو في اللغة العربية، ومبتكر علم المعاجم، وعلم العروض. وله بالإضافة إلى ذلك شعر هادف متناثر بين أمهات كتب الأدب والتراجم والتاريخ.

وكان شعره محط اهتمامي منذ عهد بعيد، وكنت أعلم أن الباحثين الدكتور حاتم الضامن وضياء الدين الحيدري قد جمعا شعره، ونشراه موزعا على ثلاث حلقات في مجلة البلاغ التي تصدر بالعراق سنة ١٩٧٣م. وتضمن ما نشر اثنين وخمسين نصاً، ثبت عندهما صحة نسبتها إلى الخليل وخمسة نصوص من الشعر المنسوب إليه وإلى غيره من الشعراء.

ومع مضي السنوات لم يقل اهتمامي بشعر الخليل، ووقفت على عدد جديد من النصوص الشعرية التي وردت في بعض الكتب المخطوطة أو المطبوعة حديثاً، والتي لم ترد في الشعر المجموع والمنشور سابقاً، ولذلك عقدت العزم على جمع شعره من جديد وتحقيقه ودراسته دراسة فنية. ولقد تسنى لي بحمد الله أن أجمع سبعة وستين نصاً شعرياً له، وثمانية نصوص تنسب له ولغيره من الشعراء، ويقع هذا الشعر في بيتين ومئتي بيت وبه زيادة أكثر من الربع عن الشعر المجموع والمنشور سابقاً. واعتمدت على هذا الشعر المجموع وأجريت من خلاله دراسة فنية لشعر الخليل. هذا بالإضافة إلى الاعتماد على كثير من المصادر التي لم يسبق الاعتماد عليها في تخريج شعره.

وأخيراً أسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد، إنه نعم المولى، ونعم النصير.

شعر الخليل بن أحمد الضراهمدي

حياته:

هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمر بن تميم الفراهيديّ أو الفُرّهودي الأزدي من أزد عُمان، من أئمة اللغة والأدب^(١).

لا نعلم للأسف الشيء الكثير عن حياته ونشأته وصباه، ولم نَسعِفنا المصادر الأولى في هذا المجال، ولذا سنحاول رسم صورة حياته من خلال الأخبار القليلة التي وردت عنه، ومن خلال قراءة شعره.

ولد الخليل بن أحمد حسب أغلب الروايات في البصرة سنة ١٠٠هـ، وترعرع وعاش فيها، وفي إحدى الروايات أنه ولد في عُمان في قرية من قرأها ثم انتقل إلى البصرة^(٢).

وتجمع المصادر على أنه كان مثلاً للغة والصدق، وكان من أزهد الناس، وأعلاهم نفساً، وأشدهم تعففاً، وعاش حياة الفقر والنقش، وكان يسكن في البصرة " ويعيش من بستان خلفه عليه أبوه"^(٣). وكان متقللاً من الدنيا، صبوراً على العيش الخشن الضيق^(٤). فكان شعث الشعر، شاحب اللون، متخرق الثياب^(٥). لا يقدر على فلس، وأصحابه يكتسبون بعلمه الأموال^(٦). وقال فيه سفيان الثوري: من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل بن أحمد^(٧).

وكان الخليل زاهداً في حياته، لم يتطلع إلى شهرة أو ثروة أو جاه، وما ضره ذلك، فقد بقي ذكره أمد الدهر زاهياً زاهراً.

ويبدو أنه أقام بالبصرة ولم يغادرها إلا للحج أو الغزو، ومشافهة الأعراب في الجزيرة، وقد غادرها مرة - كما يبدو - لزيارة تلميذه الليث بن المظفر في خراسان^(٨).

وكان الخليل على قسط وافر من الذكاء والعبقريّة، ولقد بهر الأقدمون بذكائه وعبقريته، ومما قالوا في هذا المجال: لم يكن للعرب بعد الصحابة أنكى من الخليل ابن أحمد ولا أجمع^(٩). ويذكر أبو الطيب اللغوي أنه قد اجتمع مرة بمكة أدباء من كل أفق؛ فتذاكروا أمر العلماء. فجعل أهل كل بلد يرفعون علماءهم، ويصفونهم

ويقدرونهم، حتى جرى ذكر الخليل، فلم يبق أحد إلا قال: الخليل أذكى العرب، وهو مفتاح العلوم ومصرفها^(١٠). ولم يكن في علماء البصريين من قطع عليه أنه منقطع القرين مثل الخليل بن أحمد^(١١). وكان يقول تلميذه النضر بن شميل: أكلت الدنيا بعلم الخليل وكتبه، وهو في خص لا يُشعر به^(١٢). وقال ابن المعتز: كان الخليل بن أحمد أعلم الناس بالنحو والغريب، وأكثرهم دقائق في ذلك، وهو أستاذ الناس، وواحد عصره. وأول من اخترع العروض وفتقه، وجعله ميزانا للشعر^(١٣). وكان الخليل في بداية أمره على مذهب الإباضية، وتحول عنه إلى مذهب أهل السنة نتيجة لاقتناعه بآراء أيوب السختياني^(١٤).

شيوخه:

عاش الخليل في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي وشهد ذلك العصر حركة فكرية زاهرة وأدبية نشطة فنهل من الثقافة السائدة في عصره، حيث كانت البصرة آنذاك موئلا لتقافات متعددة، منها ما هو من أصل عربي، ومنها ما جاء من ثقافات الأمم الأخرى التي امتزجت مع الثقافة العربية وجاءت عن طريق الترجمة النشطة آنذاك.

ولقد تلقى الخليل العلم على عدد وافر من شيوخ عصره وعلى رأسهم أعلام اللغويين البصريين، بالإضافة إلى من لقيه من الرواة وأخذ عنه. ولقد تلقى النحو عن عيسى بن عمر النخعي المتوفى سنة ١٤٩هـ^(١٥). وضروبا أخرى من العلم عن عاصم الأحول، والعوام بن الحوشب، وأبي عمرو بن العلاء، وأيوب السختياني^(١٦).

وتبدى الخليل غير مرة، وخالط الأعراب، وسمع منهم، وأخذ شيئا كثيرا عنهم، فنبتغ في اللغة والنحو، وكان له براعة في تصحيح القياس واستخراج المسائل النحوية وتعليلها. وعنه أخذ سيبويه واستمده لكتابه الشهير في النحو^(١٧).

تلاميذه:

كان الخليل عبقرياً فذاً، وعالماً لغوياً، وأديباً شاعراً، وفقهياً محدثاً، قرأ عليه كثير من الناس، وعالم لا يحصى^(١٨) والتف حوله عدد من تلاميذه الذين عدوا فيما

بعد من قادة العلم واللغة، ومنهم سيوييه شيخ النحاة في عصره، والنضر بن شميل، وأبو فيد مؤرّج السدوسي، وعلي بن نصر الجهضمي، وسعيد بن مسعدة الأخفش، وحنين الطيب النصراني الذي لازمه في بيته لا يبرحه حتى تعلم العربية، والأصمعي، والليث بن المظفر، وأبو محمد اليزيدي، وغيرهم^(١٩). ولا شك أن الخليل قد أثر تأثيراً كبيراً في علوم اللغة العربية، بمصنفاته العديدة القيمة التي أثرى بها اللغة، وبتلاميذه الأفاضال الذين ساروا على نهجه.

مصنفاته:

كان الخليل إماماً في علم اللغة والنحو، وهو واضع معجم العين الذي هو أول معجم في العربية، لا بل لعله أول معجم في بابيه في الحضارة الإنسانية، كما أنه كان على معرفة ودراية بالموسيقى، ووضع أول كتاب فيها، ولا شك أنه قد ساعده بصره بالنغم على اختراع علم العروض لما بين الإيقاع في النغم والتقطيع في الأجزاء من الشبه.

ولقد ذكرت المصادر التي ترجمت له عدداً من مصنفاته ومنها: كتاب العين في اللغة، وكتاب الإيقاع، وكتاب الجمل، وكتاب الشواهد، وكتاب العروض، وله فائت العين، وكتاب النغم، وكتاب النقط والشكل وغير ذلك^(٢٠).

وفاته:

توفي الخليل بن أحمد - رحمه الله - سنة سبعين ومائة للهجرة حسب أغلب الروايات. وقيل: إنه توفي سنة خمس وسبعين ومائة وسنة ستين ومائة. وكان سبب موته أنه قال: أريد أن أقرب نوعاً من الحساب تمضي به الجارية إلى البقال فلا تظلم. ودخل المسجد وهو مشغول الفكر، فصدمة سارية، فكانت سبب موته، وقيل: بل كان يقطع بحراً من العروض^(٢١).

وسواء صحت هذه الرواية بحذافيرها أم لم تصح، فمن المؤكد أن سبب وفاته لا ترجع لعلّة اعتل بها، وإنما لصدمة سارية المسجد، وذلك لانشغال فكره، فشغل عن أن يبصر ما بين يديه.

شعره:

لم يرد في المصادر أن للخليل بن أحمد ديوان شعر، ولم يذكر أحد من الأقدمين أنه صنع ديواناً لشعره، أو أن أحداً قد قام بجمع شعره بعد وفاته. ولقد انفرد الشيخ أغابزرك برواية ذكر فيها أن للخليل ديواناً من الشعر وأنه توجد نسخة منها في باريس^(٢٢).

ولقد بحثت عن هذا الديوان بحثاً دؤوباً في دور الكتب الكبرى وفي كتب الفهارس القديمة وقوائم المخطوطات الحديثة، ولكن للأسف دون جدوى أو طائل، كما أن كوركيس عواد الذي أورد هذه الرواية قد ذكر من قبل أنه قد رجع إلى كل ما يعرف من فهارس المخطوطات العربية في باريس، فلم يقف على ذكر لهذا الديوان. لكن المصادر وإن لم تذكر ديواناً للخليل إلا أنها قد ذكرت أن له قدراً جيداً من الشعر، وأن شعره قد تناثر في كتب الأدب والتراجم والتاريخ، ولذا عقدت العزم على أن أجمع شعره من مظانه المختلفة، وأن أقوم بتحقيقه ودراسته، ولقد تمكنت بحمد الله من أن أجمع له خمساً وسبعين مقطوعة شعرية تتراوح بين تسعة أبيات وبيت واحد وتحتوي على بيتين ومئتي بيت.

والجدير بالذكر أن شعر الخليل قد نال استحسان أغلب الأدباء والنقاد القدامى، فهذا ابن المعتز يقول عنه: وكان فطنا عالماً بأيام الناس وأخبارهم، وكان مع ذلك شاعراً مفلحاً وأديباً بارعاً. ويشير ابن المعتز إلى أن شعره قليل لأن شغله بالعلم كان أكثر منه بقول الشعر^(٢٣). وذهب الزبيدي إلى القول: وكان الخليل فطناً شاعراً، واستنبط من العروض، ومن علل النحو، ما لم يستنبط أحد، وما لم يسبقه إلى مثله سابق^(٢٤). ويرى السيوطي: أنه ثقة ثبت صاحب غريب وشعر^(٢٥). ويقول الخوانساري عنه: وله أيضاً أشعار رائعة كثيرة^(٢٦).

وكل شعر الخليل يتسم بالسمة الدينية والأخلاقية ولا غرابة في ذلك فهو العالم اللغوي والفقير الحافظ والمحدث. وأغلب شعره في الزهد والحكمة والقيم الإسلامية.

أولاً: شعر الزهد:

يحتل هذا اللون من الشعر مجالاً واسعاً من شعر الخليل. وهو من أهم
المحاور الشعرية التي دار شعره حولها. فهو زاهد في الدنيا غير آبه بها فهي دار
زوال وليست دار قرار، حيث يقول:

يعيش المرء في أمل	يردده إلى الأبد
يؤمل ما يؤمل من	صنوف المال والولد
ولا يدري لعل المو	ت يأتي دون بعد غد
فلا يبقى لوالده	ولا يبقى على ولد

وهو يصرح بأنه عاكف في بيته، بعيد عن الاتصال بحكام عصره، زاهد
في الدنيا وما فيها:

أنست بوحدتي ولزمت بيئي	فطاب الأوس لي ونما السرور
فأدبني الزمان فلا أبالي	هجرت فلا أزار ولا ازور
ولست بسائل ما دمت حياً	أسار الجيش أم ركب الأمير

وجاء شعره زاخراً بذكر الحياة والموت. فالدنيا مذمومة لا تدوم على حال.
ولن تلبث أن تزول وتمضي. والموت سيلم بكل إنسان، ولن يصحب الإنسان معه
من هذه الدنيا إلا صالح عمله:

غرّ جهولاً أمله	حتى يوافي أجله
ومن دنا من حنقه	لم تغن عنه حيله
لا يصحب الإنسان من	دنياه إلا عمله

وهو لا يرى من الموت فوتاً مهما عاش الإنسان في هذه الدنيا:
عش ما بدا لك فقصرك الموت لا مرحل عنه ولا فوت
بيننا غنى بيت وبهجتة زال الغنى وتقوض البيت
يا ليت شعري ما يُراد بنا ولقلما تُغني إذا ليت

وهو يؤكد أن الغناء غناء النفس لا غناء المال، وأن المال من عند الله عز وجل، فهو يخاطب سليمان بن حبيب والي فارس والأهواز الذي قطع راتبه قائلاً:

أبلغ سليمان أني عنه في سعة
وفي غنى غير أني لست ذا مال
الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه
ولا يزيدك فيه حول محتال
إن كان ضنَّ سليمان بنائله
فإنه أفضل مسؤول لسؤال
والفقر في النفس لا في المال نعرفه
ومثل ذلك الغنى في النفس لا المال

ولا شك أن هذه الأبيات تنبئ عن نفس عزيزة، لا تأبه إلا بالله عز وجل، ولا تنتظر من البشر شيئاً. وهي تصدر عن تجربة صادقة، وأحاسيس قوية عميقة.

ثانياً: شعر الحكمة:

تبدو الحكمة بشكل واضح في أغلب نصوص الخليل الشعرية، وهي تمثل روحه المتدفقة، وخبرته العميقة بالناس والحياة. وهي في شتى المجالات ومختلف المواضيع، ومن هذه الحكم المستمدة من خبرته وتجاربه قوله:

العلم يذكي عقولاً حين يصحبها وقد يزيدنا طول التجارب
وذو التأديب في الجهال مغترب يرى ويسمع ألوان الأعاجيب

فالعلم يذكي العقول وينيرها، والتجارب تصقلها وتضيئها. والأديب غريب بين الجهال الذين لا يفقهون ولا يعلمون.

وهو يرى أن اللئيم ليس أحب لنفسه عندما يشتم الكرام من الرد عليه، فعدم الرد أفسى على نفسه من الرد:

وما من شيء أحب إلى لئيم إذا سب الكرام من الجواب
متاركة اللئيم بلا جواب أشد على اللئيم من السباب

وعلى الإنسان أن يسعى للإكثار من الأصدقاء فهم الذين ينفعونهم في وقت الشدائد:

تكثر من الإخوان ما استطعت إنهم بطون إذا استجدتهم وظهور

وما بكثير ألف خيل لعاقل وإن عدوا واحداً لكثير

والحكيم هو الذي يغتنم الفرص ولا يفوتها، ويندم حيث لا ينفع الندم:

وعاجز الرأي مضياح لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

ويرى أن الغنى الحقيقي إنما هو غنى النفس الطاهرة، البعيدة عن الرجس

والآثام، فيقول:

رأيت غنى الإنسان نفساً زكية مطهرة من كل رجس وباطل

والإنسان هو الذي يجعل الأمور صعبة بنظرته إليها وهو الذي يجعلها

سهلة، فعليه ألا يجزع لأمر من الأمور، فما بعد العسر إلا اليسر:

إذا ضيقت أمراً زاد ضيقاً وإن هونت صعب الأمر هانا

فلا تجزع لأمر ضاق شيئاً فكم صعب تشدد ثم لانا

والحكمة مجالها واسع في شعره، وهي متنوعة متعددة تتناول شتى

الجوانب، ومختلف المجالات.

ثالثاً: الأخلاق والقيم الإسلامية:

كل ما عثر عليه من شعر للخليل يتصف بالسمة الأخلاقية، ويدور حول

القيم الإسلامية، ولا غرابة في ذلك فهو عالم لغوي وفتية محدث، شغلته العلوم

الدينية واللغوية عما سواها إلا ما كان يسير في الجوانب الخلقية والقيم الإسلامية.

فشعره شعر رجل الدين الزاهد الذي يقول الشعر موجهاً ومؤدباً. وهو يستفيض في

هذا الموضوع بما يعمق القيم الأخلاقية والمعاني الدينية.

وهو صبور قانع لا يتجه إلا لله وحده في طلب الرزق، وهو جلد قنوع،

يتعالى عن الصغائر، فحين قطع سليمان بن حبيب والي فارس والأهواز راتبه، لم

يأبه لذلك ولم يكثرث، وكتب له مؤكداً أن ذلك لا يضيره، لأن المال من عند الله

عز وجل وليس من عند أحد، ولأن الغنى والفقر في النفس لا المال:

أبلغ سليمان أني عنه في سعة وفي غنى غير أني لست ذا مال

فالرزق عن قدر لا العجز ينقصه ولا يزيدك فيه حول محتال
والفقر في النفس لا في المال نعرفه ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

فهذه الأبيات تنبئ عن نفس عزيزة أبية، تتصل بمالك الملك عز وجل، ولا
تنتظر من البشر شيئاً.

وهو يؤكد أن الأرزاق من الله سبحانه وتعالى، وهي مقدرة والإنسان لن
يحصل إلا على ما كتب له:

ورزق الخلق مجلوب إليهم مقادير يقدرها الجليل

فلا ذو المال يرزقه بعقل ولا بالمال تقسم العقول

وهو كغيره من العلماء من أكثر الناس حثاً على طلب العلم، فشتان ما بين
عالم وجاهل:

لا يكون الألد ذو المقول المر هف عند القياس مثل العبي

أي شيء من اللباس على ذي الس رور أبهى من اللسان البهي

ينظم الحجة السنوية في السل ك من القول مثل عقد الهدى

قيمة المرء كل ما يحسن المر ء قضاء من الإمام علي

وهو يرى أن العلم يزين العقول وينيرها، وأن الأديب غريب بين الجهلاء،

فيقول:

العلم يذكي عقولا حين يصحبها وقد يزيدها طول التجاريب

وذو التأدب في الجهال مغترب يرى ويسمع ألوان الأعاجيب

والعلم الحقيقي كما يرى الخليل هو العلم الموصول بالله عز وجل، ولذلك

فهو لا يؤمن بالمنجم ولا بأقواله:

أبلغا عني المنجم أنني كافر بالذي قضته الكواكب

عالم أن ما يكون وما كا ن بحتم من المهمين واجب

ويؤكد أن الله عز وجل، لم يهب للإنسان شيئاً أثمن من العقل والأدب، فيقول:

ما وهب الله لامرئ هبةً أفضل من عقله ومن أدبه
هما حياة الفتى فإن عدما ففقدته في الحياة أجمل به

والموت مصير كل كائن حي، ولا ينفع الإنسان في هذه الحياة إلا عمله الصالح:

غر جهولاً أملةً حتى يوافي أجله
ومن دنا من حنقه لم تغن عنه حيله
لا يصحب الإنسان من دنياه إلا عمله

والعفو والصفح عن المذنب صفة من صفات المؤمنين الصادقين فهو يقول:

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب وإن كثرت منه عليّ الجرائم

وهكذا فشعره حافل بالقيم الإسلامية والمعاني الدينية والسمات الإيجابية التي يجدر بالإنسان المؤمن أن يتصف بها.

السمات الفنية:

شعر الخليل كما ذكرنا سابقاً حافل بالقيم الإسلامية والمعاني الأخلاقية، وهي السمة البارزة في شعره، وشعره ينطلق من وجدان صادق وإحساس عميق، فهو زاهد في الحياة الدنيا، فهي دار فناء لا دار بقاء، وهو متأثر بمعاني القرآن الكريم والحديث الشريف. وأسلوبه سهل بسيط واضح بعيد عن التكلف والتعقيد والغموض.

ومن الملاحظ أن الخليل غير منقطع للشعر كغيره من الشعراء، فهو مقل في الشعر، وشعره تعبير عن خواطره الوجدانية وأحاسيسه الذاتية التي تجيش في نفسه فينفثها في عدد محدود من الأبيات.

ولقد تنبه الأدباء والنقاد القدامى لذلك فقال الزبيدي: وكان يقول الشعر، فينظم البيتين والثلاثة ونحوها^(٢٧). وأكد ذلك ياقوت الحموي^(٢٨)، وعلل السيوطي ظاهرة المقطوعات في شعر الخليل بعدم تفرغه للشعر، فهو كما لاحظ بالأصل صاحب لغة ونحو ومعاجم وضابط لأوزان الشعر^(٢٩).

ولعل دعوة الخليل الفكرية إلى الله عز وجل وإلى رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، وأغراضه الشعرية التي طرفها، قد وسمت شعره بهذه السمات الفنية.

منهج التحقيق:

بحثت - كما ذكرت سابقاً - عن شعر الخليل بحثاً دؤوباً في جمهرة كبيرة من كتب الأدب واللغة والتاريخ والبلدان والمجموعات الشعرية. ولقد تمكنت بحمد الله أن أجمع مجموعة كبيرة من شعره، موزعة على مختلف الأغراض الشعرية، يتصدرها شعر الزهد والحكمة والأخلاق الإسلامية. ولقد قمت بدراستها وتحقيقها، واتبعت في التحقيق منهجاً يتمثل بتنسيق شعر الشاعر المجموع حسب القوافي على حروف الهجاء، فابتدأت بالروبي المضموم فالمفتوح فالمكسور فالساكن. وقمت بتخريج شعره وتصنيفه وضبطه. ورتبت الشعر الذي عثرت عليه مجزأً وأبياتاً متناثرة، وراعت في الترتيب المعنى الذهني واجتهدت في ذلك حسبما رأيت أنه صواب. وجعلت لكل قصيدة رقماً خاصاً بها، وصنعت الأمر نفسه في كل مقطوعة وبيت. وعدت إلى مجموعة كبيرة من الكتب فاعتمدتها مصادر لتوثيق شعر الشاعر. والمصدر المذكور في البداية هو الذي فضلت روايته ويكون هو الأقدم إلا إذا كان هنالك خلل في الرواية. وقابلت بين الروايات، ووازننت بينها.

(١)

المتقارب

قال الخليل بن أحمد:

١. وقبلك داوى الطبيب المريضَ فعاش المريضُ ومات الطبيبُ

٢. فكن مستعداً لدار الفناء فإن الذي هو آتٍ قريبُ

التخريج:

- ١- أخبار النحويين البصريين: ٥٦، وروضات الجنات في أحوال العلماء والسادات: ٣: ٢٨٥، ونزهة الألباء في طبقات الأدباء: ٤٦، ومعجم الأدباء: ١١: ٧٦، والزهرة: ٢: ٥٥٨، وورد البيت الأول في طراز المجالس: ١٣٥، وورد البيتان في تحفة الأديب في نحاة مغنى اللبيب: ٢٧٥: ١، وبغية الوعاة: ١: ٥٥٨، وفي قاموس الرجال: ٤: ٢٠٣، وأعيان الشيعة: ٦: ٣٤٦.
- ٢- في قاموس الرجال: لداعي الفناء.

(٢)

وقال: الطويل

١. يقولون لي دار الأحياء قد ننت وأنت كئيب إن ذا لعجيب
٢. فقلت فهل تُغني ديارُ قريبة إذا لم يكن بين القلوب قريب

التخريج: الأئس والعرس: ١٨٦، ونزهة الألباء في طبقات الأدياء: ٤٦، ووفيات الأعيان: ٢٤٧:٢، ومسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ٧:٨٣.

(٣)

وقال: الخفيف

١. أبلغا عني المنجم أني كافر بالذي قضته الكواكب
٢. عالم أن ما يكون وما كان ن بحتم من المهيمن واجب
٣. شاهد أن من يفوض أويج بر زار على المقادير كاذب

التخريج:

١- طبقات النحويين واللغويين: ٤٧، ٤٨، ونور القبس: ٦٥، وبهجة المجالس وأئس المجالس وشذذ الذاهن والهاجس: ٣:١١٥، وورد البيتان الأول والثاني في: طبقات الشعراء: ٨٨، والدر الفريد وبيت القصيد: ١:٢١٤، وروضات الجنات: ٣:٢٨٥، والتذكرة السعدية: ٦٥، وسمط اللاكي في شرح أمالي القالي: ٢:٨١٥، وتحفة الأديب في نحاة مغني اللبيب: ١:٢٧٧، والواقف بالوفيات: ١٣:٣٩٠، وأعيان الشيعة: ٦:٣٤٦.

٢- في طبقات الشعراء، وفي التذكرة السعدية: قضاء من المهيمن، وفي روضات الجنات: بحكم، وفي تحفة الأديب: بأمر، وفي أعيان الشيعة: فحتم من المهيمن.

(٤)

وقال: الكامل

١. الله ربي والنبى محمد حيا الرسالة بين الأسباب
٢. ثم الوصي وصي أحمد بعده كهف العلوم بحكمة وصواب
٣. فاق النظير ولا نظير لقره وعلا عن الخلان والأصحاب

٤. بمناقب ومآثر ما مثلها في العالمين لعابد تواب
٥. وبنوه أبناء النبي المرتضى أكرم بهم من شيخة وشباب
٦. ولفاطم صلى عليهم ربنا تقويم أحمد ذي النهى الأواب

التخريج: مناقب آل أبي طالب: ٣: ٢٤.

(٥)

الطويل

وقال:

١. يُعدُّ رفيعُ القوم من كان عاقلاً وإن لم يكن في قومه بحسيب
٢. وإن حلّ أرضاً عاش فيها بعقله وما عاقلٌ في بلدةٍ بغريب

التخريج: الأنس والعرس: ٤٨، ونزمة الأبصار في محاسن الأشعار: ٤٨.

(٦)

البيط

وقال:

١. العلمُ يُذكي عقولاً حين يصحبها وقد يزيدُها طولَ التجاربِ
٢. وذو التأدب في الجهال مُغترَبٌ يرى ويسمعُ ألوانَ الأعاجيبِ

التخريج:

١- نور القبس: ٦١، وشرح مقامات الحريري: ٤: ٢٨٨، ومجلة الحياة: ٦٤، ص: ٥٦.

٢- في مجلة الحياة: ألوان التعاجيب.

(٧)

الوافر

وقال:

١. وما شئٌ أحبُّ إلى لنيمٍ إذا سبَّ الكرامَ من الجوابِ
٢. مُتاركةُ اللئيم بلا جوابٍ أشدُّ على اللئيم من السبابِ

التخريج: نور القبس: ٦٣، الدر الفريد وبيت القصيد: ٥: ٣٢٨، وأعيان الشيعة: ٦: ٣٤٦.

(٨)

وقال:

السريع

١. يا ويح قلبي من دواعي الهوى
 ٢. أتبعتهم طرفي وقد أمعنوا
 ٣. بانوا وفيهم طفلة حُرّة
- إذ رحل الجيران عند الغروب
ودمعُ عيني كفيض الغروب
تَفَتَّرُ عن مثل أقاحي الغروب

التخريج: مراتب النحويين: ٦٠، ونور القبس: ٥٩، والمزهر: ١: ٣٧٦، وتحفة الأبيب: ١: ٢٦٨، وأعيان الشيعة: ٦: ٣٤٦.

١. الغروب: غروب الشمس.
٢. الغروب: جمع غَرَب، وهو الدلو العظيمة المملوءة.
٣. الغروب: جمع غَرَب، وهي الوهاد المنخفضة.

(٩)

وقال:

المجنت

١. إن لم يكن لك لحم
 ٢. إن لا يكن ذا وهذا
 ٣. تظلُّ فيه وتأوي
 ٤. هذا لعمرى كفاف
- كفاك خلُّ وزيتُ
فكسرةٌ وبُيُوتُ
حتى يجينك موتُ
فلا يغرِّك لبتُ

التخريج: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء: ١٥٣، ونور القبس: ٧٠ وبهجة المجالس وأنس المجالس: ٣: ٣١٢.

١. في بهجة المجالس: خبز.
 ٢. في بهجة المجالس: ورد البيت على النحو التالي:
 ٣. في بهجة المجالس: هذا كفاف وأمن.
- أو لم يكن لك هذا فكسرة ثم بيت

(١٠)

وقال:

- الكامل
١. عِشْ ما بدا لك، فصرّك الموتُ
 ٢. بينا غني بيتٍ وبهجتِه
 ٣. يا ليت شعري ما يُراد بنا
 ٤. ولربّ محمودٍ صنّاعه
- لا مرّحلاً عنه ولا فوتُ
زال الغنى وتفوضُ البيتُ
ولقلمًا تُغني إذا لبتُ
أودى فمات الذكرُ والصوتُ

التخريج: وردت الأبيات الثلاثة الأولى في نور القبس: ٦٤، وورد البيتان الأول والثاني في بهجة المجالس: ٣: ٣٤٢، وفي رسالة الصاهل والشاحج: ٣: ٤٧٨، وفي المصون في سر الهوى المكنون: ٢: ٣٠٤، وورد البيتان الأول والأخير في الزهرة: ٢: ٨٠٦.

(١١)

وقال:

الرجز

١. حسبك مما تبغيه القوتُ
- ما أكثر القوت لمن يموتُ

التخريج: نور القبس: ٦٣، وفصل المقال في شرح كتاب الأمثال: ٢٥٠.
في فصل المقال: يكفي اللبيب خلق وقوت.

(١٢)

وقال:

الكامل

١. المرء ذو صوت يعيش به
- في الناس ثم سينفذ الصوتُ

التخريج: نور القبس: ٦٤.

(١٣)

وقال:

الكامل

١. صلب الهجاء على امرئ من قومنا
 ٢. أعطى قليلاً ثم أقلع نادماً
- إذ جاز عن سنن السبيل وحادا
ولربما غلط البخيل فجادا

التخريج: إنباء الرواة: ١: ٣٨٠، والدر الفريد: ٢: ١٦٧.

(١٤)

الخفيف

وقال:

١. نزلوا مركز الندي وذراه
٢. غير أن الربا إلى سبيل الأنواء
- وعدتنا من دون ذاك العوادي
- أدنى والحظُّ حظُّ الوهاد

التخريج: زهر الآداب: ٢: ٨٨١، والدر الفريد: ٥: ١٦٩، وأعيان الشيعة: ٦: ٣٤٦.

(١٥)

الوافر

وقال:

١. يعيش المرء في أملٍ يردده إلى الأبد
٢. يؤمل ما يؤمل من صنوف المال والولد
٣. ولا يدري لعل المو ت يأتي دون بعد غد
٤. فلا يبقى لوالده ولا يبقى على ولد

التخريج: نور القبس: ٦٤.

(١٦)

الرمل

وقال:

١. إنه والله لو لا أنت لم ينج مني سالما عبد الصمد

التخريج: المنتخب من كفايات الأبناء وإشارات البلغاء: ٣١.

(١٧)

الطويل

وقال:

١. تكثر من الإخوان ما استطعت إنهم بطون إذا استجدتهم وظهور
٢. وما بكثير ألف خيل لعاقل وإن عدواً واحداً لكثير

التخريج: نور القبس: ٦٤.

(١٨)

وقال:

الوافر

١. أنست بوحدتي ولزمت بيتي فطاب الأنس لي ونما السرورُ
٢. فأدبني الزمان فلا أبالي هجرتُ فلا أزار ولا أزورُ
٣. ولست بسائلٍ ما دمت حياً أسارَ الجيش أم ركب الأميرُ

التخريج: الملاحن: ٩٣.

(١٩)

وقال:

الرجز

١. ليس بعلم ما حوى القمطر ما العلم إلا ما حواه الصدرُ

التخريج: جامع بيان العلم وفضله: ٨٣.

(٢٠)

وقال:

الطويل

١. ربُّ امرئٍ يجري ويدري بأنه إذا كان لا يدري جهولٌ بما يجري
٢. إذا كنت لا تدري ولم تك كالذي يشاور من يدري فكيف إذا تدري
٣. جهات فلم تدرك بأنك جاهلٌ وأنت لا تدري بأنك لا تدري
٤. ومن أعظم البلوى بأنك جاهلٌ فمن لي بأن تدري بأنك لا تدري

التخريج: الأبيات: (٤، ٣، ٢) في الأمالي الخمسية: ٦٤:١، والبيتان (٢، ١) في نور القبس: ٦١، في نور القبس: وتجري ولا تدري بأنك من عمى.

(٢١)

وقال:

البسيط

١. وعاجزُ الرأي مضياغٌ لفرصته حتى إذا فات أمرٌ عاتبَ القدرا

التخريج: المنتخل: ٤٦٣.

(٢٢)

البيسط

وقال:

١. صِفِ خَلْقَ خُودِ كَمَثَلِ الشَّمْسِ إِذْ بَزَغَتْ يحظى الضجيج بها نجلاءً مِعْطَارِ

التخريج: نور القبس: ٥٩، وروضات الجنات: ٣: ٢٧٩، ومراة الجنات: ١: ٣٧٩، وبغية الوعاة: ١: ٥٥٩، والوافي بالوفيات: ٣٨٨، وأعيان الشيعة: ٦: ٣٣٨.

(٢٣)

الطويل

وقال:

١. كَتَبْتُ بِخَطِي مَا تَرَى فِي دِفَاتِرِي عن الناس في عصري وعن كل غابر
٢. فَخَلَفْتَهَا بَعْدِي لِغَيْرِي عَتِيدَةً ستجني يداه من ثمار الدفاتر
٣. وَلَوْلَا عَزَائِي أَنَّهُ غَيْرُ خَالِدٍ على الأرض لا استودعتها في المقابر

التخريج: الدر الفريد: ١: ١٨٠، وورد البيت الأول والأخير في روضات الجنان: ٣: ٢٨٤، وفي أعيان الشيعة: ٦: ٣٤٦.

(٢٤)

الطويل

وقال

١. سَرِينَا وَأَدْلَجْنَا وَكَانَ رَكَابِنَا يسرن بنا في غير بر ولا بحر
٢. وَمَا هِيَ إِلَّا لَيْلَةٌ ثُمَّ يَوْمُهَا وحوّل على حولٍ وشهراً إلى شهرٍ
٣. مَطَايَا يَقْرَبْنَ الْجَدِيدَ إِلَى الْبَلَى ويذنين أشلاءً الكريم إلى القبر
٤. وَيَتْرَكْنَ أَزْوَاجَ الْغَيُورِ لِغَيْرِهِ ويقسمن ما يحوي الشحيح من الوقر

التخريج: المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء: ٢٣، ووردت الأبيات (٢، ٣، ٤) في طبقات الشعراء: ٨٨، ونور القبس: ٦٤، ٦٣، والدر الفريد: ٥: ٣١٥ ومراة الجنات: ١: ٣٨٠ وأعيان الشيعة: ٦: ٣٤٦.

في نور القبس: ويبعدن جثمان الشحيح من الوقر.

(٢٥)

وقال:

البيسط

١. اعمل بعلمي وإن قصرتُ في عملي ينفك علمي ولا يضررك تقصيري
٢. وانظر لنفسك فيما أنت فاعله من الأمور وشمر فوق تشميري

التخريج: نور القبس: ٦١، وورد البيت الأول في طبقات النحويين واللغويين: ٤٧، وفي لباب الأداب: ٧٢١:٢، وفي روضات الجنات: ٢٨٦:٣، وفي الحور العين: ١٦٥، وفي تحفة الأديب: ٢٧١:١، وفي سمط اللآلي: ٨١٥:٢، وورد البيت الثاني في: المعارف: ٢٣٦، وفي جامع بيان العلم وفضله: ١٧٨.

(٢٦)

وقال:

الرمل

١. بطل النحو الذي جمعتم غير ما ألف عيسى بنُ عمر
٢. ذاك إكمال وهذا جامعٌ وهما للناس شمسٌ وقمر

التخريج: مراتب للنحويين: ٤٧. ونور القبس: ٥٨، وروضات الجنات: ٢٨٢:٣. وأعيان الشيعة: ٣٤٦:٦. في نور القبس: ما أحدث، وفي المزهرة: الذي ألفتوا.

(٢٧)

وقال

مجزوء الكامل

١. افخر وكاثر بالقريحـ لـ إنها فخر المكاثر
٢. وأعلم بأن العلم ما أوعيت في صحف الضمائر

التخريج: ديوان المعاني ١: ١٤٧.

(٢٨)

وقال:

١. لزمتمُ البيتَ مصطبراً كاني أخو قبرٍ دفنتُ بلا أنيسِ

التخريج: مجلة الحياة: ٥٥.

(٢٩)

المتدارك

وقال:

١. هذا عمرو يستعفى من زيد عند الفضل القاضي
٢. فأنهوا عمراً إني أخشى صول الليث العادي الماضي
٣. ليس المرء الحامي أنفأ مثل المرء الضيم الراضي

التخريج:

- ١- مراتب النحويين: ٥٩ ونور القبس: ٦٠، و إنباه الرواة على أنباء النحاة: ٣٧٧، وتحفة الأديب: ١: ٢٦٨.
- ٢- في نور القبس: يعدو عمرو يستنهي من.

(٣٠)

السريع

وقال:

١. ما اتسعت أرضاً إذا كان من تبغض في شيء من الأرض

التخريج:

- ١- نور القبس: ٦١، والدر الفريد: ٥: ٣٦.

(٣١)

الكامل

وقال:

١. ورد العفأة المعطشون فأصدروا ريثاً فطاب لهم لديك المكرغ
٢. ووردت حوضك ظامناً متدفقاً فرددت دلوِي شنها يتقعق
٣. وأراك تمطرُ جانباً عن جانب وفناء أرضي من سمائك بلقع
٤. أبحسن منزلتي تؤخر حاجتي أم ليس عندك لي لخير مطمع

التخريج: نور القبس: ٦٧.

(٣٢)

وقال:

الخفيف

١. إن في دارنا ثلاث حُبالي
 ٢. جارتني ثم هرتني ثم شاتي
 ٣. جارتني للرضاع والهز للفقار وشاتي
- قد وددنا أن لو وضعن جميعاً
 فإذا ما وكذن كُن ربيعا
 إذا اشتهيت مجيعا

التخريج: اللطائف والظرائف: ١: ١٩٠.

(٣٣)

وقال:

المجنت

١. إن الخليط تصدغ
 ٢. لولا جوار حسان
 ٣. أم النبيين وأسما
 ٤. لقلت للراحل أرحل
- فطر بدائك أو قغ
 حور المدامع أربع
 ء والرئاب وبوزغ
 إذا بدا لك أو دغ

التخريج:

- ١- الشعر والشعراء: ١٠، ورسالة الغفران: ٢٧٩.
 ٢- في رسالة الغفران: مثل الجائر أربع.
 ٣- في رسالة الغفران: والبغوم وبوزع.
 ٤- في رسالة الغفران: لقلت للظاعن أظعن.

(٣٤)

المتقارب

وقال:

١. كَفَاهُ لَمْ تَخْلُقِ لِلنَّدَى وَلَمْ يَكْ بَخْلُهُمَا بَدْعَةٌ
٢. فَكَفُّ عَنِ الْخَيْرِ مَقْبُوضَةٌ كَمَا نُقِصَتْ مِائَةٌ سَبْعَةٌ
٣. وَكَفُّ ثَلَاثَةٌ أَلْفَهَا وَتَسَعُ مِنْهَا لَهَا شِرْعَةٌ

التخريج: المعارف: ٢٣٦ وطبقات النحويين واللفويين: ٤٩، ونور القبس: ٥٩ والمحاسن والأضداد: ٥٨، وأسرار البلاغة: ١٣٣، والعقد الفريد: ٦: ٢٠٢، والحدود العين: ١٦٥، والبيتان الأول والثالث في كتاب الشعر والشعراء: ٤٦٦، والأبيات في تحفة الأديب: ١: ٢٧٦.
٣- في أسرار البلاغة: وتسع منها لها منعه.

(٣٥)

مجزوء الكامل

وقال:

١. اللَّهُ صَوْرٌ كَفَّهُ مِمَّا يَرَاهُ فَأَبْدَعَهُ
٢. مِنْ تِسْعَةٍ فِي تِسْعَةٍ وَثَلَاثَةٍ فِي أَرْبَعَةٍ

للتخريج: الحدود العين: ١٦٥، وأعيان الشيعة: ٦: ٣٤٥.

(٣٦)

الطويل

وقال:

١. أَيَا فَرْجًا مِنْ عِنْدِ رَبِّ مُفْرَجٍ أَمَّا لَكَ فِي الدُّنْيَا عَلِيٌّ طَرِيقُ

للتخريج: الدر الفريد وبيت القصيد: ٣: ٤٤.

(٣٧)

الوافر

وقال:

١. نَصَحْتُكَ يَا مُحَمَّدُ إِنْ نَصَحِي رَخِصَ يَا رَفِيقِي لِلصَّدِيقِ
٢. فَلَمْ تَقْبَلْ وَكَمْ مِنْ نَصِيحٍ وَدَّ أَضِيعَ فَحَادَ عَنْ وَضَحِ الطَّرِيقِ

للتخريج: كتاب الأمالي لأبي علي القالي: ٣: ١٩٩.

(٣٨)

الكامل

وقال:

١. لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت تعلم ما تقول عذلتك
٢. لكن جهلت فعذلتني وعلمت أنك جاهل فعذرتك

التخريج: طبقات الشعراء: ٨٩، وأخبار النحويين البصريين: ٥٥، ولباب الأداب: ٧٥:٢، وجمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام: ٤٣، ونور القبس: ٥٨، والمنصف في نقد الشعر وبيان سرقات المتنبي ومشكل شعره: ١٩٠. والعقد الفريد: ٨٣:٢، ومعجم الأدباء: ٧٥:١١، ووفيات الأعيان: ٢٤٧:٢، ونزهة الألباء في طبقات الأدباء: ٤٥، والوافي بالوفيات: ١٣:٣٩٠، وقاموس الرجال: ٢٠٣:٤، وبغية الوعاة: ٥٥٨:١، ومسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ٨٢:٧، وجامع بيان العلم وفضله: ٢٠٢، وتحفة الأديب: ٢٧٤:١، وأعيان الشيعة: ٣٣٩:٦.

(٣٩)

الوافر

وقال:

١. ألا ينهاك شيبك عن صباكا وتترك ما أضلك من هواكا
٢. أترجو أن يطيعك قلب سلمى وتزعم أن قلبك قد عصاكا

التخريج: مرآة الجنات: ١: ٣٨٠، وأعيان الشيعة: ٦: ٣٤٦.

(٤٠)

الوافر

وقال:

١. أتبكي بعد شيب قد علاكا ولا ينهاك شيبك عن بكاك
٢. فهلا إذا بكيت على التصابي بكيت على الصباية في صباكا

التخريج: نور القبس: ٦٤.

(٤١)

وقال:

الوافر

١. وهذا المال يُرزقه رجالٌ
 ٢. ورزقُ الخلقِ محبوبٌ إليهم
 ٣. كما تُسقى سباحُ الأرضِ رِيًّا
 ٤. فلا ذو المالِ يُرزقه بعقلٍ
- مناديل إذا أختبروا فسولُ
مقاديرٌ يقدرها الجليلُ
وتصرفُ عن كرائمها السيولُ
ولا بالمالِ تُقتسمُ العقولُ

التخريج: نور القبس: ٧٠.

(٤٢)

وقال:

الطويل

١. وما بلغ الإنعامُ في النفعِ غايةً
 ٢. وما بلغت أيدي المنيّلين بسطةً
 ٣. ولا رجحت بالمرءِ يوماً صنيعاً
- من الفضلِ إلا مبلغُ الشكرِ أفضلُ
من الطولِ إلا بسطةُ الشكرِ أطولُ
على المرءِ إلا وعلى بالشكرِ أنقلُ

التخريج: نور القبس: ٧٠.

(٤٣)

وقال:

المتدارك

١. سنلوا فأبوا فلقد بخلوا
 ٢. أبكيت على طللٍ طرباً
- فلبسَ لعمرُك ما فعلوا
فشجاك وأحزنك الطللُ

التخريج: مراتب النحويين: ٥٩، ونور القبس: ٦٠، وإنباه الرواة: ٣٧٧:١، وتحفة الأديب: ٢٦٧:١.

(٤٤)

وقال:

مجزوء الكامل

١. فهم كثيرٌ بي وأعلمُ أنني بهم قليلُ

التخريج: الأشباه والنظائر: ٣٦٢:٢.

(٤٥)

وقال:

- الوافر
١. كأنك كنت قد خامرت قلبي
فجئت بما شفيت به الخليل
٢. رأيت براعة الإيجاز أشفى
فصار كثير غيرك لي قليلا

التخريج: شرح مقامات الحريري: ٤: ٣٨٨.

(٤٦)

وقال:

- البيسط
١. أبلغ سليمان أنني عنه في سعة
وفي غنى غير أنني لست ذا مال
٢. سخى بنفسي أنني لا أرى أحداً
يموت هزلاً ولا يبقى على حال
٣. وإن بين الغنى والفقر منزلة
مخطومةً بجديد ليس باليالي
٤. فالرزق عن قدر لا العجز ينقصه
ولا يزيدك فيه حول محتال
٥. إن كان ضنَّ سليمان بنائله
فإنه أفضل مسؤل السؤل
٦. والفقر في النفس لا في المال تعرفه
ومثل ذلك الغنى في النفس لا المال
٧. والمال يغشى أناساً لا أصول لهم
كما تغشى أصول الذنن اليالي
٨. كلُّ أمرئٍ بسبيل الموت مرتنه
فاعمل لنفسك إنني شاغلٌ يالي

التخريج: نور القبس: ٦٤.

الأبيات (٧، ٦، ٤، ٢، ١) في طبقات اللغويين والنحاة: ٤٧، والأبيات (٥، ٤، ٣، ٢، ١) في نور القبس: ٦٦، والأبيات (٥، ٦، ١) حسب هذا الترتيب في نثر النظم وحل العقد: ١٢٤، والأبيات (٤، ٢، ١) في اللطائف والطرائف: ١٠١: ١، والبيتان (٤، ١) في طبقات الشعراء: ٨٩ والأبيات (٨، ٧، ٦، ٢، ١) في زهر الآداب: ٢: ٨٨١، والأبيات (٦، ٤، ٢، ١) في الفلاحة والمفلوكون: ٩٣، والأبيات (٦، ٤، ٢، ١) في إنباه الرواة: ٣٧٩: ١، والأبيات (٨، ٧، ٦، ٢، ١) في الدر الفريد: ٢١٤: ١ والبيت الثاني في أساس البلاغة: ٢٠٦، والأبيات (٦، ٤، ٢، ١) في كتاب الأمالي لأبي علي القالي: ٢: ٢٦٩، والأبيات (٤، ٢، ١) في كتاب الأمل والمأمول: ١٩، والبيتان (٢، ١) في أخبار النحويين البصريين: ٥٥، والأبيات (٤، ٢، ١) في الزاهر: ١٠١: ١، والأبيات (٦، ٤، ٢، ١) في جامع بيان العلم وفضله: ٢٧٢، والأبيات (٤، ٦، ٢، ١) حسب هذا الترتيب في نزهة الألباء: ٤٦،

والأبيات (٤،٢،١) في المصون في سر الهوى المكنون: ٣٤، والأبيات (٦،٤،٢،١) في جامع بيان العلم وفضله: ٢٣٥، والأبيات (٦،٤،٢،١) في وفيات الأعيان: ٢: ٢٤٦، والأبيات (٤،٦،٢،١) في معجم الأدباء: ٧٦: ١١ والأبيات (٦،٤،٢،١) في مرآة الجنان: ١: ٣٧٩، والأبيات (٦،٤،٢،١) في مسالك الأبصار: ٧: ٨٣، وفي روضات الجنات: ٣: ٢٨٥، وفي الحور العين: ١٦٦، وفي تحفة الأديب: ١: ٢٦٥، والأبيات (٦،٤،٢،١) في الفلاحة والمفلوكون: ٩٣، وفي أعيان الشيعة: ٦: ٣٤٠.

الذندن: أصول الشجر.

(٤٧)

وقال:

السريع

١. ما أسمع النسك بسأل وأقبح البخل بذئ المال
٢. وأقبح الثروة ما لم تكن عند أخي جود وإفضال
٣. والحرص من شرّ أداة الفتى لا خير في الحرص على حال
٤. من بات محتاجاً إلى أهله هان على ابن العمّ والخال
٥. ما وقع الواقع في ورطة أزرى به من رقة الحال

التخريج: نور القبس: ٦٩، والأبيات في تحفة الأديب وهي حسب الترتيب التالي (٥،٤،٢،٣،١)، والأبيات (٥،٤،١) في بهجة المجالس: ١: ٢١٢. وفي تحفة الأديب: ما أقبح النسك.

(٤٨)

وقال:

الطويل

١. رأيت غنى الإنسان نفساً زكية مطهرة من كل رجس وباطل
٢. ففي عاجل الدنيا مديح ورفعة وخير عظيم عاجل بعد أجل

التخريج: شرح مقامات الحريري: ٤: ٣٨٨، وجاء في شرح مقامات الحريري أن ابن مزاحم الشاعر قد قال: كان الخليل صديقاً لي فدخلت عليه يوماً؛ فقال: أجز... وأورد البيتين.

(٤٩)

وقال:

البيسط

١. رَزِقْتُ جوداً ولم أرزقُ مَرُوءَةً
- وما المروءة إلا كثرةُ المالِ
٢. إذا أردتُ مُساماةً تقاعدني
- عما يُنَوِّهُ باسمي رِقَّةُ الحالِ

التخريج: نور القبس: ٧٠.

(٥٠)

وقال:

الوافر

١. وما بقيتُ من اللذاتِ إلا
- محاورةُ الرجالِ نوي العقولِ
٢. وقد كانوا إذا عُدُّوا قليلاً
- فقد صاروا أقلَّ من القليلِ

التخريج: نور القبس: ٦٣.

(٥١)

وقال:

الخفيف

١. حبسُ ما لم أقلَّ على يسيرٍ
- وعسيرٍ ردُّ الكلامِ المقولِ

التخريج: الدر الفريد: ٢١٤:٣.

(٥٢)

وقال:

مجزوء الرمل

١. عقلُ هذا المرءِ مِرْآةٌ يرى فيها فعالةٌ
٢. فإذا أكملها اللـ
- ه صفاةٌ وصقالةٌ
٣. فهو يُعطي كلَّ حيٍّ
- ناظرٍ فيها مثالةٌ

التخريج: المصون في سر الهوى المكنون: ٣٤، وشرح مقامات الحريري: ٢٧٥.

(٥٣)

وقال:

السريع

١. غرَّ جهولاً أمله
 ٢. ومن دنا من حتفه
 ٣. لا يصحب الإنسان من
- حتى يوافي أجله
لم تغن عنه حيلة
دنياه إلا عملة

التخريج: نور القبس: ٦٣.

(٥٤)

وقال:

الطويل

١. سالزمُ نفسي الصفح عن كل منذب
 ٢. وما الناسُ إلا واحدٌ من ثلاثة
 ٣. فأما الذي فوقى فأعرف فضله
 ٤. وأما الذي مثلي فإن زلَّ أو هفا
 ٥. وأما الذي دوني فإن قال صنتُ عن
- وإن كثرت منه على الجرائمُ
شريفٌ ومشروفٌ ومثلٌ مقاومٌ
وأتبِعُ فيه الحقَّ والحقُّ لازمٌ
تفضلتُ إن الفضلَ بالعزَّ حاكمٌ
إجابته عرضي وإن لامَ لائمٌ

التخريج: نور القبس: ٥٦، وديوان المعاني: ١: ١٣٤، والدر الفريد: ٣: ٢٤٣.

في الدر الفريد: ومثلي مقاوم.

في الدر الفريد: صنت عن إجابته نفسي.

(٥٥)

وقال:

- السريع
١. يا ذا الذي في الحب يلحى أما والله لو حملت منه كما
 ٢. حملت من حب رخيم لما لمت على الحب فدعني وما
 ٣. أطلب أني لست أدري بما أحببت إلا أنني بينما
 ٤. أنا بباب القصر في بعض ما أطلب من قصرهم إذرما
 ٥. شبه غزال بسهام فما أخطأ سهماً ولكنما
 ٦. عيناه سهماً له كلما أراد قتلي بها سلما

التخريج: مفتاح العلوم: ٥٧٦.

(٥٦)

وقال:

الكامل

١. لا تقبلن الشعر ثم تعقه وتنام والشعراء غيرُ ينام
٢. وأعلم بأنهم إذا لم يُنصفوا حكموا لأنفسهم على الحكام
٣. وجناية الجاني عليهم تنقضي وعتابهم يبقى على الأيام

التخريج:

نور القبس: ٦٧، والعقد الفريد: ٥: ٢٦٩، وشرح مقامات الحريري: ٤: ٣٨٨.
في شرح مقامات الحريري: وكومهم تبقى على الأيام.

(٥٧)

وقال:

البسيط

١. مازال أخذهم في النحو يعجبني حتى تعاطوا كلام الزنج والروم
٢. حتى سمعت كلاماً لست أعرفه كأنه زجلُ الغريبان واليوم
٣. رفضت نحوهم والله يعصمني من التقحيم في تلك الجرائم

التخريج: نور القبس: ٥٨.

(٥٨)

البيسط

وقال:

١. وَفَيْتُ كُلَّ صَدِيقٍ وَدَنِي ثَمَنًا
- إِلَّا الْمُؤَمَّلَ دُولَاتِي وَأَيَّامِي
٢. فَأَنَّنِي ضَامِنٌ إِلَّا أَكَاغِفَهُ
- إِلَّا بِتَسْوِيغِهِ فَضْلِي وَإِنْعَامِي

التخريج: رسالة الصداقة والصديق: ١٤٣.

(٥٩)

الوافر

وقال:

١. إِذَا ضَيِّقَتْ أَمْرًا زَادَ ضَيْقًا
- وَإِنْ هَوَّنَتْ صَعَبَ الْأَمْرِ هَانَا
٢. فَلَا تَجْزَعُ لِأَمْرِ ضَاقَ شَيْئًا
- فَكَمْ صَغَبٍ تَشْتَدُّ ثُمَّ لَانَا

التخريج: نور القبس: ٦٣.

(٦٠)

البيسط

وقال:

١. وَخَصَلَةٌ يَكْثُرُ الشَّيْطَانُ إِنْ تَكَرَّتْ
- مِنْهَا التَّعْجُبُ جَاءَتْ مِنْ سَلِيمَانَا
٢. لَا تَعْجِبَنَّ لِخَيْرِ زَلٍّ عَنْ يَدِهِ
- فَالْكَوْكَبُ النُّحْسُ يَسْقِي الْأَرْضَ أَحْيَانَا

التخريج:

طبقات الشعراء: ٨٩، ولباب الأدب: ٧٦:٢، والبيت الثاني في: خاص الخاص: ٤٢، ونور
الطرف ونور الظرف: ٢٢، وفي ديوان المعاني: ١٨٥:١، وفي أدب الكتاب: ٤٢، وكتاب
المنتحل: ١:٤٦٣، والعقد للفريد: ٣:٧٧، والبيتان في وفيات الأعيان: ٢:٤٦، وفي الدر للفريد:
٥:٤٢٠، وفي روضات الجنات: ٣:٢٨٥، وفي إنباء الرواة: ١:٣٩٧، ومسالك الأبصار: ٧:٨٣،
وفي أعيان الشيعة: ٦:٣٤٠.

(٦١)

وقال:

السريع

١. إن الذي شق فمي ضامنٌ لي الرزق حتى يتوفاني
٢. حرمتي خيراً كثيراً فما زادك في مالك حرمانِي

التخريج: لباب الآداب: ٧٦:٢، وإنباه الرواة: ٣٧٩:١، ووفيات الأعيان: ٢٤٦:٢، وروضات الجنات: ٢٨٥:٣، ومسالك الأبصار: ٨٣:٧ وأعيان الشيعة: ٣٤٠:٦.

(٦٢)

وقال:

الكامل

١. ليس المسيءُ إذا تغيب سوءه عني بمنزلة المسمى المعلنِ
٢. من كان يُظهر ما أحبُّ فإنه عندي بمنزلة الأمين المٌحسنِ
٣. والله أعلم بالقلوب وإنما لك ما بدا لك منهم بالألسنِ

التخريج: نور القبس: ٦٥.

(٦٣)

وقال:

مجزوء الكامل

١. هبني أسأتُ كما زعمتُ فأين عاطفةُ الأخوةِ
٢. فإذا أسأت كما أسأتُ فأين فضلك والمروّةِ

التخريج: تحفة الأديب: ٢٧٧:١، وطبقات النحويين واللغويين: ٥٠ باستثناء البيت الثاني.

(٦٤)

وقال:

البيسط

١. ترفعت عن يد الأعماق وانخفضت
 ٢. فاعتم بالطلع والزيتون أسفلها
 ٣. وصار يحسده من كان يعذله
 ٤. أبا معاوية اشكر فضل واهبها
- عن المعاطش واستغنت بسقياها
وماد بالنخل والرمان أعلاها
ولائم لام فيها قد تمنها
وكلما جنتها فاعمر مصلأها

التخريج:

- ١- نور القيس: ٦٨، وديوان المعاني: ٣١:٢.
- ٢- في ديوان المعاني: فالتف بالزهر والريحان أسفلها.
- ٣- في ديوان المعاني: وصار يحسده فيها أصادقه.

(٦٥)

وقال:

المنبسط

١. ما وهب الله لامرئ هبة
 ٢. هما حياة الفتى فإن عدا
- أفضل من عقله ومن أدبه
ففقده في الحياة أجمل به

التخريج: نزهة الأبصار في محاسن الأشعار: ٤٨.

(٦٦)

وقال:

الخفيف

١. لا يكون السري مثل الدئي
 ٢. لا يكون الألد ذو المقول المر
 ٣. أي شيء من اللباس على ذي الـ
 ٤. ينظم الحجة السنئية في السلـ
 ٥. وترى اللحن بالحسب أخي الهـ
 ٦. فاطلب النحو للحجاج وللشغـ
- لا ولا ذو الذكاء مثل الغبي
هف عند القياس مثل العبي
سرور أبهى من اللسان البهي
ك من القول مثل عقد الهدى
أه مثل الصدا على المشرفي
ر مقيماً والمسند المروري

٧. والخطاب البليغ عند جواب الـ قول تَزْهَى بِمَنْتَهُ فِي النَّدَى
٨. وَاِرْقُضِ الْقَوْلَ مِنْ طَعَامِ جَفَا عَنْهُ فَقَادُوا بَعْضَهُ لِلنَّمَى
٩. قِيمَةُ الْمَرْءِ كُلُّ مَا يَحْسِنُ الْمَرْءُ قَضَاءً مِنَ الْإِمَامِ عَلِيٍّ

التخريج: بهجة المجالس: ١: ٦٥، وطبقات النحويين واللغويين باستثناء البيت الثاني. والأبيات: (٩، ٢، ١) في بيان العلم وفضله: ١٢٠، والبيتان الأول والتاسع في: أدب الدنيا والدين: ٤٢، وفي الدر الفريد: ٤: ٣٤٧.

- ٤- في طبقات النحويين واللغويين: ينظم الحجة الشنينة.
٧- في طبقات النحويين واللغويين: والخطاب البليغ عند حوار القول.
٨- في طبقات النحويين واللغويين: فعاووه نصبة للنبي.

(٦٧)

وقال: الوافر
١. أَقُولُ لَهَا وَدَمْعَ الْعَيْنِ جَارِ أَلَمْ يُحْزِنِكَ حَيْعَلَةُ الْمَنَادِي

التخريج: المزهري في علوم اللغة وأنواعها: ١: ٤٨٢.
١- حيلة: من قوله (حي على).

ما ينسب إليه

(١)

الطويل

١. وأفضلُ قسمِ الله للمرءِ عقله فليس من الخيرات شيء يقاربه
٢. إذا أكمل الرحمن للمرء عقله فقد كملت أخلاقه وضرائبه
٣. يعيش الفتى بالعقل في الناس إنه على العقل يجري علمه وتجاربه
٤. ومن كان غالباً بعقل ونجدة فذو الجدّ في أمر المعيشة غالبه
٥. يزين الفتى في الناس صحّة عقله وإن كان محظوراً عليه مكاسبه
٦. ويؤزري به في الناس قلة عقله وإن كرّمت أعرافه ومناسبه

التخريج: التذكرة السعدية: ٢١٧، ووردت الأبيات: (٦،٥،٣،٢،١) في ترتيب مختلف في نزهة الألبصار في محاسن الأشعار: ٤٨، ووردت الأبيات: (٦،٥،٣،٢) في التذكرة الحمدونية: ٣٥٧، ووردت الأبيات لابن دريد في ديوان المعاني: ١٤١:١، مع اختلاف في رواية البيتين: (٦،٢).

(٢)

البسيط

١. زُر وادي القصر نعم القصرُ والوادي لا بدّ من زورةٍ عن غير ميعادٍ
٢. زُرّه فليس له شبة يعادله من منزلٍ حاضرٍ إن شئت أوبادٍ
٣. تُرقي قراقيره والعيسُ واقفة والنونُ والضبُّ والملّاح والحادي

التخريج: نور القبس: ٧٠، والأول والثالث في الحيوان: ٩٨:٦، ورسائل الجاحظ: ٨٢، والعقد الفريد: ٣٨٤:٥، والأزمنة والأمكنة: ٤٩٢، والدر الفريد: ٣٣٠:٣، والأبيات تروى لابن أبي عيينة في مروج الذهب: ٢٥٨:٣، وفي معجم الشعراء: ١١٠. وديوان المعاني: ١٣٨:٢، وبتيمة الدهر: ٩٦:١.

(٢)

البيسط

١. إن كنت لست معي فالذكر منك هنا يرعاك قلبي وإن غيبت عن بصري
٢. العين تفقد من تهوى وتبصره وناظر القلب لا يخلو من النظر

التخريج: الأمالي: ٢: ١٩٦، والدر الفريد: ٢: ٢٢٥، والغيث للمسجم في شرح لأمية العجم: ٢: ٢٢٧، وديوان الصبابة: ٦٢ والمصون في سر الهوى المكنون: ٥٨، وأعيان الشيعة: ٦: ٢٤٦، وجاء في الدر الفريد: أنه يروى أنهما للحكم بن قنبر: ٢: ٢٢٥.

٢- في الغيث للمسجم: العين تبصر من تهوى وتفقد. وفي ديوان الصبابة: العين تبصر من تهوى وتفقد.

(٤)

الطويل

١. أقيموا بني النعمان عنا صنووركم وإلا تقيموا صاغرين الرعوسا

التخريج:

(١) العقد الفريد: ٥: ٣٩٠، والبيت في المفضليات: ٢: ٩٨ وتسميه ليزيد بن الخفاف الشني، وهو من شواهد السكاكي: ٥٢٨ بدون نسبة.

(٥)

الكامل

١. وإذا افتقرت إلى النخائر لم تجد نخراً يكون كصالح الأعمال

التخريج: طبقات النحويين واللغويين: ٤٨، وجاء في هذا الكتاب أن أكثر الناس يرونه للأخطل: ٤٨.

(٦)

البيسط

١. ما ازددتُ في أدبي حرفاً أسرُّ به
- إلا تزيدتُ حرفاً تحته شومٌ
٢. إن المقدم في حذقٍ بصنعة
- أنيَّ توجهه فيها فهو محرومٌ

التخريج: اللطائف والظرائف: ٥٨، ونثر النظم وحل العقد: ١٠٤ وهما للحمادوني في رسائل
الثعالبي، وللخليل في الدر الفريد: ٣٨:٥، وهما للخريمي في زهر الآداب: ١: ٥١٣، وهما للخليل
في أعيان الشيعة: ٦ : ٣٤٦.

(٧)

المنسرح

١. يا جنةً فاقت الجنان فما
- تبلغها قيمةً ولا ثمنٌ
٢. ألفتها فاتخذتها وطناً
- إن فؤادي لأهلها وطنٌ
٣. زوَّج حياتها الضباب بها
- فهذه كنةٌ وذا ختنٌ
٤. انظر وفكر فيما تطيف به
- إن الأريب المفكر الفطنٌ
٥. من سفن كالنعام مقبلة
- ومن نعامٍ كأنها سفنٌ

التخريج: ثمار القلوب: ٥٢٨، والأبيات باستثناء البيت الرابع في نور القبس: ٧١، للخليل أو
لأبي عيينة المهلبى. والأبيات لأبي عيينة في ديوان المعاني: ٢: ١٣٨. والأبيات (١، ٢، ٣، ٥) في
أعيان الشيعة: ٧١ : ٦، للخليل بن أحمد وقيل إنها لأبي عيينة المهلبى.

(٨)

الكامل

١. قالت أتهز أبي غداةً لقيتها
- يا للرجال لصبوة العميان
٢. فأجبتها نفسي فداؤك إنما
- أذني وعيني في الهوى سبان

التخريج: زهر الآداب: ١: ١٥٣، وقيل إنهما لأبي يعقوب الخريمي وكان قد غور ثم عمي، وقيل
إنهما للخليل بن أحمد.

الحواشي:

- (١) لنظر ترجمته في: المعارف: ٥٤١، ومراتب النحويين: ٥٤، وأخبار النحويين البصريين: ٥٤، وطبقات الشعراء: ٨٦، وطبقات النحويين واللغويين: ٤٧، ونور القبس: ٥٧، ونزهة الألباء في طبقات الأدياء: ٤٥، ووفيات الأعيان: ٢: ٢٤٤، ومعجم الأدياء: ١١: ٧٢، وإنباء الرواة على أنباء النحاة: ١٠: ٣٧٦، ومرآة الجنات: ١: ٣٧٧، والوافي بالوفيات: ١٣: ٣٨٥، ومسالك الأبصار في ممالك الأمصار: ٧: ٨٠، وتحفة الأديب: ١: ٢٦٤، ومفتاح السعادة: ١: ١٠٦، وشنرات الذهب: ١: ٤٤٢.
- (٢) نور القبس: ٥٦.
- (٣) مراتب النحويين: ٥٦.
- (٤) لفلاكه والمفلوكون: ٩٣.
- (٥) شرح المقامات الحريرية: ٢: ٤٤٧.
- (٦) نزهة الألباء في طبقات الأدياء: ٤٧، وإنباء الرواة على أنباء النحاة: ١: ٣٨٠، والوافي بالوفيات: ١٣: ٣٨٦.
- (٧) معجم الأدياء: ١١: ٧٤، ونزهة الألباء في طبقات الأدياء: ٤٧.
- (٨) مراتب النحويين: ٥٦، والفهرست: ٦٤.
- (٩) المصدر السابق: ٥٥.
- (١٠) المصدر السابق: ٥٥.
- (١١) المصدر السابق: ٦٧.
- (١٢) معجم الأدياء: ١١: ٧٤.
- (١٣) طبقات الشعراء: ٨٦.
- (١٤) طبقات النحويين واللغويين: ٤٨.
- أيوب السخيتاني: هو أيوب بن أبي تميمة السخيتاني أبو بكر البصري، سيد الفقهاء، ولد سنة ٨٦٦، وتوفي سنة ١٢٥. تهذيب التهذيب: ١: ٣٩٨.
- (١٥) الفهرست: ٤١.
- (١٦) معجم الأدياء: ١١: ٧٣.
- (١٧) المصدر السابق: ١١: ٧٣.
- (١٨) الأنساب: ٤: ٣٥٧.
- (١٩) معجم الأدياء: ١١: ٧٣.
- (٢٠) المصدر السابق: ١١: ٧٤-٧٥، وإنباء الرواة: ١: ٣٤٦.

- (٢١) طبقات اللغويين والنحويين: ٥١، ووفيات الأعيان: ٢: ٢٤٨، وإنباه الرواة: ١: ٣٨١،
والمزهر في علوم اللغة وأنواعها: ٢: ٤٦١، وروضات الجنات: ٣: ٢٨٠.
- (٢٢) الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ١: ٣٠٣.
- (٢٣) طبقات الشعراء: ٨٩.
- (٢٤) طبقات النحويين واللغويين: ٤٧.
- (٢٥) المزهر: ٢: ٤٠٥.
- (٢٦) روضات الجنات: ٣: ٢٨٤.
- (٢٧) طبقات النحويين واللغويين: ٤٧.
- (٢٨) معجم الأدباء: ١١: ٧٤.
- (٢٩) المزهر: ٢: ٤٠٥.

المصادر والمراجع.

١. أخبار النحويين البصريين: أبو سعيد الحسن السيرافي، تحقيق د. محمد إبراهيم البناء، دار الاعتصام.
٢. أدب الكتاب: أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، تحقيق أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م.
٣. الأزمنة والأمكنة: علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م.
٤. أساس البلاغة: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩م.
٥. أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨.
٦. الأسياب والنظائر من أشعار العرب المتقدمين والجاهلية والمخضرمين: للخالدين أبي بكر محمد وأبي عثمان سعيد ابني هاشم، تحقيق د. السيد محمد يوسف، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٨م.
٧. أعيان الشيعة: محسن الأمين، تحقيق حسن الأمين، دار التعارف، بيروت، ١٩٨٣م.

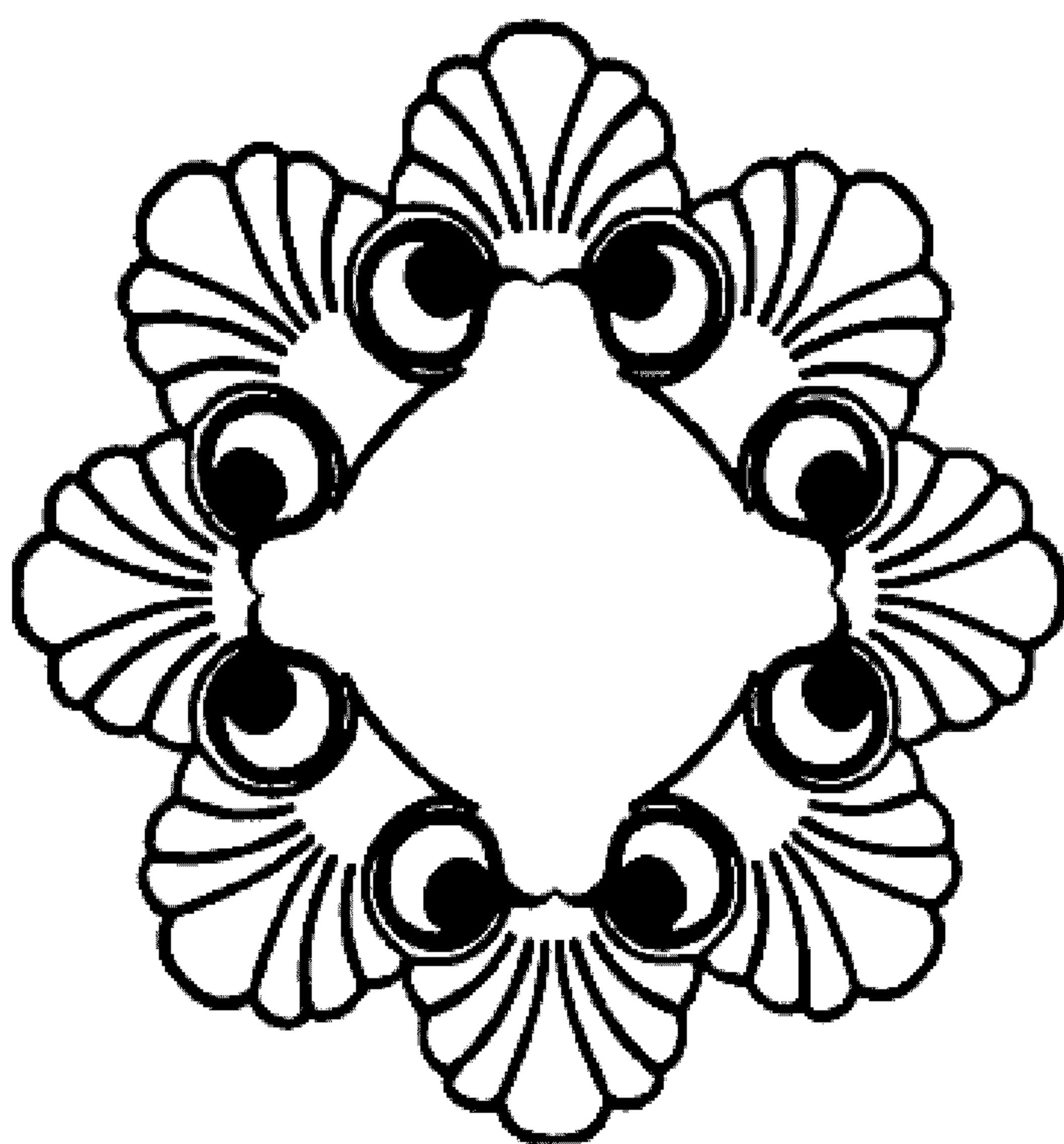
٨. الأمالي: أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م.
٩. إنباه الرواة على أنباء النحاة، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.
١٠. الأنس والعرس: للوزير أبي سعد منصور بن الحسين الأبى، تحقيق إيفلين فريد يارد، دمشق ١٩٩٩م.
١١. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.
١٢. بهجة المجالس وشذذ الأذهان والهاجس، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي، تحقيق محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م.
١٣. تحفة الأديب في نحاة مغني البيب: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق د. حسن الملح، ودة. سهى نعمة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ٢٠٠٥.
١٤. التذكرة الحمدونية: ابن حمدون محمد بن الحسن بن محمد بن علي، تحقيق د. إحسان عباس، الطبعة الأولى، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٣.
١٥. التذكرة السعدية في الأشعار العربية: محمد بن عبد الرحمن العبيدي، تحقيق د. عبد الله الجبوري، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٨١م.
١٦. جامع بيان العلم وفضله: أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٩٥م.
١٧. جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام: أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة.
١٨. الحور العين: أبو سعيد نشوان الحميري، تحقيق كمال مصطفى، دار آزال للطباعة والنشر، بيروت، والمكتبة اليمنية، صنعاء، ١٩٨٥م.

١٩. الحيوان: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٣٨.
٢٠. الخليل بن أحمد الفراهيدي - حياته وأثاره في المراجع العربية والأجنبية: كوركيس عواد وميخائيل عواد، مطبعة الجامعة - بغداد ١٩٧٢م.
٢١. الدر الفريد وبيت القصيد "مخطوط": ابن أيذر، صورة عن المخطوط أصدرها فؤاد سزكين، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت ١٩٨٨م.
٢٢. ديوان الصبابة: شهاب الدين أحمد بن حجلة المغربي، مطبوع مع كتاب تزيين الأشواق في أخبار العشاق لمؤلفة داود الأنطاكي، دار حمد ومحيو، ١٩٧٢م.
٢٣. ديوان المعاني: أبو هلال العسكري، مكتبة الأندلس، بغداد.
٢٤. الزريعة إلى تصانيف الشيعة: آغايزرك، طهران، ١٩٥٥م.
٢٥. رسائل الثعالبي: الثعالبي، دار صعب، بيروت.
٢٦. رسائل الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٩م.
٢٧. رسائل الصاهل والشاحج: أبو العلاء المعري، تحقيق د. عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطي" دار المعارف، مصر، ١٩٨٣م.
٢٨. رسائل الصداقة والصديق: أبو حيان التوحيدي، تحقيق د. إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، ١٩٦٤م.
٢٩. رسالة الغفران: أبو العلاء المعري، تحقيق د. عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطي"، دار المعارف، مصر، ١٩٧٧م.
٣٠. روضات الجنات في أحوال العلماء السادات، الميرزا محمد باقر الموسوي الأصبهاني، الدار الإسلامية، بيروت، ١٩٩١م.
٣١. الزاهر: أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق د. حاتم الضامن، ١٩٧٩م.
٣٢. زهر الآداب وثمر الألباب: أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، ودار إحياء الكتب العربية.

٣٣. الزهرة: أبو بكر محمد بن داود الأصبهاني، تحقيق د. إبراهيم السامرائي، ود. نوري القيسي، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٥م.
٣٤. سمط اللآلي في شرح أمالي القالي: للوزير أبي عبيد البكري الأوتبي، تحقيق عبد العزيز الميمني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٦م.
٣٥. شرح مقامات الحريري: أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر، القاهرة.
٣٦. الشعر والشعراء: أبو محمد عبد الله بن مسلم "ابن قتيبة" طبع في لندن، سنة ١٩٠٢م.
٣٧. طبقات الشعراء: أبو العباس عبد الله بن المعتز، تحقيق د. صلاح الدين الهوارى، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان.
٣٨. طبقات النحويين واللغويين: أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، ١٩٧٣م.
٣٩. طراز المجالس: شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي، المطبعة العامرة الشرقية، طنطا، مصر.
٤٠. العقد الفريد: أحمد بن محمد بن عبد ربه، مكتب تحقيق التراث، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٩م.
٤١. الغيث المسجم في شرح لامية العجم: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٥م.
٤٢. فصل المقال في شرح كتاب الأمثال: أبو عبيد البكري، قدم له د. إحسان عباس، ود. عبد المجيد عابدين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣م.
٤٣. قاموس الرجال: محمد تقي التستري، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٩٩٢م.
٤٤. كتاب الأمل والمأمول: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق د. رمضان شش، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٣م.

٤٥. كتاب المنتخل: أبو الفضل عبيد الله بن أحمد بن علي الميكالي، تحقيق د. يحيى الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٩ م.
٤٦. لباب الآداب: أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، تحقيق فحطان رشيد صالح، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٨ م.
٤٧. مجلة الحياة: بحث "رسالة همزة أحمد وكسر نون تونس وولاية الخليل بن أحمد"، تصنيف: أحمد بن يوسف، دراسة وتحقيق د. حسن خميس الملق. بيروت، ١٩٦٩.
٤٨. المحاسن والأضداد: الجاحظ، تحقيق فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، ١٩٦٩.
٤٩. مراتب النحويين: أبو الطيب اللغوي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٤ م.
٥٠. مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان: عفيف الدين عبد الله ابن أسعد الياضي، تحقيق عبد الله الجبوري، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤ م.
٥١. المزهر في علوم اللغة وأنواعها: عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أحمد جاد المولى، ومجد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٦ م.
٥٢. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، تحقيق عبد العباس عبد الجاسم.
٥٣. المصون في سر الهوى المكنون: أبو إسحاق إبراهيم بن علي القيرواني، تحقيق د. النبوي عبد الواحد شعلان، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٠ م.
٥٤. المعارف: ابن فتيبة الدينوري، تحقيق محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٠ م.
٥٥. معجم الأدباء: ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٥٦. مفتاح العلوم: أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣ م.

٥٧. الملاحن: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، تحقيق إبراهيم أطفيش الجزائري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.
٥٨. مناقب آل أبي طالب: ابن شهر آشوب، رشيد الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن شهر آشوب، تحقيق لجنة من أساتذة النجف الأشرف، المطبعة الحيدرية، بغداد، ١٩٥٦م.
٥٩. المنتخب من كفايات الأدباء وإشارات البلغاء: للقاضي أبي العباس أحمد بن محمد الجرجاني، مكتبة دار البيان، بغداد، ودار صعب بيروت.
٦٠. المنصف في نقد الشعر وبيان سرقات المتنبي ومشكل شعره: الحسن بن علي بن وكيع التنيسي، تحقيق د. محمد رضوان الداية، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٢م.
٦١. نزهة الأبصار في محاسن الأشعار: شهاب الدين العناني أحمد بن محمد بن محمد ابن علي، تحقيق مصطفى السنوسي، وعبد اللطيف أحمد لطف الله، دار القلم، الكويت، ط ١، ١٩٨٦م.
٦٢. نزهة الألباء في طبقات الأدباء: أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنصاري، تحقيق د. إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الأردن.
٦٣. نور الطرف ونور الظرف "كتاب النورين": أبو إسحاق إبراهيم بن علي الفيرواني، تحقيق لبنه عبد القدوس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٦٦م.
٦٤. نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء: أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، اختصار أبي المحاسن يوسف بن أحمد بن محمود الحافظ اليعموري، تحقيق رودلف زهايم، دار النشر غرانتس شتايز، بفسبادن، ١٩٦٤م.
٦٥. الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق محمد الحجيري، الطبعة الثانية، دار النشر فرانزشتاينز، شتوتغارت، ١٩٩١م.
٦٦. وفيات الأعيان: لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.



**المنظومة العرفية للفرايدي:
دراسة نقدية**

٢٠٠٤

د. محمد سالم سعد الله
جامعة الموصل - العراق



المنظومة المعرفية للفراهيدي: دراسة نقدية

د. محمد سالم سعد الله

نسج رواد المعرفة العربية الإسلامية منظومة اشتغالهم العلمي وفقا لسلسلة متوالية من الممكنات المعرفية التي أسهمت في بلورة النتاج الحضاري المكتسب لخصوصية في الطرح، وميزة في تناول، وصبغة تمتد لجزر عقدي يحمل تصورات عن الكون والحياة والإنسان.

لقد مثل رواد المعطى الحضاري الأول في الميدان العربي والإسلامي لوحة فسيفساء متنوعة من علوم ومعارف شتى، وقدموا للدارس في المجال العلمي والإنساني معارف تمتلك رصيذا مترنا من شواغل الحضارة التي تبني ولا تهدم، تقدم ولا تأخذ، تمنح ولا تستغل، وانطلاقا من ذلك منحت الحضارة العربية الإسلامية الميراث العالمي نتاجات انتفع منها في مسيرته الممتدة عبر عصور خلت، وأسهمت في بناء المستقبل الإنساني المشرق.

إن المباحث التي قدمها رواد المعرفة العربية والإسلامية: التخظيرية والتطبيقية انبثقت من ترتيب بنيوي للمعرفة المكتسبة أطلقنا عليه (المنظومة المعرفية) وتمتد هذه المنظومة إلى فواعل عقلية أسهمت في تركيبها مسارات عدة منها: المسار العقدي، المسار الثقافي، المسار العقلاني، المسار التأثري.

ومن الجدير بالذكر أن صناعة الذات المعرفية العربية الإسلامية مرت بمراحل من البناء العلمي الدقيق، وأنتجت - من ثم - قراءات تعددية للمشهد العلمي الذي كان يعج في يوم من الأيام بممكنات حوار العقلانية في تشكيل لحظة الفكر الذي أسهم في تقدم الإنسانية وخدمة مسيرتها.

ولذلك بدا تحديد أهمية العمل على إنشاء نظام معرفي إسلامي ملحا عند الجيل المعرفي الأول، وأخص بالذكر منهم الخليل بن أحمد الفراهيدي، وظهر العمل حثيثا في تثبيت بعض النقاط التي تسهم في ذلك كدراسة أسس تشكل الظواهر المعرفية، وعلاقتها بالدين والفلسفة، فضلا عن علاقتها بالعلوم الإنسانية،

ثم رسم الإطار المنهجي لاشتغال مصطلح المنظومة المعرفية الإسلامية، وبيان إمكانية الاقتراب أو الانفصال عن المنظومة المعرفية العامة للأطر غير الإسلامية التي تم التأثر ببعض جوانبها بمعطيات الحضارات الأخرى، ثم تحديد النقاط المشتركة بين هذا النظام، والنظام الحضاري العقدي الإسلامي.

لقد عمل الخليل على الاشتغال على إمكانات المنظومة المعرفية، وقد نظر إليها على أنها كل متماسك في إطار واحد، ولم ينظر إليها على أنها وحدات معرفية منفصلة - وبها ارتسمت خصوصيته - فقد عمد إلى تتبع الاستقراء العلمي الدقيق في معرفة منهجية الدرس أو العلم الإسلامي في مراحل علمية مختلفة، وفي امتداد زمني معين، ومحاولة توظيف تلك المنهجية في بناء جدول معرفي، لاختصار الجهود والطاقات وتكثيفها، فجاءت اكتشافاته على صعيد البحور الشعرية، ونظرية النحو العربي الذي ضم في البدء الصرف والبلاغة والأسلوب ودراسة تطور اللغة، وكيفية تطورها، وضم المنطق، والجانب العقدي في النحو العربي، والحديث غير المفتعل عن بعض علل النحو، وانتقل إلى الممكنات العلمية على صعيد الرياضيات والموسيقى، ونحو ذلك، ولا بد أن نبين حقيقة أن علم الخليل ومنظومته المعرفية لا تزال غير معروفة، لأن نتائج الخليل وطروحاته لم تصل إلينا كاملة، ولذلك تبقى الآراء النقدية أو المناقشة أو المحاوراة لمنظومة الخليل نسبية غير مطلقة.

سنقدم في هذا البحث دراسة نقدية حول تشكيل المنظومة المعرفية للفراهمي من حيث أصولها ودورها في الابتكارات التي توصل إليها، ثم نعالج الجوانب التي أسهمت في بناء هذه المنظومة، وساعدت على اشتغالها وأكسبتها امتداداً زمنياً اصطبغ بالخلود المعرفي والحيوي الذي لا يقف عند زمن معين.

إننا نقف أمام موسوعة معرفية، مبتغين بيان أسس تشكيلها من خلال الحفر في الممكنات العلمية البانية لها، لنقدم قراءة نقدية تجنح نحو السبق المعرفي العلمي الذي امتاز به سلفنا - رحمهم الله جميعاً - وأناروا به طريق الإنسانية نحو المستقبل. ويمكننا تتبع المسيرة العلمية لنتاج الخليل رحمه الله، وتحليل عناصر البناء

العقلاني، وبيان آلية اشتغال المنظومة المعرفية عنده في محاور ثلاثة هي:

١. البنية العقلية / مرحلة التكوين المعرفي.
٢. بنية الاشتغال / مرحلة التأسيس العلمي.
٣. البنية الحضارية / مرحلة النتاج والفاعلية.

عكس التطور العقلاني العربي التجربة الحضارية عبر مراحل نموها في مسيرة تاريخية ممتدة في وعي الدرس العربي، متخذاً من معيار الابتكار ميزاناً دقيقاً للاهتمام المعرفي والعلمي، واتجاهاً لتبني فلسفة التطور المعرفي.

وبذلك اتسمت تلك اللحظة بالعمل المتواصل لاكتساب وعي التقدم، وتكوين الواقع المعرفي الجديد، انطلاقاً من تجاوز صور التقليد التي كست بعض مظاهر الدرس اللغوي.

يهدف هذا البحث إلى إبراز المكانة التي شغلتها المنظومة المعرفية في الحضارة الإسلامية من خلال مبدع من مبدعيها الأجلاء، وتتحدد غايته في بيان أسس تشكل هذه المنظومة التي نهضت عليها مباحث اشتغال النهج العلمي للخليل، فضلاً عن بيان مكانة الخليل (الجليل) بين معطيائه وطروحاته.

ويثير هذا البحث إشكاليات عدة انطلاقاً من طبيعة موضوعه الشائك والمتسع والمتداخل مع ميادين معرفية وثقافية متنوعة، فهو يدخل في إطار النقد المعرفي الموسع الذي يتواشج مع ميدان نظرية العلوم وتاريخها، ومع الفلسفة ومباحثها.

ويدخل البحث هنا في إطار فلسفة المعرفة التي تبحث في الأسس المشكّلة للطروحات التنظيرية، وما ترتب عليها من إجراءات تطبيقية.

لقد بات من الضروري أن يتعامل الباحث العربي مع وعي الظاهرة المعرفية، وليس مع الظاهرة المعرفية نفسها، لأن الأول يطرح طرق العقلنة في خصوصية الصيغ المستدعاة، في حين يقدم الثاني جاهزيات المشروع الفكري وممارساته.

إنّ هذا البحث هو دعوة يضم نفسه إلى الأصوات الداعية للخروج من ثقافة الاستهلاك إلى ثقافة الإنتاج، ومن استيراد الأجوبة إلى مشروعية التساؤل المستمر،

إنه دعوة إلى بناء منظومة أسئلة متحركة، يقدم من خلالها ذاته، ويبين مرجعيته الغائبة ببيان الأسس المشككة للمنظومة المعرفية البانية للحضارة الإسلامية، للوصول إلى تنظيمها الفكري، وكشف منطلقاتها المعرفية.

قد يضيء هذا البحث الطريق لدراسات أخرى تأخذ على عاتقها مهمة التوضيح خلف الظاهرة المعرفية، ودراسة موضوعيتها، مستعينةً بأدوات منهجية حديثة، تُمهّد لقراءات أفضل لمعطيات الدرس الحضاري الإسلامي، وترسم خصوصيةً منهجية له.

• مرحلة التكوين المعرفي.

تعتمد آليات التكوين في أي حقل علمي على إمكانات يستعين بها الدارس لتحصيل قراءات معرفية في جانب معين، وتنبني تلك القراءات بشكل متوال ومتسلسل في استقراء القيم المعرفية، وقد تحصلت لدى الخليل إمكانات علمية مهمة أسهمت في تطوير تفكيره وبنائه البناء الصحيح المتسم بالدقة والانسجام.

ويأتي اختيار الخليل (ت ١٧٥هـ) نظراً لما يتمتع به من ميزات نقدية، وقدرة في تناول النص وتحليله وفقاً لمعطيات التنظيم المنهجي الإسلامي في السماع والقياس والاستقراء والمشاهدة والتعامل مع الظواهر بوصفها مدركات حية يمكن استنباط القاعدة منها، فقد انطلق تحليل هذا الناقد من داخل المعطى الثقافي الإسلامي العربي بغية فهمه، بعيداً عن إسقاطات قد تكون متوارثة أو متعارفاً عليها.

ويُعد الخليل أول من حول إمكانات الدرس العربي اللغوي من مفاهيم متعارف عليها بالحس اللغوي إلى إمكانيات توليد مفاهيم ونهضة مصطلحات مناسبة لوصف الظاهرة وترسيمها وفقاً لأطر منهجية معينة، كما حول ميدان العمل اللغوي من دراسة في تحديد المسار اللغوي إلى إدراكات تقدم العلة وتمنح أفقا معرفياً لمسيرة الظاهرة اللغوية، وبهذا يمكن القول إن الخليل استطاع أن يحول الدرس العربي الإسلامي من الوصف إلى التحليل، ومن دراسة الناتج إلى دراسة المنتج، ومن كون اللغة قوالب ومعايير إلى مجموعة أساليب حيوية في فهم الإبداع العربي الإسلامي.

إن مقاربات التكوين المعرفي للخليل في نتاجاته التي وصلت إلينا - ورأى بعضها النور - هي مقاربات ذات طبيعة رياضية بشكل دقيق، وذلك من خلال تحليله الذي أسند لنفسه مهمة كشف سر الطبيعة الرياضية التي تربط الظواهر اللغوية، وبمعنى آخر: أراد الخليل الكشف عن العلاقات الرياضية التي تحكم النصوص اللغوية^(١)، ويمكننا الذهاب إلى أن طبيعة هذا البحث (الخليلي) اكتسب سمة سيميائية في البحث عن جذر الظاهرة، وبيان أسس تشكلها، وبذلك فإن الدرس الخليلي أراد إظهار طبيعة علامية اللغة، لأنه يعدها نظاماً من الممكنات العلائقية التي تنظم مسيرة النص، وبهذا فإن الجانب العقلي التأسيسي عند الخليل هو جانب ذو طبيعة رياضية، بمعنى أن مباحث الرياضيات كانت - في الإطار المفهومي - بنية مؤسسة في الفكر الخليلي.

وفي هذا الإطار برز الجانب الوظيفي في معطيات الخليل اللغوية بشكل كبير، وذلك من خلال تأكيده حضور أطراف العمل الإبداعي (الحدث الكلامي: speech act) في تحليل الظاهرة، واعتنائه بالجانب النفسي لدى المتلقي، وإعطائه دوراً فاعلاً في كشف علاقات النص، وبهذا اقترب البحث الخليلي في حديثه عن السلسلة الكلامية والتركيب والنظام النصي من خلال مخارج الحروف وصفاتها من مرتكزات البحث اللغوي الحديث، الذي سعى إلى بيان أسس ترتيب النسق اللغوي في النص الواحد، ثم علاقات الاتصال أو الانفصال بين البنى في التركيب الواحد. والجدير بالذكر أن عناصر مقتضيات الاشتغال التكويني لدى معطيات الخليل المعرفية تمنح اللغة ونصها الشعري سمته العربية المميزة، وأدبيته المرجوة، ولهذا ضمّ الخليل المبني (syntax) إلى المعنى (meaning) لأن الدوال عنده - سواء أكانت الحروف أو البحور أو الإيقاع أو صفة الحرف - لا تنتج معنى إلا من خلال الدلالات المتولدة من اتساق الكلام ونظمه، ودخوله في علاقات رياضية متمثلة بالتكامل والتماثل والانسجام والتوالد.

لقد ركز التحليل الخليلي على طبيعة اشتغال الثنائيات وما يتولد عنها من علاقات أخرى زوجية أو فردية، وهذا هو أساس اشتغال معجم العين، ومن

الملاحظ أن سمة التصنيف والترتيب والتقسيم كانت سمة مميزة لولادة العين، وجدولة البحور الشعرية العربية، وهذا هو أساس تكويني معرفي لفهم فاعلية القراءة والاستنباط.

لقد كشف الخليل أن النص الإبداعي العربي الرفيع هو النص المنبني أساساً على إمكانات علمية بالتوارث والتتابع دون وعي بألية اشتغال الظاهرة كما هي في حاضنتها الأولى، ثم انفتحت فاعلية الأفق الدلالي للنقاد من بعد في كشف السلسلة النسقية المتوالية لاشتغال النص العربي الإبداعي.

لم تظهر لحظة الخليل المعرفية من إسقاطات وتنبؤات، إنما تكونت من ولادات عدة سبقت الاستيعاب المنهجي المنظم لديه، ثم التحديد المعرفي الذي نتج بعد ذلك، لقد نهض التفكير المنهجي العربي الإسلامي بشكل عام، والخليلي منه بشكل خاص على ممارسة أليات الاشتغال العلمي انطلاقاً من احترام سياقات المنتج العلمي ومراعاة لمسارات الظاهرة التي ستقدم معطياتها في خدمة هذا الميدان المعرفي أو ذاك، وبهذا الأسلوب منحت الممارسة المنهجية علماء المسلمين ابتكارات عدة في شتى الميادين وقدموا للعالم إسهاماتهم في بناء الحضارة الإنسانية واحترام نتائج الآخر - مهما كانت - لكن بشرط عدم تجاوزها الخطوط الحمراء للشرع الإسلامي.

يعترف الباحثون العرب بافتقار الدراسات الحديثة إلى تحديد بعض المسارات العلمية للعلماء العرب الأوائل، وذلك بسبب ضياع قسم كبير منه وتدمير القسم الآخر بسبب الفتن والحروب التي عصفت بالأمة الإسلامية عبر قرون خلت، وبسبب وجود قسم كبير منه على الرف، إذ لم يرَ النور إلى الآن كم هائل من المخطوطات العربية في ميادين علمية شتى.

إننا نطمئن إلى أن ولادة الأسس التكوينية للخليل كانت سلسلة من تشكيلات معرفية لا نعرف بداياتها، لكننا نؤشر على بعضها ممثلة بالأسماء الآتية:

- عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي (ت ١١٧هـ).

- عيسى بن عمر النخعي (ت ١٤٩هـ).

- أبو عمرو بن العلاء البصري (ت ١٥٤هـ).

- يونس بن حبيب (ت ١٨٢هـ).

وبما أن هذا الجيل الأول من العلماء العرب المسلمين - رحمهم الله جميعا - لم يصل إلينا من كتبهم شيء إلا ما نقله مريدوهم وطلبتهم عنهم، إلا أن تأسيس العلم في ميدان النحو والرواية واللغة والقراءات القرآنية والبناء الشرعي للحكم والاستبطن العلمي للمسائل المستجدة في أمر معين كان قد ارتسم على أيديهم المعطاءة علما ومعرفة، وقد آلت تلك المعرفة إلى نبيه من جهاذة العرب هو الخليل فصنف... وقسم... وبوّب... ورتّب... وأظهر لنا خلاصة تفكيره الذي امتد نفعه إلى يومنا هذا، ولن يتوقف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إن من أهم أسس التشكل التكويني/ العقلي لدى الخليل هو الفرحة التي كانت تغمره عند سماعه لكلمة تضيف إلى ابتكار قاعدة أو تأسيس حكم لغوي، تلك الفرحة التي تقود العالم العربي الإسلامي إلى تقديم نتائج هذه الكلمة نفعاً ومعرفة دون مقابل، وقد أسهم هذا في تجدد الفكر وتطوره وتغيير الأحكام بشكل متسارع دون اللجوء إلى التريث في إطلاق الحكم، وقد رسم هذا كله آليات اشتغال الأسس التكويني لدى الخليل في السماع والقياس والتفسير والتأليف والاستقراء وإطلاق الحكم ثم تغييره إذا استبان أمر جديد لم يكن متصوراً من ذي قبل، ويمكننا ملاحظة تفسير الظواهر الإعرابية - آنذاك - تفسيراً لغوياً والحديث عن العامل ودوره في صياغة تركيب الجملة العربية والاحتجاج بلغة الأعراب بناء على السماع المرتبط بالتعليل والتفسير والتأويل وافتراض مسائل مشابهة انطلاقاً من فرضية القياس والاستنباط، ثم ربط ذلك كله بالمعنى القرآني.

والحاصل فيما ذكر أن بنية التأسيس العقلي لدى الخليل ارتبطت بإرث علمي مهد الطريق لولادات معرفية مهمة جداً في البناء الحضاري العربي الإسلامي، وقدمت مدركات ثقافية ميزت دلالات الحضارة الإسلامية، لأنها نتاجات تحمل خصوصية غير مستنسخة من غيرها، مما منحها رؤى حضارية وإنسانية في الآن نفسه، يعجز المعاصرون عن الإتيان بمثها أو محاكاتها لاختلاف التنظيم المنهجي

في الاشتغال العلمي والمعرفي.

• مرحلة التأسيس العلمي.

تتطلب مسارات التأسيس العلمي في أي ميدان تبني عناصر معينة تختلف من دارس إلى آخر حسب طبيعة طرائق الاشتغال المعرفي، وتتنوع هذه العناصر في شكل الحضارة العربية الإسلامية بين ذوق وتوصيف واستقراء وتحليل ونقد وتقويم واستنباط وموازنة ومقابلة واقتباس وقياس وسماع ومشاهدة ومعايير وقواعد....

لقد آل الخليل على نفسه أن ينتفع من المعلومة من أي وعاء خرجت، لذلك لم يحدد نفسه بجزئية معرفية على حساب أخرى، بل تناول عناصر التأسيس جميعا لكن بنسب متفاوتة، فالسماع والاستقراء عنده هو الأساس، والقياس يكتسب درجة ثانية، ثم تأتي الموازنة واعتماد قيم التأثير والتأثر بين العلوم بالدرجة الثالثة^(٢)، وتقف كل هذه العناصر على متواليه رياضية أساسها التكامل والتوافق والانسجام بين الوحدات الجزئية لتشكيل الوحدات الكلية.

عمد الخليل إلى الجمع بين العناصر التي تشكل التوليف العلمي في تأسيس الظاهرة، محددًا التوصيفات المعرفية التي تميز حقلًا علميًا عن آخر، ثم ناقش المشكلات التي تعترى هذا التحديد من خلال الحديث عن المفردات التي يمكن تشخيصها ونعتها بوصفها لا تنتمي إلى اللغة العربية من خلال ترتيب معين للحروف، وبذلك اكتملت سمات التأصيل العلمي لمسيرة الابتكارات الخليلية، ومنحته سمة الخلود المعرفي.

فتح الخليل في هذه المرحلة أصول الدرس العربي اللغوي لإمكانات علمية تتجاوز اللغة لتطرق ميادين الموسيقى والرياضيات والفلسفة، وقبل كل ذلك أسس وإمكانات التشكيل العقدي الإسلامي، وقدم للعالم أجمع إمكانات التضاييف بين العلوم انطلاقًا من مبدأ التحاور الذي يضيف ويمنح العلم المقصود فتوحات جديدة لم تكن معهودة من قبل، ويمكننا مقارنة معطيات الخليل في البحور الشعرية وتصنيفها وابتكار علم العروض لننبين ما ذهبنا إليه، إذ وضع الخليل انطلاقًا من دراسة مستويات الإدراك الموسيقي، ومعرفة القواعد العلمية البانية لعلم الموسيقى

والمتمثلة بمعرفة ثنائية (الحركة والسكون)، و(الثابت والمتحرك) وباستخدام العقلية الاستنباطية، توصل الخليل إلى معرفة البحور المؤسسة للشعر العربي، وأصبحت من بعد معيارا لكتابة الشعر، ومقياسا لاختيارات الشاعر للبحر تبعا للمعنى المراد تشكيل القصيدة لأجله. هل يمكن القول الآن إن الخليل يمثل طبقة لغوية وحده في مرحلة التأسيس العلمي؟ أم أنه يمثل طبقات عدة في شخص واحد؟

إن ما قدمه الخليل يمثل جزئية من جزئيات رقعة الإبداع العربي الإسلامي في تلك الحضارة الممتدة عبر قرون خلت من التواصل والعطاء والابتكار وبناء معرفة الإنسان، وكأننا بلوحة فسيفساء متنوعة ومكتسية ألوانا متنوعة من العطاء الإنساني، وما الخليل إلا رقعة ولبنة من لبنات تلك الفسيفساء.

إن مظاهر الوعي والاتساع والتخطيط ومقاربة العلوم والنظر إلى الأمور بكلية، وإدراك مقتضيات الإبداع الإنساني غير المحدود في مجال الاكتشاف والابتكار، ثم إمكانيات الذوق والحس بأصول الظاهرة وجذور تشكلها، أسهم كل ذلك في حيوية الفكر الخليلي وبناء مرحلة التأسيس العلمي المتقدم، ونهوض مسارات الاشتغال المعرفي، وتنهض الدوائر العلمية المبتكرة للخليل: (المختلف والمؤتلف والمجتلب والمشتبه والمتفق) بوصفها ثمرة من ثمار التأسيس العلمي في الاستغال، القائمة أساسا على فكرة التمازج بين العلوم، وتحديد الحوار بين: الموسيقى والرياضيات واللغة.

تعطي الطبيعة العقلية التأسيسية للخليل صورة ناصعة لمتواليات البناء العقلي عند العلماء العرب، التي اعتمدت على بيان كنه الأشياء وميزات الظواهر، وتقديم معطيات الإجراءات التنظيرية المنضبطة بمسيرة من البحث والاستقصاء والتأويل، ثم تدعيم ذلك بممكنات تطبيقية تعرف ماذا تعطي، وتثق بما تقدم، إنها معرفة تتسم بالتأصيل، وتستقي من جذور عقديّة وواقعية، وتبتعد عن سمات الترف العلمي الذي يغيب المعرفة أو يجعلها حكرا على البعض أو يسرف في تناول جوانب منها، وبهذا ولدت الموضوعية العلمية، ومشروع البحث الاستقصائي الذي اقترب في نواح عدة من الكمال العلمي الذي يروم الوصول إليه كل باحث ومتعلم.

والحاصل فيما ذكر: أن مرحلة التأسيس العلمي اتسمت بمنهجية منضبطة قائمة على عناصر معينة منها^(٣):

١. اعتماد السماع والقياس والاستقراء أدوات مهمة وناجعة في بيان الظاهرة العلمية.
٢. استخدام التحليل والتركيب في دراسة العلاقات البانية لنظم الكلام.
٣. اعتماد التصنيف والتبويب والتقسيم لخدمة الدلالة المتوخاة من الظواهر.
٤. اللجوء إلى أسلوب التماثل بين العلوم لابتكار معطيات علمية جديدة.
٥. ولغرض بيان متواليات رياضية معينة على نظم اللغة عمد المنهج الخليلي المنظم إلى ظاهرتي: (الافتراض والتقليب)^(٤) بوصفها أسلوباً ناجحاً لمناقشة إبداعات ذهنية طارئة يمكن أن تستجد في القابل من الأيام. وتحيل هذه النقاط وغيرها إلى استيعاب علمي ومنهجي تحتاج إليه الثقافة العربية الإسلامية اليوم للمساهمة في بناء الحضارة الإنسانية.

• مرحلة النتائج والفاعلية.

إن الموازين العلمية المنضبطة بمراحل التأسيس والاقتناع والاستنباط والتطبيق والتماثل، تشكل جوهر النتائج المعرفية المتمم بحيوية الطرح، وتلمس القيم العلمية، وتشرب أخلاقيات البحث العلمي البعيدة عن الإسراف والتقصير.

إن العالم اللغوي الجليل: الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي عُرف بالتقوى والزهد والورع، وأنه كان يحج عاماً ويجاهد عاماً آخر^(٥)، فتم موسوعة علمية شاملة من المؤلفات التي تختزن الفكر، وتعطي المعرفة، وتمكن طلبة العلم من تلمس جماليات العلم اللغوي، واستشعار لذة الإيقاع الموسيقي في الشعر، وبيان الدخيل والوافد من اللفظ في اللغة العربية، وتحديد مواطن الوجود لكل حرف وتحديد صفته... فضلاً عن تصورات ومعطيات وابتكارات وصل بعضها ولم يصل الآخر لضياعه أو فقده أو عدم تحقيقه.

هل يمكننا الآن الحديث عن إحصاء دقيق لنتائج الخليل ومؤلفاته؟

أجيب عن ذلك بعدم إمكانية الحديث، فمؤلفات مثل: كتاب العين، وكتاب النغم، وكتاب الإيقاع، وكتاب العروض، وكتاب النقط والشكل، وكتاب الشواهد، وكتاب العوامل، وكتاب الجمل، وكتاب الإمالة، وكتاب المعنى - أي الأغاز -... إلخ لم تصل إلينا كاملة، ولم نعرف محتوى بعضها، وقد يؤدي هذا إلى نسبة في النتائج المستحصلة من دراسة نتائج الخليل وبيان فاعلية فكره.

يتسم الحديث عن هذه المرحلة بالجرأة والشمولية، وذلك لأنها تتجه بمسارين: الأول: الحديث عن المؤلفات.

الثاني: الحديث عن الابتكارات.

وكلا المسارين ينهل من عقلية موسوعية كلية، لا تنظر إلى الموجودات والظواهر إلا بوصفها أجزاء يكمل بعضها بعضاً، عقلية تعرف من الممكنات التنظيرية الإجرائية أكثر من الإجراءات الواقعية المتوارثة والتقليدية، عقلية لا تثق بالأشياء إلا بعد دراستها وبيان أسس تشكيلها، وهذا ما فعله الخليل عندما استخدم إمكاناته المعرفية في دراسة الظواهر وابتكار أشياء لم تعرف عن أسلافه، ولهذا وصف بأوصاف شتى منها: (أكلت الدنيا بعلم الخليل وهو في خص لا يُدرى به)، و(لا يجوز الصراط بعد الأنبياء والصحابة أدق ذهنياً من الخليل)، و(لم يكن أعلم بالنحو منه)^(٦).

يكتنز كل مؤلف من مؤلفات الخليل بؤرة تشظت منها مباحث الكتاب، فـ(العين) ينهض على بؤرة التقلاب والتبادل بين الحروف والمتواليات العددية بين الأبنية، وآراؤه في النحو التي نقلها تلميذه سيبويه (ت ١٨٠هـ) تنهض على السماع والقياس وإثبات العامل، واستخدام التعليل من حيث الكشف عن العلة النحوية وبيان أسباب اشتغالها^(٧)، وكتاب (الجمل) الذي لم يصل إلينا وتناقلت أخباره كتب التراجم - استخدم الخليل فيه الجملة بمعنى المجموعة أي تركيب العناصر اللغوية لبناء نسق دلالي توطره الجملة، وإذا صح ذلك فإنه يعد كشفاً حضارياً مهماً جداً سبق المعطيات الحديثة والدرس اللغوي الحديث في تحليل البنى المؤسسة للجملة في اللغات العالمية، وكتاب (العروض) القائم على بؤرة الميزان الصرفي، وكتاب (العوامل) القائم على إثبات العامل، إذ لا بد - حسب الخليل - من كل رفع أو نصب

أو جر أو جزم من عامل لذلك^(٨).

أما الحديث عن الابتكارات فهي كثيرة^(٩)، يمكن إيراد بعضها كالآتي:

١. وضع أصول علم النحو من خلال الآراء التي نقلها عنه تلميذه سيبويه في (الكتاب)، والجدير بالذكر أن علم النحو هذا كان يشمل الصرف والبلاغة وفروعهما وما يتبعهما.

٢. وضع أول معجم عربي واضح المعالم، منهجي علمي مرتب، قائم على أسس علمية في تنويب الكلمات، ومعرفة الدخيل منها إلى اللغة العربية، مصنفاً الكلمات على مخارج الحروف وترتيبها في البناء للصرفي، وجدير بالذكر أن حروف الحلق تشكل حيزاً مهماً جداً في هذا المعجم، وتأتي تسمية الكتاب لتبين ما ذهبنا إليه.

٣. اكتشاف الإيقاعات التي نهض عليها الشعر العربي، من خلال استقراء علمي منهجي للشعر العربي في العصر الجاهلي والأموي والعباسي، وقد أطلق الخليل عليها البحور الشعرية، وقد تسنى له ذلك من خلال دراسة الدوائر الموسيقية وتطبيقها ومقارنتها لموسيقى الشعر.

٤. وضع الميزان الصرفي (فَ عَ لَ) الذي توزن به الكلمات، ويُعرف من خلاله الزوائد واللواحق الداخلة على الكلمة وليست من أصل تشكلها.

٥. أطلق تسمية الرفع والنصب والخفض على علامات الإعراب في الأسماء والأفعال، وتسمية الضم والفتح والكسر على علامات البناء في السماء والأفعال.

والحاصل فيما ذكر: إن الفاعلية الإنتاجية للخليل كانت حركة دائبة لم تعرف التوقف إلا بارتطامه بسارية المسجد عندما كان يفكر بمسألة رياضية، هذه الحركة الدائبة صورها ابن المقفع بقوله: (كان عقل الخليل أكثر من علمه)^(١٠)، مما مهد الطريق له لاكتساب الحص اللغوي الدقيق، والدقة الرياضية الحسابية، والذهن المنهجي المنظم ذي التصورات الافتراضية، والمدركات العلمية التي لا تمنح نفسها للجميع إطلاقاً.

ومن سمات النتاج الخليلي أنه نتاج تركيبى لا يعرف التجزئة، أو التقسيم، إنه فكر يمكن تحليله بوصفه دلالة كلية على الإبداع الحضاري الإسلامي الموسوعي، وعلى عقلية المتقدمة التي لم تكف بتحليل الوقائع وبيان إمكانات تشكلها، بل عمدت إلى واقع افتراضي ناقشت فيه المسائل العلمية كما لو أنها واقعة فعلا، ويعتمد الدرس العلمي المعاصر الآن في كثير من جوانبه على فرضيات تسمى بـ(الواقع الافتراضي) لا سيما في ميدان المعلوماتية والحاسوب.

والجدير بالذكر أن المعرفة وجزئياتها كانت مدار اهتمام المشتغلين في بناء الدرس الحضاري الإسلامي في ميادين شتى، فقد وضحوا لها طرائقها، وبنوا إمكانيات علمية في سبل الاشتغال المنهجي، وحددوا معالم نهضت عليها مؤلفاتهم التي ملأت الأرض علما وعطاء.

ومن سمات الفاعلية المنهجية عند الخليل في هذه المرحلة بروز وضع المصطلح النحوي واللغوي والمعرفي المنضبط والمحدد ببنيته وإسناده إلى ميدانه الذي ينتمي إليه، ومن المفيد ذكره أن الدارسين العرب الأوائل رسموا معالم المصطلح من معطيات مبدئية، جذورها ممتدة في المسلك العقدي، من حيث مكانة المعرفة بين القرآن والفلسفة أولا، ثم إدراك طبيعة التحصيل المعرفي ثانيا، وتعدد طرائق هذا التحصيل ثالثا بين مصدر معرفي أصله الوحي، ثم المعرفة الحسية، فالمعرفة العقلية وغيرها^(١١).

ولغرض معرفة كيفية فاعلية ومسارات النتاج الإبداعي عند الخليل - وغيره من العظماء الأوائل - وطرائق تفكيره وتحليل إمكانات مبتكراته، يمكن متابعة الدراسة التحليلية النقدية لنظم المعرفة عند العلماء العرب، التي قام بها المفكر محمد عابد الجابري في كتابه: (بنية العقل العربي)^(١٢).

وفي الختام يمكن القول إن مسؤولية الناقد العربي المعاصر اليوم، يجب أن تتسم ببناء موقف رصين تجاه معطيات علماء الحضارة العربية الإسلامية، فضلا عن الكشف عن مفاصل إبداعاتها، وتوجهات منهجيتها، وتوضيح الجوانب المغيبة منها، والانتفاع منها بما يتلاءم وطبيعة الدرس العربي المعرفي الحديث.

الحواشي.

- (١) للاستزادة ينظر: المدارس النحوية، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٧، ١٩٩٢، ص ٣٠-٣١.
- (٢) ينظر: المرجع نفسه، ص ٤٦-٥٦.
- (٣) للاستزادة في معرفة الضوابط المنهجية التي أقامها الخليل في دراساته ينظر: مقدمة تحقيق كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الرشيد، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة المعاجم والفهارس (٤٣)، ١٩٨١م، منزلة كتاب العين (٥-٢٧)، وطريقة الكشف عن الكلمات (٢٨-٣٠).
- (٤) المدارس النحوية، ص ٥٥. وينظر: الخليل وكتاب العين، هادي حسن حمودي، خدمات الإعلان السريع، لندن، ١٩٩٤م، ص ٨٠-٨١.
- (٥) ينظر: نزهة الألباء في طبقات الألباء، أبو بركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد ابن الأتباري (ت ٥٧٧هـ)، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، للزرقاء-الأردن، ط٣، ١٩٨٥، ص ٤٧.
- (٦) المصدر نفسه، ص ٤٥.
- (٧) ينظر: المدارس النحوية، ص ٤٨-٤٩.
- (٨) المرجع نفسه، ص ٣٨.
- (٩) للاستزادة ينظر: أعلام في النحو العربي، مهدي المخزومي، سلسلة الموسوعة الصغيرة (٦٠)، دار الجاحظ، وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨٠م، ص ٥-١٧.
- (١٠) المدارس النحوية، ص ٣٠.
- (١١) للاستزادة في هذا الجانب يمكن مراجعة كتاب: نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، راجح عبد الحميد الكردي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، ومكتبة المؤيد، للرياض، ط١، ١٩٩٢م.
- (١٢) بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لتنظيم المعرفة في الثقافة العربية، د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة نقد العقل العربي (٢)، بيروت، لبنان، ط ٦، ٢٠٠٠م.

**صورة الخليل بن أحمد نحويًا كما
رسمها جعفر عباينة**

٢٠٢٢

د.ة. خلود العموش
الجامعة الهاشمية - الأردن



صورة الخليل بن أحمد نحويًا كما رسمها جعفر عباينة

د. خلود العموش

مقدمة:

لم يترك الخليل بن أحمد -على ما هو معروف- كتاباً خاصاً بالنحو، وما وصلنا من نحوه مودع في كتاب تلميذه سيبويه، الذي نقل نحوه بأمانة، أو منشور هنا وهناك في بعض الكتب الأمهات، التي وضعت في الفترة الزمنية التي تلت زمن الخليل مباشرة.

ومن ثم فإن الصورة التي سترسم للخليل النحوي لا بد أن تستند بشكل رئيس إلى كتاب سيبويه، وإلى هذه المنشورات في كتب النحو الأخرى، كما أنها ستسهم بكثير من الاستنتاج، وستكون محاولة للتفسير وليس للاستنتاج المباشر. والباحثون في الخليل -عموماً- انقسموا إلى فريقين: فريق أخذ بعلم الخليل، ورسم له هالة عظيمة أعمت عن تتبع تفاصيل الصورة وحقائق العلم، وفريق غمطه حقه، ولم يضعه الموضع الذي يستحقه في مسيرة الدرس النحوي العربي عموماً. وتأتي دراسة جعفر عباينة لتأخذ محلاً وسطاً بين الفريقين، على ما سنرى. وهذه الدراسة هي في الأصل أطروحة جعفر عباينة للماجستير، وكان عنوانها: "وضع الخليل بن أحمد لأصول النحو البصري وفروعه"، وقدمها في جامعة القاهرة عام ١٩٧٠. ثم حولها إلى كتاب عام ١٩٨٤، جعل عنوانه: "مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي" لأنه وجد أنه (اليق بموضوعه)^(١).

وسنقدم صورة أمينة للصورة التي رسمها جعفر عباينة للخليل نحويًا في هذا الكتاب، متوقفين عند موضوعيتها، واستيفائها، وما عرضها من هنات، ومحللين بعض الاستنتاجات، وجوانب التفسير، وبعض القضايا النحوية التي ما زالت تحتاج إلى نظر.

١- وصف عام للكتاب:

جعل عباينة كتابه في: تمهيد، وبابين، وخاتمة. أما التمهيد فيتألف من قسمين :

الأول منهما يتحدث عن جهود النحويين السابقين للخليل، والثاني يتحدث عن حياة الخليل، وثقافته، ونشاطه العلمي، وأثاره.

وأما الباب الأول فيختص بالأصول النحوية، وما اتصل بها من التعليل. ويقوم على ثلاثة فصول: الفصل الأول: في السماع، والفصل الثاني: في القياس، والفصل الثالث: في التعليل.

وأما الباب الثاني فخاص بالحديث عن الفروع. ويقوم أيضاً على ثلاثة فصول؛ الفصل الأول: في العوامل والمعمولات، والفصل الثاني: في تحليل الأدوات والصيغ والعبارات، والفصل الثالث: في المصطلحات. وجعل الخاتمة للنتائج والملاحظات العامة، ثم أثبت قائمة المصادر والمراجع.

وقد اقتصر هذا البحث -أو كاد- في دراسة نحو الخليل على كتاب سيبويه؛ وفي سبيل توضيح ما ورد في الكتاب، عاد الباحث إلى طائفة من شروح الكتاب، وفي مقدمتها شرح السيرافي على سيبويه، وشرح الأعم الشنتمري للأبيات الواردة في الكتاب، وهو الشرح المسمى بتحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب، وشرح الصفار. كما اقتصر هذا البحث على دراسة النحو وحده دون الصرف، ولم يشر إلى شيء من مباحث الصرف، إلا بالقدر الذي تدفع إليه الضرورة.

وقد رجع الباحث إلى طائفة من كتب النحو الأخرى، وعلى رأسها كتاب (الإنصاف في مسائل الخلاف) لابن الأنباري، وإلى الكتب التي تحدثت عن الأصول النحوية، وأهمها: (الخصائص) لابن جني، و لمع الأدلة في أصول النحو للسيوطي. كما عاد إلى طائفة من كتب التراجم النحوية، ومنها مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي، وأخبار النحويين البصريين للسيرافي، وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي، ونزهة الألباء لابن الأنباري، وبغية الوعاة للسيوطي. وإلى غيرها من كتب التراجم العامة والخاصة.

٢- أفكار البحث:

١. في القسم الأول من تمهيده استعرض جعفر عباينة جهود النحويين حتى عصر

الخليل، فوقف عند العوامل التي أدت إلى نشوء علم النحو، ومنها ظهور اللحن، ووقف عند أولية النحو، وجهود أبي الأسود الدؤلي، وتلاميذه، ومنهم ابن عطاء، وميمون الأقرن، وعنبسة الفيل، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، وعبد الرحمن ابن هرمز، وذكر أن معظم نحو أولئك كان يدور حول القراءات.

ثم تناول طبقة عبد الله بن أبي إسحق (ت ١١٧هـ) الذي أخذ عن تلميذ أبي الأسود، وهو الذي يوصف بأنه فرّج النحو وقاسه، ونبع من تلاميذه، عيسى بن عمر (١٤٩هـ)، وكان يعاصره في الفترة نفسها أبو عمرو بن العلاء (١٥٤هـ)، الذي يوصف بأنه امتاز عن ابن أبي إسحق بأنه أوسع علماً بكلام العرب، ولغاتها، وغريبها. وفي هذا الدور بدأ الحديث عما يسمى بالقياس والتعليل، يتسع مما يؤكد أن النحو قد تعدى طور البساطة والإبهام. ووضعت الكتب في هذه المرحلة، ومنها كتابا الجامع والإكمال، اللذان امتدحهما الخليل بن أحمد، وقد ضاعت كتب هذه الطبقة، إلا أن بعض آرائهم حفظت، وما زالت تتردد في كتب النحو، ثم تلت هذه الطبقة طبقة أخرى من تلاميذها، خطت بالنحو خطوات واسعة في مسيرة نضج النحو العربي، وعلى رأس هذه الطبقة الخليل بن أحمد، ويونس بن حبيب (١٨٢هـ).

٢. وفي القسم الثاني من التمهيد الذي أفرده الباحث للخليل: حياته، ونشاطه العلمي، فقد ذكر فيه أن المصادر القديمة التي تحدثت عن الخليل أغفلت ذكر شيء عن طفولته، وكان انبهارها به، كبيراً وعالمياً مشهوراً، أنساها طفولته، وما كان من أمرها. فراحت تتحدث عن عبقريته وعلمه، وأفاضت في ذلك، حتى أصاب حياته الخاصة من الحيف ما أصاب طفولته، فلم نظفر إلا بقدر يسير عنها^(٢).

ووقف عباينة في هذا القسم عند المرجح في تاريخ ولادة الخليل، ووفاته، وصفاته التي أسعفت في تحديد جوانب شخصيته، وثقافته، ونشاطه العلمي، وعن مصادر هذه الثقافة، ومنها: بيئة البصرة العلمية، وحركة الترجمة من اللغات الأجنبية، وحركة العلوم الدينية والعربية؛ كالقراءات، والحديث، والتفسير، واللغة، والشعر، والنحو، ووقف عند وجوه ثقافته المتنوعة في اللغة والنحو والصرف والحديث، والقراءات، والشعر، والموسيقى، والحساب، والمنطق، والفلك، والجدل،

والطب، والرياضيات العقلية كالشطرنج، ثم وقف عند آثاره ومؤلفاته. وأشار إلى أن هذه الكتب قد ضاعت باستثناء معجم (العين)^(٣).

٣. في الباب الأول من البحث، وقف عباينة عند أصول النحو عند الخليل، وهي السماع، والقياس، والتعليل. أما السماع؛ فقد أبرز الباحث موقف الخليل من مصادر السماع المعروفة، وهي: القرآن، والحديث، وكلام العرب شعراً ونثراً، وفيما يتعلق بالقرآن ذكر عباينة أن زاد الخليل القرآني قد أمده بفيض لا ينضب من الشواهد والأمثلة التي امتلأ بها كتاب سيبويه، وأنه قد أكثر من تفسير الآيات وتحليلها، وتوجيهها. وكان في معظم ذلك يرد على أسئلة تلميذه سيبويه.

أما موقفه من القراءات؛ فقد وردت له في عدد من الآيات قراءات مختلفة، كان يأخذ بعضها مسلماً به، وكان يحمل على بعضها الآخر، وبعد استعراض عباينة لعدد من الأمثلة على هذه المسألة عند الخليل قال: "وبعد، فهذه هي المواضع التي ذكرت فيها قراءات جرى للخليل ذكر معها، وهي ناطقة بعدم صحة ما نسب إليه من تخطئة بعض القراءات وردّها"^(٤).

وفيما يتعلق بالحديث الشريف، فإن عباينة ينقل عن شوقي ضيف في المدارس النحوية "أن الخليل لم يستشهد بالحديث النبوي في تأصيله لقواعد النحو"^(٥).

ويعلل عباينة ذلك برواية الأحاديث بالمعنى، وأن بعض رواياتها كانوا من الأعاجم^(٦). أما المصدر الثالث من مصادر السماع، وهو كلام العرب (شعراً ونثراً) فإن عباينة يذكر أن الخليل رأى أن تؤخذ اللغة من ينابيعها الأصلية، ولذلك شد الرحال إلى مواطن العرب بالجزيرة، وأن اللغة لا تؤخذ من العرب الساكنين في الحواضر.

كما رأى عباينة أن نظرة الخليل والبصريين إلى هذه القبائل حكمتها معايير خاصة تتصل بنقاء اللغة وصفاتها، إذ كانوا يرون أنها ليست على درجة واحدة من الفصاحة، فلا يجوز أن يؤخذ عنها جميعها، وقد اختاروا قبائل معينة، جعلوها مثال الفصاحة، وهي القبائل التي قل اختلاطها بالأعاجم، ومن أهمها: قيس، وتميم، وأسد، وهذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين. أما القبائل الأخرى التي كانت

تسكن أطراف الجزيرة، مجاورة غير العرب من الأمم، فلم يصح النقل عنها عندهم^(٧)، وحاول عباينة تفسير هذا المنهج في التعامل مع كلام العرب، وفسره بأنه كان الخيار الأمثل تلبية للحاجة السريعة، وانطلاقاً من فكرتهم الخاصة عن العرب، ودرجاتهم في الفصاحة^(٨).

٤. ووقف عباينة كذلك عند عصور الاحتجاج والتوثيق، ووقف عند الاعتبارين: الزماني، والمكاني في موضوع الاحتجاج، وبعد أن يذكر طبقات الشعراء الأربعة التي أخذت عنها اللغة يقول: "والذي يقرأ كتاب سيبويه، يجد أن الخليل قد استشهد بشعر الشعراء الجاهليين من مثل: النابغة، والأعشى، والشعراء المخضرمين من مثل: حسان، والعباس بن مرداس، واستشهد إلى جانب هؤلاء بشعر الشعراء الإسلاميين: كالفرزدق، وجري، ولكنه لم يستشهد ببيت واحد لطبقة المحدثين، وقد جرى المتأخرون على هذه السنة إلا قليل منهم، وكأنه هو الذي ثبت أركانها من الأخذ عن الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين، وعدم الأخذ عن طبقة المحدثين التي تبدأ ببشار بن برد"^(٩).

ورأى عباينة أن الخليل قد تجمع لديه قدر هائل من ألفاظ العرب وأشعارهم ولغاتهم، حتى قيل إنه: "كان يحفظ نصف اللغة، وأنه لم يكن يروي إلا الصحيح الموثوق به، ويتضح الثقة بما رواه الخليل من الاحترام الذي نالته شواهد سيبويه نفسه"^(١٠). ولم يكن الخليل يتقدم خطوة واحدة دون اعتبار لاستعمالات العرب، وما يجري في كلامهم.

٥. وفي موقف الخليل من القياس: أوضح عباينة أن القياس بدأ بعبد الله بن أبي إسحاق، وأما قياس الخليل فقد مضى فيه على سنة من قبله في القياس على الكثير، "وقد أداه عمله بتأثير ثقافته المنطقية، والتي لقفها وغذته بها صداقته لابن المقفع، وحياته في البصرة - موطن المذاهب المتصارعة - إلى أن هذه الطريقة هي الأنسب للبلوغ بالنحو مرتبة العلوم"^(١١). ويضرب عباينة أمثلة على اتجاه الخليل إلى القياس على الكثير عددياً^(١٢)، ومحاولة تأويل الشاذ، وقال في هذا: "وكان أول نحوي يهتم بالشاذ اهتماماً كبيراً، ويحاول أن يفسر سبب شذوذه، وأن يجد له وجهاً

يقبل به، فلا يطرح أو ينفي من دائرة الكلام العربي المقبول»^(١٣).
 ويلخص عباينة موقف الخليل من القياس بقوله " كان الخليل يبني على الأكثر، لأنه يريد صوغ علم، ويؤول الشاذ لكي لا يبعده عن حظيرة النحو، وهو كلام عربي أصيل، إلا أنه لم يفز بالشيوع والكثرة، ويقس على الشاذ أحياناً قليلة؛ لأنه كان يدرك في قرارة نفسه أن اللغة لا تخضع خضوعاً تاماً للمنطق وحقائق العلم، وأن عقل الخليل الذي أشرب ثقافة منطقية متينة لم يقبل قهر اللغة، بل كان يكتفي منها- في بعض الأحيان- بأدنى حظ من قبول التقنين والتعديد. والخضوع للقياس»^(١٤). وحرص عباينة على تتبع نظرة النحاة بعد الخليل إلى الشاذ، التي شهدت اتساعاً كبيراً.

واستعرض عباينة أقسام القياس عند الخليل، وجعلها أربعة: قياس الشبه في وجه من الوجوه، وقياس الاستئناس، وقياس الجدل، وهو طريق استدلالي جدلي، وقياس الافتراض. ومن الجدير بالذكر أن الخليل لم يستعمل هذه الأسماء، ولم ترد عنده، وإنما هي أسماء اختارها الباحث بقصد التوضيح والتقسيم. ثم أورد الباحث صفات قياس الخليل العامة؛ فذكر أن قياس الخليل امتاز عن قياس من سبقه من النحاة بأنه كان أكثر ألواناً، وأوسع تطبيقاً، وأمتن إحكاماً. فلم يخل في معظمه من أركان أربعة، هي: أصل، وفرع، وعلّة، وحكم. وأصبحت هذه الأركان فيما تلا من زمن عماد كلّ قياس^(١٥). على أنه يستدرك على ذلك الأمر بقوله: "على أن الخليل وقومه البصريين لم يجروا على أسباب القياس إلى ما لا نهاية، مثلما فعل أندادهم الكوفيون الذين قاسوا على الضرورات، والشواذ من الأبيات المفردة المخالفة للأصول المقررة، ففتحوا على أنفسهم باباً واسعاً، وانهالت عليهم القواعد وانتشرت، حتى لم يعد بالمستطاع حصرها"^(١٦)، كما أورد عباينة أدلة أخرى من أدلة النحو وهي: الإجماع، واستصحاب الحال^(١٧).

٦. وحول الأصل الثالث وهو التعليل، ذكر أن علل النحاة قبل الخليل كانت عللاً بسيطة تساعد على فهم كلام العرب، ويدور معظمها حول العامل، كما يدور بعضها حول المعنى الذي توخاه الشاعر أو القائل، بذهابه إلى وجه معين من

الإعراب، أو استعماله كلمة استعمالاً خاصاً. غير أن الذي روي من تعليقات تلك الفترة - وهو قليل جداً - يشير إلى أن العلة حتى عصر الخليل كانت عربية محضة، نابعة من طبيعة اللغة نفسها، وليس فيها أثر للمنطق أو جموح للخيال، بعيداً عن الواقع اللغوي المستعمل^(١٨).

أما التعليل عند الخليل فقد اتسع، نظراً لاعتقاده أن لكل ما نطق به عن العرب علة مرعية. ومن يقرأ أقواله في كتاب سيبويه يحس بأنه ليس عنده شيء لا يعلل، حتى ما جاء شذوذاً أو اضطراراً، على أن الخليل لم يتعصب لعلته التي اعتل بها، بل أوضح أنها مجرد حدس وتخمين^(١٩). وأورد الباحث طائفة من تعليقات الخليل، ولاحظ من خلالها أن الخليل قد دَعَم تعليقاته بالأقيسة قصداً إلى التوضيح وتمكيناً للعلة.

واستلهم الخليل في كثير من عله ذوق العرب في أساليبهم، وأوجه استعمالاتهم، وكانت بعض عله تدور حول العوامل، وقد اتضحت مهارة الخليل في التعليل عندما كان يؤول الشاذ^(٢٠).

وكان الخليل يستضعف بعض الاستعمالات مع التعليل لاستضعافه لها، كما كان يستحسن بعض الاستعمالات، أو يستقبح غيرها، موضحاً العلة في استحسانه أو استقباحه لها^(٢١).

وثمة علل ترد كثيراً عند الخليل، منها علة المشابهة، وقد بنى عليها معظم أقيسته، وعلى الاستخفاف أو التخفيف على اللسان، وكثرة الاستعمال، والتعويض، والاستغناء. كما تكررت عنده في تأويله للشاذ علل طريفة منها: علة التوهم. كما كان الخليل يسند القواعد والأحكام بالعلل التي توضحها، وتبين وجه الحكمة منها^(٢٢). وكانت تعليقات الخليل للقواعد والأحكام تتلاحق أحياناً حتى تشمل أبواباً بأكملها في كتاب سيبويه، من مثل: باب النداء، وباب الجزاء، وغيرها من الأبواب^(٢٣). وربما كانت تعليقات الخليل نفسها تتخذ شكل القواعد والأحكام المختلفة^(٢٤).

أما الصفات العامة لعلل الخليل فقد التقى الخليل مع من سبقه من النحاة في الغاية من التعليل: وهي فهم كلام العرب، لكن ثقافته العميقة الواسعة طبعت تعليله

بطوابع هامة تميز بها عن تعليل سابقه، وأول ما يلاحظ أنه قد وسع نطاق العلة حتى شملت جميع الأحكام، ذاهباً إلى أن العرب قد بنوا أحكام لفظهم على علل معتبرة، جعل همته أن يستخرجها، ويبين وجه الحكمة فيها^(٢٥).

ولعل هذا هو مصدر قول القدماء: "إنه قد استنبط من علل النحو ما لم يستنبطه أحد، أو يسبقه إليه سابق"^(٢٦).

ويلاحظ كذلك أن علة متينة محكمة، مدعومة بالقياس، وموضحة بالأمثلة، وأنه لم يكن يشترط أن يقوم الحكم على علة واحدة، بل ربما أتى له بأكثر من علة، أو أتى به لعلة مركبة من مجموع شيئين، وقد كان خياله يشطط به أحياناً، فيأتي بعلة بعيدة ممعنة في التخيل والافتراض^(٢٧).

على أن الخليل - مع ذلك كله - لم يخرج عن نطاق اللغة، أو يتعدّ نوق العرب فيما يستحسنونه ويستقبحونه من استعمالاتهم، ولم يختلف تعليله اختلافاً تاماً عن تعليل سابقه، بل كان عنده كثير من العلل التعليمية البسيطة التي تدور حول العوامل^(٢٨).

ويرى عباينة أنه لا أثر واضح مباشر للمنطق في تعليل الخليل، بل يرى أنه حينما أباح لنفسه أن يكون للحكم الواحد أكثر من علة، قد خالف عملياً ما هو مشهور من أمر العلة العقلية، التي لا يثبت الحكم معها إلا بعلة واحدة، غير أن الذي لا شك فيه أن المنطق - بطرق استدلاله العقلية - قد أعان الخليل على النفوذ إلى العلل، والتأني لها ولأحكامها^(٢٩).

وفي استعراضه لصورة التعليل بعد الخليل، أوضح عباينة أن الخليل أثار بعمله هذا الاهتمام بالعلة، وأخذت تشغل من عقول النحاة حيزاً كبيراً، وظهرت في القرن الثالث كتب خاصة بالعلة. واستمر التأليف فيها بعد ذلك، ولم يخل منها كتاب في النحو.

٧. وفي الباب الثاني الذي جعله الباحث تحت عنوان (في الفروع) نجد ثلاثة فصول: أولها (في العوامل والمعمولات)، والثاني (في تحليل الأدوات والعبارات)، والثالث (في المصطلحات). وفيما يتعلق بالعوامل والمعمولات وقف الباحث عند هذا المفهوم قبل الخليل، فقد سبق الخليل إلى القول بالعوامل، ولكنه كان أول من

توسع في تطبيقها، وبسط ظلالها على أبواب النحو كلها تقريباً، والنحاة قبله لم يعرفوا سوى العوامل اللفظية، أما هو فقد أضاف إليها العوامل المعنوية^(٣٠). ولاحظ الخليل أن العوامل اللفظية تعمل ظاهرة ومحدوفة، وتوقف عند دلالة الحال وأثرها في حذف الفعل^(٣١).

٨. كما عالج مسألة الحذف بسبب كثرة الاستعمال، ومعرفة المخاطب بالمحذوف^(٣٢). ووقف عند حذف المعمولات، كما وقف عند حذف العوامل، ووقف عند الإعمال والإلغاء في العوامل، وتعليقها عن العمل، وأن الخليل أول من أوردتها^(٣٣).

٩. ومن الأفكار اللافتة إشارة الباحث إلى أن الخليل يحكم المعنى وسلامته في إغائه بعض الأفعال، كما كان الخليل - في رأي الباحث - أول النحاة الذين راعوا الموضوع أو المحل في الإعراب^(٣٤). ولم يكن الخليل في أحيان كثيرة يكتفي بوجه واحد من وجوه الإعراب، بل كان يعرض في المثال الواحد كل الوجوه الممكنة^(٣٥). بحيث يصح القول: إنه أول من فتح في النحو باب وفرة الاحتمالات، وتعدد وجوه الإعراب^(٣٦) - وفقاً للباحث - كما وضع الخليل في ثنايا حديثه عن العوامل والمعمولات بعض القواعد والأحكام التي رسخت، وظلت تتردد في كتب النحو حتى يومنا هذا، ومنها جواز تقدم بعض المعمولات على العوامل^(٣٧). وعدم جواز الفصل بين المتضايقين بجار ومجرور أو خلافهما، إلا في ضرورة الشعر. وأن العوض والمعوض لا يجتمعان^(٣٨). وأهمية العامل المختص^(٣٩)، وغيرها.

١٠. ورد الباحث على رأي بعض الباحثين القائل إن الخليل كان يرى أن الحركات زوائد جيء بها ليتوصل بها إلى النطق بالحروف، وليس العامل مؤثراً فيها، فلم تكن حركات مؤثرة في إفادة المعنى وإيضاحه، ورأى أن الخليل كان يقصد بهذا حروف الكلمة التي هي قبل الحرف الأخير، فإن البصريين اجتمعوا على أن الحركات دلالة على المعاني، ولو كان للخليل رأي مخالف لذكروه^(٤٠). وأورد أمثلة على ذلك.

١١. وعلى وجه الإجمال فإن الخليل قد تسلم نظرية العوامل من النحاة قبله بسيطة

ساذجة، فتوسع فيها وبسط ظلّالها على معظم أبواب النحو، وقال بالعوامل المعنوية، ووضّح كثيراً من شروط الأعمال، وبعض القواعد والأحكام التي رسخت على مر العصور، وكانت المسحة الغالبة عليه هي المسحة اللغوية الخالصة. وكل ما يمكن أن نلمحه من أثر للمنطق عنده هو أنه مهد الأساس للفكرة القائلة: لا يجتمع عاملان على معمول واحد، وهي الفكرة التي أوجدت فكرة التنازع، ذلك الباب الذي يضرب مثلاً على تعسف النحاة في تطبيقهم لنظرية العامل، وفرضهم أساليب غير عربية على الناطقين باللغة العربية.

ومن العجيب أن لا نجد للخليل مع ذلك رأياً واحداً في التنازع، وكأنه لم يكن يرى أن تتحكم نظرية العوامل في النحو تحكماً ضاراً^(٤١). وأشار عباينة إلى تطور نظرية التعليل بعد الخليل، وكيف أساء متأخرو النحويين استعمالها بتحكيمهم إياها في النحو تحكماً ألياً عقلياً. وأشار كذلك إلى ثورة ابن مضاء القرطبي، وإلى الدعوات المعاصرة لإلغاء نظرية العامل، وأشار إلى دراستين على وجه التعيين؛ دراسة إبراهيم مصطفى في إحياء النحو، ودراسة تمام حسان في مناهج البحث في اللغة.

١٢. وفي الفصل الذي حمل عنوان تحليل الأدوات والعبارات استعرض عباينة الأدوات التي تناولها الخليل بالتحليل، وهي: (لن، وكان، وكأي، وكذا، وأما، وألا، وإنما، وإنما، وكأنما، وحيثما، وأما، وإلا، ومهما، وهلاً. وكوما، ولولا، وويكأن، وكما، ولعل، وذلك، وأنت، وإذن، وليس).

وعلى نحو ما كان الخليل يحلل الأدوات، كان يحلل الصيغ والعبارات، يسعفه في ذلك حسن لغوي دقيق وخبرة بأساليب العربية، وفقاً لأسرارها التركيبية، ومعرفة تامة باستعمالاتها المختلفة، ومن ذلك تحليله لاسم الفعل (هلم)، وحبذا، واللهم... وتحليله للمصادر المثناة بقصد التكرير مثل (حنانيك، وسعديك...) ومهاراته في تفسير الآيات، وتحليله لأسلوب التعجب. وكان الخليل يلجأ إلى تحليل العبارات في بعض الأحيان لتثبيت القواعد، ولملاحظة الحذوف، مع إدراك لأثر الاستعمال في التركيب، وبناء الصيغ، وتكوين العبارات، وملاحظة الفروق الدقيقة في الاستعمال، وأن لبعض الصيغ والأدوات مواضع تستعمل فيها بمعنى، ومواضع

تستعمل فيها بمعنى مختلف، وأن لبعضها الآخر مواطن لا تبرحها^(٤٢).

١٣. كما أظهر الباحث إدراك الخليل للفروق المعنوية الدقيقة، التي تنشأ عن اختلاف حركة الإعراب في الكلمة الواحدة، أو تنشأ عن تعدد الاحتمالات في الكلمة نفسها؛ فالخليل كان يدرك أثر الاستعمال في التركيب، ذاهبا إلى أن الحروف إذا ركب بعضها مع بعض تغير حكمها الأول، وحدث لها بالتركيب حكم آخر. ولأراء الخليل في تركيب الأدوات قيمة خاصة في هذا الزمن الذي ترمى فيه العربية بخلوها من التركيب، والقدرة على إبراز المعاني من أقصر طريق، وبعجزها عن مواكبة التطور، واستيعاب ألفاظ الحضارة الجديدة^(٤٣).

١٤. وأفرد عيابة فصلاً للمصطلحات عند الخليل، ووقف عند دلالاتها الدقيقة كما رآها الخليل، وذكر أن سيبويه استخدم المصطلحات التي نقلها عن الخليل بالمعنى نفسه^(٤٤). ولاحظ أن مصطلحات الخليل غير مستقرة تماما، فقد يوجد للمسمى الواحد أحيانا أكثر من مصطلح، ويستعمل للمصطلح الواحد أحيانا أكثر من مسمى^(٤٥). وتناول عيابة المصطلحات بعد الخليل وسيبويه، وكيف ثبتت وتطورت، وأخذت سمتها الواضح.

ملاحظات في المنهج:

١. اعتمد جعفر عيابة في تناول موضوعه رؤية منهجية واحدة وواضحة، وهي أنه أخذ في فصوله كلها بالفكرة القائلة إن النحو العربي قد نضج على يد الخليل، وأصبح علماً تاماً بما أرسى من أصوله، ووضع من قواعده وأحكامه. ولذلك كان في كل مفردة يظهر الموقف قبل الخليل، ثم كان يتحدث عن نور الخليل، ثم يفرد حيزاً للحديث عما تلا الخليل في ذلك الموضوع. فعل ذلك في تناوله لموقف الخليل من السماع والقياس، والتعليل وغيرها. ليظهر ما تفرد به الخليل في هذه المماثل، وما توسع به الخليل حتى عدَّ كأنه واضعه الحقيقي.

٢. اعتمد الباحث في الوصول إلى رؤيته عن الخليل النحوي على مصدر واحد للرؤية، هو الكتاب لسيبويه، إن التوجه نحو الكتاب في بحثنا عن نحو الخليل يعد

خطوة منهجية طبيعية ومتوقعة، بل وإجبارية إلى حد بعيد، فلا مناص من هذا التوجه، وقد ضاعت كتب الخليل وآثاره، ثم إن سيبويه قد ورث العلم من الخليل، تلقى الأصل، وقد ركزه الخليل في قمة الجبل. وعكف سيبويه على التكوين والتنظيم مستوعباً جهود سابقيه، مضيفاً ما يزيد المتفرد البار إلى ما يرث ويتلقى^(٤٦). أو كما يصفه أبو الطيب اللخوي: «أخذ النحو عن الخليل جماعة، لم يكن فيهم، ولا في غيرهم من الناس مثل سيبويه... وهو أعلم الناس بالنحو بعد الخليل، وألف كتابه الذي سماه قرآن النحو، وعقد أبوابه بلفظه ولفظ الخليل»^(٤٧). ولعله يجدر بنا الآن وقد ظهرت الكثير من المخطوطات النحوية وحققت، أن نحاول إكمال الصورة من المصادر الأخرى، ومنها كتب التراجم، وكتب الأصول، والكتب التي تمثل نحو البصرة. وإلا فإن أسئلة هامة سوف تطالعنا، وتفسد إلى حد بعيد اطمئناننا إلى النتائج التي سنحصل عليها، فيما لو اقتصرنا على الكتاب وحده. ولعل أبرز هذه الأسئلة: أين الحدود الفاصلة بين ما هو للخليل، وما هو لسيبويه، بل وبين ما هو ليونس بن حبيب؟ ولربما كان الاستنتاج الذي يشط نحو الخيال، ونستبطنه من نصوص قليلة ثابتة النسبة للخليل، أولى وأجدر بالتقديم من استنتاج واستنتاج لنصوص لا نعرف حقيقة نسبتها، أو صدورها عن الخليل. إن جهد الدكتور عباينة في حينه، جهد كبير مقدر، لكن على الباحثين استكمال عمله فيما تيسر حديثاً من مصادر.

٣. يحمد للباحث غوصه داخل النصوص محاولاً تحليلها واستنطاقها؛ نجد ذلك في حديثه عن مصادر السماع وموقف الخليل منها، ونجد ذلك في حديثه عن العوامل والمعمولات وغيرها. وفي الوقت الذي يكشف لنا فيه الباحث عن صورة النحوي الحقيقية للخليل، لم نكتشف ما منهجية الخليل في التعامل مع اللغة والكلام، هل كان وصفيًا؟ هل كان معياريًا؟ هل كان يحاول الوصول إلى نظرية نحوية متكاملة تبغي الوقوف على سيرورة اللغة في جانب التركيب وصلته بالدلالة؟

هل استطاع الوصول إلى وصف للنظام النحوي في العربية يمتاز بالتكامل والاستيفاء؟ ذلك أن الدارس للكتاب يضيع في خضم التفاصيل المتعلقة بالإعراب

ونظام الجملة، من غير أن يصل إلى سرّ النظام التركيبي في العربية، الموصل إلى أسرار المعنى والدلالة والذي هو في خاتمة الأمر مناط كل دراسة لغوية. وهو الذي عبّر عنه صاحب المستوفى في النحو كمال الدين علي الفرخان من أن النحو 'صناعة علمية ينظر إليها أصحابها في ألفاظ كلام العرب من جهة ما يتألف بحسب استعمالهم، لتعرف النسبة بين صيغة النظم، وصورة المعنى، فيتوصل بإحداها إلى الأخرى' (٤٨). ولعل هذا المطلب الذي نشير إليه فوق قدرة كل باحث؛ لأن الخليل لم يترك لنا ما نتكئ عليه في الوصول إلى مثل هذه الأحكام.

٤. حاول الباحث كثيراً أن ينفي عن الخليل الصبغة العقلية المنطقية الخالصة، وحاول جاهداً أن يوضح أن من الملامح العامة لنحو الخليل أنه كان يستند في كل ما أتى به من آراء إلى استعمالات العرب، وليس إلى اعتبارات عقلية محضنة، لذا فإن أثر المنطق في نحوه كان ضئيلاً جداً، في الوقت الذي اجتهد فيه بإظهار دور ثقافته المنطقية في القياس، والتعليل، والعوامل والمعمولات. وأرى أن لا ضير في هذه الثقافة المنطقية، التي تعين في الوصول من الأجزاء إلى الكلّيات، أو العكس، لكن النحوي الذي يتصدى للتقعيد، خاصة في الفواتح ومواطن الريادة، لا بد أن يحتكم لواقع الاستعمال، فالسيرورة اللغوية في بيئة لغوية ما هي التي تصنع القاعدة، وليس القاعدة بحال هي التي تحكم سيرورة اللغة، وهو ما رأينا بعض مظاهره في نحونا العربي وقد أشار الدكتور أحمد البدوي إلى هذه القضية بقوله: "وبينما يذهب الباحث العباينة إلى أن "الخليل كان ملماً إماماً كافياً بعلم المنطق، إذ كان المنطق شائعاً في بنيات المتكلمين آنذاك، وكان هو نفسه ممن خاض في الكلام والجدل" (٤٩) يقرر العباينة نفسه في موطن آخر: "الخليل يستند في أدائه إلى استعمالات العرب، وليس إلى اعتبارات عقلية محضنة، وبالتالي فإن أثر المنطق في نحوه، كان ضئيلاً لا يظهر إلا في بعض مسائل القياس، وبعض التعليلات، وفي بعض أحكام العوامل" (٥٠). فالخليل من جهة ممارس للمنطق الذي راجت سوقه، ولاسيما وسط المتكلمين، وبيئة الفقهاء، ولكنه من جهة أخرى تحرّر من استخدام المنطق في مجاله اللغوي. ولعل إبراهيم السامرائي كان يرد على هذا الرأي في

المقدمة التي عقدها للدراسة المتخصصة المتعمقة التي أعدها "العباينة"، فقال: وددت لو أن د. جعفر العباينة قد تشدد في نقده، ودرسه في فصل التعليل عند الخليل، فوقف منه موقف الراد لبعض تعليلاته المتكلفة التي لا تحتملها العربية، وهي بنت السليقة السليمة المبدعة البعيدة عن التعسف والتكلف. ألا ترى أن هذه التعليلات هي التي شجعت الذين خلفوا الخليل فانساقوا في هذه الطريق المظلمة، فأفسدوا النحو، فجعلوه ضرباً من المحاكمات العقلية^(٥١). ويبدو أن للمنطق أثراً قوياً، وإن كان مقداره "ضئيلاً" وهو ما سماه السامرائي "السير في طريق مظلمة".

٥. كان من النتائج البارزة التي توصل إليها الباحث أن من الملامح اللافتة لنحو الخليل أنه لم يخل من مسحة أدبية بلاغية تتمثل في تفرقه بين الأساليب، وتمييزه بين المعاني، وتفسيره للعبارات.

٦. اقتصر هذا البحث على دراسة النحو وحده دون الصرف. وقد فوت هذا علينا خيراً كثيراً؛ فالصرف بقي إلى فترة طويلة جزءاً من علم النحو، والطبقة التي ينتمي إليها الخليل، كانت الطبقة التي نظرت إلى التركيب اللغوي على أنه جماع لقواعد الصوت والصرف والنحو والمعجم، وبالتالي يجد الباحث في الكتاب مباحث نحوية، ومباحث صرفية ومباحث صوتية، ومباحث لها صلة بالمستوى المعجمي. ويعزز هذا الذي نقول ما أورده الرضي في شرح الشافية، يقول: "واعلم أن التصريف جزء من أجزاء النحو بلا خلاف من أهل الصناعة"^(٥٢).

٧. في حديث الباحث عن موقف الخليل من التعامل مع القراءات، اقتصر ما أورده على المسألة حول قضيتين:

١- رد الفكرة القائلة بأن الخليل كان يرد بعض القراءات.

٢- أنه كان يأخذ بعض القراءات مسلماً بها، وكان يحمل على بعضها الآخر.

لكنه لم يقف عند منهجية الخليل في التعامل مع القراءات، وكيف كان يوجه القراءات، ولماذا كان يحمل على بعضها، وأين ضابط المعنى في كل ذلك؟ وقد أشار الدارسون إلى أن حجم الشواهد القرآنية يقل بكثير جداً عن الشواهد الشعرية. لاحظ

ذلك الدكتور محمد عيد في دراسته الرواية والاستشهاد باللغة، ولاحظه الدكتور حسن الشاعر في دراسته النحاة والحديث النبوي، ولاحظه الدكتور فخر الدين قباوة في دراسته تاريخ الاحتجاج النحوي بالحديث الشريف.

٨. كان وقوف الباحث مشابهاً لمعظم الدارسين في مسألة موقف الخليل من الاحتجاج بالحديث الشريف، فقد سلم بأن الخليل لم يستشهد بالحديث النبوي في تأصيله لقواعد النحو، واكتفى بمحاولة التفسير التي أوردها السيوطي. مع أن الباحث يذكر أن الخليل يرى أن تؤخذ اللغة من ينابيعها الأصيلة، ولذا شد الرحال إلى مواطن العرب بالجزيرة، وقد كان للخليل ريادة في حقل الشواهد، إذ جاب بوادي الحجاز ونجد وتهامة، يواجه العرب في صحرائها، ويستمع لأحاديثها، ثم يعود إلى البصرة ليوظف تلك المادة الوافرة في جميع أصول التعبير، وفروعه مع الشواهد والعلل والتفسير^(٥٣)، ويتفرغ بعد ليصنف كتاباً كاملاً تحت عنوان (الشواهد)^(٥٤) وما لم نطلع على هذا الكتاب فلن نجزم بشيء مما قيل حول موقفه من الحديث، بل إن ما وردنا من عبارات في كتب التراجم، يمكن أن يوصلنا لنتائج مغايرة فقد ثبت عن النضر بن شميل قوله: "ما رأيت أعلم بالسنة بعد ابن عون من الخليل بن أحمد"^(٥٥).

وإن العالم بالسنة لا يمكن أن يغفل الاحتجاج بالحديث الشريف، أو أن يكون له تحفظ عليه إلا إذا كان له من الأسباب غير ما أورده السيوطي، نقلاً عن ابن الضائع وأبي حيان من أسباب واهية، كرواية الحديث بالمعنى أو وجود الرواة الأعاجم.

٩. في حديثه عن عقلية البصريين والكوفيين ذكر الباحث أن العوامل التي امتازت بها بيئة البصرة العلمية قد أعدت جميعها "عقول البصريين لأن تمتاز عن عقول أنداهم الكوفيين، فتكون أكثر دقة وميلاً إلى التعميم، وأكثر مهارة في صوغ العلوم"^(٥٦). لكننا نجد عدداً من المحدثين يميل إلى صنيع الكوفيين بوصفه الأقرب إلى الوصفية، التي هي أقرب إلى روح اللغة، ودورها كظاهرة اجتماعية تؤخذ من واقع الاستعمال.

١٠. لم يقف الباحث عند موقف الخليل من كلام العرب نثرًا، مع أنه الصورة التواصلية الحية للغة، ولعلّ هذا الجانب، مع جانب موقفه من الاحتجاج بالحديث وهو نثر، يمكن أن يشكل نافذة أخرى للرؤية الخليلية للشاهد النحوي.

١١. بحسب للباحث وقوفه -ولو كان ذلك وقوفاً قصيراً- عند مسألة الحذف (النحوي) عند الخليل، وذلك في حديثه عن العوامل والمعمولات، وفي تحليله للأدوات، ويمكننا إجمال الضوابط التي يخضع لها موضوع الحذف، وذكرها الباحث فيما يتعلق بعمل الخليل، بالضوابط الآتية:

١- ضابط كثرة الاستعمال.

٢- ضابط المتلقي أو المخاطب ومعرفته بالمحذوف.

٣- ضابط المعنى.

ويمكن أن نجمع من هذه الضوابط خلاصة نظرية في الحذف عند الخليل، وهو موضوع جدير بالدرس والتتبع، ويمكننا أن نشير إلى أن الضابط الأول يتصل بما يعرف بالعرف اللغوي، وقد جعله مجمع القاهرة أصلاً ثابتاً في قبول الجديد من المحدثات اللغوية، أما الضابط الثاني فيتصل بالسياق الاجتماعي للتركيب اللغوي أو سياق الحال، وهو ضابط مهم، لم يظفر بالعناية التي يستحقها عند الدارسين. وأما الضابط الثالث فيتصل بالسياق اللغوي للتركيب، وجماع المعنى المستل من التركيب كله.

١٢. أجاد الباحث في حديثه عن الحركات وأثرها في المعنى فعلامات الإعراب هي حركات دوال على المعنى، ويمكن أن نفيد هنا من نظرية تضافر القرائن، وقرائن المعنى التي جلاها الأستاذ الدكتور تمام حسان في كتاب اللغة العربية معناها ومبناها، وأن هذه الحركات قد تكون فيصلاً في تحديد المعنى أحياناً، وقد تكون بلا أدنى تأثير في المعنى في سياقات أخرى. لكنها تبقى قرينة واحدة فقط من قرائن المعنى، إضافة إلى القرائن الأخرى: الصرفية، والمعجمية.

١٣. امتاز الباحث بما يمكن أن نطلق عليه (اللباقة الأكاديمية) إن جاز التعبير، فقد

عرّض بالتعليل والعلل، وعرّض بالشطط في نظرية العامل، مع أن الخليل هو بطل هذه الأصول، إلا أن الباحث حاول أن يبعده إبعاداً تاماً عن الصورة المعتمة لمن تشبث بها. يقول فيه السيرافي "كان الغاية في تصحيح القياس، واستخراج مسائل النحو وتعليقه"^(٥٧) ونرى أن النحاة الأوائل، ومنهم الخليل قد أبعدوا النحو عن فكرته الرئيسة، وهي وصف كلام العرب لينحو القائل نحوه ويتصور سماته؛ من خلال تلك النظريات التي أبعدهت عن روحه، ولم تربط بين مستوى هام من مستويات النظام اللغوي وهو النحو ورأس الهرم فيه وهو الدلالة.

١٤. بذل الباحث جهداً واضحاً في استعراض مسألة المصطلحات عند الخليل، وتطور المصطلح النحوي عند الخليل، وسمات المصطلح عنده، وكنا نتوقع منه الوقوف على مشكلات المصطلح عند الخليل كما تبنت في الكتاب، والتي ما زلنا نلمح بعض مظاهرها حتى وقتنا الحاضر ومنها استعمال مصطلح واحد بإزاء مفاهيم مختلفة؛ فالمفرد مثلاً؛ هو خلاف المثني والجمع، وهو خلاف الجملة وشبه الجملة، وهو خلاف المضاف والشبيه بالمضاف. ويمكن إعادة كتابة هذا الفصل بالاستعانة بمفردات علم المصطلح الحديث.

القمر والهالة *

وصف د. أحمد محمد البدوي الخليل بأنه قمر وهالة؛ القمر ما صدر عن الرجل من عمل عظيم مهيب، والهالة استحالة شأن الرجل إلى انبهار مطلق في نفوس كثيرة. ومن اقتران الأمرين أو امتزاجهما تأنت السيرورة للأسطورة الصادقة، ما طرق الرجل باباً إلا انفتح أمامه على مصراعيه، بل بدا سباقاً، ما دخل مضماراً إلا كانت الصدارة من نصيبه، لا يكاد يلحق بغباره أحد. إن السداد حليفه في كل مجال طرقه^(٥٨). فهل استطاع جعفر عباينة أن يتخلص من وهج الهالة ليجلو القمر واضحاً من غير أن يأخذه سطوع الهالة حوله؟

نستطيع -بلا ريب- أن نصف صنيع الدكتور عباينة بالموضوعية. فهو، وإن كان قد استحوذت عليه فكرة تفوق الخليل، قد عرض لجوانب هذه الشخصية دون تهويل، يقول الدكتور إبراهيم السامرائي في هذا: "ثم إنه لم ينبهر بسطوع

الأضواء التي وجهت على الخليل مبهرة أصحابها ففاتهم بذلك علم كثير^(٥٩).
وقال: "لم يكن الصديق جعفر من هؤلاء الذين حملوا على الابتعاد عن العلم
الموضوعي، والضياح في تيه الإعجاب والحماسة، فقد أخذ نفسه بكثير من الجد
والصبر وهدوء الدارس المطمئن، فكان له من ذلك هذه الثمرة المباركة الطيبة بحثاً
قائماً على أسلوب علمي رصين"^(٦٠).

وبعد؛

فهذه هي صورة الخليل النحوي كما رسمها جعفر عيابة في جهد علمي
رصين يستحقه الخليل، فهذا الزاهد الذي قال فيه تلميذه النضر بن شميل: "أقام
الخليل في خص من أخصاص البصرة لا يقدر على فلسين وأصحابه يكسبون بعلمه
الأموال"^(٦١)، وهذا العالم الذي استحوذت عليه الفكرة حتى ارتطم بعمود المسجد من
غير أن ينتبه له، لجدير بأن يقرأ مرات عديدة.

الحواشي.

- (١) جعفر عجاينة، مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٩٨٤، ص٩.
- (٢) نفسه، ص٢٣.
- (٣) نفسه، ص٣٤.
- (٤) نفسه، ص٤٨.
- (٥) نفسه، ص٤٩.
- (٦) نفسه، ص٤٩.
- (٧) نفسه، ص٥١.
- (٨) نفسه، ص٥٢.
- (٩) نفسه، ص٥٤.
- (١٠) نفسه، ص٥٥.
- (١١) نفسه، ص٦١.
- (١٢) نفسه، ص٦٢-٦٣.
- (١٣) نفسه، ص٦٣.
- (١٤) نفسه، ص٦٩.
- (١٥) نفسه، ص٨١.
- (١٦) نفسه، ص٨٢.
- (١٧) نفسه، ص٨٢-٨٣.
- (١٨) نفسه، ص٨٧.
- (١٩) نفسه، ص٨٨.
- (٢٠) نفسه، ص٩٢.
- (٢١) نفسه، ص٩٥.
- (٢٢) نفسه، ص٩٩.
- (٢٣) نفسه، ص١٠١.
- (٢٤) نفسه، ص١٠٢.
- (٢٥) نفسه، ص١٠٣.
- (٢٦) الزبيدي، طبقات النحويين واللفويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، القاهرة، ١٩٥٤م، ص٤٣.

- (٢٧) جعفر عياينة، ص ١٠٣.
- (٢٨) نفسه، ص ١٠٣.
- (٢٩) نفسه، ص ١٠٤.
- (٣٠) نفسه، ص ١١٠.
- (٣١) نفسه، ص ١١٧.
- (٣٢) نفسه، ص ١١٧.
- (٣٣) نفسه، ص ١٢١.
- (٣٤) نفسه، ص ١٢٦.
- (٣٥) نفسه، ص ١٢٩.
- (٣٦) نفسه، ص ١٣٠.
- (٣٧) نفسه، ص ١٣١.
- (٣٨) نفسه، ص ١٣٣.
- (٣٩) نفسه، ص ١٣٣.
- (٤٠) نفسه، ص ١٣٤.
- (٤١) نفسه، ص ١٣٦.
- (٤٢) نفسه، ص ١٥١.
- (٤٣) نفسه، ص ١٥٦.
- (٤٤) نفسه، ص ١٧٦.
- (٤٥) نفسه، ص ١٧٩.
- (٤٦) أحمد البدوي، الخليل بن أحمد: سيرة ونصوص، منشورات جامعة قار يونس/ بنغازي، ط ١، ١٩٩٤م، ص ١٩.
- (٤٧) أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، بلا تاريخ، ص ١٠٦.
- (٤٨) الفرخان (كمال الدين أبي سعيد بن علي بن مسعود بن محمود بن الحكم)، المستوفي في النحو، تحقيق محمد بدوي، ط ١، القاهرة، دار الثقافة العربية، ١٩٨٧م، مجلد ١، ص ٣.
- (٤٩) أحمد البدوي، الخليل بن أحمد: سيرة ونصوص، ص ٣٤.
- (٥٠) جعفر العياينة، ص ٢٩.
- (٥١) إبراهيم السامرائي، مقدمة المرجع السابق، ص ٥-٦.
- (٥٢) الرضي الأستراباذي (رضي الدين محمد بن الحسن الأستراباذي النحوي) (ت ٦٨٦هـ)، شرح شافية ابن الحاجب، حققها وضبط غريبها: محمد نور الحسن ومحمد الزقزاق ومحمد

- محي الدين عبد الحميد، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا تاريخ، مجلد ١، ص ٦.
- (٥٣) محمد الطنطاوي، نشأة النحو، ط ٢، بلا تاريخ، ص ٣٢.
- (٥٤) انظر: ابن النديم، الفهرست، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٣٤٨هـ، ص ٤٩. القفطي، إنباء الرواة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٥٠م، ج ١، ص ٣٣٠.
- الموسوي الأصفهاني، محمد باقر، روضات الجنات، تحقيق أسد الله إسماعيليان، مكتبة إسماعيل طهران، ١٣٩١هـ، ج ٣، ص ٢٧.
- (٥٥) انظر: إرشاد الأريب، ج ٤، ص ١٧٩-١٨٠. ابن الأنباري، نزهة الألباء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٤٨.
- (٥٦) جعفر عباينة، ص ٦١.
- (٥٧) ياقوت الحموي، معجم الألباء، وزارة المعارف المصرية، دار المأمون، ط ٣، بلا تاريخ، ج ١١، ص ٦٦.
- * هذا العنوان استعارته الباحثة من عنوان فرعي للدكتور أحمد محمد البديوي في كتابه (الخليل بن أحمد سيرة ونصوص)
- (٥٨) أحمد البديوي، ص ٩.
- (٥٩) إبراهيم السامراني، من تقديم كتاب جعفر عباينة مكانة الخليل في النحو العربي، ص ٥.
- (٦٠) نفسه.
- (٦١) ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر) (ت ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٨٩م، مجلد ٢، ص ٢٤٥.



جهود أردنيّة في دراسة الخليل الفراهيديّ

٢٠٠٥

د. حسين ارشيد العظامات
جامعة آل البيت - الأردن



جهود أردنية في دراسة الخليل الفراهيدي

د. حسين ارشيد العظامات

ملخص:

تعدُّ هذه الدراسة محاولة لقراءة الجهود الأردنية التي تناولت العالم العربي الشهير الخليل بن أحمد، واستقصائها، وبيان مقدارها، والنتائج التي توصلت إليها هذه الجهود، وذلك من خلال عرض لهذه الدراسات: سواء أكانت نحوية، أم لغوية، أم صرفية، أم صوتية، أم عروضية، وبيان مضامينها، والجديد فيها.

تمهيد:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه الأمين محمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة والتسليم، وبعد:

فإنَّ العالمَ الخليلَ بنَ أحمدَ مقفَّرةً من مفاخر العربِ والمُستلمينِ الباقيةِ على مرِّ الأيامِ والسنينِ، وهو عبقرِيٌّ عربيَّةٌ وإمامها، خدَمَ اللُّغةَ العربيَّةَ أيَّ خدمةٍ، واضطلعَ هذا العالمُ الجليلُ بدورٍ كبيرٍ في وضعِ أُسسِ علمِ النُّحوِ العربيِّ، فخطا بالنُّحوِ خطواتٍ واسعةً إلى الأمامِ، وأوصله إلى مرحلةِ النُّضجِ والاكتمالِ، فأسسَ علمَ النُّحوِ العربيِّ الذي وضعه في كتابه بلمبذة سيبويه، بعد أن تلقَّاه عنه. فكانت له هذه المكانة العلمية الرائدة في الدراسات اللغوية، فهو صاحبُ العربيَّةِ والعروضِ، قال فيه السيِّرانيُّ^(١): كان الغاية في استخراج مسائل النُّحوِ وتصحيح القياس فيه، وهو أوَّلُ من استخرج العروضِ، وحصرَ أشعارَ العربِ بها، وعملَ أوَّلَ كتابِ العينِ المعروف المشهور الذي به يتَّهياً ضبط اللُّغة.

وقد حرصَ الباحثون الأردنيون - كغيرهم من الباحثين العربِ والمُستلمينِ - على دراسة من تملكه هذا الإبداع والتميز في حقول معرفية متنوِّعة، منها اللُّغة العربيَّة وفنونها: من صوت، وصرف، ونحو... إلخ.

عناية الباحثين الأردنيين في دراسة الخليل الفراهيدي:

تعددت وجوه عناية الباحثين الأردنيين في دراسة الخليل الفراهيدي، ويمكن حصر هذه الوجوه في ما يأتي:

أولاً: جهود نحوية: وشملت الدراسات الآتية:

أ. مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي:

وهو كتاب ألفه الدكتور جعفر عيابة، ويُعدُّ دراسة جادة وهامة لباحث أردني في مكانة الخليل في النحو العربي، وهو في الأصل رسالة علمية تقدم بها الباحث لنيل درجة الماجستير سنة ١٩٧٠م في جامعة القاهرة، وكان عنوانها: وَضْعُ الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ لِأَصُولِ النَّحْوِ الْعَرَبِيِّ وَفُرُوعِهِ. وقد درس الدكتور عيابة في هذا البحث علماً من أعلام العرب المشهورين وهو الخليل بن أحمد الفراهيدي، واهتم الباحث في جانب واحد من نشاطات الفراهيدي المتعددة ألا وهو جانب النحو، وقد بيّن الباحث أن ما وصلنا من نحو الخليل مؤدغ في كتاب تلميذه سيبويه حامل علمه والناقل الأمين لكلامه، ويقتصر هذا البحث، أو يكاد، في دراسة نحو الخليل على كتاب سيبويه^(٢). فلم يُشر الباحث إلى شيء من الصرّف إلا ما تدفعه إليه الضرورة.

وجاء البحث محتويًا على تمهيدٍ وبابين وخاتمة: ففي التمهيد ذكر الباحث جهود النحويين السابقين للخليل، ثم تحدّث عن حياة الخليل، وثقافته، ونشاطه العلمي، وآثاره. وأمّا البابين فقد اختلفا بالأصول النحوية وما اتصل بها من التعليل، فجاء الباب الأول في الأصول وتكوّن من ثلاثة فصول (بالإضافة إلى مقدّمة في تاريخ الأصول)، الفصل الأول: في السماع، والفصل الثاني في القياس، والفصل الثالث: في التعليل. وجاء الباب الثاني في الفروع، وقد تكوّن من ثلاثة فصول: الفصل الأول: العوامل والمعمولات، والفصل الثاني: تحليل الأدوات والعبارات، والفصل الثالث: المصطلحات. أمّا الخاتمة فقد حوت أهم نتائج البحث، ولعل أهمّها:

- ١- أن النحو العربي قد نُضجَ على يد الخليل، وأصبح علماً تاماً بما أرسى من أصوله، ووضع من قواعده وأحكامه.
 - ٢- أن الخليل هو الذي أرسى أركان المذهب البصريّ وذلك من خلال حصره دائرة السماع فيمن يوثق بفصاحته من العرب، والقياس على الكثير، وتأويل الشاذ.
 - ٣- أن الخليل هو الذي أرسى معظم المصطلحات التي تدور في علوم النحو والصرف من مثل: العامل، والظروف، والتفسير بمعنى التمييز، والنعته، وغيرها.
 - ٤- أن الخليل هو الذي صاغ كثيراً من المبادئ النحويّة الأساسيّة والقواعد العامّة.
 - ٥- أن الخليل كان يستند في كل آرائه النحويّة إلى استعمالات العرب، وليس إلى اعتبارات عقليّة محضة، لذا - كما يقول الباحث - فإن أثر المنطق في نحوه كان ضئيلاً.
 - ٦- أن نحو الخليل لم يخلُ من مسحة أدبيّة بلاغيّة تتمثل في تفريقه بين الأساليب، وتمييزه بين المعاني، وتفسيره للعبارات، وقد ظهر ذلك في فصل تحليل الأدوات والعبارات، ويظهر ذلك أثناء حديثه عن (الز، وأما، وكان، وإنما وأنما، وحيثما، وغيرها)^(٣).
 - ٧- أن هذا البحث الذي قام به الباحث الدكتور جعفر عباينة صحّح بعض الأفهام الخاطئة التي مؤداها أن الخليل كان يردّ بعض القراءات، وأنه كان يُخطئ العرب ويثمّمهم بالغلط، وأنه لم يقلّ بتأثير العوامل في الحركات، أو بتأثير الحركات في اختلاف المعاني.
- ولعني أقول في ختام عرض ما جاء في هذه الدراسة إنها تعدّ بداية الجهود الأردنية في دراسة الخليل بن أحمد، إذ أظهرت مكانة الخليل العلميّة وحياته الشخصية، وتمييزه بثقافة لغويّة ونحويّة واسعة، وأن صاحب هذه الدراسة قد كشف عن الجهد الذي أتى به الخليل خدمةً للعربيّة ولإدارسيها.

ب . مسائل خلافية بين الخليل وسيبويه:

وهو كتاب للدكتور فخري صالح قدارة، تناول فيه مسائل قد وقع فيها خلاف بين الخليل وسيبويه، ولاحظ ذلك في كتاب سيبويه، و بين المؤلف أنه قد استرعى انتباهه - وهو يطلع على كتب النحو المختلفة - أن ثمة مسائل وقع فيها خلاف بين الخليل وسيبويه، ويذكر المؤلف، أيضاً، أن حصر جميع المسائل التي وقع فيها خلاف بين الخليل وسيبويه أمرٌ صعب، لذا جاء العنوان: مسائل خلافية (لتكون مسائل منتقاة). أما المسائل التي ذكرها المؤلف فهي^(٤):

- ١ - أداة التعريف أل.
- ٢ - تأصيل حرف النصب (لن).
- ٣ - إياك وأخواته.
- ٤ - إذن.
- ٥ - أي الموصولة.
- ٦ - أن وأن إذا حذف عنهما حرف الجر.
- ٧ - الجرُّ على الجوار.
- ٨ - أصل خطايا وجاء ونحوهما.
- ٩ - تأصيل (مهما).

وجاء هذا البحثُ محتوياً على تمهيد و فصلين: ففي التمهيد تحدّث المؤلف عن علم النحو، وأسباب وضعه، وزمان وضعه ومكانه، وواضعه. وفي الفصل الأول تمّ الحديث عن الخليل وسيبويه ونسبهما، وحياة كل منهما، وشيوخهما، وتلاميذهما، وجهودهما النحويّة وأثارهما. وأمّا الفصل الثاني فقد جاء موضوع البحث وهو المسائل الخلافيّة بين الشيخين. وقد توصل الباحث إلى مجموعة من النتائج لعلّ من أهمّها أن الخلاف بين الخليل وسيبويه كان قليلاً، وقد وقع في مسائل فرعيّة، ومن الشواهد على ذلك - كما ذكر المؤلف: المسألة التاسعة:

تأصيل "مهما" (ص ٦٨): أصلها عند الخليل "ما" الشرطيّة، زيدت عليها "ما" التي تدخل على أخواتها الشرطيّات نحو: أينما، متى ما، إن ما، أي ما، فصارت

"ماما" فاستقبحوا هذا اللفظ لتكرار الحرفين، فأبدلوا من الألف الأولى هاء؛ لأنها من مخرجها، فصارت "مهما"^(٥). وفي ذلك يقول سيبويه: (وسألت الخليل عن مهما فقال: هي ما أدخلت معها ما لغوا بمنزلتها مع متى إذ قلت: متى ما تأتي أنك، وبمنزلتها مع إن إذا قلت: إن ما تأتي أنك وبمنزلتها مع أين كما قال سبحانه وتعالى: "أينما تكونوا يدرككم الموت"^(٦) وبمنزلتها مع أي إذا قلت: "أيما تدعوا فله الأسماء الحسنى"^(٧) ولكنهم استقبحوا أن يكرروا اللفظاً واحداً فيقولوا: ماما فأبدلوا الهاء من الألف التي في الأولى)^(٨). وقد أجاز سيبويه أن تكون مركبة من "مه" و "ما"، وقال في ذلك: (وقد يجوز أن يكون "مه" كإِذْ ضَمَّ إليها ما)^(٩)، وعليه تكون حرفاً من حروف الجزاء.

ويظهر ممّا سبق أنّ الخلاف بين الخليل وسيبويه كان قليلاً، ويقع في المسائل الفرعية.

ج. الخليل بن أحمد والكتاب:

وهو بحث منشور في مجلة اللسان العربي للدكتور حنا حداد، جامعة اليرموك، عدد ٤٦، سنة ١٩٩٨م. وفي هذا البحث^(١٠) فهرس واف لما نقله سيبويه عن الخليل، ورصد مواطن هذا النقل في الكتاب، فقد بين الباحث أنّ المتبع لما نقله سيبويه عن الخليل في كتابه، يتبين له أنه قد ذكر اسمه صراحة، أو عناء دون تصريح باسمه في (٥٤٨) موضعاً، وأنّ الإشارة إلى الخليل والإحالة إليه وذكر اسمه في الكتاب قد تنوعت تنوعاً كبيراً، وينكر الباحث أنّ الأشكال التي ورد النقل فيها عن الخليل بلغت اثنين وأربعين شكلاً تمثلها النماذج الآتية:

النموذج الأول: وفيه يذكر سيبويه اسم الخليل ويترحم عليه، مثل:

وزعم الخليل رحمه الله.

وقال الخليل رحمه الله.

وسألت الخليل رحمه الله.

وروى الخليل رحمه الله. وغير ذلك.

النموذج الثاني: وفيه يغفل سيبويه اسم الخليل ولكنه يعنيه ويترحم عليه، مثل:

وزعم رحمه الله.

وسألته رحمه الله.

وسألناه رحمه الله. وغير ذلك.

النموذج الثالث: وفيه يذكر سيبويه اسم الخليل دون ترحم، مثل:

وزعم الخليل.

وقال الخليل.

وأشدنا الخليل. وغير ذلك.

النموذج الرابع: وفيه يغفل سيبويه اسم الخليل - وإن كان يعنيه - ولا يترحم

عليه، مثل:

وزعم.

وقال.

وسألته.

وأشدنا، وغير ذلك.

ويبين الباحث أن الذي يلفت الانتباه، أن عدد المواطن التي لم يترحم فيها سيبويه على الخليل، تفوق كثيراً تلك التي ذكره وترحم عليه فيها. فقد بلغ عدد المرات التي لم يترحم عليه فيها (٤١٩) مرة، مقابل (١٢٩) مرة هي التي ترحم عليه فيها. ومما يلفت الانتباه - أيضاً، كما يذكر الباحث - أن عبارات الترحم على الخليل، جاءت جميعها في الجزأين الأول والثاني في القسم الأول من الكتاب. أما الجزء الثالث والرابع، وهما بقية الكتاب فقد جاء خاليين تماماً من عبارات الترحم هذه. ويخلص الباحث من هذا إلى طرح سؤالين هامين:

- ما الذي تعنيه هذه الظاهرة؟

- وما الذي يستفاد منها في تحديد تاريخ تأليف الكتاب؟

ويصل الباحث إلى الاعتقاد أن الذين تعاوروا نسخ الكتاب كانوا مختلفي المشارب موزعي الأهواء. وأن هؤلاء النساخ قد خلطوا بين أجزاء الكتاب الأم،

وأنهم قد أضافوا إليه، من جملة ما أضافوا، بعض الشواهد الشعرية بعد أن أسقطوا بعضها الآخر، وأنهم رتبوا بعض مواده ترتيباً عشوائياً، هو أقرب إلى ترتيب الوراقين منه إلى ترتيب النحاة وفقهاء العربية، فجاءت بعض مواد الكتاب في غير موضعها الذي يجب أن تكون فيه، ومن غير رابط يربطها بما حولها أو موجب يفرضها حيث جاءت.

د. نفي كتاب الجمل في النحو عن الخليل بن أحمد القراهيدي:

وهو بحثٌ علمي للدكتور محمود حسني مغالسة منشور في مجلة جامعة دمشق، العدد التاسع عام ١٩٨٧م. وقد جاء هذا البحث رداً على كتاب "الجمل في النحو" تصنيف الخليل بن أحمد، للمحقق الدكتور فخر الدين قباوة الذي صدر عام ١٩٨٥م، وقد كان صدور هذا الكتاب - كما يقول الباحث^(١١) - منيراً عند الباحثين وبخاصة أولئك الذين تعمقوا شخصية الخليل النحويّة من خلال كتاب سيبويه، إذ وجدوا بوناً شاسعاً بين شخصية الخليل في الكتاب في شتى جوانبها وشخصيته في كتاب الجمل المذكور. وهذا يدفع الباحثين - إذا ما ثبتت نسبته لخليل - إلى إعادة النظر في كل ما نقل عن الخليل، ويدفع أيضاً - كما يقول الباحث - إلى إعادة النظر في نحو البصريين كلّ ذلك النحو الذي يقوم في أساسه على نحو الخليل ويونس وسيبويه. ويذكر الباحث أن محقق الكتاب نفسه يذكر أن هذا الكتاب سيثير أمواجاً مختلفة من الآراء، لهذا فهو يدعو الباحثين لدراسته والتحقق منه والتثبت^(١٢). وقد جاءت دراسة الباحث تلبيةً لهذه الدعوة والتي تنفي نسبة هذا الكتاب إلى الخليل.

ثم شرع الباحث يقارن بين ما جاء في كتاب الجمل المنسوب إلى الخليل وآراء الخليل المبنوثة في كتاب سيبويه؛ لأن كتاب سيبويه هو الطريق المرشد إلى نحو الخليل ومنهجه. فذكر بداية المصطلحات التي وردت في الكتاب وقارنها مع ما جاء في كتاب سيبويه فوجد بوناً شاسعاً، ثم بعد ذلك شرع يذكر بعض المسائل النحوية، فذكر^(١٣):

- أن آراء الخليل المبنوثة في كتاب سيبويه ليس لها ذكر في الكتاب المنسوب إلى الخليل إلا الشيء اليسير.

- أن العلة النحوية في الكتاب المحقق علة ضعيفة وسطحية، بعيدة عن علل الخليل العميقة الواعية.
 - أن صاحب الكتاب المحقق ينقل عن الخليل نفسه، وعن الكوفيين، وعن تلاميذه: يونس وسيبويه^(١٤).
 - أن المصطلحات التي استخدمها صاحب الكتاب كوفية لا بصرية في معظمها، مثل^(١٥): الصرّف، والجحد، والصلة، لا الثبرنة، والنسق.
 - أن هناك قضايا نحوية قد اختلف فيها صاحب الكتاب عن الخليل بن أحمد، ومن هذه القضايا^(١٦): مسألة توجيه المعرف بأل المعطوف على ما قبله في النداء، ومسألة هذا جحر ضب خرب، ومسألة لا أبا لك.
- وخلص الباحث إلى النتيجة الآتية^(١٧): من خلال ما مرّ في هذا البحث يتبين أن الكتاب - كتاب الجمل - ليس للخليل بن أحمد النحوي، وإنما هو لنحوي ظهر بعد نضج النحو الكوفي أو بعد الفراء على الأقل بزمن قصير. والباحث لا يستبعد أن يكون هذا المؤلف من نحاة المدرسة البغدادية الذين ظهوروا في أواخر القرن الثالث الهجري، بعد انتهاء المدرسة البصرية والكوفية. إلا أن الباحث لا يعطي الدليل الذي يؤكد ذلك.
- وفي كل الأحوال، وعلى الرغم مما قيل في هذا الكتاب (كتاب الجمل) إلا أنه يبقى جهداً يضاف إلى الجهود النحوية التي تناولت النحو العربي بوجه عام، وما قدمه الخليل بن أحمد بوجه خاص. وليس هناك - عند النحاة - دليل قاطع يدل على أن كتاب الجمل ليس للخليل بن أحمد، وإن ما قيل في نفيه يعدّ من الاجتهادات. فعمل هذه القضية التي أتى بها الباحث الأستاذ الدكتور محمود مغالسة تخلق ما يردّ عليها: نفيًا أو إثباتًا.
- ولعلني أقول: إن إثبات هذا الكتاب أو نفيه لا يعدّ انتقاصاً من قدر الخليل، ففي كلا الحالتين فائدة:
- فقد يردّ تهمة عن الخليل.
 - وقد يثبت شيئاً عن الخليل.

ثانياً: جهود لغوية: وشملت:

- أ - الخلاف اللغوي بين يونس والخليل:
دراسة تحليلية نقدية وهو بحث علمي (رسالة دكتوراه- جامعة اليرموك، إعداد الباحثة: حنان أبو لبدة، ٢٠٠٣م): تناولت هذه الدراسة الخلاف بين يونس والخليل في القضايا اللغوية: الصوتية والصرفية، والقضايا النحوية، والقضايا الدلالية، وتناقشت الباحثة القضايا الآتية:
- التعريف بالشيخين: يونس والخليل، ومصادر ثقافة كل منهما، ومذهبهما في الدراسات اللغوية.
- أسباب الخلاف بين يونس والخليل.
- مظاهر الخلاف بين يونس والخليل في القضايا الصوتية الصرفية.
- مظاهر الخلاف بين يونس والخليل في القضايا النحوية.
- مظاهر الخلاف بين يونس والخليل في القضايا الدلالية.
- قيمة الخلاف وأثره في النحو العربي وتوجيهه من خلال الخلاف الوارد بين الشيخين في القضايا اللغوية.

ومن الأمثلة على الخلاف بين الشيخين، كما ذكرت الباحثة (١٨):

١- خلافهما في النسب إلى (أخت و بنت): فيونس يجعل النسب إليهما بإثبات التاء (أختي و بنتي)، أمّا الخليل فيجعل النسب إليهما كالنسب إلى (أخ) و(ابن): (أخوي و بنوي).

٢- خلافهما في الوقف على الاسم المنقوص في النداء: فالخليل يختار قول: (يا قاضي)، بينما يونس يختار قول: (يا قاض). وعليه يجد المرء نفسه أمام اختياريين كلاهما صحيح، فيختار ما يراه أسهل عليه.

وقد خلّصت الدراسة إلى النتائج الآتية:

- أن الخليل كان من رواد مذهب القياس، ويونس من رواد مذهب السماع. وأن هذا الخلاف في المذهب كان من أسباب الخلاف بينهما في القضايا اللغوية.
- كان للخليل أثرٌ في توجيه آراء البصريين، وفي أخذهم بالقياسات التي ابتدعها،

والاحتجاجات لها وتعزيزها في مصنفاتهم. وفي الوقت نفسه كان ليونس تأثير في توجيه آراء الكوفيين.

- أن للخلاف قيمة تتمثل بإغناء اللغة بالتراكيب والأساليب اللغوية التي تتيح الفرصة أمام مستخدمي اللغة ليختاروا ما يرونه ملائماً من بين هذه الأساليب التي أفرزها هذا الخلاف.

- أن للخلاف أثراً تعليمياً تدريبياً من خلاله يتمكن المتعلمون من الاطلاع على وجهة النظر الأخرى لتوضيح وجهة النظر التي سيأخذون بها أو ليعدلوا عنها؛ لأن الأخرى أسهل، أو لغير ذلك من الأسباب.

ومما أظهرته هذه الدراسة أن الخلاف بين هذين العلمين كان يمثل المراحل الأولى لظهور الخلاف اللغوي، وكان له أثر في توضيح جوانب الخلاف اللغوي في ما بعد هذه المرحلة. وأظهرت - كذلك - أن رغبة يونس دفعت في منافسة الخليل ليكون لنفسه مذهباً مغايراً لمذهب الخليل.

ثالثاً: جهود عروضية: وتشمل:

أ- الزحافات والعلل بين دوائر الخليل والمعنى: الرجز نموذجاً - دراسة فيزيائية وسمعية:

وهو بحث علمي (رسالة ماجستير - جامعة اليرموك ٢٠٠٤م، إعداد حسام العفوري)، وتعد هذه الدراسة في علم العروض التطبيقي تناولت الزحافات والعلل وتعلقها بالمعنى، وقد اتخذت بحر الرجز أنموذجاً في ذلك. واستندت الدراسة إلى نواح فيزيائية وسمعية. وهدفت إلى الكشف عن زحافات بحر الرجز وعلله، والولوج إلى الدرس الصوتي، وربط ذلك كله بالمعنى.

وقد ألقت هذه الدراسة الضوء على التفعيلة الناتجة من دائرة المجتلب التي حولها الخليل، رحمه الله، من أجل النسق اللفظي الموسيقي في بحر الرجز، وهذه التفعيلة الأصلية المتحوّلة منها: (عين مفا - - د - مستعلن)، والزحافات والعلل التي تطرأ عليها (علن مفا د - د - متعلن)، (عين مفا - د د -)، (عين مفا - - - مستعلن).

وجاءت هذه الدراسة في بابين: الباب الأول: الإطار النظري، والباب الثاني

الإطار التطبيقي. أمّا الباب النظري فشمّل:

الفصل الأول: وتضمّن:

- التمهيد ومصطلحات الدراسة.

- دوائر الخليل.

- بحر الرّجز.

- الزحافات.

- العِلل.

- العلم الفيزيائي والسمعي.

- التشابه بين الوزن الصرقي والوزن الشعري.

- الفرق بين القريض والرّجز.

الفصل الثاني: وتضمّن:

- العروض ماهيتها وصفاتها بين القديم والحديث.

- نور الأصوات الصّحيحة والمحوّلة في تشكيل المعنى.

وأما الإطار التطبيقي فشمّل:

- صور التحليلي الطّبيقي (النطقي والأكوستيكي).

- تطبيقات على التفعيلات الأصلية والمُحوّلة منها.

- تجليات الكلام الشعري فيها.

- الفصل الأول: مستفعلن مستفعل.

- الفصل الثاني: مستفعلن متفعلن مستعلن مستفعل.

- الفصل الثالث: الدلالات الموسيقية من لحظة الصّوت إلى إتمام المعنى.

ب - التسهيل في علمي الخليل: العروض والقافية:

وهو كتاب للأستاذ إياد إبراهيم الباوي، المعهد العالي لإعداد المعلمين، لبيبا،

ط ١، ٢٠٠٣، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، الأردن.

ويحتوي هذا الكتاب على موضعين رئيسيين، وهما:

- ١- علم العروض: ويشمل: تعريفه، والتفاعيل الشعرية، والكتابة العروضية، والزحافات والعلل، والبيت الشعري، وتعريف البحور الشعرية وأسماءها، ثم تدريبات على ما ذكر، والدوائر العروضية.
- ٢- علم القوافي: ويشمل: تعريف القافية، وأنواعها، وألقابها، وعيوبها، وتطبيق عام على ما ذكر.

وأما سبب تأليف هذا الكتاب فيذكر المؤلف^(١٩) أنه جاء رداً على الأصوات التي تدعو إلى السير في ركاب القصيدة النثرية، وكبت أنفاس القصيدة الموزونة بحجة عدم ملاءمتها لروح العصر، يقول مؤلف الكتاب: إنه نظراً لتردي الذائقة الأدبية في الوقت الحاضر بسبب الابتعاد عن عصور الفصاحة، وضعف الطلاب لدرجة نفورهم من هذا العلم فقد أدى بالمؤلف تيسير القول في علمي العروض والقافية، بأسلوب سلس واضح من خلال منهج علمي يقوم على التطبيق والتدريب. والناظر في الكتاب يجد أنه يتصف بكثرة الأمثلة والبعد عن التكرار، وهو يناسب الطالب، والمعلم، والناقد.

رابعاً: جهود صوتية: وتشمل:

- أ - المَخارج النُطْقِيَّة للأصوات اللُّغَوِيَّة في مَدْرَسَةِ التَّقْلِيَّاتِ الصَّوْتِيَّةِ الْمُعْجَمِيَّةِ: وهو بحث علمي قبل النشر في مجلة كلية الآداب - جامعة دمشق في: ٢٦/٤/٢٠٠٦م، إعداد: الدكتور منير شطناوي - الجامعة الهاشمية، والدكتور حسين الأسود العظامات - جامعة آل البيت).
- وفيه بين الباحثان أن مدرسة "التقليبات الصوتية" المعجمية تعدُّ باكورة التأليف المعجمي، ومصدراً للمعاجم من بعدها. ولما كانت هذه المدرسة تعتمد مخارج الأصوات وسيلةً لتصنيف مادتها المعجمية، فقد تناولت أشهر معاجمها وهما: "العين" للخليل، و"البارع" للقالبي، بالدراسة والتحليل والموازنة.

وبيّن الباحثان - أيضاً- أن ما جاء في مقدمة هذين المعجمين من وصف لمخارج الأصوات اللغوية، يكشف عن أنظار دقيقة تتفق وما توصل إليه علم الأصوات الحديث في مسائل كثيرة، كما يعدّ مصدراً أصيلاً من مصادر الدرس الصوتي ، وليس مجرد نقولات عن كتب اللغة.

إنّ الذي يهْمُنَا في هذه الدراسة مُعْجَم (العين) للخليل بن أحمد إذ بيّن الباحثان أنّ مقدمة كتاب العين تعدّ فاتحة الدرس الصوتي عند العرب، وقد أكدّ هذه الحقيقة كثير من العلماء المعاصرين. يقول أحمد قدور^(٢٠): "وهكذا انتهيت بعد طول الوقت ودوام التفكير - وقد بدأ اشتغالي بهذا الموضوع منذ سبع سنوات- إلى أن مدخل البحث في علم الأصوات عند العرب هو الكشف العلمي المنصف عن جهود الخليل في مقدمة كتاب العين انطلاقاً من أصالة هذه الجهود".

ومما بيّنه الباحثان -أيضاً- أنّ أول ترتيب سجلته معاجم اللغة للأصوات اللغوية وفق مخارجها، هو ترتيب الخليل بن أحمد في كتاب العين، فقد رتبها بدءاً من أعمقها مخرجاً. وبدأ له أن العين هي أدخل الأصوات وأعمقها بعد أن استثنى الهمزة لما يعتورها من تسهيل وإبدال وحذف فضلاً عن فقدانها لرسم يثبتها في الخط، وسمّى معجمه "العين" من باب تسمية الكل بالجزء. ولا يغضن من مقدمة معجم العين الصوتية ما أثير عن صحة نسبة العين للخليل؛ لأنّ المقدمة على وجه الخصوص هي مما أجمع العلماء على نسبتها للخليل.

يقول حلمي خليل:^(٢١) "وقد ناقش هذه القضية كثير من القدماء والمحدثين، وانتهوا إلى أن مقدمة كتاب العين هي من وضع الخليل... فهي بعقله أشبه وبما فيها من تحليلات لغوية إليه أقرب.

وكان مما توصل إليه الباحثان في هذه الدراسة، إيضاح المفهوم الدقيق لبعض المصطلحات التي أوردها الخليل والقالبي في وصف مخارج الأصوات، وكشف النقاب عن حقيقة بعض الأصوات اللغوية من خلال وصف مخارجها عندهما، بالإضافة إلى عقد موازنة بين ما أثبتته الخليل وما أثبتته القالبي في وصف مخارج الأصوات وترتيبها . وموازنة هذه الأنظار بمعطيات الدرس الصوتي الحديث ؛ لبيان

مدى أصالتها من جهة، وما بينهما من توافق وتخالف من جهة أخرى.

خامساً: جهود في التراجم: وتشمل:

أ - رسالة همزة أمحمد وكسر نون تونس وولاية الخليل بن أحمد، تصنيف قطب الأئمة (أمحمد) بن يوسف الملقب ب- (أطفيش) المتوفى سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م: دراسة وتحقيق الدكتور حسن الملح، جامعة آل البيت، نشرت في مجلة الحياة، وهي دورية فكرية يصدرها معهد الحياة في القرارة/الجزائر، عدد ٦، سنة ٢٠٠٢م. وفي هذه الدراسة تناول المؤلف^(٢٢) - كما يقول المحقق - سيرة العلامة الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي العماني الأصل والمولد، البصري الإقامة والنبوغ، إمام النحاة والعروضيين والمُعجّمين، وقد عالج موضوعين: الأول: عقيدة الخليل، والثاني: سيرة الخليل السلوكية في زهده، وورعه، وحكمته، وشهرته بالعلم والذكاء، وأقواله السيارة.

فمذهب الخليل - كما رجح قطب الأئمة^(٢٣) - المذهب الإباضي، ويستدل على ذلك بمجموعة من الأدلة، منها:

١- ولاية الشهرة: أنه -الخليل- مشهور في الخير: كل من عرفه يعرفه بخير، ومن جهله، فلا يقدح بجهله. فليس في سيرة الخليل ما يقدح في سلوكه الديني، لهذا ركز المصنف قطب الأئمة على بيان نقاء سيرة الخليل بن أحمد الفراهيدي.

٢- ثبوت عدم براءة الخليل من أئمة الإباضيين، وثبوت عدم توليه أئمة غيرهم، فقد كان زاهداً، متعقفاً، وكان الملوك يقصدونه ويعترفون إليه لينال منهم، فلم يكن يفعل^(٢٤).

٣- تولي الشيخ عمرو التلاتي الإباضي الخليل بن أحمد، رحمه الله. ويذكرُ محقق الرسالة^(٢٥): أنه لدى التحقق من هذه القضية -عقيدة الخليل- في المصادر والمطآن تبين أنه ثمة خلاف بين العلماء: قديماً وحديثاً في عقيدة الخليل، فعليه يكون مذهب الخليل واحداً من أربعة: المذهب الإباضي، أو المذهب الصفري، أو المذهب السني، أو المذهب الشيعي.

ويُرى المُحقِّقُ^(٢٦) أن هذا الاختلاف يبدو طبيعياً، لأن مكانة الخليل العلميَّة تجعله محلَّ استقطاب من الفرق كافة.

وإنني أوافق المُحقِّقَ هذا الرأي في عقيدة الخليل، وأوافقُه - أيضاً - في السَّبب الذي ساقه في سبب اختلاف هذه العقيدة.

وأما سيرة الخليل السلوكيَّة فقد أبرزت الرسالة صفات الخليل ومناقبه الدينيَّة في أفعاله وأقواله، فمن الأشياء التي ذكرها المُصنِّفُ^(٢٧): أن الخليل كان - رحمه الله - إماماً في العِلْمِ والعملِ والورعِ، وكان من أزهدي الناس نفساً، وأشدَّهم تعفُّفاً.

سادساً: ندوة الخليل بن أحمد الزاهيدي الدوليَّة:

إن هذه الندوة العلميَّة التي تتشرف جامعة آل البيت برعايتها والإشراف عليها، وإدارة شؤونها، تعدُّ من الجهود الأردنيَّة التي أولت العالم الجليل الخليل بن أحمد - رحمه الله - الاهتمام والرعاية، وإن الناظر في محاورها يرى مدى اهتمام العُلَماء والباحثين الأردنيين في شخصيَّة الخليل العلميَّة المتميِّزة في جوانب متعدِّدة: لغويَّة، ونحويَّة، وصوتيَّة، واجتماعيَّة، ورياضيَّة، وعروضيَّة.

الخلاصة

نَخْلَصُ من العَرَضِ السَّابِقِ لِلجُهُودِ الأَرْدُنِيَّةِ فِي دِرَاسَةِ الخَلِيلِ بنِ أحمَدِ الفَرَاهِيدِيِّ إِلَى النَتَائِجِ الأَتِيَّةِ:

أولاً: أَنَّ هُنَاكَ باحِثِينَ أَرْدُنِيِّينَ حَرَصُوا عَلَى دِرَاسَةِ عِلْمِ الخَلِيلِ بنِ أحمَدِ، وَجاءَ ذلكَ من خِلالِ رِسائِلِ عِلْمِيَّةٍ، وَأَبْحاثٍ مُحْكَمَةٍ، وَكُتُبٍ هادِفَةٍ، فَقدَ ذَكَرُوا الدَّورَ البارِزَ الَّذِي اضْطَلَعَ بِهِ الخَلِيلُ فِي وَضْعِ أُسُسِ عِلْمِ النُّحُوِّ وَقَوَاعِدِهِ، وَأَصُولِهِ، وَأَجْمَعُوا - كغَيرِهِمَ منَ عِلْماءِ العَرَبِيَّةِ - عَلَى أَنَّ الخَلِيلَ أَوَّصَلَ النُّحُوَّ العَرَبِيَّ إِلَى مَرَحَلَةِ النُّضْجِ وَالإِكْتِمَالِ. وَأَجْمَعُوا - أَيْضاً - عَلَى أَنَّ الخَلِيلَ يُعَدُّ المُؤَسِّسَ الحَقِيقِيَّ لِعِلْمِ العَرُوضِ العَرَبِيِّ، وَأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَلْفَ مُعْجَمًا يَحْفَظُ اللُّغَةَ وَيَحْصُرُهَا، وَتَمَثَّلَ ذلكَ فِي مُعْجَمِ العَيْنِ، وَبَيَّنَّ هَؤُلاءِ الباحِثُونَ أَنَّ الخَلِيلَ كانَ يَمْتازُ بِتَقافَةٍ لُغَوِيَّةٍ وَنُحُوِّيَّةٍ واسِعَةٍ، وَأَنَّ لَهُ مَعْرِفَةً واسِعَةً بِالمُوسِيقَى وَالإيقاعِ وَالنَّغْمِ، وَالْمَنْطِقِ وَالْحِسابِ جَعَلَتْهُ يَبْتَدِعُ عِلْمَ العَرُوضِ.

ثانياً: أَنَّ للخَلِيلَ فَضْلاً فِي إِرْساءِ أركانِ المَذْهَبِ البَصْرِيِّ منَ خِلالِ: حَصرِهِ دائِرَةَ السَّماعِ فِيمَنْ يُوَثِّقُ بِفِصاحَتِهِ مِنَ العَرَبِ، وَالقياسِ عَلَى الكَثْرَةِ، وَتَأويلِ الشَّاذِّ.

ثالثاً: أَنَّ هُنَاكَ - فِي كُتُبِ المُتَأخِّرِينَ - آراءٌ نُسِبَتْ للخَلِيلِ، وَلَمْ يَتَنَبَّأْ ناسِبُها منَ صِحَّتِها، فَجاءَ بَعْضُها غَيْرَ دَقِيقٍ، لِذا يَجِبُ التَّحَقُّقُ منَ كُلِّ ما نُسِبَ للخَلِيلِ فِي كُتُبِ الشُّرَاحِ وَالْمُحَقِّقِينَ.

رابعاً: أَنَّ الجُهُودَ الَّتِي بذَلْها الباحِثُونَ الأَرْدُنِيُّونَ فِي دِرَاسَةِ الخَلِيلِ بنِ أحمَدِ كانَتْ مُنْصَبَّةً عَلَى نُحُوِّ الخَلِيلِ. وَأَنَّ الجانِبِينَ: الصُّوتِيَّ وَالعَرُوضِيَّ لَمْ يَنالَا - بِرَأْيِي وَمنَ خِلالِ اسْتِقصائِي - ما نالَهُ الجانِبُ النُّحُوِّيَّ.

الحواشي.

- (١) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط٢، ١٩٧٩م، ج١ ص٥٥٧.
- (٢) مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي، جعفر عباينة، دار الفكر للنشر، عمان، ١٩٨٤م، ص٧.
- (٣) انظر: المرجع نفسه، الصفحات: ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨.
- (٤) انظر: مسائل خلافة بين الخليل وسيبويه، فخري صالح قدارة، دار الأمل للنشر والتوزيع، ط١، إربد، الأردن، ١٩٩٠م، ص٣٧، ٣٩، ٤٤، ٤٧، ٥١، ٥٣، ٥٦، ٥٩، ٦٣، ٦٨.
- (٥) مسائل خلافة بين الخليل و سيبويه، فخر صالح سليمان قدارة، ص٦٨.
- (٦) النساء، الآية ٧٨.
- (٧) الإسراء، الآية ١١٠.
- (٨) الكتاب، سيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مطبعة المنني، ١٩٩٢م، ج٣، ص٥٩، ٦٠.
- (٩) المصدر نفسه، ج٣، ص٥٩.
- (١٠) الخليل بن أحمد والكتاب، حنا حذاد، مجلة اللسان العربي، عدد ٤٦، سنة ١٩٩٨م، ص٢٠٢-٢١٣.
- (١١) انظر: نفي كتاب الجمل، محمود مغالسة، مجلة كلية الآداب، جامعة دمشق، عدد ٩، ١٩٨٧م، ص٩٢.
- (١٢) المصدر نفسه، ص٩٤-١١٤.
- (١٣) انظر: المصدر نفسه. وأبحاث في اللغة والنحو والقراءات، محمود حسني مغالسة، ص١٣٨-١٦٢.
- (١٤) انظر: الكتاب المحقق: الجمل في النحو، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: فخر الدين قباوة، ط١، ١٩٨٥م، فقد نقل عن نفسه في الصفحات الآتية على سبيل التمثيل: ص١١٥، ١٨١، ١٣٤. ونقل عن الكوفيين: ص٤٩. وعن يونس: ص٦١. وعن سيبويه، ص٢٨٨.
- (١٥) انظر: المرجع السابق، ص٦٨-٦٩، ٣٠٢، ٢٩٦، ٣٠٣، ٣٠٢، على الترتيب.
- (١٦) انظر: نفي كتاب الجمل، محمود مغالسة، مجلة كلية الآداب، جامعة دمشق، عدد ٩، ١٩٨٧م، ص٩٢-١١٤. وأبحاث في اللغة والنحو والقراءات، محمود حسني مغالسة، ص١٤٣-١٥١.

- (١٧) المرجع السابق، ص ١١٤.
- (١٨) انظر: الخلف اللغوي بين يونس والخليل: دراسة تحليلية نقدية، حنان أبو لبدة (رسالة دكتوراه- جامعة اليرموك، ٢٠٠٣م)، ص ٢٤٧، ٢٤٨.
- (١٩) انظر: التسهيل في علمي الخليل: العروض والقافية، إياد إبراهيم الباوي، المعهد العالي لإعداد المعلمين- ليبيا، ط ٢٠٠٣، ١م، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان-الأردن.
- (٢٠) أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة كتاب العين، أحمد محمد قنور، دار الفكر، دمشق ودار الفكر المعاصر، بيروت، ط ١، ١٩٩٨م، المقدمة، ص ٨. وقد أثبت الدكتور قنور مقدمة العين في أرجح نصوصها كتابه، كما أثبت بعض نقولات العلماء لها، كالزهري وأبي حيان الأنلسي. انظر: المرجع نفسه، القسم الثاني، ص ٨٦، ٩٧، ١٠٩.
- (٢١) انظر: مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي، حلمي خليل، دار النهضة العربية، ط ١، ١٩٩٧م، ص ١٢٧.
- (٢٢) تناول قطب الأئمة أطفيش في هذه الرسالة ثلاث قضايا: الأولى، همزة كلمة (أمحمد)، والقضية الثانية: كسر نون (تونس)، وأما القضية الثالثة-وهي موضوعنا في هذه الورقة البحثية، وهي الأساس في هذه الرسالة- فهي ولاية الخليل بن أحمد الفراهيدي. وقد جاءت الرسالة مُحَقَّقةً في ثلاثين صفحة، منها أربع وعشرون صفحة عن الخليل.
- (٢٣) رسالة همزة أمحمد وكسر نون تونس وولاية الخليل بن أحمد، تصنيف قطب الأئمة (أمحمد) بن يوسف الملقب ب- (أطفيش) المتوفى سنة ١٢٣٢هـ/١٩١٤م: دراسة وتحقيق الدكتور حسن الملح، جامعة آل البيت، نُشِرت في مجلة الحياة، وهي دورية فكرية يصدرها معهد الحياة في القرارة، الجزائر، عدد ٦، سنة ٢٠٠٢م، ص ٢٣، ٢٥، ٢٦، ٣٩، ٤٠.
- (٢٤) انظر: المصدر السابق، ص ٢٤، ٣٩.
- (٢٥) رسالة همزة أمحمد وكسر نون تونس وولاية الخليل بن أحمد، تصنيف قطب الأئمة (أمحمد) بن يوسف الملقب ب- (أطفيش)، ص ٢٤، ٢٥، ٢٦.
- (٢٦) المصدر السابق، ص ٢٦.
- (٢٧) انظر المصدر السابق، ص ٤٠. وهناك مناقب كثيرة ينكرها المصنف منها: أنه كان يغزو سنة ويحج سنة أخرى، وأنه أنكى للعرب، وأنه كان جامعاً للحديث، وغيرها: انظر: الصفحات من ٤٠ إلى ٦٠. وانظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط ٢، ١٩٧٩م، ج ١، ص ٥٥٧ و ٥٥٨.

المصادر والمراجع.

- القرآن الكريم.
- أبحاث في اللغة والنحو والقراءات، محمود حسني مغالسة، دار البشير، عمان، ط ١، ٢٠٠٢م، ص ١٣٥.
- أخبار النحويين ومراتبهم، الحسن بن عبد الله السيرافي، تحقيق: محمد إبراهيم البناء، دار الاعتصام، القاهرة، ط ١، ١٩٨٥م.
- أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة كتاب العين، أحمد محمد قدور، دار الفكر، دمشق ودار الفكر المعاصر، بيروت، ط ١، ١٩٩٨م.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط ٢، ١٩٧٩م.
- تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم، المفضل بن محمد، تحقيق: عبدالفتاح محمد الخلو، دار هجر، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٢م.
- التسهيل في علمي الخليل: العروض والقافية: إيراد إبراهيم الباي، المعهد العالي لإعداد المعلمين، ليبيا، ط ١، ٢٠٠٣، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان-الأردن.
- الخلاف اللغوي بين يونس والخليل: دراسة تحليلية نقدية، حنان أبو لبدة (رسالة دكتوراه - جامعة اليرموك، ٢٠٠٣م).
- رسالة همزة أمحمد وكسر نون تونس وولاية الخليل بن أحمد، تصنيف قطب الأئمة (أمحمد) بن يوسف الملقب ب- (أطفيش) المتوفى سنة ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م: دراسة وتحقيق حسن الملتخ، نشرت في مجلة الحياة، وهي دورية فكرية تصدرها معهد الحياة في القرارة، الجزائر، عدد ٦، سنة ٢٠٠٢م.
- الزحافات والعلل بين دوائر الخليل والمعنى: الرجز نموذجاً، دراسة فيزيائية وسمعية، حسام العفوري رسالة ماجستير، جامعة اليرموك ٢٠٠٤م.
- كتاب الجمل في النحو، تصنيف الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: فخر الدين قباوة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٨٥م.

- الكتاب، سيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مطبعة المدني، ١٩٩٢م.
- مسائل خلافة بين الخليل وسيبويه، فخري صالح قدارة، دار الأمل للنشر والتوزيع، ط١، إربد، الأردن، ١٩٩٠م.
- مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي، حلمي خليل، دار النهضة العربية، ط١، ١٩٩٧م.
- مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي، جعفر عباينة، دار الفكر للنشر، عمان، ١٩٨٤م.

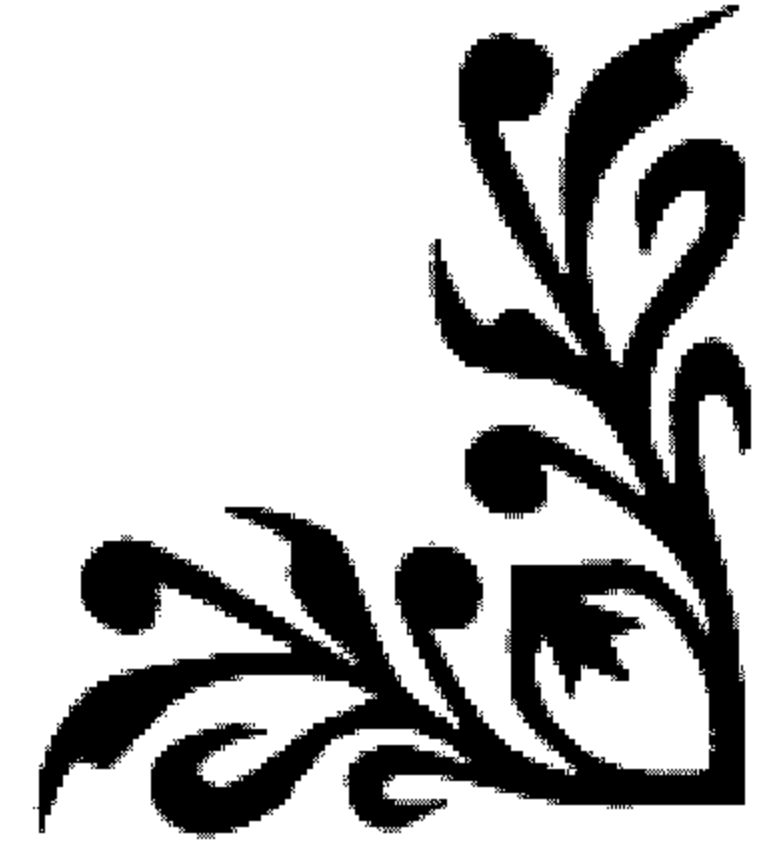
النوريات:

- مجلة كلية الآداب، جامعة دمشق، نفي كتاب الجمل، محمود مغالسة، عدد ٩، ١٩٨٧م، ٩٢-١١٤.
- مجلة كلية الآداب، جامعة دمشق، المَخارج النُطقية للأصوات اللغوية في مدرسة التقلبات الصوتية المعجمية، منير شطناوي، حسين الأسود العظامات، بحث علمي قبل للنشر بتاريخ: ٢٦/٤/٢٠٠٦م.
- مجلة اللسان العربي، الخليل بن أحمد والكتاب، حنا حداد، جامعة اليرموك، عدد ٤٦، سنة ١٩٩٨م.

جهود الخليل في العلوم العربية ودعاوى الأثر الأجنبي

١٩٨٥

أ. د. يحيى الجبوري
جامعة إربد الأهلية - الأردن



جهود الخليل في العلوم العربية ودعاوى الأثر الأجنبي

أ.د. يحيى الجبوري

ولد الخليل بن أحمد الفراهيدي في حدود سنة مائة للهجرة في عُمان من قبيلة الأزدي، وكان أبوه فيما يقال أول من سمي أحمد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١)، ونشأ نشأة عربية وتلقى العلوم عن شيوخ قبيلته الأزدي، وعرفت هذه القبيلة بأنها من الخوارج الإباضية، وكذلك كان الخليل، ولذلك كان فيما يقال يحج سنة ويغزو سنة^(٢)، وقد جُبل الخليل على حب العلم فحذبه البصرة التي كانت موطن العلم والحضارة والفصاحة، يؤم إليها العلماء والأدباء والشعراء من كل حذب وصوب، فحضر الخليل مجالس العلم في البصرة، وكان لقبيلته الأزدي مواطن فيها، بالإضافة إلى مشاركتها في فتوح العراق، فاستوطن عدد كبير من الأزديين في هذا المصر^(٣)، وقد استهوت البصرة الخليل لما فيها من بيوتات قبيلته، وما فيها من علم وعلماء، وحضر مجالس الدرس والعلم، وأخذ عن الأعراب الذين كانوا يفتنون إلى المربد، و كان يخرج كذلك إلى البادية فيأخذ عن أهلها، قال له الكسائي يوماً وكان يلزم مجلسه ويأخذ عنه: "من أين علمك هذا؟ قال: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة"، وكان حين قدم البصرة على قدر كبير من العلم والتحصيل، فنبه ذكره وعلا صيته في وقت قصير، ومن دلائل ذلك أنه حين حضر مجلس أبي عمرو بن العلاء أراد أن يناظره ثم أحجم عن ذلك فلما سئل عن سبب سكوته قال: "هو رئيس منذ خمسين سنة فخفت أن ينقطع فيفتضح في البلد فلم أكلمه"^(٤)، وفي سلوك الخليل هذا دلالة على خلقه الرفيع وتواضعه الجم والتزامه بأداب المجالس.

لقد علت منزلة الخليل وعرف بعلمه، فقصدته العلماء والمتعلمون ليأخذوا عنه، وعاش حياته في البصرة وغيرها زاهداً تقياً عفيفاً، عاش في خص صغير قانعاً من رزقه من غلة بستان ورثها، وأدامه كسرة خبز وحببات تمر، وكان غيره يكسبون بعلمه الأموال، وكان يقول: "إني لأغلق عليّ بابي فما يجاوزه همي"، فهو

يرى أن خير النخر العمل الصالح، وكثيراً ما كان ينشد قول الشاعر: (٥)
 وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد
 نخرأ يكون كصالح الأعمال
 وقد أرادته الولاة والرؤساء وأهدوا له الأموال الكثيرة فردها رغم فاقته،
 وأرسل له سليمان والي الأهواز مالا كثيراً على أن يذهب إليه ليؤدب ولده، فرفض
 الخليل ورد المال، وأخرج له خبزاً يابساً، وقال: ما تمت أجده فلا حاجة لي في
 سليمان، وقال للرسول (٦):

أبلغ سليمان إني عنه في سعة وفي غنى غير أنني نست ذا مال
 شحاً بنفسي أني لا أرى أحداً يموت هزلاً ولا يبقى على حال
 الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه ولا يزيـدك فيه حول محتال
 والفقر في النفس لا في المال تعرفه ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

وعرف علماء عصره ما امتاز به الخليل من علم وزهد وتقى وصلاح،
 فشهدوا له بذلك، يقول النضر بن شميل: "ما رأيت رجلاً أعلم بالسنة بعد ابن عون
 من الخليل بن أحمد"، وقوله في زهده وقناعته: "أكلت الدنيا بعلم الخليل بن أحمد
 وكتبه، وهو في خص لا يشعر به"، وقد سمعته يقول: "إني لأغلق عليّ بابي فما
 يجاوزه همّي، وقال أبو البركات الأنباري: "الخليل بن أحمد سيد أهل الأدب قاطبة
 في علمه وزهده، والغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو". أما سفيان
 ابن عيينة فقال: "من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك، فلينظر إلى
 الخليل بن أحمد" (٧). وعلى الرغم من شهادة العلماء وإعجابهم بالخليل وعلمه، فإن
 ما ذكر عن حياة الخليل وسيرته قليل لا يشفي الغلة. ولد الخليل سنة مائة وتوفي
 سنة مائة وأربع وسبعين أو مائة وخمس وسبعين من الهجرة (٨). ووصف بأنه كان
 أشعث الرأس، شاحب اللون، قشيف الهيئة متخرق الثياب، متقلع القدمين، عاش حياة
 بساطة أقرب إلى الفقر والفاقة، ولم يكن همه طيب العيش بل كان همه العلم، ولم
 يشغله شيء سواه، ويروى أنه كان يخرج من بيته لا يشغله شاغل غير التفكير
 بالعلم، فلا يشعر إلا وهو في الصحراء من غير قصد لها (٩). وقد عرف الخليل
 بذكاته الذي بهر من عاصره ومن جاء بعده، حتى غلا بعضهم فرووا عنه روايات

هي أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقيقة^(١٠).

ومواهب الخليل كثيرة في كل علم وفن، فقد برع بعلوم اللغة والموسيقى والمنطق والحساب، وتمتلت هذه البراعة في الكتب التي ألفها والفنون التي اكتشفها، ومن مواهبه أيضاً الشعر، فقد رويت له أشعار في الحكمة والزهد وبعض المناسبات تفصح عن نظر متأمل وذهن واع ناقد حكيم، و حفظت بعض الكتب التي ترجمت له شعره^(١١).

كتب الخليل:

صنف الخليل مجموعة كتب جاء ذكرها في المصادر التي ترجمت له^(١٢) هي:

- ١- كتاب العين: وسيرد الحديث عنه.
- ٢- كتاب النغم: وهو يعزز علم الخليل بالموسيقى، وألف كتاباً أخرى متعلقة بهذا الفن، وتأثر به وسار على نهجه إسحاق بن إبراهيم الموصلي الذي يقر باحتذائه خطي الخليل، فقد روي أنه: لما صنع إسحاق بن إبراهيم الموصلي كتابه في النغم واللحن يقول، عرضه على إبراهيم بن المهدي، فقال له: أحسنت يا أبا محمد، وكثيراً ما تحسن، فقال إسحاق: بل أحسن الخليل لأنه جعل السبيل إلى الإحسان^(١٣).
- ٣- كتاب النغم: وهو من أثر علم الخليل بالموسيقى، ولعله قسم من كتاب النغم.
- ٤- كتاب العروض: ويتضمن أوزان الشعر والدوائر العروضية التي ابتكرها.
- ٥- كتاب النقط والمصاحف: ويتضمن طريقة الخليل في تيسير النقط إذ جعلها صور الحروف، فالضمة واو صغيرة في أعلى الحرف، والكسرة ياء صغيرة تحت الحرف، والفتحة ألف مبطوحة فوق الحرف، وكذلك ابتكر علامات الشكل الأخرى، وهي: الهمز والتشديد والروم والإشمام^(١٤)، وقد اقتدى به مجموعة من المؤلفين الذين ألفوا في النقط و نهجوا نهجه^(١٥).
- ٦- كتاب الشواهد: ولعلها الشواهد التي أخذها عن الأعراب.
- ٧- كتاب في العوامل: أي العوامل النحوية، وقد شكك اللقظي في نسبة الكتاب إلى الخليل وزعم أنه منقول عليه^(١٦).

٨- كتاب الجمل: وهو كتاب فيما يبدو يتعلق بأحوال الجملة العربية في النحو، وإن لم يعرف أن الخليل ألف كتاباً في النحو.

٩- كتاب فائت العين: وهو استدراك لما فاته من كتاب العين، ولعله مما نسب إليه، لأن الخليل لم يضع كتاب العين كاملاً فكيف يستدرك عليه.

١٠- كتاب المعنى: وهو كتاب في الألفاظ، وكان الخليل أول من وضع هذا الفن كما يقول ابن نباتة، وقد أوضح المراد فيه بقوله: "عمي الأمر إذا التبس، وعميت معنى البيت من الشعر إذا أخفيت، ومنه المعنى اللغز، والمراد هنا حروف يصطلح عليها الكاتب مع نفسه ويكتب بها، ويسمى الآن المترجم، ولها طرائق مذكورة تعين على استخراجها، وأول من وضعها الخليل^(١٧).

كتاب العين وموقف العلماء منه:

حين ظهر كتاب العين في البصرة شخصت إليه الأبصار فهو معجم جليل لعالم جليل هو الخليل، ونظر العلماء فيه فوجدوا في بعض صفحاته تداخلاً في المواد وأغلاطاً وروايات عن علماء تأخروا عن زمن الخليل، ورأوا أن هذه الأغلاط لا يمكن أن تفوت على الخليل، فهو أجل مما تتسبب إليه هذه الأوهام، ورفض بعضهم نسبة الكتاب إليه، ومن هؤلاء أبو حاتم السجستاني وأبو علي القالي، يقول السيوطي موضحاً أحوال العلماء حيال كتاب العين: "لما ورد كتاب العين من بلد خراسان في زمن أبي حاتم، أنكره أبو حاتم وأصحابه أشد الإنكار، ودفعه بأبلغ الدفع، وقد غير أصحاب الخليل بعد مدة طويلة لا يعرفون هذا الكتاب ولا يسمعون به، منهم: النضر بن شميل، ومؤرج، ونصر بن علي، وأبو الحسن الأخفش، وأمثالهم، ولو أن الخليل ألف الكتاب لحمله هؤلاء عنه، وكانوا أولى بذلك من مجهول الحال (أي الليث بن مظفر) غير مشهور في العلم، تفرد به، وتوحد بالنقل له، ثم درج أصحاب الخليل فتوفي النضر بن شميل سنة ثلاث ومائتين، والأخفش سنة خمس عشرة ومائتين، ومؤرج سنة خمس وتسعين ومائة، ومضت مدة طويلة، ثم ظهر الكتاب بأخرة في زمان أبي حاتم وفي حال رياسته، وذلك فيما قارب الخمسين والمائتين، لأن أبا حاتم توفي سنة خمس وخمسين ومائتين، فلم

يُنقّت أحد من العلماء إليه يومئذ، ولا استجازوا رواية حرف منه، ولو صح الكتاب عن الخليل لبدر الأصمعي واليزيدي وابن الأعرابي وأشباههم إلى تزيين كتبهم، وتحلية علمهم بالحكاية عن الخليل والنقل لعلمه، وكذلك من جاء بعدهم كأبي حاتم وأبي عبيد ويعقوب (أي السكيت)، وغيرهم من المصنفين، فما علمنا أحداً منهم نقل في كتابه عن الخليل من اللغة حرفاً^(١٨).

وعلى الرغم مما يعترى هذه الرواية من هنات، فإنها تمثل وجهة نظر الذين أنكروا أن يكون الكتاب للخليل لما فيه من أخطاء ولوهام من عبث الوراقين، وهذه النسخة التي وقعت بأيدي هؤلاء العلماء هي من النسخ الرديئة التي عراها النقص والخطأ والتصحيف، ويجلّ عن مثلها الخليل، ثم إن الكتاب جاء برواية الليث بن مظفر وهو رجل لم يكن معروفاً لدى علماء عصره.

ويرى فريق من العلماء أن الكتاب للخليل رسمه ولكنه لم يحسنه فحشاه من بعده، فأوقع فيه التصحيف والتحريف والأغاليط، مما يجلب عنها الخليل، ومن القائلين بهذه المقولة: أبو العباس ثعلب، والأزهري الذي يوضح ذلك بقوله: "ولم أرَ خلافاً بين اللغويين أن التأسيس المجل في أول كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد، وأن ابن المظفر (أي الليث) أكمل الكتاب عليه بعد تلقفه الكتاب من فيه"^(١٩).

وفريق ثالث من علماء اللغة أقر أن الكتاب للخليل واحتفلوا به وأكبروه، كالزجاجي والمبرد وابن درستويه، قال السيوطي: "وقديماً اعتنى به العلماء وقبّله الجهابذة، فكان المبرد يرفع من قدره، ورواه أبو محمد بن درستويه، وله كتاب في الرد على المفضل بن سلمة فيما نسب إليه من الخلل، ويكاد لا يوجد لأبي إسحاق الزجاجي حكاية في اللغة إلا منه"^(٢٠)، وحتى العلماء الذين نقدوا الكتاب وشككوا في نسبته إلى الخليل يعودون ويقررون صحة نسبته إلى الخليل في مواضع من كتبهم كالأزهري^(٢١)، الذي يقرّ أن كتاب العين أشرف كتب اللغة وأعلاها، يقول: "وبناء الأمر في سائر ما ذكرناه على كتب مشتهرة عالية تحوي أكثر اللغة، فأعلاها، وأشرفها كتاب أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد، المسمى كتاب العين"^(٢٢).

ونخرج من كل ذلك أن تباين النظرة إلى كتاب العين من لدن العلماء سببه نسخ الكتاب التي دخلها الوهم والخطأ والتصحيف والتحريف، ولو وقعت في أيديهم نسخته الأصلية السليمة لما وقع بينهم هذا الخلاف، ولو تُسّقوا الكتاب وما شكوا بنسبته إلى الخليل، ولم يشك أحد في نسبة كتب الخليل الأخرى إليه مثل كتاب العروض وآرائه في النحو التي تضمنها كتاب سيبويه وغيره.

لقد بلغ الخليل الذروة في المنجزات العلمية، وصارت البصرة تفخر بعالمها الفذ الذي ملأ القلوب والأسماع وهو في خص لا يشعر به أحد، لم يتقرب إلى وال أو سلطان على كثرة من أرادوه، وقنع بالكفاف، وعلى الرغم من كثرة من كان من المعجبين به من أهل زمانه، وقد كان هناك من حسده وانتقص من شأنه، ولكن أولئك كانوا يعودون ثانية إلى الإقرار بمواهب الخليل وفضله على العربية.

دعاوى الأثر الأجنبي:

وفي عصرنا الحديث قرأ القارئون ودرس الدارسون حياة الخليل وفكره فمنهم - وهم الكثرة المنصفة- من أكبر الخليل وعلم الخليل، ومنهم من وقف منه موقف الناقد المتعنت الذي كبر عليه أن يكون علم الخليل عربياً أصيلاً، فدعته نفسه أن يعزو هذا الفضل إلى الأثر الأجنبي الفارسي والهندي واليوناني والسرياني، وقال بذلك بعض المستشرقين وتابعهم بعض العرب ممن وقر في نفوسهم أن العلم والعبقريّة سليفة في الأمم الأجنبية ومحرومة منها الأمة العربية. وللنظر لما تقول المتقولون في هذا الزمان عن الخليل وعلمه، وكيف نسبوا كل خير إلى الأثر الأجنبي وركبوا في ذلك الأوهام وتعثروا بأغاليط يفضحها الفحص والتحصيص.

لقد نظر هؤلاء إلى وجود الأعاجم في البصرة فعزوا كل فكر وإبداع إليهم، وجعلوا كل عربي مبدع متأثراً بالفكر الأجنبي والأثر الأعجمي، وافترض المستشرق دي بور أن وجود ابن المقفع في البصرة سبب في نشر الثقافة الفهلوية، ووجود حنين ابن إسحاق في البصرة سبب في نشر الثقافة اليونانية، وافترض هذه الافتراضات دون دليل، يقول دي بور إن ابن المقفع: يُسر للعرب الاطلاع على كل ما كان في اللغة الفهلوية من أبحاث لغوية ومنطقية^(٢٣)، وإن حنين بن إسحاق وابنه إسحاق بن

حين يسرا للعرب الإطلاع على الفكر اليوناني بما ترجما من علوم ذلك الزمان^(٢٤)، ومعنى هذا أن كل فكر عربي مأخوذ ومتأثر بالثقافات الأجنبية ولا مجال للعرب للتفكير والإبداع الذاتي، لأن هذه الأمم الأجنبية تفوق العرب حضارة إلى درجة لا تقبل القياس كما يقول بارتولد^(٢٥)، وهذا يعني أن كل أفراد المجتمعات الأجنبية أرقى من كل المجتمعات العربية، ولا يشذ أحد من العرب أن يكون له ذهن مبدع، ويزعم بارتولد أن العلوم الإسلامية التي نشأت في الكوفة والبصرة كانت بفعل الأعاجم الذين أسلموا، وحتى العلوم العربية التي نشأت في هاتين المدينتين كانت بفعل الأعاجم يقول: نشأت في كلتا المدينتين مدرسة للنحويين واللغويين، فكانت مجادلات ومناقشات بين البصريين والكوفيين، ولكن لم يكن أكثر هؤلاء الواضعين للعلوم العربية أيضاً من العرب، بل كانوا أعاجم^(٢٦)، وحتى كتاب العين الذي ابتدعه الخليل يريد أن يجرده من الأصالة العربية ويجعله متأثراً بالفكر اليوناني، وما دام الخليل قد ألف كتابه في خراسان فلا بد أن يكون متأثراً بالفكر اليوناني، يقول بارتولد: "رتب الخليل بن أحمد، وهو رئيس البصريين قاموساً للغة العربية، وتعتمد الكتب العلمية والأصطلاحية التي ألقت في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) على كتاب الخليل، ألف الخليل كتابه المذكور في خراسان، ويتضح من هذا القاموس تأثير اليونان في علوم العرب"^(٢٧) وهذا الزعم الذي ينقصه الدليل لو كان خرج من فم عربي لقامت الدنيا ولم تقعد، ولكنه جاء من فم أجنبي فصدقته من صدقه ممن كتب عن الخليل من المتأثرين بهذا الزعم الباطل. ونسي بارتولد ومن تابعه أن العلماء- والكلام لأستاذنا مهدي المخرومي- الذين كانوا أعاجم على حد قول بارتولد، لم يكونوا هم الواضعين للعلوم العربية، ولم يكونوا إلا تلامذة للخليل بن أحمد أستاذ الجيل، ونايغة العصر، وعبقري البصرة، عنه أخذوا، وله تلمذوا، وبه تخرجوا، وإليه ينسب ما كان لهم من علم^(٢٨).

والناظر في كتاب العين يجده عربياً صرفاً ليس فيه تأثر أجنبي فارسي أو يوناني سواء في رسمه وتخطيطه أو في وضعه ومائته، ولم يكن للفرس أو اليونان كتاب يماثله حتى يحتديه الخليل، وليس هناك دليل على أن الخليل وقف على كتاب

يوناني من هذا الضرب، وحتى لو وجد، فكيف عرف به الخليل وهو لا يعرف من اليونانية حرفاً، ولم يترجم لليونان كتاباً في اللغة أو المعاجم^{٣١}، ولماذا تفرد الخليل كما زعموا بالوقوف على آثار اليونان أو غيرهم، ولم يقف آخرون ممن صحبوا الخليل وعاصروه؟^(٣١).

وأراد بعضهم أن يلصق بالخليل تأثيره بالفهلوية واليونانية لمجرد أن ابن المقفع عرف الخليل ولقيه مرة واحدة، ولم يكن ملازماً له على ما يزعم دي بور، فإن ابن المقفع سمع بالخليل ووقف على علمه، وأراد أن يجتمع إليه، وقد هياً لهذا الاجتماع بعض أصحاب الخليل: "فتذكرا ليلة تامة، فلما افترقا سئل ابن المقفع عن الخليل فقال: رأيت رجلاً عقله أكثر من علمه، وقيل للخليل: كيف رأيت ابن المقفع؟ فقال: رأيت رجلاً علمه أكثر من عقله"^(٣١)، ويريد القائلون بصلة ابن المقفع بالخليل أنه تأثر بمنطق أرسطو الذي ترجمه ابن المقفع إلى العربية واطلع الدارسون العرب ومنهم الخليل على ما فيه من أبحاث لغوية ومنطقية، ولكن ابن المقفع لم يترجم منطق أرسطو بل الذي ترجمه ابنه محمد بن عبد الله بن المقفع كما ذهب الأستاذ بول كراوس، وعلى هذا فإن مذهب الخليل في النحو قد رسمت حدوده وبنات معالمه قبل ظهور هذه الترجمة ودون أن يتأثر بها، لأن منطق أرسطو لم يترجم إلى العربية في حياة الخليل^(٣١)، يعزز ذلك ما ذهب إليه المستشرق ليمان من أن النحو العربي أثر من آثار العقل العربي، وأن العرب: قد ابتدعوا علم النحو ابتداءً، وأنه لا يوجد في كتاب سيوييه إلا ما اخترعه هو والذين تقدموه^(٣٢).

وذهب القائلون بالأثر الأجنبي في الدراسات العربية إلى أن حنين بن إسحق ترجم منطق أرسطو والكتب اليونانية، فتأثر بها الخليل في أعماله، وكان حنين فيما زعموا صديقاً للخليل، وأخذ عنه العربية، والذين ذهبوا إلى هذه المقولة بعض الدارسين العرب المنحازين إلى الأثر الأجنبي في كل العلوم العربية، وكان أول القائلين بهذا هو الأستاذ أحمد أمين الذي يقول: "إن حنيناً ذهب إلى بلاد الروم، وأجاد تعلم اليونانية، ثم عاد إلى البصرة، ولازم الخليل بن أحمد وأخذ عنه العربية، ويروون أنه حمل كتاب العين المنسوب للخليل إلى بغداد"^(٣٣).

وكذلك يرى الدكتور إبراهيم مذكور أن حنين بن إسحاق كان معاصراً للخليل وسيبويه: "وقد تعلم العربية في سن متقدمة، وعانى منها ما عانى، ومن اليسير أن نتصور أنه قد تبادل فيما تبادل مع الخليل بعض القواعد النحوية"^(٣٤)، والدكتور مذكور هنا يفترض افتراضات من غير دليل، فهو يتصور أن حنيناً تبادل مع الخليل بعض القواعد النحوية.

وكذلك يذهب مصطفى نظيف فيفترض أن الخليل تأثر بالعلوم المنقولة عن اليونان لأن حنين بن إسحاق تعلم العربية على الخليل^(٣٥). وسار على هذا النهج بطرس البستاني الذي يزعم أن علم الخليل صورة من صور علوم اليونان^(٣٦)، وقد استند إلى رواية ملفقة لا يقبلها العقل، وبنى عليها معرفة الخليل باللغة اليونانية وإتقانها، والرواية رويت في معرض الإشادة بنكاء الخليل وعلمه، فزعموا أن ملك اليونان كتب إلى الخليل كتاباً باليونانية، فخلا بالكتاب شهراً حتى فهمه، فقيل له في ذلك، فقال: قلت أنه لا بد من أن يكون ملك اليونان قد افتتح الكتاب باسم الله، أو ما شابه ذلك، فبنيت أول حروفه على ذلك فاقتاس لي، فكان هذا هو الأصل الذي عمل له الخليل كتاب المعنى^(٣٧).

وما بناء هؤلاء الدارسون من صلة حنين بالخليل وتأثر الخليل بما ترجمه حنين من الفكر اليوناني ينهار ويتهاوى إذا علمنا أن حنيناً لم يدرك حياة الخليل وأن الخليل توفي قبل أن يولد حنين بنحو تسعة عشر عاماً، وبشهادة الأستاذ أحمد أمين نفسه الذي يحدد ولادة حنين سنة ١٩٤هـ، ووفاته سنة ٢٦٤هـ، وأن الخليل ولد سنة ١٠٠هـ وتوفي سنة ١٧٥هـ^(٣٨).

وكان لهذا الوهم من صلة حنين بالخليل أصل جاء عن ابن جلجل (ت ٣٨٤هـ)، وتابعه من تابعه من القدامى والمحدثين، فقد ذكر في ترجمته لحنين بن إسحاق قوله: "كان عالماً بلسان العرب، فصيحاً باللسان اليوناني جداً، بارعاً في اللسانين بلاغة بلغ بها تمييز علل اللسانين، ونهض من بغداد إلى فارس، وكان الخليل بن أحمد النحوي رحمه الله بأرض فارس، فلزمه حنين حتى برع في لسان العرب، وأدخل كتاب العين بغداد، ثم اختير للترجمة وأوتمن عليها"^(٣٩). وقد تتبع

الأستاذ المخزومي^(٤٠) من وقع في هذا الوهم متأثراً بابن جلجل فنكر جمال الدين القفطي (ت ٦٤٦ هـ)^(٤١)، وابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨ هـ)^(٤٢) ونقل هذان مقولة ابن جلجل نصاً. ثم بنى المحدثون على هذا الوهم من صلة حنين بالخليل آراءهم من تأثر الخليل بالفكر اليوناني، وكان لرأي المستشرق دي بور الذي يقول بالأثر اليوناني في العلوم العربية الأثر الواضح في كتابات المعاصرين من مثل الأستاذ مذكور والآخرين، إذ يزعم دي بور أن: "سبق أهل البصرة إلى الانتفاع بالمنطق لم يكن محض اتفاق، لأن تأثير المذاهب الفلسفية ظهر في البصرة قبل ظهوره في غيرها، وكان بين نحاة البصرة كثير من الشيعة والمعتزلة الذين فسحوا السبيل للحكمة الأجنبية لكي تؤثر في مذاهبهم الكلامية"^(٤٣).

وتابع الأستاذ مذكور رأي دي بور ووسّعه بحيث لم يقف التأثير عند الفقه والكلام والفلسفة بل تعداها إلى النحو. وقد يصح هذا القول إذا كان المقصود به تأثر النحاة المتأخرين، وخاصة نحاة القرن الرابع الذين مهدوا السبيل لتأثر النحو بالمنطق والفلسفة، واستعاروا للنحو كثيراً من مصطلحات المنطق، واتخذوا القياس والتعليل من أصول الدرس النحوي، أما أن يُسحب هذا الفرض إلى زمن الخليل، فهذا فرض لا دليل عليه.^(٤٤)

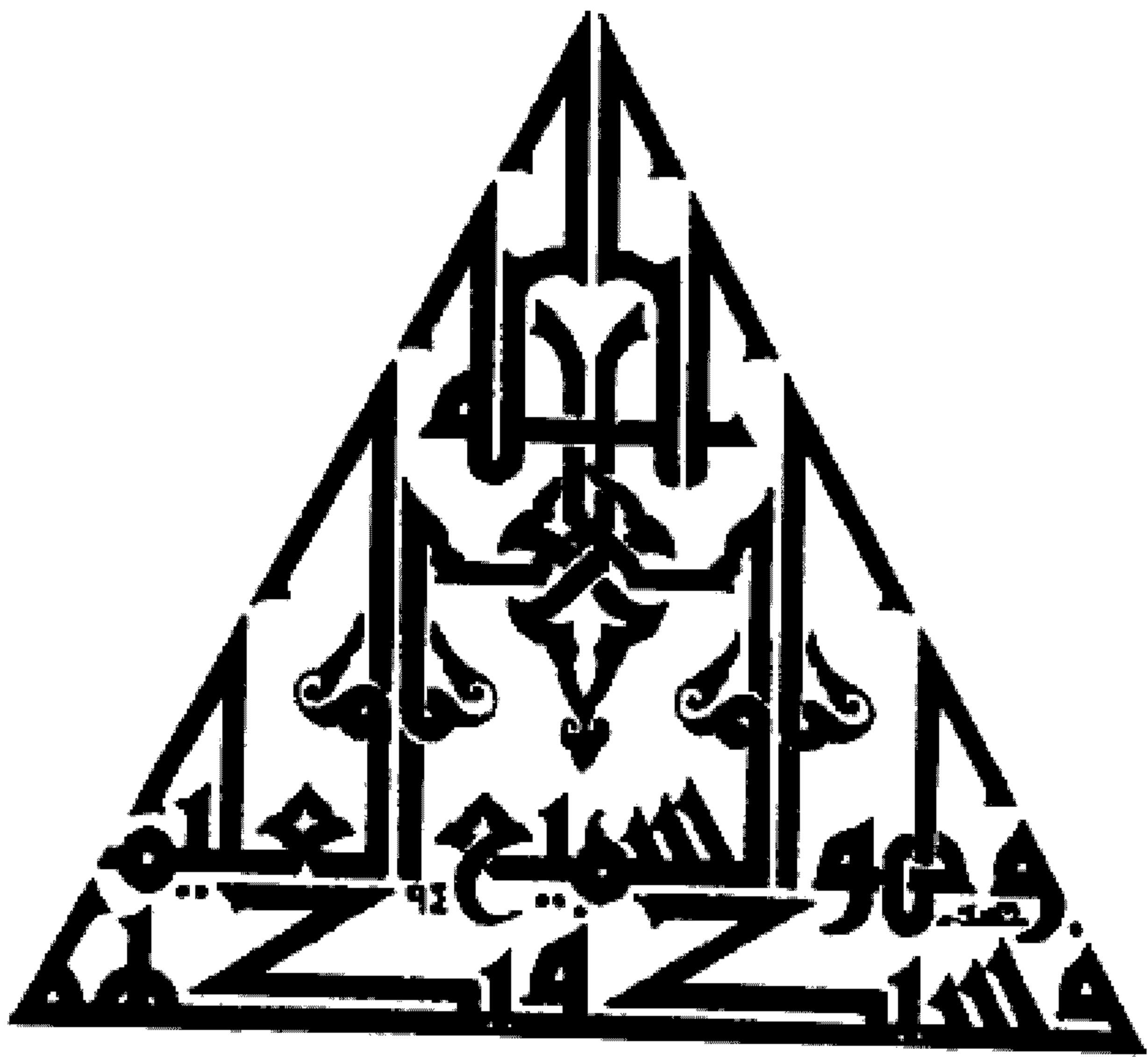
إن الخليل بن أحمد شخصية علمية متميزة، له فكر نير وعقلية نادرة متميزة، استطاع بعبقريته الفذة أن يبتكر معجم العين وفق أصول غير مسبوقة، وأن يكتشف الدوائر العروضية بما وهب من حسّ نادر في الإيقاع والموسيقى، واستطاع أن يقعد النحو العربي والصرف بما رسم لسيبويه، فضمن هذا أفكار الخليل وسار على نهجه فظهر الكتاب حاملاً اسم سيبويه وفق تنظير الخليل ورسمه. وكان الخليل أعجوبة من أعاجيب زمانه ذكاء وفطنة وسعة اطلاع ودقة ملاحظة، وكان يونس بن حبيب يقول: "إن الخليل كان يستدل بالعربية على سائر اللغات ذكاء منه وفطنة"^(٤٥)، ويقول خلف الأحمر واصفاً موهبة الخليل وعلمه: "كان أفرس الناس ببيت شعر، وأصدقهم لساناً، كنا لا نبالي إذا أخذنا عنه خبراً، أو أنشدنا شعراً أن لا نسمعه من صاحبه"^(٤٦). وقد كبر على بعض الباحثين أن يروا هذه العقلية الفذة، وهذا الكشف

والإبداع معزواً إلى عربي مسلم، فأرادوا أن يجرّدوا هذه العبقرية من أصلاتها وينسبوا فضلها للأثر الأجنبي من يونان وسريان وصينيين وهنود، وفق افتراضات وتكهنات، من غير حجة بيّنة أو دليل مقنع، رحم الله الخليل على سيرته النقية النقية الكريمة الزاهدة، وعلى علمه الذي ملأ الأفاق، وكان سبباً من أسباب عزّ العربية وانتشارها وخلودها.

الحواشي:

- (١) وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٤٨. وترجمة الخليل في: بغية الوعاة، ج ١، ص ٥٥٧-٥٦١. نزهة الألباء، ص ٢٧-٣٠. طبقات النحويين، ص ٤٣-٤٧. النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٣١١. مرآة الجنان، ج ١، ص ٣٠٣. شفرات الذهب، ج ١، ص ٢٧٥. تهذيب التهذيب، ج ٢، ص ١٦٣-١٦٤. وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٤٤-٢٤٨. ط. إحسان عباس.
- (٢) أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، ص ٣٠.
- (٣) ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣١.
- (٤) نور القبس ص ٦٧. مرآة الجنان، ج ١، ص ١٦١.
- (٥) وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٤٨. والبيت للأخطل في ديوانه، ص ١٥٨.
- (٦) وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٤٦. طبقات الشعراء لابن المعتز، ص ٩٨.
- (٧) ينظر مصادر ترجمته السابقة.
- (٨) إنباء الرواة، ج ١، ص ٣٤٦. طبقات النحويين واللغويين، ص ٤٧.
- (٩) الشريشي، شرح مقامات الحريري، ج ٢، ص ٢١٣.
- (١٠) ينظر عن نكاته الروايات التي جاءت في: بغية الوعاة ص ٢٤٤، طبقات النحويين واللغويين ص ٤٧، طبقات الشعراء ص ٩٦.
- (١١) ينظر: طبقات النحويين واللغويين ص ٤٤، أخبار النحويين البصريين ص ٣٠، طبقات الشعراء لابن المعتز، ص ٩٨.
- (١٢) للفهرست ص ٦٥، معجم الألباء، ج ١١، ص ٧٤-٧٥. وفيات الأعيان، ج ٢، ص ١٧. إنباء الرواة، ج ١، ص ٣٤٦. بغية الوعاة، ص ٢٤٥. وانظر جعفر عباينة: مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي ص ٣١-٣٤، ط دار الفكر، عمان ١٩٨٤ م.
- (١٣) طبقات النحويين واللغويين، ص ٤٦.
- (١٤) المحكم في نقط المصاحف، أبو عمرو الداني، ص ٦-٧.
- (١٥) المحكم في نقط المصاحف، ص ٩.
- (١٦) إنباء الرواة، ج ١، ص ٣٤٦.
- (١٧) سرح العيون، ص ١٨٤.
- (١٨) المزهرة السيوطي، ج ١، ص ٨٤.
- (١٩) تهذيب اللغة (المقدمة)، الأزهر، ج ١، ص ٤١.
- (٢٠) المزهرة، ج ١، ص ٥٣.

- (٢١) تهذيب اللغة، ج ١، ص ٥٣. والنديم، الفهرست، ص ٦٤. وابن فارس، المقاييس، ج ١، ص ٢.
- مجل اللغة، ج ١، ص ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، الصاحبى، ص ٤٧-٤٨.
- (٢٢) المقاييس، ج ١، ص ٣.
- (٢٣) دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص ٣٨.
- (٢٤) تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص ٢٥.
- (٢٥) المرجع السابق، ص ٢٨.
- (٢٦) المرجع السابق، ص ٣٨.
- (٢٧) المرجع السابق، ص ٣٨-٣٩.
- (٢٨) الفراهيدي عبقرى من البصرة، ص ٨٧.
- (٢٩) المرجع السابق والصفحة.
- (٣٠) طبقات النحويين واللغويين، ص ٤٥.
- (٣١) الفراهيدي، عبقرى من البصرة، ص ٨٨.
- (٣٢) الخليل بن أحمد، عبد الحفيظ أبو السعود، ص ٦٩. وهو رأي أملاه الأستاذ ليتمان على طلابه في قسم اللغة العربية بكلية الآداب - جامعة القاهرة.
- (٣٣) ضحى الإسلام، ج ١، ص ٢٨٣ الطبعة الثامنة.
- (٣٤) بحث بعنوان: منطق أرسطو والنحو العربي فتمه الدكتور منكور إلى مؤتمر مجمع اللغة العربية المنعقد سنة ٤٨ - ١٩٤٩ م.
- (٣٥) محضر الجلسة السابعة لمؤتمر مجمع اللغة العربية سنة ٤٨ - ١٩٤٩ م.
- (٣٦) دائرة معارف البستاني، ج ٧، ص ٤٦١.
- (٣٧) طبقات النحويين، الزبيدي، ص ٤٣-٤٤.
- (٣٨) ضحى الإسلام، ج ١، ص ٢٨٣-٢٨٤. ووفاء حنين في وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢١٨، سنة ٥٢٦٠، وكذلك في: الفهرست، ص ٣٥٢.
- (٣٩) طبقات الأطباء والحكماء، ص ٦٨، ٦٩.
- (٤٠) الفراهيدي عبقرى من البصرة، ص ٩١.
- (٤١) أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١١٨.
- (٤٢) في عيون الأنبياء، ج ١، ص ١٨٤.
- (٤٣) تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص ٣٨.
- (٤٤) المخزومي، السابق، ص ٩٢.
- (٤٥) ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص ٩٦.
- (٤٦) ابن سلام، طبقات الشعراء، ج ١، ص ٢٣.



**الخليل بن أحمد وأثره في اللغة
والأدب العبريين**

١٩٩٥

د. سلوى ناظم
جامعة الملك سعود - السعودية



الخليل بن أحمد وأثره في اللغة والأدب العبريين

د. سلوى ناظم

المقدمة:

لا يستطيع الدارس لعلم اللغة والأدب العبريين التغاضي عن الأثر العربي الذي يطبع هذا العلم بطابعه، يرسم له بداياته، ويحدد مصطلحاته، ويقدم له المنهج والنظرية التي يسير عليها. فمن الثابت أن النموذج العربي كان هو النموذج المحتذى، وأن النحاة والأدباء العرب كانوا هم الرواد الذين تتلمذ عليهم النحاة والأدباء اليهود، وأن المؤلفات العربية كانت هي المصادر التي تعلموا منها، ثم أصبحت هي المثال الذي ألفوا على غرار، فأخذوا عنها المنهج، والمصطلح، واستشهدوا بها، واقتبسوا منها.

هذا بالإضافة إلى حقيقة هامة وهي أن اليهود الذين عاشوا في البلاد العربية في فترة القرون الوسطى التي شهدت نهضة شاملة في كافة مجالات الحياة اليهودية كانوا قد استخدموا اللغة العربية في كتابة إنتاجهم الفكري فيما عدا الشعر⁽¹⁾.

فإذا انتقلنا من العام إلى الخاص نقول: إن عبقرية الخليل لم تقتصر على الإنجازات غير المسبوقة في تاريخ الحضارة العربية، بل كانت لها صفة العالمية؛ ذلك أنها أسهمت في تأسيس نتاج عبري علمي في مجالات عدة منها مجال المعاجم، والأصوات، والصرف، والنحو، والعروض، التي سنتناول بعضها منها في هذا البحث.

الخليل عالم المعاجم:

من الثابت أن الخليل بن أحمد صاحب أول معجم عربي مرتب على طريقة التقليبات، وبرغم سيطرة الترتيب الأبجدي على نظام المعاجم العبرية في ذلك الوقت، إلا أن الأمر لم يخلُ من بعض الاستثناءات، فقد فضل بعض المعجميين اليهود طريقة الخليل في الترتيب، حيث ألف حاي جاعون (القرن الحادي عشر

(الميلادي) معجما أطلق عليه اسم (كتاب الحاوي)، وكذلك ألف أبو الفرج هارون (القرن الحادي عشر الميلادي) معجم (المشتمل) ، واتبعا نظام التقلبات الذي كان مسيطرا على المعاجم العربية آنذاك بسبب تأثير معجم العين للخليل.

هذا، ومع سيطرة نظام الترتيب الأبجدي الذي رأى فيه المعجميون اليهود سهولة ويسرا لمستخدمي المعاجم، إلا أن تأثير معجم العين امتد لهذه المعاجم وعبر عن نفسه في وجوه عدة منها:

اشتملت معظم المعاجم العبرية على مقدمات شرح فيها مؤلفوها سبب تأليفهم المعاجم، كما ضمنوها الطريقة المتبعة لترتيب المواد، بالإضافة إلى اشتمالها على مقدمات تشرح الحروف التي تتكون منها الأبجدية، واشتمالها على وصف لهذه الحروف من الناحية الصوتية، وهو ما جاء لدى الخليل.

ففي مقدمة العين يذكر الخليل أن هدفه الأساسي من تأليف معجمه هو إيجاد الوسائل التي تساعد على فهم وتأليف الشعر والنثر والحديث^(١): "هذا ما ألفه الخليل ابن أحمد البصري - رحمة الله عليه - من حروف ا.ب.ت.ث. مع ما تكلمت به فكان مدار كلام العرب وألفاظهم. فلا يخرج منها عنه شيء. أراد أن تعرف به العرب في أشعارها وأمثالها ومخاطباتها فلا يشذ عنه شيء من ذلك".

وفي معجمه (الجامع) يؤكد سعائيا بن يوسف الفيومي (٨٢٠ - ٩٤٢م) - صاحب أول معجم في تاريخ اللغة العبرية - في مقدمة معجمه أن سبب وضعه للمعجم هو تسهيل فهم اللغة، ومساعدة الشعراء والأدباء على استخدامها استخداما سليما: "ووضع لتأليف الأحاجي ولضرب الأمثال، ولصياغة المعاني ولنظم الأشعار".

وفي مقدمة العين يحدثنا الخليل عن الأسباب التي دعت به إلى أن يبدأ معجمه بحرف العين فيقول^(٢): "فأعمل فكره فيه فلم يمكن أن يبتدئ التأليف من أول أ، ب، ت، ث، وهو الألف، لأن الألف حرف معتل فلما فاتته الحرف الأول كره أن يبتدئ بالثاني - وهو الباء - إلا بعد حجة واستقصاء النظر، فدبر ونظر إلى الحروف كلها وذاقها (فوجد مخرج الكلام كله من الحلق) فصير أولها بالابتداء أدخل حرف منها في الحلق".

ثم يستطرد الخليل، ويوجه كلامه إلى من يستخدم المعجم ليبدله على طريقة الاستخدام فيقول: " فإذا سألت عن كلمة وأردت أن تعرف موضعها . فانظر إلى حروف الكلمة، فمهما وجدت منها واحدا في الكتاب المقدم فهو في ذلك الكتاب". سادت هذه الطريقة في مقدمات المعجميين العبريين، فبدؤوا مقدماتهم بشرح الأسباب التي دعتهم إلى تأليف معاجمهم، واختيارهم لنظام معين، ثم الطريقة المثلى للبحث عن المواد داخل معاجمهم.

ففي المقدمة العربية لمعجم سعاديا (الجامع) يحدثنا عن الخطة التي اتبعها في تنظيم معجمه واضعا في اعتباره التسهيل على من يستخدم المعجم^(٤): " . فأوجبت أن أولف كتابا أجمع فيه أكثر الألفاظ جمعين. الأول ضم كل اسم أوله ألف بعضه إلى بعض وكذلك كل اسم أوله باء بعضه إلى بعض وكذلك جيم ودال وسائر الأحرف. والثاني جمع كل قافية على ألف إلى ناحية وكذلك كل اسم آخره باء. وكذلك القوافي الجيمية والدالية والهائية إلى آخر الأحرف ليكون أسهل لضبط الجميع وحفظه".

كذلك فعل إبراهيم الفاسي (القرن العاشر الميلادي) في مقدمة معجمه (جامع الألفاظ) حيث يقول^(٥): "ونحن قصدنا شرح في كتابنا هذا من سائر اللغات سوا ألفاظ المقرأ^(٦). وإني رأيت في كتب الأوائل نسقا استحسنته، وترتيباً يرتضى- الترتيب الأبجدي- فرأيت أن أسير سيرة من تقدمني في ذلك، وأقصد قصدهم وماخذهم خاصة في معنى الترتيب والنسق".

وينتقل الفاسي بعد هذه المقدمة إلى إرشاد من يستخدم المعجم إلى كيفية البحث عن كلمة معينة، فيستطرد قائلا^(٧): "فإن كان غرض الطالب كلمة_ براخا_ مثلا فيقصد إلى جزء الباء باب راء".

ولم يختلف الأمر أيضا لدى ابن جناح (٩٥٥-١٠٥٠م) في معجمه (الأصول) ولدى غيره من المعجميين اليهود^(٨).

كان الخليل قد جرد المواد التي ضمنها معجمه، وعند مناقشته لأي مادة كان يبدأ بقوله^(٩): "باب العين والهاء والباء-أو- باب العين والهاء والنون".

ثم يأتي بعد ذلك بالتقليبات المحتملة لهذه الحروف الثلاثة المهمل منها والمستعمل.

وفي الواقع، فإن هذا الأمر أصبح هو النظام الجاري في معاجم التقليبات التي جاءت على غرار معجم العين. وقد دأب المعجميون على نكر المادة بأسماء الحروف الجنسية دون معنى خاص، ثم أجروا عليها ما أرادوا تأثراً بالخليل، وبرغم أن ابن جناح لم يتبع نظام التقليبات في معجمه (الأصول) إلا أنه اختار أن تأتي المواد في معجمه على غرار معجم الخليل مجردة من الحركات، ومن احتمال اعتبارها أسماء أو أفعالا، أو غيرها من المعاني التي قد يوحى إليها الجذر إذا ما ضم بعضه بعضا بحركة أو خلافة. لذا أثر ابن جناح أن يسمي المادة أو الجذر بأسماء الحروف العربية ثم يذكر بعد ذلك المعاني المختلفة من أسماء وأفعال وكافة المشتقات الأخرى التي تتدرج تحت هذه الحروف، ونجد ذلك في قوله^(١٠): "... مثلا أقول إذا قلت في ترجمة بعض أبواب الحرف الألف و الباء واللام أو الألف والباء والراء... وإنما أريد الألف الجنسي والباء الجنسي واللام الجنسي... وأما تحت الحروف الجنسية فإنها داخلة إذ لا تخلو منها كلها وإذ لا يتعلق بالحروف الجنسية معنى دون معنى... إن قولي مثلا عند الترجمة الألف والباء واللام لا يدل على أكثر من هذا الشبه، أعني أنه لا يدل على معنى مخصوص فهي إذا كالجنس وما تحتها من المعاني أنواع".

ولو فطن الصرفيون إلى هذا -كما فطن المعجميون- لكفوا أنفسهم مشقة الاختلاف حول "أصل الاشتقاق"، الذي كثرت فيه الآراء، وانقسمت وخرجت في مناقشاته من نطاق الأدلة اللغوية إلى البحث في التعريفات والتقسيمات الفلسفية والمنطقية.

استمرارا لتأثر ابن جناح بالخليل، ينقل عنه أيضا نظريته في التقليب التي تقوم على أساس تقليب الجذر الواحد لاستخراج الاحتمالات الممكنة رياضيا لتركيب الكلمة من الصوامت، وبناء على هذه الفكرة يرصد الخليل الاحتمالات الآتية^(١١): "اعلم أن الكلمة الثنائية تتصرف على وجهين... والكلمة الثلاثية على

سنة أوجه و تسمى مسدوسة... والكلمة الرباعية على أربعة وعشرين وجها وذلك أن حروفها وهي أربعة أحرف تضرب في وجوه الثلاثي الصحيح وهي ستة أوجه فتصير أربعة وعشرين وجها، يكتب مستعملها. ويلغى مهملها".

هذا الجانب يظهر في مكانه الصحيح في كتاب العين حيث وضع الخليل نظريته في تأليف معجمه، إلا أن ابن جناح لم يجد إلا هذه الفكرة لينهي بها الفصل الخاص بوصف الأصوات في كتابه (اللمع) ولم يضمنها معجمه (الأصول) ذلك لأنه لم يرتب معجمه على التقاليد، بل على الترتيب الأبجدي، وهنا أخذ ابن جناح يشرح هذه النظرية، ويقدم الاحتمالات التي يمكن أن تتركب منها الكلمات أو الجذور المكونة من حرفين، أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة، ولم ينس أيضا الإشارة إلى قول الخليل إن هذه الاحتمالات بعضها مستعمل وبعضها ملغى^(١٢): "واعلم أن الحرفين لا يتركب منهما إلا كلمتان كما يتركب من الميم والجيم وأن الثلاثة الحروف يتركب منها ست كلمات وربما كان بعضها ملغيا مثلما يتركب من العين والباء والراء... وأن الأربعة الحروف يتركب منها ٢٤ كلمة يستعمل أقلها ويلغى أكثرها مثل ما يتركب من القاف والراء والسين والميم...".

الخليل عالم الأصوات:

لا ينكر منكر أن الخليل يعد أول من خص الأصوات بوصف شبه شامل في مقدمة معجمه، وقد استن بذلك سنة جعلت أصحاب المعاجم -العرب و اليهود- يخصصون مقدمات معاجمهم لوصف الأصوات، ثم خصصت فيما بعد فصول تتناول الأصوات في كتبهم الخاصة باللغة حملت كلها وخاصة في مجال اللغة العبرية لمسات الخليل وروحه، كما أنها استخدمت مصطلحاته، وتعريفاته للأصوات، كذلك نظريته في تذوق الحروف التي وردت في مقدمة معجمه.

ومن المعروف أن الخليل لم يرغب في بدء معجمه بالحرف الأول من حروف الألفبائية، ذلك لأن الألف من حروف العلة، وعلى ذلك فقد أخذ يختبر حروف الألفبائية ويتنوقها ويفحص أماكن نطقها عن طريق نطقها مسبوقة بالألف^(١٣) "وإنما كان نواقه إياها أن كان يفتح فاه بالألف ثم يظهر الحرف، نحو

أب، أت، أح، أع، أخ،.....".

وعندما أراد ابن جناح تحديد مواضع نطق الأصوات وكيفية تذوقها استعار فكرة الخليل، وأشار إلى أن ذلك يتحقق عن طريق نطق هذه الأصوات مسبقة بالهمزة^(١٤): "فاعلم أنك إذا أردت أن تسبرها في مخرجها ومدارجها فوجه العمل في ذلك أن تفتح فاك بالهمزة تستظهر الحرف الذي تريد سبره مثال ذلك إذا أردت معرفة مخرج العين قلت أع وإن أردت معرفة مخرج الباء قلت أب وإن أردت معرفة مخرج السين قلت أس...".

هذا عن تذوق الحروف، أما عن مخرجها فقد فرق الخليل بين مخرج الحروف الصحاح، والأخرى الدالة على الحركات^(١٥): "في العربية تسعة وعشرون حرفاً: منها خمسة وعشرون حرفاً صحاحاً لها أحياء ومدارج، وأربعة أحرف جوف وهي: الواو والياء والألف اللينة والهمزة".

بدأ ابن جناح الفصل الخاص بالأصوات في كتابه (اللمع) بذكر عدد حروف الأبجدية^(١٦): "الحروف اثنان وعشرون حرفاً تغنياً شهرتها عن شرح نوالها".

ثم يحدد ابن جناح المخرج الخمسة المشهورة للحروف العبرية ويعلق عليها موضحاً أن الأوائل هم الذين قسموا الحروف على هذه المخرج الخمسة، وهو تقسيم تقريبي يفتقر إلى الدقة، ولذا وبعد الفحص والتدقيق فإنه يجب القول: إن لكل حرف مخرجه الخاص به. وهنا يستخدم مصطلحات الخليل الأحواز والمدارج^(١٧): "وعلى هذا المثال تجري أحرف سائر المخرج في أن بعضها أرفع من بعض في أحوازها ولو أن أحرف كل مخرج تكون بمنزلة جميعها من مخرجها منزلة واحدة لما اختلفت ولكانت على صورة واحدة أي على صوت واحد مثال ذلك أنه لو كانت منزلة الحاء من مخرجها ومدارجها من الحلق هي منزلة الهمزة لكانت الحاء هي الهمزة...".

وهنا نستطيع أن نؤكد أن الخليل كان أكثر دقة من ابن جناح عندما أوضح أن هذه الأحياء والمدارج تستخدم فقط مع الصوامت لا مع الصوائت، التي لا

ينطبق عليها اعتراض ولا تضيق في أي مخرج من المخارج، ولا تنسب لحيز من الأحياز إلا الجوف.

ويتفق هذا مع تعريف المحدثين للحركات على أنها الأصوات التي لا يعثرها تضيق أو إغلاق، أو احتكاك، أو اتصال باللسان والشفاه.

ومع أن الخليل ينسب هذه الأحرف الثلاثة إلى نفس منطقة النطق، إلا أنه حرصاً على مزيد من الدقة؛ فإنه يجعل لكل حرف منها موضعه الخاص به داخل نطاق المنطقة المحددة للنطق وهي الجوف^(١٨): "هذه ثلاثة أحرف من حيز واحد بعضها أرفع من بعض".

ثم يستطرد الخليل ليصل إلى مخرج الهمزة فينسبها إلى أقصى الحلق^(١٩):
"أما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق".

وفقاً لهذا ينسب ابن جناح - متأثراً بالخليل ومن تبعه من النحاة العرب - للهمزة إلى أقصى الحلق^(٢٠): "فالهمزة أبعد حروف الحلق كلها مخرجا، أقصى الحلق".

وهنا يمكن قبول الهمزة التي وصفها العرب في أقصى الحلق، ذلك إذا افترضنا أنهم يعنون بالحلق منطقة واسعة تشمل الحنجرة، فتكون الحنجرة هي أقصى الحلق. لأنه من المعروف أن الخليل وسيبويه ومن تبعهم عرفوا أعضاء الجهاز النطقي ووصفوها وصفاً دقيقاً اعتماداً على آلية النطق. وليس في معرفتهم لأعضاء النطق نقص إلا الحنجرة والوترين الصوتيين، ويبدو أن عدم ذكر الحنجرة كمصطلح كان يؤدي بقولهم أقصى الحلق.

وقبل أن نترك الهمزة هناك تأثر آخر بالنحاة العرب وبالخليل على وجه الدقة، ذلك أننا نجد دونالد بن تميم النحوي اليهودي (بداية القرن العاشر الميلادي) يسمي الهمزة عيناً. فيقول: "الهمزة تقرأ عيناً في كل اللغات ذلك لأنها حلقية في مكان الهواء، فإذا كانت بداية الحروف الحلقية هي العين فهي مثل الألف المهموزة".

وقد كان العرب يقابلون صوت الهمزة في الميزان الصرفي بالعين. فيقول الخليل^(٢١): "إن وزن فعل من جنس جياى وتقديرها - أي وزنها - جيعاى".

ويرجع هذا إلى مسألة انتشار تخفيف الهمزة عند العرب ، فوزن هذه الكلمة بالعين - إذا ذكر - يدل على أن الهمزة في هذه الكلمة محققة أو مشبعة لا مخففة. تمشياً أيضاً مع وصف الخليل للألف بأنها هوائية، ونسبتها لحروف الصدر وذلك لأنها لا تتعلق بمدرجة أو بحيز، ولكنها هوائية في الهواء، يصف ابن جناح الألف بأنها هوائية أي لا تتعلق بمخرج معين^(٢٢): "... ويلبها من بعد المخرج الهاء وهذا هو الضرب الثاني من الأحرف الحلقية من مخرجها والألف هوائية هناك". هذا وكان ابن تميم قد وصف الألف أيضاً، بأنها حلقية في مكان الهواء^(٢٣). والواقع أن مصطلح هاوي، وهاوية، وهوائية، من المصطلحات التي استخدمها العرب ووصفوا بها الألف اللينة لتفريقها من الهمزة، وللإشارة إلى اتساع الهواء معها^(٢٤).

هناك جانب آخر ومثائر آخر بأقوال الخليل، أو بوصفه للحروف اللينة التي قال الخليل إنها تسبقها فتحة أو كسرة أو ضمة^(٢٥): "فإذا كانت الحركة فتحة صار معها ألف لينة، وإن كانت ضمة صار معها واو لينة، وإن كانت كسرة صار معها ياء لينة".

هذا المثائر الآخر هو يهودا ديفيد حيوج (٩٤٥-١٠٠٠م) الذي أطلق على الألف و الواو والياء مصطلح حروف المد واللين، ثم أضاف^(٢٦): "أنها تخفى فلا يكون لها في اللفظ ظهور ولا حس وإنما يؤديها إلى السمع تحريك ما قبلها بالضم أو بالفتح أو بأحد الملوك السبعة - أي الحركات السبع -".

هكذا ووفقاً لوجهة النظر العربية، تخيل حيوج وجود حركات قصيرة قبل حروف المد، ولم يتخيل أن حروف المد هي نفسها الحركات الطويلة، وأن رمزها الكتابي فيه دلالة على قيمتها الصوتية كحروف مد. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على مدى تأثير الخليل في النحاة اليهود.

ونحن في معرض حديثنا عن حروف اللين، ومصطلح التلين نشير أيضاً إلى أن الخليل هو الذي أطلق مصطلح التلين على تخفيف الهمزة في موضعين^(٢٧):

- عندما تسقط وتصبح صوت مد.

"ومن الأئين يقال يئن أنينا. وإذا أمرت قلت: إئين، لأن الهمزتين إذا التقتا فسكنت الأخيرة اجتمعوا على تليينها، ففي إئين أسقطت همزة كل منهما وأصبحت صوت مد من جنس الحركة التي تسبق الهمزة".

- عندما تسقط وتصبح صوت لين.

"الجميع الذوائب، والقياس الذائب، ومثل دعابة ودعائب، ولكنه لما التقفت همزتان لم تكن بينهما إلا ألف لينة، لينوا الأولى منها، لأن العرب تستقل القاء همزتين في كلمة واحدة".

هذا المصطلح استخدم بكثرة لدى حيوج مع الهمزة أو ما كان يطلق عليها

دائما الألف، وذلك في نفس الحالات التي استخدمها فيها الخليل^(٢٨).

- عندما تسقط الألف وتصبح صوت مد.

"وقد تلين الألف إذا اجتمعت مع ألف المتكلم لتقل النطق بالألفين".

- عندما تسقط الألف وتصبح صوت لين آخر، أي ياء أو واو.

ثم نقول إن العبرانيين إذا استنقلوا فعلا فاؤه أو عينه أو لامه ألف أو واو أو ياء أو كثر استعمالهم له رأوا أن اللين والإسكان فيه أخف من الإظهار والتحرك فالانوا ما الأصل فيه الإظهار وأسكنوا ما الأصل فيه التحريك".

هكذا وجدنا حيوج يستخدم مصطلح التليين في نفس المعاني التي استخدمها

الخليل، والواقع أن النحاة العرب غير الخليل يطلقون على ما سبق مصطلحات مثل تخفيف الهمزة أو جعلها بين بين أو إبدالها.

كما أطلقوا أيضا على تليين الياء والواو مصطلحات أخرى مثل: تحول إلى

صوت مد أو تحول إلى صوت لين، أو إبدال الهمزة واوا، أو انقلاب الياء واوا، أو الواو ياء^(٢٩).

وكان ابن جناح قد فرق بين نوعين من الألف، الألف غير اللينة وهي التي

يسمونها العرب همزة، وهي مثل ألف (نكل)، والأخرى الألف اللينة مثل ألف (قام)^(٣٠).

أما التأثير الخليلي الآخر الذي يتناول الحروف، فهو ذلك الخاص

بصعوبة النقاء الحروف ذات المخرج الواحد في كلمة واحدة. ويشير الخليل إلى

ذلك قائلاً^(٣١): "إن العين لا تأتلف مع الحاء في كلمة واحدة لقرب مخرجيهما".
تحت هذا التأثير نجد أن سعاديا أن سعاديا هو أول من تحدث عن الحروف التي لا
تألف في كلمة واحدة لقرب مخرجها، فيقول في شرحه لكتاب (الخليفة)^(٣٢):
"وذلك أن تأليف الكلمات من الاثني والعشرين حرفاً إنما يكون على الأكثر حرف
بحرف غريب منه ولا يتألف حرفان هما من قسم واحد إلا على الأقل، ولذلك لا
يوجد في اللغة زس ولا صس ولا قج ولا ذظ وما شاكل ذلك مجموعة في كلمة".
وقد تناول سعاديا هذه القضية في معجمه (الجامع)، وكان يستخدم مصطلح
"لا يوجد" الذي يعد أيضاً أثراً بمصطلح الخليل "أهل" أو "مهمل" الذي كان
يستخدمه أمام الحروف التي لا تألف في كلمة واحدة^(٣٣).

تناول الخليل كذلك رتبة الحركة بالنسبة للحرف، وأن الحرف لا يظهر في
النطق إلا إذا حرك بحركة. ومن ناحية أخرى لا يمكن أن نبدأ الكلام بحركة،
فالحركة لا تدل على شيء في ذاتها ولكنها تدل على الحرف المحرك بها.
ففي معجم العين يقول^(٣٤): "لأن اللسان لا ينطق بالساكن من الحروف
فيحتاج إلى ألف الوصل".

كما ورد في كتاب سيوييه على لسان الخليل^(٣٥): "الفتحة و الكسرة و الضمة
زوائد وهن يلحقن بالحرف".

وقد تناول سعاديا هذه القضية وتحدث عن رتبة الحركة بالنسبة للحرف وأشار
إلى أن الحركة تلي الحرف أو تلحقه، وهي ليست قبله ولا معه. ويفهم هذا من
ملاحظاته الآتية^(٣٦): "... أن النطق لا يكون أوله نغمة -حركة- إنما يكون حرفاً".
"... أن الألفاظ إذا ابتدئ بحرف فبالضرورة يتبعه إعراب-حركة-".

"ولا يجوز أن يجرد الحرف وحده".
وأشار ابن جناح إلى ذلك في (اللمع)^(٣٧): "واعلم أنه لا ينطق بحرف على
انفصال وانفراد لأن ابتداء النطق لا يكون إلا بمتحرك إذ لا يبدأ بساكن".

وقد عبر يهودا هداسي (القرن الثاني عشر الميلادي) عن أهمية الحركة للحرف
وتبعيتها له فيرى أن الحركات هي فقط أصوات، والحروف هي أجساد للحركات،

والحركات لا فائدة منها إلا إذا اتحدت بالحروف فتصبح ذات معنى وفائدة^(٣٨).

أما ابن تميم، الذي أشرنا إليه من قبل فقد تأثر بالخليل في وصفه لمخارج الحروف وفي استخدامه لمصطلحات الخليل. من ذلك أنه رفض المخارج الخمسة الرئيسية المتعارف عليها في الدرس الصوتي العبري، وفصل بين مخرج الدال والطاء والتاء، ومخرج اللام والنون والراء. فنسب المخرج الأول إلى الحنك الأعلى للفم، وقد أراد التفريق بينه وبين الحنك القريب من الحلق، الذي قال إنه مخرج الكاف والقاف.

هذا الوصف متأثر بالخليل الذي نسب هذه الأحرف إلى نطع الغار الأعلى^(٣٩): "الطاء والتاء والدال نطعية، لأن مبدأها من نطع الغار الأعلى". وعند إشارته إلى اللام والنون والراء أشار ابن تميم إلى أنها تسمى ذلقية في اللغة العربية^(٤٠).

والمعروف أن مصطلح الذلق هو مصطلح الخليل الذي وصف به حروف النون واللام والراء^(٤١): "الراء واللام والنون تخرج من ذلق اللسان". ويقول الخليل شارحاً للذلق^(٤٢): "إنما سميت هذه الحروف ذلقاً، لأن الذلاقة في المنطق إنما هي بطرف أسنة اللسان والشفتين".

إن ذلق اللسان هو طرف أسنة اللسان، وأسنة اللسان هي طرفه، على ذلك يكون ذلق اللسان هو طرف "طرف اللسان"، أي آخر طرف اللسان أو طرف الطرف. ويتابع ابن تميم وصفه للحروف قائلاً^(٤٣): "بعد القاف والكاف الحروف الشجرية الشين والضاد، والشجر يسمى في اللغة العربية الفم، وهي قريبة من حروف الصغير، وهي من مخرج واحد، إلا أن طرفها - أي طرف الحروف الصغيرة - أكثر ارتفاعاً ولذا سميت في اللغة العربية الأسلية، أي أنها من طرف اللسان وهي ثلاثة أحرف، الصاد والزاي والشين".

اشتمل وصف ابن تميم السابق على مصطلحين من مصطلحات الخليل هما "الحروف الشجرية" و"الحروف الأسلية".

وقد أطلق الخليل مصطلح الحروف الشجرية على مخرج الجيم والشين

والضاد، قائلاً^(٤٤): "و الجيم والشين والضاد، شجرية لأن مبدأها من شجر الفم".
 أما مصطلح الحروف الأسلية فقد أطلقه الخليل على مخرج الصاد والسين
 والزاي، وقد حدده الخليل بأنه مستدق طرف اللسان^(٤٥): "والصاد والسين والزاي
 أسلية، لأن مبدأها من أسلة اللسان وهي مستدق طرف اللسان".
 هذا وكان الخليل من بين النحاة العرب الذين استخدموا مصطلح أسلة اللسان
 مع مصطلح ذلق اللسان، ليحدد مناطق نقيقة في الجزء المسمى بطرف اللسان أو
 مقدمة اللسان، والأسلة من وجهة نظر الخليل هي مقدمة الطرف.
 وكان ابن جناح أيضاً قد ذكر مصطلح "أسلة اللسان" عند تحديده مخرج اللام
 و النون والراء، بقوله^(٤٦): "فإن الدال والطاء والتاء فإنها وإن كانت مخرجها من
 طرف اللسان وأصول الثنايا كمخرج اللام والنون والراء. فإن ذلك الطرف ليس
 هو أسلة اللسان بل هو أرفع من الأسلة قليلاً".

والشيء المثير للانتباه أن ابن جناح يذكر مصطلح الأسلة عند حديثه عن
 اللام والنون والراء لتحديد موضع الذلق. ولكنه لم يشر إلى اشتراك الأسلة في
 نطق الزاي والسين والصاد، ولم يطلق مصطلح الحروف الأسلية على هذه
 الحروف كالخليل، ولكنه اكتفى بصفتها عن موضع نطقها، وأطلق عليها مثل
 سيويه والمبرد الحروف الصغيرية^(٤٧).

وقد أضاف ابن جناح في حديثه عن حروف اللام والنون والراء مصطلح
 الخليل "ذلق" و"نلقيّة" فيقول^(٤٨): "اعلم أن الحروف الذلق سبع (هكذا) هذه الثلاثة،
 أعني اللام والنون والراء والأحرف الشفهية التي هي (الباء والواو والميم والغاء)".
 وكما أشرنا أن الخليل صاحب مصطلح الذلق، إلا أنه كان أكثر دقة في
 تعامله مع هذه الأحرف. ففي البداية نجده يصف هذه الحروف كما يلي^(٤٩): "اعلم
 أن الحروف الذلق والشفوية ستة وهي ر ل ن، ف، ب، م، وإنما سميت هذه
 الحروف ذلقاً، لأن الذلاقة في المنطق إنما هي بطرف أسلة اللسان والشفيتين، وهما
 مدرجتا هذه الأحرف الستة، منها ثلاثة نليقة ر ل ن تخرج من ذلق اللسان من
 طرف غار الفم وثلاثة شفوية: ف ب م".

وفي مكان آخر يقول (٥٠): "فلما ذلقت الحروف الستة ، ومثّل بهن اللسان وسهلت عليه في النطق كثرت في أبنية الكلام".
 مما سبق يتضح أن استخدام مصطلح ذلق الذي يضم الأصوات الستة، يرتبط بمعنى السهولة والخفة في النطق، ولا يتصل بجزء اللسان المعروف بالذلق. وذلك لأنه يدخل في الأصوات الستة الحروف الشفوية التي لا علاقة لها بذلق اللسان، كما أشار الخليل. والخليل في هذا المقام استعمل مصطلح الذلق في معنيين، أحدهما خاص وينصرف إلى اللام والنون والراء فقط، ويكون النظر إليها حينئذ من حيث مدارجها ومخارج نطقها فقط. أما المعنى الثاني؛ فهو عام يشمل الحروف الستة جميعا ويكون النظر إليها من حيث صفاتها النطقية من سهولة ويسر، لا من حيث مدارج نطقها (٥١).

هكذا اتضحت وجهة نظر الخليل، فالحروف الذلق هي اللام والنون والراء لأنها من وجهة نظره تخرج بذلق اللسان، أي بطرف الأسلة. أما الذلاقة التي تضم الحروف الشفوية فهي السهولة.
 أما ابن جناح فقد اختلط عليه الأمر، فقد ضم في البداية الأحرف الشفوية الأربعة الباء والواو والميم والفاء إلى الحروف الثلاثة اللام والنون والراء وجعلها سبعة لا ستة، وهذا يتنافى مع قول الخليل. كما أنه لم يفرق بين المخرج والصفة كما فعل الخليل.

الخليل عالم الصرف:

هناك أيضا الكثير من الملاحظات الصرفية التي استفادها النحاة اليهود من الخليل والتي ظهرت في معجمه العين، أو على لسان سيبويه، ولأننا هنا لسنا في موضع الحصر ولكن التمثيل فقط، فسوف نركز على أهم المسائل الصرفية التي تأثر بها النحاة اليهود وركزوا عليها، وكان أهمها جميعا قسمة الأفعال إلى ثلاثية ورباعية.

والواقع أن مشكلة الجذور العبرية ظلت تؤرق الدراسات اللغوية حتى حسمها يهودا ديفيد حيوج بتعرفه على خصائص الحروف الثلاثة الألف والواو

والياء، وسقوطها وتبادلها وخصائصها الصوتية والنفولوجية. وقد أشرنا من قبل أنه استعان بأراء الخليل في ذلك الأمر. وبهذا يكون حيوج هو الذي جسم هذه المسألة بعد أن أخضعها لنظرية النحو العربي القائلة بثلاثية الجذور، وكان ذلك الإنجاز قد نقل دراسة النحو العبري إلى فترة جديدة مغايرة لما سبقها والتي تسمى بالفترة العلمية لدراسة اللغة العبرية.

وفقا لما سبق ذكر حيوج في كتابه "الأفعال نوات حروف اللين"^(٥٢): "لا يكون فعل من الأفعال على أقل من ثلاثة أحرف".

وقد أهمل حيوج الفعل الرباعي ذلك أنه لم يقصد إلا تحديد الأفعال الثلاثية. وكان الخليل عند تحديده لكلام العرب قد خصص الثنائي لكلمات مثل قد، ولم... وبدأ الحديث عن الأفعال بقوله:^(٥٣) "والثلاثي من الأفعال نحو قولك: ضرب، خرج، دخل مبني على ثلاثة أحرف"، "والرباعي من الأفعال نحو: نخرج، هملج، قرطس، مبني على أربعة أحرف".

هذا وقد فرق الخليل في الجذور الرباعية بين الرباعي المجرد، الذي ذكر أنفاً، والرباعي المضعف الذي قال إن كثيرا منه مأخوذ من الثنائي الخفيف (المكرر) فيقول^(٥٤): "ألا ترى أن الحاكي يحكي صلصلة اللجام فيقول صلصل اللجام وإن شاء قال: صل، يخفف مرة اكتفاء بها وإن شاء أعادها مرتين أو أكثر من ذلك فيقول: صل، صل، صل، يتكلف من ذلك ما بدا له".

وفي مكان آخر يقول^(٥٥): "ولا تكون الحكاية مؤلفة حتى يكون صدرها موافقا لحرف صدر ما ضم إليها في عجزها. فكأنما ضموا "ده" إلى "دق" فألفوهما.... لأن الحكايات الرباعيات لا تخلوا من أن تكون مؤلفة أو مضاعفة".

تأثرا بالخليل كان الفاسي هو أول من قسم الرباعي إلى نوعين، الأول يتكون من جذور لا تتشابه حروفها، ويتكون الثاني من جذور حروفها متضاعفة، وهي التي أطلق عليها الفاسي (المكررة)، وهي تنقسم مرة أخرى - قسمة داخلية - إلى قسمين: الأول وهو المركب من حرفين. والثاني وهو المركب من ثلاثة حروف (الثلاثي المكرر من عينه ولامه)^(٥٦).

لم يختلف تقسيم ابن جناح للأفعال عما سبق، فقد انقسمت لديه إلى ثلاثية ورباعية.

وقد انقسمت أيضا الرباعية إلى: رباعية أصولها مختلفة، ورباعية متضاعفة. وهنا يفتت ابن جناح النظر إلى الخلاف بين نحاة البصرة والكوفة فيما يتعلق بالأفعال الرباعية المتضاعفة قائلا: ^(٥٧) "وقوم من أهل النحو العربي [يقصد الكوفيين] يجعلون أمثال هذه الأفعال في لغتهم ثلاثية ويعتقدون أن الفاء إنما ضوعفت كراهة للجمع بين المثليين ومنهم [يقصد البصريين] يجعلونها ثنائية متضاعفة من موضع الفاء والعين".

والواقع أن نحاة الكوفة يوافقون الخليل في أن الصيغ صلصل وززل، هي صيغ مشتقة من صل، وزل، وهي التي ضوعف فيها الأصل الأول. ولا يتفقون معه في أنها جذور ثنائية في الأصل ^(٥٨).

الخليل عالم اللغة المقارن:

في عرضه لبعض مواد معجمه كان الخليل يميل إلى الإشارة إلى اللغات التي تضارع العربية، أو اللغات الأعجمية. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الخليل كان يملك الحس المقارن، وكان على وعي باللغة العربية وموقعها بين اللغات الأخرى.

وهذا ينفي ادعاء علماء اللغة المحدثين؛ أن العرب لم يقارنوا لغتهم بغيرها من اللغات. وعلى كل حال فإن هذه الإشارات الموجودة لدى الخليل لا تقطع بمعرفته التامة باللغات السامية من حيث أبنيتها، ونظم صرفها وإنما تدل على وقوفه على الشبه الموجود بين العربية وأخواتها، وأنه كان أيضا على دراية بالكلمات الأعجمية الموجودة في اللغة العربية، وتتبع مراحل تعريبها وإحاقها بأبواب العربية حتى تكون منها، أو إخراجها منها.

فبعد مناقشته لمادة كنع يحدثنا الخليل عن القرابة اللغوية بين لغتين ساميتين هي العربية والكنعانية قائلا ^(٥٩): "كنعان بن سام بن نوح، وينسب إليه الكنعانيون وكانوا يتكلمون بلغة تقارب العربية".

وفي معرض حديثه عن الظاء يؤكد في موضعين أنها خاصة بلغة العرب دون غيرها من اللغات، ولا توجد في لغة العجم^(٦٠): "وليس في شيء من الألسن ظاء غير العربية".

"والظاء عربية لم تعط أحدا من العجم، وسائر الحروف اشتركوا فيها". وقد جاء في كتاب سيبويه على لسان الخليل^(٦١): "هذا في باب ما كان من الأعجمية على أربعة أحرف وقد أعرب فكسرتة على مثال مفاعل، زعم الخليل أنهم يلحقون جمعه الهاء إلا قليلا، وكذلك وجدوا أكثره فيما زعم الخليل مثل موزج وموازجة وصولج وصوالجه".

والواقع أن معاجم اليهود السالفة الذكر، ومؤلفاتهم اللغوية بوجه عام اهتمت بمقارنة اللغة العبرية بالعربية وبغيرها مثل الآرامية والسريانية؛ للوصول إلى كيفية اشتقاقاتها وتصاريفها، والاستدلال على معانيها الصحيحة من الاستخدامات المشابهة لها في تلك اللغات. ذلك لأن اللغة العبرية كانت حتى تلك الفترة، لغة كتاب مقدس قاصرة على ما تضمنه كتابها، ولم تكن لغة حياة يومية، أو تأليف علمي.

والجدير بالذكر أن علماء اللغة العبرية ركزوا على اللغة العربية ليس فقط تقريبا وشبهها بالعبرية، وإنما لأنها كانت هي الأقرب إلى الفهم في المجتمعات اليهودية التي تكلمت العربية وكانت هي اللغة التي ألفوا بها كتبهم.

وعلى سبيل المثال لا الحصر - ذلك لكثرة المقارنات في الجانب العبري - نستشهد ببعض ما جاء على لسان سعاديا^(٦٢): "... إن العرب يقولون وجدنتي، علمنتي، فيزاوجون أنا مع أنا فإن العبرانيين (كذا) لم يصطلحوا على ذلك". "إن العرب يبدلون الباء جيما كما يحدث تماما في اللغة العبرية، وعلى سبيل المثال فإنهم يقولون علج بدلا من علي، وبرنج بدلا من برني".

الخليل عالم العروض:

أدى الاهتمام باللغة العبرية، والنتائج التي ترتبت على ذلك من إعادة هيكلتها، على أسس علمية، متأثرة بنظرية النحو العربي التي كان الخليل من أهم مؤسسيها، أن تطور الشعر العبري أيضا بعد أن دخلته القافية وبحور الشعر الخليلية.

كان الشعر العبري قبل دخول القافية والبحور العربية قاصراً على تلك الأشكال الشعرية الموجودة في العهد القديم التي تعتمد على نظام الفقرات، وقانوني التقابل والتماثل أو التوازي. ثم عرف الشعر الديني المسمى "الببوطيم". وهو عبارة عن نوع من النظم صاحبه الألحان في بعض الأوقات، وكان مرتبطاً بالصلاة اليهودية الجماعية في المعابد، ثم أصبح بعد ذلك جزءاً من الطقوس المتبعة في الصلاة والأعياد والاحتفالات الدينية المختلفة.

ظل الحال كذلك إلى أن دخلت القوافي العربية إلى هذا الشعر الديني في القرن السابع الميلادي بعد الفتح العربي للشام، وقبل دخول العروض بثلاثة قرون. ويبدو من رصد القافية في الشعر العبري أنها تتبع نفس تعريف الخليل أي أنها من آخر ساكن في البيت إلى أول ساكن يليه مع المتحرك الذي قبله. وتحكمها نفس المعايير التي تحكم القافية العربية.

أما البحور الخليلية فقد دخلت الشعر العبري على يد دوناش بن لبراط (٩١٠-٩٧٠م). كان دوناش نحويًا أوحى إليه اهتمامه بالدراسات المقارنة بين العربية والعبرية بفكرة تطبيق أوزان الشعر العربي على الشعر العبري.

وقد نجح دوناش في إدخال ثلاثة أوزان على مثال الأوزان الخليلية، وهي الهزج وصورة مزاحفة من الطويل، وصورة مزاحفة من الوافر.

ويعد صموئيل هناجيد (٩٩٣-١٠٥٥) وهو من الجيل التالي لدوناش، صاحب الفضل في استكمال وبلورة فكرة دوناش، فقد تمكن من صياغة اثني عشر بحراً، وخمس وأربعين صورة. إلا أن بعض هذه الصور لا يوجد لها نماذج تطبيقية سوى بيت أو بيتين^(٦٢).

ومن المعروف أن الخليل بعد أن استقرأ الشعر العربي بنى أنساقه الإيقاعية في خمسة عشر بحراً، تصل بالزحافات والعلل إلى ثلاث وستين صورة.

أما في الشعر العبري، فلم يتمكنوا من إدخال كل البحور والأوزان العربية الخمسة عشر التي جاء بها الخليل، والوزن السادس عشر الذي استدركه الأخفش، وتمكنوا فقط من إدخال اثني عشر وزناً، وجاءوا بصور مزاحفة من

بعضها، كما أشرنا آنفا.

هذا وقد أطلق اليهود على البحور التسميات نفسها، مثل الكامل، والهجج، والطويل، والبسيط. ولكنهم أحياناً أخطأوا في فهم ما تعنيه، مثلما حدث مع بحر الرمل الذي قرأه سعاديا بن دنان رمل^(٦٤).

هذا والجدير بالذكر، أن اليهود عند تطبيقهم العروض العربي على الشعر العبري لم يراعوا الفروق الموجودة بين نظام المقاطع في العربية، ونظيره في العبرية. بالإضافة إلى ذلك فقد تعارض النبر العروضي مع النبر اللغوي. وبدلاً من أن يكون النبر العروضي دعامة من دعائم الإيقاع في الشعر العبري، أصبح من عوامل إفساد الإيقاع وإفساد النظام اللغوي في العبرية.

وقد أثارت هذه الخطوة معارضة شديدة من قبل بعض النحاة والمتعصبين، وخاصة أنصار السلف القديم المنادين بضرورة الحفاظ على اللغة العبرية المقدسة، وعدم إقحامها في أية مجالات دنيوية، فأخذوا يهاجمون الشعر الموزون الذي نادى به دوناش. إلا أن الإعجاب بالشعر العربي والشعر العبري الذي نظم على الأوزان العربية كان أكبر من المعارضة، مما جعل كثيراً من شعراء اليهود ينظمون الشعر العبري على الأوزان العربية. وأنتجت هذه الأوزان بدائع الشعر العبري الذي يعتز به اليهود ويحرصون على حفظه وإنشاده.

وقد أسفرت هذه الأوزان أيضاً عن استحداث القصائد العلمانية لأول مرة في الشعر العبري. تلك القصائد التي طرحت أغراضاً شعرية جديدة أخذتها من الأغراض الشعرية العربية، فوجدنا القصائد التي تصف الطبيعة، والحدائق الغناء، ومجالس الشراب، ووصف المعارك الحربية، وقصائد الرثاء، والهجاء، والمدح، والغزل، والتأملات الفلسفية الأخرى. كما كتبت أيضاً قصائد في الأحاجي والألغاز، بالإضافة إلى ظهور الموشحات العبرية.

لم يقتصر الأمر على القصائد العلمانية، بل امتد الأمر إلى الشعر الديني فازدهرت "البيوطيم" ازدهاراً كبيراً وكتبت الأشعار الدينية بشكل مختلف، بحيث التزم فيها الشعراء الوزن، والقافية، كما تأثرت هي الأخرى بمؤثرات القصيدة العربية.

الحواشي:

(١) كانت اللغة العربية هي الوسيط المستخدم في معظم الإنتاج الفكري للجماعات اليهودية التي عاشت في البلاد العربية في فترة القرون الوسطى.

وقد عرفت هذه اللغة باسم "العربية الوسيطة"، وكانت هي اللغة التي نشأت بين الطبقات الدنيا إبان الفتح العربي في القرن السابع الميلادي، وتكونت من اللهجات المستخدمة لدى الطبقات الدنيا، ثم أخذت تنتشر فيما بعد حتى سادت بين العرب*. ونريد هنا أن نلفت النظر أن اليهود عندما استخدموا اللغة العربية كتبوها بحروف عبرية. انظر كتاب المعاجم العبرية، سلوى ناظم، القاهرة، ١٩٨٨م، ص ٩.

(٢) الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، الجزء الأول، الجمهورية العراقية، ١٩٨٠م، ج ١، ص ٤٧.

(٣) العين، ج ١، ص ٤٧.

(٤) الجامع، ص ٥.

(٥) Skoss, Solomon L., The Hebrew Arabic Dictionary of the Bible, known as Kitab Jami' al- Alfaz (Agron) of David ben Abraham Al-Fasi, New Haven, 1939, Part I, p.9.

(٦) المقرئ لفظ يطلق على نص العهد القديم.

(٧) جامع الألفاظ، ج ١، ص ٤.

(٨) Ibn Janah, Abu al-Walid, Kitab al-Usul, edited by A.D. Neubauer, Oxford, Mecc LXXV (1875), Col.12 10.

(٩) العين، ج ١، ص ١٠٨-١٠٩.

(١٠) الأصول، صود ٥-٦.

(١١) العين، ج ١، ص ٥٩.

(١٢) Ibn Janah, Abu al-Walid, Kitab al-Luma', edited by J. Derenbourg and William Bacher under the Title of " Le Livre de Parterre Fleuris " Paris, 1886, p. 29.

(١٣) العين، ج ١، ص ٤٧.

(١٤) اللع، ص ٢٨.

(١٥) العين، ج ١، ص ٥٧، صنف الخليل الهمزة هنا مع الحركات الثلاثة الألف والواو والياء، ونسب موضع نطقها إلى الهواء (انظر ص ٧ هامش ٢٣ من البحث)، وعلى الرغم من كثرة ما دار من نقاش حول وضع الهمزة عند الخليل مع الحركات، إلا أنه يمكن القول إنه من المعروف في الصرف العربي أن الهمزة تشارك حروف العلة في قواعد كثيرة سوغت جعلها ضمن باب الإعلال* الخاص بحروف العلة مع أنها من الحروف لصحاح. ولعل هذا هو الذي يفسر ما فعله

الخليل. ويؤكد هذا أنه عند تحديده لمخرج الهمزة يقول: ولما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق مهتوتة مضغوطة فإذا رفة عنها لانت فصارت لياء والولو والألف عن غير طريقة للحروف لصاح. العين، ج ١، ص ٥٢.

(١٦) للمع، ص ٢٦، الصحاح.

(١٧) العين، ج ١، ص ٥٧-٥٨.

(١٨) السابق، ج ١، ص ٥٨.

(١٩) السابق، ج ١، ص ٥٢.

(٢٠) للمع، ص ٢٧.

(٢١) سيوييه، أبو بشر عمرو عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق: محمد عبد السلام هارون، القاهرة،

١٣٨٥، ١٩٦٩م، ج ٣، ص ٥٥٢.

(٢٢) للمع، ص ٢٦.

(٢٣) سيجال، السابق، ص ١٠١.

(٢٤) سيوييه، الكتاب، ج ٤، ص ٤٢٣.

(٢٥) العين، ج ٤، ص ٣١٩-٣٢٠.

(٢٦) Hayyuj, Abu Zakariyya Yehuda ben Dawud, Kitab al-Afal Thawat Huruf al-

Lin, edited by M. Jastraw, Leiden, 1897, p.8

(٢٧) العين، ج ٨، ص ٣٩٨، ج ٨، ص ٢٠٢.

(٢٨) الأفعال نوات حروف اللين، ص ٢٥، ص ٢٣.

(٢٩) والواقع أن حيوج استخدم هذه المصطلحات السالفة جنبا إلى جنب مصطلح التلين. السابق،

ص ٣٦، ٢٣، ١٣، ٥، متأثرا أيضا بالخليل الذي استخدم المصطلحات نفسها كما في العين،

ج ٢، ص ٣٥٨، ج ٥، ص ٣٢٧، ج ٨، ص ٣٠٠.

(٣٠) للمع، ص ٢٦.

(٣١) العين، ج ١، ص ٥٧.

(٣٢) الجامع، ص ٣٥.

(٣٣) السابق، ص ٣٤.

(٣٤) العين، ج ١، ص ٤٩.

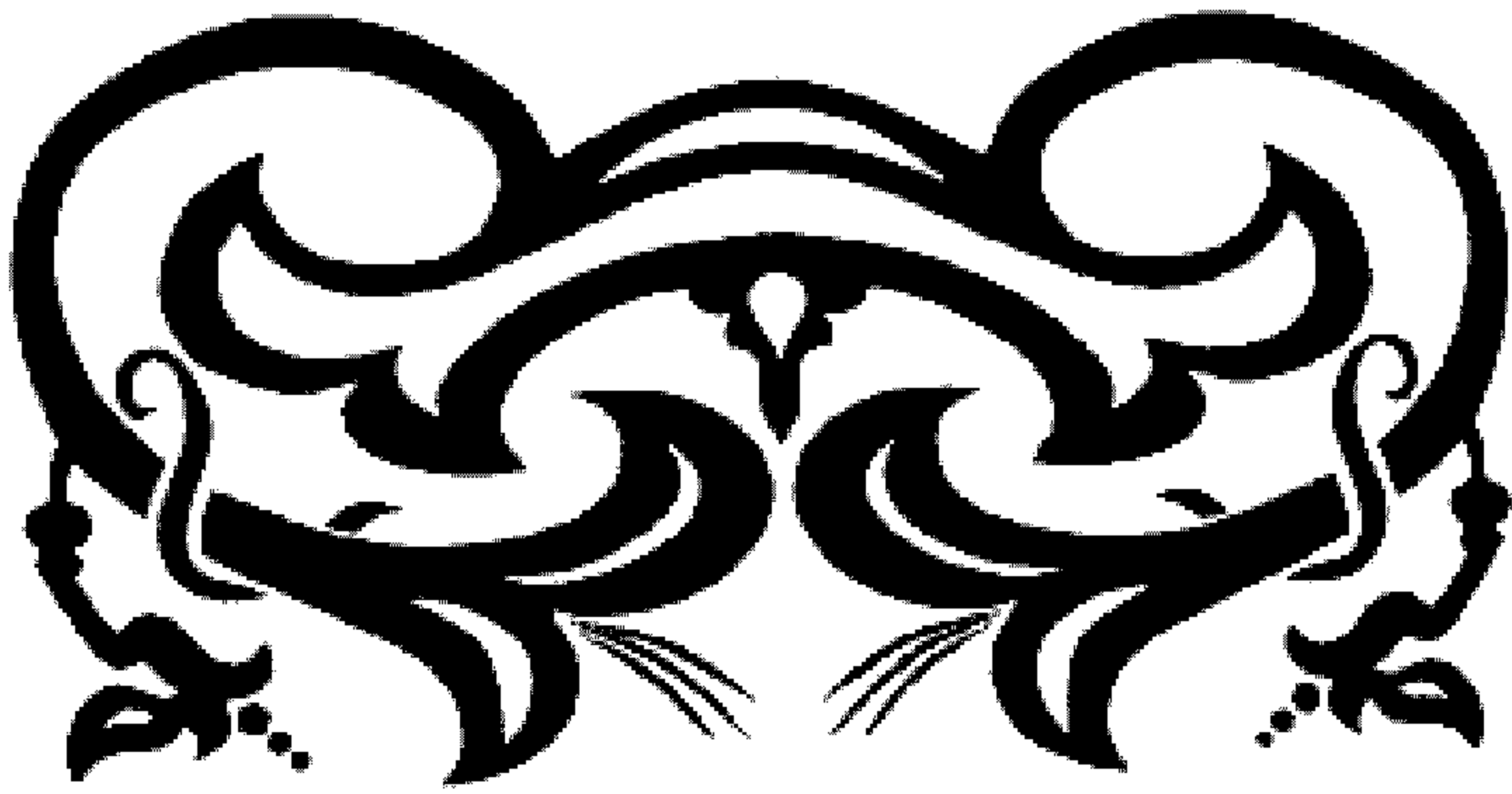
(٣٥) للكتاب ج ٢، ص ٢١٧. ج ٢، ص ٣١٥. ج ٢، ص ٣٥٧.

(٣٦) سعديا جاعون أقدم النحاة العبرانيين، تأليف س. ل. سكوس، ترجمة وتعليق: سلوى ناظم،

القاهرة ١٩٩٤م، ص ١٦١.

(٣٧) للمع، ص ٢٩.

- (٣٨) سيجال السابق، ص ١١٧.
- (٣٩) العين، ص ١٥٨.
- (٤٠) سيجال السابق، ص ١٠١.
- (٤١) العين، ج ١، ص ٥٨.
- (٤٢) السابق، ج ١، ص ٥١.
- (٤٣) سيجال السابق، ص ١٠١.
- (٤٤) العين، ج ١، ص ٥٨.
- (٤٥) السابق.
- (٤٦) اللع، ص ٢٧.
- (٤٧) الكتاب، ج ٢، ص ٤٠٧.
- (٤٨) اللع، ص ٢٧.
- (٤٩) العين، ج ١، ص ٥١.
- (٥٠) السابق، ج ١، ص ٥٢.
- (٥١) محمد كمال بشر، كتاب العين للخليل بن أحمد وموقعه في آثار الدارسين، حوليات كلية دار العلوم، ١٩٧٠-١٩٧١م، ص ٣٠.
- (٥٢) الأعمال نزلت حروف اللين، ص ٢١.
- (٥٣) العين، ج ١، ص ٤٨.
- (٥٤) السابق، ج ١، ص ٥٥.
- (٥٥) السابق، ج ١، ص ٥٤.
- (٥٦) جامع الألفاظ، ج ١، ص ٩-١٠.
- (٥٧) اللع، ص ١٤٤.
- (٥٨) رضي الدين الأسترياذي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ج ١، ص ٤٧.
- (٥٩) العين، ج ١، ص ٢٠٥.
- (٦٠) السابق، ج ١، ص ٥٣ و ج ٨، ص ٢٧٤ على التوالي.
- (٦١) الكتاب، ج ٢، ص ٢٠١.
- (٦٢) سعاديا جاؤون أقدم النحاة العبرانيين، ص ١٥٥ و ٢١٤ على التوالي.
- (٦٣) الإيقاع الشعري، دراسة صوتية مقارنة بين بحور العربية والعبرية، ليلى أبو المجد، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة، سلسلة فضل الإسلام على اليهود واليهودية، العدد (٦)، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م، ص ١٢٤.
- (٦٤) السابق، ص ٩٧.



جهود الخليل بن أحمد في صناعة المصطلحات النحوية

المجلد الثاني

أ.د. عوض بن حمد القوزي
جامعة الملك سعود - السعودية





جهود الخليل بن أحمد في صناعة المصطلحات النحوية

أ.د. عوض بن حمد القوزي

المقدمة:

لم تر العربية عبقرياً كالخليل، وهو قول لا ينكره أحد، فقد انعقدت آراء الدارسين العرب والمستعربين على سموّ قامته العلمية، وسبقه إلى اختراعات متنوعة، فهو الذي استنبط المقاييس الموسيقية التي أخضع لها الشعر العربي في بحوره وأوزانه، وهو أول من حصر ألفاظ العربية وحدد المستعمل منها والمهمّل في كتابه "العين" وكانت اللغة العربية شغله الشاغل، وسلوته في الحضور والخلوة، وقد ترجم انشغاله هذا إلى أفعال، فإلى جانب "العين" وما تطلبه من جهد فكري غير عادي، لم يغب عنه أن يحصر حروف المعجم، فكان أول من نظمها في بيت واحد هو قوله^(١):

صِفْ خَلْقَ خَوْذِ كَمَثَلِ الشَّمْسِ إِذْ بَرَّغَتْ يَخْطِي الضَّجِيعُ بِهَا نَجْلَاءَ مِعْطَارُ

وهو الذي وضع رموز الشكل المعروفة لضبط الكتابة العربية بالحركات التي نعرفها اليوم، فقد روى أبو الحسن بن كيسان عن محمد بن يزيد المبرد أنه قال: "الشكل الذي في الكتب من عمل الخليل، وهو مأخوذ من صور الحروف، فالضمة واو صغيرة الصورة في أعلى الحرف؛ لفلا تلتبس بالواو المكتوبة، والكسرة ياء تحت الحرف، والفتحة ألف مبطوحة فوق الحرف"^(٢)، وقال أبو عمرو الداني: "أول من صنّف النقط ورسمه في كتاب، وذكر علّه الخليل بن أحمد، ثم صنّف ذلك بعده جماعة من النحويين والمقرئين، وسلكوا فيه طريقه، واتبعوا سنته، واقتدوا بمذاهبه"^(٣) ومفهوم النقط هنا الشكل بالحركات إلى جانب نقط الحروف بنقط الإعجام، وعامة اللفظ عند الداني لا يفرق بين الحركة ونقط الحرف في مسمى النقط، إلا أنه يفرق بينهما بلون الحبر المستخدم في الإعجام والشكل^(٤). وهو الذي استنبط من علم النحو ما لم يسبق إليه، فإذا ما ذكر النحو ذكر سيبويه، وما أن يذكر سيبويه حتى يقفز اسم الخليل إلى الذاكرة، وما ذلك إلا لتأثر سيبويه بالخليل،

حتى إن عامة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل، وكما قال سيبويه: "سألته، أو قال: قال"، من غير أن يذكر القائل، فهو الخليل بن أحمد^(٥)، وقد صدق سفيان الثوري عندما قال: "من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك، فلينظر إلى الخليل بن أحمد"^(٦) لكثرة عبادته وصلاحه، وزهده وغزارة علمه، وحسن أدبه، وفضله على العربية وأهلها، لقد كان رحمه الله تعالى الغاية في تصحيح القياس، واستخراج مسائل النحو وتعليقه^(٧).

وليس المقام هنا مقام ترجمة لل خليل؛ لأن بحوثاً أخرى ستتعرض بذلك، وبالرغم من هذا فإن الحديث وإن كان علمياً يأبى أبو عبد الرحمن إلا أن يستأثر به، ويصرفه لحسابه، لما له من سيطرة قوية على الفكر العربي واللغوي منه على وجه الخصوص، ولأنه مؤسس لكثير من العلوم، فلا غرابة أن يجد المرء نفسه منقاداً للوقوف على نشاط هذا الرجل، الذي أفنى حياته في البحث والتتقيب، ليصيب علماً لم يؤت غيره مثله، فحيثما تبحث في علم العربية ستجد الخليل ماثلاً أمامك يعلن أنه السباق إلى ما أنت فيه؛ ومن أجل ذلك فيكفي أن تقتصر هذه الورقة على جهوده في (حركات الإعراب ووجوهه) وما أصابها على يديه من استقرار حتى يوم الناس هذا. ومرجعنا في ذلك كتاب سيبويه، ذلك الكتاب الذي يعد الشاهد الأول على جهد الخليل في التأسيس الحقيقي لعلم النحو العربي^(٨). فعن كتابه بقول المازني: "ما أخلو في كل زمن من أعجوبة في كتاب سيبويه"^(٩) ووصفه ياقوت بأنه "لم يشذ عنه من أصول فنّه شيء"^(١٠) ومن عجائب هذا الكتاب ما اشتمل عليه من فكر لل خليل فقد كان سيبويه يستزيده علماً، ويحرص على الأخذ عنه والطلب بين يديه، فهو يسأله عن الأحكام والعلل والقياس، وإليك أنموذجاً لبعض الدروس التي تلقاها سيبويه عن أستاذه الخليل:

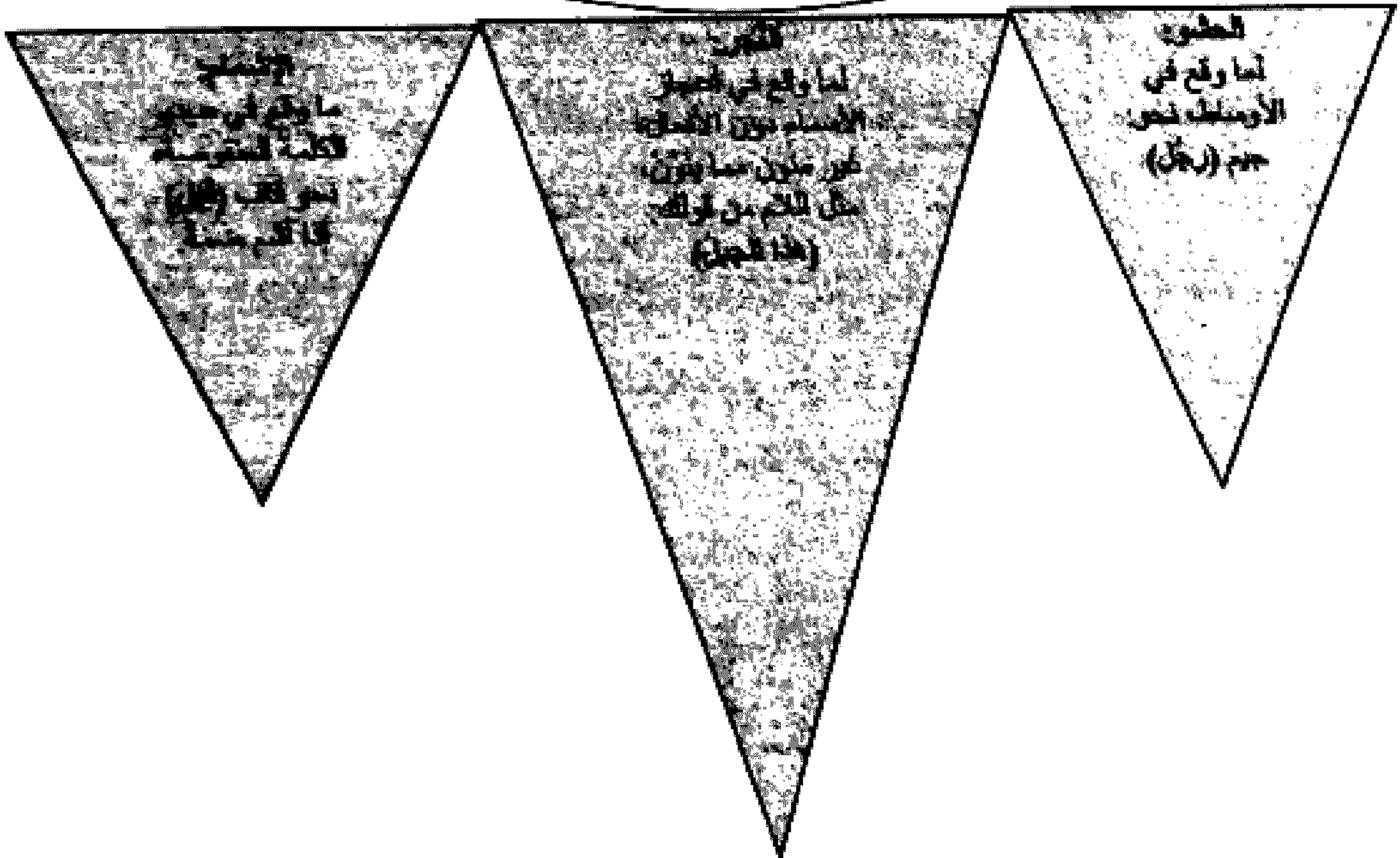
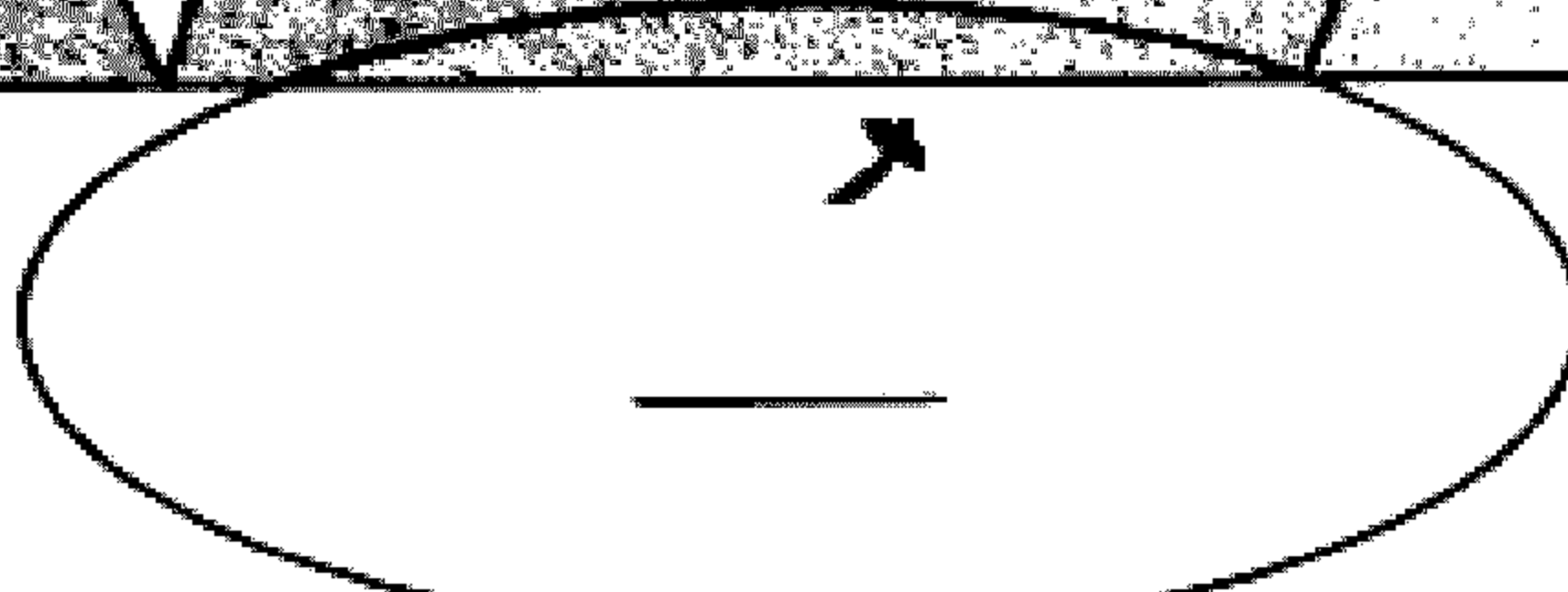
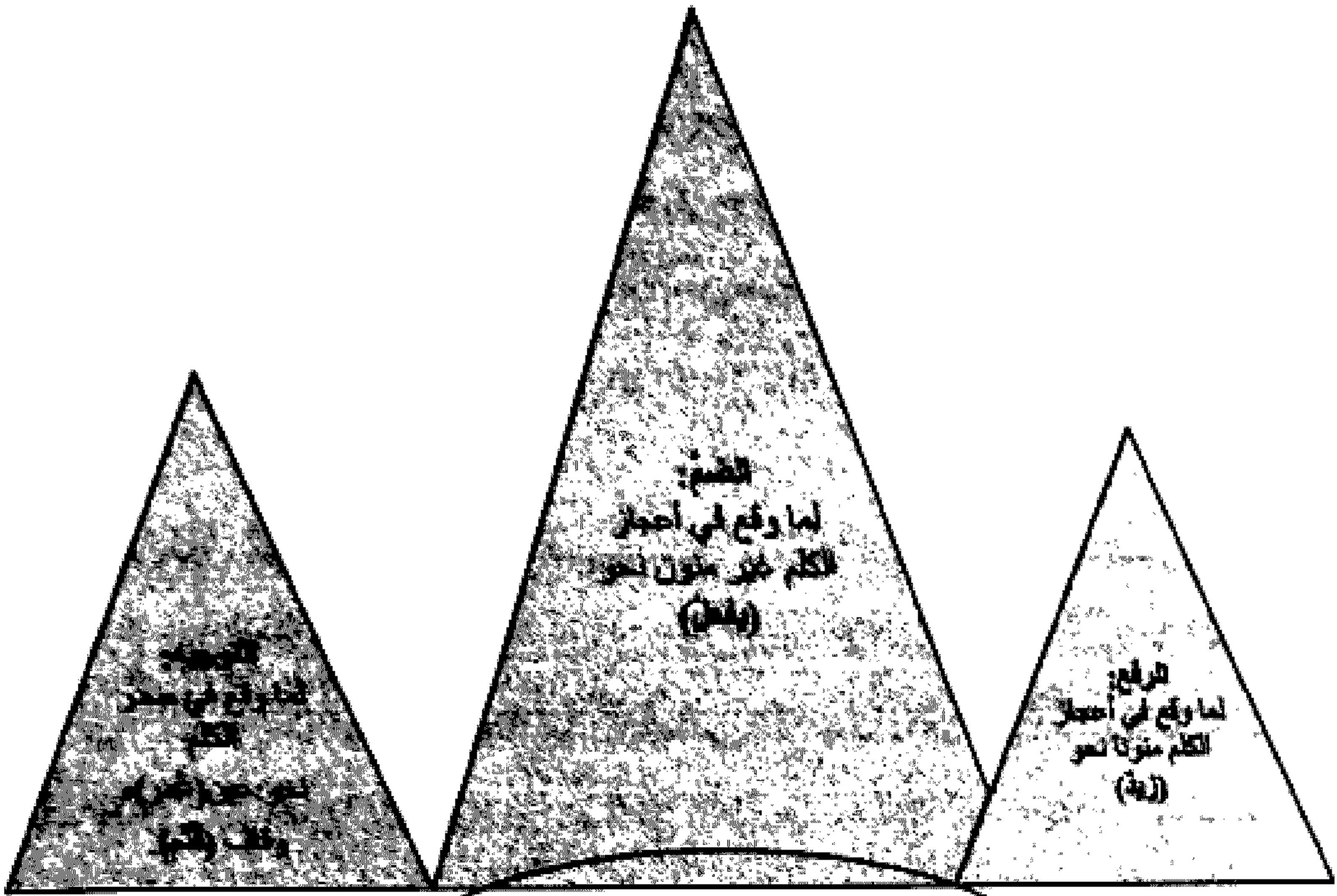
عقد سيبويه باباً بعنوان: "هذا باب إرادة اللفظ بالحرف الواحد"^(١١). قال:

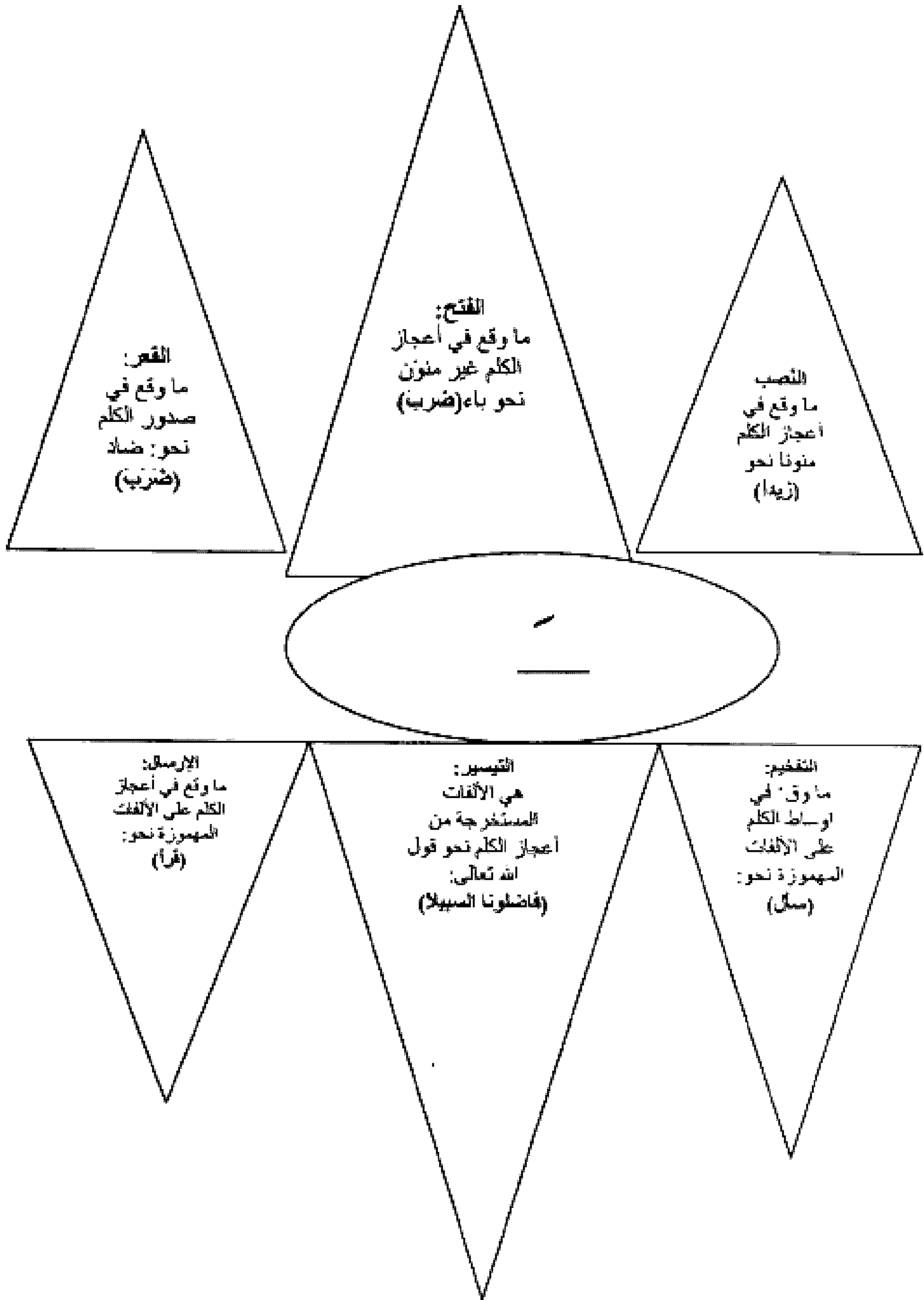
قال الخليل يوماً - وسأل أصحابه: كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالكاف التي في (ذلك) والكاف التي في (مالك) والباء التي في (ضرب)؟ فقيل له: "نقول: باء، كاف، فقال: "إنما جنتم بالاسم ولم تلفظوا بالحرف، وقال أقول: (كة)، (وبه)، فقلنا:

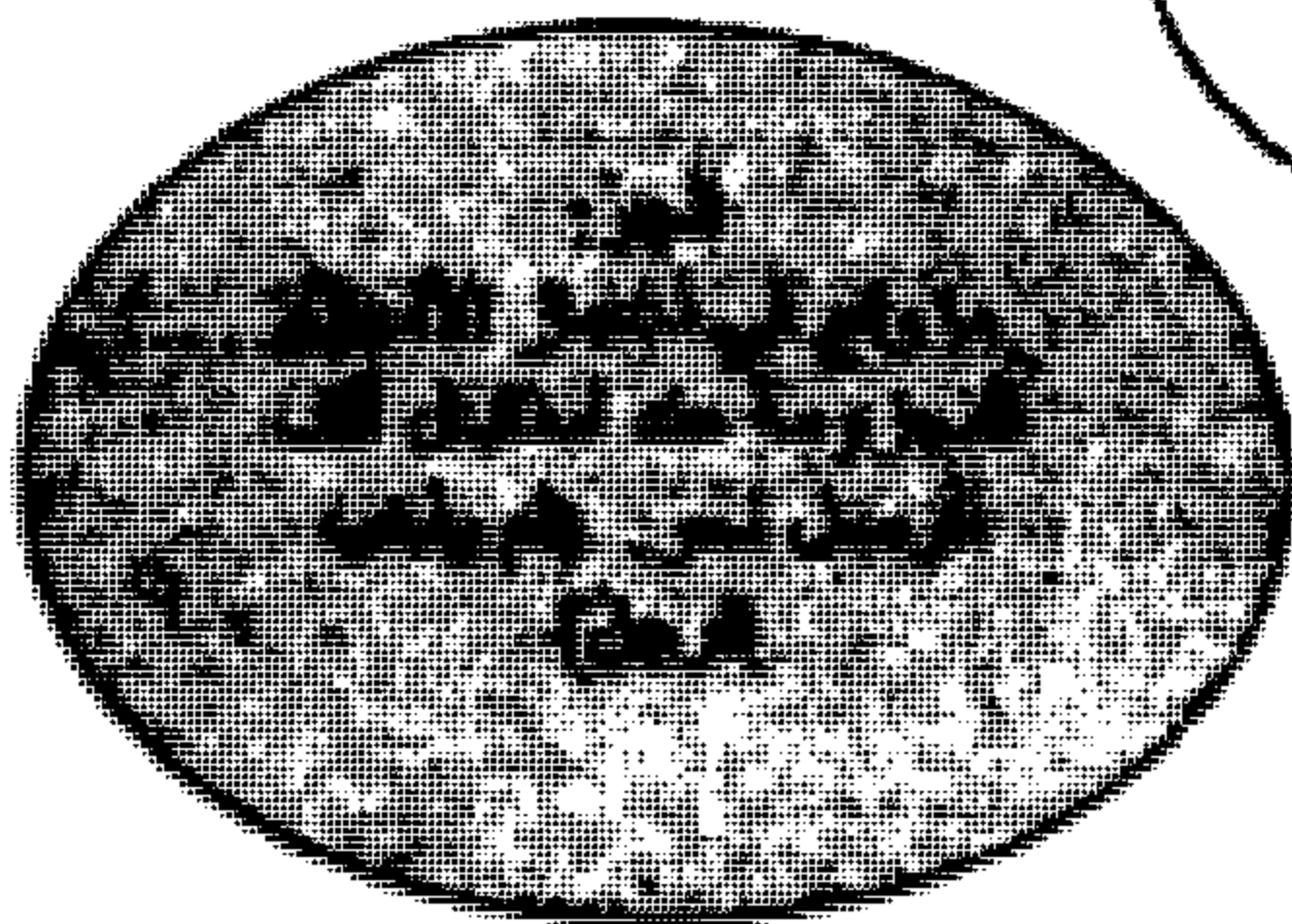
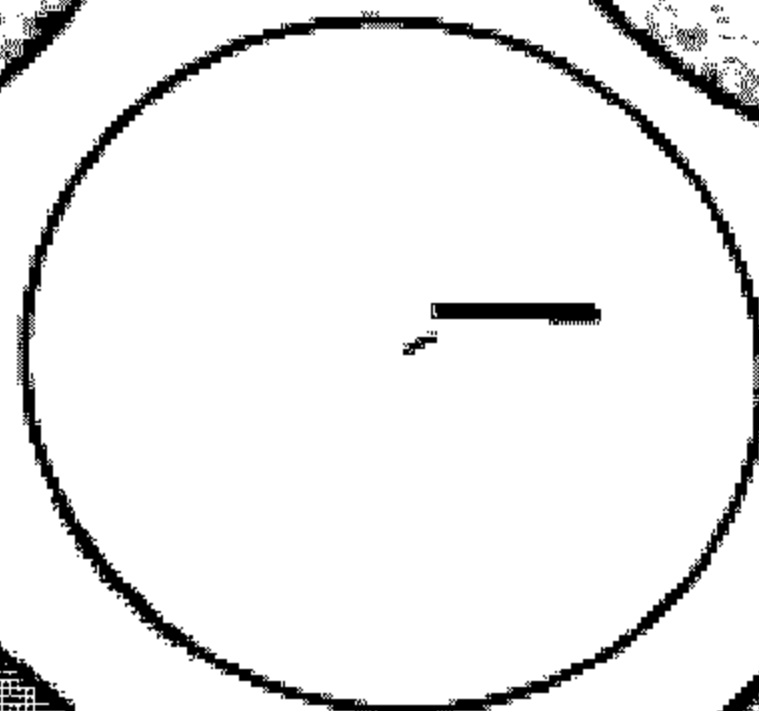
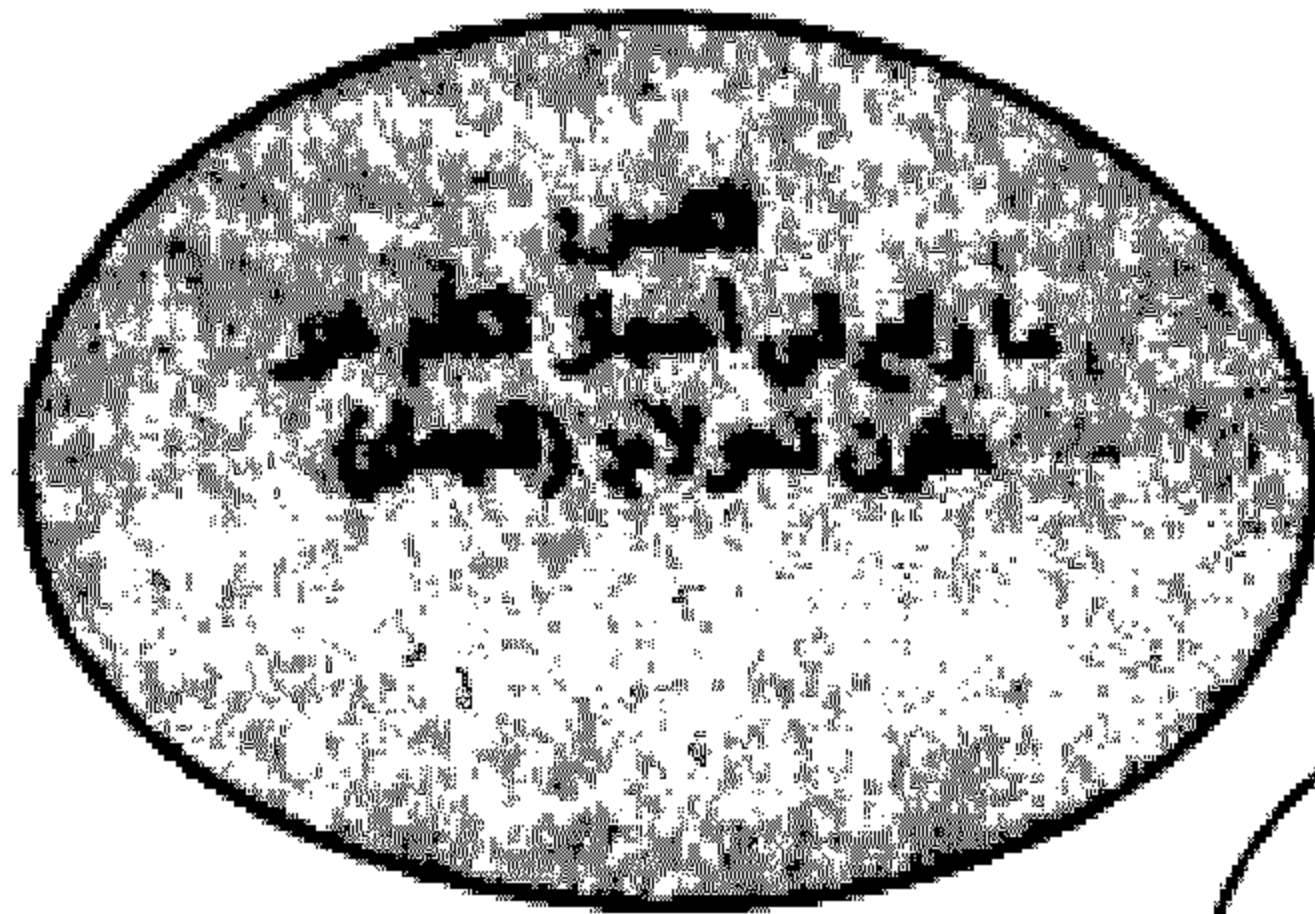
لم ألحقت بالهاء؟ فقال: رأيتهم قالوا: (ع) فألحقوا هاء حتى صيروها يستطاع الكلام بها، لأنه لا يلفظ بحرف، فإن وصلت قلت: (ك)، و(ب) فاعلم يا فتى، كما قالوا: ع يا فتى فهذه طريقة كل حرف كان متحركاً... وهكذا يمضي سبويه وزملاؤه في السؤال، ويأخذ الخليل في التفسير والاستشهاد في مشهد يعكس طبيعة الدرس النحوي في مدرسة الخليل. والخليل -رحمه الله- يفرق هنا بين الحرف صوتاً واسم ذلك الحرف، ومثل هذا اللون من الأداء لا يكاد يعرف قبل الخليل، فعذ بحق مؤسس علم الأصوات في العربية.

وإذا كان "نقط الحرف" بدأ على يد أبي الأسود الدؤلي، علاجاً للحن الذي فشا عند قراءة بعض الحروف في القرآن، وأن نقط الإعجام ظهر على يد تلميذه نصر بن عاصم، علاجاً لقضية التصحيف التي وقع فيها كثير من الناس، لا سيما أولئك الذين دخلوا في الإسلام، ورغبوا في العربية، فخانتهم السليقة، واضطروا لالتماس الحل عند ذوي الفهم والابتكار، فإذا كانت هاتان الخطوتان الموفقتان عالجتا قضيتين هامتين متصلتين بقراءة القرآن الكريم هما اتقاء اللحن والتصحيف، فإن العمل الذي مارسه الخليل بن أحمد في هذا الصدد يعد نقلة فكرية تطويرية قُدَّت على غير قياس، فقد استعاض الشكل بالنقط للدلالة على حركات الإعراب، حيث استعمل الشكل بصور تدل على الحركة الصوتية للحرف، فالفتحة من الألف، والضممة من الواو، والكسرة من الياء^(١٢).

ونظر الخليل إلى الكلمة نظرة شمولية لأولها ووسطها وآخرها، ولم يقصر اهتمامه على حرف دون آخر، بل ضبط حروف الكلمة كلها، وكانت الحركات ووجوه الإعراب عنده كما يأتي^(١٣):







المضاد
ما وقع في أصل الأفعال نحو قام
(قام)

الجزء:
ما وقع في أجزاء الأفعال المجزومة نحو
باء: (اضرب)

○
—

التوافق:
ما وقع في أجزاء الأفعال نحو من: (من)

١- الإمالة:

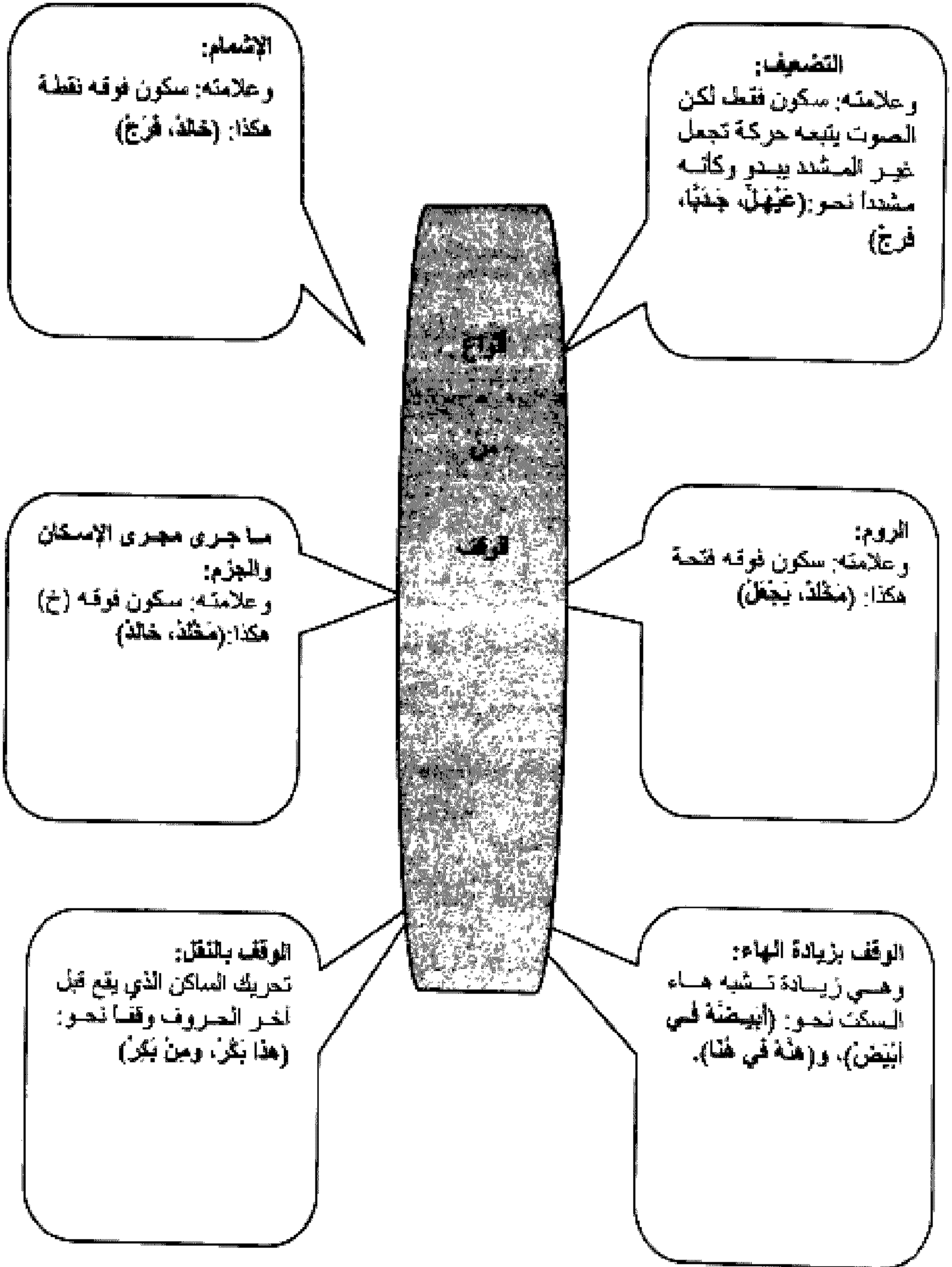
ما وقع على الحروف التي قبل
الياءات والواووات المرسلة نحو:
(عسى، ومؤمن).

١- التنوين
وهو ضد الإمالة.

ما يتبع وجوه
الإعراب:

٣- التنبرة

هي الهمزة التي تقع في
لواخر الأفعال والأسماء
نحو: (سبا، وقراء، وملا)



وبالرغم من دقة نصر بن عاصم (ت ٥٨٩/٧٠٧م) في ترتيب حروف العربية، ذلك الترتيب الذي انتهى فيه إلى جمع الحروف المتشابهة، فالحق كل أخ بأخيه، ثم وضع نقط الإعجام في ترتيب بديع أفراداً وأزواجاً أو ثلاثاً، فوق الحرف أو تحته تجنباً للبس^(١٤).

بالرغم من ذلك الجهد الخارق الذي بذله نصر في ترتيب الحروف إلا أن الخليل - رحمه الله - لم يسلم به، فابتدع ترتيباً جديداً بناه على مخارج الحروف بدأ بحروف الحلق - والعين أولها - فحروف الحنك، ثم الأضراس، ثم الشفة، وجعل حروف العلة آخرها وهي الحروف الهوائية^(١٥) وهو ترتيب فتح الأفق للغويين بعده لينازعوه الترتيب في المخارج^(١٦). فجاء سيويوه بترتيب خالف فيه أسناده في بعض المخارج، ونقل حروفاً من المكان الذي وضعها فيه الخليل إلى أماكن أخرى وجعل عدة المخارج ستة عشر، ورتبها على غير ما رتبها عليه الخليل، وهو وإن تابع الخليل في عدد الحروف العربية وأنها تسعة وعشرون حرفاً، فإنه قال: "وتكون خمسة وثلاثين حرفاً بحروف هن فروع، وأصلها من التسعة والعشرين، وهي كثيرة يؤخذ بها ويستحسن في قراءة القرآن والأشعار... وتكون اثنين وأربعين حرفاً بحروف غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة من ترنضى عربيته، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر... وهذه الحروف التي تمتها اثنين وأربعين جيدها ورديتها أصلها التسعة والعشرون..."^(١٧). ثم إن ترتيب معجم العين على النهج الذي اختطه الخليل على غير قياس، جعل المهتمين بالتأليف المعجمي يتقصون صعوباته فينتكبونها، ويسهلون الوصول إليها معلنين اعترافهم بسبقه وفضله، معتذرين بما أصاب الناس بعد عصر الخليل من نقص في الفهم، وعجز عن إدراك مقاصده ومراميه، يقول ابن دريد (ت ٥٣٢١هـ) وهو يقدم "جمهرة اللغة": "وقد ألف أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفرهودي رضوان الله عليه، كتاب العين، فأتعب من تصدي لغايته، وعنى من سما إلى نهايته، فالمنصف له بالغالب معترف، والمعاند متكلف، وكل من بعده له تبع، أقر بذلك أم جحد، ولكنه - رحمه الله - ألف كتابه مشاكلاً لتقوب فهمه، ونكاه فطنته، وحده أذهان أهل دهره"^(١٨).

وإذا عدنا للحديث عن جهود الخليل في صناعة المصطلحات النحوية فإننا نواجه صعوبة بالغة أدركها كثير من الباحثين المعاصرين الذين تعرضوا لكتاب سيبويه بشيء من الدرس والتحصيص^(١٩) وذلك بسبب ضياع كثير من الجهود المبذولة في التراث النحوي من عهد أبي الأسود الدؤلي حتى عصر الخليل، الأمر الذي جعل القطع بنسبة هذا المصطلح أو ذاك لل خليل أو لغيره صعباً، إذ لا يبعد أن يروي سيبويه اصطلاحاً عن الخليل، يكون الخليل نفسه قد لفته من أساتذته، وليس من اختراعاته، لكن عدم وجود دليل على ذلك، ولما عرف عن الخليل من الذكاء الخارق والقدرة على الاختراع والاستنباط والتعليل^(٢٠). لكل هذا فليس أمام الباحث بَدٌّ من نسبة المصطلحات المروية عن الخليل إليه حتى يقوم الدليل على غير ذلك، بالرغم من وجود شيء من شعور الاطمئنان بأن النحو لم يتخذ اصطلاحاته العلمية إلا على يدي الخليل، وأنه أسسه على قواعد وأصول ثابتة، واستحق أن يوصف بأنه "المؤسس الحقيقي لعلم النحو العربي الذي وضعه سيبويه في كتابه بعد أن تلقاه عنه وتعلمه عليه"^(٢١).

وعند استعراض المصطلحات المنسوبة لل خليل تبرز أمام الباحث ملاحظة جديرة بالاهتمام، أعني عدم استقرار المصطلح النحوي في هذه المرحلة، وقد نبّه على ذلك كثير من الباحثين المحدثين^(٢٢).

ففي الوقت الذي نقرأ لسيبويه ما يفيد التفريق بين النون والتنوين من مثل قوله: "واعلم أن العرب يستخفون فيحذفون النون والتنوين، ولا يتغير من المعنى شيء، وينجرّ المفعول لكف التنوين من الاسم فصار عمله فيه الجرّ، ودخل في الاسم معاقباً للتنوين"^(٢٣). لا تلبث أن تتراجع عندما تراه يعود فيلبس الأمر عليك بتسمية التنوين نوناً وذلك في مثل قوله: تقول: هذا ضارب عبد الله وزيداً يمرّ به، إن حملته على المنصوب، فإن حملته على المبتدأ وهو (هذا) رفعت، وإن أقيمت النون تريد معناها فهو بتلك المنزلة"^(٢٤) فسبويه يسمي التنوين نوناً مع علمه بأن النون أقوى من التنوين، وأن العرب لم يُجروا عليها ما أجروا على التنوين^(٢٥)، وما علل له بدقة من عدم جزم الأسماء إذا جعل لحاق التنوين بها سبباً قوياً،

حيث يقول: "فإذا ذهب التتوين لم يجمعوا على الاسم ذهابه وذهاب الحركة"^(٢٦). إن هذا التعاقب بين الفون والتتوين في الدلالة على مصطلح واحد عند سيبويه دليل أكيد على أن هذا المصطلح ككثير من المصطلحات لم يتخذ شكله النهائي واستقراره الحقيقي، وهو ما أسمىه بالتردد بعيداً عن وصفه بالمشترك أو المترادف^(٢٧). وما ذلك التردد في استعمال أحد المصطلحين مكان الآخر إلا للعلاقة الكبيرة بين النون والتتوين، فهو عبر عن التتوين بالنون والدراسة الصوتية تؤيده، إذ إن التتوين نون ساكنة زائدة تلحق حركة آخر الكلمة^(٢٨)، لكن ذلك لم يطرد في الكتاب، فكثيراً ما نراه يعبر عن كل منهما باصطلاحه الخاص، روى ابن جني عن ابن سلام: قال سيبويه: كان عيسى بن عمر يقرأ: ﴿عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ﴾ [سورة التوبة، الآية ١٠٩]، قلت: على أي شيء نون؟ قال: لا أدري، ولا أعرفه، قلت: فهل نون أحد غيره؟ قال: لا^(٢٩).

هذا الأسلوب عند سيبويه فتح الباب أمام الفراء، ليسمي التتوين نوناً أيضاً، يقول: سمعت كثيراً من القراء الفصحاء يقرؤون: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [سورة الإخلاص الآيتان ٢، ١] فيحذفون النون من (أحد)^(٣٠)، ولكنه يسميه تتويناً أيضاً في مكان آخر^(٣١)، وهو وإن حاكى سيبويه بفعله هذا، فربما كان يرمي إلى مخالفة المصطلحات البصرية عامة، شأنه في ذلك شأن علماء الكوفة الذين كانوا يقصدون إلى المخالفة قصداً، حتى لو وسعتهم الموافقة^(٣٢).

ولما كان اصطلاح التتوين معروفاً عند تلاميذ أبي الأسود^(٣٣)، فإن فضل الخليل ليس في الابتكار، ولكن فضله كبير في تثبيت هذا المصطلح، والتمييز بينه وبين الغنة، ثم بينه وبين النون، وتفصيل القول في حالات وروده حتى إنه ليصبح عنده علماً على الأسماء، فهذه أسماء منونة^(٣٤). وتلك أسماء غير منونة^(٣٥)، وأخيراً يستقر كإحدى العلامات الدالة على الأسماء في حال التكرير - وإن كان برجستراسر يري أنه ربما كان التتوين في الأصل علامة للتعريف؛ لأن أصله هو (التمييم)، وللتمييم آثار من معنى التعريف في الأكدية العتيقة^(٣٦).

ومما يتصل بحركات الحروف أصوات وضع الخليل اصطلاحاتها هي :

الإمالة: وهذا الاصطلاح جعله الخليل لذلك للصوت الذي يقع على الحروف التي تسبق الياءات أو الواوات المرسله، نحو عَيْسَى، ومُوسَى، وجعل ضده التفخيم^(٣٧). كما أن الخليل يسمي الإمالة أيضاً (الإجناح)، قال سيبويه: "زعم الخليل أن إجنّاح الألف أخفّ عليهم، يعني الإمالة.."^(٣٨). وقال: "وَمَا لَا يَمِيلُونَ أَلْفَهُ (حَتَّى، وَأَمَّا، وَإِلَى)، فَرَّقُوا بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَلْفَاتِ الْأَسْمَاءِ نَحْو: حَبْلِي، وَعَطْشِي، وَقَالَ الْخَلِيلُ: لَوْ سَمِيَتْ رَجُلًا بِهَا وَامْرَأَةً جَازَتْ فِيهَا الْإِمَالَةُ"^(٣٩)، فالإمالة عند الخليل مرادفة للإجناح، وكلاهما لمعناه من لفظه نصيب، ولكن الذي استقر عند سيبويه ومن جاء بعده هو اصطلاح "الإمالة" وفصل في ذلك كثيراً، فبين إمالة الألف^(٤٠)، وما يمنع من الإمالة من الألفات^(٤١) وما يعال من الحروف التي ليس بعدها ألف^(٤٢)، كما بين أحكام حروف المعجم في الإمالة^(٤٣). ونظراً لصلة الإمالة بالكسر، فقد عبر بعض النحويين عن الإمالة بالكسر، كما سماها بعضهم بالإضجاع^(٤٤)، وجعل الخليل الإضجاع لما وقع في أوساط الكلم نحو باء (الإيل)^(٤٥).

١- الرّوم: وهو الإشارة للحركة بصوت خفي، وروم الحركة يكاد الحرف يكون به متحركاً، ألا تراك تفصل به بين المذكر والمؤنث في قولك في الوقف: (أنت، وأنت)، فلو لا أن هناك صوتاً لما وجدت فصلاً بينهما^(٤٦).

٢- الإشمام: وهو ضم الشفتين بعد تسكين الحرف الأخير في الوقف على المضموم وهو للعين نون الأذن، وقد جعله الخليل لما وقع في صدور الكلم المنقوصة نحو قاف (قيل) إذا أشم ضمة، وعليه النحاة في مثل هذا الحرف، قال ابن مالك:

وَإِكْسِرَ أَوْ اشْمِمْ فَا ثَلَاثِي أَعْلِ عَيْنًا، وَضُمَّ جَا كَبُوعٌ فَاحْتَمِلْ

وقد قرئ في السبعة قول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْبِعِي وَغِيضٌ﴾ [سورة هو، الآية ٤٤] - بالإشمام في (قيل، وغيض)^(٤٧).

٣- التضعيف: وهو عند الخليل أن تقف على حرف لا يكون الذي بعده إلا متحركاً، لأنه لا يلتقي ساكنان نحو قولك..... "هذا خالد، وهو يجعل" تقف على الدال واللام،

وقد عقد سيبويه باباً سماه "باب الوقف في آخر الكلمة المتحركة في الوصل التي لا تلحقها زيادة في الوقف" وخص المرفوع والمضموم بأن يوقف عنده على أربعة أوجه: بالإشمام، إذا أرادوا أن يفرقوا بين ما يلزمه التحريك في الوصل، وبين ما يلزمه الإسكان على كل حال... فإن راموا الحركة فإنه دعاهم إلى ذلك الحرص على أن يخرجوها من حال ما لزمه إسكان على كل حال... وأما الذين ضاعفوا فهم أشدّ تأكيداً، أرادوا أن يجينوا بحرف لا يكون الذي بعده إلا متحركاً، فهو أشدّ مبالغة وأجمع، وقد جعل سيبويه لهذه الأنواع من الوقف علامات، فلإشمام نقطة، وللحرف الذي أجري مجرى الجزم والإسكان الخاء، ولروم الحركة خط بين يدي الحرف، وللتضعيف الشين هكذا: فالإشمام: قولك: هذا خالد، وهذا فرج، وهو يجعل. والذي أجري مجرى الإسكان والجزم: قولك: مَخَلَّدٌ، وخالذ، وهو يجعل. وأما الذين راموا الحركة فهم الذين قالوا: هو عَمْرٌ، وهذا أحمدٌ. كأنه يريد رفع لسانه. قال سيبويه: "حدثنا بذلك عن العرب الخليل وأبو الخطاب، وحدثنا الخليل عن العرب أيضاً بغير الإشمام وإجراء الساكن"^(٤٨).

ويظهر فضل (التضعيف) في قوافي الشعر عندما قالت العرب (سَبَسَبًا) و(عَيْهَلٌ) وهم يريدون (السبَسَب) و(العَيْهَل) لأن التضعيف لما كان في كلامهم في الوقف، أتبعوه الياء في الوصل، والواو على ذلك، كما يلحقون الواو والياء في القوافي فيما لا يدخله ياء ولا واو في الكلام وأجروا الألف مجراها؛ لأنها شريكتهما في القوافي، ويمدّ بها في غير موضع التتوين" قال الشاعر:

ببازِلٍ وجَنَاءٍ أو عَيْهَلٌ

فشدد اللام في الوصل ضرورة، لأنه حرف متحرك أصلاً. ومثل ذلك قول ربيعة:

لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَرَى جَدْبًا
فِي عَامِنَا ذَا بَعْدَ مَا أَخْصَبْنَا

يريد: جدباً، فشدد الياء وحرك الدال بحركة الباء قبل التشديد، لانتقاء الساكنين، ومثله "أخصبنا" حين شدد الباء ضرورة^(٤٩).

إلا أن التضعيف لا يدخل الكلمة التي يكون الحرف الذي قبل آخرها ساكناً نحو (عمرو)، و(زيد)، وعلّة ذلك أن الذي قبله لا يكون ما بعده ساكناً، فيجتمع ساكنان، بخلاف مثل (خالد، وفرّج)، وأشار سيبويه أن العرب قد تدع الإشمام وروم الحركة أيضاً كما فعلوا بالوقوف على الدال في (خالد) ^(٥٠).

وهناك الوقف بزيادة الهاء، ولعلها للسكت؛ ليكون الحرف أكثر وضوحاً وبيانياً، قال سيبويه: "حدثني من أتق به أنه سمع عربياً يقول: "أعطني أبيضة، يريد (أبيض) والحق الهاء، كما ألحقها في (هنة) وهو يريد: (هنا) ^(٥١).

ثم الوقف بالنقل، وهو تحريك الحرف الساكن الذي يقع قبل آخر الحروف وفقاً؛ كراهة التقاء الساكنين، نقل سيبويه عن العرب قولهم: (هذا بكر) و(من بكر)، واستشهد بقول الشاعر:

أنا ابن مأوية إذ جدّ النقر

فألقي حركة الراء على القاف للوقف، ونقل عنهم قولهم: هذا عدل وفيل ^(٥٢). وهناك أصوات تلاحظ عند الوقف غير ما تقدم، كالوقف عند حروف القلقلة، كما أن الوقف على بعض الحروف لا تسمع معه نفخاً ولا صغيراً كالوقف على اللام والنون.

والوقف بالإدغام والهمز وحروف اللين أحكام كثيرة نقلها سيبويه ووثقها إما عن العرب مباشرة أو لقفها من شيوخه وفي مقدمتهم الخليل رحمه الله جميعاً ^(٥٣)، ولولا خوف الإملال والإطالة لنقلت ما جاء في هذه الأبواب من أقوال الخليل وسيبويه.

وبعد: فهذه وقفة عجلية عند بعض المصطلحات التي وضعها الخليل بن أحمد - رحمه الله - لحركات الحروف، لم يقصرها على حروف الإعراب - كما هو الحال عند أبي الأسود - ولم يخصصها بالمعرب دون المبني، أو الفعل دون الاسم والحرف، بل جعلها شاملة أنواع الكلم، وحروف الكلمة أولها ووسطها وآخرها، وأشار إلى ما يعتري تلك الحركات من تغيير عند الوقف، فضبط اللغة، وأمن جانب اللحن والتصحيف، والله دره، فلقد كان مهتماً بضبط العلوم التي يتعرض لها، معنياً بالإبداع فيها، يأبى التقليد والاتباع، ويصمم على الابتكار، ألم يقل إنه يريد أن يقرب نوعاً من الحساب تمضي به الجارية إلى البقال، فلا يمكنه

ظلمها؟^(٥٤)، فكأنه في اللغة وضبط قوانينها ومعانيها ومخارج حروفها وإعرابها يريد أن يصنع قانوناً لغوياً يمكن غير العربي من العربية كي تصبح على لسانه أقرب إلى السليقة - رحمه الله رحمة واسعة. هذا وقد تضمن كتابنا "المصطلح النحوي" وقفة متأنية مع الخليل وسيبويه وجهودهما في صناعة المصطلح النحوي، وهي جهود ضخمة لا أحب إنقال هذه الجزئية بها - بالرغم من أهميتها -، والله أسأل أن يرحم الخليل وينفع بعلمه، ويهدينا إلى سواء السبيل.

الحواشي:

- (١) انظر: بغية الوعاة، ج ١، ص ٥٥٩.
- (٢) المحكم في نقط المصاحف، الداني، ص ٧.
- (٣) المصدر السابق، ص ٩.
- (٤) انظر: مثلاً قول الداني، ص ١٤٤، ١٤٧، ١٥٢ وغيرها.
- (٥) انظر: نزهة الألباء، ص ٤٦.
- (٦) المصدر السابق، ص ٤٨.
- (٧) انظر: معجم الألباء، ج ١١، ص ٧٣.
- (٨) انظر: مقدمة ابن خلدون، ص ٥٤٤.
- (٩) خزنة الأديب، ج ١، ص ١٧٩.
- (١٠) معجم الألباء، ج ١٦، ص ١١٧.
- (١١) الكتاب، ج ٢، ص ٦١.
- (١٢) انظر: وفيات الأعيان.
- (١٣) انظر: مفاتيح العلوم، ص ٣٠.
- (١٤) انظر: معجم الألباء، ج ١٩، ص ٢٢٤.
- (١٥) انظر: المعجم العربي بين الماضي والحاضر، ص ٢٧-٢٨.
- (١٦) انظر: جمهرة اللغة، ج ١، ص ١٦-١٧.
- (١٧) الكتاب، ج ٢، ص ٤٠٤ - ٥٠٤.
- (١٨) جمهرة اللغة، ج ١، ص ٤٠.
- (١٩) انظر: أبو زكريا الفراء ومنهجه في النحو واللغة، ص ٤٣٧.
- (٢٠) انظر: طبقات النحويين واللغويين، ص ٤٧.
- (٢١) انظر تاريخ الأدب العربي، ج ٢، ص ١٣١.
- (٢٢) انظر: سيبويه إمام النحاة، ص ١٦٦، سيبويه حياته وكتابه، ص ٣٠.
- (٢٣) انظر: الكتاب، ج ١، ص ٨٣-٨٤، ثم انظر: الصفحات (٨٦، ٣١١، ٣٤٥).
- (٢٤) انظر: المصدر السابق، ص ٤٨.
- (٢٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٤٩.
- (٢٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢.
- (٢٧) انظر: الفراء ومنهجه في النحو واللغة، ص ٤٣٩.
- (٢٨) انظر: لرتشاف الضرب، ج ١، ص ١١٣، وانظر تفسير الطبري، ج ١٦، ص ٨٦.

- (٢٩) المحتسب، ج ١، ص ٣٠٤، وانظر: الكتاب، ج ١، ص ٣٥٠، ثم انظر: نفسه، ج ٢، ص ٥٧.
- (٣٠) معاني القرآن، ج ١، ص ٤٣٢.
- (٣١) انظر: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٣-٧٠.
- (٣٢) انظر: نشأة النحو، ص ١٢٢، ثم انظر: المدارس النحوية، ص ١٦٥.
- (٣٣) انظر: المصطلح النحوي، نشأته وتطور، ص ٤٥-٤٦.
- (٣٤) انظر: الكتاب، ج ١، ص ٢٩٥، ٣١٠، ج ٢، ص ٥٨.
- (٣٥) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٢٣، ٣٠٣، ج ٢، ص ٥٨.
- (٣٦) انظر: التطور النحوي، ص ٧٧.
- (٣٧) انظر: مفاتيح العلوم، ص ٣٠، والخصائص، ج ٢، ص ١٤١.
- (٣٨) الكتاب، ج ٢، ص ١٤١، وانظر: المقتضب، ج ٣، ص ٤٢.
- (٣٩) الكتاب، ج ٢، ص ٢٦٧.
- (٤٠) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٦٢.
- (٤١) نفسه، ج ٢، ص ٢٦٤-٢٦٦.
- (٤٢) نفسه، ج ٢، ص ٢٧٠.
- (٤٣) نفسه، ج ٢، ص ٢٦٧.
- (٤٤) انظر: أبرز المعاني، ص ٣٣.
- (٤٥) انظر مفاتيح العلوم، ص ٣٠.
- (٤٦) انظر الخصائص: ج ٢، ص ٣٢٨، وانظر: تهذيب اللغة، ج ١١، ص ٢٩١ (روم)، والإتقان، ج ١، ص ٩١.
- (٤٧) انظر: شرح ابن عقيل، ج ١، ص ٥٠٢-٥٠٥.
- (٤٨) الكتاب، ج ٢، ص ٢٨١-٢٨٢.
- (٤٩) انظر: الكتاب، ج ٢، ص ٢٨٢-٢٨٣.
- (٥٠) انظر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٨٣.
- (٥١) الكتاب، ج ٢، ص ٢٨٣.
- (٥٢) انظر: الكتاب، ج ٢، ص ٢٨٣-٢٨٤.
- (٥٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥٨.
- (٥٤) انظر: معجم الأدباء، ج ١١، ص ٣٤٦.

المصادر والمراجع:

- ١- أبو زكريا الفراء ومنهجه في النحو واللغة: الأنصاري، أحمد مكي، القاهرة، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.
- ٢- الاتقان في علوم القرآن: السيوطي، أبو الفضل، عبد الرحمن بن الكمال أبو بكر جلال الدين، مطبعة الجوائب، القسطنطينية، ١٣٠٢هـ / ١٨٨٢م.
- ٣- إنباه الرواة على أنباه النحاة: تأليف الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م.
- ٤- بنية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة المصرية، بيروت/ لبنان، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.
- ٥- تاريخ الأدب العربي: بروكلمان، نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار، الطبعة الثالثة، دار المعارف، مصر، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.
- ٦- التطور النحوي: برجشتراسر، مطبعة السماح، القاهرة، ١٣٤٩هـ / ١٩٢٩م.
- ٧- تفسير الطبري: (جامع البيان عن تأويل القرآن): الطبري، أبو جعفر بن يزيد حقه وعلق حواشيه: محمود محمد شاكر، وراجعته: أحمد محمد شاكر، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.
- ٨- تهذيب اللغة: الأزهرى، أبو منصور محمد بن أحمد، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.
- ٩- خزائن الأدب: البغدادي، عبد القادر بن عمر، الطبعة الأولى، بيروت، د.ت.
- ١٠- الخصائص: ابن جني، عثمان، تحقيق محمد علي النجار، الطبعة الثانية، بيروت سنة ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م.
- ١١- سيبويه، حياته وكتابه: بقلم الدكتور أحمد أحمد بودي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، الطبعة الثانية، د.ت.
- ١٢- سيبويه إمام النحاة: ناصف، علي النجدي، القاهرة، ١٣٨٢هـ / ١٩٥٣م.
- ١٣- شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك: ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله بن عقيل، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة عشرة، القاهرة، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.

- ١٤- طبقات النحويين واللغويين: الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٣٩٢هـ/١٩٧٣م.
- ١٥- كتاب جمهرة اللغة: لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد، حققه وقدم له: الدكتور رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
- ١٦- الكتاب: لأبي عمرو المقلب سيوييه، الطبعة الأولى، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، مصر، ١٣١٦هـ.
- ١٧- المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها: ابن جني، عثمان، تحقيق على النجدي ناصف وآخرين، القاهرة، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.
- ١٨- المحكم في نقط المصاحف: لأبي عمرو الوائي، تحقيق عزة حسن، الطبعة الثانية، دمشق، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
- ١٩- المدارس النحوية: ضيف، شوقي، الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
- ٢٠- معجم الأدياء: لياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأخيرة (سلسلة الموسوعات العربية)، د.ت.
- ٢١- المعجم العربي بين الماضي والحاضر: للدكتور عدنان الخطيب، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- ٢٢- مفاتيح العلوم: للإمام الأديب اللغوي الشيخ أبي عبد الله محمد بن أحمد ابن يوسف الخوارزمي، منشورات مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- ٢٣- المقتضب: المبرد، محمد بن يزيد، تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة، القاهرة، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.
- ٢٤- المقدمة: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، الطبعة الثالثة، بولاق، ١٣٢٠هـ/١٩٠٠م.
- ٢٥- نزهة الأدياء في طبقات الأدياء: لأبي البركات، كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنباري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة، ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م.
- ٢٦- نشأة النحو: الطنطاوي، محمد، تعليق عبد العظيم الشناوي، ومحمد عبد الرحمن الكردي، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

**مساهمة الخليل بن أحمد الفراهيدي
في وضع المصطلح**

٢٠٢٠

أ.د. محمد زمران

جامعة باتنة - الجزائر





مساهمة الخليل بن أحمد الفراهيدي في وضع المصطلح

أ.د. محمد زرمان

المقدمة:

لا يختلف اثنان في أن الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي عاش في القرن الثاني للهجرة كان طفرة عجيبة من طفرات الحضارة العربية الإسلامية الناشئة آنذاك، وظاهرة علمية متميزة أثارت -على مر العصور- وما زالت تثير إلى يومنا هذا كثيرا من علامات التعجب والاستفهام معا. فقد استطاع هذا الرجل بعقله الجبار ومواهبه المتعددة أن يحفر اسمه بقوة وجدارة في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية التي تدين له بما أسس فيها من العلوم التي تفتحت عنها عبقريته الفذة، فأصل أصولها، ووطد أركانها، وشاد صرحها، وسلمها لمن خلفه آية في التنظيم والتبويب والإحاطة والاستيعاب.

وإذا كان الباحثون والدارسون لا يذكرون علوم النحو والعروض والمعجمية إلا مقرونة باسم الخليل، منوهين بأسبقية فضله فيها، فإن مساهمته في صياغة المصطلحات ووضعها، التي تعد الثمار القصوى للعلوم، لا تقل أهمية عن جهوده العلمية العظيمة. ذلك أن ميلاد المصطلح وتداوله على الألسنة واحتكاره لمداول معين لا يشاركه فيه غيره يعني أن العلم قد استكمل أسباب وجوده واستوى على سوقه، وبلغ مرحلة متقدمة من النضج بحيث أصبح قادرا على إنتاج المصطلحات التي تضبط معارفه، وتكون مرتكزا لنموه وتطوره.

وقد ضرب الخليل بن أحمد بسهم وافر في وضع المصطلحات لمختلف العلوم التي كان له الفضل في ابتكارها، وتلك التي تسلمها ممن سبقه سانجة فطورها، وهذبها، واستكمل أدواتها للمعرفة بحيث أبانت هذه المصطلحات التي ما زال القسم الأعظم منها قيد الاستعمال إلى يومنا هذا عن قدرة الخليل العجيبة على الإحاطة الشاملة بأطراف العلوم التي تناولها، واستيعابه التام لكل شاردة وواردة فيها، مما أتاح له المجال لضبط مصطلحاتها، وحصر حدودها، ووضع قواعدها العامة.

ومما لا شك فيه أن لخليل إسهاماته الكبيرة في وضع المصطلح في مختلف العلوم التي كانت معروفة في زمنه كالإبلاغ والنقد والصرف والصوتيات والنغم والإيقاع وغيرها، غير أننا سنقتصر في هذا البحث على نوعين من مصطلحاته هما: المصطلح النحوي والمصطلح العروضي، لأن النحو والعروض من أبرز العلوم التي برع فيها، وترك بصماته العميقة والواضحة فيهما، ولا يزالان شاهدين على عبقريته.

وتطمح هذه الورقة إلى مقارنة إسهامات الخليل في وضع المصطلح في علوم اللغة العربية وبخاصة منها المصطلح النحوي والمصطلح العروضي، من خلال تحديد مفهوم المصطلح وتوضيح أهميته، وتتبع حركة تطور المصطلح العربي منذ العصر الجاهلي حتى زمن الخليل، ثم بيان دور الخليل في التأسيس لبعض علوم العربية كالنحو والعروض والمعجمية ذات الصلة الوثيقة بالمصطلح، ومحاولة دراسة جهوده في وضع المصطلح النحوي والعروضي، ثم التطرق في الأخير إلى منهجه في وضع المصطلح والذي يعتمد أساساً على استثمار اللغة العربية بكل ما تتوفر عليه من إمكانات الاشتقاق والقياس والتشبيه والمجاز وما إليه، واستلهاً البيئة وتوظيف الميزان الصرفي في صياغة المصطلح العروضي.

أولاً: مفهوم المصطلح وأهميته.

أ. مفهوم المصطلح لغة:

ورد في مقاييس اللغة: أن الصاد واللام والحاء أصل واحد يدل على خلاف الفساد^(١) وأن كلمة مصطلح في اللغة مشتقة من المادة "صَلَحَ" أو صَلَحَ ومنها الصَّلَاح والصُّلُوح. وجاء في لسان العرب: "الصلح: تصالح القوم بينهم، والصلح: السلم. وقد اصطَلَحوا وصالَحوا واصلَحوا، أي اتَّفَقوا وتوافقوا"^(٢)، وفي تاج العروس: "الصلاح ضد الفساد، ويقال: وقع بينهما صلح: تصالح القوم بينهم وهو السلم، والصلح أيضاً اسم جماعة متصالحين، يقال: هم لنا صلح أي مصالِحون، والاصطلاح: اتفاق طائفة مخصوصة على أمر مخصوص"^(٣)، وفي معنى كلمة اصطلاح ورد في المعجم الوسيط: يقال اصطَلَح القوم أي زال ما بينهم من خلاف،

واصطلحوا على الأمر أي تعارفوا عليه، وانفقوا. وتصالحووا بمعنى اصطلحوا، والاصطلاح مصدر اصطّح، وهو اتفاق طائفة على شيء مخصوص^(٤).

والفعل "اصطّح" عندما يكون لازماً يفيد زوال الخلاف وصفاء النفوس، أما إذا تعدى بحرف الجر فإنه يفيد التعارف على أمر والاتفاق عليه، لذلك كان اسم المفعول "مُصطّح" بحاجة إلى جار ومجرور ليستقيم التركيب اللغوي فنقول: المصطّح عليه، قياساً على قولنا المتعارف عليه، والمنفق عليه، غير أن كثرة استعماله مجرداً عن الجار والمجرور، ووضوح دلالاته في الأذهان قد أدت إلى الاستغناء عنهما^(٥)، والاقتصار على اسم المفعول الذي أصبح على تقدير متعلق محذوف.

ب. مفهوم المصطلح اصطلاحاً:

المصطلح هو كلمة أو رقم أو إشارة، يتفق على مدلولها جماعة من الناس ذات اختصاص واحد لتؤدي معنى معيناً، وتكون علامة عليه دون سواه، وهو ينبت من لغة التداول الاجتماعي، حين يقع عليه الاختيار فيخرج عن معناه اللغوي القاموسي إلى معنى جديد مشحون بجملة من المضامين. وهذا الاختيار لا يكون عشوائياً ارتجالياً إذ: "لابد في كل مصطلح من وجود مناسبة أو مشابهة كبيرة كانت أو صغيرة بين مدلوله اللغوي ومدلوله الاصطلاحي"^(٦).

ويعدّ المصطلح ابتكاراً في اللغة يقوم به فرد من الناس أو جماعة محدودة، فإذا أصاب الحقيقة ووفق في التعبير عن المعنى المراد أخذ في الانتشار حتى يشيع ويتداول، من هنا كان المصطلح كائناً لغوياً متميزاً، مستقلاً ذاتياً، له مكانته الخاصة في المنظومة الثقافية. ونزوع الإنسان إلى وضع المصطلحات نابع من ميله إلى الاقتصاد الأدائي: أي أن يستأثر بأكبر النفع الذي يتسنى من أضعف الجهود^(٧).

ولكل علم مصطلحاته حتى وإن اشتركت جميعاً في المادة اللغوية التي تستخدمها، ذلك أن المصطلح يُشحن بالمعاني التي تناسب كل اختصاص فلا يقع الخلط بينها، فالضرب في مجال الرياضيات يختلف عنه في مجال العروض، والإخراج في العمل المسرحي شيء وفي علم نفس الطفل شيء آخر، وكذلك الوند فإنها عند اللغويين والمفسرين أحد أوتاد البيت، أو الجبل من قوله تعالى: "والجبال

أوتادا^(٨)، وعند أصحاب العروض: ثلاثة أحرف، اثنان متحركان وثالث ساكن، وعند المنجمين: أحد الأوتاد الأربعة التي هي الطالع، والغارب، ووسط السماء، ووتد الأرض^(٩).

وعليه، فإن المصطلح لغة خاصة تمكن أصحاب الاختصاص في مجال معين من إقامة حوار بناء سهل لهم سبل التواصل، ويجمعهم على قاعدة واحدة تساعد على تطوير مختلف العلوم وتنميتها، وهذه الخصوصية هي التي أكسبته استقلالاً ذاتياً، وتميزاً، ومناعة ضد التعامل معه إلا بشروط خاصة^(١٠)، تخضع للكَمّ المعرفي الذي يحمله، فلا يجوز التلاعب به في الاستعمال أو توظيفه في غير المجال الذي وضع له.

وقد عرفه عبد الصبور شاهين بأنه: "اللفظ أو الرمز اللغوي الذي يستخدم للدلالة على مفهوم علمي أو عملي أو فني أو أي موضوع ذي طبيعة خاصة"^(١١) وذلك استناداً إلى التعاريف التي جاءت في المعجم الإنجليزي الذي يعرف المصطلح (term) بأنه: "لفظ أو تعبير ذو معنى محدد في بعض الاستعمالات، أو معنى خاص بعلم، أو فن، أو مهنة، أو موضوع"^(١٢)، وعرف علم المصطلح (TERMINOLOGY) بأنه: "مجموعة من الألفاظ الفنية أو الخاصة المستعملة في عمل، أو فن، أو علم، أو موضوعات خاصة"^(١٣)، مستبعداً ما ورد في بعض التعاريف من اشتراط اتفاق طائفة معينة على أمر ما حتى يتم ميلاد المصطلح، معتبراً ذلك قصوراً في التعريف.

ولفظ المصطلح ليس غريباً على العرب، فقد عرفوا هذه الكلمة قديماً، واستعملوها في معاجمهم وكتبهم للدلالة على الألفاظ التي تحمل معاني خاصة. غير أن صيغة "اصطلاح" كانت أغلب عليهم من "مصطلح". فالخوارزمي (ت ٥٣٨٠هـ) في كتابه "مفاتيح العلوم" يذكر أنه ألف كتابه: "جامعاً لمفاتيح العلوم وأوائل الصناعات مضمناً ما بين كل طبقة من العلماء من المواضع والاصطلاحات"^(١٤). وسمى أبو منصور الحسن بن نوح القمري (ت أواخر القرن الرابع الهجري)، كتابه في الطب "التتوير في الاصطلاحات الطبية". وصدر الجرجاني كتابه "التعريفات" بقوله: "وبعد:

فهذه تعريفات جمعتها واصطلاحات أخذتها من كتب القوم، ورتبتها على حروف الهجاء من الألف والباء إلى الياء تسهيلا تناولها للطالين وتيسيرا تعاطيها للراغبين^(١٥). وجعل التهانوي (ت ١١٥٧هـ) عنوان كتابه الموسوعي "كشف اصطلاحات العلوم والفنون" ووضح أن سبب الحاجة إلى الأساندة في دراسة العلوم والفنون هو: "استنباه الاصطلاحات، فإن لكل اصطلاحا خاصا به"^(١٦).

ولعل ذلك ما جعل بعض الباحثين يعترض على استعمال صيغة "مصطلح" ويفضل "اصطلاح" عليها باعتبار أن الأولى لا تصح لغة: "إلا إذا اصطلحنا عليها، ذلك أن أسلافنا لم يستخدموها ولم ترد في المعجم لهذه الدلالة ولا غيرها، وإنما استخدم العرب بدلا منها المفردات الآتية: الاصطلاح، والكلمة، والمفردة، والمفتاح، واللفظ"^(١٧).

إلا أن هذا الحكم لا يمكن إطلاقه وتعميمه، لأن القدماء - على الرغم من إيثارهم للفظ اصطلاح - إلا أن ذلك لم يمنعهم من أن يستعملوا لفظ "مصطلح" في كتاباتهم دون أن يستشعروا حرجا في ذلك أو يشيروا إلى خطئها، أو عدم موافقتها لقواعد اللغة، فقد استعمل ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) كلمة "مصطلح" في الفصل الثاني والأربعين من مقدمته، الذي خصصه لتفسير "الذوق في مصطلح أهل البيان وتحقيق معناه، وبيان أنه لا يحصل للمستعربين من العجم"، وحين تحدث عن أهل التصوف قال: "ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم، إذ الأوضاع اللغوية إنما هي للمعاني المتعارفة، فإذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف، اصطلحنا على التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه"^(١٨).

ووظف القلقشندي (ت ٨٢١هـ) أيضا لفظ "مصطلح" في كتابه "صبح الأعشى" وردده مرارا وتكرارا، وكذلك الحال بالنسبة لابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ) في كتابه "التعريف بالمصطلح الشريف" ونور الدين العذري (ت ٨٠١هـ) في كتابه "مصطلح الإشارات في القراءات الزوائد الثلاثة عشر المروية عن الثقات" ومحمد ابن يوسف الهروي (توفي في مطلع القرن العاشر الهجري) في كتابه "بحر الجواهر في تحقيق المصطلحات الطبية" وغيرها من الآثار التي تدل على أن

العلماء قديماً لم يسعوا للتفريق بين صيغتي المصدر "اصطلاح" واسم المفعول "مصطلح" وهو ما ذهب إليه بعض الدارسين المحدثين الذين رأوا أن الصيغتين تؤديان المعنى نفسه، ووجودهما في ثنايا البحوث والكتب لا يؤدي إلى أي خلط باعتبارهما صورتين اشتقاقيتين للفعل "اصطلاح": "فنحن نتذوق في استعمالنا لكلمة (اصطلاح) معناها المصدرية الذي يعني الاتفاق والمواضعة والتعاون ونقصد في استعمالنا لكلمة "مصطلح" معناها الاسمي الذي يترجم كلمة (TERM) الإنجليزية. ولذلك لا نجد بأساً في أن نقول (إن اصطلاحنا على مصطلح ما ضرورة في البحث) وهو أولى وأفضل من أن نقول (إن اصطلاحنا على اصطلاح) بهذا التكرار الركيك" (١٩).

ج - أهمية المصطلح:

إن نشأة المصطلح في مجتمع ما ليست سوى استجابة واعية لمعطيات تاريخية يمر بها هذا المجتمع، وهي التي أفرزت الحاجة إليه في البناء النظري والنظام الفكري: "فالمصطلح يعبر عن الروح العامة ونظام الأفكار، وقواعد القانون السائدة في مجتمع ما، لذلك فهو جزء من المعادلة الاجتماعية، ويضرب بجذوره في الكيان المجتمعي" (٢٠).

وبذلك ترتفع قيمته عن كونه لفظاً كسائر الألفاظ ليصبح مستودعاً هاماً للمعاني والدلالات التي تحوي كوامن فلسفة الأمة وتراكمات فكرها ومعرفتها. وتمثل هذه المخزونات المعرفية المجال المغناطيسي الذي يشد المصطلح إلى دائرة معينة من المفاهيم، لذلك كانت قراءته وفهمه فهماً صحيحاً لا يتم إلا في الإطار الفكري والحضاري الذي أنجز فيه.

ولكل أمة مصطلحاتها التي تتخذ منها أوعية تصب فيها خلاصة تجاربها، ومعالم فلسفتها في الحياة، وتفصيل الركائز الثقافية التي تكون ملامح شخصيتها الحضارية. ومن خلال هذه المصطلحات تتواصل عقول أبنائها، ويجري بينهم الحوار المشترك البناء الذي يضع أسس التراكم المعرفي، لأن المصطلحات التي يتداولها أفراد المجتمع تختزن أنماطاً معرفية معينة تستثير في أذهان كل واحد منهم

ردود الأفعال نفسها لارتباطهم بها وجدانيا، إذ إنها تُكوّنُ جزءاً صميماً من لاشعورهم كونها مبنوثة في المجتمع، وممتدة الجذور في تاريخهم.

وهذه المصطلحات المولودة في فضائها الفكري الطبيعي تفتح أمام أصحابها طرقاً مختلفة للتفكير والتوليد، وتمهد سبل الإبداع والإنشاء التي تسهم في التغيير الفكري والتطوير المعرفي لأنها واضحة المعالم بوضوح القاعدة الثقافية والجزر اللغوي اللذين انبثقت عنهما، ولأنها تعبر عن حاجات المجتمع، وتمثل حلولا لمشاكله النابعة من طبيعة حركته في التاريخ، ومتطلبات واقعه وبيئته. ولذلك كانت المصطلحات - وبخاصة ما تعلق منها بالعلوم الإنسانية والاجتماعية - ذات صلة مباشرة بقضية الهوية، لأنها تعكس الجوهر الحضاري لأية منظومة فكرية.

وبالإضافة إلى أهمية المصطلح في الجانب الحضاري، فإنه يكتسي أهمية بالغة في جميع العلوم والفنون تتمثل في كونه الأداة الفعالة التي تمكن من تجميع طائفة من المعلومات أو الصفات النوعية أو الخصائص في أصغر حيز لغوي دال هو اللفظة^(٢١)، وبذلك يتم تعميم أو تجريد ظاهرة أو حالة أو إشكالية علمية أو ثقافية تجريداً ذهنياً وتخزينها فيه، بحيث تتداعى المعارف المشحونة فيه بمجرد التلطف به.

لذلك ارتبط ميلاد المصطلح بتطور العلوم ونموها، فكلما تراكمت الخبرات الإنسانية وتزايد حجم المعلومات التي تكتسبها البشرية في رحلتها نحو المجهول دعت الحاجة إلى إيجاد مصطلحات تحمل المعاني الجديدة، وتعبر عنها، وتكون نقطة انطلاق نحو مرحلة جديدة من الاكتشاف، وعليه فالمصطلحات هي خلاصة ما توصل إليه البحث العلمي في كل عصر ومصر: "ببدايتها يبدأ الوجود العلني للعلم وفي تطورها يتلخص تطور العلم"^(٢٢).

فلا غرو - إذن - أن يسميها الخوارزمي مفاتيح العلوم التي بدونها لا يمكن لأحد أن يفهم علماً ما فهما سليماً لكي يبني عليه تقويماً سليماً، وأن يعدها العلماء والباحثون ثمار العلوم القصوى، لأنها تجمع حقائقها المعرفية وخواصها التي تميزها عما سواها: "وليس من مسلك يتوصل به الإنسان إلى منطق العلم غير

ألفاظه الاصطلاحية، حتى لو كانت تقوم من كل علم مقام جهاز من الدوال، ليست مدلولاته إلا محاور العلم ذاته ومضامين قدره من يقين المعارف وحقيق الأقوال^(٢٣).

ثانياً: المصطلح قبل الخليل:

(أ) في العصر الجاهلي.

كان العرب أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب، ولم يكن لديهم رصيد يعتد به في مجال العلوم، فقد اقتصرت المعارف التي أتقنوها بحكم البيئة التي عاشوا فيها على علم الأنواء، حيث برعوا في تتبع الأنواء وتعرف أوقات نزول الغيث، كما مهروا في علم الأثر أو القيافة، إذ كانت لديهم دراية خاصة بمعرفة آثار الأقدام، واشتهر بينهم علم الأنساب، حيث حرصوا أشد الحرص على حفظ أنسابهم التي يعتمدون عليها في عقد محالفاتهم، وفي المنافسة على مراكز الرئاسة، وهي في جملتها معارف بسيطة كانت تفي بمتطلبات حياتهم، غير أنها - على الرغم من قيمتها العلمية - لم تكن ترقى لأن تسمى علوماً، لأنها كانت تتناقلها الأجيال شفهيًا، ولم تكن مدونة^(٢٤)، بالإضافة إلى معلوماتهم المباشرة عن أرضهم وما عليها من أشكال تضاريسية، وما يسودها من مناخ، وما يعيش على ظهرها من حيوان وما تخرجه من نبات. كما كانوا يتناقلون تراثهم الثقافي الذي يتمثل في الشعر والحكمة وأيام العرب، وقصص الأمم البائدة شفويًا، يتسلمها جيل عن جيل، وينشرونها في أنحاء الجزيرة من خلال المؤتمرات التي عرفت بأسواق العرب، وأشهرها سوق عكاظ على مقربة من الطائف.

وفي الناحية الأدبية كان العرب قبل الإسلام يعيشون نهضة أدبية تمثلت في ازدهار الشعر الذي كانوا ينشدونه في مختلف المواقف، يفتخرون فيه بشرف أصلهم، وكرم محتدّم، وحروبهم التي انتصروا فيها، ومشاعرهم الرقيقة تجاه المرأة، ورحلات صيدهم، وما إليها من مظاهر الحياة البدوية في الجزيرة العربية. وتكاد حياتهم الفكرية تنحصر في الشعر الذي أولوه اهتمامًا عظيمًا، وكانت له المكانة العليا عندهم، فلا عجب أن نجد لديهم جملة من المصطلحات الأدبية والنقدية

المتصلة بهذه الناحية، والتي تعبر عن مقدار الاحتفاء الذي حظي به الشعر في البيئة العربية القديمة.

فمن بين هذه المصطلحات نجد تلك التي تصنف الشعراء حسب مراتبهم من الأعلى إلى الأدنى: فأعلى منازل الشعراء عند العرب (الخنديذ)، وهي كلمة تطلق على الطويل، ورأس الجبل المشرف، والفحل، والشجاع، والسخي، والخطيب البليغ، والسيد الحكيم، والعالم بأيام العرب، والإعصار من الريح... ويستفاد من هذه الدلالات مبلغ سلطان الشعر الجيد على نفس العربي^(٢٥).

ويأتي (الخنديذ) في المرتبة أربع مراتب للشاعر: الشاعر، والشويعر والشعزور، والمتشاعر، وفي العمدة لابن رشيق: "قال الأصمعي فالشويعر مثل محمد بن حمران بن أبي حمران، سماه بذلك امرؤ القيس"^(٢٦).

ومثله في ذلك مصطلح (الحوليات) الذي كانت تطلقه العرب على القصائد التي يقضي أصحابها عاما كاملا في تنقيحها لتخرج في أجزل لفظ وأبهي حلة. يقول ابن قتيبة: "كان زهير يسمي كُبر قصائده الحوليات"^(٢٧) أي التي يأتي على نظمها حول كامل يظل فيه الشاعر يبدي النظر في قصيدته ويعيد حتى تستقيم له.

و(الإجازة) واحدة من هذه المصطلحات التي استعملها العرب في ميدان الشعر، وهي تعني أن يُتِمّ الناظم مصراع الناظم الآخر، أو ينظم بيتا على غرار بيت الآخر على نحو يحافظ فيه على التساوق بين المصراعين أو البيتين حتى كأنهما نسيج شاعر واحد لا شاعرين. قال ابن رشيق: "وأما الإجازة فإنها بناء الشاعر بيتا أو قصيما يزيد على ما قبله"^(٢٨). ويبلغ الإحسان في الإجازة ذروته عند تحقق التطابق التام بين المصراعين أو البيتين، وتطلب الإجازة من صغار الشعراء وناشتتهم للاطمئنان على قدرتهم وتمكنهم من ناصية النظم، كما تطلب من الشعراء بعضهم بعضا في مجالس الأوس أو مجالس الثباري.

ومنها أيضا (الرواية) ويعني مصطلح الرواية أن يلزم الشاعر الناشئ الشاعر المقلق، يسمع منه، ويستظهر شعره، ويندعه بين الناس، وبعد اتباع هذا المسلك في الجاهلية والسير عليه سبيلا من سبل تقوية الملكة الشعرية بإدراك العرب

قيمة المحفوظ من الشعر في إطلاق لسان الشاعر الناشئ^(٢٩).
 كما جسد عرب الجاهلية حسم الجمالي إزاء الشعر في عدة مصطلحات يطلقونها على القصائد كقولهم: المعلقة، والمذهبية، والآبدة، والبتارة، وسنطُ الدهر... إلخ. ينقل صاحب العمدة عن محمد بن أبي الخطاب من كتابه المسمى (جمهرة أشعار العرب) قوله: "إن أبا عبيدة قال: أصحاب السبع التي تسمى السمط: امرؤ القيس، وزهير، والنابغة، والأعشى، ولبيد، وعمرو بن كلثوم، وطرفة"^(٣٠)، ويقول ابن رشيقي: "وكانت المعلقات تسمى المذهبات، وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر، فكُتِبَتْ في القَبَاطِي بماء الذهب وعلقت على الكعبة، فلذلك يقال: مذهب فلان إذا كانت أجود شعره، نكر ذلك غير واحد من العلماء، وقيل: بل كان الملك إذا استُجِدَّت قصيدة الشاعر يقول: علقوا لنا هذه لتكون في خزانته"^(٣١).

ب) بعد الإسلام:

وهكذا كانت اللغة العربية مرآة عاكسة للحياة العربية البسيطة، ذات المضامين العلمية والحضارية المحدودة. ولم يعرف العرب المصطلح بمعناه العلمي الصحيح إلا عندما جاءهم العلم، ذلك أن نشوء المصطلح يستلزم وجود العلم أولاً، ولا بد لهذا العلم من مرحلة تراكمية تسهم في نشوئه وتطوره لتظهر الحاجة إلى المصطلح. وقد جاءهم العلم عن طريق القرآن الكريم الذي كان نزوله حدثاً تاريخياً عظيماً، وثورة حضارية كبرى، قلبت الموازين، وغيرت مجرى التاريخ. لأنه كان في مجمله رسالة تغييرية استهدفت تغيير الواقع الجاهلي بما فيه من أفكار ومفاهيم وعقائد ونظم وقوانين وقيم وأخلاق، وإعادة بناء ذلك كله على أساس جديد يتخذ من منهج الله وصراطه المستقيم أساساً ومرتكزاً.

وكان طبيعياً أن تتخذ المفاهيم الجديدة التي تعبر عن كليات الدين تسميات خاصة بها، تحمل مضامينها، وتعرب عن منهجها في العقيدة والأخلاق والتشريع، والسياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة، وما إليها من المجالات الحيوية التي غطاها الإسلام بتعاليمه، وشملها بمنهجه الإلهي المتكامل، وبذلك تأسس المصطلح العربي.

ومنذ أن انتزع القرآن الكريم من اللغة العربية كلمات بعينها، وشحنها بمعان

مخصصة، وقصرها على حقل دلالي ثابت تحولت إلى مصطلحات قرآنية تحمل معاني وأفكارا خاصة تختلف عن المعاني والأفكار والمفاهيم التي كانت تحملها قبل مجيء الإسلام، والتي ما زالت قواميس اللغة تحتفظ بمعانيها اللغوية التي وضعت لها قبل أن تتحول إلى مصطلحات إسلامية تعبر عن مقاصد الدين الجديد، وتحمل روحه وأهدافه، وتعمل على تغيير الواقع وإعادة صياغته وفق مقولات الوحي المعصومة.

فإذا كان لفظ الصلاة يعني في لغة العرب الدعاء مطلقا، فقد أصبح بعد نزول القرآن يعني تلك العبادة المعروفة بهيئتها وحركاتها، وما يصحبها من قراءة وأذكار، وإذا كانت الزكاة تعني النمو والزيادة فقد أصبح معناها ينصرف إلى ذلك المقدار المعلوم من المال الذي يتوجب على المسلم الغني إخراجه ليصرف في مجالات معلومة، وإذا كان الفسق في لغة العرب يعني خروج الرطب عن قشره، فقد أصبح اسما لمن خرج عن أوامر الشرع وجاهر بالمعصية وارتكب كبائر الذنوب وأتى الفواحش، وإذا كان الكفر يدل في لغة العرب على الستر والتغطية حتى إن العرب وصفت الليل بالكافر لستره الأشخاص، وقالت كفرت الشمس النجوم إذا غطتها، فقد أصبح يدل في اصطلاح القرآن على من يجحد وحدانية الله، وينكر النبوة والشرعية، وإذا كان النفاق أصله من نفاق اليربوع نفاقا إذا دخل في نفاقه وهي إحدى جحره التي يكتمها ويظهر غيرها، فقد أصبح يدل على من يخفي الكفر ويظهر الإيمان. وقس على ذلك جميع مفردات القرآن الكريم التي استوعبت الحقائق الشرعية، وأصبحت مصطلحات تكتنز المعاني الدينية، وكان لها الفضل في توسيع دلالات الألفاظ، وإثراء الرصيد اللغوي للعربية، ووضع منهاج يُحتذى في تحديد دلالات الكلمات تحديدا دقيقا بحيث يؤدي كل لفظ من ألفاظه معنى لا يمكن أن يؤديه لفظ آخر.

وأقبل المسلمون على كتاب ربهم يحفظونه، ويرتلونه آناء الليل وأطراف النهار، ويجتهدون في فهمه وفقه أحكامه، ويلتمسون فيه أصول تفكيرهم، ويكيفون سلوكهم وفق أحكامه الكلية ليضعوا القواعد الراسخة للحياة الجديدة. وعكفوا على مفرداته يتدبرونها لأنها تحمل في طياتها مفاهيم وتصورات للغرض منها التحول

إلى أفعال وحركات، وتجسيد الخطاب الشرعي في شكل سلوك إنساني ملتزم، باعتبار أن المصطلح القرآني يحمل دلالات معنوية ترتقي من مستوى المعاني الجزئية لتكون قضايا كلية كبرى، ومبادئ عامة، بل وأصولاً مذهبية^(٣٢)، وبذلك تحولوا إلى دعاة رسالة، وطالبي علم من المهد إلى اللحد، كل واحد منهم يتعبد بالعلم حسب مقدرته ومعارفه واختصاصه.

وكان هذا الانقطاع إلى كتاب الله والتأمل فيه وتدبر آياته فاتحة لثورة علمية كبرى فجرت ينابيع العلوم المتنوعة، بما حمله القرآن بين طياته من دعوة قوية وحرارة إلى العلم أثرت تأثيراً واضحاً وفعالاً في صياغة العقلية المسلمة صياغة علمية، وإعادة تشكيل العقل العربي تشكيلاً جديداً قائماً على النظر، والتأمل، والبحث، والاستقراء، والاستنتاج، مما أدى إلى شيوع التفكير العلمي والميل إلى ترتيب المعلومات ترتيباً منطقيًا، وتحليلها، وتعليلها، وتصنيفها، لأن نسيج القرآن ومعانيه المعجزة، من بدنها حتى منتهائها، في مجال العقيدة، والتشريع، والسلوك، والحقائق العلمية، تمثل نسقاً من المعطيات المعرفية التي كانت كفيلاً، بمجرد التعامل المخلص الذكي المتبصر معها، أن تهز عقل الإنسان، وأن تفجر ينابيعه وطاقاته، وأن تخلق في تركيبه خاصية التشوق المعرفي لكل ما يحيط به من مظاهر ووقائع وأشياء^(٣٣).

وكانت النتيجة المحتومة التي تمخضت عن هذه التحولات الحاسمة أن تشكل عقل جديد قادر على الاستيعاب والفعل والإضافة والإبداع. ومن ثم فإن (النقلة الحضارية) التي نفذها المسلمون وتحققوا بها عبر قرون التألق والعطاء، إنما جاءت ثمرة للعقلية العلمية الواعية المتفتحة التي صاغها الإسلام ومكّن لها. وأثمر ذلك حركة عقلية نشيطة بدأت بجمع القرآن الكريم، ثم الحديث الشريف، ثم الإقبال على جمع الشعر الجاهلي للاستعانة به في شرح ألفاظ القرآن وتفسير آياته واستنباط الأحكام الفقهية والتشريعية منها، واتسعت الدراسات لتشمل جمع اللغة العربية من أعماق بوادي الجزيرة العربية للوقوف عليها فصيحة سليمة قبل أن يشوبها الفساد ويلحقها اللحن، واستعمالها في فهم القرآن وتفسيره، وحفظ النص

المقدس من التحريف.

وقد أسهمت هذه النشاطات العلمية الحديثة في تنمية اللغة العربية وتطويرها وإغنائها، وأخذت تنزع نحو الاصطلاح بعد أن أحس العلماء بحاجتهم الملحة إلى استحداث منظومة مصطلحية تعبر عن المفاهيم العلمية والحضارية الناشئة، فتكونت لكل علم من العلوم السابقة الذكر مجموعة من المصطلحات التي حملت في طياتها كليات هذا العلم ومفاهيمه المختلفة.

ويعد مصطلح الحديث من أوائل المصطلحات التي ظهرت وانتشرت، وكان تأثير المصطلح الحديثي في نشأة المصطلح اللغوي والأدبي بارزا جدا بحكم تكوين اللغويين والنحاة والأدباء على أيدي المحدثين الذين كانوا يسيطرون على الساحة العلمية، ثم بتشابه الهدف الذي رامه النحاة واللغويون وهو توثيق النصوص، وجمع اللغة من مصادر صحيحة معتمدة، كما رام المحدثون توثيق السنة وجمعها من أصح سبيل^(٢٤). والمحدثون من أشد العلماء عناية بمصطلحاتهم في دقتها ومعانيها، ومنها: الحديث، السنة، الحفظ، السند، التثبيت، الرواية، الجرح والتعديل، التحمل، الأداء، الكذب، المرسل، الموقوف، المنقطع، السماع، الإجازة، المناولة، ولم يكتمل النصف الثاني من القرن الهجري الثاني حتى كان المصطلح الحديثي قد اكتمل واستقر.

وقد كان للمنهج العقلي المتفرد الذي سلكه المحدثون في تنقية السنة النبوية أثر عميق في جميع العلوم التي أنتجتها الحضارة الإسلامية، حيث أسهم بشكل قوي ومباشر في جعل العقل المسلم: يُنتقل من عقل خرافي يتبع الظنون والأوهام إلى عقل علمي يتبع الحجة والبرهان، ومن عقل مقلد تابع إلى عقل متحرر مستقل. ومن عقل متعصب إلى عقل متسامح. ومن عقل راكض إلى عقل متحرك^(٢٥)، لأن مصطلح الحديث كان أدق ميزان علمي عقلي لتمحيص الأخبار والروايات وتمييز زائفها من صحيحها^(٢٦)، وقد تتلمذ على هذا المنهج العلمي العقلي جميع العلماء المسلمين الذين شادوا صروح العلوم المختلفة. وتآلت بعد ذلك مختلف العلوم الشرعية التي واكب بعضها بعضا في النمو والتطور كعلم التفسير والفقهاء وأصوله والقراءات وعلم الكلام، والبلاغة والنقد وغيرها وأصبح

لكل علم منظومته المصطلحية التي تضبطه، وترسم حدوده.

أما المصطلح النحوي فقد تلا علم الحديث، ونشأ في بداية أمره بسيطاً ساذجاً على يد أبي الأسود الدؤلي (ت ١٦٩هـ) عندما قال لكتابه وهو بهم بنقط المصحف الشريف: "إذا رأيتي قد فتحت فمي بالحرف فانقطه نقطة فوقه على أعلاه، وإذا ضمنت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإذا كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف، فإذا أتبعت شيئاً من ذلك غنة فاجعل النقطة نقطتين"^(٣٧)، موضحاً حركات الإعراب التي تضبط أواخر الكلم، وكان يطلق على هذا التوجه نحو ضبط قواعد اللغة (علم العربية) قال ابن سلام الجمحي: "كان أول من استن العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها، ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي"^(٣٨)، ثم حدا حذوه تلاميذه ومن جاء بعده من علماء اللغة أمثال عبد الرحمن بن هرمز، ويحيى بن يعمر الذي استعمل مصطلحي (الرفع) و(النصب) في تقويمه لتطق الحجاج، وميمون الأقرن، وعنيسة الفيل، ونصر بن عاصم الليثي الذي استعمل مصطلح (التقوين) بدل الغنة في اهتمامهم الكبير بجمع اللغة وصيانتها من اللحن وكان علم النحو لا يزال ينمو ويسير حثيثاً نحو التميز والاستقرار.

ومع ظهور عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت ١١٧هـ) خطا علم النحو خطوات فسيحة نحو النضج والاكتمال لذلك قال عنه الزبيدي: "هو أول من بعج النحو، ومد القياس، وشرح العلل، وكان مائلاً إلى القياس في النحو"^(٣٩)، وعلى يده لم يعد النحو مجرد ملاحظات عابرة، بل تجاوزها إلى النفاذ إلى تعابيرها الدقيقة وأصبح يلمح بوضوح اطراد أصولها^(٤٠)، فانكب على اللغة يدرس هذه الأصول ويتفحص ما اطرد ويقيس ما ليس بمعلوم على ما كان معلوماً، وعلى يده ظهر مصطلح (النحو) ومصطلح (القياس) في قوله ليونس بن حبيب: "عليك بباب من النحو يطرد وينقاس"^(٤١)، وتضافرت جهود مع جهود عيسى بن عمر النخعي وأبي عمرو بن العلاء الذي استعمل مصطلحي (الرفع) و(النصب) بمعناهما الاصطلاحي في رده على عيسى بن عمر: "ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب، وليس في الأرض تميمي إلا وهو يرفع"^(٤٢) فمهدوا بنشاطهم الوافر في ميدان النحو

لظهور كثير من المصطلحات النحوية بمعناها العلمي والفني بما أثر عنهم من استخدامات لغوية وما أثاروه من قضايا لغوية: وكانما كان المصطلح في هذه الفترة في طور الحضانة، تغطيه سحابة خفيفة من الغموض ما لبثت أن تقشعت عند تلاميذهم الأندلسيين كالخليل وسيبويه ويونس بن حبيب^(٤٣). ومن بين القضايا النحوية التي عالجها هؤلاء الرواد ووضحوا جوانبها المختلفة ثم اتخذت عند من جاؤوا بعدهم مسميات واصطلاحات معينة: النداء، والإضمار، والحال، وإضمار الفعل، والإغراء والتحذير، والنصب على المدح أو الذم، وإضمار الحرف، والنصب على الظرفية، والاستثناء، والبدل، والمصدر، وما ينصرف وما لا ينصرف، والنسب، والتحقير، هذه القضايا وغيرها كثير تمت معالجتها قبل أن توضع لها المصطلحات التي تدل عليها على يد الجيل الذي تلا جيل الحضرمي وأصحابه، ويقف على رأسه الخليل بن أحمد الفراهيدي بلا منازع.

ثالثاً: مساهمة الخليل في تأسيس العلوم العربية:

يجمع جلّ الباحثين والدارسين على أن الخليل بن أحمد الفراهيدي^(٤٤) (ت ١٧٥هـ) كان آية من آيات الله في النكاء الوقاد، والاستيعاب العجيب للعلوم التي يتقنها. وقد تحول إلى التدريس بعد أن أنهى مرحلة التحصيل العلمي فأبان عن قدرة عجيبة على الفهم والشرح والتحليل والاستنتاج، وظهر لديه استعداد قوي لإثراء هذه العلوم بما تجود به قريحته النيرة. وقد لمع اسمه في علم اللغة وعلم النحو وعلم العروض الذي انفرد بوضع قواعده وأساسه وأصوله وفروعه، وكانت له - إلى جانب ذلك - آراء في علم الصرف نقلها عنه تلميذه سيبويه تكلم فيها عن بعض مسائل الصرف المتفرعة، وأبحاث صوتية وأفرد قَد يصدق معها القول إنه أول من وضع أصول علم الأصوات في العربية^(٤٥)، ومعرفة دقيقة بالموسيقى والإيقاع والنغم، وإمام كاف بالمنطق، وباع طويل في الحساب.

ولعل أبرز ما تميز به الخليل هو القدرة الفذة على التصور الشامل لموضوع بحثه، وضم ما تنأثر من جزئياته في كليات جامعة وقوانين لا يكاد يخرج عنها شيء منها. ومن خلال هذا التصور الشامل اهتدى إلى وجوه الاتصال الخفية ما

بين مختلف ظواهر العلم الذي يعالج مسائله. ومما يؤثر عنه في هذا المجال أنه قال: "العلوم أربعة: فعلم له أصل وفرع، وعلم له أصل ولا فرع له، وعلم له فرع ولا أصل له، وعلم لا أصل له ولا فرع. فأما الذي له أصل وفرع فالحساب ليس بين أحد من المخلوقين فيه خلاف. وأما الذي له أصل ولا فرع له فالنجوم ليس لها حقيقة يبلغ تأثيرها في العالم. وأما الذي له فرع ولا أصل له فالطب، أهله منه على التجارب إلى يوم القيامة. والعلم الذي لا أصل له ولا فرع فالجدل" (٤٦).

وبهذه العقلية الرياضية المرتبة كان له فضل السبق في إرساء قواعد النحو وتأسيس علم العروض اللذين سنعرض لهما فيما سيأتي بشيء من التفصيل، كما كان له فضل السبق أيضاً في وضع الأسس لأول مدرسة معجمية، حيث وضع خطة محكمة لبناء كتاب (العين) الذي يعد أول معجم في العربية، حصر فيه صاحبه أصول كلام العرب وما يأتلف من حروفها، وما لا يأتلف، وأتى عقب كل أصل من أصول اللغة بتقاليب ذلك الأصل، وهي الفكرة التي أوحى إلى ابن جني بنظرية الاشتقاق الكبير (٤٧). وبهذه الطريقة جمع في المعجم جميع الكلمات التي يمكن أن تقع في العربية، مميزاً - أثناء ذلك - بين ما استعملته العرب منها وما أهملته ولم تنطق به. كما اهتدى إلى ترتيب الكلمات في المعجم على مخارج الحروف ومواقعها من الجهاز الصوتي وهو الحلق واللسان والقم والشففتان، بادئاً بحرف العين وبه سمي معجمه (٤٨)، وبذلك حاز قصب السبق في وضع أول معجم عربي مؤسساً فيه المدرسة المعجمية الأولى. وكانت لمنبرسته مبادئ وأصول خاصة وتلامذة حنوا حنوه، ويعد معجم العين أول معجم عربي حاول حصر ألفاظ اللغة حصراً شاملاً في إطار نظام منهجي واضح استوعب فيه الخليل شوارد اللغة، وفي ذلك يقول أحد المستشرقين: "الحقيقة أن العرب في مجال المعجم يحتلون مكان المركز سواء في الزمان أو المكان بالنسبة إلى العالم القديم والحديث وبالنسبة إلى الشرق والغرب" (٤٩).

وقد اتبع في جمع المادة المعجمية طريق الإحصاء التام بغرض استقصاء المواد اللغوية، سواء المستعملة منها أو المهملة، وهي طريقة من ابتداعه، حيث

أدرك بعقريته الرياضية أن ثمة نظاماً من شأنه حصر جميع المفردات اللغوية. ويروي الليث بن المظفر (ت ١٨٠هـ) قصة ابتداء الخليل لهذه الطريقة فيقول: "كنت أصير إلى الخليل بن أحمد فقال لي يوماً: لو أن إنساناً قصد وألف حروف ألف وباء وطاء وثاء على أمثلة لاستوعب في ذلك جميع كلام العرب فتهياً له أصل لا يخرج عنه شيء منه بئس، فقلت له: وكيف يكون ذلك؟، قال: يؤلفه على الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي، وأنه ليس يُعرف للعرب كلام أكثر منه. قال الليث: فجعلت أستفهمه وبصفتي ولا أف على ما يصف، فاختلفت إليه في هذا المعنى أياماً. ثم اعتل وحجبت، فما زلت مشفقاً عليه وخشيت أن يموت في علة فيبطل ما كان يشرحه لي، فرجعت من الحج وصرت إليه فإذا هو قد ألف الحروف كلها على ما في صدر هذا الكتاب، فكان يُمني علي من حفظه، وما شك فيه يقول لي: سل عنه، فإن صح فأثبته، إلى أن عملت الكتاب" (٥٠).

وخلاصة النظام الذي توصل إليه الخليل في حصر مفردات اللغة العربية يقوم على ثلاثة أسس:

١- الترتيب الصوتي الذي يعتمد على مخارج الحروف. حيث رتب مواد المعجم وفق النظام الآتي: الأصوات الحلقية وهي: ع، ح، هـ، غ، ثم الأصوات اللهوية وهي: ق، ك، ثم الأصوات الشجرية وهي: ج، ش، ض، ثم الأصوات الأسلية وهي: ص، ز، ثم الأصوات النطعية وهي: ط، د، ت، ثم الأصوات اللثوية وهي: ظ، ث، ذ، ثم الأصوات الذلقية وهي: ر، ل، ن، ف، ب، م، ثم الأصوات الهوائية وهي: و، ا، ي، وأخيراً الهمزة (٥١).

ويبرر الخليل افتتاح معجمه بحرف العين بقوله: "لم أبدأ بالهمزة لأنها يلحقها النقص والتغيير والحذف، ولا بالألف لأنها لا تكون في ابتداء كلمة ولا في اسم ولا فعل إلا زائدة أو مبدلة، ولا بالهاء لأنها مهموسة خفية لا صوت لها، فنزلت إلى الحيز الثاني وفيه العين والحاء، فوجدت العين أنصح الحرفين فابتدأت به ليكون أحسن في التأليف" (٥٢).

٢- نظام الكمية: حيث أدرك الخليل بما اختزنته ذاكرته من كلام العرب أن الألفاظ العربية باعتبار أصولها لا تكون إلا ثنائية أو ثلاثية أو رباعية أو خماسية . وفي ضوء ذلك صنف الكلمات في معجمه على النحو الآتي:

(أ) الثنائي: وهو ما اجتمع فيه حرفان صحيحان ولو تكرر أحدهما نحو قَدَّ، وَقَدَّقَدَّ، ولو، وبل.

(ب) الثلاثي الصحيح، وهو ما اجتمع فيه ثلاثة أحرف صحيحة على أن تكون من أصول الكلمة نحو: ضرب وعمر.

(ج) الثلاثي المعتل: وهو ما اجتمع فيه حرفان صحيحان وحرف واحد من حروف العلة كالأجوف والناقص.

(د) اللقيف: وهو ما اجتمع فيه حرفا علة في أي موضع سواء أكان مفروقاً أو مقروناً.

(هـ) الرباعي: وهو ما اشتمل على أربعة أحرف.

(و) الخماسي: وهو ما اشتمل على خمسة أحرف.

(ز) المعتل: وأدخل فيه الهمزة لأنها في نظره - قد تسهل إلى أحد حروف العلة.

٣- نظام التقلبات: وقصد به الخليل تنقل الحرف الواحد في أكثر من موضع في كل بناء من الأبنية السابقة. وطبقاً لهذا النظام جاء الثنائي على وجهين، والثلاثي على ستة أوجه، والرباعي على أربعة وعشرين وجهاً، والخماسي على مائة وعشرين وجهاً منها المستعمل ومنها المهمل.

وقد عالج الكلمة ومقلوباتها في كل بناء من الأبنية السابقة في موضع واحد مراعيًا في ذلك الحروف الأصول، وسمى كل حرف من الحروف الهجائية كتاباً ككتاب الحاء وكتاب الراء وكتاب القاف... إلخ، وبدأ معجمه بكتاب العين ومقلوباتها ومنها على سبيل المثال (عرب- رعب- عبر- ربع- بعز- برع) فكلها ومثيلاتها تحت باب العين^(٥٣).

رابعاً: مساهمة الخليل في وضع المصطلح النحوي:

كان الخليل بن أحمد أحد العلماء المتقدمين الذين كان لهم باع طويل في استنباط قواعد النحو من كلام العرب. حيث أخذ اللغة والشعر من شيوخ ثقات مشهود لهم بالرسوخ والتمكن أمثال عيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء، وعن جمهرة من علماء الأعراب وفصحائهم المقيمين بالبصرة، وطوف ببوادي الجزيرة العربية يجمع اللغة من أصحابها الذين بقيت سليقتهم اللغوية صافية من شوائب العجمة والتحضر، وبذلك تجمع له قدر هائل من الفاظ العرب وأشعارهم ولغاتهم، حتى قيل إنه كان يحفظ نصف لغة العرب^(٥٤)، وقال عنه أبو بكر الزبيدي: "والخليل بن أحمد أوجد العصر، وقريع الدهر، وجهذ الأمة، وأستاذ أهل الفطنة الذي لم يُرَ نظيره، ولا عُرف في الدنيا عديله، وهو الذي بسط النحو، ومد أطنايه، وسبب علته، وفتق معانيه، وأوضح الحجاج فيه، حتى بلغ أقصى حدوده وانتهى إلى أبعد غاياته"^(٥٥).

وهو يعد المؤسس الحقيقي لعلمي النحو والصرف، فقد تناولهما سانجيين من أسلافه، فرفع قواعدهما، وثبت أركانهما، وشاد بناءهما الضخم^(٥٦) بما نهج من مسالك جديدة في علم العربية. أما بالنسبة للقياس فقد أجمع مترجموه على وصفه بأنه كان الغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليقه. فبلغ القياس على يديه ويدي تلميذه سيبويه ذروة نمائه وكمال نضجه، ذلك أنه إن استقر الأمر بين يدي الخليل حتى كان منهج البحث قد تكاملت صورته عنده، واتضحت طريقته: "ويمكننا أن نقول بغير قليل من الاطمئنان: إن الأسس التي قام عليها نشاط من تلاه من طبقات النحاة على اختلاف مذاهبهم، لم ينلها من التعديل إلا اليسير"^(٥٧)، ولم يكن للمتأخرين من فضل سوى تحديد مقاصد النحو الذي وضعه الخليل، وتبيين حدوده.

وقد بنى الخليل قياسه في النحو على الأكثر لأنه كان يريد أن يضع الأسس القوية لعلم واضح المعالم، ثابت القسمات، أما الشاذ فإنه لم يهمله كما فعل عبد الله ابن أبي إسحاق الحضرمي الذي أولع بالتجريد والقياس فطرح الشاذ كله، ولم يبعده

عن حظيرة النحو بل فتح فيه باب التأويل على مصراعيه باعتباره كلاماً عربياً أصيلاً لم يكتب له الشبوح والكثرة وبذلك: "لم يقهر اللغة، بل كان يكتفي منها بأدنى حظ من قبول التقنين والتعديد والخضوع للقياس"^(٥٨). وقد امتاز قياسه عن قياس من سبقه من النحاة بأنه كان أكثر ألواناً، وأوسع تطبيقاً، وأمتن إحكاماً: "للم يخل في معظمه من أركان أربعة: وهي أصل وفرع وعلة وحكم. أما الأصل فهو المقيس عليه، وأما الفرع فهو المقيس، وأما العلة فهي سبب انتقال الحكم من الأصل إلى الفرع، وأما الحكم فهو تلك الحالة الخاصة التي تنتقل من المقيس عليه إلى المقيس، وقد أصبحت هذه الأركان فيما تلا من زمن عماد كل قياس"^(٥٩).

أما التعليل فقد بدأ مبكراً عند عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي وتبعه فيه تلاميذه ومعاصروه أمثال أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الذين حاولوا البحث عن علل يفسرون بها ظواهر اللغة وحالات الكلام المتباينة، غير أن عللهم كانت بسيطة مقارنة بما ورد عن الخليل الذي آمن بأن العرب لم ينطقوا بكلامهم اعتباطاً، بل راعوا في عقولهم عللاً له وإن لم يصرحوا بها تصريحاً، فشحن هو فكره لاستخراجها وانتزاعها. وقد ساعدته ثقافته الواسعة ونكاؤه الحاد، وقدرته على التصور الشامل للموضوع الذي يعالجه على التقنن في مجال التعليل حتى قال عنه الزبيدي "إنه قد استنبط من علل النحو ما لم يستنبطه أحد أو يسبق إليه سابق"^(٦٠). وقد كانت علله متينة محكمة، مدعومة بالقياس، موضحة بالأمثلة بحيث نضجت العلة في النحو واكتملت على يديه: "فأصبحت لازمة لجميع الأحكام، تعلل بها القواعد، وتفسر بها الظواهر، وتفقها بها أسرار العربية، وصارت أداة هامة لتعليم النحو على أساس متين من الفهم"^(٦١).

والمصطلحات النحوية التي وضعها الخليل انبثقت من هذا التصور الواضح والاستيعاب الشامل لمعطيات هذا العلم، وهي مبنوثة في كتاب سيبويه تلميذه الوفي الذي اضطلع بتدوين علمه ونقله بأمانة تامة حتى قال السيرافي: "دعامة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل، وكلما قال سيبويه (وسألته) أو (قال) من غير أن يذكر قائله فهو الخليل"^(٦٢)، وبلغ جملة ما رواه سيبويه عن الخليل في الكتاب خمسمائة

واثنتين وعشرين مرة وهو ما حدا بالنحويين الذين جاؤوا بعده إلى القول: إن سيبويه قد عقد أبواب (الكتاب) بلفظه ولفظ الخليل^(١٣). وقد قام بعض الباحثين بإجراء مسح شامل لكتاب سيبويه باعتباره المصدر الوحيد والأمين الذي تضمن تراث الخليل النحوي واستخلصوا منه جملة المصطلحات النحوية التي وردت على لسانه، منبهيين إلى أنه قد تكون واحدة منها قد جرت على السنة أساتذة الخليل فأخذها عنهم غير أن الأدلة العلمية التي تثبت ذلك تعوزنا لضياح التراث النحوي منذ عهد أبي الأسود إلى عهد الخليل، فليس من سبيل إذن سوى نسبتها إلى الخليل كما نص سيبويه على ذلك والاستئناس بأن النحو لم يتخذ اصطلاحاته العلمية إلا على يدي الخليل، وأنه هو الذي أسسه على قواعد وأصول ثابتة بما اشتهر به من الذكاء الخارق والقدرة على الاستنباط والتعليل^(١٤).

ومن هذه المصطلحات نذكر: الرفع، الضم، النصب، الفتح، الخفض ومن توابعه الكسر والجر والجزم والوقف والسكون، التثوين وقد ظهر هذا المصطلح عند تلاميذ أبي الأسود الدؤلي وفضل الخليل لا يكمن في ابتكاره وإنما في تثبيته والتمييز بينه وبين الغنة وتفصيل القول في حالات وروده.

ومن المصطلحات النحوية التي وضعها الخليل للدلالة على أصوات حركات الحرف نذكر: الإمالة، الروم، الإشمام، التضعيف، الوقف، الإدغام. ومن بين تلك التي وضعها للدلالة على أحوال الاسم: النكرة، والمعرفة، وما ينصرف وما لا ينصرف، والمفرد، والاثنين، والجمع الذي يجمع بالواو والنون (وهو ما أصبح يعرف بعد ذلك بجمع المذكر السالم)، والجمع الذي يجمع بالياء (وهو ما أصبح يعرف بجمع المؤنث السالم)، والمذكر، والمؤنث. ومن أقسام الاسم عنده: العلم الخاص، والمبهم، والصفة.

كما ذكر الخليل الأسماء الموصولة واختصاص بعضها بالعاقل وبعضها بغير العاقل فقال: "إن شئت جعلت (من) بمنزلة إنسان، وجعلت (ما) بمنزلة شيء"^(١٥)، وهذا برهان أكيد على عبقرية نادرة، وإحاطة كبيرة بأحوال الاسم^(١٦)، ومن المصطلحات التي تدل على أحوال الاسم عنده: المبتدأ والخبر، الفاعل،

المفعول به، الظرف، الحال، الاستثناء، المستثنى، النداء، المنادى، الاستغاثة، الندبة، الترخيم، التوكيد، التمييز، البديل، المبدل منه، العطف، الصفة المشبهة، الإضافة، المضاف والمضاف إليه.

كما استعمل الخليل مصطلح الفعل ودرس جميع أحواله كونه عاملاً أو معمولاً، متصرفاً أو غير متصرف، وقسمه إلى ما مضى، ولما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينقطع، واستعمل مصطلح الحرف الذي استعمله النحويون قبله وقسم الحروف إلى: حروف للجر، وحروف للعطف، وحروف الجزاء، وحروف الاستفهام، وحروف اللين، وحروف الزيادة.

وبعد، فهذه نماذج من مصطلحات الخليل النحوية ومنها يتبين لنا أنه أسهم إسهاماً كبيراً في وضع المصطلح النحوي في مراحل مبكرة من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وقبل أن يبدأ الاحتكاك الفعلي بالثقافات الأجنبية، مما يدل على عبقرية فريدة سابقة لعصرها.

خامساً: مساهمة الخليل في وضع المصطلح العروضي:

يكاد يجمع الدارسون القدماء والمحدثون على أن الخليل بن أحمد الفراهيدي هو مخترع علم العروض وواضع أسسه وقواعده ومصطلحاته بما آتاه الله من ذكاء مفرط وإحساس مرهف وأذن موسيقية دقيقة تلتف للحن وتشعر بالنغم، حيث كان له السبق في تذوق الحروف العربية، وعرضها حرفاً حرفاً، مشيراً إلى أبنية كلماتها وإلى الشروط والأسباب والمعايير التي بها تعرف الكلمة العربية من غيرها، ومنه ذهب إلى أن لكل حرف من حروف الهجاء طبيعة نغمية خاصة، يفضلها بحسن بناء لفظة أو يقبح بصرف النظر عن مخرج صوته، فالعين والقاف على سبيل المثال "لا تدخلان في بناء إلا حسنتاه لأنهما أطلق الحروف وأضخمها جرساً فإذا اجتمعا أو أحدهما في بناء حسن البناء لنصاعتهما"^(٦٧)، فربط بين الطبيعة النغمية للصوت وبين وقع جرس اللفظة على السمع والنفس معاً. كما تنبه إلى أن اللغة العربية لغة إيقاعية تقوم على مبدأ المقاطع التي نلمح من خلالها تناسباً بين الصوامت والصوائت، سواء على مستوى الألفاظ أو على مستوى التراكيب في

المنظوم والمنثور، وأن للإيقاع - في العربية - حضوراً قوياً.

وقد رفدته موهبته الرياضية في استعراض الشعر العربي وتلمس مواطن الخلاف بين القوائد المنظومة على مختلف البحور التي استعملتها العرب سليفة وفطرة، فأخرج لنا - بجهوده العظيمة - هذا العلم كاملاً مكتملاً، ووضع الموازين الواضحة للشعر العربي. وكانت العرب قبل ذلك تعتمد في استحسان الشعر والتأكد من جريه على قواعد السليمة بالسمع الذي كان مقياسهم، فإذا طرأ على أوزان الشعر شيء من الخلل أو الخطأ أدركته آذانهم إدراكاً سريعاً بما طبعت عليه من إيقاع معين يصحب قول الشعر ويميز كل نشار يعوق الانسياب الموسيقي والإيقاعي لأبيات القصيدة. ذلك أن العرب كانوا يعتمدون في حياتهم على المنطوق أكثر من المكتوب نظراً لطابع الأمية المتفشى فيهم من ناحية وبساطة وسائل الكتابة والتدوين وندرتها من ناحية ثانية، مما طور لديهم حاسة السمع التي تدرك مظاهر الإيقاع في لغتهم، وتجعلهم يحسون - بفطرتهم - بموسيقية الكلام أياً كان نوعه، ويفتتتون في طرق ترديد الأصوات في الكلام حتى يكون له نغم وموسيقى، وحتى يسترعي الأذان بالفاظه، كما يسترعي القلوب والعقول بمعانيه، مما يدل على مهارتهم في نسج الكلمات وبراعتهم في ترتيبها وتنسيقها، والهدف من هذا هو العناية بحسن الجرس ووقع الألفاظ في الأسماع، بحيث يصبح البيت الشعري أو الجملة من الكلام أشبه بفاصلة موسيقية متعددة النغم مختلفة الألوان^(٦٨).

والأقوال التي تشهد للخليل بالأسبقية في تأسيس هذا العلم، ورفع بنيانه كثيرة منها قول ابن النديم: "وهو أول من استخرج العروض وحصن به أشعار العرب"^(٦٩)، ويذكر ابن خلكان أن الخليل هو الذي استنبط علم العروض وأخرجه إلى الوجود وحصن أقسامه في خمس دوائر يُستخرج منها خمسة عشر بحراً، ثم زاد الأخفش بحراً واحداً وسماه الخَبَب، كما يشير إلى أن الخليل كانت له معرفة بالإيقاع والنغم، وتلك المعرفة هي التي أحدثت له علم العروض لأنها متقاربان في المأخذ^(٧٠). ويقول حمزة بن الحسن الأصبهاني في كتابه "التبیه على حدوث التصحيف": "إن دولة الإسلام لم تخرج أبدع للعلوم التي لم يكن لها عند علماء

العرب أصول - من الخليل، وليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض الذي لا عن حكيم أخذه ولا على مثال تقدمه احتذاه" (٧١).

ويقول جورجى زيدان: "وقد علمت أنه أول من ضبط اللغة، وهو أيضا أول من استخرج علم العروض إلى الوجود، وحصر أقسامه في خمس دوائر. وقد ضبط أوزان الشعر ووقعها على المقاطع والحركات، واستغرق في درس ذلك حتى كان يقضى الساعات في حجرته وهو يوقع بأصابعه ويحركها" (٧٢)، أما شوقي ضيف فيذهب إلى أن الخليل بن أحمد قد اكتشف علم العروض: "اكتشافا ليس له سابقة ولا تدانيه لاحقة، إذ استطاع أن يرسمه بكل أوزانه وحدوده، وتفاعيله، وتفاعيله، غير مبقٍ لمن جاؤوا بعده شيئا يضيفونه إليه. وهو يحمل في تضاعفه ما يشهد بتمثله تمثلا رائعا للنغم وعلم الإيقاع ومواضعه، كما يحمل ما يشهد بإتقانه لنظريات العلوم الرياضية في عصره علما وفقها وتحليلا، وخاصة في نظريتي المعادلات والتبادل والتوافق" (٧٣).

والمصطلحات التي تحتوي علم العروض تقف على مر الزمان كأقوى دليل على عبقرية الخليل الفذة في الخلق والابتكار وإنشاء الجديد، وقد نكر الجاحظ أن الخليل بن أحمد قد وضع جميع مصطلحات العروض ما عدا القصيد والرجز والسجع والخطب والروي والقافية والبيت والمصراع (٧٤).

وأولى هذه المصطلحات مصطلح العروض الذي أطلقه الخليل على هذا العلم الذي تفتت عنه موهبته والذي أصبح يعرف عند من جاء بعده بأنه: "ميزان الشعر ومعياره وبه يعرف الصحيح من السقيم، والمعتل من السليم، وعليه مدار القريض من الشعر، وبه يسلم من الأود والكسر" (٧٥)، وقد وُضِعَ: "لضبط القوالب الموسيقية وحصرها وبيان ما يجوز أن يدخل أجزاء هذه القوالب من تحوير بزيادة أو نقص لا يختل به النغم، وما يمتنع من ذلك لأنه يخل به ويخدش أذن الشاعر المطبوع" (٧٦). ومن أشهر معانيه في اللغة الناحية، ومنها قولهم: عَرُوضٌ أي ناحية أو طريق وعر، ويقال: أنت معي في عروض لا تلائمني (٧٧)، ولهذا سميت الناقاة التي تعترض في سيرها عَرُوضًا لأنها تأخذ في ناحية غير التي تسلكها أي تأخذ

بمينا وشمالاً^(٧٨). والعروض أيضا مكة والمدينة وما حولها، ومنها قولهم: استعمل فلان على العروض: أي مكة والمدينة واليمن وما حولها، وقد يُقصرُ على مكة المكرمة^(٧٩) لاعتراضها وسط البلاد.

وقد اختلف الرواة والدارسون بشأن السبب الذي دعا الخليل إلى تسمية علمه بهذا الاسم. فمنهم من ذهب إلى أنه أطلق عليه اسم (العروض) تبركا باسم مكة المكرمة التي دعا فيها الله أن يفتح له بهذا العلم. ومنهم من رأى أنه سمي عروضاً لأن الشعر معروض عليه فما وافقه كان صحيحاً وما خالفه كان فاسداً، والذين ذهبوا إلى أنها مشتقة من قول العرب ناقة عَرُوضُ أي صعبة يؤولون المصطلح على أنه يُراضُ بها الصعب حتى يدخل الوزن^(٨٠).

وينضوي تحت هذا المصطلح الكبير جميع المصطلحات العروضية التي وضعها الخليل ليشرح بها أبجديات علمه. ومنها:

- البحر: وهو الوزن الخاص الذي يجري الناظم على مثاله ويتكون من مجموعة من التفعيلات. وسبب تسميته كذلك أنه شبيه بالبحر، فهذا يُغْتَرَفُ منه ولا تنتهي مادته، وبحر الشعر يورد عليه من الأمثلة ما لا حصر له.
- البيت: هو كلام تام موزون تتألف موسيقاه من أجزاء عروضية وينتهي بقافية. ويسمى البيت الواحد (مفرداً). والبيت من الشعر مشتق من بيت الخباء، وذلك لأنه يضم الكلام كما يضم البيت أهله.
- الطالع: هو مطلع القصيدة والبيت الأول منها، وتتساوى فيه القافية في أغلب الأحيان.
- الصدر: هو المصراع الأول من البيت، أو الشطر الأول منه.
- العجز: عجز البيت هو المصراع الثاني أو الشطر الثاني منه.
- الضرب: جمع ضروب، وهو آخر جزء من المصراع الثاني من البيت.
- الحشو: الوسط ما بين بداية الصدر ونهايته، وما بين بداية العجز وضربه.
- الوتد: الوتد في اللغة خشبة تغرس في الأرض تربط بها الحبال (الأسباب) لتثبيت بيت الشعر، وفي العروض جزء من التفعيلة العروضية يتكون من ثلاثة

أحرف وهو نوعان: وتد مجموع وتود مفروق.

- الفاصلة: في اللغة هي جزء من قماش البيت، وفي العروض مقطع تتكون منه الأجزاء وهي قسمان فاصلة كبرى، وفاصلة صغرى.
- العقل: هو حذف الخامس المتحرك: مفاعلتن تصير مفاعلتن.
- التفاعيل: هي الأجزاء أو الأوزان، وهي تتألف من مقاطع، وهذه التفاعيل لا تقل عادة عن مقطعين ولا تزيد على ثلاثة.
- السبب: السبب في اللغة هو الحبل، وفي العروض هو مقطع يتألف منه ومن التود الجزء المتكون من البيت الشعري، وهو نوعان سبب خفيف وسبب ثقيل.
- الزحاف: جمع زحافات، وهو التغيير الذي يطرأ على تفعيلات الحشو والضرب والعروض، وهو لا يقع إلا في الأسباب.
- الطي: نوع من أنواع الزحاف المفرد، وهو حذف الحرف الرابع الساكن من التفعيلة.
- الوقص: وأصله في اللغة أن يسقط الرجل من دابته فتدق عنقه. وهو في العروض حذف الحرف الثاني المتحرك من التفعيلة السباعية.
- القبض: وهو حذف الجزء الخامس الساكن من التفعيلة الخامسة فعولن.
- الإضممار: نوع ثان من الزحاف المفرد، وهو تسكين الحرف الثاني المتحرك من متفاعلتن.
- العقل: في اللغة المنع، وفي العروض حذف الحرف المتحرك الخامس من التفعيلة السباعية من السبب الثقيل.
- الخبن: الخبن في اللغة هو أن يجمع الرجل ثوبه فيرفعه إلى صدره، وفي العروض هو حذف الحرف الثاني الساكن من التفعيلة الخماسية السباعية.
- العصب: في اللغة هو المنع من الحركة، وكل شيء عصبته ومنعته من الحركة فهو معصوب، وفي العروض هو تسكين الحرف الخامس المتحرك من التفعيلة السباعية.
- الكف: والكف في اللغة مشبه بكفة القميص الذي يكف من ذيله، وهو في العروض

- حذف الحرف السابع الساكن من التفعيلة السباعية.
- الخبل: وهو من الزحاف المزدوج. وأصل الخبل في اللغة الفساد، نحو ذهاب اليد أو الرجل. وفي العروض سقوط الحرف الثاني والحرف الرابع الساكنين من التفعيلة، فإذا حُذِفَ الساكنان صارت التفعيلة كأنها قد قطعت يداها فتبقى مضطربة.
- الخَزَلُ أو الجَزَلُ: الجزل في اللغة هو القطع، والمخزول المقطوع، ويقال انخزل في يدي أي انقطع فيها، ومنه سنام مخزول أو مجزول وهو أن يتبَرَّ أي تصبح في سنامه قرحة من الرحل فيقطع السنام. فلما كانت التفعيلة السباعية قد أسقطت حركة ثانيها، وأسقط معها رابعها كان التغيير قد توالى عليه من الثاني إلى الرابع فشبهه بالسنام الذي يقطع إذا تبرَّ وسمي مجزولا.
- الشكل والمشكول: ما سقط ثانيه من التفعيلة السباعية، وسابعه الساكن. وقد شُبِّهَ بالفرس المشكول بالشكال لأن الصوت لا يمتد فيه بعد حذف الألف والنون منه.
- العلل: جمع علة وهي نقص أو زيادة في التفعيلة التي تكون في عروض البيت أو ضربه، وهي تدخل على الوند فقط.
- للترفيل: وهو أحد أنواع العلة بالزيادة. والترفيل في اللغة جاء من قولهم فرس مُرَقَلٌ أو رَقَلٌ إذا كانت سابع الذنب كأنه زيادة فيه. وفي اصطلاح العروض زيادة سبب خفيف على التفعيلة التي تنتهي بوند مجموع لا يكون إلا في الكامل والمتدارك.
- التنزيل: جاء في اللغة من جعل النيل أي الزيادة على تركيب الشيء، وهو في العروض زيادة حرف ساكن على التفعيلة التي تنتهي بوند مجموع في ضرب البيت.
- القطف: هو في اللغة قطع شيء من أصله. وفي العروض هو علة مزبوجة.
- البتر: هو في اللغة القطع، وقد يكون في المؤخرة بالنسبة للحيوان، وعند الإنسان هو الذي لا عَقَبَ له ولا نسل يمتد به نوعه. وفي العروض الأبتَر ما قطع وندته بعد حذف سببه.
- الصلم: هو من الاصطلاح في اللغة أو الصلم وهو القطع، وفي العروض هو حذف الوند المفروق من آخر التفعيلة.

- الخرم: معناه في اللغة ذهاب بعض الشيء أو حدوث تغيير في شيء ومنه الخرم في الأنف، وفي العروض حذف أول حرف من أول التفعيلة التي تبدأ بوتر مجموع.
- النلم: ومعناه في اللغة انكسار بعض السن من طرفها ، وفي العروض حذف الخامس الساكن من التفعيلة.
- الثرم: وهو في اللغة كسر يكون في الإناء من طرفيه، كما يقع في السن أيضا، وهو في العروض حذف الحرف الأول من تفعيلة فعولن وكذلك حذف الأخير الساكن منها.
- الأجم: هو البيت الذي يقع فيه الجمم. والجمم في اللغة أن يذهب قرنا تيس العنز جميعا. ومعناه في العروض سقوط الحرف الأول من مفاعيلن فيبقى (فاعلن)، فكما سقط ذلك الحرف وكان متحركا والحرف الخامس قد يسقط في التفعيلة المتحركة فسمي أجمًا تشبيها بالتيس الذي يذهب قرناه.
- الأعضب: هو البيت الذي وقع فيه العضب. والعضب في اللغة ذهاب أحد قرني تيس العنز وبقاؤه بقرن واحد. وفي العروض هو حذف الحرف الأول من تفعيلة (مفاعلتن) فيبقى (فاعلتن) وينقل إلى (مفتعلن) لذلك شبه بالتيس الذي سقط أحد قرنيه.
- الأقسام: ومعناه في اللغة أن تنكسر السن من نصفها. وفي العروض هو سقوط أول التفعيلة وذهاب حركة الوسط، وهو يقع في مفاعيلن فيسقط الحرف الأول فيصير فاعيلن فينقل إلى مفعولن.
- الأعقص: العقص في اللغة هو أن يذهب أحد قرني التيس مائلا إلى جانب كأنه عطف. وهو في العروض سقوط الحرف الأول والحرف الآخر من التفعيلة ثم ذهاب حركة خامسه لذلك شبه بما يكسر ثم يُعطف^(٨١).

ووضع الخليل -بالإضافة إلى ذلك- مصطلحات للبحور الشعرية المختلفة التي ورد الشعر العربي على وزنها. ويروي ابن رشيق أن الأخفش سأل الخليل: لم سميت الطويل طويلا؟ قال: لأنه طال بتمام أجزائه. قلت: فالبسيط؟ قال: لأنه انبسط على مدى الطويل وجاء وسطه فعلن وآخره فعلن. قلت: فالمديد؟ قال: لتمدد

سباعيه حول خماسيه. قلت: فالوافر: قال: لوفور أجزاءه وتدا بوتد. قلت: فالكامل؟ قال: لأن فيه ثلاثين حركة لم تجتمع في غيره من الشعر. قلت: فالهزج؟ قال: لأنه يضطرب. قلت: فالرجز؟ قال: لاضطرابه كاضطراب قوائم الناقة عند القيام. قلت: فالرمل؟ قال: لأنه شبه برمل الحصير يضم بعضه إلى بعض. قلت: فالسريع؟ قال: لأنه يسرع على اللسان. قلت: فالمنسرح؟ قال: لانسراحه وسهولته. قلت: فالخفيف؟ قال: لأنه أخف السباعيات. قلت: فالمقتضب؟ قال: لأنه اقتضب من السريع. قلت: فالمضارع؟ قال: لأنه ضارع المقتضب. قلت: فالمجتث؟ قال: لأنه اجتث أي قطع من طويل دائرته. قلت: فالمتقارب؟ قال: لتقارب أجزاءه لأنها خماسية يشبه بعضها بعضاً^(٨٢).

جميع المصطلحات التي وضعها الخليل من إبداعه الخاص، وهي تمثل مفاتيح هذا العلم وقد بقيت على مر العصور ثابتة راسخة مما يشهد له بالابتكار والعبقرية.

سادساً: منهج الخليل في وضع المصطلح:

إن وضع المصطلحات وصياغتها ليس بالأمر الهين، بل هي المرحلة الأخيرة التي تأتي بعد أن يستكمل العلماء بناء صرح العلم الذي يبحثون له عن مصطلحات، ويكونون قد هضموا موضوعه ومسائله وقضاياها وتمكنوا من ناصيته تمكننا تاماً، واحتاجوا بعد ذلك لأن يعبروا عن هذه المفاهيم والحقائق ويختزلوها في ألفاظ تدل عليها وتستوعبها، ذلك أن صوغ المصطلحات لم يكن في يوم من الأيام عملاً منفصلاً عن البحث العلمي، بل كان على الدوام جزءاً لا يتجزأ منه، لأن المصطلحات تظهر للوجود نتيجة الحاجة إليها أثناء البحث والإبداع، وليست عملاً مستقلاً.

وصياغة المصطلح عملية إبداعية يقوم بها العالم في الموضوع الذي يبحثه حين يجد الحاجة ماسة لأن ينقل علمه إلى الناس، وهو يحتاج- لكي يتمكن من ذلك- إلى أن يكون على دراية تامة ودقيقة بالشئ الذي يبحث له عن مصطلح، وأن يكون محيطاً بأسرار اللغة، عارفاً قوائينها، ملماً بتراكيبها وبطرق التعبير

فيها، وأن يكون إلى جانب ذلك ذا حظ وافر من سعة الخيال التي تمكنه من الربط بين الشيء المراد تسميته وما يناسبه في اللغة، لأن المصطلح في آخر الأمر - ليس سوى صورة مكثفة للعلاقة العضوية القائمة بين العقل واللغة، وهو بمنزلة النواة المركزية التي بها يشيع المجال المعرفي.

والخليل لم يتصد لوضع المصطلح إلا بعد أن هضم مادته العلمية هضما جيدا، واتضحت في ذهنه حقائقها ناصعة جلية، ولم يبق له بعد ذلك سوى أن ينقلها من عالم الفكر المجرد إلى عالم اللغة المتداول لتولد وتأخذ مكانها في منظومة الاتصال الكلامية . وقد وجد في الثروة اللغوية التي تكتنزها ذاكرته القوية منبعا لا ينضب للتعبير عن مفاهيم علومه، ووضعها بأيدي طلبة العلم جاهزة، إضافة إلى نكاته الحاد، وحافظته العجيبة، وقدرته الفذة على تصور العلاقات بين الأشياء وإيجاد الصلة بينها، وبذلك اجتمعت له الشروط الضرورية التي يتطلبها وضع المصطلح. وبالنظر إلى المنظومة المصطلحية الضخمة التي تولى الخليل وضعها بنفسه وبخاصة في علمي النحو والعروض يتبين لنا أنه كان يسلك في ذلك طرقا شتى ليتمكن من تسمية كل الظواهر العلمية التي كانت تنتفق عنها فريحته وهو يتأمل في المادة العلمية التي بين يديه، وربما اهتدى إلى تسمية بعض هذه الظواهر تسمية بسيطة عابرة ولم يرم إلى جعلها مصطلحا لكنها سرعان ما تحولت إلى مصطلح متداول بين العلماء، وعاشت قرونا عديدة بعده لإصابتها كبد الحقيقة، وقدرتها على التعبير الدقيق عما تختزنه من مفاهيم.

ومن بين هذه الطرق التي انتهجها لوضع المصطلح نذكر:

١- علوم اللغة: إن استقراء سريعا لجملة المصطلحات التي وضعها الخليل تبين بما لا يدع مجالا للشك أن الرصيد اللغوي الذي كان يملكه، وحافظته العجيبة التي كانت تحتكم على الآلاف المؤلفة من الألفاظ العربية كانت هي المعين الثر الذي رقد الخليل منه جل مصطلحاته. ذلك أن تمكنه من ناصية العربية وتبحره الواسع في تراكيبها واشتقاقاتها قد سهل عليه - إلى حد بعيد - العثور على المصطلح المناسب الذي يلائم المعنى الذي يريد التعبير عنه. وقد وفق في ذلك أيما توفيق بدليل أن كثيرا من

المصطلحات التي وضعها قد بقيت على ما هي عليه قرونا طويلة من بعده، ووصلت إلينا ولا تزال نستعملها إلى يومنا هذا، دون أن نستشعر تجاهها أية غرابة.

وقد ذهب العلماء المسلمون الذين جاؤوا من بعده إلى أن رجل العلم حر في التصرف في اللغة بما يستوجبه اختصار العلم في ذهنه، ويعتبر ابن سينا أن العالم محمول على افتراغ اللغة بالتحويل والتغيير لتتناسب ألفاظها على المسميات الجديدة، فأرضا على رجل العلم أن يخترع ثم يستعمل ما شاء له من ألفاظ اللغة بحيث يخرجها عن دلالاتها السابقة ويلبسها دلالات جديدة تفي بما يحويه ذهنه من مفاهيم وحقائق علمية.

وأثر القاموس اللغوي العربي في مصطلحات الخليل واضح جلي، نلاحظه فيما اشتقه من كلمات عربية ألبسها ثوب المصطلح في النحو والعروض، وكانت قبل ذلك ألفاظا عامة يتداولها الناس للتعبير عن حاجاتهم اليومية، ومنها الإبدال الذي يعني في اللغة إقامة شيء مقام آخر، تقول العرب أبدلت الشيء من الشيء وبدلته إذا أخذ مكانه، فأصبح يدل عند الخليل على وضع حرف مكان آخر، والمجرد الذي اشتقه الخليل من التجرد الذي يعني في العربية التعري وأصبح يطلق على الأسماء والأفعال الخالية من الزيادة، والجزم الذي يعني في اللغة القطع ثم أصبح دلالة على حالة الإعراب التي تلحق الأفعال المضارعة عندما تسبق بأدوات معينة سميت (الجوازم)، والسكون الذي يقابل الحركة في اللغة وقد عبر عنه الخليل بما يقع للحرف حين تلحقه هذه الحركة ووجه الشبه بينهما أنها تقيد الحرف وتقطعه عن الحركة، والإدغام الذي يعني في اللغة الإدخال ثم استعاره الخليل ليعبر به عن الحركة التي يأتيها المتكلم حين ينطق حرفين أحدهما ساكن والآخر متحرك من مخرج واحد دون أن يكون هناك فاصل بينهما وهي طريقة من طرق العرب في النطق طلبا للتخفيف، والترخيم الذي يعني في اللغة التسهيل والترقيق واشتقه الخليل ليدل به على حذف بعض الكلمة على وجه مخصوص، والظرف ويعني في اللغة الوعاء، واستعاره الخليل ليعبر به عن الوقت أو المكان المتضمن معنى (في) مفيدا بها المكث وهو قسمان: ظرف زمان وظرف مكان،

والعطف الذي يعني في اللغة الرجوع إلى الشيء بعد الانصراف عنه ثم استعاره الخليل ليدل به على اللفظ الذي يتبع ما قبله لأن المتكلم رجع إلى اللفظ الأول فأوضحه بالثاني، وكذلك الحال بالنسبة لباقي المصطلحات التي استعان فيها الخليل باللغة العربية التي أمدته بكنوزها، ووظف في صياغتها ذكاءه الحاد ليمد جسرا بين المعنى اللغوي والاصطلاحي.

٢- البيئة العربية: يظهر تأثير البيئة العربية عموما والبدوية على وجه الخصوص في مصطلح الخليل بارزا بقوة، وهذا دليل على أصالة هذه المصطلحات وامتداد جذورها في تربة المجتمع، فقد استعان الخليل بمختلف مظاهر البيئة التي عاشها في تهامة ونجد والحجاز لتكون رافدا هاما من الروافد التي أسعفته لصياغة مصطلحاته مستغلا أوجه الشبه بين ما يتصوره عن الظاهرة النحوية أو الظاهرة العروضية وبين ما تعج به بيئته الاجتماعية ليسقط هذا على ذلك، فكثير من مصطلحاته جاءت على هذا الأساس. ويرى الباحثون والمختصون أن نشأة المصطلحات والمسميات المعنوية، ترتبط إلى حد بعيد بنماذج حية في حياة الإنسان الذي يمارس وضعها. فكل مصطلح يكون في الغالب مطابقا لنموذج أدركه وأحس به وعاشه وعائنه، حتى أصبح كأنه جزء منه. وعندما يعرض لمفهوم فكري يريد التعبير عنه، يعود إلى ما يعرفه في حياته، فتكون المشابهة جسر العبور، ينطلق منه وينقل اللفظ إليه، وقد وصف أحد الدارسين عملية الانتقال بقوله: "إن اللفظ يتبع المدرك ويأتي بعده ضرورة، فالأصل في اللغة المدرك الذهني ثم يأتي الإنسان بالصوت أو باللفظ الذي يُعبر فيه عن ذلك المدرك. وجميع المدرك الذهنية اجتماعية نشأت من صلة الإنسان بما حوله وبمن حوله"^(٨٣).

وكذلك كان الحال مع الخليل، ولعل أوضح دليل على ذلك أنه قد اختار خيمة الوبر العربية ذات الجذور العريقة الضاربة في القدم ليستلهم منها مصطلحات علم العروض، فاستخدم مصطلح بيت الشعر تشبيها له ببيت الشعر الذي يعتبر ملجأ الإنسان العربي في بيئته الصحراوية، ورمز الطمأنينة والاستقرار وتأكيد الذات، كما استخدم مصطلح عمود الشعر الذي يحيل إلى عمود الخيمة الذي يعد في الوعي العربي الأساس الذي يقوم عليه بناء البيت الذي يسكنه، فإن استقام هذا

العمود استقام البيت، وإن اختلف العمود نهاوى البناء ووقع البيت.
والأمر نفسه ينطبق على باقي المصطلحات: فالعروض التي هي الخشبة
المعترضة في وسط الخباء.. والوتد والسبب والإقواء، والسناد، والإكفاء الذي هو
الثقة في آخر البيت، والإبطاء وغيره^(٨٤)، وكان: "يرتب الشعر ترتيب بيت الشعر،
فسمى الإقواء وهو اختلاف في الإعراب من أقوى الفائل الحبل به جاءت قوة منه
تخالف سائر القوى، وسمى السناد سنادا من مساندة بيت إلى بيت إذا كان كل واحد
منهما يلقي على صاحبه، وسمى الإكفاء وهو ميل (نون مع ميم) من فساد كقوة
البيت وهو الثقة التي في آخره، والإبطاء من طرح بيت على بيت وأصله أن
يواطئ شيئا"^(٨٥)، وكأنه أراد بذلك كله أن يربط الشعر ربطا موثقا بمنبعه وأصله
الذي انبثق عنه وهو البيئة العربية الصحراوية التي أنتجته حتى يبقى كما كان دائما
ديوان العرب ومسجل ملاحمهم ومخلد آثارهم.

كما نعت نظره مختلف المظاهر الاجتماعية التي تتكرر أمامه يوميا فجعل لها
من مصطلحاته نصيبا حيث سمي حذف الحرف الثاني المتحرك من التفعيلة السباعية
بالوقص الذي يعني سقوط الرجل من دابته ودق عنقه، وسمى التفعيلة التي يسقط
حرفها الثاني وحرفها الرابع الساكنان بالخبل الذي يعني ذهاب اليد أو الرجل، فشبّه هذا
بذاك وكان التفعيلة كائن حي قطعت يداها فبقيت مضطربة، واستعار لزيادة سبب
خفيف على التفعيلة التي تنتهي بوتد مجموع اسم الترفيل الذي هو صفة للفرس إذا
كانت سابغة الذنب، وعبر عن التفعيلة التي قُطِعَ منها الوتد بعد حذف السبب بالبتّر
الذي يحيل إلى الإنسان الأبتّر الذي لا عقب له ولا نسل يمتد به نوعه، وعن حذف
أول حرف من أول التفعيلة التي تبدأ بوتد مجموع بالخرم الذي هو ذهاب بعض الشيء
أو حدوث تغيير فيه ومنه الخرم في الأنف، واستعار لسقوط الحرف الأول من مفاعيلن
لفظ الأجم الذي يعني ذهاب قرني تيس العنز جميعا، ولحذف الحرف الأول من
مفاعيلن لفظ الأعضب الذي يعني ذهاب أحد قرني تيس العنز وبقائه بقرن واحد،
وعبر عن سقوط أول التفعيلة وذهاب حركة الوسط فيها بالأقصم الذي يعني في اللغة
أن تتكسر السن من نصفها.

الخاتمة ونتائج البحث:

ونخلص في نهاية هذا البحث إلى جملة من النتائج نلخصها فيما يأتي:

١- أن الخليل بن أحمد الفراهيدي كان على وعي تام بالدور الخطير الذي يقوم به المصطلح في ضبط العلوم وحفظها ونشرها بين الناس، فحرص على أن تكون مصطلحاته واضحة، دقيقة الدلالة، لا لبس فيها ولا إبهام.

٢- أن الخليل قد استطاع بتبحره في علوم العربية من جهة، واستيعابه الكامل لمقولات العلم الذي يبحث فيه أن يثري الثقافة العربية بمنظومة هامة من المصطلحات التي لم تكن قبله سوى ألفاظ بسيطة يتداولها الناس في أحاديثهم اليومية، وإذا به يخرجها من هذا النطاق، ويشحنها بمعانيه العلمية الجديدة لتكتسي بعد ذلك أهمية خاصة، وتحمل حصانة فكرية.

٣- أن مصطلحات الخليل تقسم بالأصالة لأنها نبتت من عمق الموروث الثقافي العربي وشكلت جزءاً صميماً منه، مما جعل النفوس مهياً لقبولها واستساغتها وإدراك دلالاتها وأبعادها، وظلالها وخلفياتها، ومن ثم هضم الناس بسرعة المخزون المعرفي الذي تحوي عليه، واستأنسوا بتركيبها وشكلها لارتباطها الوثيق بمرجعيتهم الفكرية.

٤- أن مصطلحات الخليل قد انبثقت من تفاعل فكره الخصب تفاعلاً قوياً مع الواقع الذي كان يعيشه، واستجابته لتحدياته مما ضمن لها الخلود والاستمرارية. ففكر الخليل لم يأخذ دورته الحيوية في النمو والتقدم إلا في إطار علاقته الفاعلة بالواقع، وهو ما أعقب ظهور ضرورة تأهيل اللغة للقيام بدورها المطلوب في مجالات المعرفة والإبداع والعلوم، وتنمية طاقاتها التعبيرية لمواكبة حركة الحضارة المتصاعدة، واستخراج كنوزها الكامنة، وهذا هو المحضن الطبيعي لميلاد ونمو المصطلح.

٥- أن مصطلحات الخليل قد توفرت على مقدار هام من الأصالة والدقة، بحيث أصابت في كثير من الأحيان عين الصواب، ووقعت على كبد الحقيقة وأحاطت بالمضمون العلمي الذي تعبر عنه فرسخت وشاعت وثبتت وغطت

على ما عداها من المصطلحات الأخرى، وقد حاول نحاة الكوفة أن ينافسوا مصطلحات مدرسة البصرة غير أنهم لم ينجحوا في ذلك.

٦- أن المنظومة المصطلحية التي وضعها الخليل تتم عن عقلية علمية جبارة طبعها المنهج العلمي، وأنتجها عقله الخصب الذي كان يستوعب ويتمثل كل ما يتعلم، ثم ينتقل بعد ذلك بجدارة إلى الإبداع والابتكار مبرهنا على ثراء في التفكير ودقة في الاستنباط، وقد صدق ابن المقفع حين وصفه بعد أن تذاكرا العلم معا فقال: "رأيت رجلا عقله أكبر من علمه"^(٨٦).

وخلص القول إن الخليل بن أحمد الفراهيدي كان وحده مدرسة لها ملامحها ومعالمها و تلاميذها الذين حفظوا علمه وأتموا بناء ما بدأه. وقد مثل محطة هامة ومتميزة في تاريخ الثقافة العربية وأصبح - بما قدم لها من عطاء فكري - رمزا لامعا من رموزها المبدعة، وأنموذجا للأصالة والإبداع الحضاري المتميز، وتجربته في وضع المصطلح تجربة حية تستحق الدرس والاعتبار في زمن تعيش فيه الثقافة العربية أزمة خانقة في منظومتها المصطلحية، وتعاني من التبعية والاستلاب الحضاري.

الحواشي.

- (١) ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ج٣، ص٣٠٣.
- (٢) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، مج٤، ص٢٤٧٩.
- (٣) الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، دار صادر، بيروت، ج٦، ص٥٤٧.
- (٤) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، دار الحديث للطبع والنشر، بيروت، ص٥٢٠، مادة 'صلح'.
- (٥) عبادة، د.محمد إبراهيم، معجم مصطلحات النحو والصرف والعروض والقافية، دار المعارف، القاهرة، ص٧.
- (٦) الشهابي، الأمير مصطفى، المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٩٩٥م، ص٦.
- (٧) المسدي، د.عبد السلام، قاموس اللسانيات، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٤م، ص١٣.
- (٨) سورة النبأ، الآية ٧.
- (٩) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، القاهرة، ١٣٤٢هـ، ط١، ص٢.
- (١٠) إسماعيل، عز الدين، افتتاحية مجلة فصول، مج٧، ع٤/٣٤، أبريل-سبتمبر، ١٩٨٧م، ص٤.
- (١١) شاهين، د.عبد الصبور، العربية لغة العلوم والتقنية، دار الاعتصام، القاهرة، ط٢، ١٩٨٦م، ص١١٨.
- (١٢) المرجع نفسه، ص١١٨.
- (١٣) المرجع نفسه، ص١١٨.
- (١٤) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص٢.
- (١٥) الجرجاني، التعريفات، تحقيق وتعليق: د.عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، ص٢٥.
- (١٦) التهانوي، كشاف اصطلاحات العلوم والفنون، تحقيق: د. لطفي عبد البديع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج١، ص٢.
- (١٧) الخياط، د.محمد هيثم، نحو منهجية موحدة لوضع المصطلح العربي الحديث، الموسم الثقافي الثاني عشر، ١٩٩٤م، مجمع اللغة العربية الأردني، ط١، ١٩٩٤م، ص٩٧.
- (١٨) ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، دار القلم، بيروت، ط٥، ١٩٨٤م، ص٤٦٩.

- (١٩) شاهين، د. عبد الصبور، العربية لغة العلوم والتقنية، ص ١١٩-١٢٠ وراجع أيضا: الخياط د. محمد هيثم "تحو منهجية موحدة لوضع"، "المصطلح العربي الحديث"، ص ٩٨-٩٩.
- (٢٠) محفوظ، محمد، الفكر الإسلامي المعاصر ورهانات المستقبل، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م، ص ٢٠٩.
- (٢١) إسماعيل، د. عز الدين افتتاحية مجلة فصول، ص ٤.
- (٢٢) البوشيخي، الشاهد، مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ١، ١٩٨٢م، ص ٩.
- (٢٣) المسدي، قاموس اللسانيات، ص ١١.
- (٢٤) حسن، د. حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ٧، ١٩٦٤، ج ١، ص ٦٧.
- (٢٥) العاكوب، د. عيسى، التفكير النقدي عند العرب، دار الفكر، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ٢٠.
- (٢٦) ابن رشيقي، أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط ٢، ١٩٥٥م، ج ١، ص ١١٥.
- (٢٧) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج ١، ص ...
- (٢٨) ابن رشيقي، العمدة، ج ١، ص ١٢٠.
- (٢٩) العاكوب، عيسى، التفكير النقدي عند العرب، ص ٢٩.
- (٣٠) ابن رشيقي، العمدة، ج ١، ص ١٢٧.
- (٣١) المرجع نفسه.
- (٣٢) النجار، د. عبد المجيد، مصطلح الشهادة على الناس في القرآن الكريم وأبعاده الحضارية، ندوة الدراسة المصطلحية والعلوم الإسلامية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ص ٢٩٠.
- (٣٣) خليل، د. عماد الدين، حول إعادة تشكيل العقل المسلم، ص ٤٧-٤٨.
- (٣٤) حمادة، د. فاروق، تأسيس المصطلح النقدي بين المحدثين والأدباء، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، عدد خاص بندوة المصطلح النقدي وعلاقته بمختلف العلوم، ع ٤٤، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م، ص ٣٩٥.
- (٣٥) القرضاوي، د. يوسف، السنة مصدراً للمعرفة والحضارة، ص ٢٠٥.
- (٣٦) أمين، د. بكري شيخ، أدب الحديث النبوي، دار الشروق، بيروت، ط ٥، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ٢٣.
- (٣٧) اللغوي، أبو الطيب، مراتب النحويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٠م، ص ٢٩.

- (٣٨) الجمحي، ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود شاكر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٢م، ص ١٠.
- (٣٩) الزبيدي، أبو بكر، طبقات النحويين واللغويين، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ص ٣١.
- (٤٠) الحلواني، محمد خير، الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين، دار القلم العربي، حلب، ص ١٥.
- (٤١) الجمحي، ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ج ١، ص ١٤.
- (٤٢) القالي، أبو علي، الأمالي، ج ٣، ص ٣٩.
- (٤٣) القوزي، عوض محمد، المصطلح النحوي، نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٣م، ص ٥٥.
- (٤٤) ولد الخليل بن أحمد الفراهيدي عام ١٠٠هـ ببلدة ودام الساحل بولاية المصنعة من سلطنة عمان، رحل مع والده إلى البصرة وعمره سنتان، وبها نشأ، واختلف إلى كبار علمائها وأفاضلهم، فأخذ علم القراءات عن عاصم بن أبي النجود وعبد الله بن كثير، وروى الحديث عن عاصم الأحول وعثمان بن حاضر وغالب القطان وأيوب السختياني، وأخذ اللغة والشعر عن عيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء وجماعة من نقات الأعراب وعلمائهم، وأخذ النحو عن أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر، كان الخليل تقياً، ورعاً، زاهداً، متقشفاً، يربأ بنفسه وعلمه عن مجالس الأمراء والوجهاء، وكان إلى جانب ذلك - حاد الذكاء، وقد ساق العلماء من أمثلة ذكائه ما يشبه الأساطير، شغوقاً بطلب العلم، وقد ظهر نبوغه سريعاً فتصدر للتدريس وانتفعت من علمه طوائف عريضة من طلاب العلم في مختلف العلوم التي برع فيها، توفي بالبصرة عام ١٧٥هـ على أرجح الروايات.
- (٤٥) عبابنة، جعفر نايف، مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط ١، ١٩٨٤م، ص ٢٩.
- (٤٦) القفطي، إنباه الرواة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٠م، ج ١، ص ٣٤٦-٣٤٧.
- (٤٧) إلياس، د. منى، القياس في النحو، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص ٢٤.
- (٤٨) ضيف، د. شوقي، المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٣١، ٣٢.
- (٤٩) مجلة مجمع اللغة العربية، ج ٣٠، ص ١٢٢.
- (٥٠) ابن النديم، محمد بن إسحاق، الفهرست، حققه وقدم له: د. مصطفى الشويمي، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م، ص ٢٠٢.
- (٥١) عمر، أحمد مختار، صناعة المعجم الحديث، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ.
- (٥٢) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي،

- مؤسسة دار الهجرة، إيران، ط ٢، ١٤٠٩ هـ، ج ١، ص ٤٨.
- (٥٣) راجع: درويش، عبد الله، المعاجم العربية، عبد الله، الفيصلية، مكة المكرمة، ١٤٠٦ هـ، ص ٢٠ وما بعدها.
- (٥٤) السيرافي، أخبار النحويين البصريين، تحقيق: طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٩٥٥ م، ص ٤١.
- (٥٥) الزبيدي، أبو بكر، استدراك الغلط الواقع في كتاب (العين)، مطبعة الحلبي، القاهرة، المقدمة.
- (٥٦) روي، د. صلاح، النحو العربي، نشأته، تطوره، مدارس، رجاله، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص ١٧٤.
- (٥٧) إلياس، دمنى، القياس في النحو، ص ٢٣.
- (٥٨) عباينة، جعفر نايف، مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي، ص ٦٩.
- (٥٩) المرجع نفسه، ص ٨١.
- (٦٠) الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص ٤٣.
- (٦١) عباينة، جعفر نايف، مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي، ص ١٠٤.
- (٦٢) السيرافي، أخبار النحويين البصريين، ص ٥٦.
- (٦٣) اللغوي، أبو الطيب، مراتب النحويين، ص ٦٥.
- (٦٤) راجع: القوزي، عوض أحمد، المصطلح النحوي، ص ٨٨. وراجع أيضا: عباينة، د. جعفر نايف، مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي، ص ١٥٨.
- (٦٥) سيبويه، الكتاب، ج ١، ص ٢٦٩.
- (٦٦) القوزي، عوض حمد، المصطلح النحوي، ص ١٠٤.
- (٦٧) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، إيران، ط ٢، ١٤٠٩ هـ، ج ١، ص ٥٣.
- (٦٨) شوشة، فاروق، لغتنا الجميلة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص ١٦٥.
- (٦٩) ابن النديم، الفهرست، مطبعة الاستقامة، ص ٦٩.
- (٧٠) ابن خلكان، تاريخ وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٤٢.
- (٧١) دائرة معارف القرن العشرين، مج ٣، ط ٢، ١٩٢٣ م، ص ٧٨١.
- (٧٢) زيدان، جورج، تاريخ آداب العربية، دار مكتبة الحياة، بيروت، ج ٢، ص ٤٢٧.
- (٧٣) ضيف، د. شوقي، المدارس النحوية، ص ٣١.
- (٧٤) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، ١٩٤٨ م، ج ١، ص ٦٠.

- (٧٥) الطغراني، مؤيد الدين إسماعيل بن الحسين، الغيث المنسجم في شرح لامية لعجم، طبعة ١٢٩٠هـ، ص ٤٤.
- (٧٦) شاهين، كامل السيد، اللباب في العروض والقافية، طبعة ١٩٦٥م، ج ١، ص ٧.
- (٧٧) الزبيدي، أبو الفيض محب الدين محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، دار صادر، بيروت، ج ٥، ص ٤١، مادة عرض.
- (٧٨) التبريزي، الخطيب، الكافي في العروض والقوافي، تحقيق: الحساني حسن عبد الله، مج ١٢، ج ١، ص ١٧.
- (٧٩) الزبيدي، تاج العروس، ج ٥، ص ٤٠.
- (٨٠) السيد، عبد الرؤوف بابكر، المدارس العروضية في الشعر العربي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، الجماهيرية الليبية، ط ١، ١٩٨٥م، ص ١٣٣.
- (٨١) راجع: ثويني، د. حميد أم، علم العروض والقوافي، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط ١، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م، ص ٢٤ إلى ص ٦٨، راجع أيضا: السيد، عبد الرؤوف بابكر، المدارس العروضية في الشعر العربي، ص ٥٣٥ إلى ص ٥٦٧.
- (٨٢) ابن رشيق، أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط ٢، ١٩٥٥م، ج ١، ص ١٣٦.
- (٨٣) فروخ، د. عمر، عبقرية اللغة العربية، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨١م، ص ٣٩.
- (٨٤) مطلوب، د. أحمد وضع المصطلح العربي في البلاغة والنقد والعروض، للموسم الثقافي الثاني عشر لمجمع اللغة العربية الأردني، ١٩٩٤م، ص ١٥٩.
- (٨٥) التتوخي، أبو يعلى عبد الباقي، كتاب القوافي، تحقيق: د. عوني عبد الرؤوف، القاهرة، ١٩٧٥م، ص ١٦٨.
- (٨٦) الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص ٤٩.

قائمة المصادر والمراجع.

- إلياس، د. منى، القياس في النحو، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.
- أمين، بكري شيخ، أدب الحديث النبوي، دار الشروق، بيروت، ط ٥، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.
- البوشيخي، الشاهد، مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ١، ١٩٨٢م.
- التبريزي، الخطيب، الكافي في العروض والقوافي، تحقيق: الحساني حسن عبد الله.
- التتوخي، أبو يعلى عبد الباقي، كتاب القوافي، تحقيق: د. عوني عبد الرؤوف، القاهرة، ١٩٧٥م.
- التهانوي، محمد علي الفاروقي، كشاف اصطلاحات العلوم والفنون، تحقيق: د. لطفي عبد البديع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- ثويني، د. حميد آدم، علم العروض والقوافي، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط ١، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، ١٩٤٨م.
- الجرجاني، علي بن محمد الشريف، التعريفات، تحقيق وتعليق: د. عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٩٨٧م.
- الجمحي، ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود شاکر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٢م.
- حسن، د. حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ٧، ١٩٦٤م.
- الحلواني، محمد خير، الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين، دار القلم العربي، حلب.
- ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، دار القلم، بيروت، ط ٥، ١٩٨٤م.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء

- الزمان، تحقيق: د. إحسان عباس، بيروت، ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩م.
- خليل، د. عماد الدين، حول إعادة تشكيل العقل المسلم.
- الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، مفاتيح العلوم، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، ط١، ١٣٤٢هـ، ١٩٢٢م.
- درويش، عبد الله، المعاجم العربية، الفيصلية، مكة المكرمة، ١٤٠٦هـ.
- ابن رشيقي، أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط٢، ١٩٥٥م.
- راوي، د. صلاح، النحو العربي، نشأته، تطوره، مدارسه، رجاله. دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
- الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن، طبقات النحويين واللغويين، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة.
- استدرارك الغلط الواقع في كتاب (العين)، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة.
- الزبيدي، أبو الفيض محب الدين محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، دار صادر، بيروت.
- زيدان، جورجى، تاريخ آداب العربية، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مطبعة بولاق، ط٢، القاهرة، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
- السيد، عبد الرؤوف بابكر، المدارس العروضية في الشعر العربي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، الجماهيرية الليبية، ط١، ١٩٨٥م.
- السيرافي، أبو محمد يوسف بن أبي سعيد، أخبار النحويين البصريين، تحقيق: طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٩٥٥م.
- شاهين، د. عبد الصبور، العربية لغة العلوم والتقنية، دار الاعتصام، القاهرة، ط٢، ١٩٨٦م.
- شاهين، كامل السيد، اللباب في العروض والقافية، طبعة ١٩٦٥م.

- الشهابي، الأمير مصطفى، المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث، دار صادر، بيروت، ط ٣، ١٩٩٥ م.
- شوشة، فاروق، لغتنا الجميلة، مكتبة مدبولي، القاهرة.
- ضيف، د. شوقي، المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨ م.
- الطغرائي، مؤيد الدين إسماعيل بن الحسين، الغيث المنسجم في شرح لامية العجم، طبعة ١٢٩٠ هـ.
- عباينة، جعفر نايف، مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط ١، ١٩٨٤ م.
- عبادة، د. محمد إبراهيم، معجم مصطلحات النحو والصرف والعروض والقافية، دار المعارف، القاهرة.
- عمر، أحمد مختار، صناعة المعجم الحديث، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤١٨ هـ.
- ابن فارس، أبو الحسن أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، إيران، ط ٢، ١٤٠٩ هـ.
- فروخ، د. عمر، عبقرية اللغة العربية، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨١ م.
- القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم، الأمالي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر.
- القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، إنباه الرواة بأنباه النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٠ م.
- القوزي، عوض محمد، المصطلح النحوي، نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٣ م.
- اللغوي، أبو الطيب، مراتب النحويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٥ م.

- مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، دار الحديث للطبع والنشر، بيروت.
- محفوظ، محمد، الفكر الإسلامي المعاصر ورهانات المستقبل، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م.
- المسدي، د. عبد السلام، قاموس اللسانيات، دار العربية للكتاب، ١٩٨٤م.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن كرم، لسان العرب المحيط، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- ابن النديم، محمد بن إسحاق، الفهرست، حققه وقدم له: د. مصطفى الشويمي، دار التونسية للنشر، تونس، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

المصطلح النحوي في كتاب العين

المصطلح النحوي في كتاب العين

د. خالد بن عبد الكريم بسندي
جامعة الملك سعود - السعودية



المصطلح النحوي في كتاب العين

د. خالد بن عبد الكريم بسندي

المقدمة:

المصطلح هو اتفاق مجموعة ما على شيء باسم ما بعد أن يُنقل هذا الاسم من معناه اللغوي إلى معنى آخر لمناسبة بينهما، مثل الاشتراك والتشابه، والغرض من ذلك بيان مفهوم الشيء المنقول إليه وتحديده^(١). والاتفاق بين النحويين مثلا على ألفاظ معينة لتؤدي معاني هو ما يسمى عندهم بالمصطلح النحوي. وفي بداية الأمر لم تأخذ كلمة مصطلح معناها كغيرها من الألفاظ الذي حدد لها اليوم إلا بعد زمن طويل. ولذا نجد تعددا في المصطلح الذي يدل على مفهوم معين، وربما تداخلا يؤدي إلى الاضطراب عند ذوي الصناعة أنفسهم، أو عندما ينتقل إلى علم آخر فيأخذ مفهوما مختلفا، نحو "الخبر" فهو في اصطلاح النحويين يدل على مفهوم معين، وعند البلاغيين له مفهوم آخر قد يتداخل مع المفهوم الأول وقد يخالفه، حتى يصل اختلاف المفهوم في مصطلح اللفظ حد التنذر، فإذا كان النحوي يعرف معنى معيناً لاصطلاح الهمز، فالبدوي من الأعراب يعرف للهمز معنى آخر هو الضغط بشدة^(٢)، فاختلاف المصطلح يعود أحيانا إلى اختلاف الفنون، أو إلى المناهج المختلفة التي تميزت بها كل فئة، ولهذا برزت مصطلحات خاصة بالبلاغيين ومصطلحات خاصة بالنحويين، ومصطلحات خاصة بالبصريين من النحويين وأخرى خاصة بالكوفيين وهكذا. ومن العيب أن ينفرد شخص ما بمسألة وضع المصطلح؛ لأنه مشروط بالإجماع. وكان لعلمائنا الأوائل فضل كبير في وضع المصطلحات النحوية والبلاغية بمعناها العلمي الذي نستخدم أكثره اليوم، وإن لم تتضح وتكتمل وشابها بعض التداخل والاضطراب، أو التعدد والتناقض أحيانا إلا أن البذرة الأولى قد وضعت على أيديهم، وهذا التعدد والتداخل يعود أحيانا إلى أن بعضها كان يُذكر بالمفهوم أو بالمرادف.

يتناول هذا البحث المصطلح النحوي في كتاب العين الذي يُعدُّ أول معجم

يُؤلف في اللغة العربية، بُني في مضامينه على أن يكون دائرة معارف للغة العرب، ولهذا نجده قد جاء حافلاً بالمعلومات الصوتية والصرفية والنحوية والتأصيلية: أصالة ودخيلاً ومعرباً، واللهجات واللغات والسماع والقياس والفروقات اللغوية بين المدن والأمصار والأقطار... إلى جانب ثروته الاستشهادية نثراً وشعراً، حديثاً وقرآناً، أمثالاً وحكماً... فقد تضمن شواهد القرآن والحديث والشعر والمثل. محاولاً كشف اللثام عنه ورصده مبتدئاً بالحركات وأنواع البناء والإعراب، متابعاً رصد المصطلح النحوي بمفهومه القديم في العين حسب ترتيب الأبواب النحوية في كتب النحو والصرف، مقتصرًا في بعض الأحيان على مجرد ذكر المصطلح، ومكرراً بعض النصوص أحياناً لاشتمالها على أكثر من مصطلح.

فإذا كان النحو في (الكتاب) يُمثل أول خطوة صحيحة—كما يقول القوزي^(٣)— في دراسة النحو بوصفه علماً يقوم على قواعد وأصول معينة، مستضيئاً بمناهج القياس والاستقراء دون الوقوف عند المفهوم الجزئي المحدود لبعض مسائل النحو فإننا نقف في العين على مادة نحوية مليئة بالكنوز لا تقل أهمية عن المادة الموجودة في الكتاب، خاصة أن سيبويه تلميذ الخليل أخذ عنه، ولا نستطيع أن نثبت كما لا نستطيع أن ننفي أن النحو في العين من وضع الخليل^(٤) إلا أننا أمام مادة تُظهر لنا مرحلة من مراحل وضع المصطلحات، استقر معظمها في التراث النحوي وما زلنا نستعملها، وهذا يقف بنا عند التساؤل الآتي: أين التراث النحوي قبل العين والكتاب؟ خاصة أن مادة الخليل النحوية أيضاً قد تكون نتاجاً لفكر أساتذته، ولكن لا يوجد ما يثبت ذلك أو ينفيه، فما زال تاريخ النحو العربي في نشأته وتطوره محفوفاً بالغموض لعدم وجود النصوص التي تثبت بدايته الحقيقية، والذي نستطيع تأكيده أن المادة النحوية في العين والمروية عنه في الكتاب تشير إلى أن النحو اتخذ أصوله وقواعده وشكله الاصطلاحي على يديه، وبذلك يكون "هو المؤسس الحقيقي لعلم النحو العربي الذي وضعه سيبويه في كتابه بعد أن تلقاه عنه وتعلمه عليه"^(٥).

أما كتاب العين الذي أصبح في متناول الدارسين، ففيه مادة لغوية تزخر

بالمصطلحات النحوية التي شاعت في التراث النحوي، استعمل صاحب العين جانباً منها عند تعليقه على بنية الكلمات أحياناً أو وصفه لدورها النحوي أحياناً أخرى مما يسمح بتقديم بعض الملاحظات في شأن العمل المصطلحي. ويذكر المهيري^(٦) أن أهم ما يلاحظ على العمل المصطلحي عند صاحب العين التردد بين تسميات المفهوم الواحد والمفاهيم المتقاربة أو على الأقل المفاهيم التي كرس الاستعمال اللاحق مصطلحاً واحداً لها. وأشار إلى أن هناك عدداً من المصطلحات الخيلية لم يكن لها في استعمال النحاة حظ كبير، كما أن الخلف لم يولوها عنايتهم، ومنها مصطلح المجاوز ومصطلح أميت ...^(٧) ويرى أنه خلافاً لما يجوز أن نتظر من صاحب العين لا نجد فيه عرضاً للمصطلحات النحوية، وشرحاً لمدلولاتها الفنية ضمن ما يشرح من المفردات، مع أن هذا لم يمنع من استعمال جانب منها^(٨). ولكن المتأمل في كتاب العين يجد أن صاحبه عرض بعض المصطلحات النحوية وشرح مدلولاتها الفنية، وسيوضح ذلك في ثنايا البحث.

أما المصطلحات النحوية التي أوردها صاحب العين فهي على النحو الآتي:

١- الحركة - الحركات:

استخدم صاحب العين مصطلح الحركة في قوله: "فإذا ثَّوَا قالوا أخوان وأبوان، لأن الاسم متحرك الحشو فلم تَصِرْ حركته خلفاً من الواو والساقطة كما صارت حركة الدال في اليد، وحركة الميم في الدم، فقالوا يدان ودمان"^(٩) واستخدم سيبويه المصطلح نفسه في قوله: "ويجوز أيضاً أن يكون ياسين وصاد اسمين متمكنين، فيلزمان الفتح، كما ألزمت الأسماء غير المتمكنة الحركات، نحو: كيف، وأين، وحيث، وأمس"^(١٠) وهذا خلاف ما ذكره القوزي من أن سيبويه اقتصر على ذكر مجاري أواخر الكلم^(١١). ومصطلح الحركة الذي استخدمه صاحب العين استقر في التراث اللغوي، وما زال مستخدماً.

٢- الضمة والفتحة والكسرة.

استخدم صاحب العين هذه المصطلحات للدلالة على حركة فاء الكلمة وعينها، يقول: "الفخذ: وصل ما بين الورك والساق، ويخفف فيقال: فخذ في لغة سفلى

مُضَر، وهي مؤنثة، وكُسرت الفاء على أعقاب كسرة الخاء حيث أسكنت، ومن فتحها مع سكون الخاء تركها على ما كانت، كما قالوا في العقب عَقَبَ فَلَزِمُوا الفَتْحَةَ، وفي الكَتِفِ كَتَفَ فَلَزِمُوا الكَسْرَةَ^(١٢). وبين في موضع آخر أن الواو في الأصل من الضمة، والياء من الكسرة، يقول: "لأنَّ الياءَ خَلَقَتْهَا الكَسْرَةُ فَيَسْتَقْبِحُونَ الواوَ بَيْنَ كَسْرَتَيْنِ. والواو خَلَقَتْهَا مِنَ الضَّمَّةِ فَيَسْتَقْبِحُونَ التِّقَاءَ كَسْرَةَ وَضَمَّةً، وَلَا تَجِدُهَا فِي كَلَامِ العَرَبِ فِي أصلِ البِنَاءِ سِوَى النُّحُو"^(١٣)، وبين في موضع آخر أيضا أن الضمة والكسرة والفتحة تكون حركة إعراب، وينفي أن يكون التثوين في آخر الكلمة هو الإعراب، يقول: "والكسرة التي تلزم الدال في 'يد' في وجوه، والتثوين يُمَيِّزُ بَيْنَ الأسمِ والفعلِ، ألا ترى أنك تقول: تفعلُ فلا تجد التثوين يدخلها، ألا ترى أنك تقول: رأيتُ يَدَكَ، وهذه يَدُكَ، وعَجبتُ من يَدِكَ فتُعرب الدال وتطرح التثوين، ولو كان التثوين هو الإعراب لم يسقط"^(١٤). وبهذا تنوعت دلالة هذه المصطلحات الثلاثة، فدلَّت مرة على حركة الفاء وأخرى على حركة العين وثالثة على حركة اللام.

الرفع والنصب والجر والخفض.

استخدم صاحب العين مصطلحات الرفع والنصب والجر في مواضع متفرقة من العين، ففي قوله: "ويُحكى بَمَنْ الأعلام والكنى والنكرات في لغة أهل الحجاز إذا قال: رأيت زيدا قلت: من زيدا، وإذا قال: رأيت رجلا قلت: من يا فتى، وتقول في النَّصْبِ والخفض إذا استفهمت عن رجل أو قوم قلت: من للرجل وإن قال: مررت برجل قلت: من، ومنين للرجلين ومنين للرجال. وتقول في الرفع: منو للواحد ومنان للثنين، ومنون للجميع"^(١٥)، وهذا النص ورد عند سيبويه في قوله: "اعلم أنك تثني من إذا قلت رأيت رجلين كما تثني آيا، وذلك قولك: رأيت رجلين، فتقول: منين [كما تقول آيين]. وأتاني رجلان فتقول: منان، [وأتاني رجال فتقول: منون] وإذا قال: رأيت رجلا قلت: منين"^(١٦). واستخدم صاحب العين مصطلح الرفع في موضع البناء على الضم، يقول: "وأما قَطُّ فإنه الأبد الماضي، تقول: ما رأيتَه قَطُّ، وهو رفع لأنه غاية مثل قولك: قَبْلُ وبعْدُ"^(١٧). كما استخدم مصطلحات الرفع والنصب والخفض للدلالة على حالات الإعراب للأسماء المتمكنة وما يجري مجراها، وهو ما

ذكره سيبويه في الكتاب في قوله: "فالرفع والجر والنصب والجزم لحروف الإعراب، وحروف الإعراب للأسماء المتمكنة..."^(١٨). ومثله قوله: "وتقول في بعض الجواب: لا بذي تَسْمَع، كأنه قال لا والله يُسَلِّمُكَ، ما كان كذا وكذا، فنقول: لا وسلامتك ما كان كذا وكذا، كما يقال: لمن قال: ماذا صنعت؟ خيرٌ وخيراً، أي الذي صنعت هو خير، والنصب على وجه الفعل، ومنه قوله -عز وجل-: قل العفو، أي الذي تُتَّقُونَ هو العفو من أموالكم، فإياه فأنفقوا، في قراءة من يرفع، والنصب على وجه الفعل"^(١٩).

في حين استخدم لفظة (النصب) للدلالة على الحركة التي تظهر على الحرف، نحو قوله: "والتجفاف بنصب التاء: مصدر بذل التَّجْفِيف"^(٢٠) في الوقت الذي استخدم فيه مصطلح الكسر للدلالة على حركة الحرف، يقول: "الجَمَام بكسر الميم أي الموضع الذي عليه اللجام"^(٢١). واستخدم لفظة (تنصبه) للدلالة على البناء في قوله: "وأما الآن فإنه يلزم السَّاعَة التي يكون فيها الكلام والأمور ريثما يبتدئ ويسكت، والغريب تنصبه في الجر والنصب والرفع، لأنه لا يتمكّن في التصريف، فلا يثنى ولا يثلاث ولا يصغر، ولا يصرف ولا يضاف إليه"^(٢٢). فقوله (تنصبه) يقابل مصطلح البناء الذي استقر في التراث النحوي، إلى جانب وقوعه على المصطلح المستقر (البناء)^(٢٣) في العين، وهذا من تداخل المصطلح وتعدد الدلالة على مفهوم واحد؛ لأن كلمة (الآن) مبنية على أشهر الأقوال على الفتح. ومثله قوله: "يا تزيد ويا للعجب، وذلك إذا كان ينزل به أمر فادح، ويا للحسرة ويا للندامة فتُنصب اللام في ذلك ونحوه"^(٢٤)، فالحركة التي على اللام هي حركة بناء ومع هذا استخدم لفظة (تنصب). ومثله قوله: "أين: وقت من الأمكنة، تقول: أين فلان؟ فيكون منتصباً في الحالات كلها"^(٢٥) والمعروف أن (أين) اسم مبني على الفتح في الحالات كلها ومع هذا استخدم مصطلح فيكون (منتصباً) في حين نجد أن لفظة (تنصبه) جاءت للدلالة على إعراب الفعل المضارع يقول: "فينصبون بأو كما ينصبون بحتى"^(٢٦). وهذا يشير إلى التذبذب والتداخل في إطلاق المصطلح الذي نعزوه إلى عدم نضج المصطلح في هذه المرحلة وعدم استقراره. واستخدم لفظة (جرتها) للدلالة على ما استقر في التراث بالبناء على الكسر، يقول: "وخذام: اسم امرأة، قال:

إذا قالت حذام فصنقوها فإنَّ القَوْلَ ما قالت حذام

جرَّتْهَا العَرَبُ في موضع الرِّقْع والنَّصْب، وكذلك فَجَارِ وفساقٍ وخبَّاتٍ^(٢٧).
فمصطلح الجر هنا يقابل مصطلح البناء على الكسر الذي استقر في التراث النحوي
في مثل هذه فالأعلام (حذام، وفجار، وفساق...) مبنية على الكسر وهو ما استقر
عند النحويين فيما بعد، وقد استخدمه صاحب العين نفسه في حديثه عن (أنت،
عليك)، يقول: وَجَدُوا أَكْثَرَ حَالَاتِ الْمُؤَنَّثِ الْكَسْرِ، كَقَوْلِهِمْ: أَنْتِ عَلَيْكِ، إِلَيْكِ^(٢٨).
وعند مقارنة هذه المصطلحات بما أورده الخوارزمي^(٢٩) عن الخليل ونقله
القوزي^(٣٠) نجد تفاوتًا بل تناقضًا أحيانًا. فالرفع والنصب والخفض في رواية
الخوارزمي لما وقع في أعجاز الكلم منونا نحو (زيد، زيدًا، زيد). والجر لما وقع
في أعجاز الأفعال المجزومة عند استقبال ألف الوصل نحو: (لم يذهب الرجل).

الضم والفتح والكسر.

استخدم صاحب العين مصطلحي الضم والفتح للدلالة على حركة العين واللام
في الكلمة الرباعية، نحو: "القَنْذَعُ والقَنْذَعُ، بالفتح والضم"^(٣١). وكذلك استخدم
مصطلحي الفتح والكسر للدلالة على حركة عين الكلمة، نحو قوله: "العَصْرُ: الذَّهْرُ،
فإذا احتاجوا إلى تنقيله قالوا: عَصُرَ، وإذا سكنوا الصاد لم يقوموا إلا بالفتح"^(٣٢).
وقوله: "عَسَيْتَ، وَعَسَيْتَ بالفتح والكسر"^(٣٣). واستخدم مصطلحي الفتح والكسر
للدلالة على فاء الكلمة، وذلك في قوله: "الحَبْرُ والحَبَارُ: أُنْزِ الشَّيْءَ. والحَبْرُ والسَّبْرُ:
الجَمال والبهاء، بالفتح والكسر"^(٣٤). ومنه أيضا قوله: "قد تُكسر الحَجَّةُ والحَجُّ فيقال:
حَجٌّ وحِجَّةٌ. ويقال للرجل الكثير الحَجِّ حَجَّاجٌ من غير إمالة"^(٣٥). و"المَفْتَحُ: الخِزَانَةُ،
ولكُلِّ شَيْءٍ مَفْتَحٌ، ومَفْتَحٌ بالفتح والكسر"^(٣٦). وهنا نقف على التداخل الذي يدخلنا
أيضا في اضطراب المصطلح عند استخدامه مصطلح الكسر للدلالة على حالة البناء
على الكسر، وذلك في قوله: "وَجَدُوا أَكْثَرَ حَالَاتِ الْمُؤَنَّثِ الْكَسْرِ، كَقَوْلِهِمْ: أَنْتِ عَلَيْكِ،
إِلَيْكِ"^(٣٧). أما سيبويه فينص على أن الفتح والكسر والضم والوقف للأسماء غير
المتمكنة المضارعة عندهم ما ليس باسم ولا فعل مما جاء لمعنى ليس غير، نحو:
سوف وقد، وللأفعال التي لم تجر مجرى المضارعة، وللحروف التي ليست بأسماء

ولا أفعال ولم تجئ إلا لمعنى^(٣٨). ويذكر القوزي^(٣٩) أن إطلاق اصطلاح الرفع على حركة المنادى المفرد كان أكثر شيوعاً من اصطلاح الضم، وأن لجوء الخليل وسيبويه إلى اصطلاح الرفع فيه تيسير على المتعلمين المبتدئين، فهو أهون من قولنا: مبني على الضم. وأرى أن المسألة لا تتعلق بالتيسير بقدر تعلقها باضطراب المصطلح الذي لم ينضج في تلك الحقبة، ولم يستقر.

التنوين.

ذكر صاحب العين مصطلح التنوين في مواضع متعددة من العين، منها قول حمزة بن زرعة مفاده أن التنوين ليس إعراباً بل الإعراب الضمة والكسرة التي تلزم الدال في "يد"، والتنوين يُمَيِّزُ بين الاسم والفعل، يقول: "ألا ترى أنك تقول: تفعل فلا تجد التنوين يدخلها، وألا ترى أنك تقول: رأيتُ يَدَكَ، وهذه يَدُكَ، وعَجبتُ من يَدِكَ فتعرب الدال وتطرح التنوين. ولو كان التنوين هو الإعراب لم يسقط"^(٤٠). وفي حين ذكر في موضع آخر أن التنوين إعراب، يقول: "قال: وقد تجيء أسماء لفظها على حرفين وتماؤها ومعناها على ثلاثة أحرف مثل يدٍ ودمٍ وغمٍ، وإنما ذهب الثالث لعلها أنها جاءت سواكن وخلقتها السكون مثل ياء يَدِي وياء دَمِي في آخر الكلمة، فلما جاء التنوين ساكناً اجتمع ساكنان فثبت التنوين لأنه إعراب وذهب الحرف الساكن"^(٤١). ومصطلح التنوين ظهر - كما يذكر القوزي^(٤٢) - قبل الخليل بكل تأكيد وأصبح واضحاً مستقراً عند الخليل وسيبويه.

واستخدم صاحب العين مصطلح الصرف للدلالة على تمكن الكلمة من التنوين، في قوله: "وصرف الكلمة: إجراؤها بالتنوين"^(٤٣). وقوله الشيءُ واحدُ الأشياء، والعرب لا تصرف أشياء، وينبغي أن يكون مصروفاً، لأنه على حد فيء وأفياء... واختلف فيه جهل النحو، إنما كان أصل بناء شيء: شَيْءٌ بوزن فيعل، ولكنهم اجتمعوا قاطبةً على التخفيف، كما اجتمعوا على تخفيف مَيْت. وكما خففوا السينة، كما قال: والله يَعْقُو عن السيئات والزلل. فلما كان الشيء مخففاً وهو اسم الأدميين وغيرهم من الخلق، جُمع على فعلاء، فخفف جماعته، كما خفف وحداته، ولم يقولوا: أشيئا، ولكن: أشياء، والمدةُ الآخرةُ زيادة، كما زيدت في أفعلاء،

فذهب الصُّرف لدخول المدة في آخرها، وهو مثل مدة حمراء وأسعداء وعجاساء، وكلُّ اسمٍ آخره مدةٌ زائدةٌ فمرجه إلى التانيث، فإنه لا يُنصرفُ في معرفةٍ ولا نكرةٍ، وهذه المدة خولف بها علامة التانيث وكذلك الياء يُخالفُ العلامة في الخبلى لأنعدالها في جهتها. وقال قومٌ في (أشياء): إن العرب لما اختلفت في جمع الشيء، فقال بعضهم: أشيَاء وقال بعضهم: أشاوات، وقال بعضهم: أشاوي، ولما لم يجيء على طريقة فيء وأفياء ونحوه، وجاء مختلفاً علم أنه قد قلب عن حذء، وترك صرفه لذلك^(٤٤). والصرف عند صاحب العين هو التثوين.

السكون والجزم.

استخدم صاحب العين مصطلح السكون في مواضع متفرقة من العين، منها قوله: "وتقول: أرني يا فلانُ ثوبك لأراه، فإذا استعطيتهُ شيئاً ليعطيكهُ لم يقولوا إلا لَرْنَا يسكون الراء"^(٤٥). وكذلك استخدم مصطلح الجزم يريد به السكون، وذلك عندما علق على كلمة (بجل) في قول لبيد:

فمتى أهلك فلا أحفلةُ بجلي الآن من العيشِ بجلُ

يقول: "وهو مجزومٌ لاعتماده على حركة الجيم"^(٤٦). وذكر الجزم والسكون في قوله: وإنما يقاس حرف التضعيف على الحركة والسكون بالأمثلة من الفعل فحيثما سكنت لام الفعل فأظهر حرفي التضعيف على ميزان ما كان في مثاله، نحو قولك للرجل في الأمر: افعلْ مجزومة اللام^(٤٧) ففي حديثه عن الفعل المضعف (غض، ومد، وقر) جعل الحركة والسكون قياس حرف التضعيف، واستخدم في هذا السياق مصطلح التضعيف، وهو المصطلح الذي استقر فيما بعد "فتقول في باب التضعيف: اغضضْ وقرزْ وامدُد"^(٤٨)، ومصطلح الأمر للدلالة على الفعل نحو قولك للرجل في الأمر: افعلْ"^(٤٩) واستخدم مصطلح الإدغام "فإذا تحركت لام الفعل فمثال ذلك من التضعيف مدغم الحرفين، يقال للمرأة: افعلِي فتحركت اللام قلت: غُضِي وقرِي وإني وجدِّي فهذا قياس المجزوم كله في باب التضعيف"^(٥٠) واستخدم مصطلح الحرف "وإنما يقاس حرف التضعيف"، واستخدم مصطلح الحركة "حرف التضعيف على الحركة" ومصطلح الفعل "بالأمثلة من الفعل فحيثما سكنت لام

الفعل" وكذلك نظرته إلى تقسيمات الكلمة إلى جذور "سكنت لام الفعل". ويذكر القوزي^(٥١) أن سيبويه روى اصطلاح السكون عن الخليل في مواضع متفرقة من الكتاب، ومنها قوله: "... وكذلك كل حرف قبل نون النساء لا يمكن لأمر ولا لحرف يجزم ألا ترى أن السكون لازم له في حالة النصب والرفع وذلك قولك رددن وهن يرددن وعلى أن يرددن"^(٥٢).

الإشمام.

عرّف صاحب العين هذا المصطلح بقوله: "والإشمام: أن تسم الحرف الساكن حركة، كقولك في الضمة: هذا العمل، وتسكت، فتجد في فوك إشماماً للام لم يبلغ أن يكون واواً، ولا تحريكاً يُعْتَدُّ به، ولكن شمة من ضمة خفيفة، ويجوز ذلك في الكسر والفتح أيضاً"^(٥٣). واستخدم هذا المصطلح في حديثه عن الياء الساكنة والواو الساكنة، يقول: "وكل شيء مما خلق الله يُسَمَّى دابةً، والاسم العام الدابة لما يُركب، وتصغيرها ذوبية، الياء ساكنة وفيها إشمام من الكسرة، وكذلك كل ياء في التصغير إذا جاء بعدها حرف مُثَقَّلٌ في كل شيء"^(٥٤). ويقول: "ورجل ذوب، وهو ينزوي نوى شديداً، وامرأة ذوبية، الواو مكسورة خفيفة على (فعل)، وإن خففتها للنعث فالواو ساكنة مع الياء، والإشمام فيه أحسن من الإسكان، وناس من أهل الحجاز يفتحون ما كان من نحو ذوب ويقولون: رجل ذوب وامرأة ذوب سواء، لأنه تحويل..."^(٥٥).

الكلمة والكلام.

ومن استخدامه مصطلح الكلام قوله: "كلام العرب مبني على أربعة أصناف..."^(٥٦) والحشو من الكلام: الفضل الذي لا يُعْتَمَدُ عليه. والحشوا من الناس: من لا يُعْتَدُّ به. والمحال من الكلام: ما حوّل عن وجهه. وكلامٌ مُسْتَحِيلٌ: محال، واستخدم مصطلح الكلمة والكلام في مواضع كثيرة أيضاً، منها قوله: "فإذا وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية... ولا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف حرف واحد أو اثنان أو فوق ذلك فاعلم أن تلك الكلمة محدثة مبتدعة، ليست في كلام العرب، لأنك لست واجداً من يسمع في كلام العرب كلمة واحدة..."^(٥٧).

. الاسم:

ذكر مصطلح الاسم في مواضع مختلفة، منها قوله "الاسم لا يكون أقل من ثلاثة أحرف: حرف يُبْتَدَأُ به. وحرف يحشى به الكلمة، وحرف يُوقَفُ عليه، فهذه ثلاثة أحرف مثل سَعَدَ وَعُمَرَ ونحوهما من الأسماء. بُدِئَ بالعين وَحُسِبَتِ الكلمة بالميم وَوُقِفَ على الراء" (٥٨)، وقوله: "فإن كان البناء اسماً... (٥٩)، وقوله: "الخلعُ: اسم" (٦٠). وذكر مصطلح الاسم أيضاً في قوله "ويقال: بَلَّ فلانٌ من مَرَضِهِ وَأَبْلُ واستَبَلَّ، أي: برأ، والاسم منه: البَلُّ" (٦١). وذكره أيضاً في قوله: "تقول في الاعتزاء: يا لفلان، يا لتميم بنصب اللام، إنها لامٌ مفردة، ولكنها تُنصبُ في الذي يُنذبُ، وتُكسرُ في المندوب إليه، وإنما هي لامٌ أُضيفت إلى الاسم يدعى بها المندوب إليه" (٦٢).

. الفعل:

استخدم صاحب العين مصطلح الفعل في مواضع متعددة من العين، ومنها قوله: "... والفعل فاهٌ يفوهُ فوها" (٦٣). وقوله: "العضنُ بالأسنان والفعل منه عضضتُ أنا وعضنَ بعض" (٦٤)، وقوله: "العَلَلُ: الشربةُ الثانية، والفعل: عَلَّ القومَ إبْلَهُمَ يَعْلَنُهَا عَلًّا" (٦٥). وقوله: "والفعلُ ذَوِي ذَوِي ذَوِي، وهو الذاءُ الباطن، وكلُّ بناءٍ على ذَوِي وَذَوِي، مكسور، ويكون الفعل منه مكسوراً فإن النعتُ منه مخفَّفٌ إلا أن يضطرَّ شاعرٌ إلى غيره" (٦٦)، وذكره في قوله: "والفعلُ: نَبَأَتْه وَأَنبَأَتْه واستنبأته" (٦٧). وفي حديثه عن التاء التي تلحق الاسم والفعل، يقول: "ولكنهم فرقوا بين تأنيث الفعل وتأنيث الاسم. فقالوا في الفعل: فَعَلَتْ. وفي الاسم: فَعَلَّة" (٦٨) ونجد صاحب العين حريصاً على تحديد المصطلح للمفهوم الواحد ليتسنى التمييز بين الظواهر المختلفة.

. الفعل اللازم والمجاوز والمتعدي:

استخدم صاحب العين ثلاثة مصطلحات للدلالة على درجات الفعل من حيث التعدي واللزوم؛ فالمقابل لللازم هو المجاوز، نحو قوله: "النظافة مصدرُ النظيف، والفعل اللازم منه: نَظَّفَ، والمجاوز: نَظَّفَ يُنَظِّفُ تَنظِيفاً. واستنظفَ الوالي ما عليه من الخراج، أي: استوفى، ولا يستعمل التَنظِيفُ في هذا المعنى" (٦٩). وقوله:

"وطارقتُ بعضه على بعض، والفعل اللازم أطرق أي أطرقتُ طرائقه" (٧٠).
 "والفعل اللازم من سَدَّ انسَدَّ" (٧١). "والفعل اللازم: الانطواء" (٧٢). و"رجعت رُجوعاً
 ورجعته يستوي فيه اللازم والمجاوز" (٧٣). وكذلك الفعل "ساء" يكون لازماً
 ومجاوزاً (٧٤). ومن هنا يظهر أنه استخدم مصطلح المجاوز في مقابل اللازم،
 واستخدمه للفعل المتعدي إلى مفعول فقط، أما المتعدي إلى مفعولين أو ثلاثة
 فاستخدم مصطلح المتعدي. يقول للفعل المجاوز: يتعدى إلى مفعول بعد مفعول،
 والمجاوز مثل ضرب عمرو بكراً، والمتعدي مثل: ظنَّ عمرو بكراً خالداً. وعداه
 فاعله" (٧٤). ومنه قوله: "دهن: الدهن: الاسم. والذهن: الفعل المجاوز، والادهان:
 الفعل اللازم" (٧٦). "والمجاوز: أمعضته إمعاضاً، ومعضته تمعيضاً" (٧٧) "وأدم أي
 أقبح، والفعل اللازم: دمَّ يدمُّ" (٧٨) وهذا من باب "الحرص على تنويع المصطلحات
 لإبراز الفروق بين الظواهر المتقاربة في تمييزه بين درجات التعدية" (٧٩).

الفعل الماضي.

ويظهر استخدام صاحب العين الفعل للدلالة على الزمن الماضي، نحو قوله:
 "وعسى في الناس بمنزلة: لعل وهي كلمة مطمعة، ويستعمل منه الفعل الماضي،
 فيقال: عَسَيْتَ وَعَسَيْتَا وَعَسَوْا وَعَسَيَا وَعَسَيْنَ - لغة - وأميت ما سواه من وجوه
 الفعل. لا يقال يفعل ولا فاعل ولا مفعول" (٨٠).

فعل الأمر.

وكذلك استخدم صاحب العين فعل الأمر، يقول: "الأمر: نقيض النهي،
 والأمر واحد من أمور الناس. وإذا أمرت من الأمر قلت: أوْمُرْ يا هذا، فيمن قرأ:
 «وأمر أهلك بالصلاة» [طه: ١٣٢]. لا يقال أوْمُرْ ولا أوْخُذْ منه شيئاً، ولا أوْكُلْ،
 إنما يُقال: : مُرْ وخذْ وكلْ في الابتداء بالأمر، استتقالاً للضمتين، فإذا تقدم قبل
 الكلام واوٌّ أو فاءٌ قلت: وأمر، فأمر، كما قال عز وجل: - "وأمر أهلك بالصلاة"،
 فأما كلٌّ من أكل يأكل فلا يكاد يدخلون فيه الهمزة مع الفاء والواو، ويقولون: وكلأ
 وخذأ، وارفعا فكلأه، ولا يقولون فأكلأه.. وهذه أحرف، جاءت عن العرب
 نواذر... (٨١).

- الفعل الناقص -

استخدم مصطلح الفعل الناقص ويقصد به الجامد، يقول: "وأهل النحو يقولون: هو [يقصد عسى] فعل ناقص، ونقصانه أنك لا تقول منه فعل يفعل، و(ليس) مثله، ألا ترى أنك تقول: لست ولا تقول: لاس يليس" (٨٢) مع أن الفعل الناقص الذي استقر في التراث النحوي يدل على الأفعال الناقصة التي تخلو من دلالة الحدث، وتحتاج إلى المنصوب، ولم يعد هذا المصطلح مستخدماً للدلالة على الجامد.

- الفعل الواقع وغير الواقع -

استخدم صاحب العين مصطلحات لم يكتب لها الدوام فيما بعد، منها: مصطلح الفعل الواقع والفعل غير الواقع، يقول: "لَعِقْتَهُ أَلْعَقَهُ لَعَقًا لَا تَحْرَكُ مَصْدَرُهُ لِأَنَّهُ فَعْلٌ وَاقِعٌ وَمِثْلُ هَذَا لَا يُحْرَكُ مَصْدَرُهُ؛ وَأَمَّا عَجِلَ عَجَلًا وَنَدِمَ نَدَمًا فَيُحْرَكُ، لِأَنَّكَ لَا تَقُولُ: عَجِلْتُ الشَّيْءَ وَلَا نَدِمْتُهُ لِأَنَّ هَذَا فَعْلٌ غَيْرٌ وَاقِعٌ" (٨٣). ويقول في موضع آخر: "وكل فعل واقع لا يحرك مصدره نحو الطعم، لأنك تقول: طعمت الطعام وما لم يقع يحرك مصدره مثل ندم" (٨٤).

- الحرف -

استخدم صاحب العين مصطلح الحرف في مواضع كثيرة من العين، منها قوله: "وإنما وقفوا عند هذه التاء بالهاء من بين سائر الحروف، لأن الهاء أليّن الحروف الصّحاح، فجعلوا البدل صحيحاً مثلها، ولم يكن في الحروف حرف أهش من الهاء، لأنّ الهاء نفس" (٨٥). ومنها قوله: "عل أخاك: أي لعل أخاك وهو حرف يقرب من قضاء الحاجة ويطمع" (٨٦). ويعني الحرف في مصطلح الخليل أيضاً ما نعنيه باستعمالنا مصطلح "صوت" في عصرنا الحاضر؛ لأن مصطلح "صوت" لم يرد في مادة الخليل الصوتية، ولم يكن من مصطلح العلم اللغوي إلا في القرن الرابع الهجري فقد ورد في مصطلح ابن جني (٨٧)، يقول: "فإذا سئلت عن كلمة وأردت أن تعرف موضعها فانظر إلى حروف الكلمة فمهما وجدت منها واحداً في الكتاب المقدم فهو في ذلك الكتاب" (٨٨)، فقوله "حروف الكلمة" يعني أصواتها.

-البناء-

استخدم صاحب العين هذا المصطلح في قوله: "وأما ذِهٍ وذِي في هذه وهذِي فأسماء مَكْنِيَّاتٍ وليس في البناء فيها غير الذال والألف التي بعدها زائدة"^(٨٩) للدلالة على بناء الكلمة، واستخدمه في قوله: "والأنثى: هَنَه بفتح النون إذا وقفت عندها لظهور الهاء، فإذا مررت سَكَّنَتِ النون، لأنها بنيت في الأصل على التَّسكين، وصيرت الهاء تَاءً، كقولك: رأيت هَنَةً مُقْبِلَةً لم تُصْرَفْ، لأنها اسم معرفة للمؤنث. وهاءُ التَّأْنِيثِ إذا سَكَّنَ ما قَبْلَهَا صارت تَاءً مع أَلِفِ الْفَتْحِ الَّذِي قَبْلَهَا، كقولك: القناة والحياة. وهاءُ التَّأْنِيثِ أَصْلُ بِنَائِهَا مِنَ التَّاءِ"^(٩٠) للدلالة على علامة البناء، وهو ما استقر في التراث النحوي.

-الإعراب-

استخدم هذا المصطلح في مواضع متعددة، منها عند حديثه عن جمع المئنة، يقول: "والمئنة: حُدِفَ من آخرها واوٌ... وقيل: حرف لين لا يُدْرَى أَوَاوٌ هو أم ياء. والجميع: المئون، والمئين على تقدير المسلمون والمسلمين. . ومنهم من يجعل النون خلفاً في الجماعة من الحرف المحذوف. ويكون الإعراب في المئين على النون. تقول: مئينٌ كما ترى، وقبضت مئيناً"^(٩١). وذكره في قوله "وإنما ذهب الثالث لِعِلَّةٍ أنها جاءت سواكن وخَلِفَتْهَا السُّكُونُ مثل ياء يَدِي وَيَاءِ نَمِيٍّ في آخر الكلمة، فلما جاء التنوين ساكناً اجتمع ساكنان فَتَبَّتِ التَّنْوِينَ لِأَنَّهُ إِعْرَابٌ وَذَهَبَ الحرفُ السَّاكِنُ"^(٩٢). وذكره أيضاً في قوله: "والأخت: كان حُدُّها "أخة" والإعرابُ على الهاء والحاء في موضع الرفع ولكنها انفتحت لحال هاء التَّأْنِيثِ، لأنها لا تعتمد إلا على حرفٍ متحركٍ بالفتحة، وأسكنت الحاء فحَوَّلَ صَرَفُها على الألف، وصارت الهاءُ تَاءً كأنها من أصلِ الكلمة، ووقع الإعراب على التاء، وألْزِمَتِ الضمة التي كانت في الحاءِ الألفَ، وكذلك نحو ذلك"^(٩٣).

-المنوع من الصرف-

استخدم صاحب العين هذا المصطلح عند حديثه عن العلم المؤنث (هنة) وأنه ممنوع من الصرف، وذلك في قوله: "رأيت هَنَةً مُقْبِلَةً لم تُصْرَفْ، لأنها اسم معرفة

للمؤنث". وقوله: "وسامٌ أبرص: مضافٌ غيرُ مصروف" (٩٤). وذكر أن "مصر هي اليوم كورةٌ معروفةٌ لا تُصْرَف" (٩٥). وعبرَ عن الممنوع من الصرف بقوله لم تجر، وذلك عند حديثه عن مثلث وموحد ومثني، وثلاث ورباع (٩٦). وذكر مصطلح لا يُجْرَى في حديثه عن كلمة (مصر) في قوله تعالى: "اهبطوا مصرا" يوسف ٩٩ يقول: "من الأمصار، ولذلك نوته، ولو أراد مصرَ الكورةَ بعينها" (٩٧) ما نوّن، لأن الاسم المؤنث في المعرفة لا يُجْرَى" (٩٨).

المعدول.

استخدم صاحب العين مصطلح العدل في قوله: "وكذلك فجارٍ وفَسَاقٍ وخَبَاتٍ، ولم يُلقُوا عليها صَرْفُ الكلامِ لأنه نَعَتْ مؤنثٌ معدُولٌ عن جهته، وهي حاذمةٌ وفاجرةٌ وفاسقةٌ وخبيثةٌ، فلما صُرِفَ إلى "فعالٍ" كُسِرَتْ أواخر الحروف" (٩٩).

النكرة والمعرفة.

فرق صاحب العين بين النكرة والمعرفة عندما مثل للنكرة بـ (رجل سوء) وللمعرفة بـ (الرجل السوء)، يقول: "وتقول في النكرة: رجلٌ سوءٌ، وإذا عرّفت، قلت: هذا الرَّجُلُ السُّوءُ، ولم تُصِفْ.. وتقول: هذا عَمَلٌ سوءٌ، ولم تقل العمل السُّوءَ، لأنَّ السُّوءَ يكون نعتاً للرجل، ولا يكون السُّوءَ نعتاً للعمل لأن الفعل من الرَّجُلِ وليس الفعل من السُّوءِ، كما تقول: قولٌ صدِّقٌ، والقولُ الصدِّقُ، ورجلٌ صدِّقٌ، ولا تقول: الرَّجُلُ الصدِّقُ لأنَّ الرَّجُلَ ليس من الصدِّق" (١٠٠). ويقول في موضع آخر: "ذوالة اسم معرفة للذنب لا ينصرف، وسمت العرب عامة السباع بأسماء معارف، يجرونها مجرى الرجال والنساء" (١٠١). وتجدر الإشارة أنه ذكر هنا من أنواع المعارف: المعرف بأل، والمعرف بالإضافة، والعلم.

الأعلام والكنى.

ذكر مصطلحات (الأعلام والكنى) في قوله: "ويُحْكَى بمنّ الأعلام والكنى والنكرات في لغة أهل الحجاز إذا قال: رأيت زيدا قلت: من زيدا" (١٠٢). ويقول في موضع آخر: "أم حفصة: تُكْنَى به الدجاجة" (١٠٣). و"الضَّبُّ يُكْنَى أبا حَسَلٍ" (١٠٤).

وهذا يشير إلى ما استقر فيما بعد عند النحويين من أن الكنية ما صدرت بأب أو أم.

الإضمار.

أطلق هذا المصطلح في حديثه عن المحذوف في البيت الآتي قال:

فَطَلَّقَهَا فَلَسْتَ لَهَا بِكُفٍّ وَإِلَّا يَعْلُ مَفْرَقَكَ الْحُسَامُ

فأضمر فيه: **وَإِلَّا تُطَلِّقُهَا يَعْلُ**، وغير البيان أحسن. وذكر ضمائر الرفع المنفصلة من غير ذكر للمصطلح، يقول: "هي ضيف، وهو وهما وهم وهنّ ضيف" (١٠٥). كما استخدمه في حديثه عن المنصوبات التي يُحذف عاملها، يقول: "والنَّصْبُ فِي الْحَالِ وَالْقَطْعِ وَالْوَقْفِ وَإِضْمَارِ الصِّفَاتِ" (١٠٦).

العماد.

استخدم صاحب العين مصطلح العماد في حديثه عن (إِيَاكَ) يقول: "إِيَاكَ ضُرِبَتْ فَتَكُونُ (إِيَا) عِمَادًا لِلْكَافِ" (١٠٧). وكذلك استخدمه في حديثه عن نون الوقاية، يقول: "وَقَدْ وَقَطُّ لَغْتَانِ فِي "حَسْبُ"، لَمْ يَتِمَّكَانِ فِي التَّصْرِيفِ، فَإِذَا أَضْفَتَهُمَا إِلَى نَفْسِكَ قَوِيَّتَا بِالنُّونِ فَقُلْتَ: قَدَّنِي وَقَطَّنِي كَمَا قَوَّوَا عَنِّي وَمَنِّي وَلَدَّنِي بِنُونٍ أُخْرَى. قَالَ أَهْلُ الْكُوفَةِ: مَعْنَى قَطَّنِي كَفَّانِي، النَّونُ فِي مَوْضِعِ النَّصْبِ مِثْلَ نُونِ "كَفَّانِي"؛ لِأَنَّكَ تَقُولُ: قَطُّ عَبْدَ اللَّهِ دَرَهْمًا. وَقَالَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ: الصَّوَابُ فِيهِ الْخَفْضُ عَلَى مَعْنَى: حَسْبُ زَيْدٍ وَكَفِّي زَيْدٍ، وَهَذِهِ النَّونُ عِمَادٌ. وَمَنْعَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: حَسْبُنِي لِأَنَّ الْبَاءَ مَتَحْرِكَةٌ، وَالطَّاءُ هُنَاكَ سَاكِنَةٌ فَكُرِهُوا تَغْيِيرَهَا عَنِ الْإِسْكَانِ، وَجَعَلُوا النَّونَ الثَّانِيَّةَ مِنْ لَدُنِّي عِمَادًا لِلْيَاءِ" (١٠٨). واستخدمه عند حديثه عن الأمر من اللفيف المفروق، يقول: "وَإِذَا أَمَرْتَ مِنَ الْوَعْيِ قُلْتَ: عِهْ، الْهَاءُ عِمَادٌ لِلْوُقُوفِ الْإِبْتِدَاءِ وَالْوُقُوفُ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ" (١٠٩). والمقصود بالهاء هنا هاء السكت أو هاء الصلة كما يسميها صاحب العين، يقول: "وَأَمَّا هُوَ فَكِنَايَةُ التَّذْكِيرِ، وَهِيَ كِنَايَةُ التَّأْنِيثِ فَإِذَا وَقَفْتَ عَلَى هُوَ وَصَلْتَ الْوَاوَ، فَقُلْتَ: هُوَةٌ وَإِذَا أَدْرَجْتَ طَرَحْتَ هَاءَ الصَّلَةِ" (١١٠).

المبتدأ.

لم ترد لفظة المبتدأ في العين مصطلحاً.

-الخبر-

استخدم صاحب العين مصطلح الخبر في قوله: "المثل: الشيء يُضربُ للشيء فيجعل مثله. والمثل: الحديث نفسه. وأكثر ما جاء في القرآن نحو قوله- جل وعز-: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٧] فيها أنهار، فمثلاً هو الخبرُ عنها. وكذلك قوله تعالى: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣]، ثم أخبر: أن الذين تدعون من دون الله، فصار خبره عن ذلك مثلاً، ولم تكن هذه الكلمات ونحوها مثلاً ضرباً لشيء آخر كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْجِمَارِ بِحِمْلِ﴾ [الجمعة: ٥]، و﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾^(١١١) [الأعراف: ١٧٦]. واستخدمه في قوله: "تقول في الخبر: كان كذا أو كذا، تعطفُ آخرَ كلامك على أوله، إلا أن أو تعني الشك في أحدهما..."^(١١٢).

-الفاعل ونائب الفاعل-

ذكر صاحب العين مصطلح الفاعل للدلالة على فاعل الفعل مرة واحدة في قوله: "... فمن قال: لم يدع، تفسيره، لم يترك، فإنه يضم في المسحت والمجلف ما يرفعه مثل الذي ونحوه، ومن روى: لم يدع في معنى: لم يترك فسيبيله الرقع بلا علة، كقولك: لم يضرب إلا زيد، وكان قياسه: لم يودع ولكن العرب اجتمعت على حذف الواو فقالت: يدع، ولكنك إذا جهلت الفاعل تقول: لم يودع ولم يؤثر وكذلك جميع ما كان مثل يودع وجميع هذا الحد على ذلك. إلا أن العرب استخفت في هذين الفعلين خاصة لما دخل عليهما من العلة التي وصفنا فقالوا: لم يدع ولم يثر في لغة، وسمعنا من فصحاء العرب من يقول: لم أدع وراء، ولم أذر وراء"^(١١٣). ومثل للمبني للمجهول بقوله: "ولكنك إذا جهلت الفاعل تقول: لم يودع ولم يؤثر" وهذه إشارة منه للفاعل ونائب الفاعل والمبني للمجهول، وإن لم يصرح بالمصطلح.

-الاستثناء-

استخدم صاحب العين مصطلح الاستثناء في حديثه عن (إلا)، يقول: "إلا: استثناء، كقولك: ما رأيت أحداً إلا زيدا. ويكون إيجاباً لشيء يؤكد، فيكون معناها معنى (لكن) كقولك: زيد إلى غير واد إلا أنني أخذ بالفضل، وقال:

وجارة البيت أراها محرماً
 كما براها الله، إلا أنما
 مكارم السعي لمن تكرماً

فأوجب المعنى بأن أراد أن يقول: وجارة البيت أراها محرماً و إنما مكارم السعي لمن تكرم... وتقول: شتمني زيد إلا أني عفوت عنه، تريد: ولكن عفوت عنه، وهذه التي في الاستئناف والتوكيد ممالء^(١١٤). وقد استقرت (إلا) في التراث النحوي أداة للاستثناء إضافة إلى دلالات أخرى.

-الإضافة-

ذكر صاحب العين مصطلح الإضافة في مواضع متعددة، منها عند حديثه عن (إذ) يقول: "إذ لما مضى وقد يكون لما يستقبل، و (إذا) لما يستقبل. وإذا جواب توكيد الشرط يُنَوَّن في الاتصال ويُسَكَّن في الوقف. وإذا أُضِيفت إلى (إذ) كلمة جُعِلت غاية للوقت، تُتَوَّن وتُجَر، كقولك: يومئذ وساعتئذ، وكتابتها ملتزقة، فإن وصلتها بكلام يكون صلة ولا يكون خبراً، كقول الشاعر: عشيّة إذ يقول بنو لؤي كانت في الأصل حيث جَعَلت تقول" صلة أخرجتها من حدّ الإضافة إلى قولك: "إذ تقول" جملة، فإذا أفرقتها نَوَّنتها لالتزاقها بالكلمة التي معها كأنها كلمة واحدة، كقولك: عشيّة بنو فلان يقولون كذا، لأن تقول" ها هنا خبر، وفي البيت صلة، وإنما جاءت في سبع كلمات موقّعات في حينئذ ويومئذ وليلتئذ وساعتئذ وغداًئذ وعامئذ وعشيّةئذ، ولم يقل: الآنئذ، وإنما خُصّت هؤلاء الكلمات بها لأنّ أقرب ما يكون في الحال قولك: الآن، فلما لم يتحوّل هذا الاسم عن وقت الحال، ولم يتباعد عن ساعتك التي أنت فيها، لم يتمكن، ولذلك نُصبت في كل وجه، فلما أرادوا أن يتباعدوا بها ويحوّلوها من حال إلى حال لم تنقذ أن يقولوا: الآنئذ عكسوا ليُعرف بها وقت ما تباعد من الحال، فقالوا: "حينئذ" ولكن قالوا: الآن لساعتك في التقريب، وفي التباعد: حينئذ ونزل بمنزلتها الساعة وساعتئذ وصار في حدّهما اليوم ويومئذ والحروف التي وصفتنا على ميزان ذلك مخصوصة بتوقيت لم يُخصّ به سائر أسماء الأزمنة إلا ببيان وقت نحو: لقيته سنة خراج ورأيتُه شهر يقم الحاج، كقوله: في شهر يصطاد الغلام الدُّخلاً، فمن نصب الكلام فإنه يجعل الإضافة

إلى هذا الكلام أجمع كما قالوا: زمن الحجاج أمير^(١١٥). وقد استقرت (إذ، وإذا) بإضافتها إلى جملة، وأن التتوين الذي يلحق (إذ) عوض عن جملة. وفي حديثه عن كلمة (الفم)، يقول: "الفم: أصل بنائه: الفوه، حذفت الهاء من آخرها، وحملت الواو على الرفع والنصب والجر فاجترت الواو صروف النحو إلى نفسها فصارت كأنها مدّة تتبع الفاء. وإنما يستحسنون هذا اللفظ في الإضافة.. أما إذا لم تُضَفْ فإن الميم تُجَعَلُ عماداً للفاء، لأن الياء والواو والألف يسقطن مع التتوين، فكرهوا أن يكون اسم بحرف مُغْلَقٍ فعمدت الفاء بالميم، إلا أن الشاعر قد يُضْطَرُّ إلى أفراد ذلك بلا ميم، فيجوز في القافية، كقوله: خالط من سلمى خياشيم وفا يعني وفماً^(١١٦). ومنها قوله: "إذا لم يُضيفوه^(١١٧) قوؤه بالتتوين، وإذا أضافوه لم يحسن التتوين فقوؤه بالمد في حالات الإضافة"^(١١٨).

- الملك والإضافة.

لي: حرفان متباينان قرنا، اللام: لام الملك، والياء ياء الإضافة^(١١٩).

- التعجب.

تحدث صاحب العين عن التعجب في قوله: "وما أطمع فلاناً، وإنه لطمع - الرجل - بضم الميم على معنى التّعجب، وكذلك التّعجب في كل شيء كقولك لخرجت المرأة، أي: كثيرة الخروج، ولقضوا القاضي، مضموم أجمع إلا ما قالوا في نعم ببس، رواية تزوي عنهم. غير لازم لقياس التّعجب، لأنهم لا يقولون: نعم ولا بؤس والباقية كذلك"^(١٢٠). مستخدماً صيغة (ما أفعل) في قوله "ما أطمع فلاناً"، وملحقاً به ما يصاغ على وزن "فعل" لإنشاء المدح أو الذم، وهو ما نص عليه النحويون من أن كل فعل ثلاثي صالح للتعجب منه فإنه يجوز استعماله على فعل بضم العين - إما بالأصالة كـ (ظرفَ وشرفَ) أو بالتحويل كـ (ضربَ وفهمَ) ثم يُجرى مجرى نعم وبس في إفادة المدح والذم^(١٢١).

- الصفة، النعت:

استخدم صاحب العين مصطلح الصفة في مواضع متفرقة، منها في قوله :

"... فإذا لم يكن قبل وبعد غاية فهما نصب لأنهما صفة. وما خلف يعقبه فهو من بعده. تقول: أقيمتُ خلفَ زيدٍ أي: بعد زيد. قال الخليل: هو بغير تنوين على الغاية مثل قولك: ما رأيته قطّ، فإذا أضفته نصبت إذا وقع موقع الصفة، كقولك: هو بعدَ زيدٍ قادم، فإذا أقيمت عليه من صار في حدّ الأسماء، كقولك: من بعدَ زيدٍ، فصار من صفة، وخفض بعد لأن من حرف من حروف الخفض، وإنما صار بعد منقاداً لمن، وتحول من وصفيته إلى الاسمية، لأنه لا تجمع صفتان، وغلبه من لأن من صار في صدر الكلام فغلب...".^(١٢٢) واستخدم مصطلح الصفة والموصوف في قوله: "يقولون: مرحباً وأهلاً وسهلاً، ووجهه: أرحب الله منزلك، وأهلك له، وسهله لك. ومن رفع فقال: بُعد له وسحق يقول: هو موصوف وصفته قوله له مثل: غلام له، وفرس له"^(١٢٣). ويؤجّه قوله (موصوف وصفته) على الخبر والمبتدأ. كما استخدم مصطلح الصفة والصفات للدلالة على الجر، يقول: "إلى: حرف من حروف الصفات"^(١٢٤). وفي: حرف من حروف الصفات"^(١٢٥). وورد مصطلح النعت في مواضع عديدة، منها قوله: "رجل صومٌ ورجلان صومٌ وامرأة صومٌ، ولا يثنى ولا يُجمع لأنه نعت بالمصدر"^(١٢٦). وهذا المصطلح يطلقه صاحب العين بانتظام - كما يذكر المهيري^(١٢٧) - على ما غلب عليه في التراث مصطلح الصفة وهذا ما يدل عليه قوله: "والصاحب يكون في حال نعتاً، ولكنه عمّ في الكلام فجرى مجرى الاسم، كقولك: صاحب مال"^(١٢٨). وكذلك قوله: "ورجل خالفة: كثير الخلف، وقوم خالفون كقولك: رجل راوية ولحانة ونسابة إذا كان النعت واحداً فإذا جمعت قلت: خالفون وراوون. وأدخلت الهاء لأنه نعت واجبٌ لازمٌ له... وإذا كان النعت فاعلاً ولا فعل له [كان] بغير الهاء"^(١٢٩). ويرى المهيري "أن الالتزام بمصطلح النعت راجع إلى أن الوظيفة النحوية التي تمحّض لها تؤدّي بالصفات فليس غريباً أن تختلط الظاهرة الصرفية بالظاهرة النحوية. ولعل ركون الخليل إلى مصطلح النعت لتسمية الصفة سبب تخصيصه مصطلح الصفة للظروف فهو يحد بعضها بأنه "حرف صفة"^(١٣٠)، ويعتبر أن النصب هو حكم بعد وقبل وفي بعض أحوالهما "لأنهما صفة"^(١٣١) كما يعتبر أن فوق ينصب لأنه صفة فإن "صيرته اسماً رفعتَه فقلت: فوق رأسه، صار

رفعا ههنا، لأنه هو الرأس نفسه" (١٣٢).

- التوكيد والتكرار.

استخدم صاحب العين مصطلحي التوكيد والتكرار في قوله: "وقوم كُتَعون وأكُتَع: حرف يوصل به "أجمع" تقوية له (ليست له عربية) ومؤنثه كتعاء. تقول: جمعاء كتعاء، وجمَع كُتَع وأجمعون أكتعون، كل هذا توكيد" (١٣٣). وقوله: "فإذا قلت: أما إنه لرجلٌ كريم، وأما والله لئن سهرت كل ليلة لأدعئك نادماً، وأما لو علمت بمكانك لأزعجك... فإنها توكيد لليمين يوجب به الأمر. فإذا قلت: إما ذا وإما ذا بكسر الألف فهذا اختيار في شيء من أمرين. وهي في الأصل: إن و ما صلة لها، غير أن العرب تلزمها في أكثر الكلام، تقول: إما أن تزورني وإما أن أزورك، بتكرارها مرتين. وتقول العرب: إما أن تفعل كذا وكذا، أو تفعل كذا، فيجعلون التكرار بأو وهم يريدون بها: إما. وتقول: افعل كذا إما مُصيباً وإما مُخطئاً" (١٣٤).

- العطف:

ذكر صاحب العين مصطلح العطف في مواضع متفرقة، منها في حديثه عن (أو) يقول: "(أو) حرف عطف يُعطفُ به ما بعده على ما قبله" (١٣٥). ومنها قوله: "(أما) بالفتح فتوجب كل كلامٍ عطفته كإيجاب أول الكلام، وجوابها بالفاء كقولك: أما زيدٌ فأخوك، وأما عمرو فابن عمك" (١٣٦). كما ذكر صاحب العين مصطلح النسق في حديثه عن الحرف ثم، يقول: "وتم: حرف من حروف النسق لا تُشرك ما قبلها بما بعدها إلا أنها تُبينُ الآخرَ من الأول، ومنهم من يلزمها هاء التانيث، فيقول: تُمّتَ كان كذا وكذا" (١٣٧).

- النداء.

ذكر صاحب العين مصطلح النداء في حديثه عن (أي) يقول: "تقول في النداء: أي فلان، وقد يُمدُّ: أي فلان" (١٣٨)، وتقول في النداء: آفلان" (١٣٩).

- الندبة.

ذكر مصطلح الندبة في حديثه عن (وا) يقول: "وا: حرف ندبة، كقول النادية:

وافلانه»^(١٤٠). وكذلك في حديثه عن (اللام)، يقول: تقول في الاعتزاء: يا لفلان، يا لتميم بنصب اللام، إنها لام مفردة، ولكنها تُنصب في الذي يُنصب، وتُكسر في المندوب إليه، وإنما هي لام أُضيفت إلى الاسم يدعى بها المندوب إليه، كقولك: يا لزيد ويا للعجب، وذلك إذا كان ينزل به أمر فادح، ويا للحسرة ويا للندامة فتُنصب اللام في ذلك ونحوه»^(١٤١).

التحذير والإغراء.

استخدم صاحب العين مصطلح التحذير في قوله: "... كقول المُحذَر: إياك وزيدا، فمنهم من يجعل التحذير وغير التحذير مكسورا، ومنهم من ينصبه في التحذير ويكسر ما سوى ذلك، للفرقة»^(١٤٢).

كما ذكر مصطلح الإغراء في قوله: تقول في الإغراء: دونك هذا الشيء وهذا الأمر أي عليك. ودونك زيد في المنزلة والقرب والبعد، وزيد دونك أي هو أحسن منك في الحسب. وكذلك الثون يكون صفة ويكون نعتا على هذا المعنى، ولا يُشتق منه فعل، وتقول: هذا دون ذلك في التقريب والتحقير، فالتقريب منصوب لأنه صفة، والتحقير مرفوع»^(١٤٣).

الاستفهام والجحد.

استخدم صاحب العين مصطلح الاستفهام في حديثه عن (أم) و (أما)، يقول: "أم: حرف استفهام على أوله، فيصير في المعنى كأنه استفهام بعد استفهام، وتفسيرها في باب أو.. ويكون أم بمعنى بل، ويكون بل الاستفهام بعينها، كقولك: أم عندكم غدا حاضر؟، أي: أعندكم، وهي لغة حسنة... وأما: استفهام جحد، تقول: أما تستحي من الله؟ أما عندك زيد؟»^(١٤٤). واستخدم مصطلح الجحد في حديثه عن (ما) في قوله: "ما: حرف يكون جحدا كقوله تعالى: ﴿ما فعلوه إلا قليل منهم﴾ [النساء: ٦٦]»^(١٤٥).

التنبيه والتحضيض.

ذكر صاحب العين مصطلح التنبيه، في قوله: "ألا، معناها في حال: هلا، وفي حال: تنبيه، كقولك: ألا أكرم زيداً، وتكون ألا صلة بابتداء الكلام، كأنها تنبيه للمخاطب، وقد تردف ألا بلا أخرى فيقال: ألا لا، كما قال:

فقام يذوذُ النَّاسَ عنها بسَيْقِه وقال: ألا لا من سبيلٍ إلا هندٍ

ويقال للرجل: هل كان كذا وكذا فيقول: ألا لا. جعل ألا تنبيهاً ولا تفيماً^(١٤٦).
وقوله "ألا، معناها في حال: هلاً" يدل على أن (ألا) تؤدي معنى التحضيض، ولكنه لم يستخدم هذا المصطلح.

النفي والجحد والزيادة والصلة.

ذكر مصطلحات النفي والجحد والزيادة والصلة في حديثه عن (لا) يقول:
"هي حرف يُنْفَى به وَيُجْحَد، وقد نَجِيءُ زائدة، وإنما تزيدها العربُ مع اليمين، كقولك: لا أقسمُ بالله لأكرمَنَّكَ، إنما تُريد: أقسمُ بالله. وقد تَطَرَّحُها العربُ وهي مَنْوِيَّة، كقولك، واللهِ أضربُكَ، تريد: والله لا أضربُكَ، قالت الخنساء:

فَأَلَيْتُ أَسَى عَلَى هَالِكٍ وَأَسْأَلُ بَاكِيَةً مَا لَهَا

أي: أليتُ لا آسى، ولا أسأل. فإذا قلت: لا والله أكرمك كان أبين، فإذا قلت: لا والله لا أكرمك كان المعنى واحداً. وفي القرآن: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢]، وفي قراءة أخرى: "أَنْ تَسْجُدَ" والمعنى واحد. وتقول: أَتَيْتُكَ لَتَغْضَبَ عَلَيَّ أَي: لئلا تغضب علي. وقال ذو الرمة:

كَأَنَّهُنَّ خَوَافِي أَجْدَلِ قَرِيمٍ وَلِي لَيْسَبِقَه بِالْأَمْعَزِ الْخَرَبُ

أي: لئلا يسبقه، وقال:

مَا كَانَ يَرْضَى رَسُولُ اللَّهِ فِعْلَهُمْ وَالطَّيِّبَانِ أَبُو بَكْرٍ وَلَا عُمَرُ

صار (لا) صلة زائدة، لأن معناه: والطَّيِّبَانِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ. ولو قلت: كان يرضى رسول الله فعلهم والطَّيِّبَانِ أَبُو بَكْرٍ وَلَا عُمَرُ لكان محالاً، لأن الكلام في الأول واجب حسن، لأنه جحد، وفي الثاني متناقض^(١٤٧). واستخدم مصطلح (صلة) في حديثه عن (ما)، يقول: "ويكون صلة كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥] أي بنقضهم ميثاقهم^(١٤٨). وفي تعليقه على قوله تعالى: ﴿أَيَا مَا تَدْعُوا﴾ [الإسراء: ١١٠] يقول: "(ما) صلة (أَيَا) يجعل مكان اسم منصوب،

كقولك: ضربتك...^(١٤٩).

- الأدوات (١٥٠).

نجد في العين حديثاً مطولاً عن بعض الأدوات، عرض فيه الاستعمالات المختلفة لكل أداة، ومن هذه الأدوات:

- إن وإن.

تحدث صاحب العين عن (إن وإن) في قوله: "وإن وإن ثقيلة، مكسورة الألف ومفتوحة الألف، وهي تنصب الأسماء، فإذا كانت مبتدأ ليس قبلها شيء يعتمد عليه، أو كانت مستأنفة بعد كلام قد تم ومضى، فأثبت بها لأمر يعتمد عليها كسرت الألف، وفيما سوى ذلك تنصب ألفها. وإذا وقعت على الأسماء والصفات فهي مشددة، وإذا وقعت على اسم أو فعل لا يتمكن في صفة، أو تصريح فخففها، تقول: بلغني أن قد كان كذا يخفف من أجل (كان) لأنها فعل، ولولا (قد) لم يحسن على حال مع الفعل حتى تعتمد على (ما)، أو على الهاء في قولك: إنما كان زيد غائباً. كذلك بلغني أنه كان كذا فشدها إذا اعتمدت على اسم. ومن ذلك: قولك: إن رب رجل: فإذا اعتمدت قلت: إنه رب رجل ونحو ذلك، وهي في الصفات مشددة، فيكون اعتمادها على ما بعد الصفات، إن لك، وإن فيها، وإن بك وأشباهها"^(١٥١).

- لن:

تحدث صاحب العين عن (لن) في قوله: "وأما لن فهي: لا أن، وصلت لكثرتها في الكلام، ألا ترى أنها تشبه في المعنى لا، ولكنها أوكد. تقول: لن يكرمك زيد، معناه: كأنه يطمع في إكرامه، فنفيت عنه، ووكدت النفي بلن فكانت أوكد من لا"^(١٥٢).

- لو:

ذكر صاحب العين مصطلح التمني في حديثه عن (لو)، يقول: "لو: حرف أمنية... وقد تكون لو موقوفة بين نفي وأمنية..."^(١٥٣).

- لولا:

وتحدث صاحب العين عن دلالة (لولا) في قوله: "وأما لولا فجمعوا فيها بين

لو ولا في معنيين، أحدهما: (لو لم يكن)، كقولك: لولا زيد لأكرمتك، معناه: لو لم يكن. والآخر: (هلاً)، كقولك: لولا فعلت ذلك، في معنى: هلاً فعلت، وقد تدخل (ما) في هذا الحد في موضع (لا)، كقوله تعالى: ﴿لو ما تأتينا بالملائكة﴾ [الحجر: ٧]، أي: هلاً تأتينا، وكل شيء في القرآن فيه (لولا) يفسر على (هلاً) غير التي في سورة الصافات: ﴿فلولا أنه كان من المستبحين﴾ [الصافات: ١٤٣] أي: فلو لم يكن..^(١٥٤)

المفرد والعدد والجمع والجميع والجماعة.

استخدم صاحب العين مصطلح العدد في سياق الجمع للدلالة على جمع القلة يقول: "وأجمال للعدد، ودخلت ألف القطع فرقا بين العدد وبين الجماع، ودخلت الألف بعد الميم مدة ومثت من فتح الميم، ليختلف لفظ الجمع من لفظ الواحد، لأنه لو قال: أجمل لاشتبه بالنعن نحو أحمر وأصفر"^(١٥٥). واستخدمه للدلالة على جمع المؤنث السالم، يقول: "وناقه عشراء، أي: أقربت، وسميت به لتمام عشرة أشهر لحملها. عشرت تعشيرا، فهي بعد ذلك عشراء حتى تضع، والعدد: عشراوات، والجميع: العشار، ويقال: بل سميت عشراء لأنها حديثة العهد بالتعشير، والتعشير: حمل الولد في البطن، يقال: عشراء بينة التعشير"^(١٥٦). وأشياء: اسم للجميع، كأن أصله: فعلاء شيئا، فاستقلت الهمزتان، فقلبت الهمزة الأولى، إلى أول الكلمة، فجعلت: لفعاء"^(١٥٧). وقال: "وتصغير الشاة: شويهة، والعدد: شياة، والجميع: الشاء، فإذا تركوا هاء التانيث متوا الألف، فإذا قالوا بالهاء قصرُوا الألف، فقالوا: شاة، ويُجمع على الشوي أيضا، كأنهم بنوا الفعيل من مدة الشاء"^(١٥٨). ونكر في موضع آخر أن "الشاء يمد إذا حذفنا الهاء ويصير اسما للجماعة والواحدة شاة... والعدد شياة"^(١٥٩). ومن هنا يظهر أن مصطلح (العدد) يدل على الجمع عامة، وأن مصطلح الجماعة قد تمخض في استعمال صاحب العين لمفهوم واحد من مفاهيم الجمع فكانه يدل على مفهوم الجنس إضافة إلى دلالة على الجمع عامة^(١٦٠). واستخدم مصطلحات (الجمع والواحد والذكر والأنثى)، نحو قوله: "وتقول: أرني يا فلان ثوبك لأراه، فإذا استعطيته شيئا ليعطيكه لم يقولوا إلا أرنا بسكون الراء، يجعلونه سواء في الجمع والواحد والذكر والأنثى كأنها عندهم كلمة وضعت

للمُعاطاةِ خاصَّةً، ومنهم من يُجربِها على التّصريف فيقول: أرني وللمرأة أرني، ويفرق بين حالاتهما، ومن أراد معنى الرُّؤية قرأها بكسر الرّاء، فأما "أرنا الله جَهْرَةً" و"أرنا مناسِكنا" فلا يُقرأ إلا بكسر الرّاء" (١٦١).

واستخدم مصطلح الجميع في قوله: "والجميع: المئون، والمئين على تقدير المسلمون والمسلمين.. ومنهم من يجعل النّون خَلْفاً في الجماعة من الحرف المحذوف. ويكون الإعراب في المئين على النّون. تقول: مئين كما ترى، وقبضت مئيناً" (١٦٢). وقوله: والنبا الجميع: الأنباء. ورخي ورحيان (١٦٣)، وثلاث أرح، وأرحاء كثيرة، والأرحية كأنها جماعة الجماعة" (١٦٤). ومصطلح (جماعة الجماعة) يقابل جمع الجمع الذي استقر فيما بعد، واستخدمه صاحب العين في قوله: "وجمع الأهل: أهلون وأهلات، والأهالي: جمع الجمع" (١٦٥). ولفظ الجماعة في قوله: "هذه غنم لفظ للجماعة، فإذا أفردت قلت شاة" (١٦٦) يقابل اسم الجنس الجمعي. واستخدم (أقل العدد) للدلالة على جمع القلة، يقول: "الضأن، الواحدة ضأنة، والأضون على أفعال، أقل العدد" (١٦٧).

وذكر للدلالة على جمع (ماء) مصطلح الجميع، يقول: "وفي الجميع: مياه" (١٦٨). وكذلك ذكر أن الجميع من (التي) اللاتي وأردفها بمصطلح (الجمع)، يقول: "والجميع اللاتي، واللواتي جمع اللاتي، ويُلْقون التاء فيقولون: اللاتي، ممدودة [وقد تخرج الياء فيقال: اللاء] بكسرة تدلّ على الياء" (١٦٩)، ويقول: "وتصغير التي اللتيّ ويجمع اللتيّات" (١٧٠)، ويقول: "كَبِدُ الأرض، وجمعه: أكباد: ما فيها من معادن المال، قال: وترمي الأرض أفلاذ كَبِدِها" (١٧١). ويقول: "والأنثى ذات، ويجمع ذوات مال" (١٧٢). ويذكر المهيري أننا إذا استثنينا مصطلح الجمع المشترك بينه وبين خلفه فإن سائر ما استعمل من التسميات في هذا المجال مخالف لما شاع في التراث (١٧٣).

٢- التثنية والجمع.

ذكر مصطلح التثنية في مواضع متعددة، منها قوله: "ذو اسم ناقص.... والتثنية ذوان، والجمع ذوون" (١٧٤) وقوله: "فلما ثنوا حذفوا النون فأدخلوا على

الاثنين بحذف النون، كما أدخلوا على الواحد بإسكان الذال، وكذلك فعلوا في الجميع. وإن قال قائل: ألا قالوا: اللذو والجميع بالواو، فقل: إن الصواب ذلك في القياس، ولكن العرب أجمعت على الذي بالياء في الجرِّ والرَّفْع والنَّصْب. وقد بَلَّغْنَا عن الحَسَن في مَوَاعِظِهِ أَنَّهُ قَالَ: اللذون فَعَلُوا وفَعَلُوا، وَقَالَ:

وإنَّ الَّذِي خَانَتْ بِفَلَجٍ دِمَاؤُهُمْ هُم الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدٍ

وقال آخر:

أبْنِي أُمِّيَّةَ إِنَّ عَمِّيَ اللَّذَا قَتَلَا الْمُلُوكَ وَفَكَكَا الْأَغْلَالَا

وكذلك يقولون: اللَّتَا وَالَّتِي، قال الشاعر:

هُمَا اللَّتَا أَقْصَدْنِي سَهْمَاهُمَا يَا جَارَتِيَّ الْيَوْمَ لَا أَنْسَاهُمَا

وهما ذواتا مال، وقد يجوز في الشعر ذاتا مال، وإتمامها في التثنية أحسن^(١٧٥). وجمع أرض على أرضون، يقول: "أرض وجمعها أرضون، والأرض أيضا جماعة"^(١٧٦).

- المصدر.

نكر صاحب العين حد المصدر بقوله: "والمصدر: أصل الكلمة الذي تصدر عنه الأفعال"^(١٧٧). نكر مصطلح المصدر في مواضع عديدة، منها قوله: "والعدُّ مصدر كالعدد"^(١٧٨)، ومنها قوله: "والشيءُ: مصدر شويت"^(١٧٩)، وقوله: "والمشيئة: مصدر شاء يشاء"^(١٨٠)، ومنها ذكره الشاهد الآتي عند حديثه عن الكثرة، يقول: "قال الشاعر وإن من الإخوان إخوان كثيرةٌ وإخوان كيف الحال والبال كله

الكثرة في هذا البيت خلف من المكاشرة، لأن الفعلة تجيء في مصدر فاعل"^(١٨١). و"المشيئة: مصدر شاء يشاء"^(١٨٢).

اسم الفاعل واسم المفعول.

استخدم مصطلحي الفاعل والمفعول للدلالة على ما استقر في التراث النحوي فيما بعد باسم الفاعل واسم المفعول، يقول: "رَفَعْتُ الثوبَ رَفْعًا، وَرَفَعْتُهُ تَرْفِيعًا فِي

مواضع، والفاعل راقع^(١٨٣). ويقول: "وَأُمِيَّتَ مَا سِوَاهُ"^(١٨٤) من وجوه الفعل. لا يقال يفعل ولا فاعل ولا مفعول". ويقول: "النَّيِّكُ: معروف، والفاعلُ، نَائِكٌ، والمفعول به: مَنِيكٌ ومَنِيوُكٌ، والأنثى: مَنِيوُكَةٌ"^(١٨٥).

- التفضيل (أفعل وفعلى).

وهنا لجأ إلى التمثيل لأفعل التفضيل دون ذكر المصطلح، يقول: "السُّوَى، بوزن فُعَلَى: اسم للفَعْلَةِ السَّيِّئَةِ، بمنزلة الحُسْنَى للحَسَنَةِ، محمولة على جهة النَعْتِ في حدِّ أفعل وفُعَلَى كالأسوأ والسُّوَى، رجلٌ أسوأ، وامرأة سُوَى، أي: قبيحة"^(١٨٦).

- الممدود.

استخدم هذا المصطلح في مواضع كثيرة، منها قوله: "المشاء، ممدود: الدواء الذي يُسهل.... والمشاء، ممدود: فعل الماشية..."^(١٨٧). ومنها قوله: "الدَّوَاءُ، ممدود: الشِّفَاءُ، ودَاوَيْتُهُ مَدَاوَاةٌ"^(١٨٨). ويقول أيضا: "...والثَّلَاثَاءُ: لَمَّا جُعِلَ اسْمًا جُعِلَتِ الهَاءُ الَّتِي كَانَتْ فِي الْعِدَدِ مَدَّةً، فَرَقًا بَيْنَ الْحَالِئِينَ، وَكَذَلِكَ الْأَرْبَعَاءُ مِنَ الْأَرْبَعَةِ، فَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ جُعِلَتْ بِالْمَدِّ تَوْكِيدًا لِلْإِسْمِ، كَمَا قَالُوا: حَسَنَةٌ وَحَسَنَاءُ، وَقَصَبَةٌ وَقَصَبَاءُ، حَيْثُ أَلْزَمُوا النِّعْتَ الْإِزَامَ الْإِسْمِ، وَكَذَلِكَ الشَّجَرَاءُ وَالطَّرْقَاءُ، وَكَانَ فِي الْأَصْلِ نِعْتًا فَجُعِلَ اسْمًا، لِأَنَّ حَسَنَةً نِعْتُ، وَحَسَنَاءُ اسْمٌ مِنَ الْحُسْنِ مَوْضُوعٌ، وَالوَاحِدُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بوزن فَعْلَةٌ"^(١٨٩).

- الهمز والمهموز:

استخدم صاحب العين مصطلح الهمز في مواضع متفرقة، منها قوله: "وَالرَّئِيَّةُ: تُهْمَزُ وَلَا تُهْمَزُ، وَهِيَ مَوْضِعُ الرِّيحِ وَالنَّفْسِ. وَجَمَعَهَا: الرِّئَاتُ وَالرَّئِينَ، وَتَصْغِيرُهَا: رُؤْيَةٌ وَمِنْ هَمْزِ الْوَاوِ قَالَ: رُؤْيَةٌ"^(١٩٠). وقوله: "النَّبَأُ، مهموز: الْخَبْرُ، وَإِنْ لَفُلَانٍ نَبَأٌ، أَي: خَبْرًا. وَالْفِعْلُ: نَبَأَتْهُ وَأَنْبَأَتْهُ وَاسْتَبَأَتْهُ، وَالْجَمِيعُ: الْأَنْبَاءُ"^(١٩١). وقوله: "الصَّدَأُ، مهموز، بمنزلة الوسخ على السيف، وتقول: صَدِيءٌ يَصْدَأُ صَدَأً"^(١٩٢). وأما الداء، مهموز، فاسم جامع لكل مَرَضٍ ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ حَتَّى يُقَالَ: دَاءُ الشُّحِّ أَشَدُّ الْأَنْوَاءِ، وَالْحُمُقُ دَاءٌ. وَالْمَهْمُوزُ عِنْدَهُ مَا فِيهِ هَمْزَةٌ نَحْوُ الْفِعْلِ

الصحيح (صداء، نبا) أو المعتل (دوا)، وهذا يخالف ما استقر في التراث النحوي من أن المهموز الذي في أصوله الهمز، وخلا من حروف العلة.

التصغير.

استخدم مصطلح التصغير للدلالة على المصطلح الذي استقر فيما بعد، نحو تصغيره "يد" يُدِيَّة، يقول: "وَيُدِيَّة في التصغير" (١٩٣)، وتصغيره (زاي)، يقول: "وتصغيرها: زِيَّة"، وتصغيره (ماء) يقول: "وبيان ذلك أنه في التصغير: مُوِيَّة" (١٩٤). ويورد السيوطي خبراً عن كيفية وضع الخليل بن أحمد كتاب التصغير، يقول: "أخبرنا محمد بن يحيى حدثنا محمد بن يزيد حدثنا المازني عن الأصمعي قال: قال الخليل بن أحمد: وضعت كتاب التصغير على دينار ودرهم وفس، فقلت: دُنْيِير، وثرِيهم، وفَلْيَس، فُعَيْعِل، وفُعَيْعِل، وفُعَيْل" (١٩٥)، ويتوسع في باب التصغير، يقول: "وإنما صار تصغير تهٍ ودهٍ وما فيهما من اللغات تياً، لأنّ التاء والذال من ذهٍ، وتِهٍ، كل واحدة هي نفسُ الكلمة وما لحقها من بعدها فإنه عمادٌ للتاء، لكي ينطلق به اللسان، فلما صُعُرَتْ لم تجذِ ياءَ التصغيرِ حَرَقَيْنِ من أصل البناء تجيء بعدها كما جاءت في سَعَيْدٍ وَعُمَيْرٍ" (١٩٦). وبعدها يبين أن التصغير على أربعة أنحاء: تقريب وتقليل وتصغير وتحقير" (١٩٧)، والتصغير في بيان الأنحاء يقصد به إفادة التصغير معنى التحبب ويدل على ذلك كلمة التحقير بعده. و"الحرف الذي قبل ياء التصغير بجانبها لا يكون إلا مفتوحاً، ووقعت التاء إلى جنبها فانتصبت، وصار ما بعدها قوة لها، ولم ينضم قبلها شيء لأنه ليس قبلها حرقان، وجميع التصغير صدره مضموم، والحرف الثاني منصوب، ثم بعدهما ياء التصغير، ومنعهم أن يرفعوا الياء التي في التصغير، لأن هذه الأحرف دخلت عماداً للسان في آخر الكلمة فصارت الياء التي قبلها في غير موضعها، لأنها بُنِيَتْ للسان عماداً، فإذا وقعت في الحشو لم تكن عماداً، وهي في بناء الألف التي كانت في تاء، قال الشاعر في تصغير التي: مع اللَّتِيَّ واللَّتِيَّ والتي. والتصغير على أربعة أنحاء فتدبّر وتفهّم" (١٩٨). وذكر في موضع آخر أن تصغير (ذا) ذياً "كأنه بوزن "فعا" كما ينبغي في القياس، أو يكون بوزن فُعَيْلِي لو تمَّ لأن ياء التصغير لا تعتمد إلا على ضمة،

ولم يَرْتُوا الحرف الذي في موضع العَيْنِ فَالْتَزَقَتْ ياء التصغير بالحرف الأول من الكلمة فاعتمدت على الفتح، وإذا صَغَرُوا ذَهْ وَذِي رَكُوهَا إلى بنائهما^(١٩٩).

النسبة.

استخدم مصطلح النسبة في مواضع كثيرة، منها قوله: "طُهَيَّة: حي من العرب، النسبة إليه: طُهويّ"، وكان في القياس: طُهويّ^(٢٠٠)، ومنها قوله: "وإذا جاءت هذه المدة فإن كانت في الأصل ياءً أو واوًا فإنها تجعل في النسبة واوًا كراهية النقاء الياءات، ألا ترى أنك تقول: رَحَى وَرَحِيَان، فقد علمت أن ألف "رَحَى" ياء وتقول: رَحويّ لتلك العلة"^(٢٠١).

الوقف.

ذكر صاحب العين هذا المصطلح في حديثه عن الوقف على تاء (ذات)، يقول: "والأنثى ذات، ويجمع نوات مال، فإذا وقفت على ذات، فمنهم من يردُّ التاء إلى هاء التانيث، وهو القياس، ومنهم من يدع التاء على حالها ظاهرة في الوقف لكثرة ما جرت على اللسان"^(٢٠٢) ويقول في موضع آخر: "تقول: أتاني هَنٌّ، والأنثى: هَنَةٌ بفتح النون إذا وقفت عندها لظهور الهاء"^(٢٠٣)، وكذلك يقول: "وإنما وقفوا عند هذه التاء بالهاء من بين سائر الحروف، لأن الهاء ألبين الحروف الصّحاح، فجعلوا البتل صحيحاً مثلها، ولم يكن في الحروف حرفٌ أهشُّ من الهاء، لأن الهاء نفس"^(٢٠٤).

الإمالة.

ذكر صاحب العين مصطلح الإمالة الذي استقر فيما بعد في قوله: "قد تُكسِرَ الحَجَّةُ والحَجُّ فيقال: حَجٌّ وحِجَّةٌ. ويقال للرجل الكثير الحَجُّ حَجَّاجٌ من غير إمالة. وكلُّ نَعْتٍ فَعَالٌ فإنه مفتوح الألف، فإذا صيّرته اسماً يتحوّل عن حال النعْتِ فتدخله الإمالة كما دخلت في الحَجَّاجِ والعَجَّاجِ"^(٢٠٥).

التصريف والاشتقاق.

والتصريف عنده اشتقاق بعض من بعض^(٢٠٦)، فهو يراوح بين مصطلحي التصريف والاشتقاق ويمثل على ذلك بتصريف كلمة (يسر)، يقول: "ويقال: إن

قوائم هذا الفرس لِيَسْرَاتٍ خِفَافٍ، إِذَا كُنَّ طَوَّعَهُ. الواحدة: يَسْرَةٌ. ورجلٌ أُعْسرُ يَسْرًا، وامرأةٌ عَسْرَاءٌ يَسْرَةٌ، أَي: تَعْمَلُ بِبَيْدِهَا مَعًا. وَالْيَسْرَةُ: فُرْجَةٌ مَا بَيْنَ الْأَسْرَةِ مِنْ أَسْرَارِ الرَّاحَةِ، يُتَمَنُّ بِهَا، وَهِيَ مِنْ عِلَامَاتِ السَّخَاءِ. وَالْيَسَارُ: الْيَدُ الْيُسْرَى. وَالْيَاسِرُ كَالْيَامِنِ، وَالْمَيْسِرَةُ كَالْمَيْمَنَةِ، مَجْرَاهَا فِي التَّصْرِيفِ وَاحِدٌ. وَالْأَيْسَارُ: الَّذِينَ يَجْتَمِعُونَ عَلَى الْجَزُورِ فِي الْمَيْسِرِ، الْوَاحِدُ: يَسْرًا. وَالْيَسْرُ: الْيَسَارُ، أَي: الْغَنَى وَالسَّعَةُ^(٢٠٧). وَيُسْتَعْمَلُ التَّصْرِيفُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْأَصْلِ نَحْوَ "الزَّاي وَالزَّاءُ لَغْتَانِ، فَالزَّاي أَلْفَهَا يَرْجِعُ فِي التَّصْرِيفِ إِلَى الْبَاءِ، فَتَكُونُ مِنْ تَأْلِيفِ زَايٍ وَيَاعِينِ"^(٢٠٨). وَتَجِدُ أَنَّهُ يَعْتَمِدُ التَّصْغِيرَ لِمَعْرِفَةِ الْأَصْلِ، يَقُولُ: وَتَصْغِيرُهَا: زَيْيَّةٌ^(٢٠٩). وَيَصْرَفُ (كَبِدٌ) يَقُولُ: "وَرَجُلٌ مَكْبُودٌ: أَصَابَ كَبِدَهُ دَاءٌ، أَوْ رَمِيَتْهُ. وَالْكَبَادُ: دَاءٌ يَأْخُذُ فِي الْكَبِدِ. وَإِذَا أَضْرَبَ الْمَاءُ بِالْكَبِدِ، قِيلَ: كَبِدَهُ. وَكَبِدُ كُلِّ شَيْءٍ: وَسْطُهُ، يُقَالُ: انْتَزَعَ سَهْمًا فَوَضَعَهُ فِي كَبِدِ الْقَرْطَاسِ. وَكَبِدُ السَّمَاءِ: مَا اسْتَقْبَلَكَ مِنْ وَسْطِهَا، يُقَالُ: حَلَقَ الطَّائِرُ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ، وَكَبِيدَاءُ السَّمَاءِ، إِذَا صَغُرُوا جَعَلُوهَا كَالنَّعْتِ"^(٢١٠). وَ"العَرَبُ تُشْتَقُّ فِي كَثِيرٍ مِنْ كَلِمَاتِهَا أَبْنِيَةَ الْمُضَاعَفِ مِنْ بِنَاءِ الثَّلَاثِيِّ الْمُتَقَلِّ بِحَرَفِي التَّضْعِيفِ وَمِنْ الثَّلَاثِيِّ الْمَعْتَلِّ، أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: صَلَّ اللَّجَامُ يَصِلُ صَلِيلًا، لَوْ حَكَيْتَ ذَلِكَ قُلْتَ: صَلَّ تَمُدُّ اللَّامُ وَتَنْقَلِبُهَا، وَقَدْ خَفَّفَتْهَا فِي الصَّلِصَلَةِ وَهِيَ جَمِيعًا صَوْتُ اللَّجَامِ، فَالْتَقَلُّ مَدٌّ وَالتَّضَاعُفُ تَرْجِيعٌ يَخْفُ فَلَا يَتِمَكَّنُ لِأَنَّهُ عَلَى حَرْفَيْنِ فَلَا يَتَقَدَّرُ لِلتَّصْرِيفِ حَتَّى يُضَاعَفَ أَوْ يُنْقَلَبَ فَيَجِيءُ كَثِيرٌ مِنْهُ مُتَّفَقًا عَلَى مَا وَصَفْتَ لَكَ، وَيَجِيءُ مِنْهُ كَثِيرٌ مُخْتَلَفًا نَحْوَ قَوْلِكَ: صَرََّ الْجُنْدُبُ صَرِيرًا وَصَرََّصَرَ الْأَخْطَبُ صَرَصَرَةً، فَكَأَنَّهُمْ تَوَهَّمُوا فِي صَوْتِ الْجُنْدُبِ مَدًّا وَتَوَهَّمُوا فِي صَوْتِ الْأَخْطَبِ تَرْجِيعًا. وَنَحْوَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مُخْتَلَفٌ"^(٢١١). وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ تَتَصْرَفُ عَلَى سِتَّةِ أَوْجِهٍ: "دَوَّأٌ، دَاوٌّ، وَدَاوٌّ، وَدَاوٌّ، أَوْدٌ، أَدُوٌّ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي أَمَاكِنِهَا، وَهَذِهِ هِيَ فِكْرَةُ التَّقَالِيبِ السِتَّةِ"^(٢١٢). وَدَلَّلَ عَلَى جَمُودِ (عَسَى) بِأَنَّهُ أَمِيَّتٌ^(٢١٣) مَا سَوَى الْفِعْلِ الْمَاضِي، نَحْوَ الْفِعْلِ الْمَضَارِعِ الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ بِـ (يَفْعَلُ) وَاسْمِ الْفَاعِلِ وَاسْمِ الْمَفْعُولِ الْمَعْبُرِ عَنْهُمَا بِـ (الْفَاعِلُ وَالْمَفْعُولُ)، يَقُولُ: "وَعَسَى فِي النَّاسِ بِمَنْزِلَةِ: لَعَلَّ وَهِيَ كَلِمَةٌ مَطْمَعَةٌ، وَيُسْتَعْمَلُ مِنْهُ الْفِعْلُ الْمَاضِي، فَيُقَالُ: عَسَيْتَ وَعَسَيْتُنَا وَعَسَوْا وَعَسَيَا وَعَسَيْتُنَّ - لَغَةٌ - وَأَمِيَّتٌ مَا سِوَاهُ مِنْ وَجُوهِ

الفعل. لا يقال يفعل ولا فاعل ولا مفعول^(٢١٤).

التعريب.

ذكر مصطلح التعريب في قوله: "وَدَيَابُودُ: ثَوْبٌ لَهُ سَدَانٌ، وَيُقَالُ: هُوَ كِسَاءٌ، لَيْسَتْ بَعْرَبِيَّةً، وَهُوَ بِالْفَارَسِيَّةِ دُوبُودٌ فَعُرَّبَتْ"^(٢١٥). ويقول: "والسماسرة: جمع السمسار، معربة"^(٢١٦).

القلب.

ذكر صاحب العين مصطلح القلب في قوله "قال الخليل: أشياء: اسمٌ للجميع، كأن أصله: فعلاء شيناء، فاستنقلت الهمزتان، فقلبت الهمزة الأولى، إلى أول الكلمة، فجعلت: لفعاء كما قلبوا أنوق فقالوا: أئبق. وكما قلبوا: قووس فقالوا: قسي. وأما الدارُ فاسمٌ جامعٌ للعَرْصَةِ والْبِنَاءِ المَحَلَّةِ، وثلاثُ أدورٍ، وجاءت الهمزة لأنَّ الألف التي كانت في الدار صارت في أفعل في موضع تحريك فألقي عليها الصرّف بعينها ولم تُردِّ إلى أصلها فانهمزت. ومداورة الشؤون: مُعَالَجَتُهَا"^(٢١٧). واستخدم لفظة تحولت للدلالة على الإعلال بالقلب، يقول: "لأن الياء إذا تحركت تحولت ألفاً نحو: القال من القول، والقاب من القوب، وهما في الوزن سواء لخفتهما، فأجروا الواو الظاهرة مجرى الألف لسكونها"^(٢١٨).

المثقل والمشدد والتثقيل والتخفيف والإدغام.

استخدم مصطلحات التخفيف والتشديد والنقل في حديثه عن كلمة (الجادة) يقول: "والجادة: الطريق، بالتخفيف وينقل أيضاً، وأما التخفيف فاشتقاقه من الطريق الجواد، أخرجته على فعلة، والطريق مضاف إليه. والتشديد مخرجه من الطريق الجدد أي الواضح"^(٢١٩). واستخدم مصطلح المثقل للدلالة على الحرف المشدد في حديثه عن كلمة (داية) نحو: "وكذلك كل ياء في التصغير إذا جاء بعدها حرفٌ مُثَقَّلٌ في كل شيء"^(٢٢٠). وكذلك في قوله: "وقد يُقرأ: «أرنا اللذين أضلّنا» [فصلت: ٢٩] على هذا المعنى بالتخفيف والتثقيل"^(٢٢١). وذكره أيضاً في قوله: "... وإذا جمعت اللذيات قلت: هم اللذيون وهن اللذيات فعملوا ذلك، لما جاءت الكلمة بالياء

المشددة التي بعد الذال أُجريت مجزى الأسماء التي تجمع بالواو والنون، فكانت الذال في الذي مفردة في "الذ" فلما قويت بالياء ثم جمعت بالواو والنون غلبت الياء الواو فثبتت وأزالت الواو عن موضعها^(٢٢٢). وذكره أيضا في قوله: "أوة بمنزلة فعلة، تقول: أوة لك كقولك: أوتى لك، وأوة، ممدودة مُشددة"^(٢٢٣). وذكر مصطلح النقل أيضا في قوله: "وإن وأن ثقيلة"^(٢٢٤). "وللعرب في (إن) لغتان: التخفيف والتثقيب، فأما من خفف فإنه يرفع بها، إلا أن ناسا من أهل الحجاز يخففون، وينصبون على توهم الثقيلة، وقرئ: ﴿وإن كلاً لما ليوفينهم﴾ [هود: ١١١] خففوا ونصبوا كلاً. وأما "إن هذان لساحران" فمن خفف فهو بلغة الذين يخففون ويرفعون، فذلك وجة، ومنهم من جعل اللام في موضع (إلا)، ويجعل إن جحداً، على تفسير: ما هذان إلا ساحران، وقال الشاعر:

أمتى أبان ذليلاً بعد عزته وإن أبان لمن أعلاج سورا

ويقال: [تكون] (إن) في موضع (أجل فيكسرون وينقلون، فإذا وقفوا في هذا المعنى قالوا: إنه... تكون الهاء صلة في الوقوف، وتسقط الهاء إذا صرفوا... وبلغنا عن عبد الله بن الزبير أن أعرابياً أتاه فسأله فحرمه، فقال: لعن الله ناقة حملتني إليك، فقال ابن الزبير: إن وراكبها، أي: أجل.

فأما تميم فإنهم يجعلون ألف كل أن وأن، منصوبة، من المنقل والمخفف: عينا، كقولك: أريد عن أكلّمك، وبلغني عنك مقيم"^(٢٢٥). وقوله: "وصدأء، مشدّد، عين عذبة معروفة في العرب. "والعرب تشق في كثير من كلامها أبنية المضاعف من بناء الثلاثي المنقل بحرقي التضعيف ومن الثلاثي المعتل، ألا ترى أنهم يقولون: صل اللجام يصل صليلا، لو حكيت ذلك قلت: صل تمد اللام وتثقلها، وقد خففتها في الصلصلة وهما جميعا صوت اللجام، فالنقل مد والتضاعف ترجيع يخف فلا يتمكن لأنه على حرفين فلا يتقدّر للتصريف حتى يضاعف أو يُنقل فيجيء كثير منه مُتَقًا على ما وصفت لك"^(٢٢٦). ونجد الخليل يميز عن طريق الاصطلاح بين ظاهرة التثقيب المتمثلة في إدغام الحرفين، كما هو الشأن في (صل) وظاهرة التضعيف في مثل (صلصل) ويصرح بما يوحي بهذا التمييز عندما يقول "فالنقل مد"

والتضاعف ترجيعٌ يَخْفُ" ومن الملاحظ - كما يذكر المهيري^(٢٢٧) - أن مفهوم النقل مرتبط بانتظام في كتاب العين بحضور الحركة، فتحريك الحرف تنقيل وإسكانه تخفيف كما يفهم من قوله: "العَصْرُ: الذَّهْر، فإذا احتاجوا إلى تنقيله قالوا: عَصُر، وإذا سكنوا الصاد لم يقوموا إلا بالفتح"^(٢٢٨).

الإدغام.

نكر صاحب العين مصطلح الإدغام في مواضع كثيرة من العين، ويعني به إدخال حرف بحرف، وبين أن علامته التشديد، "والتَّشْدِيدُ علامةُ الإدغام"^(٢٢٩)، يقول: "اعلم أن الراء في اقشعرّ واسبكرّ هما راءان أذغمت واحدة في الأخرى. والتشديد علامة الإدغام"^(٢٣٠). ومن هذه المواضع أيضا قوله: "فلان يَسْتَنَكُّ بالحرير، وَيَسْتَنَكُّ بالإدغام أيضا"^(٢٣١)، وقوله: "... ربما ردوا الشيء إلى أصله، وربما بنوه على ما سبق، وربما كتبوا الحرف مهموزاً، وربما تركوه على ترك الهمزة، وربما كتبوه على الإدغام وكلّ ذلك جائزٌ واسع"^(٢٣٢). وقوله: "فإن صيرت الثنائي مثل قذ وهل ولوّ اسما أدخلت عليه التشديد فقلت: هذه لوّ مكتوبة، وهذه قدّ حسنة الكتبة، زنت واوا على واو، ودالاً على دال، ثم أذغمت وشدّدت"^(٢٣٣). وورد في قوله: "ستة وست في الأصل سدسنة وسدس، فأدغموا الدال في السين...."^(٢٣٤). ونخلص هنا إلى أن صاحب العين قد اتّبع في تقديم المصطلح النحوي الطرق الآتية:

- التعريف بالمصطلح، نحو تعريفه: الإشمام والمصدر والصرف والحشو ...
- الإجمال، نحو قوله: " والنَّصْبُ في الحالِ والقطعِ والوقفِ وإضمار الصفات"^(٢٣٥). فاكتفى هنا بإجمال مصطلحات الحال، والقطع، والوقف، وإضمار الصفات عن توضيحها وشرحها .
- الشرح والتفصيل كما فعل في حديثه عن الأدوات والتصغير والقلب والتصريف والاشتقاق...
- تعدد المصطلح وتداخله، نحو التداخل في مصطلحات النصب والصفة والصلة والفعل الناقص...

• لم يورد صاحب العين عددا من المصطلحات، منها (الإسناد، أسماء الإشارة، الأسماء الموصولة، الاشتغال، البذل، التمييز التنازع، الشبيه بالمضاف، ظرف الزمان وظرف المكان، الضمير، المبنى للمعلوم والمبنى للمجهول، المدح والذم، المركب الإسنادي والمركب الإضافي والمركب المزجي، المضارع، المفاعيل" به، المطلق، لأجله، فيه، معه"، نائب الفاعل، النواسخ).

• جاءت المصطلحات النحوية في كتاب العين في مجملها دقيقة واضحة مؤدية نورها في ضبط هذا العلم.

وعرضه المصطلح على هذا النحو يدل على معرفته بقوانين اللغة ووعيه بتراكيبها وطرق التعبير عنها ودرأيته بالشئ الذي يبحث له عن مصطلح، إضافة إلى نضج المادة اللغوية في ذهنه.

وبعد، فهذا رصد للمصطلح النحوي كما ورد في كتاب العين، يؤسس لمرحلة من المراحل التي مرّ بها المصطلح النحوي الذي نضج إلى درجة كبيرة واستقر في كتب التراث النحوي ممثلا بالكتاب لسبويه الذي أضاف بعض المصطلحات، وأهمل بعضها، وأضفى صفة الاستقرار على بعضها الآخر.

الحواشي.

- (١) كشف اصطلاحات الفنون، التهانوي، ج١، ص٢١٢.
- (٢) المصطلح النحوي، عوض القوزي، جامعة الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٩٨١م، ص٢٣.
- (٣) المصطلح النحوي، عوض القوزي، ص٨٤.
- (٤) شكك بعض الدارسين في نسبة كتاب العين إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي، وبرزت ثلاثة اتجاهات: منهم من ينسب كتاب العين إلى الخليل جملة وتفصيلا دون أي حرج. ومنهم من يشكك في نسبة الكتاب إليه، ويرفضها تماما. ومنهم من ينسب إحصاء مواد الكتاب وأسنده وخطته إلى الخليل، وحشو المادة إلى الليث. وكل اتجاه عنده أدلته، ووصل محققا الكتاب للدكتور المخزومي والدكتور السامرائي إلى أن كتاب العين بتأسيسه وبحشوه، وبيانه وتفسيره واستشاده، إنما هو كتاب الخليل، لأنه بعمله وعقله أشبه... وهو مصدر إلهام اللغويين الذين احتنوه ونهجوا نهجه... ينظر: كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي ط١، دار ومكتبة الهلال، ج١، ص١٨-٢٧. والمعجم العربي: نشأته وتطوره، ط١، دار مصر للطباعة، القاهرة، ج١، ص٢٨٨-٢٩٥. والمعجم العربية، عبد السميع محمد أحمد، دار الفكر العربي، ١٩٧٩، الكتاب الأول، ص٤٥.
- (٥) تاريخ الألب العربي، كارل بروكلمان، نقله إلى العربية، عبد الحليم النجار، ط٣، دار المعارف، مصر، ١٩٧٤م، ج٢، ص١٣١.
- (٦) نظرات في التراث اللغوي العربي، عبد القادر المهيري، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م، ص١٦٨، ص١٦٩.
- (٧) العين، ج٧، ص٣٣٠.
- (٨) نظرات في التراث اللغوي العربي، عبد القادر المهيري، ص١٧٤.
- (٩) العين، ج٤، ص٣٢٠.
- (١٠) الكتاب، سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ج٣، ص٢٥٨، وينظر: ج٢، ص٢٦٣، ج٣، ص٣٩٠، ج٣، ص٥٤٤، ج٤، ص١٥٧، ١٥٨، ١٦٤، ١٩٣، ٣١٣، ٣١٤، ٣٤٣، ٤٢٧.
- (١١) المصطلح النحوي، عوض القوزي، ص٨٩. وتجدر الإشارة أن سيبويه عقد بابا سماه: (هذا باب مجاري أواخر الكلم من العربية) ناقش فيه أحوال الإعراب وأحوال البناء.
- (١٢) العين، ج٤، ص٢٤٥.
- (١٣) نفسه، ج٢، ص٣٧٣.

(١٤) نفسه، ج ١، ص ٥١.

(١٥) نفسه، ج ٨، ص ٣٩٠، وهذا النص في اللسان وتحتها [مَنْ] الأعلام والكنى والنكرات في لغة أهل الحجاز إذا قال رأيت زيدا قلت مَنْ زيدا، وإذا قال رأيت رجلا قلت مَنْ لأنه نكرة، وإن قال جاعني رجل قلت مَنْ، وإن قال مررت برجل قلت مَنْ، وإن قال جاعني رجلان قلت مَنْ، وإن قال مررت برجلين قلت مَنْين بتسكين النون فيهما؛ وكذلك في الجمع إن قال جاعني رجال قلت مَنْون ومَنْين في النصب والجر، ولا يحكى بها غير ذلك، لو قال رأيت الرجل قلت مَنْ للرجل بالرفع، لأنه ليس يعلم وإن قال مررت بالأمير قلت مَنْ الأمير... اللسان، ابن منظور، مادة (مَنْ).

(١٦) الكتاب، سيبويه، ج ٢، ص ٤٠٨.

(١٧) العين، ج ٥، ص ١٤.

(١٨) الكتاب، سيبويه، ج ١، ص ١٢.

(١٩) العين، ج ٨، ص ٢٠٨.

(٢٠) نفسه، ج ٦، ص ٢٣.

(٢١) نفسه، ج ٦، ص ٢٩.

(٢٢) نفسه، ج ٨، ص ٤٠٤. واستخدم مصطلح (نصبوا) في حديثه عن (كيف) يقول: كيف: حرف أداة، ونصبوا الفاء العين، ج ٥، ص ٤١٤.

(٢٣) "والأنثى: هنة بفتح النون إذا وقفت عندها لظهور الهاء، فإذا مررت سكنت النون، لأنها بنيت في الأصل على التسكين، وصيرت الهاء تاء، كقولك: رأيت هنة مقبلة لم تُصرف، لأنها اسم معرفة للمؤنث. وهاء التأنيث إذا سکن ما قبلها صارت تاء مع ألف الفتح الذي قبلها، كقولك: القناة والحياة. وهاء التأنيث أصل بناتها من التاء".

(٢٤) العين، ج ٨، ص ٣٦٠.

(٢٥) نفسه، ج ٨، ص ٤٠٤.

(٢٦) نفسه، ج ٨، ص ٤٣٩.

(٢٧) نفسه، ج ٣، ص ٢٠٤.

(٢٨) نفسه، ج ٣، ص ٢٠٤.

(٢٩) مفاتيح العلوم، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي، ط ١، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، ١٩٢٢م، ص ٣٠.

(٣٠) المصطلح النحوي، عوض القوزي، ص ٨٩.

(٣١) العين، ج ٢، ص ٢٩٦.

(٣٢) نفسه، ج ١، ص ٢٩٢.

- (٣٣) نفسه، ج ٢، ص ٢٠٠.
- (٣٤) نفسه، ج ٣، ص ٢١٨.
- (٣٥) نفسه، ج ٢، ص ٩.
- (٣٦) نفسه، ج ٣، ص ١٩٤.
- (٣٧) نفسه، ج ٣، ص ٢٠٤.
- (٣٨) الكتاب، سيبويه، ج ١، ص ١٥.
- (٣٩) المصطلح النحوي، عوض القوزي، ص ٩٥.
- (٤٠) العين، ج ١، ص ٥١.
- (٤١) نفسه، ج ١، ص ٥٠.
- (٤٢) المصطلح النحوي، عوض القوزي، ص ٩٧.
- (٤٣) العين، ج ٧، ص ١٠٩.
- (٤٤) نفسه، ج ٦، ص ٢٩٥-٢٩٦.
- (٤٥) نفسه، ج ٨، ص ٣١٠.
- (٤٦) نفسه، ج ٦، ص ١٣٤. ورجلٌ بجال: ذو بجالَة وبجلة، وهو الكهل الذي تُرى به هيبةٌ وتبجيلٌ وسنٌ.
- (٤٧) نفسه، ج ٨، ص ٣٩٨-٣٩٩.
- (٤٨) نفسه، ج ٨، ص ٣٩٩.
- (٤٩) نفسه، ج ٨، ص ٣٩٩.
- (٥٠) نفسه، ج ٨، ص ٣٩٩.
- (٥١) المصطلح النحوي، القوزي، ص ٩٣.
- (٥٢) الكتاب، سيبويه، ج ٣، ص ٥٣٤.
- (٥٣) العين، ج ٦، ص ٢٢٤.
- (٥٤) نفسه، ج ٨، ص ١٣.
- (٥٥) نفسه، ج ٨، ص ٩٢.
- (٥٦) نفسه، ج ١، ص ٤٨.
- (٥٧) نفسه، ج ١، ص ٥٢.
- (٥٨) نفسه، ج ١، ص ٤٩.
- (٥٩) نفسه، ج ١، ص ٥٣.
- (٦٠) نفسه، ج ١، ص ١١٨.
- (٦١) نفسه، ج ٨، ص ٣١٩.

- (٦٢) نفسه، ج ٨، ص ٣٥٩.
- (٦٣) نفسه، ج ١، ص ٥٠.
- (٦٤) نفسه، ج ١، ص ٧٢.
- (٦٥) نفسه، ج ١، ص ٨٨.
- (٦٦) نفسه، ج ٨، ص ٩٣.
- (٦٧) نفسه، ج ٨، ص ٣٨٢.
- (٦٨) نفسه، ج ٣، ص ٣٥٥.
- (٦٩) نفسه، ج ٨، ص ١٦٤-١٦٥.
- (٧٠) نفسه، ج ٥، ص ٩٧.
- (٧١) نفسه، ج ٧، ص ١٨٤.
- (٧٢) نفسه، ج ٧، ص ٤٦٥.
- (٧٣) نفسه، ج ١، ص ٢٢٥.
- (٧٤) نفسه، ج ٧، ص ٣٢٧.
- (٧٥) نفسه، ج ٢، ص ٢١٥.
- (٧٦) نفسه، ج ٤، ص ٢٧.
- (٧٧) نفسه، ج ١، ص ٢٨٨.
- (٧٨) نفسه، ج ٨، ص ١٥.
- (٧٩) نظرات في التراث اللغوي العربي، المهيري، ص ١٧٥.
- (٨٠) العين، ج ٢، ص ٢٠١.
- (٨١) نفسه، ج ٨، ص ٢٩٧.
- (٨٢) نفسه، ج ٢، ص ٢٠١.
- (٨٣) نفسه، ج ١، ص ١٦٦.
- (٨٤) نفسه، ج ٢، ص ٢٥.
- (٨٥) نفسه، ج ٣، ص ٣٥٥.
- (٨٦) نفسه، ج ١، ص ٨٩.
- (٨٧) نفسه، ج ١، ص ١٠.
- (٨٨) نفسه، ج ١، ص ٤٧.
- (٨٩) نفسه، ج ٨، ص ٢٠٩.
- (٩٠) نفسه، ج ٤، ص ٩١.
- (٩١) نفسه، ج ٨، ص ٤٢٣.

- (٩٢) نفسه، ج ١، ص ٥٠.
- (٩٣) نفسه، ج ٤، ص ٣٢٠.
- (٩٤) نفسه، ج ٧، ص ١١٩.
- (٩٥) نفسه، ج ٧، ص ١٢٣.
- (٩٦) نفسه، ج ٨، ص ٢١٥، وينظر: العين، ج ١، ص ٢٤٦-٢٤٧.
- (٩٧) في المتن (كما) ... بعينها كما نون.
- (٩٨) نفسه، ج ٧، ص ١٢٣.
- (٩٩) نفسه، ج ٣، ص ٢٠٤.
- (١٠٠) نفسه، ج ٧، ص ٣٢٨.
- (١٠١) نفسه، ج ٨، ص ١٩٨.
- (١٠٢) نفسه، ج ٨، ص ٣٩٠.
- (١٠٣) نفسه، ج ٣، ص ١٢٣.
- (١٠٤) نفسه، ج ٧، ص ١٤.
- (١٠٥) نفسه، ج ٧، ص ٦٧.
- (١٠٦) نفسه، ج ٤، ص ٢٠٩.
- (١٠٧) نفسه، ج ٨، ص ٤٤٠.
- (١٠٨) نفسه، ج ٥، ص ١٤.
- (١٠٩) نفسه، ج ٢، ص ٢٧٣.
- (١١٠) نفسه، ج ٤، ص ١٠٥، وينظر مصطلح الصلّة: ص ٢٢ من هذا البحث.
- (١١١) نفسه، ج ٨، ص ٢٢٨.
- (١١٢) نفسه، ج ٨، ص ٤٣٩.
- (١١٣) نفسه، ج ٢، ص ٢٢٤.
- (١١٤) نفسه، ج ٨، ص ٣٥٣-٣٥٢.
- (١١٥) نفسه، ج ٨، ص ٢٠٦-٢٠٥.
- (١١٦) نفسه، ج ٨، ص ٤٠٦.
- (١١٧) الحديث عن (يد) و(لم).
- (١١٨) العين، ج ٤، ص ٣٢٠.
- (١١٩) نفسه، ج ٨، ص ٣١٥.
- (١٢٠) نفسه، ج ٢، ص ٢٧.

(١٢١) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ابن هشام، ط ٥، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٩م، ج ٢، ص ٢٨٠.

(١٢٢) العين، ج ٢، ص ٥٢.

(١٢٣) نفسه، ج ٢، ص ٥٢.

(١٢٤) نفسه، ج ٨، ص ٣٥٦.

(١٢٥) نفسه، ج ٨، ص ٤٠٩.

(١٢٦) نفسه، ج ٧، ص ١٧٢.

(١٢٧) نظرات في التراث اللغوي العربي، عبد القادر المهيري، ص ١٧٥.

(١٢٨) العين، ج ٣، ص ١٢٤.

(١٢٩) نفسه، ج ٤، ص ٢٦٩.

(١٣٠) نفسه، ج ٢، ص ٤٣.

(١٣١) نفسه، ج ٢، ص ٥٢.

(١٣٢) نفسه، ج ٥، ص ٢٢٤. ونظرات في التراث اللغوي العربي، عبد القادر المهيري، ص ١٧٦.

(١٣٣) نفسه، ج ١، ص ١٩٥.

(١٣٤) نفسه، ج ٨، ص ٤٣٥.

(١٣٥) نفسه، ج ٨، ص ٤٣٨.

(١٣٦) نفسه، ج ٨، ص ٤٣٦.

(١٣٧) نفسه، ج ٨، ص ٢١٨.

(١٣٨) نفسه، ج ٨، ص ٤٤٠.

(١٣٩) نفسه، ج ٨، ص ٤٤٠.

(١٤٠) نفسه، ج ٨، ص ٤٤٣.

(١٤١) نفسه، ج ٨، ص ٣٥٩-٣٦٠.

(١٤٢) نفسه، ج ٨، ص ٤٤١.

(١٤٣) نفسه، ج ٨، ص ٧٢.

(١٤٤) نفسه، ج ٨، ص ٤٣٥.

(١٤٥) نفسه، ج ٨، ص ٤٣٤.

(١٤٦) نفسه، ج ٨، ص ٣٥٢.

(١٤٧) نفسه، ج ٨، ص ٣٤٩.

(١٤٨) نفسه، ج ٨، ص ٤٣٤.

- (١٤٩) نفسه، ج ٨، ص ٤٤٠.
- (١٥٠) استخدم صاحب العين مصطلح الأداة عند حديثه عن (كيف) ، بقول: "كيف: حرف أداة العين، ج ٥، ص ٤١٤.
- (١٥١) العين، ج ٨، ص ٣٩٧.
- (١٥٢) نفسه، ج ٨، ص ٣٥٠.
- (١٥٣) نفسه، ج ٨، ص ٣٤٨.
- (١٥٤) نفسه، ج ٨، ص ٣٥١. وتحدث صاحب العين عن استعمالات (أو)، (ما)، (أما)، (أم) ، (أي) ، (إ) للنداء، (وي) للتعجب، (وا) للندبة... ينظر: العين، ج ٨، ص ٤٢١-٤٤٤.
- (١٥٥) نفسه، ج ٨، ص ١٩٧.
- (١٥٦) نفسه، ج ١، ص ٢٤٧.
- (١٥٧) نفسه، ج ٦، ص ٢٩٦-٢٩٧.
- (١٥٨) نفسه، ج ٤، ص ٦٩.
- (١٥٩) نفسه، ج ٦، ص ٢٩٨.
- (١٦٠) نظرات في التراث اللغوي العربي، المهيري، ص ١٧٧.
- (١٦١) العين، ج ٨، ص ٣١٠.
- (١٦٢) نفسه، ج ٨، ص ٤٢٣.
- (١٦٣) نفسه، ج ٧، ص ١٤٢.
- (١٦٤) نفسه، ج ٣، ص ٢٨٩.
- (١٦٥) نفسه، ج ٤، ص ٨٩.
- (١٦٦) نفسه، ج ٤، ص ٤٢٦.
- (١٦٧) نفسه، ج ٧، ص ٦١.
- (١٦٨) نفسه، ج ٨، ص ٤٢٣.
- (١٦٩) نفسه، ج ٨، ص ١٤٢.
- (١٧٠) نفسه، ج ٨، ص ١٤٢.
- (١٧١) نفسه، ج ٥، ص ٣٣٣.
- (١٧٢) نفسه، ج ٨، ص ٢٠٧.
- (١٧٣) نظرات في التراث اللغوي العربي، المهيري، ص ١٧٦.
- (١٧٤) العين، ج ٨، ص ٢٠٧.
- (١٧٥) نفسه، ج ٨، ص ٢٠٩-٢١٠.
- (١٧٦) نفسه، ج ٧، ص ٥٥.

(١٧٧) نفسه، ج ٧، ص ٩٦ وزاد صاحب التهذيب على المتن لوتفسيره أن المصادر كانت أول الكلام، كقولك: الذهاب والسمع والحفظ، وإنما صدرت الأفعال عنها، فيقال: ذهب ذهاباً، وسمع سمعاً وسماعاً وحفظ حفظاً]. العين، ج ٧، ص ٩٦.

(١٧٨) نفسه، ج ١، ص ٧٨.

(١٧٩) نفسه، ج ٦، ص ٢٩٧.

(١٨٠) نفسه، ج ٦، ص ٢٩٧.

(١٨١) نفسه، ج ٥، ص ٢٩١.

(١٨٢) نفسه، ج ٦، ص ٢٩٧.

(١٨٣) نفسه، ج ١، ص ١٥٧.

(١٨٤) الضمير يعود على الفعل الماضي لـ (عسى) .

(١٨٥) العين، ج ٥، ص ٤١٢.

(١٨٦) نفسه، ج ٧، ص ٣٢٨.

(١٨٧) نفسه، ج ٦، ص ٢٩٤.

(١٨٨) نفسه، ج ٨، ص ٩٣.

(١٨٩) نفسه، ج ٨، ص ٢١٤.

(١٩٠) نفسه، ج ٨، ص ٣٠١.

(١٩١) نفسه، ج ٨، ص ٣٨٢.

(١٩٢) نفسه، ج ٧، ص ١٤٢.

(١٩٣) نفسه، ج ١، ص ٥٠.

(١٩٤) نفسه، ج ٨، ص ٤٢٣.

(١٩٥) تحفة الأديب في نحاة مغني اللبيب، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق:

د. حسن المخ، ود. سهى نعمة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط ١، ٢٠٠٥م، ج ١، ص ٢٧٠.

(١٩٦) العين، ج ٨، ص ١٤٢.

(١٩٧) نفسه، ج ٨، ص ١٤٢.

(١٩٨) نفسه، ج ٨، ص ١٤٣.

(١٩٩) نفسه، ج ٨، ص ٢٠٩.

(٢٠٠) نفسه، ج ٤، ص ٧٥.

(٢٠١) نفسه، ج ٧، ص ١٤٢.

(٢٠٢) نفسه، ج ٨، ص ٢٠٧.

(٢٠٣) نفسه، ج ٢، ص ٣٥٤. وينظر: ج ٤، ص ٩١.

- (٢٠٤) نفسه، ج ٣، ص ٣٥٥.
- (٢٠٥) نفسه، ج ٣، ص ٩.
- (٢٠٦) نفسه، ج ٧، ص ١٠٩.
- (٢٠٧) نفسه، ج ٧، ص ٢٩٦.
- (٢٠٨) نفسه، ج ٧، ص ٣٩٦.
- (٢٠٩) نفسه، ج ٧، ص ٣٩٦.
- (٢١٠) نفسه، ج ٥، ص ٣٣٣.
- (٢١١) نفسه، ج ١، ص ٥٦.
- (٢١٢) نفسه، ج ٨، ص ٩٤.
- (٢١٣) ذكر المهيري أن من هذه الاستعمالات الصالحة في مجال الاشتقاق " أميت " أو " أميت فعله " أو " أماتوا كل شيء من فعلها " للتعبير عما لا يقابله فعل من الكلمات، ينظر المهيري، ص ١٧٨، وينظر العين، ج ٧، ص ٣٣٠.
- (٢١٤) العين، ج ٢، ص ٢٠١.
- (٢١٥) نفسه، ج ٨، ص ١٣.
- (٢١٦) نفسه، ج ٧، ص ٢٥٥.
- (٢١٧) نفسه، ج ٦، ص ٢٩٦-٢٩٧.
- (٢١٨) نفسه، ج ٨، ص ١٩٧.
- (٢١٩) نفسه، ج ٦، ص ٩، وينظر: العين، ج ٤، ص ٧٧.
- (٢٢٠) نفسه، ج ٨، ص ١٣.
- (٢٢١) نفسه، ج ٨، ص ٣١٠.
- (٢٢٢) نفسه، ج ٨، ص ٢١٠.
- (٢٢٣) نفسه، ج ٨، ص ٤٣٩.
- (٢٢٤) نفسه، ج ٨، ص ٣٩٦.
- (٢٢٥) نفسه، ج ٨، ص ٣٩٧-٣٩٧.
- (٢٢٦) نفسه، ج ١، ص ٥٦.
- (٢٢٧) نظرات في التراث اللغوي العربي، المهيري، ص ١٧٥.
- (٢٢٨) العين، ج ١، ص ٢٩٢.
- (٢٢٩) نفسه، ج ١، ص ٤٩.
- (٢٣٠) نفسه، ج ١، ص ٤٩.
- (٢٣١) نفسه، ج ٥، ص ٢٧٥.

(٢٣٢) نفسه، ج ٨، ص ٢٩٨.

(٢٣٣) نفسه، ج ١، ص ٥٠. وينظر أيضا: ج ٨، ص ٢١١.

(٢٣٤) نفسه، ج ٧، ص ١٨٦.

(٢٣٥) نفسه، ج ٤، ص ٢٠٩.

ثبت بالمصادر والمراجع:

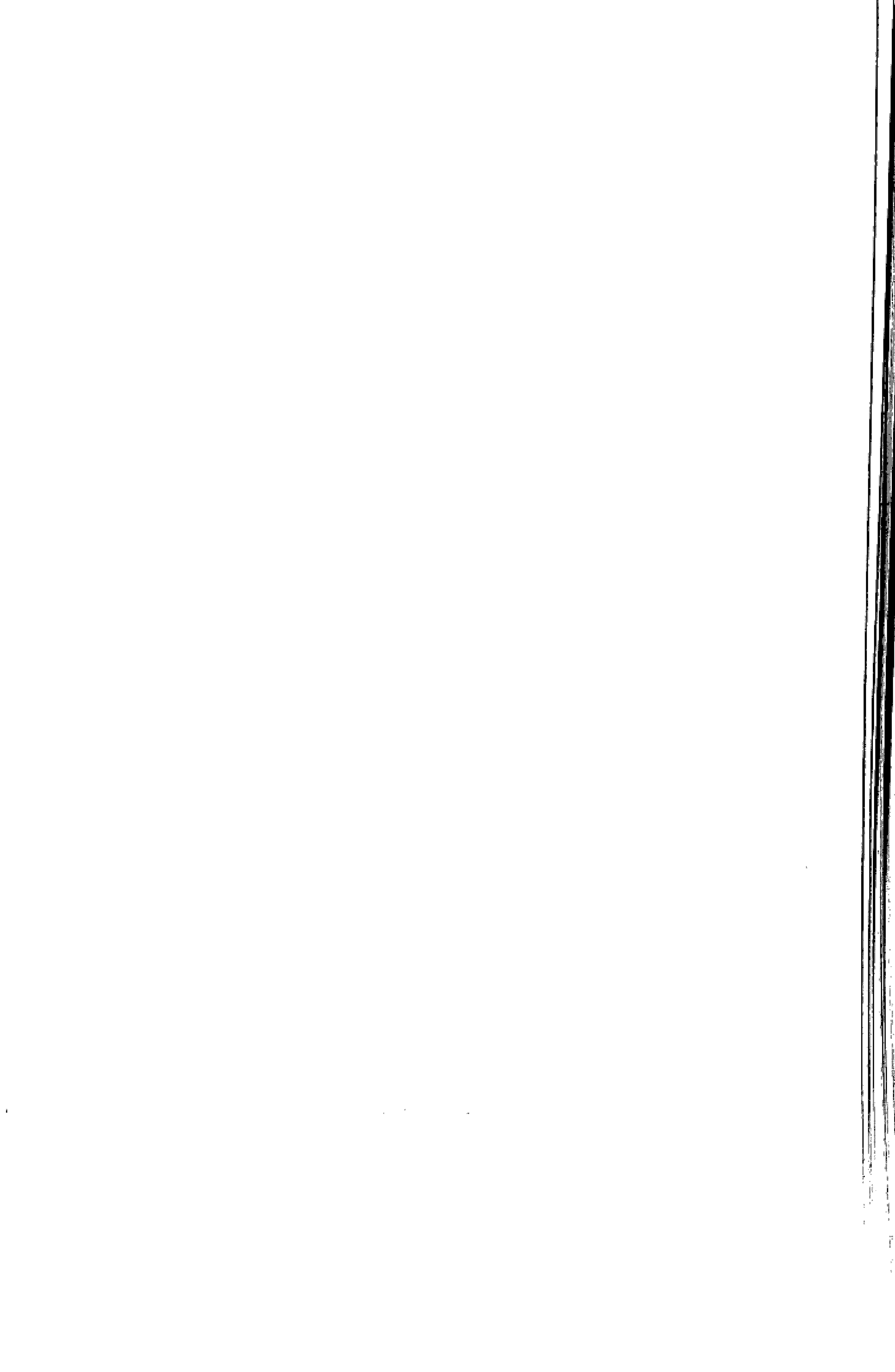
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ابن هشام، ط ٥، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٩م.
- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، نقله إلى العربية، عبد الحلیم النجار، ط ٣، دار المعارف، مصر، ١٩٧٤م.
- تحفة الأديب في نحاة مغني اللبيب، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: د. حسن الملح، ود. سهى نعمة، ط ١، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠٠٥م.
- كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي ط، دار ومكتبة الهلال.
- الكتاب، سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت.
- كشف اصطلاحات الفنون، التهانوي .
- المصطلح النحوي، عوض القوزي، جامعة الرياض، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٩٨١م.
- المعاجم العربية، عبد السميع محمد أحمد، دار الفكر العربي، ١٩٧٩، الكتاب الأول.
- المعجم العربي: نشأته وتطوره، حسين نصار، ط ١، دار مصر للطباعة، القاهرة.
- مفاتيح العلوم، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي، ط ١، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، ١٩٢٢م.
- نظرات في التراث اللغوي العربي، عبد القادر المهيري، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م.

**المصطلح العروضي ودلالته المعجمية
عند الخليل**

٢٠١٥

د. عبد الكريم مخلف الهيتي
جامعة البحرين - البحرين





المصطلح العروضي ودلالاته المعجمية عند الخليل

د. عبد الكريم مخلف الهيتي

بين يدي البحث.

أبشر بحثي بكلمة قالها المرحوم الدكتور صفاء خلوصي صاحب كتاب (فن التقطيع الشعري) وكتابه الثاني (فن القافية)، وهذه الكلمة قالها في بداية درسه الأول لمادة العروض، ويومها كنت تلميذاً في جامعة بغداد قسم اللغة العربية سنة ١٩٦٤ إذ قال: "لو كان الخليل في قرننا هذا لسبق العرب غيرهم من الأمم في الوصول إلى القمر". ويرجع هذا القول إلى قدرته الهائلة في استنباط علم العروض وذكائه المتوقع الذي يظهر من بين ثنايا هذا العلم الذي قال فيه الخليل عن نفسه: "لقد كان العروض في السماء فأنزلته إلى الأرض".

والعروض كعلم يختلف عن بقية العلوم كالنحو والبلاغة مثلاً فقد استحدثت هذه العلوم ثم أخذت تنمو جيلاً بعد جيل وعصراً بعد عصر حتى بلغت اكتمالها، أما العروض فقد أخرج الخليل علماً يكاد يكون متكاملًا ولعل ذلك هو السر في أن من أتى بعد الخليل من العروضيين لم يستطع أن يزيد على عروضه أي زيادة تذكر أو يمس الجوهر. فلا تزال الوحدات القياسية للأوزان هي التفعيلات التي اخترعها الخليل، ولا تزال المقاطع الصوتية التي تتألف منها التفعيلات من الأسباب والأوتاد كما هي. كما أن عدد الأبحر الخليلية لا تزال ثابتة عند البحور الخمسة عشر التي وضعها الخليل عدا بحر المتدارك الذي لم يذكره الخليل تصريحاً^(١) أي أنه ذكره ضمناً، والذي وضعه تلميذه الأخفش الأوسط^(٢).

ويقول القفطي عنه إنه سيد العلماء في علمه وزهده وإنه نحوي لغوي عروضي. استنبط من العروض وعلمه ما لم يستخرجه أحد ولم يسبقه إلى علمه سابق من العلماء كلهم^(٣).

والذي يبدو لي أمام جملة هذه الآراء والأفكار التي تدور حول الباعث الذي دعا الخليل إلى التفكير في علم العروض ووضع قواعده. هو أن الخليل دعا بمكة

عند حجه أن يرزقه الله علماً لم يسبقه أحد فيه ولا يؤخذ إلا عنه، فرجع من حجه ففتح الله عليه بعلم العروض.

وعبقرية الخليل في هذا العلم تكمن في أنه حول الصوت إلى رمز، حيث يتيح للقارئ التعرف على هذا العلم ويتيح له عملية النظم وإن لم يكن شاعراً. فدراسته قائمة على الأصوات المنطوقة لا على الحروف المكتوبة، أي أن ما يلفظ تكون له صورة مكتوبة، وما لا يلفظ لا تكون له صورة مكتوبة. ولما كانت الدراسة قائمة على بيان المقاطع الصوتية كان من الضروري بيان أنواع المقاطع ولا يتأتى بيان المقاطع من غير الكتابة الصوتية^(٤).

والكتابة الصوتية أتاحت لأهل الموسيقى أن ينقلوا الأصوات إلى رموز، ومن ثم يستطيع الموسيقي قراءة الرموز لمقطوعة معينة فيعرف ما يرى أي أنه يعيد الرمز صوتاً مرة أخرى. وتلك خدمة أضافها الخليل وبشكل عرضي - على ما اعتقد - لأهل الموسيقى، علماً بأن هناك من يقول: إن للخليل علماً سابقاً بالموسيقى والإيقاع^(٥). وذلك ما نجده الآن على هيئة رقعة أمام العازف ينظر فيها ويحيل الرمز إلى حركة وصوت، كما هو في السيمفونيات العالمية، إن كل ذلك يرجع إلى هذه العبقرية التي استطاعت أن تضع هذا العلم. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه، كيف وضع الخليل هذا العلم الذي توصل إليه في هذه الأفكار وفي هذه المصطلحات، وما أصل هذه المصطلحات وما حقيقتها؟

أصل المصطلح العروضي وحقيقته عند الخليل:

باعتبار أن الخليل أول واضع لهذا العلم، وقد وضعه مكتملاً بكل مصطلحاته فلم يستطع أحد إضافة أي مصطلح عليه. وهذا الاستنباط لهذا العلم وعلله كما يقول القفطي: "لم يخرج أحد، ولم يسبقه إلى علمه سابق من العلماء كلهم"^(٦) ويقول ابن خلكان "إن دولة الإسلام لم تخرج أبداع للعلوم التي لم يكن لها عند العرب أصول من الخليل، وليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض الذي لا عن حكيم أخذه، ولا على مثال تقدمه احتذاه"^(٧).

ولم يقتصر الخليل على علم العروض فحسب بل سبق إلى النحو فهو أستاذه

ومطوره وعنه أخذ النحاة، ومعجمي وضع فكرة معجم العين الذي احتوى بفكرته جل مفردات العربية، زد على علمه الكبير بالموسيقى ولعل مرجع ذلك التفوق والسطوع منه يعود إلى أنه كان متفرغاً للعلم والعبادة والتقشف والزهد بعيداً عن المناصب والوصولية إلى الحكام، فتركت هذه الأمور عنده فكراً صافياً مشفوعاً بعقوبة وذكاء مفرطين^(٨).

والمصطلحات التي وضعها الخليل لهذا العلم وكما يبدو للباحث قد أتته مرة واحدة فاستعجل أمرها واستتبط مصطلحها من المحيط الذي كان يلفه ومن اللغة التي كان يحيط بمفرداتها خوفاً من ضياع الفكرة إذا ما أجلها إلى وقت آخر. وكأني به يشبه بذلك العالم الفيزيائي أنشتاين حينما جاءتته فكرة النظرية النسبية التي كتبها على ورقة فانكفاً عليها خوفاً من ضياعها أو نسيانها، ويدعي إحسان عباس في قضية المصطلح الذي أطلق عليه عبارة المصطلح البدوي إذ يقول: "والشيء اللافت للنظر في مصطلح الخليل أنه مستمد من بيت الشعر - بفتح الشين وقد كان علمه من هذه الناحية يمثل وعياً دقيقاً ومتكاملاً في النظرة العامة. وهو ينقل عن الخليل قوله في وصفه لما صنع "ورثبت البيت ترتيب البيت (بيوت الشعر)، يريد الخباء فسميت الإقواء ما جاء من المرفوع في الشعر والمخفوض على قافية واحدة وسميته إقواء لتخالفه لأن العرب تقول أقوى القائل إذا جاءت قوة الحبل تخالف سائر القوى...!"^(٩)

المصطلحات العروضية.

العروض:

أبداً بهذا المصطلح باعتباره مصطلحاً يشكل الوعاء الذي يحتوي على كل المصطلحات التي باجتماعها تشكل هذا العلم، وأبداً بها ككلمة ذات اصطلاح وذات دلالة لغوية وأحاول الربط بين المصطلح والمعنى، فأقول: إن العروض علم يبحث فيه عن أحوال الأوزان المعتمدة أو هو ميزان الشعر وبه يعرف موزونه من مكسوره، وبما أن النحو معيار الكلام به يعرف معربه من ملحونه^(١٠) أو هو ميزان الشعر به يعرف المتزن من المنكسر، أو لأنه يعرض الشعر عليه، ومنهم من يجعل

العروض طرائق الشعر وعموده وهي مؤنثة.

وخلاصة أمر هذا المصطلح من جميع ما تقدم من تعريفات يكون هو ذلك العلم الذي يميز به بين المنثور والمنظوم وبه يعرف ضرب ذلك المنظوم ضمن قواعد ثابتة وضعها الخليل، وهي تعتمد على ما يسمع وليس على ما يكتب^(١١).

أما المعنى اللغوي لكلمة عروض فهو مشتق من العروض وهي الناحية، وكأنه يقصد به ناحية من العلم، وقيل هي الطريق الصعب يكون في عرض الجبل^(١٢)، والتشابه بينهما واقع في أن طرائق الجبل كطرائق الشعر وعموده. ويقول القائل عرفت ذلك في عروض كلامه أي في فحوى كلامه ومعناه، وقيل العروض من العرضية من الإبل الصعبة للرأس^(١٣).

والرأي الأقوى الذي وجدته لكلمة العروض حيث يتفق فيه المصطلح مع المعنى أن كلمة العروض تعني مكة والمدينة وما حولهما، وفي ذلك دلالة إلى المكان الذي باشر فيه الخليل وضع مادة العروض باعتبار المكان الذي ألهم فيه هذا العلم الذي دعا به في موسم الحج^(١٤).

الحذف:

اصطلاحاً هو حذف الوند المجموع من التفعيلة ويكون في (متفاعلن) فتصير بالحذف (مُتَفَا) وتنقل إلى (فعل) بتحريك العين بالفتح والمصطلح خاص ببحر الكامل^(١٥).

ومعناها اللغوي عند الخليل في عينه أنه يقال للحمار القصير الذنب أخذ ويقال للقطاة: حذاء لقصر ذنبها مع خفتها، وهنا يكمن التوصل بين المصطلح والدلالة اللغوية إذ إن التفعيلة (متفاعل) حذفت منها (علن) أي الوند المجموع من آخر التفعيلة فهي كالذنب المقطوع من الدابة^(١٦).

الخين:

مصطلح عروضي يعني به حذف الثاني الساكن من تفعيلات معينة، وهذه التفعيلات هي:

(أ) مستعلن وتصير (مُتَعَلن).

(ب) فاعلن وتصير (فَعْلُن).

(ت) فاعلاتن تصبح (فَعْلَاتُن).

(ج) مفعولاتُ تصبح (مَعُولَاتُ).

وتلك زحافة تقصر التفعيلة ولكنها لا تؤثر في موسيقاها حين يحذف الحرف الثاني الساكن.

أما عن الدلالة اللغوية للكلمة فهي من خبنت الثوب إذا رفعت ذلك فخطته، أرفعه من موضعه كي يقلص كما يفعل بثوب الصبي والفعل خبن يخبن خبناً^(١٧). والرأي الذي نراه أن الأمر مرتبط بحالة من حالات الخباء (الخيمة) وهو تقصير طرفها بالخبن.

الخبيل:

الخبيل اصطلاحاً هو اجتماع الخبن والطي للتفعيلتين.

(أ) مستفعلن: وتصير بعد الخبن والطي (مُتَعْلَن) بتحريك التاء

(ب) مفعولات: وتصير بعد الخبن والطي (مَعُولَاتُ)^(١٨).

أما معناها اللغوي فهي الجنون أو شبهه في القلب ورجلٌ مخبولٌ: أي به خبلٌ وهو مخبلٌ لا فؤاد له وقد خبله الدهر والحزن والشيطان والحب والداء خبلاً^(١٩)، والرابط بين مصطلح هذا الزحاف والدلالة اللغوية هو أن ما تصاب به التفعيلة من زحاف مزدوج قد أوصل التفعيلة إلى ما يصل إليه المجنون من فقدان توازنه وصلاحيته عقله.

وقص:

مصطلح عروضي يحذف فيه الثاني المتحرك، ويقع في (متفاعلن) فقط

فتصير بالوقف مفاعلن^(٢٠).

أما دلالتها المعجمية فهي قصر في العنق، فهو أوقصّ والأنثى وقصاء، ومن هنا يقع التشابه بين قصر عنق الكلمة وقصر العنق عند المخلوق، فالتشابه منطقي وقريب^(٢١).

الإضمار:

الإضمار مصطلح يعني به تسكين الثاني المتحرك وذلك في تفعيلة (مُتفاعِلن) فتصبح في الإضمار (مُتفاعِلن) بتسكين التاء^(٢٢).
والمعنى اللغوي لها (أي الإضمار) هو ضمور الفرس وخفة اللحم فيها، وأضمرت في ضميري شيئاً غيبته في قلبي وصدري، وضمرت صرف الحرف إذا كان متحركاً فأسكنته، والأمر جد واضح بين المصطلح والدلالة اللغوية إذ إنه يعني الصمت عن المتحرك الثاني بسكون بديل يوافق الوزن والإيقاع دون التأثير بالصوت^(٢٣).

العقل:

هو مصطلح يراد به حذف الخامس المتحرك في تفعيلة (مفاعِلتن)، فتصير مفاعِلتن فتحول إلى (مفاعِلن)^(٢٤).
والدلالة اللغوية قريبة من المعنى الاصطلاحي إذ إنني وجدت للكلمة معاني كثيرة فوجدت أقربها هو عقل البعير، فتقول: عقلت البعير أعقله عقلاً إذا شددت يده بعقال، وهو الرباط، والزحافة تعقل صوت التفعيلة فاخترها الخليل مصطلحاً لها، والاختيار دقيق وحاذق^(٢٥).

الطي:

المصطلح يعني حذف الرابع الساكن بشرط أن يكون ثاني السبب ويقع في التفعيلتين.

(أ) مستفعلن تصير بالطي مستعلن.

(ب) مفعولات تصير بالطي مفعلات.

ومعناها اللغوي من قولك: طويت الصفحة أطويها طياً، فطي المصدر، وطويتها طياً أي مرة واحدة ويقول صاحب معجم مقاييس اللغة: هو إدراج شيء حتى يدرج بعضه في بعض، ويقول: طويت الثوب والكتاب طياً أطويه^(٢٦). والطي للتفعيلتين واضح إذ لا توافق دلالاته أكثر من دلالة الطي على حقيقة ما يحصل لهذا الزحاف.

العصب:

هو تسكين الخامس المتحرك ويختص بتفعيلة (مفاعلتن) فتصير بالعصب مفاعلتن بتسكين اللام^(٢٧). أما معناها اللغوي فهو شد أنثي الدابة حتى تسقط، وعصبته فهو معسوب، والعصابة ما يشد به الرأس من الصداع^(٢٨)، وواضح شد التفعيلة بتسكين الخامس المتحرك بعد متحرك قد سبق.

القبض:

هو حذف الخامس الساكن في التفعيلتين الآتيتين:

(أ) فعولن تصير بالقبض فعول بتحرك اللام.

(ب) مفاعيلن تصير بالقبض مفاعِلن^(٢٩).

وأقرب معاني القبض هو جمع الكف على شيء والقبض من معانيها الإسراع، ولا يأتي إلا بجمع الأطراف وإرسالها^(٣٠)، والاصطلاح موافق للمعنى، إذ هو جمع التفعيلة من مفاعيلن تتحول إلى مفاعِلن.

الكف:

اصطلاحاً هو حذف السابع الساكن (بشرط أن يكون ثاني سبب ويكون ذلك في التفعيلات الأربعة الآتية).

(أ) مفاعيلن تصير بالكف (مفاعيل) بتحرك اللام.

(ب) فاعلاتن تصير بالكف (فاعلات) بتحرك التاء.

(ج) فاع لاتن تصير بالكف (فاعلات) بتحرك التاء.

(د) مستقع لن تصير بالكف (مسقع ل) بتحرك اللام^(٣١).

والأقرب معجماً إلى معنى هذا الاصطلاح هو كف الثوب إذا كف بعد خياطته^(٣٢) والذي أجده أن هذا متصل بوضع الخيمة في تقصير جوانبها، والأمر يحصل للتفعيلات بتقصير أو آخرها والتوافق حاصل بين المصطلح والمعنى.

الخرزل:

مصطلح يعني اجتماع الإضمار والطي ويكون في (متفاعِلن) وتصير بعد

الخرزل (متفعلن) بتسكين الفاء وتحول إلى "مُفْتَعِلْنَ" ولا يكون إلا في الكامل (٢٣).
ومن بين معانيها المعجمية: تتخرزل أي تنقطع، والأخرزل من الإبل: الذي ذهب سنامه كله، ومن معانيها الانخزال في المشي، كأن الشوك شاك قدمه. وكذلك التفعيلة فهي منخرلة إذا انتابها زحافان، وهما الإضمار والطّي ومع ذلك لم يحصل خلل في إيقاع التفعيلة، وبقيت مقبولة على وزن الكامل (٢٤).

الشكل:

وهو اجتماع زحافي الخبن والكف ويكون في: (فاعلاتن) وتصير بعد الشكل (فعلات) بتحريك الناء. (٢٥)

أما معناها المعجمي فهو غنجُ المرأة وحسن دلها، والأشكل في سائر الأشياء بياضٌ وحمرة قد اختلط، والشكال حبل يشكل به قوائم الدابة، والشكال في الفرس تحجيلٌ ثلاث قوائم، وإطلاق واحدة، وهو مكروه (٢٦).

والظاهر أن اختيار الخليل هذا المصطلح لهذا الزحاف إنما يعود إلى ما يصيب التفعيلة من زحافين مشتركين لتشكيل زحاف جديد فكأنه الحبل الذي يشكل الفرس، وذلك من واقع حال البداوة ومن أصل البيئة التي يعيشها أهل البادية، فهو بالتالي مصطلح بدوي. وأود الإشارة إلى أن الخرزل والشكل لا يقعان في الشعر الملتزم إلا نادراً لما فيهما من إشكال واهتزال لوزن القصيدة.

النقص:

هو اجتماع العصب والكف، ويكون في (مفاعلتن) وتصير (مفاعلت) بتسكين اللام وتحريك الناء، وتتحول إلى (مفاعيل) بتحريك اللام، ويقع هذا الزحاف في الوافر أو مجزوء الوافر ومجيبه بمجزوء الوافر أكثر من وروده في التام إذ إنه يهز من موسيقى الوافر.

والنقص كمنعى قاموسي، خلاف الزيادة، والنقيصة العيب (٢٧)، والنقص للتفعيلة بزحافين يوجد بها عيباً، وإن كان جائزاً في تفعيلة الوافر (مفاعلت) فالعلاقة بين المعنى والمصطلح واضحة قريبة المنال.

التذييل:

التذييل اصطلاحاً زيادة حرفٍ واحدٍ على ما آخره وتد مجموع، ويدخل في

البحور الآتية:

أ) المتدارك في تفعيلة (فاعلن) فتصبح (فاعلان).

ب) الكامل فتصير (متفاعلن) (متفاعلان)

ج) مجزوء البسيط فتصير (مستعلن) (مستعلان) (٣٨).

ومن معانيها اللغوية الذيل كذيل القميص و ذيل الفرس و فرس ذيال طويل

الذيل فهذه الزيادة في التفعيلة بحرف واحد تكون كالذيل للتفعيلة، وهي موافقة للمعنى منسجمة في الشكل (٣٩).

الترفيل:

مصطلح يعني زيادة سبب خفيف على ما آخره وتد مجموع ويدخل في

البحور التالية:

أ) المتدارك فتصير (فاعلن) (فاعلاتن).

ب) الكامل فتصير (متفاعلن) (متفاعلات).

والمعنى اللغوي كما يقول ابن السكيت: فرس رقل إذا كان طويل الذيل

والرقل الذيل، ويقال: رقل إزاره وأسبله وأغدقه وأذاله وأرخاه.

والمعنى اللغوي يقال امرأة مرفال كثيرة الرقول في ثوبها. وشعر رفال

طويل والعلاقة ما بين المصطلح والدلالة واضحة جلية، إذ إن الترفيل زيادة طويلة بسبب خفيف على آخر تفعيلة (٤٠).

التسبيغ:

اصطلاحاً يعني زيادة حرف ساكن على ما آخره سبب خفيف، ويكون في

بحر الرمل حيث تتحول (فاعلاتن) إلى (فاعلاتان) (٤١).

ومعناها اللغوي: نقول سبغت الناقة جاءت بولدها تاماً، وكل شيء طال إلى

الأرض فهو سابغ، وهذه الزيادة في حرف على التفعيلة هو إسباغ لها وزيادة فيها (٤٢).

القطف:

هو اجتماع العصب مع الحذف في تفعيلة (مفاعلتن) فتصبح (فعول)^(٤٣).
والمعنى اللغوي هو أخذ ثمرة من شجرة ، وما يستعار من هذا المعنى
لإستخدامات مجازية أخرى والتشابه واضح بين الدلالة والمعنى فكلاهما إنقاص من
أصل^(٤٤).

الحذف:

هو إسقاط السبب الخفيف من آخر التفعيلة ويدخل في:
أ) فعولن: فتصير (فعو) وتنقل إلى (فعل) بتحريك العين.
ب) مفاعيلن: وتصير بالحذف (مفاعي) وتنقل إلى (فعول) أو (مفاعل) بسكون
اللام.

ج) فاعلتن: وتصير بعد الحذف (فاعلا) وتنقل إلى (فاعلن)^(٤٥).
والحذف لغة: قطف الشيء من الطرف كما يحذف طرف ذنب الشاة^(٤٦)،
وهذا المعنى هو الأقرب من مراد الاصطلاح لأنه يعني حذف سبب خفيف
بأكمله من آخر التفعيلة.

القطع:

اصطلاح يعني حذف ساكن الوند المجموع وإسكان ما قبله وذلك يكون في:
أ) فاعلن: فتصير بعد القطع (فاعل) بسكون اللام. وتنقل إلى (فاعلن) بسكون
العين.

ب) مستعلن: فتصبح بعد القطع (مستعل) بسكون اللام وتنقل إلى (مفعولن).

ج) متفاعلن: فتصبح بعد القطع (متفاعل) بسكون اللام وتنقل إلى (فاعلن)^(٤٧).

والقطع غير الحذف إذ إن القطع يعني حذف ساكن وإسكان ما قبله فالأمر
بين المعنى للقطع والاصطلاح حاصل إذ إن القطع حذف حرف واحد ساكن بينما
الحذف هو إسقاط حرفين متحرك وساكن.

القصر:

اصطلاح يعني حذف ساكن السبب الخفيف وإسكان ما قبله ويكون ذلك في:

أ) فعولن: فتصير بعد القصر (مفعول) بسكون اللام.

ب) فاعلاتن: فتصير بعد القصر (فاعلات) وتنقل إلى (فاعلان).

ج) مستفع لن: فتصير بعد القصر مستفع ل وتنقل إلى (مفعولن) ^(٤٨).

والمعنى اللغوي حين قلبته وجدت أن أقرب ما يكون إلى المصطلح هو قصر فلان يقصرُ قصراً إذا ضم شيئاً إلى أصله الأول وقصر قيد بغيره قصراً إذا ضيقه، وقصر فلان صلاته يقصرها قصراً في السفر ^(٤٩). وفي ذلك تلاقٍ بين المصطلح والمعنى إذ إنه خلخلة من أثر العلة ولكنها خلخلة مقبولة.

الصلم:

وهو حذف الوند المفروق من آخر التفعيلة ويكون في (مفعولات)، وبالصلم تصير (مفعو) وتنقل إلى (فعلن) بسكون العين، وهذا خاص ببحر السريع. والصلم علة تصيب التفعيلة فتجهز على قرابة نصفها، وهو حذف الوند المفروق من آخر التفعيلة (-U). وهو يتفق مع المعنى الذي ذهب إليه الخليل في عينه إذ قال: "اصطلم القوم إذا أبيدوا من أصلهم" ^(٥٠) والتفعيلة بالصلم تتغير في شكلها وصوتها.

الوقف:

مصطلح يعني إسكان السابع المتحرك بتفعيلة (مفعولات) بضم التاء فتصير بالوقف (مفعولات) بسكون التاء ^(٥١). أما معناه المعجمي فالذي أجده مقارباً للمصطلح من تقلبات معانيه هو وقفت الدابة ووقف الكلمة وقفاً وهذا مجاوزٌ فإذا كان لازماً قلت: وقفت وقوفاً، فإذا وقفت الرجل على كلمة وقفته والتواصل بين المرادين حاصل، إذ التسكين وقف من حركة في آخر التفعيلة كفعل الموقف عن الكلام والمسكن للدابة بعد حركة ^(٥٢).

الكسف:

هو حذف السابع المتحرك ويكون في (مفعولات) فتصير بالكسف (مفعولا) وتنقل إلى (فعلون) ^(٥٣). والكسف في معجم العين هو قطع العرقوب بالسيف، أو هو كسف القمر يكسف كسوفاً، ورجل كاسف الوجه: عابس من سوء الحال والأمر القريب

من المعنى الاصطلاحي هو كسوف القمر حيث يغيّب بعضه ويبقى البعض كذلك التفعيلة حين تكسف بسقوط آخرها المتحرك^(٥٤) ويضيف ابن فارس لمعنى هذه الكلمة بأن يقول: "الكسف قطع شيء من شيء"، وهو معنى عام يشمل كل الصورة^(٥٥).

التشعيب:

اصطلاح يعني حذف أول الوند المجموع ويكون ذلك في:

أ) فاعلاتن: فتصير بالتشعيب (فالاتن) وتنقل إلى (فعول) وهذا خاص ببحر المجتث والخفيف.

ب) فاعل: وتصير بالتشعيب (فال) وتنقل إلى (فعل) بسكون العين وهذا خاص بالمتدارك^(٥٦).

والتشعيب تشعيب رأس السواك وأشعث اسم الوند لتشعث رأسه، ويقال رجل أشعث شعث، وهو المغبر الرأس المتبلد الشعر، جاف غير دهين^(٥٧)، وبذلك تتوافق الدلالة مع المصطلح، إذ إن التفعيلة يذهب جرسها (فعلاتن) بالتشعيب وتبتعد عن الترتيب فهي تشاكل شعث الشعر ورأس الوند، وتلك من المصطلحات القريبة من أجزاء بيت الشعر وأوتاده.

الخرم:

والخرم يعني إسقاط أول الوند المجموع في صدر المصراع، ويكون هذا في بحور الوافر والطويل والمتقارب، ويكون في:

أ) فعولن: فتصير بالخرم (عولن) وتنقل إلى (فعلن) بسكون العين ويكون هذا في الطويل والمتقارب.

ب) مفاعلتن: وتصير بالخرم (فاعلتن) وتنقل إلى (مفتعلن) ويكون هذا في الوافر.

ج) مفاعلن: فتصير بالخرم (فاعلن) وتنقل إلى (فعولن) ويكون هذا في الهزج والمضارع^(٥٨).

ومن بين معانيها الكثيرة يتوافق المصطلح ودلالة من دلالاتها المعجمية، وهو قطع في مقدمة الأذن والأنف، ويقال رجل أخرم بين الخرم. وفي ذلك توافق بين المصطلح ومعنى من معاني كلمة الخرم حيث إن التوافق يحصل فيما كان في

صدره وتد فخرم أحدهما وطرح كقوله:

إن امرئ قد عاش تسعين حجةً

إلى مثلها يرجو الخلود لجاهلٍ

كان تمامه وإن امرئ^(٥٩).

مصطلحات عروضية تغير العلل والزحافات.

البيت:

هو الوحدة الشعرية التي تتألف القصيدة من تكرارها، ويتألف البيت من شطرين أولهما (الصدر) وثانيها (العجز)، ويسمى كل قسم منها بالمصراع تشبيهاً بمصراعي الباب، فيقال المصراع الأول والمصراع الثاني^(٦٠). والبيت لغةً هو المأوى والمأب ومجمع الشمل، والعلاقة بين المصطلح والمعنى اللغوي قريبة ومنطقية، إذ إن بيت الشعر مجمع الألفاظ والحروف والمعاني مخصوص وهو الوزن^(٦١).

العروض:

اصطلاحاً هو التفعيلة الأخيرة من الصدر وجمعها أعاريض. وعليه أطلق علم العروض كعلم شامل، وقد مر شرح كلمة العروض في أول فقرات مصطلحات هذا العلم.

الضرب:

التفعيلة الأخيرة من العجز وجمعها ضروب^(٦٢) ومن معاني الضرب هو الصنف من الأشياء ويقال هذا ضرب ذاك أي من نحوه والضرب في البيت هو الصنف والشكل الذي تجلس عليه القافية وبه تتلاقى الأبيات مع بعضها بضرب واحد على نغم واحد وقافية واحدة^(٦٣).

الحشو:

مصطلح عروضي يعني به تفعيلات البيت عدا العروض والضرب^(٦٤)، والحشو لغةً تعني صغار الإبل و ملء الوسادة وغيرها بشيء، وما يجعل فيها فهو حشو^(٦٥)، كذلك الأمر بالنسبة لتفعيلات الحشو فيها يملأ البيت ويأخذ شكله الذي

يقوم عليه كيان البيت مع العروض والضرب.

الجزء:

اصطلاح يعني إسقاط العروض والضرب من البيت أي حذف تفعيلة من آخر كل شطر، ويسمى البيت آنذاك مجزوء^(٦٦)، والجزء هو الاجتزاء ولكن ضمن ضوابط اكتشفها الخليل في بعض الأبحر وليس جميعها، مثل مجزوء البسيط، والجزء بين اصطلاحها ومعناها توافق تام.

الشطر:

هو إسقاط شطرٍ بأكمله من البيت واعتبار الشطر الباقي بيتاً، ويعرف في هذا الحال بالمشطور ويكون في بحر الرجز^(٦٧)، ومعناه موافق لدلالته تماماً.

المنهوك:

وهو إسقاط ثلثي البيت والاكتفاء بالثلث الباقي ويسمى البيت حين ذاك بالمنهوك^(٦٨).

أما المعنى اللغوي لهذا المصطلح فهو أن تقول: نهكته الحمى أي: أنقصت لحمه^(٦٩)، والأمر نفسه بالنسبة لهذا الضرب من الاجتزاء للبيت بحيث يبقى ثلث تفاعيله، وهو لا يحصل إلا في بحر الرجز، من أجل هذا يسمى البيت منهوكاً كالذي أنهكه المرض وأنقص لحمه.

الزحاف:

هو تغيير في ثواني أسباب خفيفة وثقيلة، يتسكين متحرك أو حذف ساكن ويقع في أول التفعيلة أو وسطها أو آخرها. ويكون في تفعيلات حشو البيت، ولكنه لا يلتزم في سائر القصيدة^(٧٠).

وأقرب معنى من معاني الزحاف عند الأزهري هو المشي قليلاً قليلاً، والزحاف في الشعر سقوط حرف من بين الحرفين، فزحف أحدهما إلى الآخر^(٧١).

العلة:

وهو مصطلح يراد به التغيير الذي يصيب الأسباب والأوتاد في الأعراب

والأضرب فقط، وإذا ورد هذا التغيير في أول القصيدة التزم في جميع أبياتها، والعلة تصيب أكثر من حرف على خلاف الزحاف^(٧٢)، وفي معناها المعجمي يقول الخليل: "العلة حدث يشغل صاحبه عن وجهه، ويقال: اعتله عن كذا أي أعاقه"^(٧٣). وفي هذا المعنى توافق اختاره الخليل عن دراية وحذاقة، إذ انشغلت التفعيلة لعلة متغيرة عن أصلها الذي هو في الدائرة العروضية إلى وجه آخر فالتزمت به إلى آخر القصيدة.

المقاطع العروضية.

المقاطع العروضية تمثل مقاطع التفعيلات، وهي لا تنقص عن حرفين بين متحرك وساكن، وتزيد حتى تبلغ خمسة حروف وهي:

(١) السبب: ويكون على شكلين: سبب خفيف، وسبب ثقيل، وكلاهما يتشكل من حرفين، إما متحرك أو ساكن (وهو الخفيف)، أو متحركان (وهو الثقيل) ومعنى السبب لغوياً هو الحبل^(٧٤). وهو أقرب المعاني صلة بالمصطلح إذ إنه يشكل جل التفعيلات، فهو كالحبل الموصل بين أجزاء التفعيلة، ومن معانيه الطريق إذ إنك تصل به إلى ما تريد.

(٢) الوند: مصطلح يأتي على شكلين: وند مجموع، ووند مفروق، وهو الجزء من التفعيلة الذي يتشكل من ثلاثة حروف، إما من متحركين وساكن، وهو الوند المجموع، أو من متحركين يتوسطهما ساكن. ومعناه من الوند الذي يثبت في الأرض ليربط به حبال الخيمة، وأظن أن هذا يوافق ما جاء به إحسان عباس من أن المصطلحات تعود إلى بيت الشعر وأجزائه^(٧٥).

(٣) الفاصلة: وتنقسم إلى قسمين: فاصلة كبرى وفاصلة صغرى، أما الكبرى فهي تتألف من أربعة حروف متحركة يتبعها ساكن في الأخير، وأما الصغرى فهي ما تألفت من ثلاثة حروف متحركة يتبعها ساكن في آخر الفاصلة، وهي جزء من تفعيلة. والمعنى الأقرب لمراد المصطلح من بين معاني الفاصلة في المعجم أنها تعني أواخر الآيات في القرآن الكريم، فهي بمنزلة القوافي للشعر، ومكانتها بالنسبة للتفعيلة كالمفصل في الجسد، أو أن مكانتها وقيمتها بالتفعيلة

بمقام الفصيحة التي هي تجمع بشري دون القبيلة في العدد، وكذا الأمر بالنسبة للفاصلة في التفعيلة^(٧٦).

خلاصة ونتائج البحث.

لعل من المناسب هنا أن أشير إلى أن عقلية الخليل النقية البارعة في ذكائها ووقوفها على مسائل لم يقف أحد عليها من قبل، ولعل مبعث ذلك يعود إلى أن الذكاء لم يكن الرافد الوحيد لهذا الإنتاج والعطاء العلمي الغزير، ولكنها الروح الزاهدة المتواضعة التي تركت الدنيا وآثرت العيش بخص، حيث يقول أحد تلامذته وهو النضر بن شميل "أكلت الدنيا بعلم الخليل وكتبه وهو في خص لا يقدر على فلسين" ويقول سفيان بن عيينة: "من أراد أن ينظر إلى رجل من ذهب ومسك فليُنظر إلى الخليل بن أحمد"^(٧٧). وهذا الجانب من تكوينه وسلوكه هو الذي أعطاه هذه الفطنة والصفاء، فعلم العروض الذي خرج به إلى الدنيا إنما كان نبعه من صفو ونقاء تتملكه روح المكتشف، والذي أراه أن مبعث هذا الاتجاه في وضع أساس لعلم عمود الشعر (العروض) إنما كان من مبدأ الرد على من كان يقول إن الأسلوب القرآني ضرب من ضروب الشعر. ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتِرَاءُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ﴾^(٧٨). فجاء علم العروض حجة لتفصل الحقيقة الجلية في أن إعجاز النظم القرآني ليس من الشعر ولا الشعر منه وبذلك أدى الخليل خدمة للعلوم القرآنية تدفع التهمة عنه للأولين والآخرين^(٧٩). كما كان الأمر بالنسبة لرسالته في النحو حيث كان من أهم أهدافه ودوافعه ضبط قراءة القرآن على صورته الحقيقية بعيداً عن اللحن والتخبط.

والنتيجة الأخرى عن هذا العلم هي أن ما أقدم عليه الخليل في طريقة وضع أسس هذا العلم الذي كان يحتاج فيه إلى تفريع وتقسيم من أجل وضع أجزائه وتركيبه، هذه الأجزاء التي تبدأ من السبب الخفيف وتنتهي بالدائرة العروضية، وهذه المسافة العلمية تحتاج إلى زخم من مصطلحات كثيرة تشكل روح البحث الحاضر الذي يركز على العلاقة بين اسم المصطلح ومعناه ودلالته اللغوية، ترى فهل من سبب وراء هذه التسميات وتلك الاختيارات أم أنه لأجل التقسيم والتصنيف

الاعتباطي فحسب؟

ذهب إحسان عباس إلى أن تسمية المصطلحات تسمية بدوية تعود إلى أجزاء بيت الشعَر (أي الخيمة)^(٨٠). والنتيجة التي توصلت إليها عبر هذا البحث المعجمي أظهرت خلاف ذلك. صحيح أن الخليل في بعض تسمياته ومصطلحاته يقارب أجزاء الخيمة ولكن في مجال يسير كمصطلح العمود والسبب والوتد والتشعيب والخين والمصراع، ولكنها عدد الأصابع إلا أن الأكثر والغالب في هذه المصطلحات يعود إلى معان معجمية بعيدة عن بيت الشعَر، أو قل من معانيها أو أشهر معانيها والمصطلح الذي سميت به. خذ مثلاً في تسميته للأبجر ما نقله المرزباني في نور القبس قوله "عن الأخفش قال: سألت الخليل بعد أن عمل كتاب العروض: لم سميت الطويل طويلاً؟ قال: لأنه طال بتمام أجزائه، قلت: فالبسيط؟ قال: لأنه انبسط عن مدى الطويل وجاء وسطه فعلم وأخره فعلم، قلت: فالمديد؟ قال: لتمدد سباعيه حول خماسيه، قلت: فالوافر؟ قال: لوفور أجزائه وتبدأ بوتد، قلت: فالكامل؟ قال: لأن فيه ثلاثين حركة لم تجتمع في غيره من الشعر، قلت: فالهزج؟ قال: لأنه يضطرب؛ شبيه بهزج الصوت، قلت: فالرجز؟ قال: لاضطرابه كاضطراب قوائم الناقة عند القيام، قلت: فالرمل؟ قال: لأنه شبه برمل الحصير لضم بعضه إلى بعض، قلت: فالسريع؟ قال: لأنه يسرع على اللسان، قلت: فالمنسرح؟ قال: لانسراحه وسهولته، قلت: فالخفيف؟ قال: لأنه أخف السباعيات، قلت: فالمقتضب؟ قال: لأنه اقتضب من السريع، قلت: فالمضارع؟ قال: لأنه ضارع المقتضب، قلت: فالمجتث؟ قال: لأنه اجتث، أي: قطع من طويل دائرته، قلت: فالمتقارب؟ قال: لتقارب أجزائه؛ لأنها خماسية كلها يشبه بعضها بعضاً^(٨١).

وإشارة إلى ما تقدم بشأن الخليل، فإنه يصطلح على ما يلائم الحالة التي عليها شكل التفعيلة أو جنس البحر أو طبيعة المقطع - من معان لغوية يختزنها الخليل في ذاكرته الواسعة المعجم العربي، فهو سيد أعلام العرب في عصره وينتد من بحر خازنته الثرية، وفيها ما يشاء، ويمتخ من خاطرة عالية قادرة على الموازنة بين المصطلح الذي سماه، ومقارب لأصل التسمية ومعناها المعجمي. فلا

عجب وهو صاحب كتاب العين، أما أن يحصر مراد المصطلحات في زاوية واحدة فالأمر صعب التصديق. ومنهم من ذهب إلى أن المصطلح بدوي، وأتفق مع هذا المذهب إذ إن البداوة هي بيئة الفصحى، واللغة العربية في مرحلة من مراحلها سكنت فيها وانتشرت على الحواضر وارتكزت بالشعر القديم والقرآن الكريم الذي أكدها بعد ذلك وأخرجها من السليقة إلى العلم التطبيقي الذي أوجده الخليل ومن جاء بعد الخليل من علماء العربية في القراءات والنحو والصرف وعلوم المعاجم.

والأمر الآخر الذي عالجتَه في بحثي هذا هو أنني حين كنت أتعامل مع المصطلح أقلبه بين مختلف كتب العروض التي بين يدي فأخلص إلى تعريف المصطلح بعدها أنتقل إلى جولة داخل كتب المعاجم وقد اعتمدت على الكتب الآتية:

(١) كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي.

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس.

(٣) تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري.

(٤) القاموس المحيط للفيروز آبادي.

وعند مقارنتي للمعنى المعجمي بين مختلف المعاجم أفق وأقارب المراد الذي ذهب إليه الخليل الذي أطلق التسمية على ذلك المصطلح، وقد لا أجد هذه المقاربة عند العين ولكني أجد عند مقاييس اللغة أو عند المحيط أو غيره، لذلك قد تجدني أزواج بين معجمين أو ثلاثة أو أفق على واحد منها على أن الغالب الأغلب الذي وجدته من معان لهذه المصطلحات هو معجم العين والذي ضمنه الخليل الكثير من المصطلحات العروضية عند مروره بالكلمة التي أخذ منها المصطلح.

وختاماً فإن النتيجة المهمة الأخيرة التي توصلت إليها أن المصطلحات العروضية هي كما وضعها الخليل بن أحمد الفراهيدي لم تتغير في مدلولاتها، ولا في عندها ولا تسميتها لأنه علم قد اكتمل على يد صاحبه، وقد فصله بهذه الأجزاء التي سماها بهذه المصطلحات، وهذا ما يضيف إعجاباً آخر بهذا الرجل العظيم ونبوغه الفريد^(٨٢).

الحواشي.

- (١) أوزان الشعر العربي، حسام النعيمي.
- (٢) علم العروض والقافية عبد العزيز عتيق، ص ١٠.
- (٣) أنباه الرواة للقطبي، ج ١، ص ٣٤٢.
- (٤) أوزان الشعر العربي د. حسام النعيمي، ص ١٤.
- (٥) وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٤٣.
- (٦) إنباه الرواة للقطبي، ج ١، ص ٣٤٢.
- (٧) وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٤٣.
- (٨) لأجل معرفة الكثير عن سعة علم الخليل راجع طبقات النحويين واللغويين لمحمد بن الحسن الزبيدي، ص ٥١؛ معجم الأدباء ياقوت الحموي، ج ٣، ص ٧٣-٧٧؛ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج ١، ص ٥٦٠؛ البلغة في تراجم أهل اللغة؛ محمد بن يعقوب الفيروز آبادي؛ ص ٢٣٣.
- (٩) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري ص ٣٥-٣٦، ص ٧٣.
- (١٠) وفيات الأعيان؛ ج ١؛ ص ٣٤٢.
- (١١) في مصطلح العروض قارن بين المراجع الآتية: تهذيب اللغة، الأزهرى، مادة عرض؛ معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة عرض؛ قاموس المحيط، الفيروز آبادي، مادة عرض؛ كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، مادة عرض.
- (١٢) معجم مقاييس اللغة، مادة عرض.
- (١٣) تهذيب اللغة، مادة عرض.
- (١٤) القاموس المحيط، مادة عرض.
- (١٥) علم العروض والقافية، ص ١٧٤.
- (١٦) كتاب العين، مادة حذ.
- (١٧) المصدر نفسه، مادة خبن.
- (١٨) علم العروض والقافية، ص ١٧٤.
- (١٩) كتاب العين، مادة خبل.
- (٢٠) علم العروض والقافية، ص ١٧٤.
- (٢١) كتاب العين، مادة وقص.
- (٢٢) علم العروض والقافية، ص ١٧٤.

- (٢٣) قارن تهذيب اللغة، مادة ضمير، معجم مقاييس اللغة، باب الضاد والميم وما يتلثهما.
- (٢٤) علم العروض والقافية، ص ١٧٤.
- (٢٥) كتاب العين، مادة عقل.
- (٢٦) قارن كتاب العين مادة طوى؛ معجم مقاييس اللغة باب الطاء والوار وتالتهما.
- (٢٧) علم العروض والقافية، ص ١٧٣.
- (٢٨) كتاب العين، مادة عصب.
- (٢٩) علم العروض والقافية، ص ١٧٣.
- (٣٠) قارن كتاب العين، مادة قبض؛ مقاييس اللغة باب القاف والباء وتالتهما.
- (٣١) علم العروض والقافية، ص ١٧٣.
- (٣٢) قارن تهذيب اللغة، مادة كفف؛ معجم مقاييس اللغة باب الكاف والفاء وتالتهما.
- (٣٣) علم العروض والقافية ص ١٧٤.
- (٣٤) تهذيب اللغة، مادة خزل.
- (٣٥) علم العروض والقافية ص ١٧٤.
- (٣٦) كتاب العين، مادة شكل.
- (٣٧) معجم مقاييس اللغة، باب نون قاف وما يتلثهما.
- (٣٨) علم العروض والقافية ص ١٨١ معجم مقاييس اللغة، مادة الذال والياء وتالتهما.
- (٣٩) معجم مقاييس اللغة، مادة الذال والياء وتالتهما.
- (٤٠) تهذيب اللغة، مادة الراء والفاء وتالتهما.
- (٤١) علم العروض والقافية، ص ١٨١.
- (٤٢) قارن كتاب العين مادة سبع؛ كعجم مقاييس اللغة باب السين والياء وتالتهما.
- (٤٣) علم العروض والقافية، ص ١٨٢.
- (٤٤) كتاب العين، مادة قطف.
- (٤٥) علم العروض والقافية، ص ١٨٢.
- (٤٦) كتاب العين، مادة حنظ.
- (٤٧) علم العروض والقافية، ص ١٨٢.
- (٤٨) المرجع نفسه، ص ١٨٣.
- (٤٩) كتاب العين، مادة قصر.
- (٥٠) المصدر نفسه، مادة صلح.
- (٥١) علم العروض والقافية، ص ١٨٢.
- (٥٢) تهذيب اللغة، مادة وقف.

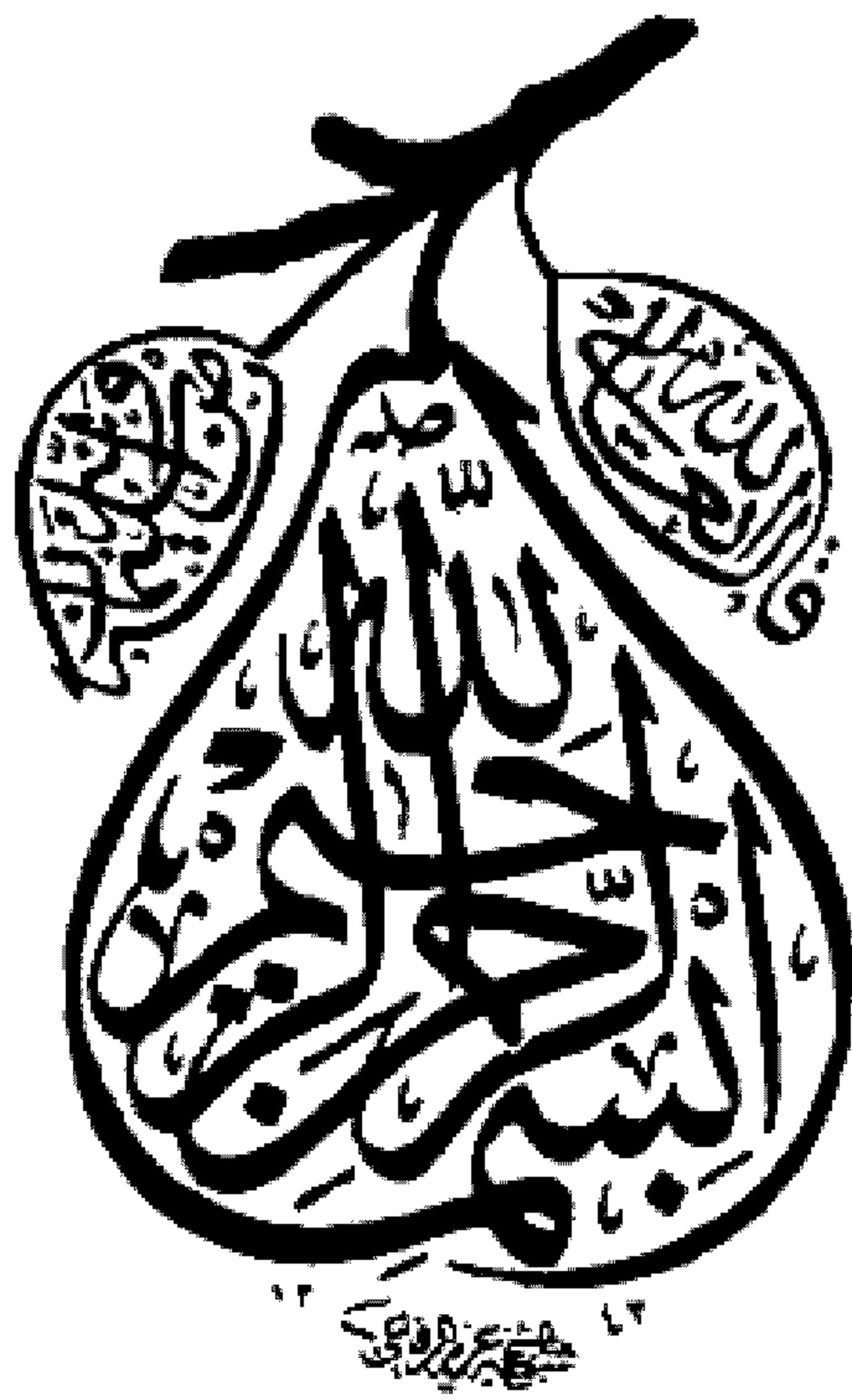
- (٥٣) علم العروض والقافية، ص ١٨٥.
- (٥٤) كتاب العين، مادة كسف.
- (٥٥) معجم مقاييس اللغة، مادة كسف.
- (٥٦) علم العروض والقافية، ص ١٨٥.
- (٥٧) كتاب العين، مادة شعث.
- (٥٨) علم العروض والقافية، ص ١٨٦.
- (٥٩) مقاييس اللغة، مادة خرم.
- (٦٠) قارن، بحور الشعر العربي عروض الخليل، غازي يموت، ص ٢٤؛ علم العروض والقافية، ص ٢٦.
- (٦١) معجم مقاييس اللغة الباء والياء وثالثهما.
- (٦٢) بحور الشعر العربي، ص ٢٤.
- (٦٣) نفس الكتاب والصفحة.
- (٦٤) بحور الشعر العربي، ص ٢٤.
- (٦٥) معجم مقاييس اللغة، مادة الحاء والشين وثالثهما.
- (٦٦) بحور الشعر العربي، ص ٢٥.
- (٦٧) نفس المصدر والصفحة.
- (٦٨) بحور الشعر العربي، ص ٢٦.
- (٦٩) معجم مقاييس اللغة، مادة النون والهاء وثالثهما؛ تهذيب اللغة مادة نهك.
- (٧٠) قارن علم العروض والقافية، ٢٩؛ بحور الشعر العربي ص ٢٦.
- (٧١) تهذيب اللغة، مادة زحف.
- (٧٢) بحور الشعر العربي، ص ٢٧.
- (٧٣) معجم مقاييس اللغة، مادة العين واللام وثالثهما.
- (٧٤) كتاب العين، مادة سبب.
- (٧٥) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص ٤٣.
- (٧٦) تهذيب اللغة، مادة فصل.
- (٧٧) انظر www.nizwa.com/volume2/p103_108.html.
- (٧٨) سورة الأنبياء، آية ٥.
- (٧٩) الشعر المتقلت بين النثر والتفعيلة وخطره، عدنان علي رضا النحوي، ص ٨.
- (٨٠) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص ٣٥.
- (٨١) نور القيس للمرزباني، ج ١، ص ٢٠.

(٨٢) قارن أوزان الشعر العربي، حسام النعيمي، ص ٩-١٢؛ مبادئ العروض، زيان أحمد الحاج إبراهيم، ص ٥-٩.

المصادر والمراجع.

١. القرآن الكريم.
٢. إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، عمان، ١٩٩٣م.
٣. أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، دار أحياء التراث، بيروت، ٢٠٠١م.
٤. جعفر ماجد، العروض الواضح، منشورات رحاب المعرفة، تونس، ١٩٩٥م.
٥. حسام سعيد النعيمي، أوزان الشعر العربي، جمعية حماية اللغة العربية، الشارقة، ٢٠٠٥م.
٦. ابن خلكان، وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان، القاهرة، ١٩٤٨م.
٧. الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٨م.
٨. زيان أحمد الحاج إبراهيم، مبادئ العروض، مكتبة الفلاح، الكويت ١٩٨٦م.
٩. عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، بغية الوعاة من طبقات اللغويين والنحاة، المكتبة العصرية، بيروت.
١٠. عبد العزيز العتيق، علم العروض والقافية، دار النهضة، بيروت، ١٩٨٧م.
١١. عدنان علي رضا النحوي، الشعر المتقلت بين النثر والتفعية وخطره، دار النحوي للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢١هـ.
١٢. علي بن يوسف القفطي، إنباء الرواة على أنباء النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ٢٠٠٤م.
١٣. غازي يموت، بحور الشعر العربي، عروض الخليل، دار الفكر اللبناني، بيروت ١٩٩٢م، ط ٢.
١٤. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، العين، ٢٠٠١م.
١٥. محمد بن الحسن الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، دار المعارف، مصر، ط ٢.

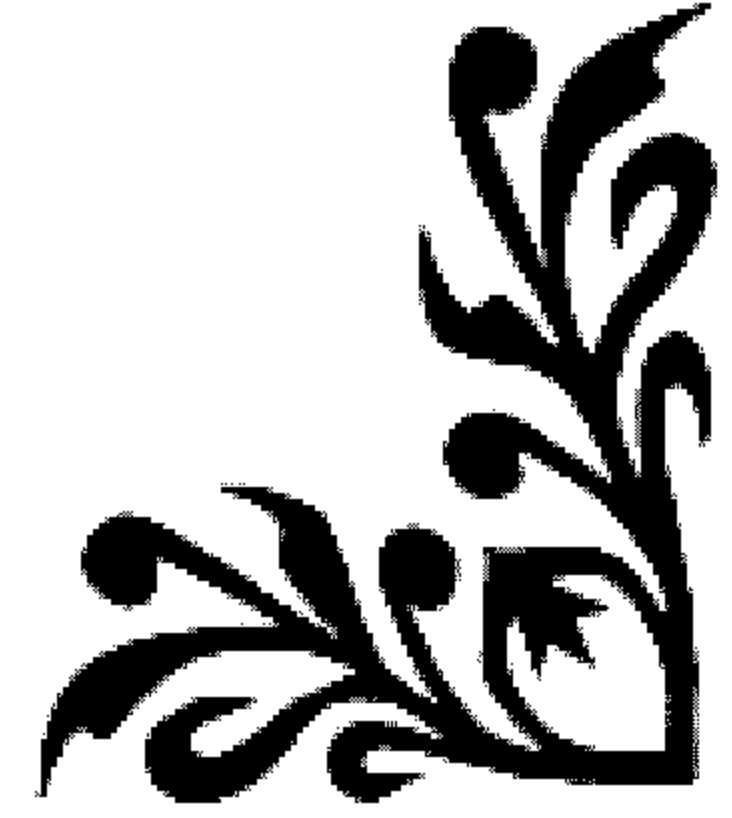
١٦. محمد بن عمران المرزباني، المقتبس، تحقيق فرانس شتاير، معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية، فرانكفورت ١٩٩٠م.
١٧. محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، البلغة في تراجم أهل اللغة، دار سعد الدين، دمشق، ٢٠٠٠م.
١٨. محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٧م.
١٩. أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تهذيب اللغة، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠١م.
٢٠. ياقوت الحموي، كتاب معجم الأدباء، دار إحياء التراث، بيروت.



**حول نسبة منظومة نحوية للخليل
ابن أحمد الفراهيديّ**

١٩٨٥

د. عمر عبد الرحمن الساريسيّ
جامعة الزرقاء الأهلية - الأردن



حول نسبة منظومة نحوية للخليل بن أحمد الفراهيدي

د. عمر عبد الرحمن الساريسي

الخلاصة:

حينما وقفت، لأول مرة، على الكتاب الذي أعده الدكتور أحمد عفيفي، في عُمان، عام ١٩٩٥م، وعرض فيه للمخطوطة النحوية المنسوبة للخليل بن أحمد الفراهيدي، استغربت الأمر. فنحن لم نقرأ عن الخليل أنه كان لديه فراغ من الوقت لينظم نحواً من ثلاثمائة بيت في شرح موضوعات النحو. ولم يذكر ذلك ممن ترجم له سوى راوية عُرِف عنه نظم الشعر ونحله للأخريين.

وإزداد الشك لدي حينما لم يستطع محقق هذه المخطوطة أن يقنع أحداً بما بدا أنه مقتنع به، من أمر هذه النسبة. فالأعلام والمصطلحات النحوية الواردة فيها غير كافية لإثبات ذلك.

ثم إنه لم يبد أنه راعى أصول التحقيق العلمية في نشر كتب التراث في تحقيقه لهذا الكتاب. كذلك فإن في هذه المخطوطة ركافة وصياغات لغوية لا تتناسب ومستوى الخليل في الكتابة ولا تتناسب مع عصره. والخط الذي كتبت به هذه المخطوطة لا يتناسب مع عصره أيضاً.

لهذا كله، يغلب الباحث أن هذه المخطوطة قد وضعت أبياتها في عصر تأخر كثيراً عن عصر الخليل بن أحمد الفراهيدي.

كيف صرت إلى هذه المنظومة:

رغبت إلى بعض طالباتي العُمانيات، اللواتي يدرسن في كلية الدراسات الإسلامية والعربية في دبي، أن يرسلن لي ما يمكن أن تصل إليه أيديهن، مما كتب عن الخليل بن أحمد الفراهيدي في عُمان، فقد ذكرت بعض الروايات أنه ولد في بعض أنحاءها، وذلك كي استكمل ما يمكن أن يُسعف، في بحث كنت أعده عن شعره، بعد عودتي إلى جامعة الزرقاء الأهلية، من العمل في الخليج. فأرسلت إلي الطالبة

المهذبة حنان سيف العجمي أوراقاً بهذا الخصوص، منها أجزاء مصورة من كتاب صادر هناك، عن منظومة نحوية منسوبة إلى الخليل، تقترب من الثلاثمائة بيت! والحق أنني فوجئت بهذا الكتاب. فلئن ثبتت نسبته إليه فسوف يكون إضافة نوعية إلى إبداعات هذا الرجل العبقري، ولكن عصره لم يكن عصر النظم التعليمي أو عصر الألفيات النحوية.

ولما كان الكتاب لم يصلني مصوراً بكامله، رغبت إلى صديقي إبراهيم الجراح وزميلي في العمل في وزارة التربية والتعليم الأردنية، أن يعمل على أن يصلني الكتاب كاملاً. فقد عمل في عُمان نحو عقد من الزمان في الإشراف التربوي، فأرسل إلى ولده عامر، وهو يعمل هناك، فسارع في إرساله مع أقرب بريد بشري قادم إلى عمان. فالشكر إليه وإلى أبيه وإلى الطالبة حنان موصول وموفور.

الكتاب والتحقيق:

لقد قام الأستاذ الدكتور أحمد العفيفي، أستاذ النحو والصرف والعروض بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة، بتحقيق القصيدة المنسوبة للخليل بن أحمد. وأصدر المنتدى الأدبي التابع لوزارة التراث القومي والثقافة في سلطنة عُمان هذا التحقيق في كتاب بعنوان: "المنظومة النحوية للخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠-١٧٥) دراسة وتحقيق". الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م. وقد ألقى فيه من قبل محاضرة ثقافية مساء يوم الثلاثاء: ٢٠ / ٦ / ١٩٩٥م ضمن فعاليات المنتدى الأدبي وقد وقع الكتاب في ٢٢٣ صفحة.

وقد قسم الكتاب قسمين أساسيين: الأول الدراسة والآخر التحقيق. وقد جاء تحت القسم الأول الفصول التالية:

(١) الخليل وشخصيته.

(٢) المنظومة.

(٣) مصطلحات الخليل.

(٣) (مكرر) الخليل مصدر المصطلحات النحوية.

(٤) الأعلام الواردة بين التمثيل والحقيقة.

(٥) عناوين الخليل في المنظومة
 (٦) قضايا نحوية للمناقشة، منها مثلاً: أمس بين الإعراب والبناء، حتى وعملها،
 النداء المضاف، قط، قد، حسب، كفى.

(٧) الأمثلة والنماذج التطبيقية.

(٨) نتائج الدراسة.

وفي القسم الثاني: وصف نسخ المخطوطة، وصورها، ومنهج التحقيق. وقد
 وقع النص المحقق في ٢٩٣ بيتاً من البحر الكامل، ومطلعه:

الحمد لله الحميد بمنه أولى وأفضل ما ابتدأت وأوجب

وأخره:

واستغن أنت ببعضه عن بعضه وصن الذي علمت لا يتشذب

خطة البحث:

وقد يرى الباحث أن عزو هذه المنظومة النحوية للخليل بن أحمد الفراهيدي
 يمكن أن يتساءل عنه بطريقتين أولهما عام نناقش فيه أموراً أساسية هامة، وثانيهما
 خاص، نحاور فيه المحقق وننظر في منهجه في التحقيق، ثم نقلب صفحات
 المنظومة وننظر فيها من الداخل، وفي الخط الذي كتبت به. وذلك كي نصل في
 النهاية إلى رأي علمي يمكن أن يوصل إلى إجابة مناسبة عن هذه التساؤلات.

مناقشة عامة:

وأول ما نتساءل عنه في أمر هذه النسبة هو تاريخها، وأعني ذكرها في
 المراجع منذ عصر الخليل، المتوفى عام ١٧٠هـ.

ويعرف الباحثون في حياة هذا الرجل وإبداعاته أن الكتب التي ترجمت له لم
 تذكر هذه المنظومة فيها*.

وهذا أمر يلفت الانتباه، فمؤلفو كتب الطبقات والتراجم لم ينكروا هذه
 القصيدة النحوية في إبداعات الخليل، منذ القرن الثاني والثالث الهجريين إلى
 القرون المتأخرة.

والاستثناء الوحيد من هذه المصنّفات كتاب حَقَّق قبل عدة عقود لخلف الأحمر، وهو "مقدمة في النحو".

ففي عام ١٩٦١م حَقَّق عز الدين التتوخي (عضو المجمع العلمي العربي في دمشق)، هذا الكتاب ونشرته مديرية إحياء التراث القديم في وزارة الثقافة السورية. وفي باب حروف النسق (العطف) يرد في هذا المصنّف وعلى الصفحة ٨٥، قول المصنّف: "وحروف النسق خمسة، وتسمى حروف العطف، وقد ذكرها الخليل بن أحمد في قصيدته في النحو، وهي قول الشاعر (كذا):

فانسق وصل بالواو قولك كله وبلا وثم أو ، فليست تصعب
إلقاء ناسقةً لذاك عندنا وسبيلها رحب المذاهب مشعب"

وهنا تنشأ عندنا أسئلة نفكر فيها بصوت عال.

فخلف بن عياد الأحمر، المتوفى عام ١٨٠هـ، أي بعد وفاة الخليل بعشر سنوات، وهو بصري معاصر له، قد قيل فيه ما قيل، "من أنه يصنع الشعر وينسبه إلى العرب فلا يعرف"^(١). وهذا أمر لا ندحة عنه في مدى الثقة بروايته، على الرغم من أنه قيل عنه فيما بعد أنه "نسك وكان يختم القرآن كل يوم وليلة... فلما نسك خرج إلى أهل الكوفة يعرفهم الأشعار التي أدخلها في أشعار الناس"^(٢).

ومما يقوي الشك في هذه النسبة للخليل أنها الوحيدة منذ نهاية القرن الثاني الهجري حتى عام ١٩٩٥م ميلادية الذي حَقَّق فيه هذا الكتاب، فالنحاة لا ينكرون أن له (للخليل) قصيدة في النحو، كما يقول محقق كتاب "مقدمة في النحو لخلف الأحمر" نفسه^(٣).

ويعلق هذا المحقق على قول خلف في النص المذكور: "وهي قول الشاعر" قبل إيراد البيتين السابقين فيقول: "وصواب التعبير أن يقال" وهي قوله "لعودة الضمير على متقدم. ولعله أراد أن يشير إلى أن الخليل كان شاعراً، وكان بالفعل شاعراً"^(٤). أقول إنه وإن كان قول المحقق صحيحاً إلا أن حرفية النص تشتت الذهن فيتنازعه شاعران أحدهما الخليل.

ولا أدري إن كان يحق لي أن أفصح عن إحساس خافت آخر يخالج النفس، في هذا الصدد، وهو عنوان هذا الكتاب الذي توفي مؤلفه في نهايات القرن الثاني الهجري "مقدمة في النحو"، ألا يبدو عنواناً معاصراً؟ وهل سمعنا بكتاب في العصور السحيقة يحمل اسم مقدمة؟ أما مقدمة ابن خلدون المتوفى (٨٠٨هـ) فقد أطلقت، فيما بعد، على كتابه الشهير في التاريخ: كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر^(٥).

أما التساؤل العام الآخر عن هذه المخطوطة وأمر نسبتها للخليل، فهو البون الشاسع بين زمن الزعم بقيام الخليل بنظمها وبين زمن النظم التعليمي في مادة النحو. إن أقدم أثر روي في هذا الباب، في حدود ما أعلم، هو ألفية ابن معطي الذي ذكره ابن مالك الأندلسي (٦٧٢هـ) في ألفيته:

وتقتضي رضا بغير سخط

جائزة ألفية بن معطي

وهو يسبق حائز تفضيلاً

مستوجب ثنائي الجميلاً^(٦)

و ابن معطي هذا توفي عام (٦٢٨هـ).

يقول أحد الباحثين عن ابن مالك: "ولم ينتفع من جاء بعده بأن يحاكوه أو يدعوا أنهم يزيدون عليه وينتصفون منه. ولو لم يشر في خطبته إلى ألفية ابن معطي (٦٢٧) لما ذكره الناس ولا عرفوه"^(٧).

ومع ذلك يذكر محقق ألفية ابن معطي بعض الأسماء الصغيرة في هذا الصدد، مثل: شعبان بن محمد بن داود المصري (٨٢٨هـ)، في منظومته "كفاية الغلام في إعراب الكلام"، وعبد العزيز اللمطي المكناسي الميموني (٨٨٠هـ) فيما سمي بألفية النحو، وكذلك السيوطي (٩١١هـ) في ألفيته^(٨).

وإذا قيل إن عصر الخليل قريب من نظم تعليمي مشهور آخر هو نظم أبان اللاحقي (٢٠٠هـ) لحكايات كليلة ودمنة^(٩)، قلنا إن هذا النظم مختلف في مادته عن مثل هذه المخطوطة. فهي في مادة الأدب والقصة على أسنة الحيوان، والمنظومة التي ندرسها في علمي النحو والصرف، وهو الذي نرى أنه تأخر زمن نظم الألفيات التعليمية فيه.

ومما يقوي في أنفسنا أمر هذا التساؤل، تساؤل أعمق، تمليه قضية فلسفية فطرية ولا تكاد تغيب عن ذهن، هو الزمن اللازم لتطور أي موضوع فكري، بين تاريخ بدايته وتواريخ بلوغه عصر الإبداع والإنتاج الجديد في أشكاله وأوانه.

ففي عصر الخليل قعدت أولى القواعد النحوية والصرفية في عصر الخلفاء الراشدين والقرن الثاني الهجري، على يد الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأيدي بعض الصحابة المخضرمين من أمثال: أبي الأسود الدؤلي ورجاله الذين بدأوا في بناء أساسيات النحو وعلته. وسينقضي زمن طويل حتى يثمر هذا الأمر ويونع ويصل إلى مرحلة الترف الفكري ونظم النحو في قصائد وألغيات، أم أن الخليل بن أحمد قد قدر له أن تأتي على يديه البدايات في هذا الأمر والنهيات؟ يضع أسس النحو وعلته ويفيد منها تلميذه سيبويه في كتابه، وفي العمر نفسه يكون لديه وقت فراغ يتفرغ فيه إلى نظم قصيدة في النحو تقترب من الثلاثمائة بيت؟ فإن قيل ألم يأت على يديه، بهذا الوصف، علم العروض الذي جاء مكتملاً تقريباً؟ قلنا إن بين الأمرين فرقاً كبيراً، فعلم العروض لا يقسم، كما أن المراجع التي فيها أخبار الخليل قد تواتر القول فيها على نسبة العروض للخليل.

إن عصر الخليل هو عصر الإبداع، أما عصر وضع القصائد الطويلة في النحو والألغيات والتجميع في الموسوعات فقد تأخر كثيراً.

حول أسباب نسبة المنظومة للخليل:

إن الدكتور أحمد عفيفي قد اعتمد أموراً معينة، فعدها عوامل مساعدة في هذه النسبة، وسنعرض لها ولمدى الثقة بها في أمر هذه النسبة.

وأول ما لفت انتباهه في هذا الصدد نسبة بيتين فيه للخليل في كتاب لمصنف معاصر له، هو خلف الأحمر، وقد ناقشنا هذا الأمر في ضوء ما عرف عن هذا الراوية من عدم الأمانة العلمية.

وأعان الدكتور المحقق أمران آخران على ما يرى، وهما المصطلحات النحوية الواردة فيها، والأعلام الذين ساق أسماءهم فيها.

أما المصطلحات فمثل الصفة والرفع والجر والنصب والجزم وما لم يُسمَ فاعله. وبسبب تناثر مثل هذه المصطلحات في هذه المنظومة يحكم بنسبتها للخليل (ص ٥٥-٨٧)، الذي عرف أنه رأس مدرسة البصرة في النحويين، ومعلم الكسائي في رأس مدرسة الكوفيين أيضاً، ولا أدري إذا كان مثل هذا الأمر يقوي هذه النسبة، إذ كانت المصطلحات النحوية والصرفية مشاعاً يستخدمها الباحثون في موضوعاتها منذ أن عرفت، وفي كل زمان ومكان؟!

أما الأعلام التي ذكرت في هذه المخطوطة (ص ٩٢ وما بعدها) ومدى ما يمكن أن ترخي عليها من الأقدمية، فإن المدقق لا يكاد يجد من هذه الأسماء، مثل عبد السلام وغيره، ما يستحق أن يكون دليلاً على ذلك. فبعضها قد يطلق على أناس يولدون في عصرنا الحاضر مثل شوزب ومرحب وحوشب، ومنها ما يمكن أن يسمع في بعض أطراف الخليج العربي وحضرموت. والاسم الوحيد الذي يمكن أن يوقف عنده في هذا المجال هو اسم قطرب^(١١)، فهو مذكور من بين النحويين القائلين بنصب التاء إذا كانت ضمير رفع اتصلت بالفعل الماضي.

فنصبت لما أن أتت أصلية وكذلك ينصبها أخونا قطرب

ومن المعروف أن قطرب هذا لم يكن من تلاميذ الخليل، بل من تلاميذ تلاميذه، وهو سيبويه. وقد توفي بعده بأكثر من ثلاثين عاماً (عام ٢٠٦هـ)^(١١). فكيف يكون قطرب أماً للخليل وبينهما هذه السنون الطويلة؟ ولا يجري على لسان الخليل تلاميذه الأدنون مثل سيبويه والنضر بن الشميل وغيرهما؟ أغلب ظني أن ناظم هذه المخطوطة قد أورد هذا الاسم للتعمية والتدليس، وقد أسعفته القافية على ذلك، وعبارة "أخونا قطرب" ربما تشي بذلك، لما فيها من لهجة شعبية، لا ترقى إلى لغة الخليل. ويخالج النفس خاطر خافت آخر، على طريق الأعلام الواردة في المخطوطة، ما دام ذكرها يعني شيئاً. وهو السؤال عن دلالة ورود اسم زيد سبع عشرة مرة في المخطوطة، وورود اسم عمرو ثلاث عشرة مرة فيها؟^(١٢) أليس استخدام المشتغلين في النحو لاسم زيد وعمرو متأخراً عن عصر الخليل؟

وثمة أمر ثالث نرى أن المؤلف يخرج به من استقراء أبيات المخطوطة بما لا يخدم هدفه، وهو التدخل في الأمور الشخصية للخليل؛ فهو يرى أن أسماء نساء قد ورد في المخطوطة، فسمّى ذلك غزلاً، وإنما أراد صاحب المنظومة أن يضرب أمثلة نحوية من أسماء النساء.

فوجد أن الأمر يتعارض مع ما عرف عن الخليل من زهد ونسك والتزام بيت. فقضى بأن هذه الأخبار عن الخليل غير دقيقة، والأدق منها هذا الغزل الذي يبدو في المخطوطة، ذلك أن "حياة الخليل"، كما يلوح له، "كان له شقان: الأول كان الخليل فيه شاباً... وربما كتب بعض غزلياته... والثاني وفيه كان زاهداً..."^(١٣).

إن اسم المرأة قد ورد في شعر أكثر شعراء الجاهلية والإسلام، ولم يكن ليكفي وحده أن يذكر أن صاحبه قد كان يتغزل. أما ما ذكره على صفحتي ٤٦، ٤٧ من الأمور التي أعانته على صحة نسبة المخطوطة للخليل فهي تدخل، في نظرنا، في نطاق منهجه في التحقيق.

وبعد، فلا أدري إذا كانت هذه المؤشرات كافية لاستنتاج علاقة هذه المخطوطة بالخليل أم لا؟!

منهج التحقيق:

ويقع الباحث المنقق في منهج الدكتور أحمد عفيفي، في تحقيقه لمخطوطة "المنظومة النحوية"، ونسبها إلى الخليل، على أمور يحسب أنها لا تجري في المجرى السليم لتحقيق المخطوطات:

- فمنها أنه يعثر على عشر نسخ لهذه المخطوطة، لم يجد لها ذكراً أو أصلاً في كتب فهرس المخطوطات المعروفة مثل الفهرست (لابن النديم) أو كشف الظنون (لحاجي خليفة)، أو مفتاح السعادة (لطاش كبرى زاده)، أو معجم المؤلفين (لعمر رضا كحالة)، أو معجم المطبوعات العربية (سركيس)، أو فهرس بروكلمان في تاريخ آداب العرب أو أعمال فؤاد سزكين، أو فهرس مؤسسة آل البيت/ عمّان^(١٤) ذلك أنه عثر عليها منسوخة في مجاميع أخرى هي معها. أما ذكرها وذكر بيتين منها فقط في كتاب لخلف الأحمر فقد بينا ما فيه من ضعف وتمريض.

- وقد عثر عليها جميعاً في مكتبات عُمان العامة، أو التي يملكها بعض المتقنين فيها، وقد وُجِدَت جميعاً في مجاميع، منسوخة مع مخطوطات أخرى (ص ١٤٥)، ولو وجد فيها ناسخوها أو مالكوها قيمة علمية خاصة لأفردت وحدها.

- وليس في متن واحدة منها نسبة صريحة أو غير صريحة للخليل، وإنما النسبة أثبتت له على أيدي الناسخين، في نهاياتها، إلا واحدة فقط ليس فيها أية نسبة. ولم يشك في هذه النسبة إلا ناسخ واحد، أنهى كلامه بقوله: "والله أعلم بصحته" (ص ٤٦).

ويخيل للباحث أن هذا الناسخ يحمل من الشك في هذه المخطوطة وفيمن نسبت إليه قدراً كافياً، كما يبدو من قوله قبل العبارة السابق ذكرها "على حسب الطاقة والإمكان". والغريب أنه يقول قبل ذلك: "تم معروضاً علي: !!! والمعروف أن النسخة التي فرغ ناسخها من نسخها يُذكر عليها أنها عرضت على الأصل فيقال: "بلغ عراضاً على أصله" أو "على الأصل" كما وجدتُ في تحقيقي لمخطوطة "مجمع البلاغة" للراغب الأصفهاني.

كما أن الباحث لم يجد في متون هذه المنظومة أو حول متونها نسبة للخليل؛ كذلك لم نجد عليها ما يفيد بشيء حول طرق التحمل الأخرى: كالإجازة أو الإملاء مثلاً، أو السماع أو الوجدادة. فليس عليها ما يفيد بأن المؤلف أجاز أحد تلاميذه بنسخها ونقلها وروايتها، أو أنه أملاها على أحد في زمان أو مكان، أو أن أحداً سمعها من المؤلف، أو أنه وجد عليها، في الأصل، ما يفيد بصلتها بالمؤلف.

وتسلسل المراجع المختصة طرق تحمل الحديث النبوي الشريف أولاً وأساليب نقل العلم والتعليم في سائر العلوم ثانياً، بما يلي، بدأ بالأهم (١) السماع (٢) القراءة على الشيخ (٣) الإجازة (٤) المناولة (٥) المكاتب (٦) السماع دون الإذن بالرواية (٧) الوصية (٨) الوجدادة^(٩).

- وكما أننا لم نجد عليها ما يفيد بقدمها أو عراقتها، كذلك وجدنا عليها تواريخ نسخ حديثة. فمنها ما نسخ عام ١٢٧٧هـ (ص ١٥١) ومنها ما نسخ عام ١١٤١هـ (ص ١٥١) أو عام ١١١٧هـ. وليس على غيرها تواريخ نسخ قط.

- ومن الغريب أن المحقق يعتمد في صحة نسبة المخطوطة للخليل، من بين ما ذكر سابقاً، على مرجع مطبوع حديث نشر عام ١٩٩٢م!! اسمه "إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عُمان"، سيف بن حمود بن حامد البطاشي، ط١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م، عُمان!! (راجع ص ٤٩).

- ومن الغريب، أيضاً، أن المؤلف يعتمد، في الحديث عن تحقيق هذا النص ونسبته، على كتب بعيدة عن مراجع أصول تحقيق المخطوطات ونشرها، مثل مناهج البحث في العلوم الاجتماعية والتربوية، ومناهج البحث في التربية وعلم النفس. (راجع هامش ص ٣٧).

- بل الأغرب أن يعتمد المؤلف على مرجع لم يظهر بعد!! فهو في هامش ص ١٦. يقول: "موضوع المنظومات النحوية تاريخها وأهميتها العلمية" محور لبحث ما زلت أجمع خيوطه وأعمل فيه ولم أنته منه بعد"!!! أقول إنه بحث جليل حقاً لو تم وطبع ونشر.

- ولقد اعتمد مرة على معجم العين المنسوب للخليل، ليقوي نسبة المنظومة له. وهذا أسلوب علمي متبع في ربط مصنفات المصنف الواحد، بعضها ببعض من الدخل. ولكن الشك في نسبة معجم العين للخليل، كما طبع ونشر، أمر ليس سهلاً نفيه^(١٦).
- وتبقى النقطة الأخيرة مقلقة أكثر، ألا وهي اعتماد النسخة الأم. إن المؤلف يذكر أنه اتخذ إحدى النسخ العشر للمنظومة النسخة الأساس أو النسخة الأم، للأسباب التالية (ص ١٤٧):

- (١) كان الناسخ حريصاً على ضبطها ضبطاً صحيحاً إلى حد كبير.
- (٢) جودة خطها وعدم التباس كلماتها أو غموض حروفها إلا في القليل النادر.
- (٣) من الواضح أن الناسخ كان أميناً مع نفسه، فقد كان حريصاً دائماً في هذا المجموع الذي جاء كله بخط واحد.

إن هذه الاعتبارات جميعها لا تقوم في أسس التحقيق العلمي لكتب التراث. وإنما الذي يحسب له حساب في النسخة الأصلية هو :
أ. أن يكتبها المؤلف نفسه وعليها توقيع.

- ب. أن يشير بكتابتها.
ج. أن يملئها أو أن يجيزها.
د. أن يكون عليها ما يفيد اطلاعه على نسختها أو قراءته لها^(١٧). وهذه هي طرق التحمل الصحيحة.

المنظومة من الداخل:

ولدى الناظر في هذه المنظومة من الداخل، بعد أن تسرب إلينا الشك فيها من الخارج، نستوقفنا ثلاث طوائف من الملاحظات التي تلفت الانتباه وتثير الاستغراب.

فأما الأولى فتتصل بصياغة التراكيب صياغة تبدو فيها الركاكة، التي تتنافى مع قوة النسيج الفني في النثر، أواخر القرن الثاني الهجري - عصر الخليل.
- ففي البيت (٢٦) يقول: "فيظل يسخر من كلامك معرب"، فهو قريب من الصياغة العامية.

- وفي البيت (١٩٦) "يرجع سليما غانما لا يغلب"، وهذه صياغة شعبية.

- وفي البيت (١٩) "واستعجم الناس الذي من مثلهم" والصواب الذين.

- وفي البيت الثالث - وعلى النبي محمد من ربه أزكى صلاة - وهو تعبير شعبي.

- وعن المنظومة يقول ناظمها في البيت الرابع: "إني نظمت قصيدة حبرتها" - وهل يلزم للنظم تحبير؟ ألا يكفي أحدهما؟

- ويريد أن يمدحها فيقول "عربية" لا عيب في أبياتها" (البيت السادس) - وماذا ستكون إن لم تكن عربية؟! وهل ثمة شك في عربيتها؟

- وهم "يتعجبون من الصواب ركاكة" (البيت ١٣) - وماذا عنى بركاكة؟

- "وحروف خفض الجر" (البيت ٣٢) - أليس الخفض هو الجر؟ فكيف نضيف الشيء إلى نفسه؟

- "وحروف رفع النحو" (البيت ٥١)، وهل ثمة حروف رفع الصرف؟

- "ومضى الصحابة قبل" (البيت ١٨) أليست قبل "حشوا؟

وأما الثانية ففي صياغتها غموض حيناً واستغراب حيناً آخر.

- فقله أثرت في العمارة أرنب (البيت ١٤٧) - كيف نتصوره؟

- وقوله عن القرآن الكريم في البيت (١٧):

لا لحن فيه، فمن تلاه لاحقاً عمداً فذاك على التلاوة يكذب

وهل كثير أن تقول عن القرآن الكريم أنه لا لحن فيه؟! فأين الفضل في هذا الكلام؟

- وعن لغة النبي يقول في البيت (١٥) أنها "من كل ما لغة أصح وأصوب" فكيف

أقمت "ما" بين المتضايقين؟ بهذا الاستعمال الثقيل؟

- وفي البيت ١٨٧ يفاضل الناظم بين هيؤ وأتقن فيقول:

"أهيا وأتقن في الكلام وأوزن"، والتفاضل منهما بصيغة ما أفعل.

وأما الثالثة ففي بعض تراكيبها وجملها ما يدل على مواضع اجتماعية

حديثة ومعاصرة. فهو في البيت ٢٤ يستخدم كلمة "طبيخ" وأحسب أنها عامية

معاصرة، وفي البيتين ٢٢، ٢٣ يروي قصة الثعلب الذي رام عنقوداً من العنب،

فلما أعباه قال هذا حصرم! حتى لو كانت القصة مبنوثة في بعض كتب التراث، إلا

أنها لا ترقى إلى نهايات القرن الثاني الهجري.

وربما يكون من هذا القبيل تكرار اسم زيد واسم عمرو، أكثر من عشر

مرات في المنظومة. ولا أحسب هذا الأمر إلا مستحدثاً في الإكثار من الأمثلة

النحوية حتى الملل، أو هو على الأقل متأخر عن عصر الخليل. ويلحق بها المثال

النحوي المكرر كثيراً "أكلت الحوت حتى رأسه" (البيت ١٣٧).

وفي النفس أمر آخر يأتي، هذه المرة، من الوزن العروضي لهذه القصيدة.

فالذي أعرفه أن هذه القصائد الطويلة المنظومة أو الألفيات إنما تنظم من وزن بحر

الرجز، وبقواف وروي متجددين في كل شطرين متقابلين في العروض والضرب. وقد

مثّلنا على ذلك بأربعة أشطار من هذا الرجز من ألفية ابن مالك وهو يشير لألفية ابن

معطي، التي أحسبها هي أيضاً من وزن البحر نفسه. حتى إن أرجوزة الأمثال التي

نظمها أبو العتاهية في الحكمة هي أيضاً كذلك. فكيف انفردت منظومتنا المنسوبة

للخليل بوزن البحر الكامل بروي وقافية ثابتين في جميع الأبيات؟

إن النظر في المنظومة من الداخل يزيد الشك لدينا في أمر نسبتها للخليل.

الخط:

ومن قبيل النظر في المخطوطة من الداخل معرفة الخط الذي كتبت به. ومن الاطلاع على نماذج المخطوطات العشر، التي عرضها المحقق في الكتاب فيما بين صفحتي ١٦٥ - ١٧٦، يجد الباحث أنها كتبت جميعاً بخط النسخ المقروء بسهولة ووضوح وجمال. وقد كتبت جميع أبيات هذه النماذج كتابة شعرية واضحة، كل بيت شعري في سطر مستقل، وبين صدره وعجزه فاصل واضح. وقد شكلت الكلمات شكلاً تاماً بمختلف الحركات، في كل صفحات النماذج المعروضة.

ولدى التدقيق في هذا الوصف يرى الباحث، الذي عرف طريق تحقيق كتب التراث وخبر معاناته، أن هذا الخط حديث، لا يرقى إلى نهايات القرن الثاني الهجري. ولما كانت معرفة تاريخ الخط تعين على تحديد نسخ الكتاب ومكانه، كما يقول برجستار^(١٨)، "ولما كان لكل عصر نهج خاص في الخط ونظام كتابته" كما يقول الأستاذ عبد السلام هارون^(١٩)، فإننا نشك في هذا الخط النسخي، لأن "الغالب على خط أهل القرون الثلاثة الأولى هو الخط الكوفي، كما يقول هو نفسه في موضع آخر^(٢٠)، و"لأن الخط القديم يهمل النقط والإعجام" كما يقول في موضع ثالث^(٢١).

فمن المعروف أن القرآن الكريم قد أخذ يكتب منذ تنزله بخط أقرب ما يكون لما عرف فيما بعد بالخط الكوفي. وهو خط مطور عن الخط الآرامي، الذي أخذه عرب شمال الجزيرة قبيل بعثة الرسول، عليه السلام، من أهل الشام، في تنقلاتهم التجارية. وقد ظلت الكتابة بوجه عام بهذا الخط الجاف ذي الزوايا نحواً من ثلاثة قرون، حتى غلب عليه خط النسخ، وهو ابتكار سوري شمالي حذقه الشاميون الشماليون، على يد الوزير العباسي ابن مقلة. أما سبب تسميته بالكوفي، قبل أن يظهر خط النسخ، فهو أن الكوفة كانت مركز تجويد وافتتان^(٢٢).

أما النقط، أو ما عرف ويعرف بوضع النقط على الحروف، فلم يجد طريقه إلى المخطوطات القديمة، التي كتبت في هذه القرون الثلاثة الأولى، وذلك بعد أن عرف خط النسخ وكذلك الإعجام، وهو إزالة العجمة والغموض والغفل من

الحركات. فقد عرف في خط النسخ، فعرفت الحركات الثمانية (الفتحة والضمة والكسرة ... إلخ)، بعد القرن الثالث والرابع الهجريين. فقد حققتُ مخطوطة كبيرة للراغب الأصفهاني، الذي عاش إلى أوائل القرن الخامس الهجري (٤١٥) تقريباً باسم "مجمع البلاغة"، ثم حققتُ، بفضل الله تعالى، أربع رسائل مخطوطة صغيرة للمصنّف نفسه، دون أن أجد في أيّ منها نقطاً وإعجاماً، كالذي وجدته في الصفحات المضروبة مثلاً للمنظومة المنسوبة للخليل.

من هذا كله يرى الباحث أن الخط الذي كتبت به نسخ المنظومة العشر (المنسوبة للخليل بن أحمد) يشك فيها جميعاً وفي نسبتها هذه. وذلك لما وجد فيها من ركاكة في صياغة التراكيب وخرابة وتّعقيد ومعاصرة في بعض المعاني والألفاظ، ولما روي حول الخط الذي كتبت به.

وهنا يتضاعف لدينا الشك في علاقة الخليل بهذه المنظومة ويتأكد.

شك سابق:

إن الشك في أمر هذه المنظومة وأمر نسبتها للخليل بن أحمد لم يصدر أول مرة مني، ولكن سبقني إليها غير واحد.

ولعل أول من شك فيها أحد النساخ لإحدى النسخ. وذلك في قوله "والله أعلم بصحته". كما يبدو من صورة إحدى صفحات هذه النسخة ص ١٦٦. ففي هذه العبارة من التمرّيض ما فيها.

أما الثاني فهو الأستاذ عزّ الدين التّوخي، عضو المجمع العلمي العربيّ بدمشق، في تحقيقه لكتاب "مقدمة في النحو"، من تأليف خلف الأحمر. فهو يقول في هامش ص ٢٨٦ عن هذه المنظومة، "إن صحت نسبتها". وفي هذا التعبير شك كافٍ وعدم اطمئنان، وإن ذهب في أثناء هذا الهامش بفكر في احتمالات إثباتها.

أما الثالث، فهو الأستاذ الدكتور إبراهيم السامرائي، رحمه الله، فهو يقطع الشك، ولا يكتفي به، حينما يقول: "ولا أراها تصح". ولم يكن شكّه في نسبة الأبيات للخليل فحسب، ولكن في وجودها أصلاً. فهو يقول في كتابه "المدارس النحوية، أسطورة وواقع"، عمان، ط ١، ١٩٨٧م، ص ١٣٥، ١٣٦: "وإذا صحت هذه الأبيات،

ولا أراها تصح...".

وحسبك بهذا الأستاذ الباحث المدقق في اللغة وعلومها ثقة وعلماً.

وفي الختام:

وفي الختام يحسب الباحث أنه قد أشار إلى عوامل الشك في أمر نسبة هذه المنظومة للخليل بن أحمد الفراهيدي بالتدرج. فقد كانت البداية فقداً ذكرها في قائمة إبداعات "عقري العرب"^(٢٣)، إلا على لسان راوية قد عرف عنه نحل الشعر لغيره بعد أن يقوم بنظمه. ثم كانت الإشارة إلى بعد المسافة الزمنية بين زمن الإبداع الخليلي وعصره وعصر تجميع مواد الموسوعات والقيام بنظم القصائد والألفيات في بعض الموضوعات الخاصة.

ثم إننا قد رأينا ضعف محاولة نسبة هذه المخطوطة للخليل من خارجها، من خلال أعلامها ومصطلحاتها، ومن داخلها في ركافة تراكيبيها اللغوية وخرابتها وهلهتها، وفي منهج تحقيقها والخط الذي كتبت به، مما دلّ، في النهاية، على نهاوي تعليقها بالخليل ونسبتها إليه.

وهكذا يخيل للباحث المدقق أن نحويًا عُمانياً غيوراً من أهل القرون الثلاثة الأخيرة، في زماننا، قد استهوته رواية مولد الخليل في بعض أنحاء سلطنة عمان، فهب محاولاً إثبات هذا الأمر، فنظم نحواً من ثلاثمائة بيت، يشرح فيها بعض القضايا النحوية، وينسبها له، ثم تناسخ الناسخون هذه النسبة للخليل بن أحمد، وسموه العروضي أو الخروصي في بعض النسخ، دون التنبيه إلى أنها فاقدة الجذور التاريخية والسوق والأغصان البنائية القوية.

الحواشي.

* تجد ترجمته في:

- ١- الفهرست، ابن النديم، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٣٤٨هـ، ص ٤٢.
 - ٢- معجم الأنباء، ياقوت، دار الفكر للطباعة والنشر، ط ٣، ١٩٨٠م، ج ٤، ص ١٨، ج ١٦، ص ٧٢.
 - ٣- وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر- بيروت، ١٩٦٩م، ج ١، ص ١٧٢.
 - ٤- إنباه الرواة في طبقات النحاة، ابن القفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، ١٩٥٧م، ج ١، ص ٣٤١.
 - ٥- مراتب النحويين، أبو الطيب اللغوي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة نهضة مصر، ١٩٥٥م.
 - ٦- طبقات النحويين واللغويين، أبو بكر الزبيدي، دار المعارف، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ص ٤٧.
 - ٧- بغية الوعاة في أخبار النحاة، السيوطي، مطبعة السعادة، ١٣٢٦هـ.
 - ٨- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، العماد الحنبلي، ج ١، ص ٢٣٥.
 - ٩- طبقات الشعراء، ابن المعتز، تحقيق: عبد الستار فراج، دار المعارف، ١٩٢٨م، ص ٩٦.
 - ١٠- المزهر، السيوطي، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى وزميليه، ط ٤، ص ١٩٥٨م، ج ١، ص ٤٠١. وقد ذكرت بعض أشعاره في مراجع أخرى منها:
- ١- نزهة الجليس، ومنية الأنيب الأنيب للموسوي، طبع مصر ١٢٩٣هـ، ج ١، ص ٨٠.
 - ٢- شرح المقامات الحريرية، الشريشي، ج ٢، ص ٢٤٦.
 - ٣- الجاسوس على القاموس، أحمد فارس الشدياق، ص ٢٢.
 - ٤- الفلاحة والمفلوكون، النلجي، ص ٩٣، ص ٩٤.
- (١) الوافي بالوفيات، الصفدي، ج ١٢، ص ٣٥٣. الأعلام، الزركلي.
 - (٢) المصدر السابق، ص ٨٦.
 - (٣) المصدر السابق والصفحة.
 - (٤) المصدر السابق والصفحة.
 - (٥) طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٤، ١٩٧٨م.
 - (٦) محمد محيي الدين عبد الحميد، محقق شرح ابن عقيل (٧٦٩) على ألفية ابن مالك (٦٧٢هـ). المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥م، ج ١، ص ١٠.

- (٧) شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي، ج ٥، ص ١٢٩. بغية الوعاة، ص ٤١٦.
- (٨) شرح ألفية ابن معطي، تحقيق: د. علي موسى الشوملي، ج ١، ص ٦٦....
- (٩) راجع الأغاني، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، ج ٢٠، ص ٧٣، وكذلك طبقات الشعراء لابن المعتز، تحقيق: عبد الستار فراج، دار المعارف، ص ٢٤١.
- (١٠) ص ٩٦ من الكتاب المحقق.
- (١١) وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٣١٢.
- (١٢) راجع هامش ص ١٠٧ من الكتاب.
- (١٣) ص ٣١ من الكتاب.
- (١٤) التوثيق، د. عبد المجيد عابدين، بغداد، ١٩٨٢م، ص ٣٨.
- (١٥) مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث، دار الحكمة، دمشق، ١٩٧٢م، ص ٦٢-٨٦.
- (١٦) راجع: المزهرة للسيوطي، ج ١، ص ٨٦-٩٢.
- (١٧) راجع: تحقيق النصوص ونشرها، عبد السلام هارون، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٥م، ص ٣٥-٣٦. وكذلك التوثيق، تاريخه وأدواته، عبد المجيد عابدين، بغداد، ١٩٨٢م، ص ٢٨.
- (١٨) في كتابه "أصول نقد النصوص ونشر الكتب"، وهو في الأصل محاضرات ألقاها هذا المستشرق الألماني، بكلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٣٢م، وترجمها محمد حمدي البكري، ونشرتها دار المريخ الرياض عام ١٩٨٢م، ص ٨٤.
- (١٩) تحقيق النصوص ونشرها ص ٣٨.
- (٢٠) المرجع السابق، ص ٢٥.
- (٢١) المرجع السابق، ص ٣٩.
- (٢٢) قصة الكتابة العربية، إبراهيم جمعة، سلسلة اقرأ، ٥٣، دار المعارف بمصر، ص ٥٦ وما بعدها. كذلك "التوثيق تاريخه وأدواته"، عبد المجيد عابدين، بغداد، ١٩٨٢م، ص ١٤. وكذلك الخط العربي تاريخه وأنواعه، يحيى سلوم العباسي الخطاط، مكتبة النهضة، بغداد، ص ٥٣.
- (٢٣) لقب أطلقه عليه د. يوسف العث، في بحثه المعمق عنه، وقد وضعه أولاً ونشر في سلسلة اقرأ، ثم أضاف عليه وتوسع فيه في طبعة ثانية.

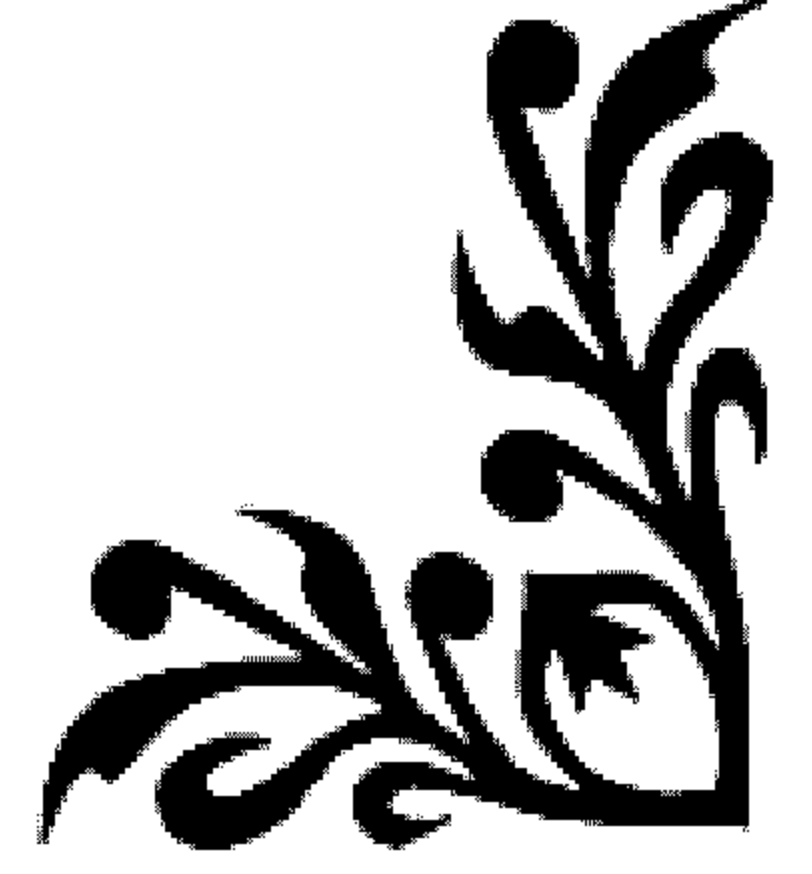
المصادر والمراجع.

- ١- أحمد عفيفي، المنظومة النحوية للخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠-١٧٥) دراسة وتحقيق، ط١، المنتدى الأدبي، وزارة التراث القومي والثقافة، عمان، ١٩٩٥م.
- ٢- أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويين اللغويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف.
- ٣- حاتم الضامن، عشرة شعراء مقلون، جامعة بغداد، ١٩٩٠م.
- ٤- ابن خلكان، وفیات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م.
- ٥- السيوطي، بغية الوعاة في أخبار النحاة، مطبعة السعادة، ١٣٢٦هـ.
- ٦- السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى وزميله، ط٤، ١٩٥٨م.
- ٧- الشريشي، شرح المقامات الحريريّة، المطبعة الخيرية، ١٣٠٦هـ.
- ٨- أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة نهضة مصر، ١٩٥٥م.
- ٩- عبد السلام هارون، تحقيق النصوص ونشرها، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٩٦٥م.
- ١٠- عبد الله بن المعتز، طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار فراج، دار المعارف، ١٩٢٨م.
- ١١- عبد المجيد عابدين، التوثيق تاريخه وأدواته، بغداد، ١٩٨٢م.
- ١٢- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق.
- ١٣- ابن القفطي، إنباه الرواة في طبقات النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، ١٩٥٠م.
- ١٤- ابن النديم، الفهرست، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٣٤٨هـ.
- ١٥- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠م.

الأبعاد اللسانية لنظرية التقلاب الخليية

٢٠٠٤

أ.د. عبد الكريم مجاهد
الجامعة الهاشمية - الأردن



الأبعاد اللسانية لنظرية التقلاب الخليلية

أ.د. عبد الكريم مجاهد

إن فضل الخليل على درس اللساني العربي متعدّد الجوانب، ولا مبالغة في قولنا إن الخليل قد امتلك رؤية لسانية شاملة يتكامل فيها النظر إلى مستويات اللغة العربية أو نُظُمها، ولا يخفى على كل دارس أو باحث دوره البارز في كتاب سيبويه بتأثيره التأسيسي في النظامين النحوي والصرفي العربيين، وكان لمعجم العين بمقدمته في علم الأصوات مساهمة غير مسبوقّة في البحث الصوتي عند العرب، وفي تأسيس نظام معجمي تُبنى فيه الوحدات المعجمية على أسس صوتية وصرفية ودلالية ورياضية تقليبية تكوّن نظرية معجمية يمكن من خلالها إحصاء المفردات وحصر المستعمل منها وإفرازه عن المهمل؛ مما يتلاقى مع الفكر اللساني الحديث عند سوسير وتشومسكي. وفي ورقتي هذه سأحاول قدر المستطاع أن أبيّن الدور الجوهرية للتقلاب في إقامة نظرية الخليل المعجمية.

كان السماع عن العرب ومشافهتهم والرواية عنهم أول مراحل جمع اللغة، بارتحال علماء اللغة وروايتها إلى البادية والإقامة فيها. ودون هؤلاء اللغويون ما جمعوه في قراطيس أو كتيبات أطلق عليها الرسائل اللغوية، ككتب خلق الإنسان والخيل والإبل والحيات والنبات والشجر والنخل والزرع والأنواء والأزمنة والأيام والليالي وأسماء السحاب والرياح والأمطار والمياه والدارات والأودية والجبال والسلاح والسيف والسترج واللجام والدلو والبن والتمر والصفات وغريب القرآن وغريب الحديث^(١).

ويبدو أن الخليل قد أدرك أنّ هذه الرسائل لم تبلغ الغاية في جمع اللغة، وأنها لا تخلو من نقص في استقراء كلام العرب، وأنها لم تتسع حتى تحيط بكلام العرب ومفردات لغتهم، ولا أدلّ على ذلك من قول أبي عمرو بن العلاء أستاذ الخليل: "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله"^(٢). فضلاً عن أن ما تضمنته هذه الرسائل من

ثروة كان مبعثراً ومُفَرَّقاً وموزعاً بين موضوعاتها ، بحيث لا يسهل العثور على ما تحويه من مفردات، وما تتطوي عليه من معانٍ في سياقات استعمالها، وإذا أضفت إلى ذلك ما تتطوي عليه نفس الخليل وعقله من نوازع إلى الكمال والإبداع، فلن تكون هذه الحال للغة موضع رضا أو تسليم منه، بل كان حافظاً له أن يتولى جمع هذا الشتات من كلام العرب المدون وغير المدون في كتاب يجمع بين دفتيه ما تفرَّق من هذا الكلام على صفحات الرسائل، ويستوعب مفردات العربية وشروحيها استيعاباً منظماً يخلو من الإسقاط والإهمال والتكرار كما يقول الدكتور رشاد الحمزاوي^(٣). وقد لخص الدكتور عبد الله درويش^(٤) غاية الخليل ومقاصده فيما أخذ به نفسه فيما بعد في كتاب العين بقوله -أي الدكتور درويش- "قد وضع نصب عينيه تحقيق فكرتين:

الأولى: معالجة جميع مفردات اللغة أو بعبارة أدق جميع موادها وشرحها.

والثانية: وضع ذلك في نظام يؤمن معه التكرار أو فوات بعض المواد".

ولا أتردد في القول بأنه اهتدى - أي الخليل - بإلهام من الله عز وجل، إلى تصميم ما يمكن أن أسميه نظرية معجمية تمكنه من خلال الالتزام بها أن يضع معجماً مختلفاً في نظامه وترتيبه واستيعابه عن الرسائل السالفة الذكر. ولا أستبعد أن يكون من مقاصد الخليل إقامة نسق معجمي لمفردات العربية موازٍ لأنظمة العربية الصوتية والنحوية والصرفية التي أقيمت قوانينها على ما استقرئ سماعاً من كلام العرب؛ بحيث يكون لهذا التصور المعجمي نصيب فعال ومشاركة منهجية مع الأنظمة السالفة في الانتقال بالمفردات من طور الصور الصوتية الصامتة المركبة من حروف المعجم شكلاً، على حد تعبير ابن خلدون^(٥) إلى دور الوحدات اللغوية الدالة ذاتياً ووظيفياً باستعمالاتها المتنوعة وتوزيعاتها في سياقات لغوية، نثرية وشعرية.

البعد الصوتي:

وتكاد مقدّمة كتاب العين تفصح عن هذا التوجّه؛ فمن يتأملها يجدها تعكس

نظرة الخليل إلى المفردة المعجمية بعناصرها الصوتية والصرفية والدلالية على

أنها قوام المعجم بوصفه منظومة من هذه الوحدات المعجمية. فأول ما يصادفنا في مقدمة العين هو إدراك الخليل للعلاقة بين الأصوات (الحروف) والمعجم، بما أن الوحدة المعجمية الدالة تتألف من حروف أو أصوات انصبت عنايته الأولى على هذه الحروف التي يعول عليها في التمييز بين هذه الوحدات المعجمية؛ وهذه الوحدات هي المداخل التي يجب أن يقوم ترتيبها في المعجم على منهج منظم، واختار أن يبني تنظيم المداخل وترتيبها على أساس شكلي صوتي وليس على أساس موضوعي. وكان أمامه ترتيبان هجائيان للحروف: الألفبائي العربي، والأبجدي السامي، وهما لا يضمنان تدرجاً في مخارج الحروف، فاختار الخليل لترتيبها مسلكاً يقوم على أساس علمي يتوافق مع عبقريته التي تأبى التقليد وتتزعج إلى الإبداع، وهذا المسلك هو الترتيب الصوتي للحروف حيث " قلب أ ب ت ث فوضعها على قدر مخرجها من الحلق وهذا تأليفه : ع ح ه خ غ - ق ك - ج ش ض - ص س ز - ط د ت - ظ ث ذ - ر ل ن - ف ب م - و ا ي همزة"^(٦) أعاد ترتيب الحروف الهجائية الذي ليس له من أساس سوى تشابه الحروف في رسمها الكتابي الذي هو أقرب إلى الفرض والتكلف إذ جاء إعجامها متأخراً عن النطق بها واتخذ للتمييز فيما بينها في رسمها المكتوب لا في صوتها المنطوق؛ واللغة، أية لغة، هي في البدء أصوات منطوقة وليست رسوماً مخطوطة، ويبدو أن الخليل قد أدرك الطبيعة الأولى للحروف وهي الطبيعة الصوتية فرتبها ترتيباً صوتياً يقوم على أساس علمي ينطلق من أحياز نطقها على المدرج الصوتي مستبعداً شكلها الكتابي بادئاً بحيز الحلق الذي تنطق منه العين والحاء والهاء والخاء والغين وتليها القاف والكاف وهما صوتان لهويان، وهكذا تدرج في الترتيب ونسب كل حرف إلى مدرجه وموضعه الذي يبدأ منه حتى وصل إلى الحروف الشفوية وهي الفاء والباء والميم، والأصوات التي لم ينسبها لمدرج معين سماها الحروف الهوائية وهي الألف والواو والياء والهمزة. ^(٧) وسمى المواضع التي تنطلق منها الأصوات أحيازاً وهي أشبه بالحزم الصوتية في عُرف علم اللسان الحديث.

وكان من الطبيعي أن ينتقل الخليل في خطوته الثانية من مرحلة الصوت

المفرد إلى مرحلة تألف الأصوات في جذور أو أصول يفترض أن تكون صوراً صوتية صامتة قوامها حروف تبدأ بها وحروف تحشى بها، وحروف يوقف عليها^(٨). كل صوت أو حرف وما يأتلف معه من حروف نحو باب العين مع القاف، وباب العين مع الكاف والشين، وباب القاف مع الشين، وباب القاف والشين والذال وهو أمر قد أشار إليه الخليل بقوله: "بدأنا في مؤلفنا هذا بالعين وتضم إليه ما بعده..."^(٩) وهو يشير هنا إلى ما فتحه من أبواب أو كتب لكل حرف وأولها كتاب العين حسب ترتيبه الصوتي، وما يأتلف مع العين من أصوات، ثم الحاء وما يأتلف معها من أصوات، وهكذا مع بقية الحروف.

وكان من المنطقي أن تكون الخطوة الثالثة هي بيان عدد الحروف المتألفة مع حرف الباب، أي الجانب الكمي للصور الصوتية بحسب ما تتيحه أبنية العربية حين يقول الخليل: "كلام العرب مبني على أربعة أصناف: على الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي..."^(١٠) واضعاً في حسبانته أن "ليس للعرب بناء في الأسماء ولا في الأفعال أكثر من خمسة أحرف... والاسم لا يكون أقل من ثلاثة أحرف..."^(١١) وبهذا يكون الخليل قد بيّن ما يجب أن يكون عليه الحدان الأدنى والأعلى لعدد حروف الجذور أو الأصول، وهي المرحلة التي يمكن أن أطلق عليها مرحلة البناء أو التأليف الصوتي للوحدات المعجمية وهي مرحلة البعد الصوتي في نظرية الخليل المعجمية التي تشكل المقدمات الصوتية لنظرية التقلاب، التي تليها بالضرورة مرحلة التوليد الصرفي.

البعد الصرفي

تنتقل في هذه المرحلة الجذور من الصورة الصوتية الصامتة إلى الوحدة المعجمية الدالة، أي الصيغة الصرفية التي تتشكل عن طريق التقلاب أو نظرية التقلاب الخليلية، وعلى حد تعبير الدكتور إبراهيم بن مراد "تنتقل فيه المفردة من مرحلة التأليف الصوتي (الجذر) إلى مرحلة الجذع (البنية الصرفية) قد يؤخذ منه جذع أو أكثر"^(١٢) وهكذا "يُحدّد البناء الصرفي انطلاقاً من البناء الصوتي المتقدم عليه"^(١٣).

ومما يجدر ذكره أن التقلب ليس اصطلاحاً خليلياً، والاصطلاح الذي استخدمه الخليل هو التصريف، وهي آلية استخدمها الخليل بعد أن " حصر مركبات حروف المعجم كلها من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي وهو غاية ما ينتهي إليه التركيب في اللسان العربي" (١٤).

وهذا التصريف أو التقلب يشرحه الخليل بصورته الرياضية الإحصائية بقوله: "اعلم أن الكلمة الثنائية تتصرف على وجهين نحو، قد، دق ... والكلمة الثلاثية تتصرف على ستة أوجه وتسمى مسدوسة وهي نحو: ضرب، برض، بضر، رضب، ربض، والكلمة الرباعية تتصرف على أربعة وعشرين وجهاً، وذلك أن حروفها وهي أربعة أحرف تضرب في وجوه الثلاثي الصحيح وهي ستة أوجه فتصير أربعة وعشرين وجهاً، يكتب مستعملها ويلغى مهملاً ... والكلمة الخماسية تتصرف على مئة وعشرين وجهاً، وذلك أن حروفها وهي خمسة أحرف تضرب في وجوه الرباعي وهي أربعة وعشرون حرفاً فتصير مائة وعشرين وجهاً يستعمل أقله ويلغى أكثره" (١٥) وهذا هو "النظام الصرفي ... في تطبيقه المعجمي لنظام الأصوات على بنية اللفظ المفرد" (١٦)؛ أي تصبح الأصوات كلمات ذات مبانٍ صرفية لها معنى في المعجم. وبآلية التقلب هذه التي اعتمدها الخليل تكتمل مادة المعجم المثالي العربي، وهي آلية صوتية صرفية رياضية يرصد بها المعجمي قدرة اللغة وطاقاتها بما يمكن تأليفه من المداخل ومشتقاتها بتقلب الحروف الأصول الذي يحدث أصولاً جديدة تصلح لتعبئة الأبنية الصرفية (الثنائية والثلاثية والرباعية والخماسية) التي تصبح بصورة تلقائية وحدات معجمية ذات دلالة، تزيد عن اثني عشر مليوناً. وبهذا العدد من الوحدات الناتج عن التقلبات يمكن، كما قال الخليل " أن نستوعب كلام العرب: الواضح والغريب، والمستعمل والمهمل" (١٧).

بعد توضيح السمات الصوتية والصرفية التي انتظمت وتساندت لتأسيس وحدات معجمية قابلة للانتظام وفق نظرية التقلب التي هي عماد النظرية المعجمية الخليلية، يحسن أن أبرز الأبعاد والمفاهيم اللسانية التي أنجزها الخليل لإقامة معجم العين، ووافقت في الوقت نفسه الفكر اللساني الحديث، كذلك لا بد لي من متابعة

امتدادات النظرية التقلابية في التطبيقات اللغوية الاشتقاقية والمعجمية.

بين الخليل وسوسير:

وبالعودة إلى الفكر اللساني الحديث لبيان مدى الالتقاء بينه وبين مقاربة الخليل في التقلاب الذي استدل به على المستعمل والمهمل والواضح والغريب، يصادفنا مصطلحا: اللغة (Langue)، والكلام (Parole)، وهما المصطلحان اللذان استحدثهما دي سوسير مع الانقلاب اللغوي الذي قاده على الدراسات اللغوية التاريخية والمقارنة في بدايات القرن العشرين، وأصبحا يشيران في عُرف الدارسين إلى مفهومين لغويين أولهما: التصور المثالي للمخزون البشري من مفردات وقوانين لغة ما كالعربية مثلاً، والآخر: ما ينتجه الفرد من كلام، أو هو ذلك الجزء من اللغة الذي يقوم المتحدث باستعماله. ويوضح سوسير المقصود بمصطلح La Langue بقوله: لو استطعنا أن نحصل على جميع صور الكلمات المخزونة في عقول جميع الأفراد لاستطعنا أن نميز الجزء الاجتماعي الذي يؤلف اللغة^(١٨) وبتعبير آخر إنها تشبه المعجم الذي توزع منه نسخ متطابقة لكل فرد^(١٩) إنه المعجم المثالي للغة المتوقع الحصول عليه أو تصوّره من مجموع المفردات المستعملة والمهملة والواضحة والغريبة على حد تعبير الخليل مما يمكن رصده بعملية إحصاء رياضية للتقليبات المفترضة من الجذور التي ذكرها الخليل للتثاني والثلاثي والرباعي والخماسي ليبلغ المحتوى النظري لهذا المعجم اثني عشر مليوناً وثلاثمائة وخمسة آلاف وأربعمائة واثني عشر جزءاً:

$$\text{من الثنائي: } 28 \cdot 28 = 784 +$$

$$\text{ومن الثلاثي: } 28 \cdot 27 \cdot 26 = 19656 +$$

$$\text{ومن الرباعي: } 28 \cdot 27 \cdot 26 \cdot 25 = 491400 +$$

$$\text{ومن الخماسي: } 28 \cdot 27 \cdot 26 \cdot 25 \cdot 24 = 11793600$$

$$\text{المجموع الكلي} = 12305412$$

وهذه الجذور هي التي تقوم عليها الطاقة التوليدية للغة العربية بوصفها الجذور الصالحة لاشتقاق الأبنية الفعلية والاسمية منها، أو الجذور الصالحة لتعبئة

الأبنية الصرفية، وهذه الجذور هي التي تشكل البنية الأساسية لأرصدة العربية من الألفاظ المستعملة والمهملة والواضحة والغريبة على حد اصطلاح الخليل.

أما المصطلح السوسيري الآخر فهو الكلام Parole وهو على حد تعبير سوسير الجانب الأدائي التنفيذي والاستخدام الفعّال والفعل الفردي من المتكلم^(٢٠)، ويقصد بذلك الكلام الذي يستعمله الأفراد ويصدر عنهم في مواقف حياتهم، وفي ممارساتهم الفردية، ويمكن أن نطلق عليه الرصيد اللغوي الوظيفي الذي ينطق به الإنسان وفقاً لنظام لغته، ويقابله في اصطلاح الخليل الجزء المستعمل من اللغة، وهي الجذور وامتداداتها في الاستعمالات اللغوية الموجودة بالفعل وهي "مركبات حروف المعجم تخرج من حيز الصور المجردة الصامتة إلى حيز الاستعمال اللغوي"^(٢١) أو هي "الجزء الذي تتولد عنه الجذوع الفعلية والاسمية والوصفية"^(٢٢).

وهذه الجذوع هي المفردات التي تتمتع بالخصائص التمييزية للوحدات المعجمية التي حددها إبراهيم بن مراد "بالانتماء المقولي والتأليف الصوتي والبنية الصرفية ولها معنى تدل عليه"^(٢٣). ولمعرفة المستعمل في الجزء الأول من كتاب العين بتحقيق الدكتور عبد الله درويش من الثنائي والثلاثي حتى باب العين والسين والطاء، قمت بإحصاء الجذور المستعملة من الثنائي المضاعف/ في باب حرف العين (ص ٦٨ - ١٠٩) وجدت أن المستعمل (٣٧) جذراً من التي يفترض أن تكون ٥٦ جذراً لو قمنا بتقلب حرف العين مع ما ينضم إليه من حروف المعجم الأخرى؛ أي إن نسبة المستعمل ٦٦,١% والباقي من الجذور مهمل. أما في الثلاثي الصحيح مع حرف العين من باب ع ه ق إلى باب ع س ت (ص ١١٠-٣٧٠) فقد وجدت أن جذور التقاليب المستعملة قد بلغت ٢٧٤ تقليباً من مجموع التقاليب المفترضة ٥٧٠؛ أي بنسبة تقريبية تصل إلى ٤٨%. والتقاليب المستعملة موزعة على الجذور ما بين تقليب للجذر كما في باب العين والفاء والتاء الذي لم يستعمل منه سوى تقليب ع ت ق، أو تقلبين كما في باب العين والكاف والشين، إذ المستعمل ع ك ش، ش ك ع، أو ثلاثة تقاليب كما في باب العين والكاف والذال الذي استعمل منه ع ك د، د ع ك، د ك ع، أو أربعة تقاليب كما في باب العين والكاف واللام الذي استعمل منه: ع ك

ل، ع ل ك، ك ل ع، ل ك ع، أو خمسة تقاليد كما في باب العين والكاف والسين الذي استعمل منه: ع ك س، ك ع س، س ك ع، ع س ك، أو التقاليد الستة كما في باب العين والجيم والميم.

ويذكرني البيان الإحصائي الجزئي السابق بما سجله الزبيدي (ت ١٣٧٩هـ) صاحب مختصر العين في خاتمة هذا المختصر أن المستعمل والمهمل من الجنور: ستة آلاف ألف وستمائة ألف وتسعة وتسعون ألفاً وأربعمائة، المستعمل منها: خمسة آلاف وستمائة وعشرون، والمهمل ستة آلاف وثلاثة وتسعون ألفاً وسبعمائة وثمانون^(٢٤). وهذا يعني أن ما ذكره الزبيدي من عدد الأبنية يزيد قليلاً عن نصف العدد الكلي المفترض للأبنية في كتاب العين، ومن جهة أخرى فإن الفرق بين عدد الأبنية المفترضة في الثنائي، في مختصر العين وبينها في العين هو ستة جنور، والفرق بين عدد الأبنية المفترضة في الثلاثي في مختصر العين وبينها في العين هو ستة جنور أيضاً. ويجدر كذلك أن أذكر أن عدد الأبنية التي أثبتها الزبيدي وهو ٥٦٢٠ يقرب إلى حد كبير من جنور معجم الصحاح للجوهري كما أحصاها حلمي موسى التي تقدر بـ ٥٩٣٩ جنراً وعليه يكون الفرق تسعة عشر جنراً فقط^(٢٥).

بين الخليل وتشومسكي،

وتشومسكي هو اللغوي الأمريكي المعاصر الذي أطلق هو الآخر مصطلحي Competence، و Performance اللذين يرى سامبسون في كتابه المدارس اللغوية أن "من الملامح الواسعة التأثير لمنهج تشومسكي في اللغة، التمييز الذي قام به بين الكفاءة Competence والأداء Performance الذي يذكرنا، بشكل ما، بتفريق سوسير بين اللغة والكلام، إن تشومسكي يطابق بشكل عقلي بين مفهومه عن الكفاءة ومفهوم سوسير عن اللغة"^(٢٦) وبعبارة مترجم آخر للكتاب نفسه- أقصد المدارس اللغوية- يؤكد سامبسون تأثير تشومسكي بفكرة سوسير وإن اختلف معه في المصطلح بقوله: "من أكثر سمات منهج تشومسكي في دراسة اللغة تأثيراً هو التمييز الذي يقيمه بين المقدرة اللغوية Competence والأداء اللغوي أو الممارسة Performance، وهو استرجاع للتمييز بين المقدرة Langue والكلام Parole عند

سوسير، وتشومسكي نفسه لا يفرق بين المقدرة عنده والمقدرة التي تحدث عنها سوسير^(٢٧).

بعد هذا الربط بين اصطلاحى سوسير وبين اصطلاحى تشومسكي يجدر أن أقرب للقارئ مقاصد تشومسكي من اصطلاحيه؛ من أجل إقامة مقارنة بينهما وبين ما تغياه الخليل من تطبيق النظام التقليبي كما فعلت مع اصطلاحى سوسير، وأستعين بتوضيح جون ليونز لمصطلح Competence الذي عنده ليس غير "المعرفة اللغوية... أي امتلاك شخص ناصية لغة معينة... واستعمالها... والسهولة أو القدرة التي يتمتع بها شخص لاكتساب لغة.. أو استعمالها"^(٢٨) ويظل أيضاً اصطلاح المعرفة اللغوية مبهماً ولا يوضحه سوى بيان عناصر هذه المعرفة فيلجأ ليونز لبيان ماهية هذه المعرفة إلى تعريف تشومسكي للغة الذي هو: "مجموعة من الجمل (نهائية وغير نهائية) وكل واحدة من هذه الجمل نهائية في طولها ومكوّنة من مجموعة من العناصر"^(٢٩)، ثم يلجأ إلى بيان هذه العناصر بقوله: "فليست الجمل المحكية مجرد تأليف من العناصر الصوتية، بل هي أيضاً تأليف من الوحدات التركيبية"^(٣٠)، أي إن اللغة نظام لا نهائي من الجمل، وهذه الجمل تتألف من عناصر أولية هي الأصوات التي تتألف في وحدات أو مفردات Vocabulary هي الأفعال والأسماء والصفات والحروف، وهي العناصر الأولية الثانية التي تتتابع بدورها وفق ما تقتضيه قواعد اللغة لضمان صحتها التركيبية؛ وعليه فإن المتكلم الذي يستطيع أن يمتلك هذه العناصر في أية لغة وينظمها في جمل صحيحة تؤدي إلى معنى يمكن أن نقول إن لديه المعرفة اللغوية أو الكفاءة اللغوية Competence.

أما الممارسة العملية لهذه المعرفة فأطلق عليها تشومسكي مصطلح Performance (الأداء) ويقصد به ما ينطقه أبناء اللغة بحسب ما تتيحه هذه المعرفة المختزنة من قواعد، وبعبارة أخرى هو استعمال ما استوعبه واختزنه من عناصر المعرفة اللغوية أو الكافية من أصوات ومفردات وقواعد، في النطق والكلام، في مواقف الحياة المتنوعة، فكأن هذا الاستعمال (Performance) هو التجسيد الحي للغة أو المعرفة اللغوية Competence، ولاستجلاء ما بقي من غموض قد يكتنف

مصطلحي تشومسكي، وفي توضيح أخير للعلاقة بينهما أرائي مضطراً أن أدم حديثي الأنف بعبارة مسهبة للدكتور خليل عمايرة، أرى فيها الغناء، يقول فيها: "يفرق تشومسكي في نظريته بين ما يسميه Competence الكافية، وما يسميه Performance الأداء ... والكافية تكون في امتلاك المتكلم - السامع القدرة على إنتاج عدد هائل من الجمل من عدد محدود جداً من الفونيمات الصوتية ... والقدرة على الحكم بصحة الجمل ... من وجهة نظر نحوية ... ثم القدرة على الربط بين الأصوات وتجمعها في مورفيمات تنتظم في جمل ... وربطها بمعنى لغوي محدد ... أما استعمال اللغة فيسمى الأداء وهو الكلام أو الجمل المنتجة التي تبدو في فونيمات ومورفيمات تنتظم في تراكيب جمالية خاضعة للقواعد والقوانين الكامنة والمسؤولة عن تنظيم هذه الفونيمات والمورفيمات في تراكيبها، والأداء هو الوجه الظاهر المنطوق للمعرفة الضمنية باللغة"^(٣١).

ومن العبارة المقتبسة آنفاً أرى أن أهم عناصر الكافية اللغوية العربية هي الإحاطة بكلام العرب أي مفردات اللغة وهي (المورفيمات) المؤتلفة من أصوات (فونيمات)، وهذا أمر لا يمكن أن تتأتى الإحاطة به إلا بتقليب العناصر الصوتية المؤتلفة في بنى صرفية أو أشكال صرفية تستوعب المستعمل والمهمل من كلام العرب، وهذا هو المضمون الذي تغياه الخليل من عبارته التي استشهدنا بها في موضع سابق، وتشير إلى النظام التقليبي الذي أراده وهي: " اعلم أن الكلمة الثنائية تتصرف على وجهين ...، والكلمة الثلاثية تتصرف على ثلاثة أوجه ...، والكلمة الرباعية تتصرف على أربعة وعشرين وجهاً... يكتب مستعملها ويُلغى مهملاً... وبدأنا في مؤلفنا هذا بالعين وتضم إليه ما بعده حتى نستوعب كلام العرب؛ الواضح والغريب..."^(٣٢) فهو قد أبان عن العناصر التي يستوعب بها المتكلم كلام العرب؛ فالصيغ الصرفية الثنائية والثلاثية والرباعية والخماسية تأتلف فيها الأصوات الأصلية؛ فتتكون الجذور التي هي أقرب إلى الصور الصوتية على وجوهها المحتملة عند تقليبها، وهذه الوجوه أقصد التقليات وما يتولد منها هي الوحدات المعجمية أو كلام العرب المستعمل وهو الموجود بالفعل أي ما يستخدمه

العربي في كلامه ويكون أدواته في التعبير، والمهمل وهو الموجود بالقوة؛ أي يفترض وجوده ولكن العرب لم تدخله في كلامها وحديثها.

بين التقلاب والاشتقاق الأكبر.

إذا كان الخليل بن أحمد قد ابتدع فكرة التقلاب بين الجذور واعتمد عليه في حصر مفردات المعجم وتمييز المستعمل منها فيجعله في معجمه والمهمل فيغفله؛ لأن العرب لم تستعمله، فإنه كما يبدو لم يفتن إلى ربط تقاليد كل جذر بمعنى عام مشترك فيما بينها. ويبدو أن أبا علي الفارسي كان السابق في التفتن إلى فكرة الربط المعنوي بين التقلاب، وهو ما يمكن إدراكه من إشارة ابن جني حين قال: "هذا موضع لم يسمه أحد من أصحابنا غير أن أبا علي - رحمه الله - كان يستعين به ويخلد إليه، مع أعواز الاشتقاق الأصغر لكنه مع هذا لم يسمه، وإنما كان يعتاده عند الضرورة ويستروح إليه ويتعلل به، وإنما التقلاب لنا نحن"^(٣٣)، وعليه يكون أبو علي قد نبت إليه ولكنه لم يعطه اسماً ولم يعتمده أو لم يتخذه صنعة، ولا يدعي ابن جني لنفسه ابتداعه وإنما كان له فضل تسميته ومن بعد ذلك أولع به وأغرم وتبناه، حتى عدّه بعض الباحثين من ابتداعه كالسيوطي الذي صرح بذلك بقوله: "وأما الأكبر - يقصد الاشتقاق - فيحفظ فيه المادة دون الهيئة ... وهذا ما ابتدعه الإمام أبو الفتح ابن جني، وكان شيخه أبو علي الفارسي يأنس به يسيراً، وليس معتمداً في اللغة"^(٣٤)، وقد تابعه في هذا الرأي آدم متز، ونسب هذا الاشتقاق إلى ابن جني مع امتداحه لهذا النوع من البحث اللغوي فتراه يقول: "وكذلك ظهرت في القرن الرابع دراسة جديدة للاشتقاق اللغوي وبقيت عصراً طويلاً، وكان أستاذ هذه المدرسة ابن جني الموصلي، وهو الذي ينسب إليه ابتداع مبحث جديد في علوم اللغة، وهو المسمى الاشتقاق الأكبر وهو البحث الذي لا يزال يؤتي ثمره إلى اليوم، والذي يختص بمادة الكلمة دون هيئتها، ولم يكن لعلماء اللغة من العرب إنتاج أعظم من هذا"^(٣٥).

ويفتح ابن جني باباً خاصاً لما سماه الاشتقاق الأكبر في الجزء الثاني من الخصائص ص ١٢٣-١٢٩، وعندما أراد أن يفرق بين الكلام والقول في الباب

الأول من الجزء الأول من الخصائص أيضاً كان مدخله للتفرقة هو تقلب جذريهما وتلمس المعنى العام الرابط لتقاليب كل جذر فقد ذكر أن معنى (ق و ل) كيف وقعت من تقدم حروفها وتأخرها عنه إنما هو للخفوف والحركة وأما (ك ل م) فحيث تقلبت فمعناها الدلالة على القوة والشدة^(٣٦).

ويبدأ في باب الاشتقاق الأكبر بتعريفه بقوله: "وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول الثلاثة فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحداً نجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه وإن تباعد شيء من ذلك عنه ردّ بلطف الصنعة والتأويل إليه، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد^(٣٧) ويضرب أمثلة عدة كتقاليب (ج ب ر) فهي أين وقعت للقوة والشدة، ومن ذلك تراكيب (ق س و) (ق و س) (و ق س) (و س ق) (س و ق) وأهمل س ق و وجميع ذلك إلى القوة والاجتماع، منها القسوة وهي شدة القلب واجتماعه... ومنها القوس لشدتها واجتماع طرفيها، ومنها الوقس لابتداء الجرب لأنه يجمع الجلد، ومنها الوسق للحمل وذلك لاجتماعه وشدته ومنها السوق؛ وذلك لأنه استحثاث وجمع للمسوق بعضه إلى بعضه"^(٣٨). وبالعودة إلى باب القاف والسين والواو في كتاب العين^(٣٩)، الذي يخلط الخليل مع باب القاف والسين والياء، وقد أهمل تقلب س ق و كما فعل ابن جني الذي صتر حديثه عن معاني التقاليب بالمعنى الجامع للمادة كلها، بينما الخليل اكتفى بذكر معاني التقاليب دون ذكر الجامع بينها. وبدأ ابن جني بتقاليب (ق س و) وهو أدق مما بدأ به الخليل الذي اختار تقلب (ق و س)؛ إذ السين في ترتيب الخليل الصوتي متقدمة على الواو. وفي تقلب (ق و س) يبدأ الخليل بتصغير القوس وجمعه وبمعنى التقويس وما يشق منه وهو الانحناء ويذكر معنيين آخرين للقوس وهما بقية الثمر ورأس الصومعة، وأما ابن جني فلم يذكر إلا ما يمكن أن يستنتج من التقويس وهي الشدة والاجتماع من تقارب الطرفين دون أي شاهد. وأما تقلب و ق س فاكتفى الخليل بذكر معنى الوقس وهو الفاحشة وذكرها، بينما ابن جني ذكر أنه اسم لابتداء الجرب لأنه يجمع الجلد. وهنا لا بد من ملاحظة أنه لا توافق بين المعنيين. وفي العين ينتقل إلى التقليب (ق س و)

ويبين معنى القسوة بأنها الصلابة في كل شيء، ثم يبين الفعل المشتق منها ويبين أن الليلة القاسية هي الشديدة الظلمة والمقاساة هي المكابدة؛ بينما ابن جني قد ذكر هذه المادة كما قلنا في بداية التقلاب وهي بمعنى شدة القلب واجتماعه وكأنه معنى مستنبط من المعاني التي ذكرها الخليل. وينتقل الخليل إلى التقلاب (س و ق) ويذكر لها تسعة معانٍ وأولها المعنى الوحيد الذي وقف عنده ابن جني وهو السَوَّق الذي هو بمعنى النزع عند الخليل، وهو عند ابن جني استحثاث وجمع للمسوق بعضه إلى بعض، ويشهد لذلك بالمستوسقات أي المجتمعات وهو شاهد يلائم تقليب (و س ق) أكثر من تقليب (س و ق)، وهو المعنى الذي لم يأتِ على ذكره الخليل ضمن المعاني التي ذكرها. وينتهي الخليل حديثه بالتقلاب (و س ق) الذي ذكره ابن جني قبل (س و ق)، ويتفق ابن جني مع الخليل بأن الوَسَّق بمعنى الحمل، ويستنتج ابن جني معنى الاجتماع والشدة له من قول الخليل إن الوَسَّق أيضاً ضمك الشيء إلى الشيء، والاتساق بمعنى الانضمام واستوسقت الإبل اجتمعت وانضمت وهو المعنى الذي يستشهد له ابن جني ويمكننا أن نستنتج من المقارنة الأنفة:

- أ- الخليل وابن جني قد اتفقا على المستعمل والمهمل من تقاليب المادة.
- ب- اتفقا على إيراد بعض المعاني للتقلابات واعتنى كلاهما أحياناً بالشواهد.
- ج- لم يتفقا على ترتيب التقلاب حيث التزم ابن جني بالترتيب الصوتي بحذافيره حيث يبدأ بحرف الباب ثم ما يليه في الترتيب الصوتي ثم الثالث وهكذا.
- د- اعتنى الخليل بإيراد معاني التقلاب مهما اختلفت وتعددت وهو المفروض في المعجمي بينما غلب على ابن جني الاستنتاج والاستنباط والصنعة والتأويل دون المعاني المباشرة.
- هـ- لم يلتفت الخليل إلى المعنى المشترك الرابط بين التقلاب بينما كان المعنى العام عند ابن جني هو غايته وشغله لإثبات صدق نظريته الاشتقاقية.
- و- كان التنظير اللغوي العام من أهداف ابن جني من أجل الوصول إلى قانون دلالي عام في العربية ولو اضطره ذلك إلى التكلف والتعميم يربطه بين أصوات (حروف) التقلاب ومعانيها مهما كان ترتيبها؛ لولعه بفكرة المناسبة الطبيعية بين

أصوات اللفظ ومدلوله وهي العلاقة التي فتح لها ثلاثة أبواب غير باب الاشتقاق الأكبر لإثباتها مثل تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني^(٤٠)، وإمساس الألفاظ أشباه المعاني^(٤١)، وتلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني^(٤٢).

وهكذا بعد التحليل والمقارنة بين مسلك الخليل مع تقاليبه، وابن جنى مع المعنى الجامع في الاشتقاق التقلابي، ندرك مقدار ما يتمتع به ابن جنى من خيال، وبراعة لغوية مكنته بلطف الصنعة والتأويل من استجماع خيوط المعنى المشترك بين تقاليد المادة الواحدة، وهو في ذلك يخفي ما يريد ويبرز ما ينفعه وما يمكن أن ينسجم مع المعنى الجامع الذي قد يكون معنى عاماً فضفاضاً مستتبهاً من القيم التعبيرية للأصوات، وفتح أربعة أبواب في كتابه الخصائص ومنها باب الاشتقاق الأكبر، وهذا ما يؤكد الدكتور عبده الراجحي بقوله: " فقد كان أبو الفتح يعتقد أن اللغة بأصواتها التي تمثلها الأبجدية، إنما تقدم احتمالات لا نهائية لها من الألفاظ التي ترمز إلى معانٍ، ومن ثم أكد أن تقلبيات اللفظ الواحد تؤدي إلى معانٍ متقاربة اعتماداً على ما قرره من وجود علاقة بين اللفظ ومدلوله"^(٤٣)، يقصد الطبيعية بين الصوت ومدلوله.

ويبدو أن نظرية ابن جنى الاشتقاقية التقلابية لقيت من إعجاب بها وبعدها فتحاً في عصرنا الحاضر بوصفها نظرية أو قاعدة كاملة موزونة وأنها قانون العرب الأصلي في تكثير لغتهم^(٤٤) على حد تعبير عبد الله العلايلي صاحبها الذي يتبناها في كتابه المقدمة اللغوية وسمّاها قاعدة القلب أو الدوائر واعتمد الترتيب الألفبائي للحروف أو الهجائي كما سمّاه وليس الصوتي كما جرى في نظرية التقلاب الخليلية، وهو هنا أقرب إلى الترتيب الذي اتبعه ابن دريد في الجمهرة. ويؤيد العلايلي^(٤٥) المقاليب كما يسميها من الثلاثي إلى دائرتين: يبدأ التقلبيات فيها بأسبقها في الترتيب الألفبائي مثل الجذر م ك ل: فالدائرة الأولى منه: ك ل م، ل م ك، م ك ل. والدائرة الثانية: ك م ل، م ل ك، ل ك م.

ولو أقمنا مناظرة بين تقاليد الخليل والعلالي سنجد التقاليد نفسها ولكنها عند الخليل مختلفة الترتيب، وتوزع على ثلاثة دوائر، إن استخدمنا اصطلاح

العلائلي، في كل دائرة تقلبان بيدان بأحد حروف الجذر، فتكون التقلبات حسب الخليل وهو ما التزم به ابن جني كالآتي:

الدائرة الأولى: ك ل م، ك م ل: وهما أساسا الدائرة الأولى والثانية عند العللي.

الدائرة الثانية: ل ك م، ل م ك: وهما التقلبان الثاني من الدائرة الأولى والثالث من الدائرة الثانية عند العللي.

الدائرة الثالثة: م ك ل، م ك ل: وهما التقلبان الثالث من الدائرة الأولى والثاني من الدائرة الثانية عند العللي.

والأساس الثالث الذي يقيم عليه العللي نظريته، غير الترتيب الهجائي للحروف (الألفبائي)، وتقلب الجذور إلى دائرتين، هو الجامع المعنوي بين التقلبات الستة، من غير التزام بالمعاني القاموسية؛ ومن أجل ذلك حدّد العللي لكل حرف معنى خاصاً به فالهمزة تدل على الجوفية، والباء تدل على بلوغ المعنى حتى يصل إلى الياء التي تدل في نظره على الانفعال المؤثر في الباطن^(٤٦).

ولا بد لنا أن نقر أنّ في هذا المسلك من ابن جني والعللي الكثير من التكلف دون جدوى عملية؛ لأن هذا النوع من الاشتقاق وما يتبعه من تأويل لا يؤدي إلى نمو في المفردات علاوة على أنه غير مطرد؛ إذ ليس كل مادة تقلبها مستعملة، وليس كل المستعمل يمكن ربطه بمعنى جامع، وإذا كان الربط ممكناً في تقلبات الثلاثي الستة، فكيف يجري هذا الربط في تقلبات الرباعي التي تصل إلى أربعة وعشرين تقلباً؟! وكيف يتم الربط في الخماسي كذلك الذي تصل تقلباته إلى مئة وعشرين وجهاً؟! ويبدو أن عدم اطراد هذا الأمر كان يدور في ذهن ابن جني الذي قال^(٤٧): "واعلم أنا لا ندعي أن هذا يقصد الاشتقاق الأكبر - مستمر في جميع اللغة". ويقرر السيوطي^(٤٨)، "أنه ليس معتمداً في اللغة". ومحمد المبارك يقول^(٤٩): "أرى أن الاشتقاق الكبير (الأكبر) ... هو أضعف أنواع الاشتقاق وأقلها فائدة وجدوى من الوجهة العملية وأبعدها عن الوضوح والظهور للناظرين في اللغة؛ ومع ذلك يُصِرّ العللي^(٥٠) على القول "إن نظرية التقلب أو القلب على حد

تعبيره هي التي تم فيها النضج اللغوي عند العربي، وإن اعتماد قاعدة القلب بكل ما تنطوي عليه من دقة استعمالية تفوق أرقى لغة عصرية. وأنه ليس على شك من صلاحيتها لتكثير اللغة، وبكفي، على حد قوله، أنها تضمن إحداث مواد لا تعرفها عربية المعاجم ... وعليه فلا بد من اعتمادها ... في تصحيح نصوص المعاجم.

الامتداد المعجمي للتقليل:

لقد كان للعين بنظامه التقليلي وترتيبه الصوتي وتقسيمه للأبنية أثر واضح في التأليف المعجمي عند العرب وقد كان الإهداء من الخليل إلى فكرة التقليل لمعرفة المستعمل والمهمل من مفردات اللغة عملاً أصيلاً؛ بقوته التوليدية التصريفية التي تنتج للجزر الثلاثي، مثلاً، أن يزود اللغة ويغنيها بستة تقليبات للثلاثي، كل تقليل منها يمكن أن يكون رجباً أو جذعاً لعدة مشتقات من مختلف الصيغ والمباني تؤخذ عن طريق الاشتقاق العام يكون فيها الإحاطة والكفاية بحق المعاني من التنويع والاختلاف والتجديد بما تحمله هذه المشتقات من طاقات معنوية لا حد لها، ومن حيوية عامة في الدلالات الإيحائية التي يمكن تحصيلها من المعنى العام الجامع المستخلص عن طريق الاشتقاق الأكبر. ففي لسان العرب مثلاً تتبعت جذع ضرب من جذر ض ر ب فوجدت أنه يتيح أكثر من أربعين مشتقاً نتيجتها قوانين الاشتقاق العام مع الاختلاف الدلالي الذي يتيح التنوع الأسلوبي، لذلك لم يكن مستغرباً أن يستفيد بعض المعجميين من الإمكانيات الاستيعابية التي يتيحها هذا التقليل، وكان أحمد بن دريد (ت ٥٣٢هـ) صاحب جمهرة العرب من أوائل الذين التفتوا إليه واستفادوا من إمكانياته مع أنه كان بإمكانه أن يغض الطرف عنه ويستغني عنه في معرفة المستعمل من كلام العرب لأنه كان أحفظ الناس، وأوسعهم علماً وأقدرهم على شعر^(٥١)، وكان ذا حافظة قوية نقرأ عليه دواوين العرب فيحفظها من وهنتها الأولى^(٥٢)، وإنه كما ذكر السيوطي^(٥٣) أنه أملى ابن دريد الجمهرة في فارس، ثم أملاها بالبصرة وبيغداد من حفظه، ولم يستعن عليها بالنظر في شيء من الكتب إلا في الهمزة واللفيف.

ومقدمة الجمهرة تكاد تكون طبق الأصل من مقدمة العين في حديثه عن

الحروف، إلا أن ابن دريد رتب مداخل المعجم وفق الألفبائية العادية وتابعه في تقسيم مداخله إلى أبنيته كالثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي وفصل في أبنية الثنائي والثلاثي ولم يكتفِ بالتصنيف العام للأبنية كما جاء في العين، هذه الأبنية التي ملاحظها الخليل عن طريق التقلاب للحروف إلا أنه خالفه في بناء التقلابات وفق الألفبائية المألوفة. ولتوضيح الفرق الإجرائي بينهما أقلب جذر ع ق د على النهجين:

منهج العين في التقلاب الصوتي منهج الجمهرة في التقلاب الألفبائي

(١) ع ق د	(١) د ع ق
(٢) ع د ق	(٢) د ق ع
(٣) ق ع د	(٣) ع د ق
(٤) ق د ع	(٤) ع ق د
(٥) د ع ق	(٥) ق د ع
(٦) د ق ع	(٦) ق ع د

لا فرق بين التقلين إلا في الترتيب، مع ملاحظة أن الجذر موجود في باب العين بسبب الترتيب الصوتي في معجم العين، بينما في الجمهرة في باب الدال بسبب الترتيب الألفبائي، فالأول في العين يقابل الرابع في الجمهرة والثاني في العين يقابله الثالث في الجمهرة، والثالث في العين هو السادس في الجمهرة والرابع في العين هو الخامس في الجمهرة، والخامس في العين هو الأول في الجمهرة، والسادس في العين هو الثاني في الجمهرة.

وهكذا يكون ابن دريد في جمهرة اللغة قد استعان بنظام التقلابات الخليلي من أجل استيعاب جمهرة مواد اللغة، إلا أنه أقامه على الترتيب الألفبائي وليس على الترتيب الصوتي، ويقول في مقدمته: "إنما أعرناه هذا الاسم - يقصد الجمهرة - لأننا اخترنا له الجمهور من كلام العرب" (٥٤)، مما يعني أنه أراد أن يحصي المادة اللغوية عن طريق التقلاب؛ ولكنه لم يستوعب كل التقلابات على ما يبدو وإنما يحكم اختياره فالزم نفسه باختيار الفصحح الصحيح ويفترض أنه أسقط الوحشي والمستنكر وغير الصحيح عدا ما يمكن أن يكون قد غفل عنه ولم ينتبه إليه وهو

يصرّح بذلك في قوله: "فإن كنا أغفلنا من ذلك شيئاً لم ينكر علينا ذلك لأننا إنما أمليناه حفظاً، والشذوذ مع الإملاء لا يدفع"^(٥٥).

وإذا كان ابن دريد قد رغب في تمييز معجمه الجمهرة عن العين بإقامته على الترتيب الألفبائي للأبنية فإن أربعة من المعجميين العرب اقتفوا أثر الخليل؛ في ترتيب العين وتبويبه وتقاليبه وهم أبو علي القالي (ت ٥٦٤هـ) في البارع في اللغة، والأزهري (ت ٣٧٠هـ) في تهذيب اللغة، والصاحب بن عباد (ت ٣٨٥هـ) في المحيط في اللغة، وابن سيده (ت ٤٥٨هـ) في المحكم والمحيط الأعظم، ويمكنني أن أضيف إليهم أبا بكر الزبيدي الإشبيلي (ت ٣٧٩هـ) في مختصر العين الذي يمكن أن يقوم مقام كتاب العين.

أما البارع فقد قال محققه الدكتور هاشم الطعان إنه "أول معجم أندلسي من حيث مكان التأليف، أما المادة فهي مادة كتاب العين للخليل بن أحمد.... وبهذا يكون البارع أقدم نسخة وصلت إلينا من كتاب العين"^(٥٦)، ويبدو أن القالي قد تابع الخليل في العين على وجه الإجمال، خاصة في نظام التقلابات وخالفه مخالفة يسيره في الترتيب الصوتي للحروف، وفي تفصيل أنظمة الأبنية، رغبة منه في التمييز وحتى لا يرمى بالتقليد بدليل إثباته بأنه يزيد على صفحات العين بما يقرب ٤٠٠ ورقة، وأنه يربو عليه في كلماته بما يقرب من ٥٦٨٥ كلمة.

وإذا انتقلنا إلى تهذيب اللغة الذي أراد منه الأزهري تنقية اللغة مما أدخل إليها من الألفاظ التي أُخِلَّ بفصاحتها، كذلك أراد تخليصه من الحشو الذي لا أصل له، والغريب غير الفصيح وقال "ولم أودع كتابي هذا من كلام العرب إلا ما صح لي سماعاً منهم أو رواية عن ثقة، أو حكاية عن خط ذي معرفة ثابتة اقترنت إليها معرفتي"^(٥٧)، وبالرغم من تحامله على الخليل وتجاهله لمكانته فإنه اقتبس مقدمة العين وجعلها مقدمة للتهذيب^(٥٨)، ولم يجد مفرأ من اتباع نظامه في ترتيب الحروف صوتياً فبدأ بالعين وانتهى بالحروف الهوائية، وتقسيمه كتابه إلى أبواب وكتب فجعل الأبواب للحروف، والكتب للأبنية الستة التي لم تخالف أبنية العين بما يمكن تسجيله. وكان نظام التقلاب الخليلي هاديه إلى المستعمل والمهمل؛ كل ذلك

يدل على أنه اقتفى أثر الخليل وتقيده بترتيبه وتنظيمه وتقاليبه واستطاع بالتقلاب أن يضع يده على المستعمل، ويتابع المهمل ويذكر أسبابه أحياناً.

وإذا راعينا الترتيب الزمني لمؤلفي المعاجم التقلابية فإن مختصر العين يكون هو الحلقة الثالثة، بعد البارع والتهذيب، في اقتفائه أثر الخليل؛ إذ لم يكن بوسع أن يتخلى عن منهج الخليل في كتاب العين. خاصة نظامه التقلابي فكان المعجم الوحيد الذي سجل حصيلته هذا النظام من المستعمل والمهمل في خاتمة كتابه فكانت ستة ملايين وستمائة ألف وتسعة وتسعين ألفاً وأربعمائة، المستعمل منها خمسة آلاف وستمائة وعشرون، والمهمل ستة ملايين وستمائة ألف وثلاثة وتسعون ألفاً وسبعمائة وثمانون، ولولا آلية التقلاب لما تمكن الزبيدي من رصد هذه الكمية من مفردات اللغة، المستعمل منها والمهمل.

وكانت الحلقة الرابعة من المعاجم التقلابية على يد صاحب بن عباد (ت ٥٣٨٥هـ) في معجمه المحيط في اللغة، وهذه الإحاطة التي لم يكن يضمنها أو يقدر عليها سوى اعتماده على آلية التقلاب التي يرصد بها تقاليب كل مادة لغوية، فلا يفلت منها سوى المهمل، وعليه فإن صاحب قد اقتنع بمنهج الخليل، ويدل على ذلك مقدمته التي أدارها على التعليل والتفسير لما جاء في مقدمة العين، مما يدل على أنه أقام معجمه على بصيرة واقتناع بمنهج الخليل فوسمه بالمحيط برجاء أن يحيط بكلام العرب عن طريق تقليب جذور مواد المعجم.

أما الحلقة الأخيرة من المعاجم التي أدارت نظامها على التقلاب فكان معجم المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده الأندلسي (ت ٥٤٥٨هـ). وإن هذا العنوان يدل على ما كان يطمح إليه ابن سيده من وضع معجم محكم في بنائه ونظامه، وشامل لكلام العرب بمفرداته ومحيط باللغة في شروحه، ويتميز على حد تعبيره بالإشباع والاتساع، وأظنه اطلع على أنظمة المعاجم السابقة عليه، ووجد ضالته في منهج العين الذي اعتمد نظام التقلاب لجمع كلام العرب والإحاطة في جمع مستعمله، وتحقق له ذلك، ويشهد له ولأزهري ما ذكره صاحب اللسان في مقدمته بقوله "ولم أجد في كتب اللغة أجمل من تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري، ولا أكمل من

المحكم لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده الأندلسي، رحمها الله، وهما من أمهات كتب اللغة على التحقيق، وما عداهما بالنسبة إليهما ثنيتا الطريق .. (٥٩).

وهكذا ظهر لنا التأثير الطاعي لكتاب العين في التأليف المعجمي العربي فقد التزم بمنهجه في الترتيب والتنظيم عدد من المعاجم الجليلة، كما أسلفت، بحيث أصبح التقلاب من صميم نظامها المعجمي حتى صار هذا التقلاب عنواناً لها في الكتب التي تؤرخ للتأليف المعجمي عند العرب، وكتاب العين يعدّ رائداً وأساساً معتمداً لها، ولا أجد للتعريف بمكانة الخليل وريادة العين ومنزلته بين المعاجم، أفضل من التنويه الذي ساقه محققا كتاب العين (د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي في تقديمهما الذي يقولان فيه: "إن كتاب العين بالرغم مما قيل فيه، وما مني به من جحود وتحامل وتشهير ... كان مصدر إلهام اللغويين الذين احتفوه، ونهجوا نهجه، بل كان المادة الأساس لمعجماتهم وآرائهم في اللغة وفقهها، .. كان نقلة عظيمة نقلت التأليف المعجمي من طور السذاجة إلى طور النضج والاكتمال" (٦٠).

الحواشي.

- (١) أحمد الشرقاوي إقبال، معجم المعاجم، ط ١، دار الغرب الإسلامي، ٧ ج، ص ١٤٩.
- (٢) محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، قراءة وشرح محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ص ٢٣.
- (٣) محمد رشاد الحمزاوي، المعجم العربي: إشكاليات ومقاربات، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، تونس، ١٩٩١ م، ص ٢٧٧ - الهامش.
- (٤) الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، الجزء الأول: تحقيق د. عبد الله درويش، مطبعة العاني، بغداد ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م والجزءان الأول والخامس، تحقيق د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، دار الرشيد، منشورات وزارة الثقافة، بغداد ١٩٨٢م، ص ٣٢.
- (٥) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تصحيح وفهرسة أبي عبد الله السعيد المنذوه، ط ٢، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١-٢٣٧٢، ٢٥١.
- (٦) الفراهيدي، كتاب العين، ص ٥٣.
- (٧) المصدر السابق، ص ٦٥.
- (٨) المصدر السابق، ص ٥٥.
- (٩) المصدر السابق، ص ٦٧.
- (١٠) المصدر السابق، ص ٥٥.
- (١١) المصدر السابق، ص ٥٥.
- (١٢) إبراهيم بن مراد، مقدمة لنظرية المعجم، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٧م، ص ١٠٦.
- (١٣) فرحات الدريسي، حول نظامية المعجم، مجلة المعجمية، العددان ٩، ١٠، تونس ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، ص ١٥٠.
- (١٤) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٥١.
- (١٥) الفراهيدي، العين، ص ٦٦.
- (١٦) فرحات الدريسي، حول نظامية المعجم، ص ١٥١.
- (١٧) الفراهيدي، العين، ص ٦٦، ٦٧.
- (١٨) دي سوسير، علم اللغة العام، ترجمة يوثيل عزيز، مراجعة د. مالك المطلبي، بيت الموصل / الموصل، ١٩٨٨م، ص ٣٢.
- (١٩) دي سوسير، فصول في علم اللغة العام، ترجمة د. أحمد الكراعين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٥م، ص ٤٤.

- (٢٠) دي سوسير، علم اللغة العام، ترجمة المطلبي، ص ٣٢، وترجمة الكراعين، ص ٣٦، ٣٧.
- (٢١) إبراهيم بن مراد، مقدمة لنظرية المعجم، ص ١٢٢.
- (٢٢) المرجع نفسه، ص ١٢٣.
- (٢٣) المرجع نفسه، ص ١٠٦ وما بعدها.
- (٢٤) أبو بكر الزبيدي، مختصر العين، تقديم وتحقيق د. نور حامد الشاذلي، ط ١، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٧/١٩٩٦م، ج ٢، ص ٤٥٧.
- (٢٥) أحلام الجليلي: المعجم العربي بين المدارس النظرية والنظريات، مجلة المعجمية، العددان ٩، ١٠، (تونس)، ص ١١٩.
- (٢٦) جيفري سامبسون، المدارس اللغوية، ترجمه د. أحمد نعيم الكراعين، ط ١، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت ١٤١٣/١٩٩٣م، ص ٥١.
- (٢٧) سامسون، مدارس اللسانيات، التسابق والتطور، ترجمة د. محمد زياد كبة، الرياض، جامعة الملك سعود، ١٤١٧هـ، ص ٤٢.
- (٢٨) د. حمزه بن قبلان المزيني، التحيز اللغوي وقضايا أخرى، كتاب الرياض ١٢٥، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض ٢٠٠٤م (وفيه ترجمة لبابين من كتاب جون ليونز ١٩٨١م، Language and Linguistics تحت عنوان مدخل إلى اللغة واللسانيات)، ص ٢٤٢-٢٤٣.
- (٢٩) المرجع نفسه، ص ٣١٣، وانظر: نعوم تشومسكي، البنى النحوية، ترجمة د. يوثيل عزيز، ط ١، دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد، ١٩٨٧م، ص ١٧.
- (٣٠) د. حمزة بن قبلان المزيني، التحيز اللغوي وقضايا أخرى، ص ٣٨٤.
- (٣١) د. خليل عمارة، في نحو اللغة وتراكيبها، ط ١، عالم المعرفة، جد، ١٤٠٤/١٩٨٤م، ص ٥٧.
- (٣٢) الفراهيدي، العين، ص ٦٦-٦٧.
- (٣٣) د. خليل عمارة، في نحو اللغة وتراكيبها، ص ١٢٣.
- (٣٤) جلال الدين السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وعلي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٣، مكتبة الإيمان/ المنصورة، مكتبة التراث/ القاهرة، ص ٣٤٧.
- (٣٥) آدم منز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، ترجمه محمد عبد الهادي أبو ريده، ط ٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م، ج ١، ص ٤٣٧.
- (٣٦) أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط ٢، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، ص ١٣٥.
- (٣٧) المصدر نفسه، ص ١٣٤.

- (٣٨) المصدر نفسه، ص ١٣٥-١٣٧.
- (٣٩) الفراهيدي، العين، ج ٥، ص ١٨٨-١٩١.
- (٤٠) محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ص ١٤٥-١٥٢.
- (٤١) المصدر نفسه، ص ١٥٢-١٦٨.
- (٤٢) محمد رشاد الحمزاوي، المعجم العربي: إشكاليات ومقاربات، ص ١١٣-١٢٣.
- (٤٣) د. عبده الراجحي، فقه اللغة في كتب العربية، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٤م، ص ١٦٦.
- (٤٤) د. أسعد أحمد علي، تهذيب المقدمة اللغوية، ط ٣، دار السؤال للطباعة والنشر، دمشق ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م، ص ٥٩.
- (٤٥) المرجع السابق، ص ٦٠.
- (٤٦) المرجع السابق، ص ٦٣-٦٤.
- (٤٧) أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص ج ٢، ص ١٢٨.
- (٤٨) جلال الدين السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها ج ١، ص ٣٤٨.
- (٤٩) محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، ط ٧، دار الفكر، دمشق ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص ١٠٨.
- (٥٠) د. أسعد أحمد علي، تهذيب المقدمة اللغوية، ص ٦٧-٦٨.
- (٥١) أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ٨٤.
- (٥٢) جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ٣١٨.
- (٥٣) جلال الدين السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، ص ٩٤٨.
- (٥٤) ابن دريد، جمهرة اللغة، حيدر آباد، ١٣٤٦هـ، ص ٤١.
- (٥٥) المصدر السابق، ج ٣، ص ٥١٤.
- (٥٦) أبو علي القالي، البارع في اللغة، تحقيق الدكتور هاشم لطعان، بيروت، ١٩٧٥م، ص ٦٤، ٦٦.
- (٥٧) أبو منصور الأزهرى، تهذيب اللغة، تحقيق عبد السلام هارون وآخرين، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر، ١٩٦٤، ١٩٦٧م، ص ٣٨.
- (٥٨) المصدر السابق، ص ٤١-٤٣.
- (٥٩) أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، ط ٣، دار صادر، بيروت ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، ص ٧.
- (٦٠) الفراهيدي، كتاب العين، ص ٢٧.

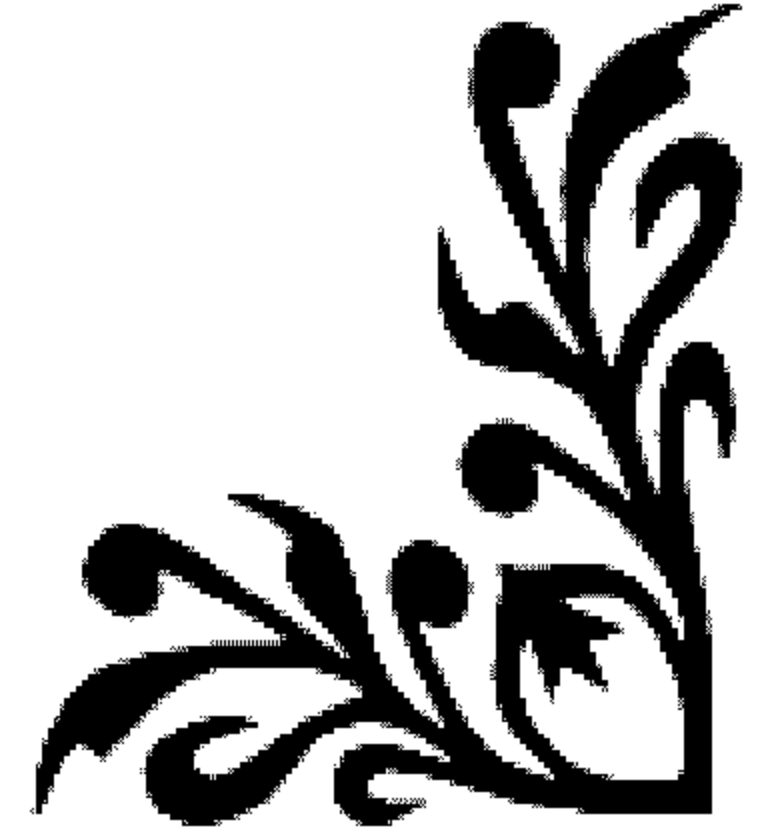


خليلي ينجي الخليل

٢٠٠٧

أ. د. صالح بلعيد

جامعة تيزي وزو - الجزائر





خليلي ينجي الخليل

أ.د. صالح بلعيد

ملخص:

وقع اختياري على هذا العنوان محاولة مني للتعريف بشخصية هذا العالم الفذ الذي ما أنتج التاريخ مثله. ودبجت هذه المساهمة في أسلوب مقامات متبوع بوجه بلاغي احتفاء بعظمة علمه الغزير الذي نقله إلينا الكتاب لسبويه. ومن هنا فإني رأيت مقاربة الموضوع في الشق اللغوي بالتركيز على إنجازاته اللغوية من خلال أول نظرية لغوية عربية في اللسان العربي، وقد تحدت معالم هذه النظرية في البحث في أصول النحو العربي بدءاً من الوصف العام للغة كما كان العربي يتلغى بها في محيطه الصافي، إلى اعتماد المشافهة (كلام العرب) وإلى سنّ الحدود النحوية، وهذا بناءً على شواهد من بادية الحجاز ونجد وتهامة، ومن القرآن الكريم. وبعد الوصف يأتي الحديث عن الأصول الأخرى مثل العلة والقياس والاجتهاد، وهذه الأمور تعدّ من الأصول التي بنيت عليها قواعد اللغة منذ أول عمل في النحو، وهو الكتاب الذي كان منه القسم الأكبر من أمالي الخليل بن أحمد.

اتسعت هذه المساهمة لتمسّ جوانب الاستفاضة في القراءة اللغوية للكتاب من خلال العلاقات العلمية التي أقامها مع مريديه الذين عملوا على توسيع نظريته وتفسيرها وفق معطيات عصرهم، ووفق الأرضية المعرفية التي امتلكها طلابه، علماً أنّ النحو بدأ ضعيفاً، لكنّه تنامى عند الخليل أثناء ترؤسه الطبقة الثالثة في النحو العربي، وهذه الطبقة هي التي أسست المدرسة النحوية البصرية، والتي أحكمت أصول النحو ومدّت القياس، وبعجت قضايا النحو التي لم تظهر معالمها في البدايات الأولى على عهد الدوّلي. ومن هنا نعرف أنّ الدراسات النحوية لم يقف فيها الاجتهاد، فقد تراكت المعرفة العلمية عليها إلى أن استوت في الوضع النحوي المقبول عند سبويه. ولا يعني ذلك أنّ الاجتهاد قد توقّف عندهما، بل امتدّ إلى

المبرد وغيره من أقطاب النحو العربي حتى الجرجاني وابن جني، وعدّ هؤلاء سلسلة من علماء تشيّعوا لمذهب البصرة في النحو. ولم يفتني هذا بأن أفت عند المنظومة النحوية التي نسبت له.

وإنّ هذه المشاركة لم تقف في حدود القضايا النحوية، بل عرجت على لطائف رأيها تخدم الجانب النحوي وعرجت على الحكمة عند الخليل، منوهاً بذلك الخطاب اللغوي البليغ المنقح، وبما تحمله الأبيات الشعرية من مذهبات حكمية لا تقف أمامها حدود الزمان والمكان، فأنعم بها من حكم.

بين يدي المساهمة:

اخترت هذا العنوان (خليلي ينادي الخليل) ولست بشاعر ولا أملك سجع الكهان، ولكنني أموت حباً في مبدع قواعد اللغة وباني الأركان، ولذا أنسج بعض المقامات في عبقرية اللغة العربية الخليل تتركاً في علمه الجبار، ومن هنا تروني أمزج بين خطاب اللغة، وخطاب البلاغة الذي اقتضاه الحديث عن الشيخ الهمام؛ فأناجيه أحياناً عند استتطاق أخباره وأعماله، وأتعبّد في محراب أقواله التي أراها تنزل قطرات من ذهب ومسك، فيا له من شيخ ينثر الدرر دون مقابل، فهل من مشرّ يدفع الرخيص ليأخذ النفيس، إيه يا شيخي الخليل كيف أناجيك وأمثالك كانوا وما عادوا ولن يعودوا، فجاد بهم الزمان مرة، وكانت طفرة الوقت التي كانت وما عادت، شيخي الخليل أناجيك وأنت عبقرية قلت أمثالك في الأنام، فلقد أحبيتك من خلال محاضرات أستاذي عبد الرحمن الحاج صالح الذي أدخل بعضاً من أفكارك في ذهني، وصادفت أن لقيت المكان المناسب من خلال مطالعاتي، وأعجبت بتواضعك وبما تحمله من نفس سامية وحكمة واعية، فأصبحت عندي جبلاً شامخاً، فأنت لست من أولئك الذين يُصلون ويصومون لأمر خاص، فإذا انقضى ذلك الأمر عادوا إلى ما كانوا عليه. ومن ذلك سرت على هديك وأخذت من أصولك، وعليها تأتيني إلهامات التصوير والإبداع. وعندما أكتب عنك وعن طلابك المبدعين تتثال بعض التعابير المنمقة انثيالاً، فتجد في ثنايا المكتوب مكاناً وتفرض وجوداً، فهي المدح على من جعلوا لنا النحو عماداً، وسنوا لنا سنناً حفظت اللغة دراية وتفصيلاً،

فكان فعلك عظيماً، وكنت في إقامة القواعد حازماً مضبوطاً، وأنت العالم الزاهد الولي الصالح النقي النجيب، أراك بدر التمام والكمال، وأنت وحيد دهرك الذي ليس لك صورة ولا مستسخ، فأنت أنت، ولن يكون غيرك أنت، إلى درجة أن قال فيك سفيان الثوري: من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل بن أحمد.

أيها الزملاء: لقد كان الخليل من أذكىء التاريخ وعباقره عصره، فالتف حوله المريدون يأخذون عنه العلم الوفير، فكانت مآثره على العلم تبركاً، وهو البسيط الصابر على شظف العيش؛ والناس تكسب من علمه الجاه والمال، فهناك من أكل الدنيا بعلمه، وهو قاعد في خص بسيط هادي قانع، يحمد الله على نعمة ما أوتيت لأحد نعمة العلم والفتنة والذكاء، فأنقى النعمة بشكرها، ولم يترق منصباً، ولا خاف من جبروت الخليفة، وهو الرفض دعوة سليمان بن حبيب بن صفرة والي فارس والأهواز، وعم أبي العباس السفاح لتدريس أولاده فأغراه بالمال، ولم يستجب فلوح لرسول الخليفة بكسرة يابسة قائلاً: ما دامت هذه في داري فلست بحاجة للأمير، وقال:

أبلغ سليمان أنني عنه في سعة	وفي غنى غير أنني لستُ ذا مالٍ
سَخِيّ بنفسي أنني لا أرى أحداً	يموت هزلاً ولا يبقى على حالٍ
والفقر في النفس لا في المال تعرفه	ومثل ذلك الغنى في النفس لا المال
فالرزق عن قدر لا العجز يُنقصه	ولا يزيدك فيه حولٌ محتالٍ

كان رفضه حاداً؛ لأنّ الأمير أراد أن يأخذه معلماً لابنيه، بدل معلم عامة الناس؛ وأكرهه، فرفض. وقال:

ما أرتضيه منه لا يأتيني وما يأتيني منه لا أرتضيه

وكأنّي بالخليل راهب متبتّل في محراب العلم، وشعاره أنّ العالم لا يسعى لأحد، وإنما يسعى إليه. إيه يا أيها الخلّ الوفي الصافي المودّة؛ أقف في هذا المقام إجلالاً لشخصك وشخصيتك البسيطة العالمة المتواضعة، فأنت نموذج للتواضع

الذي لم تُعمه الشهرة ولم يبطره المجد، شخصية عظمت في عيون الناس، باعتباركم أحد الأربعة الذين لم يُذكر مثلهم في الإسلام في فنونهم: الخليل، وابن المقفع، وأبو حنيفة، والفرزاري^(١). وأردّد قول الشاعر علي بن أحمد الشريف بن مالك الذي هام في مدح ممدوحه فقال:

سُعدتُ فبشرى إذ مُنحتُ بحبكم وذاك مُناني في الدنيا ومرام
لقد أضرمتُ نارُ الخليل بمهجتي فهام لها دمعي كقصرِ غمام

أجد نفسي، هنا، في مقامات شتى: أتمثل الخليل نابغة عصره؛ حيث بلغ في العلم مكانة لا يعرفه التاريخ لغيره؛ فكان لغوياً جماعاً؛ أمسى في الربع الخالي عفيفاً، فاستهوته البيئة لمشافهة الأعراب والسماع إليهم فجاب بوادي الحجاز ونجد وبهامة مواجهاً العرب في صحرائهم، مستمعاً لأحاديثهم في أسواقهم، وأراني مستفيداً مذاكراً مفيداً، ألم يقل ذات يوم: إذا ما حلت في مجلس ووجدت من هو أعلى مني علماً فذاك يوم استفادتي، وإذا وجدت من هو مثلي علماً، فذاك يوم مذاكرتي، وإذا وجدت من هو أدنى مني علماً فذاك يوم إفادتي. وفي هذه الندوة نجد الثلاثة مجتمعة نستفيد من أساتذتنا الكرام الذين كانت لهم صولات في التنقيب عن أصول الخليل، ونتذاكر مع الإخوان المحاضرين الذين شقوا طريقه والتمسوا منهجه في مدرسته القديمة، فيغرفون من مائها الصافي، وبهم يتجدد لقاء العلم بفتح مغاليق مستعصية، ونفيد الذين لهم رغبة الاستزادة من علم الخليل، واستكناه الأصول لنظرية الخليل التي نبتغي فيها فصل الخطاب، بأمانة وشارة تحصل في علم الطلاب وتزيدنا علماً بنخيرة عربية مسائرة لحدث العصر والأوان، وما لها منتهى ولا زمان، فهي الإنترنت العربي الذي به نفاخر الأغيار، وعن طريقه نستدرك رحلات النقصان، وما قيل من عجز في لغة القرآن.

إنني في هذا المقام، وأنا أتناول الخليل بن أحمد بن عبد الرحمن "أبو عبد الرحمن" الفراهيدي الأزدي اليمحدي العربي، فماذا عساني أغرف من بحره اللجاج، فلا أملك إلا هذا الاختصار: إن الشيخ الخليل المولود بعمان (سلطنة عمان) في ٧١٨/٥١٠٠م والمتوفى بالبصرة (العراق) في ٧٩٠/٥١٧٥م الذي فارقنا جسداً

منذ خمس عشرة سنة ومائتين بعد الألف (١٢١٥) ولما يمت علمه وفكره، وامتدّ بأقطابه الميامين فهو حيٌّ حييٌّ بعلمه وعلم حواريه، كما علا شأنه بعقري كبير سيبويه العظيم؛ الذي عمل على إخراج أماليه في سفر كبير يتجاوز الألف ورقة، مبتغاه دراسة اللغة واستخراج قوانينها العامة وجمع مفرداتها فنهج الطريق لطلابه لأخذ النحو على أنه مجموعة القواعد والأصول العامة، وكما نزجى الفضل في هذا المقام لأبي الحسن الأخفش الذي أطلق على عمل سيبويه اسم (الكتاب) تحرجاً من أن يعطى له اسماً لم يعطه سيبويه ويتعدّ فضله أكثر بتبنيها إلى فضل الكتاب، الذي لا مثيل له في اختصاصه، فأجازه وباركه، وقال عنه إنه الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس، ووصل صدهاء كل الأصقاع، حتى قيل فيه العجب، ومن ذلك ما قاله صاعد بن أحمد الأندلسي "لا أعرف كتاباً ألف في علم من العلوم قديمها وحديثها، اشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب" أحدهما المجسطي لبطليموس في علم الأفلاك، والثاني كتاب أرسطو طاليس في علم المنطق، والثالث كتاب سيبويه البصري النحوي؛ فإن كل واحد من هذه لم يشذ عنه من أصول فنّه شيء إلا ما لا خطر له^(٢). وفيه قال أبو حيان الأندلسي المتوفى ٥٧٤٥ هـ "إذ هو المطلع على علم الأعراب، والمُبدي من معالمه ما درس، والمنطق من لسانه ما خرس، والمُحيي من رفاته ما رُمس، والراد من نظائره ما طُمس، فجدير بمن تآقت نفسه إلى علم التفسير وترقت إلى التحقيق فيه والتحرير أن يعتكف على كتاب سيبويه^(٣)".

إنّ الخليل ليس من المقلّين في التّأليف، فقد ترك ذخيرة كبرى ظهرت في أماليه لسيبويه، فهذا بروكلمان يقول: إنّ الخليل هو المؤسس الحقيقي لعلم النحو الذي وضعه سيبويه في كتابه بعد أن تلقاه عنه، كما ترك المنظومة النحوية المنسوبة إليه من قبل خلف الأحمر المتوفى ١٧٥ هـ وأكد المحققون المنقبون تأصيل النسبة للخليل من خلال صدق المادة التي حملتها، رغم أنها لم تأخذ حظها من الظهور؛ حيث نجوهلت لأنها تهتمّ بالجانب التعليمي وهذا الجانب عادة لا يهتمّ إلا بالقضايا العامة؛ حيث لا يدخل في التفاصيل، ولكن من خلالها تجلّت خطواته في

مسار النحو محكمة القواعد في أصولها، فأضحت قواعده مؤكدة ثابتة النسبة دون غموض أو التواء، وأضحت أفكاره مدار اللاحقين إلى الآن. إلى جانب كتب أخرى نالها النسيان، ولم تصل إلينا، ولكنها منسوبة للخليل: النغم/ الإيقاع/ العروض/ كتاب النقط والشكل/ كتاب الشواهد: كتاب في العوامل/ كتاب الجمل/ كتاب فائت العين/ المعنى/ جملة آلات العرب/ كتاب في معاني الحروف...

الخليل وسيبويه:

لقد أكثر سيبويه من الإشارة والإشادة بشيخ الخليل، وصدره في مواقع كتابه، وهذا بعدما صبّ الخليل شأبيب أفضاله عطفاً عليه، فكان يحبه ويهش للقائه، فهو الفارسي المدلل الذي لا تملّ زيارته، إنه بولس للمسيح، وأبو هريرة للرسول ﷺ سيبويه المحبّ للعربية وطالبُ نحوها، بعدما أخطى في مسألة الاستثناء وحماد بن سلمة يملّي عليه حديث رسول الله ﷺ ليس من أصحابي أحد إلا لو شئت لأخذت عنه ليس أبا الدرداء، فقال سيبويه: ليس أبو الدرداء، ظنّه اسم ليس، فصاح به حماد: لحنّت يا سيبويه، ليس هذا حيث ذهبت إنما هو استثناء، فقال: لا جرم والله لأطلبن علماً لا تلحنني فيه أبداً. ومضى إثر ذلك ولزم الخليل لزوم المرید ومن هنا كانت البداية الأساس لنحو أساس، حتى تجمعت لديه أدوات النحويين واللغويين والجماع والفقهاء والمتأدبين، وبدا كان الخليل موجّهه ومسير طريقه، وما استكان شغفه ولا هدأ؛ يطلب المزيد، ولما رآه الخليل قد فطر الفطنة، قرب مجلسه وأدنى مقامه، وجعله واسطة عقد الأفاضل، ورأس الرؤساء الأوائل، وحافظ السرّ وناظم الدر في سطور كتابه الملقب بقرآن النحو والبحر المحيط. لقد كان الطالب سيبويه وفيأ لعلمه، وأخرج أقواله في مصنفه العظيم (الكتاب) بعدما كانت أمالي متناثرة، فكان ضابطاً صادقاً في نقوله، وهذا بشهادة يونس بن حبيب الذي قيل له: "إنّ سيبويه ألف كتاباً من ألف ورقة في علم الخليل، فقال: ومتى سمع سيبويه من الخليل هذا كله، جيتوني بكتابه. فما نظر في كتابه ورأى ما حكى قال: يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل في ما حكاه، كما صدق في ما حكى عني"^(٤). لقد جاء بناء كتابه قائماً على التعليل والحوار الذي جرى بينه وبين الخليل

بالسؤال عن العلل، وما كانت هذه العلل تذهب بعيداً وراء التفسير المباشر، بل إنها تبقى في ضوء الشكل التركيبي للعبارة، ومع هذا فإنّ الكتاب عمل غير مسبوق في منهجه ودرسه، وإن وردت إشارات عن كتابي: الإكمال والجامع لعيسى بن عمر.

لقد جمع الكتاب ما تفرّق ممّن تقدّمه من العلماء من علوم العربية، حتى أصبح سجلاً لآراء الخليل في النحو فأكثر فيه من قوله: سألت الخليل، وكلّما يقول: وسألته، أو قال، من غير ذكر القائل فيعني به الخليل، ويقول علي النجدي ناصف في كتابه (سيبويه إمام النحاة) قال: "إنّ جملة ما روي عنه في الكتاب ٥٢٢ مرة، وهو قدر لم يرو مثله ولا قريباً منه عن أحد من أساتذته"^(٥) وهذا ما يجسد خصوصية الأستاذية التي تفرّد بها علم الخليل في علم سيبويه. ويرى حنا حداد أنّه ورد اسم الخليل صراحة في الكتاب، أو عناه دون تصريح باسمه ٥٤٨ مرة^(٦).

وهناك من يقول بأنّه "تردّد اسم الخليل في اثنين وثلاثين وثلاث مئة موضع، عدا ما كان يرويه عنه بقوله: سألته أو زعم أو قال أو يقول"^(٧). وقد أكّد هذا أحمد خالد توفيق^(٨) كلّ ما قال سيبويه: سألته، أو قال من غير أن يذكر قائله فهو عن الخليل^(٩). وأحياناً يشير إليه بقوله: حدّثني من لا أتهم/ حدّثني من أتق بعربيته، ويرى عبد السلام محمد هارون أنّه روي عنه ٢٠٠ مرة "بلغ نقله عن الخليل ٢٠٠ رواية، فكان ثاني العلماء الذين أكثر النقل عنهم، وهو كان معبراً لسيبويه في الرواية عن أبي عمرو بن العلاء أو عن ابن أبي إسحاق، وربّما استعمله سيبويه معبراً في الرواية عنهما جميعاً في رواية واحدة كما في الكتاب^(١٠)، كما يستعمل في أبيات الشعر غير المنسوبة قوله (أنشدنا) ويقصد به الخليل.

إيه خليل، لا أقبض على الكلمات التي تعطيك حقك، فأنت الذكي الفطن، وخلقّت من ذهب، وسبقت عسرك فأني لي أن أجد ما يوفي الوصف في حقك، وقد قيل فيك: الخليل رجل عقله أكثر من علمه/ لم يأت في العرب بعد الصحابة من هو أدكى من الخليل.

الخليل وأصول النحو:

كان الخليل من الواضعين للقواعد بشكل استنباطي من القرآن الكريم، ومن كلام العرب فكانت قواعده عملية تطبيقية، وله فضل النهوض بهذا العلم الذي وطّد أركانه أبو الأسود الدؤلي في أول تحليل عملي للنصّ القرآني في وضع علامات مميزة لتمييز موقع الرفع عن النصب وعن الجرّ، وهذا عندما هزه اللحن في قراءة القرآن الكريم، وذات الأمر أرقّ الخليل، فسعى إلى تطويقه وإنقاذ اللغة من خطر اللحن، فبدأ يضع أصول اللغة؛ وبها أصلح ألسن الناس وحمى اللغة العربية، وكفل لها التداول، وبقيت خالدة لا يدنو مشيب من حماها، وكان الخليل رأس الطبقة الثالثة؛ حيث درس اللغة العربية على أساس من فقه اللغة، بادئاً بالحروف؛ منذوقاً فيها ومستخرجاً حقائقها وخصائصها، ثمّ الكلمات ودلالاتها، ثمّ التراكيب وهذا ما أتاح له وضع القواعد الأولى التي سماها الأصول، وحدّد من خلالها الفروع، وترك المجال لطلابه لتوسيعها، ويورّخ للاشتقاق ومختلف التقلبات التي كان يجريها على الكلمة. لقد كان منطلقه اللفظة النواة التي تشكّلها التسعة والعشرون صوتاً في اللسان العربي؛ وهذا ما ظهر في معجم العين الذي رتب مخارج حروفه بادئاً بحروف الحلق، وجعل حروف العلة آخر شيء: ع ح هـ (حلقية) خ غ (لهوية) ق ك (شجرية) ج ش ص (أسلية) ص س ر (نطعية) ط د ت (لثوية) ظ ث ذ (ذلقية) ف ب م (شفوية) واي (هوائية) وجمع هذه الحروف في بيت شعري:

صِفْ خَلْقَ خَوْدِ كَمَثَلِ الشَّمْسِ إِذْ بَزَغَتْ يَحْظِي الضَّجِيعُ بِهَا نَجْلَاءُ مِعْطَارُ

ولقد استهدف في عمله المعجمي دراسة اللغة، واستخراج قوانينها العامة، وجمع مفرداتها في معجم سهل على الدارسين تناوله، والوقوف على جزئياته ومسائله، والخلوص إلى منهج قويم، فكانت الغاية عنده تحديد المادة التي ترتبط بشكل مباشر بفكرة الاشتقاق؛ فالمادة أو الجذر تمثل الأصل، والصيغ تمثل الفروع المشتقة، وهذا يعني أنّ تحديد الجذر مهم جداً للترتيب المعجمي "وهذا المنهج ابتكره الخليل، ويقوم على حشد جميع الكلمات التي تتكوّن من حروف واحدة في مكان واحد، مع وضعها تحت أبعد الحروف مخرجاً، بالإضافة إلى مراعاة الكمّ في

البنية اللفظية للكلمة، وجعل لكل حرف كتاباً. وابتدأ بأبعد الحروف مخرجاً وهو الحلق ومنتهاً بحروف الشفتين، وسلك هذا المنهج الأزهري في تهذيب اللغة (ت ٥٣٧٩) في مختصر العين، والقالبي (٥٣٥٦) في البارع وغيرهم^(١١). لقد كان الخليل يعتمد طريقة لغوية يغلب عليها الحسّ اللغوي، وتبني على دعائم قوية من التدوَّق للأساليب العربية "رأى الخليل أن أصول الكلمات العربية تسعة وعشرون حرفاً، وهي حروف الهجاء وأن الكلمة العربية لا تخرج أبداً عن كونها مؤلفة من بعض هذه الحروف، وبدأ عمله بتدوَّق الحروف، فهدها تدوِّقه إلى ترتيب الحروف ترتيباً جديداً كان أول الحروف فيه هو العين"^(١٢).

وإنها لطرافة عالم عبقرى، أدته إلى تدوَّق الموسيقى، فتوصل إلى استخراج أوزانها وأضربها، وقسمها إلى تفعيلات وأسباب وأوتاد، وأدى به هذا إلى التمييز بين كلمة عربية وكلمة غير عربية لمجرد خروجها عن الوزن، فكان أستاذاً عملياً تجريبياً يستقرئ القواعد من المسموع، وهدها تفكيره الفذّ إلى حصر الكلمات في الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي، وإلى تصوّر فضايا الزوائد عن طريق نظام بديع: حروف الزيادة/ كلمات مستعملة/ كلمات مهملة، ويؤدّي به الإحصاء إلى أن عدد أبنية كلام العرب يبلغ ١٢ مليوناً، و ٣٠٥ ألف، و ٤١٢ كلمة. ويحددها الأستاذ عباس الصوري في هذا التقسيم بقوله: "وهكذا انتهى في إحصائه إلى عدد البنيات المحتملة:

$$\text{في الثنائي: } 27 \times 28 = 756$$

$$\text{في الثلاثي: } 26 \times 27 \times 28 = 19656$$

$$\text{في الرباعي: } 25 \times 26 \times 27 \times 28 = 400491$$

$$\text{في الخماسي: } 24 \times 25 \times 26 \times 27 \times 28 = 41230512$$

فمنها المستعمل، ومنها المهمل. وتناولها أبو بكر الزبيدي في مختصر العين، فاستخرج منها ما هو مستعمل فعلياً، فوجده لا يتعدّى ٥٦٢٠ والباقي مهمل^(١٣). ويمكن توضيح ما أتاحتها التقاليد في حصر المادة المستعملة والمهملة كما يلي:

الثلاثي = 6

الرباعي = 24

الخماسي = 120

السداسي = 720.

وفي الحقيقة، إن الخليل كونه رياضياً استعمل أسلوباً رياضياً إحصائياً في المادة المجتمعة. وبذلك الصورة الرياضية استطاع حصر ما يمكن أن تكون عليه الكلمة من وجوه بحسب ترتيب حروفها، والنظر إلى كل واحدة في ما يلحقها من زوائد، وابتدع طريقة المخارج التي أصبحت بعد ذلك مدرسة سار عليها بعض صنّاع المعاجم فكانت نظريته سابقة عصره، وأبانت اللغة بذلك عن خضوعها للتطور العام الذي يطرا على المجتمع، فهي ظاهرة اجتماعية تخضع لتلك الظواهر^(١٤).

كما عني بدراسة النحو دراسة علمية منظمة، على اعتبار أن النحو أبو العلوم وواسطة عقدها، ورياضة عقلية ضرورية لا غنى عنها لفهم النصوص؛ ووقع تركيزه على النحو باعتباره مجموعة من القواعد العامة الأصلية التي لا يستغنى عنها أي علم، وهناك الفروع التي تخرج منها، فكان زعيم المدرسة القياسية المقتنئة، وقال الزبيدي وهو الذي بسط النحو ومدّ أطنابه، وسبب عله، وفتق معانيه، وأوضح الحجاج فيه، حتى بلغ أقصى حدوده، وانتهى إلى أبعاد غاياته، ثم لم يرض أن يؤلف فيه حرفاً أو يرسم رسماً وترفعاً بقدره، إذ كان قد تقم إلى القول عليه والناليف فيه فكره أن يكون لمن تقمه تالياً، وعلى مظهر من سبقه محتنباً واكتفى في ذلك بما أوحى إلى سيبويه من علمه، وثقته من دقائق نظره عنه وتقلده، وألف فيه الكتاب الذي أعجز من تقم قبله، كما امتنع على من تأخر بعده^(١٥). فإن كان الخليل كبير هذا الفن وخبيره، فإنه مقم هذا النوع، فلا يزهد طالب عن علمه، وهو واضع رموز الفتح والضم والكسر والشذ والمذ والوصل والإشمام والروم إن الجهد الذي كان قد بدأه كل من نصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر... أدى إلى أن يكون في العربية رسم لكل من الفتح والكسرة والضمّة كما أن الخليل هو الذي ابتكر رسم الهمزة^(١٦). ومع ما قتمه من جهد في الكتاب نجد

غياب المنهج الذي سلكه في إنجاز الكتاب، ومن ذلك نلمس بعض الإبهام والغموض، لأنه نهج منهج الفطرة والطبع؛ يدرس أساليب الكلام في الأمثلة والنصوص ليكشف عن الرأي فيها صحة وخطأ، أو حسناً وقبحاً، أو كثرة وقلة، لا يكاد يلتزم بتعريف المصطلحات ولا ترديدتها بلفظة واحدة، أو يشترط شروطاً.

لقد كان الخليل يعنى بالأصول، ويوضح الأستاذ الحاج صالح معنى الأصل قائلاً "هو ما يوجد ويستمر في جميع فروع، وهو ما لا يحتاج إلى علامة، وهو بذلك يستغني عن فروع، إذ يبني عليه ولا يبني على غيره فكل عنصر من هذه الحثية هو أصل لغيره أو فرع لشيء آخر، وهذا لا ينطبق فقط على ما نسميه بالاشتقاق بل يتناول أيضاً تفريع الألفاظ التي هي في أجزاء الجملة وتراكيب الجمل كيفما كانت^(١٧)". كما ينسب المسائل التي لا تنطبق عليها الأصول إلى شذوذ، فكانت الدراسة اللغوية عنده وعند تلاميذه تغلب عليها صفة اللغة، حيث طغت الدراسات القرآنية، واستطاعت المحافظة على الروح التي أوجدت لها، فكان عمله رائعاً، فهو تأسيس متين ومجهود أتم بملاحظات عينية واقعية استعمالية، وكان لأرائه صدى في نفوس طلابه، وفي تأسيس مدرسة نحوية كبيرة أثرت لاحقاً في المدارس الأخرى التي نشأت معارضة. كما كان تناوله للقياس من بعض النظرات الافتراضية، حيث يفترض مسائل جديدة، ويتتبع وجوه الفرضيات واحدة واحدة؛ محاولاً استخراج جميع الصور المحتملة في المسألة الواحدة، وأحياناً يفترض آراءً جسورةً في أن للكلمات تأثيراً في بعضها فعمق النظر في باب العامل، وأعمل فيه عقله فيما يمكن أن يقبله العقل، بادئاً بأثر الحركات إلى أثر الحروف وأثر الكلمات ودواعي الأثر، فانفتح أمامه التعالق والتعلق بين الألفاظ، وهذا من التعالق الأولي بين الأصوات والكلمات والبناء والميزان الصرفي وما يعرض لها من تغيير في أصول بنائها. وفي كل هذا يرى أن أثر كل كلمة في الأخرى هي من طبيعة اللغة التي تتفاعل فيها الكلمات، ومن ذلك وجدت علاقة الاسم بمسماه، وعلاقة الفعل بفاعله وعلاقة الفعل والاسم والحرف... وبحث مريدوه في هذه الظاهرة، فأوجدوا لبعضها التعليل وبعضها قالوا: هكذا نطقت العرب.

وأما العلة عنده فهي علة واعية عميقة وظيفية تربوية، وبابها الاجتهاد، ونراه يقول بالرأي، ولم يعتمد على أثر، واكتفى بغلبة الظن، ولم يرجع إلى ثابت اليقين، ولذلك طلب ممن تبدو له علة خير من علة أن يأتي بها "إن العرب نطقت على سجيبتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علة، وإن لم ينقل ذلك عنها. واعتلت أنا بما عندي أنه علة لما علته منه. فإن أكن أصبت العلة فهو الذي التمس، وإن تكن هناك علة له؛ فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل داراً محكمة البناء عجيبة النظم والأقسام وقد صحت عنده حكمة بانيتها بالخبر الصادق اليقين، أو بالبراهين الواضحة والحجج الملائمة، فكما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال: إنما فعل هذا هكذا لعل كذا وكذا، ولسبب كذا سنحت له وخطرت بباله محتملة لذلك. فجاز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلّة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار، وجاز أن يكون فعله لغير تلك العلة. إلا أن ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة لذلك، فإن سنح لغيري علة لما علته من النحو هي أليق مما ذكرته بالمعلول فليات بها^(١٨)". وهكذا نرى أنه يفترض العلة الواحدة، ولكنه لم يعلق باب الاجتهاد للبحث في العلاقات التي تحدثها الكلمات. ويوصي والنج النحو أنه لا يدرك كنهه ما لم يدرك العلة، ويربط ذلك بالعوامل اللغوية والفلسفية والتوقيفية: سماعاً وقياساً، لفظاً ومعنى، أصلاً وزيادة، وشبه زيادة، قوة وضعفاً^(١٩)". وبهذا النص أرى الخليل يبحث عن الدليل والبرهان العقلي الذي يرتبط بالفكر وبالواقع وصولاً إلى الانتظام في وضع القواعد ففي كل باب يعلل بالحجة التي يطمئن إليها من الأوضاع اللغوية والحالات العامة التي نطق بها العرب على سجيبتهم، وكان عليه أن يستعمل التعليل العقلي الذي يوصله إلى مجرى القوانين اللغوية المستمرة التي تتفرّع عنها كثير من الأحكام التي تتخذ شكل قوانين مطردة، ففتح بذلك باب التفريع والتخريج في مسالك العلة، ونقل البحث في العلة إلى التجريد.

كما امتدّ نبوغه إلى موضوعات ثقافية عدّة، فبرز فيها، وكان فيها مبدعاً، أضف إلى هذا أن له إماماً باللغة اليونانية والسريانية، وهذا ما توضّحه الشواهد

التي أتى بها في معجمه العين^(٢٠)، وقد قال بروكلمان المستشرق الألماني: ويبدو حقاً أنه ابتكر شكل الحروف وعلامات القراءة، استناداً إلى نماذج سريانية^(٢١). أضف إلى هذا أنه كان صديق ابن المقفع الذي ترجم منطق أرسطو إلى العربية، فيمكن أنه أثر فيه. ومهما يكن فإنه استفاد منها وأكسبته عمقاً في التفكير، وقدرة على الإحاطة بالموضوعات العامة والخاصة، ولكنه لم يتأثر بها فيما أتى به للغة العربية؛ حيث كانت مصادره بوادي نجد والحجاز وتهامة، فانصرف لمدارسه النحو أمثالاً لقول شيخه أيوب السختياني: تعلموا النحو فإنه جمال للوضيح، وتركه هجناً للشريف، فدرس أثر الاستعمال الفعلي للغة وتعرف على مواطن التخفيف والنقل والإشمام والإدغام والكلمات السهلة من الصعبة، ومواطن التبديل، وكيف تتألف الكلمات أو تتنافر، ورأى الأسماء في العربية لا تقل عن ثلاثة أصول، ولا تزيد على خمسة أصول ليس للعرب بناء في الأسماء ولا في الأفعال أكثر من خمسة أحرف، فمهما وجدت زيادة على خمسة أحرف في فعل واسم فاعلم أنها زائدة على البناء وليست من أصل الكلمة، مثل: قرعلانة، إنما أصل بنائها قرعل، ومثل: عنكبوت، إنما أصل بنائها عنكب^(٢٢).

النظرية الخليلية:

أجراً للحديث عن النظرية الخليلية القديمة، وهذا بالعودة إلى الكتاب في بعض مراميه وسأكون مختصراً؛ بالإشارة إلى عناصرها الكبرى من خلال الكتاب، لأقول: إن كتاب سيبويه في الحقيقة ينقسم إلى قسمين؛ تناول في القسم الأول مباحث النحو، في أبواب عديدة ولم ينس المفردات النحوية في كل مجالاتها العامة والخاصة، ولا يمكننا أن نحيط بها لكثرتها. وفي القسم الثاني عالج مباحث الصرف، متحدثاً عن الأصوات اللغوية بكل تفاصيلها، وهذا عند تطرقه لباب الإدغام ومختلف الظواهر الصوتية؛ فقد ميز بدقة متناهية بين الأصوات ووصفها، ثم بين مخارجها وشدتها وضعفها أو قوتها وهمسها... وأكثر الحديث عن مفهوم الحركة والسكون، واستفاض في الإمالة والإشمام والروم وغير ذلك. ومع كل هذا فإنني لمست الكتاب يستكمل عمل أبي الأسود الدؤلي الذي زرع فسيله، فنما على

كرّ الزمان، بإضافة اللاحق إلى السابق، فازداد فيه التدوين والتصنيف شيئاً فشيئاً. وجاء الخليل بفريقه يحطّ القواعد في الكتاب، وفق نظرية نحوية تجسّد القوانين العامة التي تنطلق من المبادئ الآتية:

أولاً: المشاهدة للحوادث والاعتماد المطلق على المسموع الثابت:

فيلاحظ التحرّج والتحرّز من الاصطناع عدا نقل ما سمع وشاهد، وما يقوله أكثر العرب، فوق الاهتمام في هذه النقطة على تجسيد قول العرب: الخروج من حدّ القلة إلى حدّ الكثرة، مع عدم هدر ما قلّ استعماله إذا لم يخالف القياس.

ثانياً: الرجوع الدائم إلى واقع كلام العرب مع الاعتماد على الثابت منه:

وهي سمة اعتمدها النحاة الأوائل المشافهون لفصحاء العرب، والوفاء للواقع اللغوي بنقله دون تصرّف، بمراعاة معيار اللغة^(٢٣).

ثالثاً: مفهوم الفصاحة:

إن مفهوم الفصاحة عند الخليل تبدأ من النسق اللغوي المحدّد لأصول الكلمات، فتأليف أصول الكلمات المتباعدة المخرج فصيحة، والمتقاربة المخرج حسنة، وذات نفس المخرج قبيحة، فهذا إجراء أولي يعتمد الخليل في المادة اللغوية التي ينطلق فيها من اللفظة المفردة (النواة) وهي عماد الجملة، واللفظة الفصيحة هي الحسنة الخالية من الوحشي والمستكر والغريب والناذر، والفصاحة درجات، وتتجلّى فائدتها في الممارسة والاستعمال. فصاحة اللفظة المفردة يحكمها قانون الرواج والاستعمال الذي يأخذ به الجمهور. ومن هنا تحصل غرابة اللفظة في قلة الاستعمال. ومن هنا فإني رأيت تأكيد بعض أركان النظرية الخليلية من خلال ما تمتاز به من شمول، وإن كانت صلاحيتها أثناء الوضع تصلح للعربية ذوقاً وعرفاً واستعمالاً، حيث وصف الأصوات من حيث جهرها ورخوها وشدتها وهمسها وطباقها... ولم تفنّدها الآلات المعاصرة، كما خاض كثيراً من الميادين، فأجاد حتى شكّلت نظريته مؤسسة متكاملة من المعارف أحكم أمرها من خلال اكتمال نظريته المعرفية فرضاً واستعمالاً، فالعروض لديه بدا نظرة إيقاعية يخرج منها ويأتي إليها في كلّ جهد شدّ به المفكرون والدارسون حتى اليوم، والمعجم العربي لديه هيكل

لبناء لغوي حوى الشارد والوارد، الواقعي والمتخيل^(٢٤). وهكذا تتجلى نظريته في أسسها الكبرى كما عرضها الكتاب، ويمكن أن نستخلص منها الآتي:

١. **عنايته بدراسة الناحية الصوتية والحروف:** وفي هذا المجال يعتمد على الناحية النوقية عنده، والجهد الشخصي، فكان منهجه مدرسياً ينصب على الثقليات الصوتية، ومنه وضع فن الموسيقى العربية وعلم العروض والقافية.

٢. **اهتمامه بالأصول،** لم يهتم الخليل بالمسائل الجزئية عنايته بالأصول، حيث كان يستعين بالتجربة والتذوق للوصول إلى هذه الأحكام، فمزج بين الاستقراء والاستنباط، وكان همه تعديد القواعد، واستخراج الأصول وتقرير الأحكام المختلفة. ولقد كان الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه، والعودة إلى الأصل الذي يحدده في ما يبني عليه ولم يبن على غيره، باعتباره العنصر الذي لا زيادة فيه أو النواة، يستقل بنفسه. والفرع هو الأصل بالزيادة؛ أي مع شيء من التحويل. وفي هذه المرحلة تحدث عن السماع والقياس والعامل والعلّة والباب...

٣. **اهتمامه الخارق بالنحو وجعله في علو الطبقة:** وربما يتدخل العامل الديني الذي كان السبب في هذا المجال، مما جعله يبدع ويخلق القوانين التي تنتظم اللغة. ففي الكتاب نجد انتظام شتات النحو، والتثام عقده واتخاذ دوره الفني. فلقد شمر الجميع عن سواعد الجد ونزلوا الميدان، وكان ديدنهم العمل على جعل لغة القرآن لغة عالمية، فبذلت فيها جهود جبارة في استكمال الإحاطة بجميع قواعده حتى استوى النحو على قدميه، ومثلت صورته بارزة للجميع. ومجمل القول: إنه لم ينصرم هذا الطور حتى قطع النحو شوطاً كبيراً شارب فيه النهاية فكان الكتاب المرآة التي تتكشف بها صورة التأليف الأولي الذي يعود فيه الفضل إلى الخليل؛ الذي كان يقضي في البادية زمناً، ثم ينزل البصرة فيعطي المادة المجمعة إلى سيبويه؛ الذي يعمل على ترتيبها وتصنيفها وتبويبها. والحق كل الحق أقول: لقد كان الخليل أسرع من أن يدركه الزمن، حيث كان يملئ الكثير على طلابه لا يمل ولا يتعب، وكان الطلاب يتعبون ويشفق عليهم، فكان هو وجيله من السعة والدقة؛ بحيث نعدّهم نحويين متخصصين، وكانوا موسوعيين مهّدوا لظهور النحو في

صورته الكاملة.

٤. **وضعه للمصطلحات النحوية:** نلاحظ في هذا الوضع تلك الأصالة في صورته البسيطة الآتية من الوصف الفطري الطبيعي، ومن هنا نجد في بعض المصطلحات الغموض في أسلوب الكتاب، وهذا طبيعي باعتبار المصطلحات التي يحملها جاءت وفق الألفاظ التي كانت تُداول في عصره، فتكلم بها، أضف إلى ذلك أن الكتاب أنجز في المرحلة التأسيسية، ولم يتطور فيها علم المصطلح النحوي، ولذا نجد أمثال:

● هذا باب ما يعمل فيه الفعل فينتصب وهو حال وقع فيه العمل، وليس بمفعول (الحال).

● هذا باب ما استكرهه النحويون وهو قبيح فوضعوا الكلام فيه على غير ما وضعت العرب.

● هذا باب ما يُختار فيه النصب وليس قبله منصوب بُني على الفعل (الاستفهام)...

٥. **تركيزه على أبواب النحو:** ما يلاحظ أن مفردات الكتاب تصدرت بـ (هذا باب...) والباب عنده غير محدد في صورة المفهوم، أو المعاني المشتركة، أو النمط النحوي... بل هو المجموعة التي تنضوي تحتها سلسلة المفاهيم النحوية/الصرفية/الدالية، وتشملها قاعدة مشتركة مطردة، وأحياناً تحصل فيها بعض الاستثناءات في جزء من أجزاء المجموعة، ولاحظ مثلاً هذه الأبواب:

● هذا باب ما الكلم من العربية.

● هذا باب ما يجري مما يكون ظرفاً هذا المجري.

● هذا باب الصفة المشبهة بالفاعل فيما عملت فيه.

● هذا باب ما يُختار فيه الرفع.

● هذا باب ما ينتصب على التعظيم والمدح.

● هذا باب إن وأن.

● هذا باب الندبة.

● هذا باب ما لا يجوز أن يُندب.

● هذا باب ما ترده علامة الإضمار إلى أصله.

- هذا باب نفي الفعل.
- هذا باب ما ينصرف في المذكر البتة مما ليس في آخره حرف التانيث.
- هذا باب أسماء القبائل والأحياء وما يضاف إلى الأب والأم.
- هذا باب ما أعلّ من أسماء الأفعال المعتلة على اعتلالها.
- هذا باب ما كان شاذاً مما خففوا على أسنتهم وليس بمطرّد....

إنّ موضوعات الكتاب ومفرداته قائمة على مسألة (الباب) وبعد النظر في الأمر؛ تبين أنّ الباب يعني به الأمر الرياضي البحث؛ كونه نموذجاً منطقياً يستعمل لرصد مجموعة من العمليات التي تملك فيما بينها علائق معينة، وهو إبداع عقلي مصطنع يفترض ملاءمته لمقاربة اللغة عن طريق التجريد للغة المعطاة في الواقع ووضع القواعد مقاربة لتلك اللغة، باستعمال التجريد البحث الذي هو آلية أساسية تمكن اللغة من أن يكون لها معنى عقلائي، والخروج بالقواعد التي تنتظم تلك المجموعات التي تسمح بتوليد مجموعة لا متناهية تملك عدداً لا متناهياً من المتواليات النحوية التي تتحدّد في اللغات الطبيعية المشكلة للعلائق الواردة بين الأصول وبين العناصر المشتقة منها، وهذا في الحقيقة مفهوم توليدي بحث.

ويمكن التفصيل في هذا الأمر مرة أخرى لنقول: يتحدّد الباب عند سيبويه بأنه يطلق على المجموعات المرتبة من الحروف الأصلية للكلمة، أو ما يطلق على أبنيتها وعلى أوزانها وعلى تراكيب الألفاظ، أي هو مجموعة العناصر التي تنتمي إلى فئة أو صنف وتجمعها بنية واحدة؛ في معنى مجموع الوحدات غير المجزأة التي لها نفس البنية مثال: نظام/ جذر/ صيغة صرفية/ مخطّط تحقيق Ensemble *des items ayant une même structure*. أضف إلى هذا أنّ الباب يحوي على النظائر؛ وهي العناصر المقابلة أو المساوية لجميع عناصر الباب المتفق في البناء، ويجمعه قياس واحد. ويقول الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح: الاسم يبحث فيه النحوي أولاً عن أقل ما يمكن أن ينطق به من اللفظ، ويكون في الوقت نفسه كلاماً مفيداً مثل (كتاب) في إجابة من قال: ما هذا؟ فهذا أصل يمكن أن تفرّع عليه فروع بعملية تسمى الزيادة (وهو تحويل في اللسانيات الحديثة) وتكون كلّ هذه الفروع

مكافئة للأصل من حيث إنها قادرة على أن يقوم بعضها مقام بعض ومقام الأصل وهي (الكتاب) (بالكتاب) و (بالكتاب المفيد) وغير ذلك. فتوليد هذه العبارات هو في الوقت نفسه تحديد لها، ومجموع العمليات المولدة المحددة تكون زمرة؛ لأن فيها صفة التجميع، وفيها إمكانية رد الفرع إلى أصله أو عدم التوليد (الصفر) (٢٥).
 وأما الفعل فهو لفظة دالة تدخل عليه زوائد وضمائر، ويمكن أن تصور حداً إجرائياً للفعل كنواة تتغير فيها العناصر بالتعاقب المطلق. وهي وقفة كبيرة باعتبار ما يلحق آخرها، وما يطرأ عليها من تغير دلالي حسب الزمان، وما يلحق بها من ضمائم تعمل على تحديد الزمن المطلق. ومن الباب يمكن الحديث عن وجوه الانفصال والابتداء ويسميه النحاة الكلم المتمكنة؛ وهي الألفاظ التي تنفصل بنفسها وتستقل بمعناها؛ مثل الأفعال التامة التصرف؛ فيتحدد بها أقل ما ينطق به من الكلام المفيد، وهو الأصل الأكثر تمكناً من الفعل أو الاسم، يقبل عدداً كبيراً من الزيادات يميناً ويساراً. والكلم غير المتمكنة وهي ما لا يستقل بنفسه ودلالته تكمن في غيره مثل الحروف والأفعال الناقصة. وهذه القطع من الكلام المفيد لا يمكن أن تنحل إلى أكثر من هذا بعملية الوقف، كما لا يمكن الوقف على جزء منها أصلاً، وتتفرع عنها قطع أخرى من مثل: الطيشور/ بالطيشور/ كتبت بالطيشور/ الطيشور الأبيض مكسور... وهذه الفروع تقوم مقام ما فوقها وما تحتها، ويمكن استبدال بعضها ببعض في الكلام، ويمكن أن يضاف إليها يميناً أو يساراً لأجناس الألفاظ الممكنة دون أن تفقد صفتها الجوهرية.

٦. مفهوم المثال: وهو المفهوم المنطقي الرياضي الذي ينطبق على مستويات اللغة في أدناها كمستوى اللفظة وفي أعلاها كمستوى التركيب، ويستغل في ترتيب العناصر اللغوية على أساس تفريعي بالانطلاق من الأصل مثلاً ينطلق في مستوى اللفظة من الاسم المفرد إلى العبارات المتفرعة عنه بالزيادة من اليمين إلى اليسار والمكافئة من حيث البنية من مثل: أل التعريف/ حروف الجر/ الصفة...

٧. أكثر الحروف التالية لكلمتي (هذا باب ما...) لفظة (ما) بمعنى الذي: لقد تواترت هذه اللفظة في مفردات الأجزاء الأربعة حتى وصلت إلى ٢٣٤ مرة،

وتشكّل ظاهرة تحتاج إلى دراسة مستقلة، أو ربّما يعطي لنا الصورة الصحيحة لما ذكرناه في عدم استقرار المصطلحات باعتباره كان يستقيها من الوصف للكلام المستعمل لا غير، وهذا ما يؤكد لنا الصورة الحقيقة للغة بأنها وضع واستعمال، فله أقوال كثيرة في تعبيرات وصيغ أثر فيها الاستعمال؛ حيث كان يلجأ إلى التأويل في إرجاع الكلمة إلى أصلها.

٨. **وضعه الحجر الأساس لمدرسة نحوية عربية مقرها البصرة:** إن النحو الذي وصلنا عرف مراحل النمو والتواصل والصراع، وظهور المدارس وطبقات النحاة، وتظهر الدراسات المعاصرة أنه عرف أربعة أطوار هي: "طور الوضع والتكوين (بصري) طور النشوء والنحو (بصري كوفي) طور النضج والكمال (بصري كوفي) طور الترجيح في التصنيف (بغدادى وأندلسي ومصري وشامي)"^(٢٦). وفي كل هذه المراحل يعود الفضل الكبير إلى المؤسسين الأولين أمثال الدؤلي والخليل وسيبويه، وفي هذا لا يغيب عنا الجهود العلمية التي أسدتها طبقات النحاة.

٩. **فتحه مجال الاختلاف من أجل التقييد:** وهذا بتأسيس مناظرات ومشادات لغوية، والغلبة فيها سجال، وكان هدفها الوصول إلى الحقائق اللغوية لا غير. فلا أظن أن علماء ما يمكن أن يسير سيراً حثيثاً، إذا لم تكن روح المنافسة بين علمائه متقددة متوهجة، فكل ينافس الآخر ليثبت أنه أتى بما لم يستطع أحد أن يأتي به، وهي منافسة شريفة نابعة من الحرص والصدق والثبات، وأنت بثمار طيبة الرائحة، فلقد تصادم النحاة وافترقوا، ولم تكن نتائج تلك المناظرات إلا إكباراً لمدرسة الخليل، رغم التحيز البارز في بعض الأحيان لغير الخليليين. ونعرف أنه ما نعمت اللغة العربية واغتنت إلا من هذا السجل العلمي التنافسي.

لقد ترك لنا الخليل وسيبويه تراثاً لغوياً شاملاً، فأرادا بعملهما تفسير الظواهر اللغوية من أجل خدمة النصّ القرآني، ومن أجل خدمة المنطق الفلسفي اللغوي، وعدّ ذلك سجلاً نحوياً عظيماً، وهذا ضمن نظرية فذة في وضع الدراسات اللغوية، واصطنعا تجربة مفيدة لتقييد النحو والوصول إلى أحكام عامة؛ لأن عقليتهما تعنتيان بالنظر الكلي العام. ومع كل هذا فإنّ ما خلفاه يحتاج إلى دراسة

من جديد؛ وفق الدراسة العلمية للغات البشرية من خلال الأسنة الخاصة بكل قوم، وأقصد بهذا ما أعطاه علم اللسان الحديث من أسلوب علمي يعتمد على المقاييس التالية "ملاحظة الظواهر اللغوية - التجريب والاستقراء المستمر - بناء نظريات لسانية كلية من خلال وضع نماذج قابلة للتطوير - ضبط النظريات اللسانية الكلية، ثم ضبط الظواهر اللغوية التي تعمل عليها - استعمال النماذج والعلائق الرياضية الحديثة - التحليل الرياضي الحديث للغة - الموضوعية المطلقة"^(٢٧).

أبياته التعليمية:

نأخذ بعض الأبيات من المنظومة النحوية للاستدلال بها بأن الخليل أول من ألف في المنظومات النحوية قبل ابن معطٍ وابن مالك وغيرهما ممن ألفوا في هذا الفن، وإليك بعضاً من أبيات هذه المنظومة:

والأمر بالنون الخفيفة فاعلمن	والنهي أصعب في الكلام وأعزب
لا تعصين الله واطلب عفوهُ	لا تشربن خمراً فينس المشربُ
فإذا نطقت فلا تكن لحانة	فيظل يسخر من كلامك معربُ
للنحو رقع في الكلام وبعضه	خفض وبعض في التكم ينصب
وإذا جمعت مذكراً ومؤنثاً	فالفعل للذكران منهم يغلب
وتقول تلكم طيبة ونعامة	فيها ثور راتعين وقرهب
فتقول ضاربُ خالدٍ أو ضاربُ	زيداً، وزيد خائف يترقب
إن أنت نوتت الكلام نصيبته	فتصح منه فروعه والمنصب
والتاء إن زابت فخفض نصيبها	ما عن طريق الخفض عنها مهرب

هي أبيات تعليمية نحوية تربوية أخلاقية وعظمية، وكان عددها ٢٩٣ بيتاً، حوتها المنظومة في هذه الصورة التي تجمع بين التعليم والفضيلة.

أقواله الحكمية:

يجب أن نميز في هذا المجال بين الخليل الشاب والورع النقي الذي نظم الشعر وكان فيه من المقلين، فلقد جمع حاتم الضامن وضياء الدين الحيدري عدداً

من القصائد تنسب إليه، وحقاها، كما نشر حاتم الضامن شعره ضمن كتاب (شعراء مقلون) ونجد في هذه القصائد الخليل ينظم أبيات غزل رقيقة من مثل:

وقول إني قد مررت بطفلة
أبصرتها فغضضتُ عنها ناظري
فتقول: إن بنات عمك خرد
وما هي إلا ليلة ثم يومها
مطايا يقربن الجديد إلى البلى
ويتركن أزواج الغيور لغيره
بيضاء تستأب النفوس وتخلب
خوف القصاص وظل قلبي يرغب
بيض الوجوه كأنهن الربرب
وحول إلى حول وشهر إلى شهر
ويدنين أشلاء الكرام إلى القبر
ويقسمن ما يحوي الشحيح من الوفر

ومن مثل قوله:

يا ويح قلبي من دواعي الهوى
أتبعهم طرفي وقد أزمعوا
كانوا وفيهم طفلة حرة
إذا رحل الجيران عند الغروب
ودمع عيني كفيض الغروب
تفتر عن مثل أقاصي الغروب

نجد الخليل بشعره الجيَّاش يلعب على كلمة (الغروب) فهي = غروب الشمس / الدلو المملوءة / الوهاد المنخفضة.

كما نجده ينظم أبيات الحكمة من مثل:

يداك يد خيرها يرتجى
وأخرى لأعدائها غائظة
فأما التي خيرها يرتجى
فأجود جوداً من الالفة
وأما التي يتبقى شرها
فنفس العدد لها فائظة

هي صورة الخليل العاقل الحليم الوقور الرقيق المحب تُظهر في أشعار الحكمة والتعقل والفهم العميق للحياة وتدل على أنه تمرس الدنيا وعاركها، فكان حكيماً موجهاً في أقواله وعفيفاً في منافحاته، ورقيقاً في شعره ومحباً لحبيبه. إضافة إلى كثير من الأقوال هي محل حكمة بليغة صيغت في قالب لغوي بسيط، من مثل:

* ثلاثة تنسيني المصائب: مرّ اللبالي، والمرأة الحسناء، ومحادثه الرجال.

* كن على مدارس ما في قلبك أحرص منك على حفظ كتبك.

- * إني لأعلق على بابي فما يجاوزه همّي.
- * ما تضايق سمّ الخياط بمتحابين، ولا اتّسعت الدنيا لمتباغضين.
- * إذا أردت أن تُعلمَ العلمَ للنفس، فاجمع من كلّ شيء شيئاً، وإذا أردت أن تكون رأساً في العلم، فعليك بطريق واحد.
- * تكثّر من العلم لتُعرف، وتقلّ منه لتُحفظ.
- * الرجال أربعة: رجل يدري أنه يدري؛ ذلك هو العالم فسّأوه، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري، فذلك الناسي فذكّروه، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري، فذلك جاهل فعلموه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، فذلك الأحمق فارفضوه.
- * من قال لا أدري فقد أفتى.
- * تلومونني عن تأخري في الجواب، فليس عيباً أن تؤخر الجواب، العيب كلّ العيب أن يسرع العالم في الإجابة، ثمّ يكتشف أن كان مخطئاً، وإنّ خطأ العالم يضرب له الناس بالطبول، وهو عيد من أعياد الجهل.
- * وقبلك داوى الطبيب المريضَ
وكن مستعداً لدار الفناء
فعاش المريضُ ومات الطبيبُ
فإن الذي هو آت قريب
- * لو كنت تعلم ما أقول عذرتني
لكن جهلت مقالتني فعذلتني
أو كنت تعلم ما تقول عذرتك
وعلمت أنك جاهل فعذرتك
- * اعمل بعلمي، ولا تنظر إلى عملي
فإنفعك علمي، ولا يضرك تقصيري
إذا لم تستطع شيئاً فدعه
وجاوزه إلى ما تستطيع
- * إن الذي شقّ فمي ضامن
حرمتني مالا قليلاً فما
للرزق حتى يتوفاني
زادك في مالك حرمانني

في هذه المنتخبات البسيطة التي تتبع منها الحكمة البليغة، أحتاج إلى وقفة خشوع إزاء هذا الكلام البليغ الذي يحمل الصّدق الثمينة، فأراني أمام فصاحة تقطر

من أعطاف قلمه، وتخطر البلاغة في أثواب حكمه، وتنزل المعاني الممتعة من معازل القرائح على حكمه، وتقف جياذ البداهة المتسرعة حيرى قبل التوسط في علمه، فيا خليل لقد قطعت قلبي، بهجر طال منك على الصليل، ولكنهم قالوا: إن التقطيع دأب الخليل، ومن هنا فقد عذرتك وعذرت نفسي، فأغمضت طرفي عن التقريظ لا عن القريض، فكان هذا الخير المقصد الجليل الذي عظم في الكتاب الأثير؛ حتى أطلقت عليه أوصاف: هلاً ركبت البحر/ من أراد أن يعمل كتاباً بعد سيويه فليستحي.

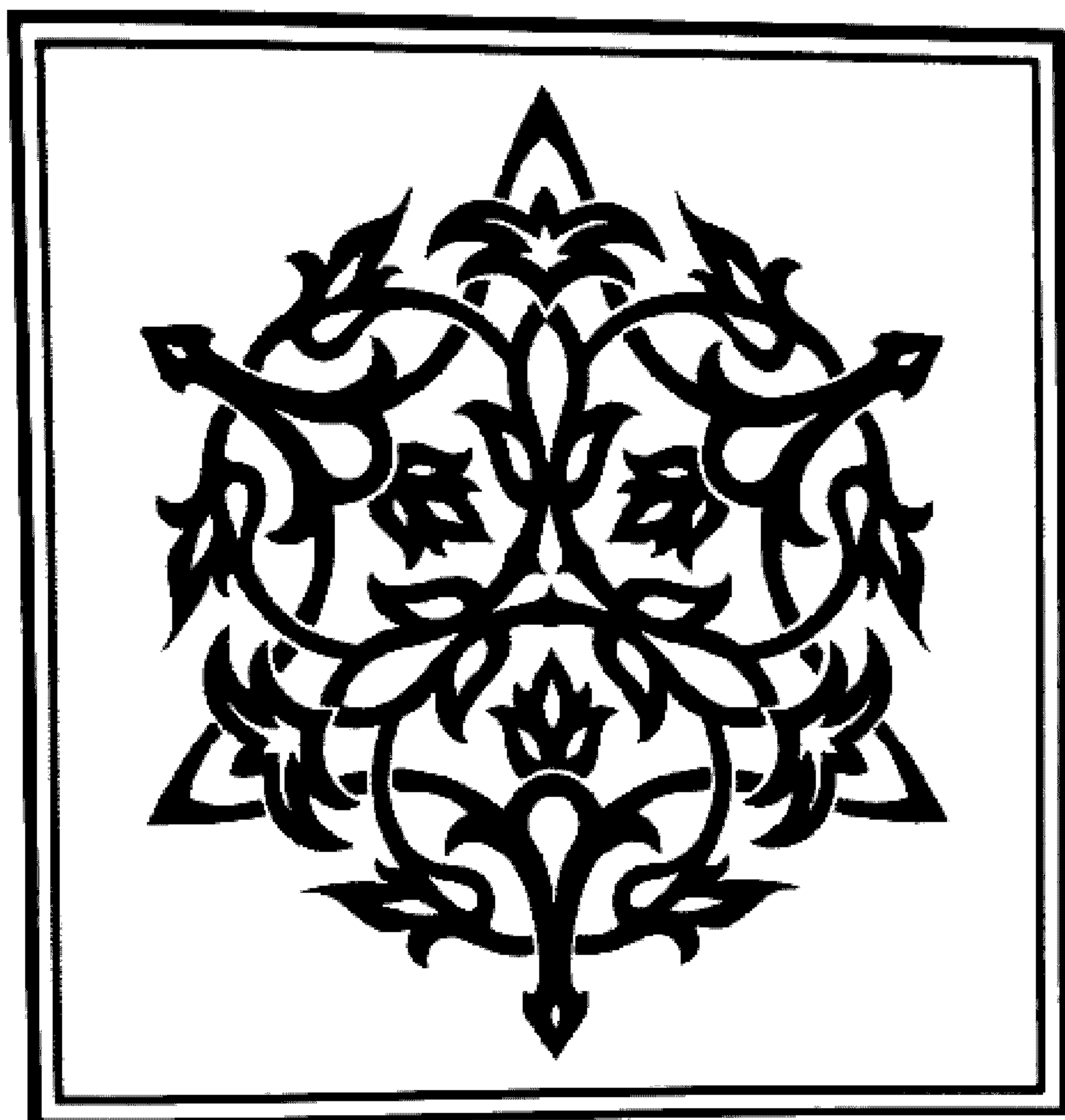
الخاتمة:

إن الخليل أربك الخصوم في حرفة اللغة قبل الأحاب، فكان أمير النحاة وما زال وأضحى لعماد النحو مرفوعاً، وبات صاحب العصا التي ولجت طريقاً في اللغة وشقت، وكانت كما كانت وأمسى صخرة أعيت الرجال انصداعها، حيث كان بحرُه عميقاً، وما انفك علمه مستمداً من حسّ العربي الصافي، فأمسى الكتاب الذي أملاه لا تعلق به هنة ولا نقیصة، ولا عثرة تشين غلبة العرب الفصاح المطبوعين على السليقة. فيا أيها الخليل؛ أنت الممدوح بهذا المقال، والثناء عليك معقود بما سربلته على العربية من فخر عمك الخلاق، وبما أسديته من جميل على هذه اللغة التي حباها الرزاق، فأنعم به من علم! والحمد لله الذي أكمل القواعد اللغوية على الصواب، ونشكره على ما بلغنا من جميل المآرب، وبلوغ المقاصد، وأرجو من إخواني التقويم والتقييم، ولا شك أنني أجد الطريق المستقيم، بما تقدّمونه من تصويب سليم. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الحواشي.

- (١) تذكر بعض الروايات بأن راهباً التقى الخليل وقال له: إنك أحد الأربعة الذين لا مثيل لهم في فنونهم، فأسألك عن أهل الجنة الذين يأكلون ولا يتغوّطون، علماً أنا لم نر أحداً أكلاً أو شارباً لا يتغوّط. فقال الخليل: إن أهل الجنة لا يتغوّطون، مع أنهم يأكلون ويشربون فإننا نعرف أن الجنين في بطن أمه يتغذى ولا يتغوّط، فبهت الراهب.
- (٢) شوقي ضيف، المدارس النحوية، ط٣. القاهرة: دار المعارف، ص ٥٩-٦٠.
- (٣) البحر المحيط في التفسير، د.ط. بيروت: ١٩٩٢، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج١، ص ١١.
- (٤) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، بيروت: مطبعة دار المأمون، ج١٦، ص ١١٦.
- (٥) علي النجدي ناصف، سيبويه إمام النحاة. ص ٩٣.
- (٦) "الخليل بن أحمد والكتاب: مجلة اللسان العربي. الرباط: ١٩٩٨، مكتب تنسيق التعريب، العدد السادس والأربعون، ص ٢٠٢.
- (٧) مهدي المخزومي، الخليل بن أحمد الفراهيدي أعماله ومنهجه، ط٢. بيروت: ١٩٨٦، دار الرائد العربي، ص ٢٢٠.
- (٨) شيء من حتى. القاهرة: المؤسسة العربية للطبع والنشر والتوزيع (سلسلة روايات مصرية للجيب) ص ٥٣.
- (٩) نشأة محمد رضا، علم العروض الوظيفي، ط١. دمشق: ٢٠٠٠، مكتبة دار الفرفور للطباعة والنشر والتوزيع، ص ٢٣.
- (١٠) سيبويه، الكتاب، تحقيق وشرح، عبد السلام محمد هارون، ط١. بيروت: طبعة دار الجليل د.ت، ج١، ص ١١ (المقدمة).
- (١١) عبد التواب مرسي حسن الأكرت، ابن منظور ومظاهر التضخم في معجمه. القاهرة: ١٩٩٨، دار البشري للطباعة والنشر ص ٧٤.
- (١٢) رئاسة الجمهورية العربية السورية، الموسوعة العربية. سورية: ٢٠٠٣، هيئة الموسوعة العربية، المجلد الثامن، ص ٨٩٩.
- (١٣) عباس الصوري، في بيداغوجية اللغة العربية (البحث في الأصول) ط١. الرباط: ١٩٩٨، مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء، ص ٦١.
- (١٤) لقد درس الأستاذ Gérard Troupeau الكتاب في دراسة إحصائية في كتابه: -Lexique index du Kitab de Sibawayhi, Ed, Klincksieck, 11 rue de Lille. Paris : 1976 وسيجد القارئ توصيفاً لذلك الإحصاء؛ بالإشارة إلى الترتيب التنازلي، والتقسيم إلى مختلف

- تصنيفات الفعل والاسم والصفات العاملة، وهذا عن طريق العديد من البدائل والصفات من شتى الجداول المختلفة التي تنتمي إلى المفرد أو الجمع بنوعيه، أو اسم التصغير... وكل هذا في إطار الإحصاء العام لمختلف الألفاظ التي وُظفت في الكتاب.
- (١٥) ع/ الشيخ محمد الطنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ط٣. القاهرة: ٢٠٠٥، دار المعارف، ص ٧٨.
- (١٦) إبراهيم السامرائي، رحلة في المعجم التاريخي، ط١. القاهرة: ١٩٩٤، عالم الكتب، ص ٢٤٦.
- (١٧) عبد الرحمن الحاج صالح "التعريف بالمدرسة الخليلية الحديثة" مقال لم ينشر.
- (١٨) أبو القاسم الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، تحقيق: مازن المبارك. بيروت: ١٩٧٤، دار الفانوس، ص ٦٥-٦٦.
- (١٩) جورج متري عبد المسيح وهاني جورج تابري، الخليل معجم مصطلحات النحو العربي، ط١. بيروت: ١٩٩٠، مطبعة لبنان، ص ١٤.
- (٢٠) تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي. بغداد: ١٩٨٤، دار البشير للنشر، ج١، ٢٣٢/ج٣، ٤٠١/ج٦، ١١٤/ج٨ ١١٢.
- (٢١) كارل بروكلمان، تاريخ الأندلس العربي، ترجمة: النجار. بيروت: دت، الجزء الأول، ص ١٣٢.
- (٢٢) معجم العين، الجزء المطبوع، ص ٣.
- (٢٣) عبد الرحمن الحاج صالح "تعالٍ نحى علم الخليل، أو الجوانب العلمية المعاصرة لتراث الخليل وسيبويه" محاضرة أقيمت في الجلسة السادسة عشرة من مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة في الدورة السادسة والستين بتاريخ: ١١ محرم ١٤٢١، الموافق: ١٦ أبريل ٢٠٠٠، نشرت في العدد الثاني والتسعين من مجلة المجمع، لعام ٢٠٠١.
- (٢٤) الخليل، المنظومة النحوية المنسوبة إلى: الخليل بن أحمد، دراسة وتحقيق: أحمد عفيفي. القاهرة: ٢٠٠٣، الدار المصرية اللبنانية، ص ٧.
- (٢٥) عبد الرحمن الحاج صالح "تعالٍ نحى علم الخليل، أو الجوانب العلمية المعاصرة لتراث الخليل وسيبويه" مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة: ٢٠٠١، العدد الثاني والتسعون، ص ١٧٧.
- (٢٦) الشيخ محمد الطنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ط٣. القاهرة: ٢٠٠٥، دار المعارف، ص ٣٦.
- (٢٧) مازن الوعر "صلة التراث اللغوي العربي باللسانيات" مجلة التراث العربي. دمشق: ١٩٩٢، اتحاد الكتاب العرب، العدد ٤٨، ص ٨٩.



الخليل ابن أحمد الفراهيدي
لغويًا ونحويًا

✦ ✦ ✦ ✦ ✦

د. عودة الله منيع القيسي

اتحاد الكتاب والأدباء الأردنيين - الأردن



الخليل ابن أحمد الفراهيدي - لغويا ونحويا

د. عودة الله منيع القيسي

مقدمة:

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، وسيد الثقلين المكلفين، الذي أنزل عليه القرآن، هدى ورحمة للعالمين. وجعله بلسان عربي مبين، ألهمه تعالى للعرب العدنانيين، ليكون هذا اللسان العربي، المبين كفاء أن يحمل القرآن الكريم، ليظل خالداً خلود الأرضين، كما شاء له الله تعالى العظيم بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وحفظه كان "بأسباب" طبيعية (كما أراد الله تعالى للكون كله أن يكون، بأسباب وقوانين) هذه الأسباب الطبيعية هي هذه اللغة العربية الخالدة، ذات القواعد والقوانين الخالدة.

ولن تكون خالدة، واللغات -غيرها- تتغير، فتضحى كل لغة منها.. لغة أخرى، بعد بضعة قرون - إلا لأنها أنزلها الله تعالى على العرب "إلهاماً" فمسخ لسانهم الذي كانوا يتكلمونه، ونسخ، ونسي، ولم يبق في أذهانهم إلا هذه اللغة الفصحى الشريفة، لشرف منبعها، وبشرف نزول القرآن بها فقامت على "أصول" ثابتة لا تتغير فكانت بهذا.. متسقة مع سنن الكون، ونظام الكون - هذا النظام الذي لا يفرط إلا يوم القيامة عندما يأمره الله تعالى بالانفراط.

ولهذا بذل النحويون العرب -ومثلهم اللغويون- جهوداً عظيمة لجمع هذه اللغة العربية الشريفة، ثم لتقعيد القواعد لها، ويرافق تقعيد قواعدها وضع المعاجم اللغوية. فهم مشكورون مذكورون على ذلك - رحمهم الله تعالى جميعاً. ويزيد المرء إعجاباً بهم، وإعظاماً لجهودهم أن جمع اللغويين اللغة، الذي جرى على أساسه التقعيد، لم يكن اعتباطاً، وإنما كان "منهجياً" هادفاً، فلم يجمعوا إلا لغة سبع قبائل، في مقدمتها.. لغة قريش، لأنهم قرروا، بإحساس ديني مرهف، ألا يجمعوا من لغات القبائل إلا ما نزل بشيء منها القرآن، ولو كان بضع كلمات - أو بضع جمل.

أولاً: لأن القرآن المعجز بنظمه، وبمعانيه، وبكل ما ورد فيه - لم ينزل إلا بأفصح اللغات (= اللهجات). علماً أن التقارب بين هذه اللهجات كان كبيراً جداً، فلم يكن الاختلاف بينها في الألفاظ إلا في النادر النادر، وإنما كان في "النطق" للألفاظ، أي في منحنى الصوت الذي يميز لهجة من أخرى، تبعاً لاختلاف المناطق الجغرافية.

ونحن، اليوم نرى في القطر الواحد لهجات.. بينها بعض الاختلاف، مع أن جمهرة الألفاظ مشتركة في المناطق المختلفة، ففي بلدنا، الأردن - حرسه الله تعالى من الأعداء - نحسُّ بأن هذا الشخص الذي يتكلم هو من إربد، أو من الكرك، أو من العقبة، أو من الرمثا؛ لأن "منحنى" الصوت يختلف، وهكذا.. شأن اللهجات التي جمع منها اللغويون اللغة، وقَعَدَ على أساسها النحويون قواعد النحو.

ومنذُ بدء اشتغال النحويين بتقعيد قواعد اللغة.. لاح في الأفق مدرستان: مدرسة.. علماؤها من البصرة، ومدرسة.. علماؤها من الكوفة، وكان بين المدرستين فرق في "المنهج" واضح، لأن علماء البصرة كانوا لا يقيسون إلا على الأشيع أو الشائع، ولا يقيسون على الأقل شيوعاً، أي: النادر، ووصموه بأنه "شاذ" ليُنْفِرُوا الناس منه، أما علماء الكوفة.. فكانوا يقيسون على النادر، كما يقيسون على الشائع والأشيع، لأنهم يرون أن كل ما ورد عن العرب يقاس عليه، ولو كان كلمة واحدة.

وقد علَّنا لذلك، عللنا لاختلاف المنهج بين البصريين والكوفيين. وسبب ذلك خلاف الانتماء الحضاري، "فعلماء البصرة" معظمهم من فارس التي تحولت حضارتها أخيراً، إلى حضارة يغلب عليها الشكل، ويضعف فيها المضمون، وهذا.. يفسر انهزامهم - كدولة ذات عدد وعدة - أمام المسلمين الذين كانوا قليلي العدة، ولكنهم كانوا مشحونين بجوهر الإسلام العظيم الذي يركز على العمل المترافق مع الفكر، أما علماء الكوفة.. فكان معظمهم من العرب، من شيعة الإمام علي رضي الله عنه - وهؤلاء كانوا أصحاب وجدان عميق، وفطرة تقدم العمل على القول، أو - على الأقل - تُقرن بالقول.. العمل، يدل على تضحيات الشيعة المنتالية، يقودهم رجال من أهل البيت الكرام.

وفي رأبي أن "منهج" الكوفيين أسدٌ من منهج البصريين، لأن اللغة لا تستطيع أن تلبّي المعاني التي لا ينتهي نوالها - إلا إذا استغلت كل طاقاتها التعبيرية، والاشتقاقية، واستغلت كل ما ورد فيها من ألفاظ، ولو كان لفظة واحدة، بحيث تقيس عليها، ونشتق منها، وهذا شأن كل لغات الدنيا، والإ.. تأخذ لغتهم بالانكماش، حتى تنتهي إلى الانقراض.

وثمة شيء لم يتنبه له - لا الكوفيون، ولا البصريون.. وهو أن اللغة العربية "الفصحى" وإن كانت مغربةً بشكل عام - و البناء فيها أقل من الإعراب بكثير - بيد أن هناك "أنماطاً" تعبيرية قليلة ليست مغربةً، وإنما هي جامدة على صورة واحدة، ولذا.. فحركاتها حركات بناء، وليست حركات إعراب، لسبب واضح وعميق، وهو أنها لا تقع عليها عوامل تؤثر فيها - كما في "تمطي" التعجب.

وقد أشرنا إليهما إشارة نرى أنها مناسبة، عندما وضّحنا أن ما رآه الخليل - رحمه الله تعالى - من أن (أيها) شبيهة بـ (هذا) قال: قولنا: (يا أيها الرجل) - قولنا: (يا هذا الرجل). أقول: وليس الأمر كذلك. وقد أوضحنا خطأ ذلك في موضعه من البحث.

ثم.. شيء آخر كانوا يعرفونه، ولكنهم لا يقفون عنده كثيراً، وهو أن من العوامل المؤثرة في إعراب الكلمات - عوامل معنوية - كما في عامل رفع "المبتدأ" فهو عامل معنوي، وهو الابتداء. ولهذا.. لم يقفوا عنده، عندما أرادوا أن يُعربوا النداء. فلم يقبلوا أن يجعلوا عامل النصب في المنادى - المفرد - عاملاً معنوياً، وهو الخلاف مع الاسم المنادي الذي دخله التطويل كالمضاف، والشبيه بالمضاف، والنكرة غير "المعينة" فهذا المنادى الطويل حركته "الفتحة" وليست "الضمة" تنبياً على الخلاف مع الاسم المفرد النكرة أو العلم في حالة عدم النداء، وهو منصوب في حالة عدم النداء فحركته هي تنوين الفتح ثم.. المنادى المرفوع هو مرفوع على (الخلاف) مع المنادى المنصوب، ومع العلم المرفوع غير المنادى، والاسم المرفوع غير المعرف بأل التي للتعريف - فهذان يرفعان بالتنوين، والمنادى يرفع بضمة واحدة.

وسبب آخر يُضيفونه، وهو أن الاسم المُعْرَب - عادة - غير المعرف بأل، وغير المضاف يُحرّك بالتّوين، بتّوين الفتح، أو الضمّ أو الكسر، والنداء، في حالات كثيرة معروفة، لا يُنَوّن، فهو إذن، في هذه الحالات، مبني، هكذا.. يستتجون!

بيد أنهم لم يتنبهوا إلى أن من المبني ما هو "مُنَوّن" وإن قلّ. فالعرب.. نوتوا بعض المبنيات، عند استعمالها "للتّكثير" فقالوا: صه، آه، واهأ، والكلمتان الأولى والثانية.. مبنيتان على تتوين الكسر، والثالثة.. مبنية على تتوين الفتح. فكما جاز هذا في البناء الذي بناؤه الأشيع هو.. بحركة واحدة - يجوز في الإعراب الذي حرّكته في غير الإضافة والتعريف هي، في الأشيع، التّوين - يجوز في النادر منه، أن تكون حركة إعرابه حركة واحدة، وليست تتويناً. فنحن، إذن، بهذا.. لم نخرج على رسوم اللغة، ولم نخطّ حدودها.

وقد يُظنُّ أنني عندما غيّرت مصطلح النحاة، في النداء المرفوع، فاعتبرته مرفوعاً وليس مبنياً وغيرت العامل في إعرابه، إذ ألفيته عاملاً معنوياً، وليس عاملاً لفظياً - قد يظن أنني بهذا غيرت في اللغة، أو أدعو إلى تغيير فيها، معاذ الله، فذلك.. ليس لي، ولا لغيري، فاللغة حرم مقدس لا يجوز المساس ببنيته، ولها قوانينها التي تنمو وتتوالد على أساسها وهي نابعة من داخلها، وليست مُملأة عليها من الخارج.

ولقد بدأت هذا البحث بتمهيد.. رأيت أن أقول فيه كلمة موضحّة للمنطق الصوري، عند النحاة نظراً، لما أدى إليه من التّكلف في التعليل، ولما أدى إليه من تحكّم القياس في البنية اللغوية الحية. فليس المقيس هو - كثيراً - صورة طبق الأصل من المقيس عليه. وقد بينت أن القياس يؤدي إلى "التقارب" لا إلى التماثل، مما يستدعي تكيف المقيس عليه.

وقلت كلمة عن منهج الخليل - رحمه الله - الذي يقترب من منهج الكوفيين، مع أنه بصري المسكن وسبب ذلك الاقتراب أن الخليل عربي، صليبي، وأن معظم نحاة البصرة من الفرس. فكان لهذا يتذوق اللغة تنوقاً دقيقاً، فيحس بفطرته اللغوية،

أن كل ما جاء في اللغة لا يُستغنى عن شيء منه، لأنه يعبر عن دقائق في المشاعر والأحاسيس، وعن خلجات في النفس لا يصلح غيره للتعبير عنها.

ولهذا كان الخليل "يعلل" لكل استعمالات اللغة، فليس في اللغة ما يمكن أطراحه، إذ ليس في اللغة الفصحى استعمال اعتباطي، لا تعليل له. وأوردت مثلاً على موقف الخليل هذا المستتير من اللغة.

وفي هذا البحث.. ارتأيت أن المنادى المنصوب لم يُنصبَ بفعل محذوف تقديره أنادي، وإنما نصب على "الخلاف" فلم أُغَيَّر حركة المنادى المنصوب، فقد بقي منصوباً، وإنما غيَّرت العامل المؤثر في النصب، وعندما ارتأيت أن المنادي المرفوع "ليس مَبْنِيّاً"، وإنما هو "مُعْرَب" فلم أُغَيَّر حركته، وإنما غيرت الحكم السابق عليه بأنه مبني، إلى حكم أراه أقرب إلى العقل وإلى طبيعة اللغة، وهو أنه "مُعْرَب" مرفوع، وعلامة رفعه هي.. الضمة.

أليس هذا تبسيطاً للنحو، وتيسيراً له، من دون المساس باللغة - كما جاء بها

العرب الفصحاء؟

ومن المعروف أن النحو المستعمل هو النحو البصري، لأسباب ذكرتها. وأن أبا النحو العربي، على الحقيقة، هو الخليل ابن أحمد - الفراهيدي الأزدي^(١)، الذي كان منهجه أقرب إلى منهج نحاة الكوفة، وأن تلميذه سيبويه، إنما هو جامع نحو الخليل في "الكتاب" مع إضافات، وتعليقات وأن ما لم يسنده إلى الخليل إنما هو القواعد العامة التي أصبحت - في زمنه علماً مشاعراً لا ينسب إلى أحد. وأن النحاة الذين جاؤوا، بعد سيبويه، إنما "تسخوا" نحو الخليل وسيبويه، مع زيادة طفيفة هنا، وتفصيل وشرح، هناك...، ونقد قليل، لمواطن قليلة، لأن "رؤية" نحاة البصرة الفرس، لم تتغير، نحو مصطلحات الخليل النحوية، ونحو "رؤيته" للمنادى، وسائر مسائل النحو. ومنها أن المعرب هو معرب بعامل لفظي غالباً. وبعامل معنوي، قليلاً، لا يلجأ إليه إلا إذا لم يكن من مجال "لتعلة" تُخَرَّجُ بها الحركة، على أنها جاءت بتأثير عامل لفظي. وهذا سبب البُعد عن الدقة، في مفهومهم للإعراب، والبناء، سواء أكان في إعراب النداء أو كان في غيره.

فإذا أخذنا مبحث "النداء" من "الكتاب" ومن "ألفية ابن مالك" فإنما أخذناه منها، لتسلسل التصنيف، وسهولة العبارة، لا لأنها أتت بجديد مُعتبر لم يرد في الكتاب، فلم يأت كتاب نحويّ جديد يُذكر بعد الكتاب.

بيد أن سيبويه حاول أن يتملص من منهج أستاذه الذي يرى عملياً القياس على كل ما قالته العرب، ولهذا.. حاول الأستاذ (= الخليل) أن يجد لكل قول.. تعليلاً، بيد أن سيبويه حاول أن يتملص من رؤية أستاذه، بعبارة التي كررها عشرات المرات، وهي (وزعم.. الخليل...)، وإضافة إلى سيبويه فإن الذين أتوا بعده من نحاة البصرة الفرس قد توسعوا في حصر ما يستعمل من اللغة، بالأعم الأغلب، وهو الذي يصح القياس عليه عندهم. أما ما عداه فشاؤهم لا يقاس عليه، فعلى الأكثر "يُحفظ، ولا يقاس عليه. وهكذا، وصل النحاة الذين جاؤوا بعد الخليل منهجهم بمنهج النحاة الفرس الذين كانوا قبل الخليل.

وقد أضر هذا المنهج الاصطفائي باللغة ضرراً ملحوظاً، لأن اللغة لا تنمو، ولا تتقدم إلا إذا قيس على كل ما ورد فيها، لأن القليل من اللغة يعبر عن الأفكار والمشاعر التي تتردد كثيراً في حياة الناس، ولأن الكثير النادر من اللغة يعبر عن خفايا النفس والوجدان التي لا يكثر تردها في حياة الناس، ولا تصطاد لعمقها وغموضها إلا بمثل هذا القليل أو النادر، من ألفاظ اللغة.

قد يُقال: وماذا تقول في كتاب (الرد على النحويين) لابن مضاء القرطبي؟ فأجيب - وليس هذا من مجال بحثنا - بكلمة مقتضبة، وهو أن الرجل.. كان على حق في إنكاره على النحاة "المبالغة"، أقول: المبالغة.. في التركيز على "العلل"، وخاصة العلل الثوالت التي هي أقرب إلى التوليدات العقلية، التي لا تستدعيها طبيعة اللغة، وطبيعة إعرابها.

أما أن نطرح "العلل" كلها.. فذلك "مبالغة" منه قابلت مبالغة النحاة، في تكلف العلل، أحياناً. لأن العربية كما أنها لغة فطرة غنية فهي لغة تقوم على بناء يمكن تفسير تسعين بالمئة منه تفسيراً "عقلياً" وبهذا فهي تعلو على كل اللغات التي كان معظمها قد جاء بناؤها، في كثير منه، اعتباطياً، كالإنجليزية، والفرنسية مثلاً، مع

أنهما أوسع اللغات انتشاراً، خارج أوطانهما، ولاسيما الإنجليزية، وبهذه العقلانية التي تمتاز بها العربية "الفصحى" على غيرها، فلا يصح أن نحرمها من هذه المزية التي تجعل "المتفقه لها" يجد متعة عظيمة، وهو يرى أن كل شيء فيها قد بُني بناءً منطقيًا، عقلانيًا، مُحكمًا.

وفي العنوان فضلت استعمال كلمة "تجديدي" على كلمة "جديد" لأن الجديد غالباً ما يعني المضاف إبداعاً إلى التراث القديم، في أي حقل، من حقول المعرفة، أما "التجديد" فمعناه أقرب إلى أن الباحث يُطريء جديداً على القديم، بحيث يُعدّل، أو يُبدّل، في القديم نفسه، فيكون ذلك "تجديداً له".

وأخيراً فإني أعلم أن الناس - إلا من رحم ربك - ينفرون من الجديد، ويقاومونه، سواءً أكان الجديد تغييراً لقديم، أو كان إضافة مُبدعة للقديم. ولكن محاربة تغيير القديم أشدّ، لأن القديم صار متجذراً في النفوس، فتغيّره.. تغير لبعض كيان النفس، والمرء يعاني من قلق شديد، وآلم مُمضٍ، عندما تبدأ فأس التجديد تحفر فيما تجذر في أعماقه، ولهذا.. يقاوم تجديد القديم بأشدّ من مقاومته للجديد المضاف، إن خسران المرء لبعض أطرافه أو لبضاعته التي تحملها باخرة غرقت في عرض البحر.. ليس بأشدّ عليه أو على كثير من الناس من خسرانه شيئاً مما تجذر في وجدانه. لأن المرء يراها مُصيبة أن "يُسوّء" جانباً من الصورة التي هو مقتنع بها، عن "نظام" الكون، والإنسان والحياة. فلسان حاله يقول، متولواً: **مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرَقَدِنَا** [يس: ٥٢].

هكذا جُبلت النفوس أو معظمها على التثبيت المستميت بما ترسخ في أعماقها! بيد أن القليل منها، وهم أصحاب العقول المنفتحة القابلة لتلقي كل جديد، وفحصه.. فإذا ثبتت صحته على الفحص،.. آمنوا به، وعملوا به. ومع ذلك فجمهور الناس ينتهي إلى الإيمان بالجديد، ولكن بعد حين، قد يكون حوَّلاً، وقد يكون دهرًا.

وأنا ما أردتُ من "نظرات" تجديدية، في مبحث (النداء منصوبٌ ومرفوعٌ - وليس مبنياً) إلا طلب "الحقيقة" التي هي أشرف مطلب، وإلا.. خدمة الأجيال القادمة، بتخفيف ظلِّ علم النحو عليهم، عن طريق تبسيط مصطلحات هذا العلم

وعقلنتها، نون المساس باللغة، لفظاً، واستعمالاً، وقوانين، فلم أُغَيَّرَ إلا المصطلح، لاختلاف مفهومي عن مفهوم النحاة لمصطلح الظاهرة اللغوية، والمصطلح شيء، يحاول واضعوه أن يصفوا به الظاهرة العلمية، لغويةً أو غير لغوية، وهذا الوصف يصبحُ كثيراً، ويخفق قليلاً، فيأتي، مع الأيام، من يستدرك على هذا الإخفاق، فيعيده إلى الصواب.

وأخوة... قبل أن أضع القلم جانباً.. أن هذا الموضوع... ليس هو الوحيد الذي نُكِّتَ به برأي جديد ومصطلح جديد فليس هو ((بيضة الديك))، وإنما فعلتُ مثل هذا، في بضع موضوعات أخرى من أهمها (الإعراب- والبناء- رؤية جديدة)، بسطت فيها مفهوم (الإعراب والبناء)، إذ وجدت أن كثيراً مما اعتبروه مبنياً هو مُعَرَّبٌ، بسبب خطأ تصنيفي جسيم وقعوا فيه. حين ساووا بين شروط إعراب الأسماء، وبنائها، وشروط إعراب الأفعال، وبنائها، وهما مختلفان في بعض خصائصهما اختلاف بعض خصائص الذكورة عن بعض خصائص الأنوثة، أو اختلاف كثير من الظروف التي تنمو وتعيش فيها النباتات الصيفية عن كثير من الظروف التي تنمو وتعيش فيها النباتات الشتوية. وبهذه الرؤية الجديدة أصبح الفاصل واضحاً، لا لبس فيه بين المعرب والمبني. ولا يزال في الطريق طول، وفي النفس فضول، ومن الله تعالى العون والقبول. والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل. والموفق إلى كل عمل أصيل.

تمهيد:

نوردُ تحت هذا التمهيد سبعة عناوين، هي كالاتي:

١. نشأة علم النحو:

لقد بدأ الاشتغال بالنحو منذ أبي الأسود الدؤلي - رحمه الله - لقد استدعاه الإمام عليُّ ابن أبي طالب - رضي الله عنه - الذي أزعجه ما أخذ يظهر من لحن في قراءة القرآن الكريم، نظراً لأن الأجانب من فرس وروم وهنود قد اتصلوا بالعرب. فطلب من أبي الأسود أن يضع علامات تُفَرِّق بين فتح آخر الكلمة وضمها وكسرها. وقد فعل ذلك أبو الأسود. ويقال: إنه وضع أبواباً قليلة من النحو. كان هذا قبيل انتهاء النصف الأول من القرن الأول.

ولم ينته النصف الثاني من القرن الأول حتى أصبحت جُل قواعد النحو موضوعاً. وفي هذا الوقت وضح أنه قد قام للنحو مدرستان، بينهما اختلاف في الرؤية وفي المنهج. إحداهما كانت في البصرة، ومُعظم علمائها من الفرس، والثانية في الكوفة ومعظم علمائها من العرب.

عُلماء البصرة كانوا يرون ألا يُقاس إلا على الأعم الأغلب، وعُلماء الكوفة كانوا يرون أنه يصح أن يُقاس على كل ما ورد عن العرب، ولو كان كلمة واحدة، أو عبارة تركيبية واحدة.

وسببُ هذا الفرق في الرؤية بين الفريقين أن نحاة البصرة الفرس هم وارثو العقلية الفارسية في صورتها الشكلية، هذه العقلية التي ضَعُفَ فيها الوجدان، وقوي التحليل العقلي، شأن كل حضارة آيلة للأقول؛ تهبط فيها عزيمة الفعل الفطري الذي يتساق مع فعل اللغة السليقي، وترتفع فيها حدّة التحليل العقلي المنفصم عن الفعل، عن الفعل الحركي، والفعل اللغوي. أما قيل: إن دولة إسارطة المحاربة، عندما غزت أثينا التي نضَبَ فيها مخزون الفعل.. وجدوا فلاسفتهم يتجادلون: الدجاجة من البيضة أم البيضة من الدجاجة؟ وهذه مماحكة لا تُقدّم ولا تُؤخر في حركة الواقع. وبعد ذلك بقرن تأثر النحاة بالفلسفة اليونانية، والمنطق اليوناني، وكلاهما قصور مشيدة في الهواء، لا تصلح للسكنى، لأن الفيلسوف - عادةً أو غالباً - يُقدّم تصوّره النظري على تأمل حقائق الواقع الصلبة. ويكثر من المماحكات من أجل أن يستلم له بناؤه هذا النظري، ويسدُّ ما فيه من نقوب تخالف الواقع. فتضاعفت العلل النظرية في النحو، التي لا ترتبط بطبيعة اللغة.

٢. وقفة مع المنطق الصوري:

لقد تأثر النحاة جميعاً، نحاة البصرة ونحاة الكوفة، بالمنطق الصوري الأرسطوي الذي تُرجم إلى العربية، في أثناء النصف الثاني من القرن الثاني الهجري. وإن كان تأثر نحاة البصرة أكثر من تأثر نحاة الكوفة. ذلك لاهتمام نحاة البصرة الفرس بالقياسات العقلية التي لا تكفي وحدها للتعامل مع اللغة، نظراً لما أسلفنا من القول بأن هؤلاء النحاة أبناء حضارة آلت إلى السقوط، ثم سقطت. وفي

مثل هذه المرحلة من الحضارة ينضب الوجدان، ويُعتمد في تصريف الحياة على عقل جاف بارد شكلي، لأنه لا يجد حفزاً وجدانياً يبت فيه الحركة والحيوية والنهوض للإبداع، لأن الأشياء العميقة في حنايا النفس لا يستخرجها إلا نبض الوجدان الحي، وليس العقل البارد.

وهذا المنطق الصوري أفسد على النحاة النظر إلى اللغة كما هي في طبيعتها، وكما هي في الاستعمال، فتكبوا المنهج السليم، وأخذوا يعلنون للاستعمالات اللغوية، تعليقات، بعضها متكلف، وبعضها يُرجع الاستعمال إلى "أصول" لم تكن في لغة الاستعمال يوماً ما.

فكثيراً ما يربط المفكرون بين صور ذهنية متباعدة، في حقيقتها - ويؤلفون من ذلك.. فذكرة لفظية يسمونها منطقاً، وهذا ما يقوم عليه جانب كبير من المنطق الصوري - الشكلي - الأرسطوي، وما هي بمنطق. أنكر أني قرأت لأستاذنا، سعيد الأفغاني - رحمه الله - النحوي المعروف في كتابه (أصول النحو، ص ٦٢، ٦٣) وهو بصري، شأن الجميع بعد القرون الثلاثة الأولى الهجرية - أنه يقيس اللغة على الشجرة، فيرى أن اللغة تحسن بالتشذيب والتهديب - ويريد بهذا التشبيه ترك القياس على النادر الذي أسماه البصريون.. الشاذ، لينفروا الناس منه - كما تحسن الشجرة بالتقليم والتشذيب والتهديب!

أقول: والقياس، في حقيقتة، هو حشر الأشياء غير المتماثلة وكأنها متماثلة، ففيه شيء من التجوز على الحقيقة، حتى في القياس الشرعي. ولذا، ففي رأبي يجدر أن لا يُعطى شيء حكم شيء آخر، دون مرونة في جعل التقارب (= القياس) بين شيئين، وسيلة للتقارب بين حكيمين، لا لتمائل بينهما، بدلنا على ذلك أن قياس اللغة على الشجرة هو قياس مع الفارق الهائل بينهما. لأن الشجرة كائن حي غير متحرك، أما اللغة.. ففيض عن كائن حي عاقل متحرك.

وإذا كانت الشجرة، ككائن حي نباتي لا تتماثل، بل لا تتقارب مع الكائنات الحية الحيوانية غير العاقلة، فكيف تتقارب مع الكائن الحي الحيواني المتحرك العاقل (= الإنسان)؟

إذن، الشجرة تحسُنُ حقاً بالتقليم والتهذيب والتشذيب، لأن ذلك يخفف من تزاخم الأغصان والأفنان، فيعطيها القدرة على أن تكون أكثر ريباً وأجود نمواً، وأطيب ثمراً، هكذا طبيعة الشجرة. أما التشذيب والتهذيب للغة، فيسلبها غناها، أو بعض غناها بثروتها اللغوية. وهذا، يؤدي إلى انكماش اللغة، وعدم قدرتها على التعبير الحيوي المرن عن مكنونات النفس، وأفكار العقل، لأن اللغة تكون قابلة للاستمرار في الحياة تبعاً لقدرتها على التعبير عن الحياة، ولن تكون فائقة القدرة في التعبير عن الحياة، إلا إذا كانت قادرة على التعبير عن واعي الإنسان وعن لا واعي، عن شعوره وعن لا شعوره، لأن نصف رغبات الإنسان، وأشواقه، وتطلعاته... مضمورة في العقل الباطن (= الشعور المستسر) وهذه، لها لغتها التي لا تكون من النمط اللغوي الشائع، لأنها تعبر عن خصوصيات وجدانية ليس لها شيوخ، ولذا، فهي تتسلل إلى اللغة المعبرة عن الوعي لكي تعبر عن الوعي (اللاوعي)، فإذا اطرحناها، أو لم نقس عليها، وإن كان بعضها كلمة واحدة، أو عبارة واحدة، فقد حرمتنا الإنسان من "حرية" التعبير عن جانب من جوانب وجوده، فأفقرنا تعبير الإنسان عن إنسانيته، وأفقرنا، بذلك، لغته، وأضعفنا قدرتها على التعبير عن "تشكيلة" الشخصية الإنسانية، ذات الأبعاد المتعددة، والأغوار العميقة.

أرأيت من هذا أن تشبيه اللغة بالشجرة (أي- قياسها عليها) هو تشبيه شكلي أقرب إلى العقلي السطحي الذي لا يغوص في الأعماق، ولا يربط الأشياء المتنوعة كلاً بطبيعتها، أو بتكوينها "العضوي" الحي الذي لا يتماثل مع "عضوية" أخرى، لنوع آخر؟ وهذا الرابط الشكلي هو المنطق الصوري - الأتم عينه الصوري الذي شوه الحضارة الإسلامية كلها، بعد أقول القرن الثالث، بل قبيل أقوله، فالتشويه بدأت نذره منذ مطلع النصف الثاني من هذا القرن.

مثال على تحكيمهم للمنطق الصوري:

١- قال النحاة البصريون: إن أحد الوجوه المعتبرة عندهم في شبه الاسم للحرف هو الوجه الوضعي، بمعنى أن يكون الاسم موضوعاً على حرف أو حرفين. فإن ذلك هو الأصل في وضع الحرف ولهذا.. يُبنى مثل هذا الاسم، إذ الأصل في

وضع الاسم والفعل أن يكون على ثلاثة أحرف، والحروف إنما جيء بها. هكذا يقولون، لأنه اختصر بها الأفعال. إذ معنى ما قام زيد (نفيت القيام عن زيد) فلا بُدَّ أن يكون أخصر من الأفعال والآ.. لم يكن للعدول عنها فائدة^(١).

وأقول: ليس دقيقاً أنه جيء بالحروف بهدف اختصار الأفعال. بل هي موضوعة، أصلاً، كما وضعت الأفعال والأسماء، فليس لأحد من هذه الثلاثة سبقٌ وضعي، أي: زمني، قبل الآخرين.

وليس دقيقاً أيضاً أن معنى (ما قام زيد) هو: (نفيت القيام عن زيد) إلا من حيث المعنى العام، الذي يفهم منه نفي القيام عن زيد. ولكن المعنى الخاص الذي يأتي من العبارة الأولى مختلف عن المعنى الخاص الذي يأتي من العبارة الثانية. فعندما يقال: (لم يقم زيد) فهذا نفي مطلق، أما عندما يقال: (نفيت القيام عن زيد) فهذا نفي مقيد، مقيد بك أنت. والنفي المقيد أضعف من النفي المطلق، لأن احتمال صحة ما يقوله شخص واحد أقل من احتمال صحة ما يقال مطلقاً، لأن القول المطلق أقرب إلى القاعدة أو القانون من القول المقيد. أما ترى أن قول فرد: (عرفت أن الشمس.. تدورها حول الأرض) - أضعف من القول المطلق: (الشمس.. تدور حولها الأرض)؟ لأن الأول أقرب إلى المعلومة، أما القول الثاني فأقرب إلى القانون. وأيضاً بما أن المفردات لا تترادف في النصوص العالية فالأولى أن العبارات لا تترادف. لأن معنى المفردة بسيط، ومعنى العبارة مركب، والمركب أصعب أن تأتي فيه بشيئين متماثلين من أن تأتي بشيئين متماثلين من البسيط.

وفضلاً عن هذا، فعبارة (نفيت القيام عن زيد) تكاد لا تكون عربية، أو هي، على الأقل، من تافه التعبير، إنما ليست أكثر من تفسير ضعيف. وأقول: إذا كانت عبارة (لم يقم زيد) إنما هي، في الأصل (نفيت القيام عن زيد).. فلماذا لم تجر هذه القاعدة على كل الأفعال؟ فبدل أن يقال: (اختلف الصادق والكاذب) يقال: (لم يتفق الصادق والكاذب)، وبدل أن يقال (سهر المجدُّ ليله كله) يقال: (لم ينم المجدُّ ليله كله). وهكذا..

والصواب أن العبارة المنفية تختلف كثيراً عن العبارة غير المنفية؛ فعبارة (سهر المجدُّ ليله كله) عبارة هي أقرب إلى المدح، والتشجيع على ذلك. أمّا عبارة (لم ينمَّ المجدُّ ليله كله) فهي أقرب إلى عدم الرضى عن هذا المجدِّ الذي لم ينم ليله كله. وهكذا..

أرأيت أن النحويين كانوا يعيشون أحياناً بتصوّرات نظرية لا علاقة لها بواقع اللغة؟ لأنهم قد تأثروا بالعقلية الفارسية - في البصرة خاصة - هذه العقلية التي ضغفَ فيها الوجدان، وقوي التحليل العقلي، شأن كل حضارة آيلة للأقول؛ تهبط فيها عزيمة الفعل الفطري الذي يتساقق مع فعل اللغة السليقي، وترتفع فيها حدة التحليل العقلي المنفصم عن الفعل - عن الفعل الحركي، والفعل اللغوي. أما قيل: إن دولة إسبارطة المحاربة، عندما غزت أثينا التي نضبت فيها مخزون الفعل.. وجدوا فلاسفتهم يتجادلون: الدجاجة من البيضة أم البيضة من الدجاجة؟ وهذه مباحكة لا تُقدم ولا تُؤخر في حركة الواقع. وبعد ذلك بقرن تأثر النحاة بالفلسفة اليونانية، والمنطق اليوناني، وكلاهما قصور مشيدة في الهواء، لا تصلح للسكنى، لأن الفيلسوف - عادةً أو غالباً - يُقنم تصوّره النظري على تأمل حقائق الواقع الصلبة. ويكثر من المباحكات من أجل أن يسلم له بناؤه هذا النظري، ويسدُّ ما فيه من ثغوب تخالف الواقع. فتضاعفت العلل النظرية في النحو، وهي لا ترتبط بطبيعة اللغة.

ومن أسف أن النحو الذي يُدرّس حتى اليوم هو نحو البصريين، وليس نحو الكوفيين الأقرب إلى طبيعة اللغة. وليس هذا لتفوق النحو البصري على النحو الكوفي، بل كان لسببين:

الأول - أن النحاة - بعد سيبويه - وهو بصري، وجدوا كتاباً في النحو كله، هو الكتاب لسبويه نفسه، ولم يجدوا مثله لنحوي الكوفة. والإنسان - بطبعه - يميل إلى الاقتصاد في الجهد والوقت والمال. وكتاب سيبويه هذا يُوفر لهم الاقتصاد في هذه المطالب الثلاثة، فأصبح موضوعاً للشرح والتعليم، والاختصار، وأصبح النحو العربي حتى هذا اليوم هو نحو البصريين، ممثلاً بكتاب سيبويه.

أما نحو الكوفيين فكان مبعثراً، وكتاب الكساتي الكوفي في النحو ليس شاملاً

في موضوع النحو، فضغفت الهمم عن جمعه، وتصنيفه، فلم يحظ بسيرة كسيرة نحو البصريين، مع أن كثيراً من مسائله أقرب إلى طبيعة اللغة من كثير من مسائل نحو البصريين.

بعبارة أخرى: إن رؤية الكوفيين لطبيعة اللغة أسدُّ من رؤية البصريين، وعلى هذا، فمنهج الكوفيين في معالجة اللغة أسدُّ من منهج البصريين، لأنهم رأوا مذهب القياس على كل ما ورد في اللغة، ولو كان هذا كلمة واحدة. وهذه رؤية يستفيد منها مستقبل اللغة، لن تجدد المعاني - بل تدققها، في العصر يستدعي منا أن نستفيد من كل طاقات اللغة، فنقيس على الأقل، ونولد منه - كما نقيس على الأكثر، ونولد منه.

والسبب الثاني.. أن الحضارة الإسلامية.. لم تعُد ولوداً قادرة على التجديد، بعد انقضاء القرن الثالث بشكل عام - ولهذا.. فلو فكر أحد بجمع نحو الكوفيين لثارت عليه نائرة النحاة، لأن من طبائع الأمم، إذا أخذت حضارتها بالأقول، أن تركز إلى التقليد وإلى الاكتفاء بما أنجزته عصور ازدهارها، فتغلق باب الاجتهاد (= التفكير الحر) وتحارب، بشراسة، كل محاولة تهدف إلى البحث عن جديد. وليس هذا في النحو وحده، بل - في الفقه، ونقد الأخبار، وغرابة الأحاديث الشريفة. وإن النزر اليسير من التجديد، في هذه العصور، إنما كان أشبه بأربع شمعات توضع في صحراء الربع الخالي، فهل تبدد ظلام هذه الصحراء؟!.

٢. التحاة لم يتصوروا كلمة ليس لها إعراب

يدل على ذلك ما أورده سيبويه قال: هذا باب لا يكون الوصف المفرد فيه إلا رفعاً، ولا يقع في موقعه غير المفرد: وذلك قولك يا أيها الرجل، ويا أيها الرجلان، ويا أيها المرأتان. (فأي) هنا فيما زعم الخليل - رحمه الله - كقولك: يا هذا، والرجل وصف له كما يكون وصفاً لهذا. وإنما صار وصفه لا يكون فيه إلا الرفع، لأنك لا تستطيع أن تقول: يا أي، ولا يا أيها، وتسكت لأنه مبهم بلزومة التفسير، فصار هو والرجل بمنزلة اسم واحد، كأنك قلت: يا رجل^(٢).

أقول: هذه تفسيرات نظرية لا ترتبط بواقع اللغة، لأن (أيها) لا تدل على شيء معين. والنداء لا يكون إلا لشيء معين، سواء أكان مادياً كرجل، أو كان معنوياً

ككلمة (الحق). ولذا (فأَيُّها) لا تدلُّ على معين، ولهذا فهي لا إعراب لها، فليست منادى مرفوعاً، ولكنها مجرد أداة يُتوصَّلُ بها إلى المنادى المعرَّف (بال). والذي حمل الخليل - رحمه الله - على أن يتكلف بأن (أَيُّها) شبيهةً (بهذا) هو أن النحاة العرب لم يتصوروا أن تأتي كلمة في العربية ليس لها إعراب. وهذا ليس بحق، لأن العرب نطقوا أشياء على السليقة فبنوها على الضم، أو الفتح أو الجر دون أن يكون لها إعراب متأثر بعوامل مادية أو معنوية. ومثال ذلك جملتنا التعجب، فعندما نقول: ما أجمل الربيع! فليس صحيحاً أن لها إعراباً، كما زعم النحاة، وهو كالتالي: ما - نكرة غير مقصودة، بمعنى شيء. أجمل - فعل ماضٍ مبنيٌّ على الفتح. الفاعل - ضميرٌ مستترٌ يعود على ما. الربيع - مفعولٌ به منصوب. فهذا تكلف لا يعبرُ عن معنى نحوي له علاقةً بمعنى العبارة. والصواب أن العرب نطقوها كما جاءت عنهم، منصوبةً الكلمتين، من أجل (المخالفة أو لفت الانتباه) للإشعار بأن هذه الجملة متفردة ومخالفة لنموذج الجمل العربية، فهي جملةً نمطيةً جامدة، لا يصح فيها التقديم والتأخير خلافاً لطبيعة الجمل العربية، عادةً. ومثلها الجملة التعجبية الثانية (أعظم بخالد قائداً!) فالنحاة يعربونها هكذا: (أعظم: فعل ماضٍ جاء على صيغة الأمر، لإنشاء التعجب. الباء: حرف جرٌّ زائد لا يجوز حذفه. خالد: مجرور بالباء، لفظاً، مرفوع محلاً، على أنه فاعل للفعل (أعظم). قائداً: تمييز منصوب). (انظر: مجلة الضاد الأردنية - العدد ١٣ - السنة الرابعة - أيلول ٢٠٠٣).

واضح مما سبق أن الأمر تكلفٌ بتكلفٍ شديد!، فصيغة (أعظم) الأمرية ليست بحال من الأحوال فعلاً ماضياً، لأنها صيغة يُراد منها التعجب، وليس الإخبار الذي يأتي من صيغة الماضي - لو جاء مكانها - والباء الزائدة - عادة - يجوز حذفها، ويظل الكلام سليماً، وهنا، لو حذفت لاضطرب الكلام. وخالد ليس فاعلاً، وإنما هو متعجبٌ منه. والمتعجب منه هو في حالة حيادٍ إعرابي، أي هو مؤثر، معنويًا ومادياً، بالشخص المتعجب. وهو متأثر بانفعال الشخص المتعجب، فلا هو لهذا بفاعل، ولا بمفعول به. أمّا (قائداً) فتمييز حقاً، ولكنها مرتبطة بهذا التعبير النمطي لا تنفك عنه، وكونها معربة.. لا يستلزم أن يكون التعبير كله معرباً.

ثم.. إن صيغة (أعظم) كصيغة (ما أجمل..)) كلتاهما صيغة إنشائية، أما ما قدره النحاة من عبارة لكل منهما، فهما عبارتان خبريتان. وما أبعَدَ الفرق بين الخبر، والإنشاء! فنحن، عندما نقول: (شيءٌ أجملُ الربيع) نأتي بعبارة محسوسة، مؤثراً. أما عندما نقول: (ما أجملُ الربيع!) فنحن نأتي بعبارة حارة، معبرة عن حياة متدفقة غنية بالمشاعر والأحاسيس. ومثلها عبارة (أعظمُ بخالد، قائداً) مقارنة بعبارة (أعظمُ خالد - فارساً).

وإني أرى أن قول النحاة في العبارة التعجبية: (ما أجملُ الربيع!) أن تفسرها (أو- تقديرها).. ((شيءٌ أجملُ الربيع)) هو قول أقرب إلى اللامعقول، وتفسير لا يقنع عقلاً. فما هذا الشيء المبهم الذي أجملُ الربيع؟ مع أن أصحاب البلاغة يقولون في مثل عبارة (نبتَ النبات): هذا مجاز عقلي. بمعنى أن العقل يدرك أن النبات لم ينبت هكذا، دون سبب، وإنما نبت بسبب المطر، والمطر أدى إلى ظهور النبات ونموه، بإرادة الله. بمعنى أن المنبت الحقيقي للنبات هو أمرُ الله تعالى. ثم.. أنقول: (أجملُ الربيع) في العرف اللغوي - أم نقول: (جَمَلُ الربيع)، لأن أجمل، عادة، تُستعمل في مجال الإجمال والتفصيل، أي، من حيث النظر إلى الشيء نظرة عامة، نظرة تفصيلية.

والحق، أن الأمر لا يعدو كونه تعبيراً عن دهشة المشاهد للربيع، لما يرى من روعته، بعبارة نمطية غير قابلة للتفكيك، أو التقديم والتأخير، خلافاً للجملة العربية التي هي -بشكل عام- قابلة للتفكيك، وإعادة التركيب، تبعاً لما تقتضيه ظلال التنويعات في العبارة. وهو تعبير حار، لا يطاوله، بل يتقرم أمامه التعبير الخبري الآخر (شيءٌ أجملُ الربيع).

٤. النحاة تجاهلوا العامل المعنوي كثيراً.

مثلاً نجد قول السيرافي شرحاً لباب النداء في الكتاب يقول: (و لما كان [النداء] لا يُعبر به عن شيء آخر، وإنما هو لفظٌ مجراه مجرى عملٍ يعمله عامل. ولما كان لفظاً احتاج إلى إجرائه على ما لا بد للفظ عنه من إعراب أو بناء، وليس معه شيءٌ من العوامل فيوجب ضرباً من الإعراب. وقد تكلمت العرب في المنادى

بما انتهى النحو إلى استعماله على اللفظ الذي استعملته العرب (يعني بذلك أن العرب حرّكتْ بعض المُنَادِي بالنصب وبعضه بالرفع) واختلفوا في علته، فسيبويه وسائر البصريين جعلوا المُنَادِي بمنزلة المفعول به، وجعلوا الأصل في كل مَنَادِي النصب، واستدلوا بنصبهم المُنَادِي المضاف والموصول والفكرة ونحوها. وقد ذكروا أن ما يقدر ناصباً هو (أدعو) أو (أنادي) ولكن ذلك على جهة التمثيل والتقريب؛ لأنهم أجمعوا أن النداء ليس بخبر^(٤).

أقول: هذا يعني أن النحاة منذ القديم كانوا يبحثون عن عاملٍ لفظيٍّ لإعراب الكلمات، حتى وإن تكلفوا لذلك ما لا يتفق ومنطق العقل، لأن المُنَادِي، كما أسلفنا، يختلف كثيراً عن الجملة الخبرية التي تبدأ بـ (أنادي أو أدعو)، لأن المُنَادِي شبه جملة إنشائية.

٥. لماذا اعتبر النحاة حركة الضم في المُنَادِي بناءً؟

أرى أن السبب أنهم توهموا أن الكلمة المُعَرَبَة، إذا لم تكن معرفة (بال) أو مضافة فإن حركتها تكون حركة تنوين، تنوين نصب، أو تنوين رفع، أو تنوين جرّ. (ما عدا الممنوع من الصرف الذي يُحرّك بحركة واحدة). ولم يتبهاوا أنه يُمكن - حسب طبيعة اللغة - أن يكون بعض المُعَرَبَاتِ (و لو من باب الاستثناء) يُحرّك بحركة واحدة. ذلك لأن المبنى في الأشيع، هو محرك بحركة واحدة، قد تكون فتحاً أو ضمّاً أو كسراً. (وهي علامة البناء). ومع ذلك فهناك مبنيات قليلة تحرك بالتنوين، مثل: صه، أه، واهأ. فهذه الكلمات الثلاثة مبنية بعلامة التنوين، فهي في الكلمتين الأوليين تنوين الكسر، وفي الكلمة الثالثة تنوين الفتح. فكما جاز البناء بالتنوين يجوز الإعراب بالحركة الواحدة.

٦. الخليل منمجه كوفي لا بصري:

والحق أنني تحيرت كثيراً في أمر الخليل - رحمه الله تعالى - فلماذا كان من مدرسة البصرة، وهو عربي صليبية - ومعظم علماء البصرة، في النحو، هم فرس؟، بيد أن طول التأمل هداني إلى أن الخليل - رحمه الله تعالى - كان أقرب إلى مدرسة الكوفة، وإن كان من علماء النحو في البصرة لأنه يقطن البصرة، ليس أكثر، بلنا

على ذلك... أن قضية (الشاذ في اللغة) - كما ابتدعها في النحو وركز عليها علماء البصرة، قبل الخليل وبعده، لينفروا الناس من هذا الذي سُمّوه شاذًا، لتسلم لهم مقاييس "عقلية" بحثية، قد تصح في الفلسفة النظرية، ولكنها لا تصح في البنى الحية، ولأن اللغة.. بنية حية - قضية الشنوذ لم تشغل بال الخليل، بل - الخليل كان يسير في "رؤية" لغوية تعاكس قضية الشنوذ. فقد كان يجهد في "تعليل كل ما جاء عن العرب، باعتباره كل ما ورد عن العرب.. فصيحاً". لأن العربي - صاحب السليقة - حكيم في الاستعمال اللغوي... فلا بد أن لكل ما قاله "علة" عقلية منطقية.

ولأن هذه القضية.. ليست في صلب موضوع بحثنا (مع أنها تضيء جانباً من شخصية هذا الإمام العظيم).. نكتفي بمثل واحد نوردّه، يُبيّن أن الخليل كان يسير على منهج قبول كل ما جاء عن العرب، وأنه يمكن أن يقاس عليه:

١. قال سيبويه: (وزعم الخليل - رحمه الله تعالى - أنهم نصبوا المضاف، نحو: يا عبدالله، ويا أخانا، والنكرة {أي - نصبوها} حين قالوا: يا رجلاً صالحاً، حين طال الكلام. كما نصبوا: هو قبلك، وهو بعدك، ورفعوا... قبل، وبعد. وموضعهما واحد. وذلك.. قولك: يا زيد - يا عمرو. وتركوا التنوين في المفرد كما تركوه في قبل.

٢. قلت: رأيت قولهم: يا زيد الطويل - علام نصبوا الطويل؟

٣. قال: نصب لأنه صفة لمنسوب. قال: وإن شئت؟ كان نصباً على (أعني).

٤. فقلت: رأيت الرفع.. على أي شيء هو؟ إذ قال: زيد الطويل؟

٥. قال: هو صفة لمرفوع.

٦. قلت: ألسنت زعمت أن هذا المرفوع، في موضع نصب.. فلم لا يكون كقوله: لقيته أمس الأحد؟

٧. قال: من قبل أن كل اسم مفرد في النداء.. مرفوع أبداً. وليس كل اسم في موضع (أمس) يكون مجروراً. فلما اطرّد الرفع، في كل مفرد، في النداء.. صار عندهم بمنزلة ما يرتفع بالابتداء، أو بالفعل، فجعلوا وصفه، إذا كان مفرداً، بمنزلة.

٨. قلت: أفرأيت قول العرب كلهم:

"أزيدُ أخا ورقاء، إن كنتَ ثائراً فقد عرَضتُ أحناءُ حقَّ فخاصِم".

لأيِّ شيءٍ لم يَجْزُ فيه الرفعُ، كما جاز في (الطويل)؟

٩. قال: لأن المنادى، إذا وُصف بالمضاف فهو بمنزلة (يقصد أن المضاف إليه

في هذه الحالة حركته مثل حركة المنادى)، إذا كان في موضعه ولو جاز هذا..

لقلت: يا أخونا - تريد أن تجعله، في موضع المفرد. وهذا.. لحن^(٥).

٧. منهج سيبويه متصل بمنهج علماء اللغة الفرس:

إن سيبويه فارسي، وقد سبقه علماء نحو فرس كانوا يأخذون بالقياس على

الأعم الأغلب، ويطرحون ما خالف الأعم الأغلب، ويصمون به بأنه شاذ. ومن الأمثلة

الطريفة على ذلك أن أحد علماء النحو، واسمه: عبد الله كان يُخطئ الفرزدق،

والفرزدق عربيُّ قح، وشاعر عظيم، يَحْتَجُّ بشعره، في اللغة والنحو، فقد كان يعيش

في بادية البصرة، وتوفي قبل انقضاء دولة بني أمية (وُلِدَ في سنة ٢٠ للهجرة،

وتوفي سنة ١١٤ للهجرة).

قال الفرزدق من قصيدة مدح:

وعضُ زمان، يا ابن مروان، لم يدغ من المالِ إلّا مُسْحَتاً أو مَجَلْفُ

فخطأه عبد الله هذا، فقال: قلت: (مَجَلْفُ) والصواب (مُجَلْفًا)، عطفاً على

(مسحَتاً)، فغضب الفرزدق، وهجاه ببيت شعر، فقال:

فلو كان عبد الله مولى هَجَوْتُهُ ولكنَّ عبد الله مولى مواليا

والفرزدق الشاعر الكبير - العربي القح - الذي عاش في بادية البصرة.. لا

يُخطئ، ولكن هذا النحويُّ الفارسي (المولى) يريد أن تسلّم له قواعده العامة التي

تقوم على الأعم الأغلب، وليست اللغة كذلك...

وقول الفرزدق هذا (مَجَلْفُ).. له وَجْةٌ في العربية، فتقديره: (مسحَتاً - أو هو

مَجَلْفُ) - فمجلف هنا.. هي خبر لمبتدأ محذوف، تقديره (هو)، والشاعر هنا، كأنه،

بعد أن قال: (مسحَتاً).. عدل عن هذا الوصف.. فأضرب عنه، أي - قال: "أو"

بمعنى - بل - وهذا.. وجه معقول ومعتبر، لأنه، بعد أن قال: (مسحاً) فكانت والمُسْحَتُ هو المال الخبيث الذي يأتي من مصدر خبيث - ولذا.. يقال: أسحت في تجارته، أي: رابى، أو تحايل على الزبائن، فأخذ منهم ما هو فوق الحق المشروع من الربح، فكانت هذه الزيادة مالاً خبيثاً (أي - حراماً - أي - سُحْتاً) - فكان لهذا.. إضرابُ الشاعر عنه معناه المعتبر، ولكن هذا المولى الذي يطلب القياس على الأعم الأغلب، وليس تسري في كيانه الفطرة اللغوية العربية، فلا يُحسّ بمدخلها، ومخارجها - حتى تدفعه فطرته اللغوية إلى الحدس والاعتقاد معاً بأن كل ما ورد عن الفصحاء العرب.. له وَجْةٌ في العربية - لا بُدَّ ولهذا كان هذا المولى يُحْكَمُ مقاييسَ عقليةَ عامة لا تصلح في اللغة كما سلف القول.

سؤال: قد يُقال: أنت، في الفقرة التي تحدثت فيها عن ابن مضاء القرطبي.. ذكرت أن العربية، دون جميع اللغات، لاستعمالاتها.. تفسير، أو تعليل عقلي، وأنت هنا.. لا تُقرُّ أن تُؤخذ اللغة. بمقاييس عقلية، لا نخل للوجدان فيها، ترى أن اللغة يجب أن لا تُبنى قواعدها على ما جاء من اللغة - على الأعم الأغلب.. فكيف تُوفَّق بين القولين؟

الجواب.. أنه لا تعارض بين القولين؛ لأن الذي يريد للغة أن تقوم على مقاييس عامة.. خطوة أنه ينسى أن اللغة الحية، وكل لغة حية ليست وليدة العقل وحده، وإنما هي، في الحق، وليدة العقل والوجدان معاً.. ومشاعر الوجدان كثيرة ومعقدة.. فمنها الذي يجده المرء يتردد في كيانه كل يوم، وهكذا تكثُرُ النماذج التعبيرية التي تترجمه.. ومنها متوسط الكثرة. ومنها الذي لا يتردد في كيانه إلا بضع مرات في العمر، وأحياناً.. لا يتردد إلا مرة واحدة. وهذا نموذج التعبير، نادر، أي غير شائع. فإذا كان منهجه ألا يأخذ من اللغة إلا ما هو في مجال الشعورين السابقين، الأول والثاني. وأن ما عداه هو شاذٌّ إما يُطرح، وإما لا يقاس عليه، فقد أفقد اللغة تعابير تترجم أعمق ما في النفس البشرية، فيكون التعبير، يفقدها، قد أفقد المبدع نممات صغيرة مطوية في حنايا النفس والوجدان، وبفقدتها يصير عمله الأدبي فاقداً لروحه، أو لأنبل شعلة تضيء هذه الروح، فيضحي العمل.

الأدبي كاتباً فاقداً لبريقه، وكما أفقد هذا القياس الذي لا يكون إلا على الأعم الأغلب المبدع هذه النمنمات، فقد أفقد القارئ ما تُضفيته في نفسه ووجدانه من أحلام الإنسان التي لا يجد الإنسان إضاءة لها إلا من خلال الأدب (والفن - عامة).

بيد أن هذه النمنمات، عندما تخرج إلى الوجود، في الأدب - وما هو كالأدب من فورات النفس - فإن العقل يستطيع أن يُفسرها، أو أن يُعلل لها. أما ترى أن كثيراً من التصرفات السلوكية للأفراد تأتي من الوعي الباطن، أي العقل الباطن، وتتسلل إلى مجال الفعل، من دون أن يدركها صاحبها إنراكاً عقلياً واعياً، ومع ذلك يستطيع عقل طبيب النفس، وبعض العقول الحكيمة أن تُفسرها؟ مثلاً، إذا عرفت رجلاً متفرداً في رأيه في أسرته، لا يسمح لأحد أن يناقشه فإن العقل يقول: إن لهذا التصرف أسباباً عدة.. قد تلتقي كلها، وقد يكفي بعضها. فمن هذه الأسباب أنه رأى أباه تسيبياً، ولم يكن في أعماقه راضياً عن ضعف أبيه، فهو - الابن - بهذا التفرد والحزم يُصحح، من حيث لا يشعر، غالباً.. سلوك أبيه. ومنها أنه محترق في المجتمع لا يُلتفت لرأيه، أو أن رئيسه في العمل لا ينفك يُلقي عليه الأوامر، ولا يسمح له بإبداء رأيه، فهذا الرجل من حيث لا يشعر - غالباً - يتصرف بقسوة، واستبداد، برأيه، في بيته، لكي يُعيد لنفسه التوازن الذي لا ترتاح بدونه، أو يصح أن نقول: لكي تُعيد النفس إلى ذاتها التوازن الذي يصيبها من الاضطراب والقلق، إذا افتقدته. ولكن، إذا سألت هذا الرجل لماذا يتصرف في بيته هذا التصرف المستبد، قد يُعطيك أسباباً كثيرة ولكن وهمية في حقيقتها، لهذا التصرف، ولكن ليس منها السببان السابقان أو أحدهما، وإذا أنت عرضت عليه هذين السببين أنهما (أو أحدهما) هما دافعاها إلى هذا السلوك الاستبدادي قد ينكر، ويستبعد ذلك. لأن هذه الأسباب دفينة في أعماقه، مطمورة في الشعور المستسر، الذي سماه مترجمو فرويد باللاشعور. وهذه ترجمة خاطئة، لأن اللاشعور لا يتولد منه شعور - كما أن - اللاشيء - لا يتولد منه شيء.

إذن، لا تعارض بين أن يجعل المرء ما يقع في مجال بحثه يقوم، عنده، على قواعد عامة، ويترك ما لم تنتظمه هذه القواعد، وبين أن يكون للشيء تفاصيل

صغيرة متروكة، لا تجافي حركة المعقول في الفطرة، مما يجعل تعليلها، عقلياً، أمراً ممكناً، ولا يناقض ثوابت العقل. بعبارة أخرى لا تعارض بين أن، يتسرّب القول أو السلوك من اللامعقول (أعني.. من العقل الباطن) وبين أن يكون ممكناً تفسيره بالمعقول.

عود إلى منهج سيبويه:

ما سبق.. ليس استطراداً، وإنما هو توضيح لا بُدَّ منه، لكي يكون ما نقوله عن سيبويه الذي توفي (سنة ١٨٠ هـ) - رحمه الله تعالى - سبقته خلفية تنير كلامنا الموجز عنه.

سَيَّبَوِيَّهِ.. فارسي، وهذا.. يعني، بناء على ما سبق عن منهج علماء العربية الفرس أنه مستعد في أعماقه إلى الأخذ بالقياس على الأعم الأغلب، ويطرح ما عداه، أو يعتبره شاذاً يُحَقِّظُ ولا يُقَاسُ عليه، فما الذي كان منه - علمياً؟

الجواب.. أن الرجل لم يفعل فعلَ عامّة علماء اللغة من الفرس، ولكنه، في الوقت نفسه لم يتبع منهج علماء اللغة العرب، في الكوفة بعبارة أخرى: لم يتبع منهج أستاذه الخليل، خُطوةً خُطوةً، وهذا يعني أن منهجه ورؤيته للغة لم تختلفا عن منهج بني قومه، مع تحفظ كبير.

ذلك لأن الخليل - رحمه الله تعالى - العربي، صليبة.. لم تكن رؤيته لطبيعة اللغة كروية علماء البصرة الفرس، وإن كان من علماء البصرة أي، بعبارة أدق: من قاطني البصرة وقد سبق القول بهذا، وهذا يعني أن شخصية الخليل العلميّة الطاغية، وعقليته الجبارة.. كان لهما تأثير كبير في تلميذه سيبويه. فلما أراد سيبويه، بعد وفاة الأستاذ أن يُحيي تراثه كانت شخصية أستاذه الخليل العلميّة الطاغية تحاصره، فتجبره على أن يُدعِنَ لتقديم رأي الخليل، ومنهجه للناس، في ذلك السُفر العظيم الذي سمّاه سيبويه الكتاب، وليس تقديم رأيه هو ومنهجه.

بيد أن الرجل كان يحاول التقلُّت، أحياناً، من سطوة أستاذه العظيم. وذلك عن طريق العبارة التي كررها في الكتاب عشرات المرات، وهي: (وزعم الخليل)، لأن العالم لا يقول عن قول غيره (وزعم) إلا وهو غير مقتنع به، لأن "زعم" تعني

أن قائل القول (الزاعم) هو مقتنع به، أما الذي يصف قول القائل بالزعم أو بأن القائل "زعم" فهو غير مقتنع به.

ونحن.. وجدنا هذا في المواطن الكثيرة التي قال فيها التلميذ عن أستاذه: (وزعم الخليل).. ويمكننا، لكي لا نطيل، أن نرجع إلى النص السابق الذي أخذناه من الكتاب في باب النداء. فسنجد أن سيبويه عندما قال في الرقم الأول: (وزعم الخليل - رحمه الله..). لم يكن مقتنعاً بتعليل الخليل لنصب المضاف، والنكرة المعينة الموصوفة بأن النصب جاء بسبب طول الكلمة، بل يريد أن يُعلل بعاملٍ مادي متروك هو: الفعل (أنادي - أو أدعو)، لأن عقلية سيبويه الفارسية لا تستطيع أن تتذوق اللغة، وأن تُحسَّ بجمالها، كما يحسُّ بها أحد أبنائها الأفاذا وهو الخليل، فطول الكلمة، أو قصرها، وملاءمة نوع من حركات الإعراب للكلمة الطويلة، ونوع آخر للكلمة القصيرة (عندما لا يكون مؤثراً فيها تأثيراً ظاهراً.. عامل لفظي ظاهر)، لا يحسُّ به إحساساً مَرهفاً يحاكي إحساس الخليل إلا الخليل وأمثاله، على قلتهم، الذي تمكن نتيجة إحساسه المرفه هذا أن يضع موازين بحور الشعر، وهل يستطيع ذلك إلا من وهب حساً في الغاية من الرهافة، كحس الخليل العظيم؟

وهذا، دليل على أن سيبويه كانت تشدُّ عقليته الفارسية إلى أن يخضع التعليل للقياس العقلي، لا للذوق، وبالقياس فإنه يطرح النادر والقليل، لو نجا من محاصرة أستاذه العظيم له. إذن، بذور هذه العقلية التي تلهج بالقياس، وبسببه تطرح نممات القول - كما وصفناها قبل قليل - يمكن تلمُّسها في قول سيبويه السابق عن أن الخليل "زعم" في هذا الموطن، وإذن لم يقل ما يُقنع سيبويه، لفارق العقلية، وفارق الفطرة اللغوية، والذوق اللغوي.

ومثل قول سيبويه السابق قوله في نفس النص: (قلت: ألسنت زعمت...). وأقول: مع أنني أشكُّ في أن سيبويه قال للخليل، في وجهه: (ألسنت زعمت) لما قلناه من عظمة شخصية الخليل العلمية، غير أن ذلك لا يُغير الفكرة التي نعالجها، فسواء أقال سيبويه ذلك للخليل، مباشرة أو قاله بعد أن توفي الخليل، وعكف سيبويه على تأليف الكتاب، إحياءً لعلم الخليل فإن ذلك يشير إلى أنه لم يقتنع برأي الخليل هذا،

وإن هذا الموقف أكثر دلالة على محاولة التلميذ التملص من سطوة الأستاذ، وعلى محاولة التلميذ النجيب أن يكون للأمر وجه واحد، فهو يرى أن إعراب (الطويل) يجب أن يقتصر على وجه واحد، هو وجه الرفع لأن الموصوف المنادى، وهو (زيد) مرفوع، وهذا.. نوع من عدم التشبع بفطرة اللغة، ونوع من الرغبة في القياس على -الأعم الأغلب- لأن رفع (الطويل) بعد العلم المنادى هو الأعم الأغلب. أمّا نصبة فهو النادر الذي يحتاج إلى تعليل بعيد، والذي يؤدي إذا تكاثر، بل وفي صورته الفردية هذه إلى اختراق قاعدة القياس على الأعم الأغلب. وهنا... أقول: لا تعارض بين اعتراضى على الخليل العظيم، وبين هذا التعليل، لأنى عللت رؤية الخليل، واختلاق رؤية تلميذه مع رؤيته بغض النظر عن رؤيتي السابقة.

ما ننتهى إليه هو أن الخليل -رحمه الله- كان أقرب إلى منهج علماء العرب النحاة، في النظرة إلى اللغة بأنها لا غنى عن شيء منها. ولذا، فكما يقاس على الأعم الأغلب، يقاس على النادر. لأن الأعم الأغلب لا يسد مسد النادر في التعبير عن أعماق النفس.

وأن سيبويه كان يحتم بحصر القياس في الأعم الأغلب، ولكن طغيان شخصية أستاذه العلمية، لم تمكنه من المجاهرة بذلك، ولكنه لسان حال كلامه في الكتاب يشير إلى أنه كان يغازل هذا المنهج، عن طريق عبارته: (وزعم الخليل..). علماء اللغة الفرس كانوا لا يقبلون بغير منهج القياس على الأعم الأغلب، لنضوب حضارة الفرس، من نبض الحياة، وتحولها إلى هياكل عقلية جوفاء.

إن الذين جاءوا من علماء اللغة البصريين بعد الكتاب -وسعوا ما ذكره سيبويه من اعتراضات على منهج أستاذه على استحياء عن طريق عبارة (وزعم الخليل..)، فجعلوا قاعدتهم التي لا يريدون لها أن تخرم هي: القياس على الأعم الأغلب، واطراح النادر، ووصمه بالشذوذ، أو على الأكثر يحفظ ولا يقاس عليه.

وهكذا، فقد خرج من جاءوا بعد الخليل على منهج الخليل جرياً مع طبيعة عقلية علماء البصرة، كما كان من سبقه من علماء البصرة الفرس قد كانوا اختطوا الطريق التي سلكها المتأخرون بعد الخليل رحمه الله تعالى.

الدخول في الموضوع:

كلمة في البدء:

هذا بحث لخصت فيه شرح القدامى ولا سيما البصريين لموضوع النداء اعتماداً على سيبويه، وشرح ابن عقيل للألفية.

بيد أني لم أتابع البصريين على عدّهم أنواع النداء المرفوع مبنيةً على الضمّ، بل تابعت الكوفيين وسيبويه في مؤلفه العظيم في النحو الموسوم بـ (الكتاب) الذي كانت معظم مسائله مرويّة عن الخليل وعن يونس، ثم انضم إليهم الرياشي. هؤلاء اعتبروا أنواع النداء المرفوع إما مرفوعة بالضمّة المفردة، أو مرفوعة بألف الاثنين، وإما أن تكون مرفوعة بواو الجماعة لجمع المنكر السالم، (كما نبين خلال البحث)، وبالضمّة المفردة لجمع المؤنث السالم، في حالة النداء للذكورة المعينة. وكلام سيبويه في أن النداء مرفوع، قد لا يقصد به الرفع وإنما يقصد به البناء على ما يُرفع به، فعبارته ليست قائمةً على الجزم في هذا الأمر. بسبب أن الذين أتوا بعده فهموا من كلامه أن الضمّ هو البناء على الضمّ، وليس حركة إعرابية.

وقد عللت لحالات الرفع بعلة (المخالفة أو نفت الانتباه للفرق بين شيئين أو بين شيء وشيئين). وهو رأي جديد. ولذا، لا نقول: مبني في محل نصب. لأن المخالفة معتبرة كعامل معنوي يترك أثراً ظاهراً في الكلام. ولذا (فهذه الحالات مرفوعة بالمخالفة، وليست في محل نصب). لأن أدوات النداء لا تحلُّ محل الفعل، بل هي أصلية، ولها خصوصية في جملتها، وليس لها علاقة بالفعل (أنادي) إلا من باب (الإشمام) أو التفسير. ولذا، حق أن تكون بعض أنواع النداء مرفوعة، خاصة أن تغير الحركة بسبب المعنى، أي بعامل معنوي، إعراباً، كما أن المبتدأ مرفوع بالمعنى، أي بعامل معنوي هو الابتداء.

ثم أتيتُ برأي جديد آخر إذ عدت المنادى (شبهة جملة)، لأنه لا يُعبر عن كلام تام فهو كالظرف والجار والمجرور. وبذلك.. أصبحت أشباه الجمل ثلاثة أنواع. اثنان يتعلقان كثيراً، وهما الظرف والجار والمجرور، لافتقارهما إلى التعلق. والثالث لا يتعلق، وهو النداء. لأن شبهة بمعنى الفعل (وليس بالفعل) لم يجعله مفتقراً إلى التعلق.

وقد اعتمدت على جملة من الكتب النحوية، أولها (الكتاب) لسيبويه الذي كانت معظم مادته قد أخذها سيبويه من أستاذه العظيم الخليل ابن أحمد الفراهيدي - رحمه الله - وأوسعها إحاطة (همع الهوامع)، لأنه كما يقول مؤلفه السيوطي قد لخص فيه مادة مئة كتاب في النحو، منها (الكتاب) لسيبويه، وقريب من هذا ما يلجأ إليه بعض أساتذة الجامعات، إذ يكلفون طلابهم بعشرات البحوث الموثقة، ثم يأخذ الأستاذ النصوص الموثقة، ويقيم عليها بحثاً، فإذا كان جامع نصوص.. صنف وشرح. وإذا كان مبدعاً.. فحص ونقد وحلل، وأتى بجديد، إضافة أو تغييراً.

فهل أتى هذا البحث بجديد حقاً؟ هذا ما تُثبته أو تنفيه الصفحات الآتية.

* المنادى.. منصوب ومرفوع:

المنادى نوعان: منادى منصوب، ومنادى مبني على الضم (وأنا أعتبره مرفوعاً وليس مبنياً على الضم، كما سأبين فيما بعد). فالمبني على الضم هو (المفرد) عندما يكون علماً، أو نكرة معينة (وأكثر الكتب قالت: نكرة مقصودة. والمعنى متقارب). أي: يُبنى على ما كان يرفع به. فإن كان يرفع بالضمه بني عليها، نحو: يا زيد، ويا رجل. وإن كان يرفع بالألف أو الواو.. فكذلك، أي: يبنى على الألف، في المثني، وعلى الواو، في الجمع. نحو: يا زيدان، ويا رجلان، ويا زيدون، ويا معلمون. هكذا قالوا، قديماً وحديثاً.

ويكون كل ذلك في محل نصب على المفعولية، لأن المنادى - هكذا يرون - مفعول به في المعنى. وناصبه فعل مضمر نابت (يا) منابه. فأصل يا زيد أدعو زيداً. فحذف أدعو، ونابت (يا) منابه. ولهذا قال سيبويه في (الكتاب): اعلم أن النداء، كل اسم مضاف فيه فهو نصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره. والمفرد رفع وهو في موضع اسم منصوب^(٦).

قال سيبويه: وزعم الخليل - رحمه الله - أنهم نصبوا المضاف، نحو يا عبدالله، ويا أخانا، والنكرة حين قالوا: يا رجلاً صالحاً. حين طال الكلام، كما نصبوا (هو قبلك، وهو بعدك). ورفعوا المفرد كما رفعوا (قبل، وبعد) وموضعهما واحد. وذلك قولك: يا زيد، ويا عمرو. وتركوا التنوين في المفرد كما تركوه في (قبل)^(٧).

وقال ابن مالك - صاحب الألفية: " .. وابن المعرف المنادى المفردا على الذي في رفعه قد عهدا^(٨) .

أما المنصوب.. فهو النكرة غير المقصودة، أو المضاف أو الشبيه بالمضاف.
(فمثال الأول. قول يغو^(٩) ابن وقاص الحارثي:

(أيا راكباً، إمّا عرضت فبلغن نداماي من نجران ألا تلاقيا).

ومثال الثاني (أي: المضاف): يا غلام زيد، ويا ضارب عمر^(١٠).

ومثال الثالث (أي: الشبيه بالمضاف): (يا طالعاً جبلاً) ويا حسناً وجهه، ويا

ثلاثة وثلاثين (فيمن سميت بذلك). ولذا.. قال ابن مالك: ..(والمفرد المنكور والمضافا وشبهه (انصب عادماً خلافاً))^(١١).

هذا.. ملخص لرأي القدامى.. وإليك رأيي:

* المنادى المنصوب:

ليس المنادى المنصوب منصوباً بفعل مضمر تقديره (أنادي) كما قرّر النحاة في القديم وفي الحديث، بل - هو منصوب على المخالفة، كما أنه مرفوع على المخالفة، وليس مبنياً على الضم كما قرّر النحاة أيضاً. بل، هو مرفوع وليس مبنياً.
لماذا؟ لأن فعل (أنادي) لا يصح أن يحل محل (يا) النداء، وأخواتها، فالفعل (أنادي) مع الاسم الذي يُنادى بهذا الفعل يكونان جملة خبرية، أمّا (يا) التي للنداء، مع الاسم الذي ينادى بها، فهما تعبير إنشائي، والجملة الخبرية لا تسد مسدّ الجملة الإنشائية، أو التعبير الإنشائي. لأن الجملة الخبرية تحتمل الصدق، وتحتمل الكذب. أمّا الجملة الإنشائية (أو التعبير الإنشائي) فلا تحتمل لا صدقاً، ولا كذباً، فإذا قلت: تكلم سعيد في الحفل فهذه جملة خبرية، فقد يكون تكلم حقاً، وقد لا يكون تكلم، أمّا إذا قلت: يا طالعاً جبلاً.. تمهل فهذا تعبير إنشائي، وهو لا يحتمل لا صدقاً ولا كذباً. بلى قد يُفسر الإنشاء بجملة خبرية، ولكن لا يُقدّر مكان الإنشاء جملة خبرية، التفسير شيء، والتقدير شيء آخر مختلف. وهذا سبب أول.

* المنادي.. شبه جملة:

أمّا لماذا المنادى (شبه جملة)؟ فلأن الجملة لها ركنان: مسند ومسند إليه، فإذا

قلت: سالم كريم، فسالم مسند إليه، وكريم مسند. وإذا قلت: أحسن الصائم، فالصائم هو مسند إليه، والفعل (أحسن) مسند. والمسند إليه هو العمدة في الكلام. ولكنك إذا قلت: يا زيد.. فلن يكون "زيد" مسنداً إليه، وحرفُ النداء (يا) مسنداً. لأن المسند إليه لا يقوم به معنى مفيدٌ وخذءٌ، وإنما يتم به المعنى عند الإتيان بالمسند. وحرفُ النداء (يا) لا يتم به معنى، بل يُنبّه إلى المعنى وهو النداء، وليس بإخبار عن شيء أيضاً.

هل هذا يعني أن شبهَ الجملة ثلاثة أنواع: الظرفُ والجارُ والمجرور، ثم النداء، مع أن ذلك لم يقلْ به النحاة! لأن النحاة لم يعتبروا شبهَ الجملة إلا الظرف والجار والمجرور؟

فأجيب بأن النحاة اعتبروا أن المنادي نُصب بفعل مضمَر، وأنا لم أرَ ذلك كما سبق، وكما سيأتي. ولذا، فإني أرى أن نضيف إلى نوعي شبهَ الجملة المعروفين هذا النوع الثالث، وهو شبهَ جملة النداء.

وقد يُسأل أيضاً: شبهَ الجملة يتعلّق بغيره، فبِمَ يتعلّق المنادي؟ وأجيب بأن الظرف، والجارَ والمجرور، تتعلّق بغيرها حقاً، تتعلّق بالفعل أو المشتق أو ما يؤوّل بمشتق. بيدَ أن النداء لا يتعلّق، لأنه يُشَمُّ فيه معنى الفعل أو يفسر بفعل، كما سبق القول، ولذا فلم يَعدْ في حاجة إلى أن يتعلّق بغيره، كما أن الفعل ليس في حاجة إلى أن يتعلّق بغيره. وإذا شئت علّقتَه بالمشتق بعده، لأن المنادي، غالباً، ما يؤتى به من أجل شيء يطلب منه، كأن تقول: يا سعيد، تمسك بالحق. وإذن، لك أن تعلق (يا سعيد) بالفعل الذي بعده.

• السبب الثاني:

وهو أن الأدوات التي يُشَمُّ فيها معنى الفعل ليست بمعنى الفعل تماماً، وإنما يُستوحى فيها معناه ليس أكثر، أي يفسر بالفعل ليس أكثر. كما أنك إذا قلت: سعيد يشبه زيداً، أو فيه بعض ملامح زيد، فلا يستلم لك بهذا أن تقول: سعيد هو زيد.

ومن أمثلة الأدوات التي لا تتوب عن الفعل ولا ينوب الفعل منها الخمس الآتية:

أ. (أن) التفسيرية: فأنت تقول: أشرت إليه.. أن: أدغ الطبيب. فليست (أن) هي

الفعل (أشرت)، أو هي في معناها، وإنما هي تُفسَّر الإشارة تفسيراً، والتفسير يختلف عن المفسَّر. وإلا فهل تفسير القرآن الكريم هو القرآن الكريم؟ بل إن الذي يفسر عبارة (أشرت إليه) إنما هي (ادعُ الطبيب). ومع ذلك فهي لا تُعرب إعرابها، لأن المفسَّر (بكسر السين) هو غير المفسَّر (بفتح السين).

ب. (أي) تأتي بدل (أعني). ولكنها لا تُعرب إعراب أعني، ولا الذي يليها يعرب إعراب الذي يلي (أعني)، لأنها يشتم منها معنى (أعني) إتماماً، وليس معناها هو معنى (أعني) تماماً، ولذلك فأنت تقول: وردَ في القرآن الكريم قوله تعالى الآتي: (حافظوا على الصلوات، والصلوة الوسطى) (البقرة: ٢٣٨)، والصلوة الوسطى، أي: صلاة العصر. فترفع (الصلوة) بعد (أي) على اعتبارها خبراً لمبتدأ محذوف هو: (هي)، ولا تتصبها كما تتصبها بعد (أعني) لو قلت: يعني صلاة العصر. فهي، مع يعني، مفعول به منصوب. ومع (أي) خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هي).

ت. العلامة ليست كمعناها: إن العلامة التي يصطلح عليها لكي تدلَّ على معنى لا تقوم إعرابياً مقام المعنى، بل قد لا يفهم منها من لا يعرف ما توضع عليه منها هذا المعنى المصطلح عليه بها. فإشارة المرور - مثلاً - الحمراء، اصطُح على أنها تعني للسائق: (قف، حتى يتغير اللون من الأحمر إلى الأخضر). ولكنها في الحقيقة شيء، والعبارة المقصودة منها شيء آخر.

ث. الخطاب والغيبة: عندما نقول: (يا سالم)، فنحن (نخاطب) سالمًا، ولكن عندما نقول: (أنادي سالمًا). فنحن نتحدث عن (غائب). ولا يستوي معنى الخطاب مع معنى الغيبة. أما ترى أن (الالتفات) من الغيبة إلى الخطاب فيه استحضارٌ وتنبيةٌ لیسا قائلين في الغيبة؟ ولا يحل الغائب محلَّ المخاطب ليأخذ حكمه، أو ما فيه معنى الخطاب.

ج. رفع بعض المنادى: لو كانت أداة النداء بمعنى (أنادي) تماماً، كما يقع الحافر على الحافر - كما قال نقادنا القدامى - لما وجدنا المنادى (مرفوعاً) في بعض الحالات. إذ لا يصحَّ مع الفعل المتعدّي أن نرفع ما هو مفعول به - أبداً. ولهذا، وقع الرفع لحالات من المنادى، لأن أداة النداء شيء، والفعل (أنادي) شيء آخر، بينهما شبهة، ولكن بينهما

فروق شتى. إن النداء عبارة (نمطية) عاملها معنوي فلا تلتبس بعبارة، عاملها الفعل لأن العبارة التي عاملها الفعل عبارة مرنة، يُشتق منها عبارات أخرى. لكل ما سبق فالمنادى المنصوب منصوبٌ على (المخالفة) لا على المفعولية، فإذا قلنا: (أيا راكباً، إما عرضت قبلغن) نعرب (أيا) أداة نداء مركبة، لا محل لها من الإعراب. و(راكباً) منادى منصوب على المخالفة ليس غير، وعلامة نصبه تنوين الفتح الظاهر. لأن أدوات المعاني لا تعمل كما يقول ابن هشام في كتابه (مغني اللبيب عن كتب الأعراب) (١٢).

* المنادى المبني على الضم هو في حقيقته. مرفوع:

أنا أرى أن المنادى الذي يقال بأنه مبني على الضم - أراه مرفوعاً، أخذاً برأي الكوفيين، ولكن لماذا أخذ برأي الكوفيين؟

هذا السؤال يستدعي سؤالاً آخر: لماذا اعتبره النحاة مبنيًا على الضم؟ يقول كتاب (همع الهوامع): (وعلة البناء الوقوع موقع كاف الخطاب) (١٣)، وأقول: أنا أرى هذا بعيداً، لأنه لا جامع بين كاف الخطاب، وبين المنادى إلا كالجامع بين كاف الخطاب وبين الخطاب بـ (أنت)، فلماذا لا يُبنى الضمير (أنت) على الضم. أو كالجامع بين كاف الخطاب وبين فعل الأمر: اكتب، مثلاً. فلماذا لم يُبنَ هذا الفعل على الضم؟

(وقيل: العلة شبهة بالضمير) (١٤). فأقول: وهل كل أنواع الضمير بُنيت على الضم؟ الجواب: بل هي بُني بعض منها على الضم وليس كلها. إذن، ليس من شبه بينه وبين الضمير؟ بل إن الضمير يُشير إلى اسم، أي: هو تابع للاسم مفتقر إليه، أما المنادى فليس تابعاً لغيره أو مفتقراً إليه. أعني أن الضمير لا يؤتى به غالباً، إلا إذا سبقه الاسم الذي يعود الضمير عليه.

إذن.. إذا بطل أنه واقع موقع كاف الخطاب، ولا شبهة له بالضمير.. فقد ترجح أنه ليس مبنيًا على الضم، ليست حركته حركة بناء، وإنما هي حركة إعراب. إذن هو مرفوع بضمه مفردة، وليس مبنيًا على الضم، لأن المخالفة عامل معنوي معتبر في تغيير الحركة. لكن، لماذا هو مرفوع بضمه واحدة، لا بتنوين ضم؟

* **السبب الأول** - أن حركته هذه جاءت إعراب مخالفة، أي: خالفت حركة العلم المنادى (و هو غير مضاف) والنكرة المعينة وهي الرفع بضمة مفردة - حركة المنادى المضاف وشبهه المضاف وحركة النكرة غير المعينة التي هي النصب، خالفتها من أجل التمييز بين المنادى المعين، سواءً أكان علماً أم نكرة معينة، وبين المنادى غير المعين، سواءً أكان مضافاً أم شبه مضاف، لاختلاف الحالة بين العلم غير المضاف والنكرة المعينة، وبين المضاف وشبه المضاف في النداء. ولهذا.. فنحن نرى أن اختلاف الحركة نتج عن اختلاف جهة الخطاب، لأن العلم - غير المضاف - والنكرة المعينة - أقرب إلى المخاطب، أما المضاف، والشبه بالمضاف فأقرب إلى الغائب. كل ذلك في أسلوب النداء. وكل ذلك كان لا عن طريق التنظير العقلي، وإنما عن طريق هداية الفطرة، أو إلهام الفطرة التي فطر عليها العرب في عصور الاحتجاج اللغوي.

إن فلسفة حركة الإعراب أنها يُجاءُ بها لكي تعطي معنى إضافياً، فالفتح في الجملة الفعلية جيء به ليفرق بين المفعول به المفتوح الآخر (= المنصوب الآخر بجميع أشكاله) وبين الفاعل المضموم الآخر (المرفوع الآخر بجميع أشكاله).

* **والسبب الثاني** - أنه جاء مرفوعاً بضمة واحدة، ذلك ليختلف عن حركة العلم غير المضاف والنكرة المعينة، عندما يكونان مرفوعين في غير النداء. فحركتهما عندئذ هي تنوين الضم. لأن حركة المنادى المرفوع تعبر عن حالة، أما حركة العلم غير المضاف والنكرة المعينة في غير النداء فهي حركة تعبر عن حالة أخرى. فلا بُدَّ من اختلاف حركة النداء الذي جوهره أنه تعبير إنشائي مع حركة غير النداء الذي جوهره أنه تعبير غير إنشائي، أي إخباري.

ومما يرشحه تطور فعل الإنسان، في التطور البدائي أن النداء والأمر، وهما أسلوبان إنشائيان، سابقان في الوجود العملي على الفعل والفاعل، والمبتدأ والخبر، وهما أسلوبان خبريان، لأن النداء والأمر أسلوبا خطاب، والفعل والفاعل، والمبتدأ والخبر، أسلوبا غيبة. والخطاب في فعل الإنسان البدائي سابق على الغيبة. لأن الخطاب ضرورة للتفاعل بين البشر لا يستغنون عنها. أما الغيبة فلون من الترف

في التعبير لا يأتي إلا بعد أن تتطور معطيات حياة الإنسان، ويصير قادراً على الوصف والحكم. أما ترى أن العمال الفقراء، حتى اليوم وغداً، لا يُعْتَنُون بزخرفة التعبير، وإنما يَنْصَبُونَ على المقصود العملي انصباباً مباشراً؟ فضلاً عن هذا، فإن الغيبة تحتاج إلى خيال، وإلى قدرة على التجريد. وهاتان ملكتان نمتا مع الزمن.

هذا يعني أن الضمة المفردة والسكون على فعل الأمر تسبق في الوجود تتوين الضم. وهذا يعني أيضاً أن المخالفة في الأصل هي مخالفة تتوين الضم للضمة المفردة على النداء لسبقه. ولكن، لأن التطور الحضاري أدى إلى أن تصبح الجملة الفعلية، وجملة المبتدأ والخبر أكثر شيوعاً كثرة هائلة من النداء المرفوع - فقد احترِمَ الشيوخ، أي احترِمَتِ الكثرة، فأضحت المخالفة مصطلحاً على النداء المرفوع، لتمييزه عن المرفوعات من غير النداء. وقد سهل هذا الانتقال أن الجملة الفعلية خاصة يُرفع فيها الفاعل بعاملٍ لفظي هو الفعل، ويُنصب فيها المفعول به بعاملٍ لفظي كذلك هو الفاعل، على حين أن عامل الرفع في المنادى هو عامل معنوي. وهذا يعني، مرة ثالثة، أن النحاة عندما نظروا اللغة الفصحى نظروها في واقعها، فوصفوها على ما كانت عليه ولم يكن يعنيتهم تسلسل تولدِها، حسب ترتيب وجود تراكيبها، زمنياً.

وما أقوله هنا عن تسلسل وجود تراكيب اللغة، إذ كان النداء مثلاً سابقاً على الخبر- كما أسلفنا- لا أراه يخالف ما قررناه في مقالات سابقة، في مجلة (هذي الإسلام) الأردنية، من أن العربية الفصحى (إلهامية). لأنها كانت في علم الله تعالى قائمة على هذا التسلسل^(١٥)- كما لو أنها تطوّرت تطوراً طبيعياً. إن إلهام أصولها للعرب، جملة واحدة، لا ينفي أنها ستقوم على هذا التسلسل لو أنها تطوّرت كسائر لغات الأرض.

وإن مصطلحات النحاة التي وضعوها لإعراب أواخر الكلمات... معظمها صحيح. لا حاجة لتغييره، بيد أن بعض هذه المصطلحات فيه التواء وتكلف واضحان، مما يُعقّد بعض الإعراب على طالب العلم. ومنه هذا المصطلح الإعرابي الذي وضعوه للنداء، في حالة الرفع. ومنه ما اصطلحوا عليه أنه معرب،

وما اصطالحوا عليه أنه مبني، فعقدوا الأمر السهل في هذين الاصطلاحين.

إذن، (المخالفة) التي جاءت لتمييز المنادى المعين من المنادى غير المعين هي التي جعلت حركة المنادى المعين الضم، بدل النصب. (والمخالفة) من ناحية أخرى التي جاءت للتمييز بين المنادى المعين، والاسم المعين غير المنادى فهي التي جعلت حركة المنادى المعين ضمة مفردة والاسم المعين غير المنادى جعلت حركته ضميتين (تنوين ضم)، ولكن، لماذا خصت حركة المنادى المعين بالضم؟

الجواب: لم تكن - طبعاً - الفتحة لأن المضاف وشبهه، والنكرة غير المعينة - كلها مفتوحة الآخر - كما علل الخليل لنصبها، بطول الكلمة، فالكلمة إذا طالت ناسبها الفتح، لأنه أخف الحركات، وبذلك يحدث توازن بين ثقل الكلمة الطويلة، وبين خفة حركة الفتح. فلو كانت الفتحة، بدل الضمة.. لبطلت المخالفة، المخالفة التي أحسن بها العربي، زمن الاحتجاج، إحساس هداية وإلهام، ولم تكن كسرة، لكي تخالف المضاف المجرور، والمضاف إليه المعرف بأل، ولأن الفتحة أخف من الكسرة ومثل المنادى العلم، المنادى المعرف بأل، فهو مرفوع بضمة واحدة.

والسؤال هنا: لماذا جاء المنادى المعين بالضم، بضمة واحدة، في حين جاء المنادى غير المعين والمنادى المضاف وشبهه المضاف بالنصب؟ الجواب: الضمة أثقل من الفتحة، والمنادى المعين مخاطب والمخاطب مهياً نفسياً إلى تحمل ما لا يتحملة الغائب، وهو المنادى غير المعين. أما ترى أن الفاعل مرفوع، وأن المفعول به منصوب؟ لأن الفاعل أقوى من المفعول به؟ فالقوي، عادة، هو الفاعل، والضعيف هو المفعول به. وهناك سبب آخر، ذكره الخليل سابقاً، وهو أن قصر الكلمة يناسبها الضم، لأن الضم ثقيل، وقصر الكلمة خفة. فناسب الثقل الخفة، فحدث التوازن المطلوب.

* إعراب المثني المنادى وجمع المذكر السالم وجمع المؤنث السالم (المرفوعة):

بعد الذي تقدم يتضح أن العلم المثني المنادى مرفوع، وعلامة رفعه ألف الاثنين، فلو قلنا: (يا زيدان، اعمل ما تخدمان به وطنكما وأمتكما). فزيدان: منادى مرفوع، وعلامة رفعه ألف الاثنين. ولو قلنا: (يا سعدان، تعلمنا لتعرفنا حقوقكما

وواجباتكما، لكي تحييا في جو من الحق والعدل). فسعادان: منادى مرفوع، وعلامة رفعه ألف الاثنتين.

ولو قلنا: (يا سعيدون، لا تلقوا بالاً للتوافة، وليضع كل منكم هدفاً إنسانياً يسعى لتحقيقه)، فسعيدون: منادى مرفوع، وعلامة رفعه الواو، لأنه جمع مذكر سالم، ولو قلنا: (يا فاطمات، تعلمن، لكي تفهمن دينكن، وتحسن تربية أبنائكن)، ففاطمات: علم منادى مرفوع، وعلامة رفعه الضمة المفردة. (ولا يُنَوَّن بالضم، خلافاً لجمع المؤنث السالم غير المضاف في غير النداء).

ومثل هذا إعراب: (يا معلمان، يا معلمتان، ثم، يا معلمون، يا معلمات)، على اعتبار المنادى، هنا، نكرة معينة. وقد حُرِّكَت (معلمات) بضمه مفردة، للأسباب التي أسلفناها. وفي مقدّماتها التمييز بين إعراب جمع العلم المؤنث السالم في حال النداء، وإعرابه في غير النداء.

* نصب النكرة غير المعين. ونصب المضاف والشبيه بالمضاف:

الشيء الطبيعي والمعقول أن تنصب النكرة غير المعينة في النداء، وأن ينصب المضاف والشبيه بالمضاف، لطول المضاف وشبهه. وقد عللنا لذلك سابقاً. أما النكرة غير المعينة فقد أُلْحِقَتْ بهما. والشيء الطبيعي أن تخالف حركة النكرة غير المعينة حركة النكرة المعينة لأن الحالة النفسية والشعورية للمخاطب، والمخاطب كذلك تختلف بين هاتين النكرتين، المعينة وغير المعينة. والحالة الشعورية هي معنى ولذلك كان النصب للنكرة غير المعينة والرفع للنكرة المعينة بسبب عامل معنوي.

لكن، لماذا نصب العلم المضاف (ومثله كل معرفة مضافة)؟ (والعلم دون إضافة مرفوع بضمه، عندما يكون منادى)، فإذا قيل:

يا زيد زيد اليعملات الذبل تطاول الليل عليها، فانزل؟ (١٦)

نصب (زيد). الجواب: أن العلة سبقت فيما مضى. وإعراب (يا زيد - زيد اليعملات) هو: يا : أداة نداء، أُسْمِتْ معنى فعل (أنادي). أي تفسر بفعل (أنادي)، ولكن لا يُقَدَّر مكانها، فلا تكون الحركة راجعة إلى الفعل. وزيد: منادى

منصوب، لمخالفته المنادى المرفوع. إذ التقدير: يا زيد اليعملات - يا زيد اليعملات. على اعتباره توكيداً لفظياً. وإنما حذف المضاف مع (يا زيد) الأولى طلباً للخفة. وهناك من يقطعها، ويُعربها على أنها مرفوعة على اعتبارها علماً منادياً غير مضاف، فيقول: (يا زيد، زيد اليعملات) واليعملات: هو مضاف إليه مجرور، وعلامة جرّه الكسرة.

ومثلُ إعراب العلم المنادى المضاف إعرابُ المنادى المضاف غير العلم. مثل: (قل اللهم فاطر السماوات والأرض)، (الزمر - ٤٦)، والتقدير: (قل: اللهم: يا فاطر السماوات والأرض). فإعرابُ (فاطر السماوات والأرض) كإعراب العلم المضاف، كما سبق.

وإن الشبيه بالمضاف.. يأتي منوناً بالفتح، كالنكرة غير المعينة، فالنكرة غير المعينة منها قول عبد يغوث الحارثي السابق:

أيا راكباً، إمّا عرضت فبلغن نداماي من نجران ألا نلاقيا.

ولذا نقول في شبه المضاف: (وهو ما له تعلق بما بعده) مثل: يا طالعا جبلاً، تمهل، و(يا حسناً وجهه، أبشر) و(يا خيراً من زيد، توادع) أو (يا ثلاثة وثلاثين) لمن سمي بذلك: لقد طال اسمك. لأن شبهة المضاف إمّا أن له تعلقاً بما بعده، أو إمّا أنه معطوف ومعطوف عليه.

فطالعا.. تعلق بـ (جبلاً) على اعتباره عاملاً به المفعولية، فجبلاً: مفعول به منصوب. وحسناً.. تعلق بـ (وجهه) على اعتباره قد عمل به الفاعلية، فوجهه: فاعل مرفوع، للصفة المشبهة (حسناً)، وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره. (وخيراً) تعلق بها (من زيد). وثلاثة وثلاثين جعلها شبيهة بالمضاف، العطف بالواو، فكان (ثلاثة) عاملة بـ (ثلاثين) عن طريق عطفه عليها، أي: إن إعراب (ثلاثين) تأثر بإعراب (ثلاثة) وهو تنوين الفتح لـ (ثلاثة) والياء لـ (ثلاثين).

منهج الكوفيين في النحو أقرب إلى طبيعة اللغة من منهج البصريين:

ومن أسف أن النحو الذي يُدرّس حتى اليوم هو نحو البصريين، وليس نحو الكوفيين الأقرب إلى طبيعة اللغة. وليس هذا لتفوق النحو البصري على النحو

الكوفي، بل كان لسببين:

الأول - أن النحاة - بعد سيبويه - وهو بصري، وجدوا كتاباً في النحو كله، هو (الكتاب) لسيبويه نفسه، ولم يجدوا مثله لنحوي الكوفة. والإنسان - بطبعه - يميل إلى الاقتصاد في الجهد والوقت والمال. وكتاب سيبويه هذا يوفر لهم الاقتصاد في هذه المطالب الثلاثة فأصبح موضوعاً للشرح والتعليم، والاختصار، وأصبح النحو العربي حتى هذا اليوم هو نحو البصريين، ممثلاً بكتاب سيبويه.

أما نحو الكوفيين فكان مبعثراً، فضغقت الهمم عن جمعه، وتصنيفه، فلم يحظ بسيرورة كسيرورة نحو البصريين، مع أن كثيراً من مسائله أقرب إلى طبيعة اللغة من كثير من مسائل نحو البصريين.

بعبارة أخرى: إن رؤية الكوفيين لطبيعة اللغة أسدّ من رؤية البصريين، وعلى هذا، فمنهج الكوفيين في معالجة اللغة أسدّ من منهج البصريين، لأنهم رأوا مدّ القياس على كل ما ورد في اللغة، ولو كان هذا كلمة واحدة. وهذه رؤية يستفيد منها مستقبل اللغة، لن تجدد المعاني، بل تدفقها، في العصر يستدعي منّا أن نستفيد من كل طاقات اللغة، فنقيس على الأقل، ونولد منه، كما نقيس على الأكثر، ونولد منه.

والسبب الثاني أن الحضارة الإسلامية.. لم تعد ولوداً قادرة على التجديد، بعد انقضاء القرن الثالث - بشكل عام - ولهذا فلو فكر أحد بجمع نحو الكوفيين لثارت عليه نائرة النحاة، لأن من طبائع الأمم، إذا أخذت حضارتها بالأفول، أن تركز إلى (التقليد) وإلى الاكتفاء بما أنجزته عصور ازدهارها، فتغلق باب الاجتهاد (= التفكير الحر) وتحارب، بشراسة، كل محاولة تهدف إلى البحث عن جديد. وليس هذا في النحو وحده، بل - في الفقه، ونقد الأخبار، وغرابة الأحاديث الشريفة. وإن النزر اليسير من التجديد، في هذه العصور، إنما كان أشبه بأربع شمعات توضع في صحراء الربع الخالي، فهل تبدد ظلام هذه الصحراء؟ كما وضعنا ذلك في (التمهيد).

تحليل لما سبق:

١ - نلاحظ أن الخليل في الفقرة الأولى كاد يعدل عن قول سيبويه في (الكتاب): اعلم أن النداء.. كل اسم مضاف فيه، فهو نصب على إضمار الفعل المتروك

إظهاره. والمفردُ رفع، وهو في موضع اسم منصوب".

فقد عزا النصب في المضاف، والنكرة - غير المعنوية - إلى طول الكلمة، لأن المضاف والمضاف إليه.. هما بمثابة الكلمة الواحدة، ولهذا.. فهذه الكلمة طويلة يناسبها النصب، لخفته، فيكون تعادل بين النقل الآتي من الطول في الكلمة، والخفة الآتية من النصب. فلو جاء ثقلان كان بهذا للمتكلم، فكلمة (زيد) في النداء تُشبه (قبل) عندما تقطع عن الإضافة. وقد ناسب فصر الكلمة.. الرفع، القصير.. خفيف، والرفع.. ثقيل، فحدث "توازن" بين الخفة والنقل.

٢- وفي الرقم الثالث.. فإن الخليل اعتبر أن (الطويل) نصب، لأنه صفة لمنصوب. أو لأنه قد يُقدَّر نصبه بفعل محذوف، تقديره (أعني). وهذا التعليل الثاني فيه دلالة واضحة على أن الخليل يريد أن، يجد "تعليلاً" لكل ما ورد عن العرب، لأنه - كعربي صليبة - مطبوع على الإحساس بجمال اللغة العربية، وبأن كل ما ورد عن العرب، قل أو كثر.. يُعبّر عن شيء في العقل الإنساني (العربي) أو في النفس الإنسانية. ولذا فليس في كلام العرب الذين أخذت عنهم اللغة كلام "شاذ أو زائد" بل كل ما ورد عنهم هو (أصل) قل أو كثر، لأنه يُعبّر عن حاجات إنسانية، ليس بينها تفاوت في الزمن، فكل خلجاتهم، وأفكارهم تولدت في فترة زمنية واحدة لا في فترات متباعدة.

وهذا الموقف يخالف الذي تبنته مدرسة البصرة قبل الخليل، وبعده. وهذا الموقف يتضح في النقاط التالية من الحوار (كما يتضح في الكتاب كله).

٣- ففي جوابه في الرقم الخامس على الرفع، لأن (الطويل) صفة لمرفوع. أقول: لأن (زيد) مرفوع - كما هو في لفظه- وإن كانوا يعتبرون حركة الرفع حركة بناء، والأصل بزعمهم النصب. فأنت ترى أن الخليل علل لنصب هذه الصفة (الطويل) ورفعها في المكان الواحد، ومن دون تغيير العوامل. وهذا شأن الذي يُقر كل ما قاله العرب، فيبحث له عن علة.

أقول: ومع احترامي لرأي الخليل هذا غير أني أرى، تبعاً لما أتيت به، في مبحث (النداء) وتعليلي لحالتي النصب والرفع، في النداء، فإنني لا أرى أن نقول: يا

زيد - الطويل - (بفتح لام الطويل)، لأن (زيد) لا يأتي إلا مرفوعاً، في النداء، ولأن (الطويل) لا ينادى إلا بالرفع، إذ نقول (يا أيها الطويل)، ولا يصح هنا (الطويل) - بالفتح، وهذا، أراه أمراً واجباً، ولو من أجل التيسير على دارس العربية، والذي أوقع الخليل وغيره في اعتبار (الطويل) منصوباً، لأنهم اعتبروها صفة لمنصوب، في أصله، وليس في لفظه وما هو بمنصوب في أصله، بل هو مرفوع على "الخلافة" كما أوضحنا في مبحث (النداء...).

بيد أني أقبل قول الخليل: (وإن شئت كان نصباً على (أعني)، فهذا من التوسعة المطلوبة، لأنها لا تخالف ما يقبله معنى العبارة السابقة.

وما دار بين سيبويه والخليل، في الرقمين السادس والسابع تفسيره كالآتي: سيبويه لا يقتنع بقول الخليل إن (الطويل) في موضع نصب، لأن الأصل في النداء عند الخليل هو النصب، فسيبويه يريد أن يكون (الطويل) مرفوعاً فحسب، لأن (زيد) مرفوع. ويقس هذا على قولهم: (لقيته أمس الأحد)، لأن (أمس) أصلها الفتح. وإنما نطقها العرب بالكسر دون سائر الباب. ولهذا، جاءت صفة (أمس) منصوبة على الأصل فلم ينطقها العرب (الأحد) بالكسر، على ظاهر استعمال (أمس) التي نطقها العرب مجرورة.

وكان جواب الخليل مقنعاً، فقال: لأن كل اسم مفرد في النداء مرفوع عندهم، فحسب أن تكون صفته مرفوعة مثله. أمّا (أمس) فبابها النصب، لأنها ظرف زمان وظرف الزمان منصوب. لذا حُمِلَ وصفها على حركة الباب، وهو النصب، فنصب (الأحد) مع أن نطق موصوفه (الكسر).

وهذا أيضاً يسير على نفس المنهج، وهو أن كل ما قالته العرب فصيح، وأن له وجهاً في التخريج.

وفي الرقم التاسع كان ردّ الخليل يقوم على علة يقبلها العقل، وهي أن (زيد) مرفوع بالنداء ب (الهمزة - أ) وأن (أخا - ورقاء) لم يعرّب بالضم، فيقال: أخو ورقاء. وهنا أعرب بالواو، لأن (أخا) من الأسماء الخمسة، لأنه لو فصل عن (زيد) ونودي وحده، لقل: (يا أخا ورقاء) لأنه مضاف، فنصب بالألف.

وهذا فوق أنه معقول، فهو يسير مع ما أخذ به العرب في الاستعمال، دون أن يخطر بباله (أعني الخليل) قضية (الشذوذ) هذه التي جعلوها منشراً ينشرون به كل ما لم يستقم مع مقياس - الأعم الأغلب - الذي قد يستقيم في الجمادات، غير أنه لا يستقيم في الأحياء - وخاصة في هذا الإنسان - الذي يضيف إلى الحياة عقلاً - وفيما يفيض عنه من لغة أو سلوك. إن مقياس نحاة البصرة كسرير "بروكست" في الأسطورة اليونانية، هذا الرجل كان لديه فندق "أسرته"، بمقاس واحد. فإذا جاءه زبون وكان طويلاً قَطَّ من طوله حتى ينكمش إلى طول السرير، وإذا كان قصيراً قَطَّه حتى يغدو بطول السرير.

تعقيبات:

١ - ذهب بعض الكوفيين إلى جعل المثني والجمع في النداء دائماً بالياء، حملاً على المضاف^(١٧) أي: في حالة النكرة المعينة، دون غيرها.

أقول: مع أن هذا الرأي لا يخلو من وجهة، لأن التنثية والجمع تجعل الكلمة طويلة بحيث تشبه المضاف أو الشبيه بالمضاف. غير أن إجراء القاعدة على المثني والجمع، في حالة النكرة المعينة، كإجرائها على المفرد - أوتى من أجل اطراد القاعدة، فيكون المثني مرفوعاً بالالف والجمع مرفوعاً بالواو، كما أن المفرد مرفوع بضمة مفردة.

٢ - وذهب الأصمعي إلى منع نداء النكرة مطلقاً. وذهب المازني إلى أنه لا يتصور أن يوجد في النداء نكرة غير مقبل عليها، أي: غير معينة. وأن ما جاء منونا فإنما لحقه التتوين ضرورة^(١٨).

أقول: إن منع نداء النكرة مطلقاً غير سديد، لأن النكرة المعينة مخاطب صاحبها، والخطاب حضور، وإنه - لا شك - أمر طبيعي ومعقول أن ينادى الشخص الحاضر.

أما أنه لا يتصور أن يوجد في النداء نكرة غير معينة فغير دقيق. لأننا عندما ننادي النكرة غير المعينة، فإنما ننادي الجنس، جنس المعلمين أو القضاة أو

التجار.. إلخ. لكي نُقدِّم له أمراً أو نصيحة تُعمِّم الجنس كله. فإذا قلنا: (يا قاضياً، أو يا قُضاة، إنَّ العدل أساس الملك، ولا يَقْبَلُ اللهُ تعالى غير العدل)، فإنما نقدم بها نصيحة عامة لكل قاضٍ، بل بطريقة غير مباشرة لكل إنسان. فالنداء، في هذه الحالة، غير منكور، وصاحبه مُعيَّن على العموم لا على الخصوص.

وقول المازني الثاني: (وأن ما جاء منوناً فإنما لحقه التتوين ضرورة) فليس مقبولاً. لأن النصب (ومنه التتوين) جاء للتمييز بين المنادى المعين والمنادى غير المعين. وقد فصلنا القول في ذلك سابقاً. ويأتي النصب بالفتحة المفردة للمضاف، وبالتتوين الفتح لشبه المضاف الذي يعمل فيما يليه، كالأمثلة التي سبقت أثناء البحث. ومثلُ النصب بالتتوين النصبُ بالياء في المثنى والجمع في هذه النكرة غير المعينة، وفي المضاف والشبيه بالمضاف، ثم إن الضرورة تكون في الشعر، ولكن المنادى في حالات النداء المنصوبة ورَدَ منوناً في النثر. والنثر لا ضرورة فيه.

٣- وفصل الفراء في النكرة الموصوفة فأوجب النصب، إذا كان العائد ضمير غيبة، نحو: يا رجلاً ضرباً زيداً. وأوجب الرفع إذا كان العائد ضمير خطاب، نحو: يا رجلُ ضربتَ زيداً^(١٩).

وأوافقه على قوله في الحالتين، فيلحق، الموصوف غير المعين أي الغائب، بشبه المضاف، فينصب بالتتوين أو بالحروف، ويلحق الموصوف المعين أي: المخاطب بالنكرة المعينة، فيرفع بضمة مفردة، أو بالحروف، إذا كان مثنى أو جمعاً.

٤- رأيُ الخليل، وسيبويه والمازني أن العَلَمَ المنادى ينون بالضم لا بالفتح، لضرورة الشعر، مثل:

سلام الله، يا مطرُ عليها وليس عليك، يا مطرُ، السلام.

ومثله النكرة المعينة، كقول الشاعر: (مكان، يا جمل، حَيْبَتَ يا رجل).

٥- ورأيُ أبي عَمَرَ: عيسى ابن عَمَرَ، والجَرْمِيُّ، والمبردُ النصبُ كقول الشاعر:

ضربتَ صدرها إليَّ وقالت: يا عدياً، لقد وَقَّتْكَ الأواقِي.

وكقول الآخر: (يا سيداً، ما أنتَ من سيِّد) ^(٢٠).

وأنا أرى أن النصب أولى، عند الضرورة الشعرية، لأن النصب أخف من الرفع، فإذا ضوعفت الحركة بالتثوين كان تثوين النصب أولى. أما الرفع فيساوي بين العلم والنكرة المعينة، عندما يكونان مرفوعين بغير النداء، وبين ما يكونان عليه، وهما مناديان، وبهذا يبطل مفهوم العلة التي جعلت هذين النوعين من الكلام مرفوعين لا منصوبين. لأنهما حركا بضمه واحدة، لمخالفة حركتهما وهما مرفوعان في غير النداء، وهي تثوين الضم، لئلا يلتبس النداء بغير النداء. وإن العرب قد نطقوا، عند الضرورة بالحركتين، بتثوين الفتح وبتثوين الضم كما ظهر في البيتين السابقين، وهو رأي ابن مالك، إذ يجيز الوجهين. قال:

واضمُّ أو انصب - ما - اضطراراً نوناً مما له استحقاقُ ضمِّ بيِّننا^(٢١).

٦- ويرى السيوطي في كتابه "مع الهوامع في شرح جمع الجوامع" أنه يجدر النصب المنون في العلم المنادي، للضرورة، لئلا يلتبس بالعلم المنادي، لغير ضرورة، الذي يُضمُّ يُرفع بضمه واحدة. أما النكرة المعينة فترفع، عند الضرورة بتثوين الضم حتى لا يلتبس بالنكرة غير المعينة. فقوله الأول علتة غير دقيقة، لأن العلم المنادي المنون بالضم للضرورة لا يلتبس بالعلم المنادي عادة، لأنه في العادة يرفع بضمه واحدة، فلا التباس. أما قوله الثاني فهو قول وجيه.

الخلاصة:

بعد كل ما تقدم نقول:

- ١- بدأت نشأة علم النحو قبيل النصف الأول من القرن الأول.
- ٢- لم يمضِ القرن الأول حتى قام للنحو مدرستان: مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة.
- ٣- علماء النحو في البصرة كانوا فرساً، وفي الكوفة كانوا عرباً.
- ٤- علماء البصرة تأثروا بعقلية حضارة الفرس التي انتهت إلى السقوط، فكانوا يفضلون القياس على الأعم الأغلب.
- ٥- علماء الكوفة كانوا عرباً، أصحاب عقلٍ حيٍّ ووجدانٍ نابضٍ. فرأوا أن يقيسوا على القليل كما يقيسون على الكثير.
- ٦- علماء النحو تأثروا بالمنطق الصوري الأرسطوي.
- ٧- كانوا يُشبهون النحو بالشجرة، إذ تحسُن مع التهذيب والتشذيب. وهنا قياسٌ مع الفارق الكبير.
- ٨- منطق النحاة البصريين الصوري الخاطي دعاهم إلى تحملِ علةٍ لزعمهم أن الحروف كان أصلها كلماتٍ اختصرت.
- ٩- رؤية الكوفيين للغة أسدٌ من نظرة البصريين، لأن الكوفيين كانوا أقرب إلى طبيعة اللغة.
- ١٠- مما أفسد بعض العلل النحوية شيئان: الأول عقلية نحاة البصرة الفارسية. والثاني أن الحضارة الإسلامية قد بدأت تنشوء بعد القرن الثالث الهجري. مما جعل النحاة بعد ذلك يقلدون ولا يجددون.
- ١١- إن العلم غير المضاف، والنكرة المعينة، والاسم المعرف بأل، كلها مرفوعة بضمة واحدة، في حالة النداء، وليست مبنية. لأن اعتبارها مبنية تكلف ولا مسوغ له.
- ١٢- إن العلم المضاف، والنكرة غير المعينة، وشبه المضاف، كلها منصوبة على المخالفة، أي لكي تخالف إعراب العلم غير المضاف، وإعراب النكرة المعينة. فالعلم غير المضاف والنكرة المعينة مرفوعان بضمة واحدة على المخالفة. فالمخالفة هي العلة المعنوية للرفع كما أنها العلة المعنوية للنصب.
- ١٣- إن العلم المثني والعلم المجموع، والنكرة المعينة المثناة والمجموعة، والاسم المعرف

بأل المثني والمجموع كلها مُعْرَبَةٌ لا مَبْنِيَةٌ، فالمثني منها مرفوع بالألف، والجمع مرفوع بالواو. إن حركة المنادى المرفوع هي الضمة المفردة، لأنه جاء مرفوعاً للمخالفة، أي: للتفريق بين العلم غير المضاف والنكرة المعينة، والاسم المعرف بأل، وبين العلم المضاف، والنكرة غير المعينة، والمضاف من الأسماء، وشبه المضاف، وجاءت ضمة مفردة لكي تخالف هذه الأسماء، عندما تكون مرفوعة في غير النداء. ويُستثنى الاسم المعرف بأل، فهو مرفوع بضمه واحدة في الحالتين. لأن التعريف والتنوين لا يلتقيان، فهذه الأسماء في غير المناداة تكون مرفوعة بتنوين الضم.

١٤- إن عبارة النداء هي شبه جملة، كالظرف والجارّ والمجرور، غير أنها لا تتعلق بالفعل أو المشتق أو المؤولّ بالمشتق خلافاً لهما، لأنهما مفتقران إلى التعليق، وهي ليست مفتقرة، بسبب تحمّل حرف النداء معنى الفعل، معناه من غير أن يكونه.

١٥- إن الحركة لا تكون علامة بناء إلا إذا جاء العدول عن الأصل بسبب تغير الألفاظ، أو للنسق الصوتي، أما إذا جاء من أجل المعنى فالحركة حركة إعراب. وفي هذه الحالة لن تكون الحركة عدولاً حقاً، وإنما تكون الحركة حركة أصلية جاء بها الإحساس اللغويّ الفطريّ -أيّ السليبي- مخالفةً لحركة أخرى في حالة أخرى من أجل التمييز بين الحالتين عن طريق نوع الحركة.

١٦- النحاة لم يتصوروا كلمة ليس لها إعراب. مع أن قليلاً من الأنماط اللغوية ليس لها إعراب.

١٧- النحاة تجاهلوا العامل المعنويّ كثيراً. مما أوقعهم في تقديرات، وتعليقات خاطئة، كما عرفنا عن النداء في هذا البحث.

١٨- اعتبر النحاة حركة الضمّ في المنادى علامة بناء. مع أن بعض المعربات حركة إعرابه حركة واحدة كهذا الموضوع الذي نعالجه. لأن المبني الشائع فيه أن يبني على حركة واحدة. ولكنه وردت أمثلة مبنية بالتنوين.

١٩- الخليل ابن أحمد منهجه كوفي لا بصري.

٢٠- منهج سيبويه متصل بمنهج علماء الفرس الذي لا يقيس إلا على الأعم الأغلب. والله موفق ومنه العون والساداد.

الحواشي:

(١) أكتب أنا كلمة (ابن) دائماً، وفي بنيتها (ألف)، سواء أوردت بين علمين، أو لم يسبقها علم، أو كانت في أول السطر. أولاً، لأن تعليل القدامى لحذف الألف، عندما تكون بين علمين ضعيف، فهم يعتبرون ما بعد العلم الأول صفة له، والصفة لقوة صلتها بالموصوف تختلف عن قوة صلة البديل بالمبدل منه، فللتفريق بين الصفة، عندما تستعمل (ابن) صفة، والبديل، عندما نستعمل (ابن) بدلاً يُحذف الألف من (ابن) في حالة الصفة.

- وهذا سبب ضعيف؛ لأن الذي يفرق حقاً بين حالة الصفة، وحالة البديل هو الحركة، لأن الاسم الأول في حالة البديل يكون منوئاً، ويكون بحركة مفردة في حالة الصفة. ولكن، لعل استعمالهم (الألف) للتفريق بين الصفة والبديل كان قبل اختراع الحركات، كما وضعوا في آخر عمرو واوا، للتفريق بين (عمرو) و(عمر). ومن الواضح أن الواو هذه لم يُعد لها سبب للبقاء، في آخر (عمر) بعد اختراع الحركات.

- ومن المعلوم أن هناك فرقاً بين الرموز الكتابية (= الحروف) التي يُعبّر عن الأصوات بها، وبين الأصوات اللغوية نفسها، لأن اللغات، في القديم، سابقة على كتابتها، أي على الحروف التي يُؤتى بها لترمز إلى أصوات اللغة. فاللغة، إذن شيء، والحروف التي ترمز لأصواتها شيء آخر. فنحن عندما نحسن في الإملاء لا نقرب من حمى اللغة ذاتها، بل نجعل أداة الحروف لأصواتها أكمل.

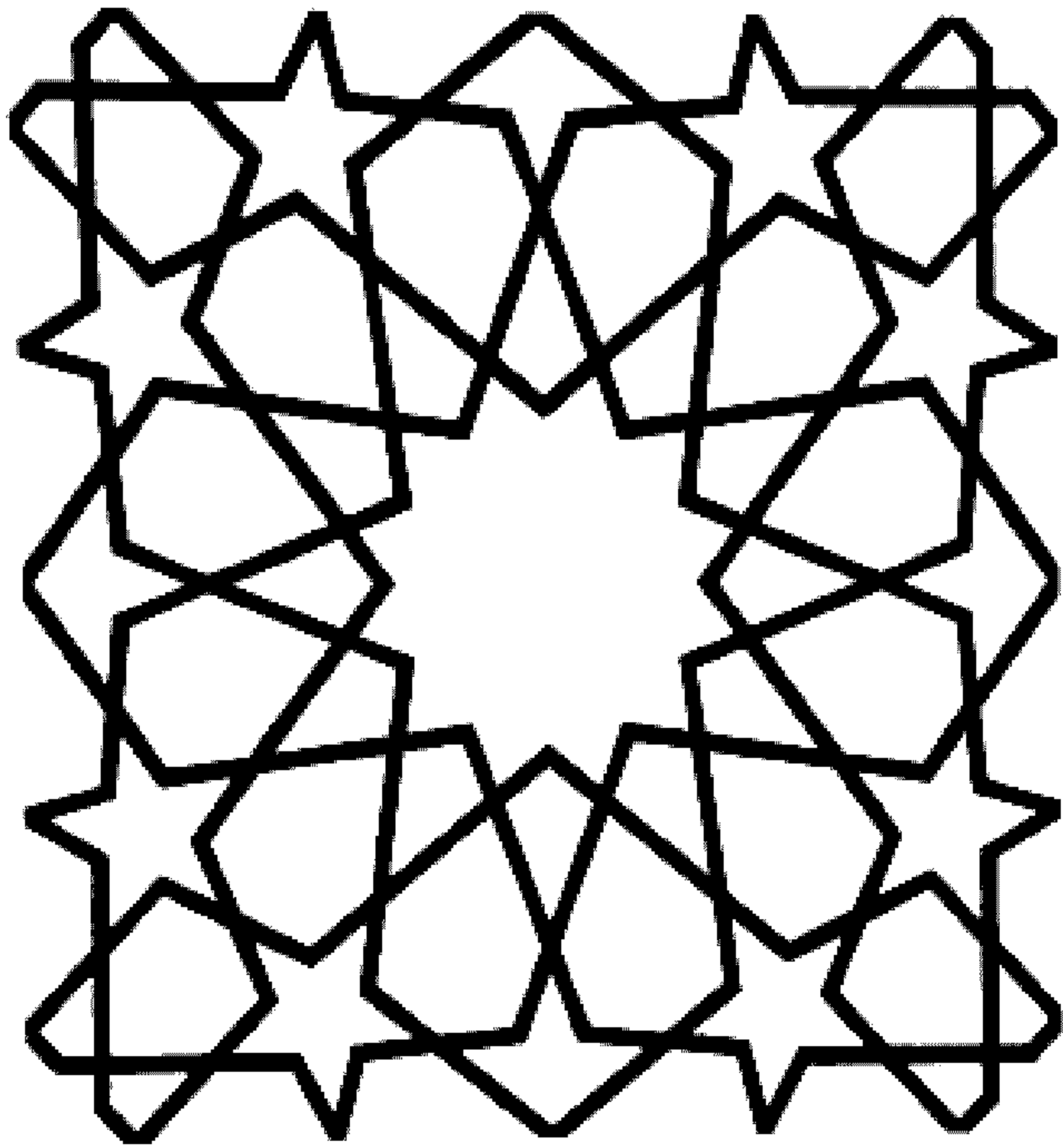
- ومن المعلوم أيضاً أن إملاء الرسم القرآني ضمّ الألف إلى (ابن) فقال تعالى: (عيسى - ابن - مريم).
- ثم نحن بوضع الألف، في أول (ابن) نخفف على طالب العلم، فبئس أن يكون لكتابتها أربع قواعد تكثّر ذهن طالب العلم، من غير فائدة يجنيها من ذلك (وهذا بيت القصيد) يكون لها قاعدة واحدة، لا يُعسر استيعابها على ابن الصف الأول. والتسهيل الذي لا يُخدم شيئاً من اللغة مطلوب. لأن فطرة الإنسان مركوز فيها الاقتصاد في الجهد والوقت والمال - بشرط ألا يُخل بالأهداف المبتغاة من الموضوع الخاضع للبحث والعلاج.

- ومن المعلوم كذلك أن إملاء اللغة العربية لم يكتمل، ذلك لأن عصور الانحطاط التي جمد فيها كل شيء إلا نادراً - قد عاجل الناس قبل أن تكتمل جوانب كثيرة من الحضارة الإسلامية، ولكن ما يهمنا هنا هو إملاء اللغة. فهل ترى أن كتابة (لام - كاف - نون) لكلمة (لكن) صحيحة؟ أم أن الصحيح هو (لاكن)؟ ومثلها (هذا) وأخواتها فهي (هاذا - هاهه - أولانك... إلخ). لكن هذا له حديث آخر.

وإنه لمن الجدير أن نقول مع المتنبي، شاعرنا العظيم رحمه الله:

و لم أر، في عيوب الناس عيناً كنقص القادرين على التمام.

- (٢) السيوطي: جلال الدين ابن عبد الرحمن (ت ٨٩١١هـ)، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج ١، ص ٦٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م، تحقيق: أحمد شمس الدين.
- (٣) سيوييه: عمرُ ابن عثمان ابن قنبر - (الكتاب)، ج ٢، ص ١٨٢، ١٨٣، بيروت، دار الجيل، الطبعة الأولى، تحقيق: عبد السلام محمد هارون. (كتبتُ عمرًا بدون واو، لأن الواو كانت للتفريق بين عمر، وعمر، وعندما لم يكن على العربية حركات. أما بعد الحركات فأصبحت تُغني الفتحة على العين في عمر، عن الواو، والضممة على العين في عمر).
- (٤) المرجع نفسه: ج ٢، ص ١٨٢، ١٨٣.
- (٥) ابن عقيل، بهاء الدين، عبد الله ابن عقيل العقيلي الهمداني المصري، شرح ابن عقيل، ج ٢، ص ٢٥٨.
- (٦) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٢٦٠.
- (٧) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٢٦٠.
- (٨) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٢٥٩.
- (٩) ابن هشام، جمال الدين ابن يوسف (ت ٧٦١هـ)، مغني اللبيب، ج ١، ص ٩١، د. ت.
- (١٠) همع الهوامع، ج ١، ص ٦٠.
- (١١) همع الهوامع، ج ١، ص ٦٠.
- (١٢) كتبت ثلاثة بحوث في مجلة (هذي الإسلام) الأردنية - تتل على أن العربية (إلهام) من الله تعالى - وقمت أدلة - أراها دقيقة، لا يسهل تفنيدها. والأعداد الثلاثة التي نشرت فيها هذه البحوث هي: ٥، ٦، ٧ لسنة ٤٢٦ هـ.
- (١٣) شرح ابن عقيل، ج ٢، ص ٢٧٠.
- (١٤) سيوييه، ج ٢، ص ١٨٢، ١٨٣ (مرجع سابق).
- (١٥) سيوييه، الكتاب، ج ٢، ص ١٨٢ (هامش الصفحة).
- (١٦) سيوييه، ج ٢، ص ١٨٣، ١٨٤.
- (١٧) السيوطي، همع الهوامع، ج ٢، ص ٢٩.
- (١٨) المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٩.
- (١٩) المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٩.
- (٢٠) المرجع السابق، ج ٢، ص ٣١.
- (٢١) شرح ابن عقيل، ج ٢، ص ٢٦٢.



**المستشرقون الألمان والخليل بن
أحمد: إشتيفان فيلد أنموذجاً**

المجلد الثاني

أ. د. محمد أبو الفضل بدران
جامعة الإمارات العربية المتحدة – الإمارات



المستشرقون الألمان والخليل بن أحمد: إشتيفان فيلد أنموذجاً

أ.د. محمد أبو الفضل بلران

يعد الاستشراق الألماني من أهم الاستشراقات التي تناولت الحضارة الإسلامية بشيء من الموضوعية وقليل من التعصب والتحيز؛ وربما يعود ذلك إلى الأسباب التالية التي قد تساعدنا في فهم واقع الاستشراق الألماني أيضاً:

أولاً: لم تستعمر "تستخرب" ألمانيا أية دولة عربية ومن هنا ينتقي الغرض الاستعماري "الاستخرابي" عنها. وربما كان هذا البعد ذا أهمية في نقد المستشرقين الألمان إذ إنهم لم يكونوا -أعني غالبيتهم- أدوات استعمارية.

ثانياً: لا نغفل طموح هتلر نحو السيطرة على كل العالم ولكننا لا ننسى أن بعض الدول العربية الإسلامية كانت واقفة إلى جواره وقوفاً حقيقياً أو معنوياً لا حبا فيه بل من أجل التخلص من الاستعمار البريطاني الذي كان يجثم على أرضها، وقد كان كتاب هتلر "كفاحي"⁽¹⁾ من العوامل التي ساعدت على الاهتمام باللغة العربية في ألمانيا وربما نعجب إذا عرفنا أن أهم قاموس عربي في اللغة الألمانية قد وضع لاهتمام سياسي بترجمة كتاب كفاحي لهتلر.

ثالثاً: إن الموقف الألماني في عهد هتلر كان ضد اليهود، ولعل قراءة في كتاب هتلر سالف الذكر توضح إلى أي مدى كانت الكراهية في صدره ضد اليهود ولم يكن فرداً في ذلك التوجه بل كان يعبر عن قطاع من الشعب. وربما كان ذلك من العوامل المساعدة التي حدثت ببعض المستشرقين أن يهتموا آنذاك بالعرب والمسلمين.

رابعاً: من السذاجة أن أقول إن الاستشراق الألماني المعاصر محايد أو مع العرب والمسلمين في قضاياهم وليس ذلك لمصلحة العرب ولا المسلمين، لأننا في حاجة إلى من ينقدنا بمنهج علمي قد نتفق معه أو نختلف لكننا في حوج إليه؛ حتى نرى كيف يرانا الآخر لا كما نرى نواتنا من منظار تضخيم الذات وإعلانها، أو التقليل من شأنها، ومن هنا فإن بعض المستشرقين الألمان ضد العرب وضد

المسلمين وضد المنطق أحيانا إلا أننا في حاجة إلى هؤلاء وإلى أولئك حتى نعرف موطئ أقدامنا في عالم معاصر متغير يسبح فوق بحار الكونية والعولمة وتختفي فيه المساحات والرؤى الأحادية. وحتى تكشف هؤلاء الذين يسيئون إلينا وإلى تراثنا وديننا ينبغي علينا قراءتهم ومن ثم نقد ما يكتبون بغية الوصول إلى الحقيقة.

أود هنا أن أوضح دور المستشرقين الألمان حيال اللغة العربية والعرب:

أولاً، حفظ المخطوطات العربية:

فقد احتلت مكتبة برلين الوطنية نصيب الأسد من هذه المخطوطات إذ إن عددها يربو على العشرة آلاف مخطوط، وفي مكتبة جامعة جوتنجن حوالي ثلاثة آلاف مخطوط من نفائس التراث العربي، وفي مكتبة جامعة توبنجن بجنوب ألمانيا عدد من المخطوطات النخائر، ناهيك عما بها من كل إصدارات العالم العربي والإسلامي من كتب ودوريات منذ اختراع المطبعة؛ جاوز عمر بعضها المائة عام واختفت من المكتبات العربية وصار الحصول على بعضها ضرباً من المستحيل، كل ذلك متوافر بمكتبة جامعة توبنجن مما يجعل دورها دوراً ثانياً في خدمة المخطوط والمطبوع من الفكر العربي.

ثانياً تحقيق المخطوطات العربية والإسلامية:

لم يقتصر دور المستشرقين الألمان على حفظ هذه المخطوطات فحسب بل عمدوا إلى تحقيقها تحقيقاً علمياً ذا فهارس متعددة واستوجب تحقيقهم وضع مؤلفات تعد عمداً في موضوعاتها كالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم الذي وضعه المستشرق الألماني فلوجل Flugel والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، ومعجم شواهد العربية، وهي بحق مؤلفات رائدة يعتمد عليها المحققون العرب.

وقد حقق المستشرقون الألمان عدداً كبيراً من أمهات التراث العربي كالكامل للمبرد وتاريخ الطبري الذي استغرق تسعة عشر عاماً من العمل المتواصل، وبدائع الزهور لابن إياس، وطبقات المعتزلة لابن المرتضى ومقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري، والفهرست لابن النديم ومؤلفات ابن جني، وحققوا عدداً كبيراً من دواوين الشعراء القدامى، وقد عكف إيفالد فاجنر على ديوان "أبي نواس"^(٢) قرابة

عشرين عاما حتى أكمله تحقيقاً.

ثالثاً تأليف الكتب والدراسات حول الفكر العربي والإسلامي:

لا يمكن لأي دارس في الأدب والنقد العربيين أن يتجاهل أعمال مستشرقين ألمان كبار مثل كارل بروكلمان Carl Brockelmann وكتابه تاريخ الأدب العربي^(٣) على الرغم مما ورد فيه من بعض الأخطاء التي حاول دارسون عرب أن يتداركوها عليه كما فعل عبدالله بن محمد الحبشي^(٤)، لكن يبقى لكتاب بروكلمان فضل سبق في التعريف بالتراث العربي والإسلامي المخطوط في جميع مكتبات العالم وهو جهد فردي لم نستطع نحن - للأسف - فرادى وجماعات أن نقوم به، وقد أحسن الدكتور محمود فهمي حجازي - وجمع من المهتمين باللغة الألمانية - في ترجمته بعض أجزاء هذا الكتاب ترجمة وافية لإفادة للمتلقي العربي، ونأمل أن تكتمل ترجمته عما قريب.

كما أن المعاجم التي وضعت في الألمانية كمعجم هانز فير Hans Wehr العربي/ الألماني يعد معجماً رائداً، كما يعد كتاب "العربية" ليوهان فك Johan Fuck من المصادر التي لا يستغنى عنها، وقد تحدث نجيب العقيقي في كتابه "المستشرقون"^(٥) عن بعض المستشرقين الألمان وعن إسهاماتهم الفكرية ويعد هذا الكتاب مرجعاً في بابه حتى زمن نشره.

رابعاً نشر اللغة العربية في ربوع ألمانيا:

انصب اهتمامهم على تعلم اللغة العربية وتعليمها ولقد كان للمعاهد الاستشراقية في الألمانييتين - قبل الوحدة - وفي الدول الناطقة بالألمانية كالنمسا وسويسرا وجانب كبير من هولندا و بلجيكا ولوكسمبورج وغيرهم دور كبير في نشر اللغة العربية، وقل أن نجد مدينة كبرى في ألمانيا دون أن نرى مركزاً لتعليم اللغة العربية وبغض النظر عن المقاصد فإن ذلك اتجاه محمود.

خامساً ترجمة الأدب العربي إلى الألمانية:

في ظل وجود حوالي مائة وخمسين مليوناً ينطقون بالألمانية أو يجيدون قراءتها فإن أهمية ترجمة أدبنا العربي إلى الألمانية تبدو مهمة، وقد قام بعض

المستشرقين بهذا الدور الرائد وقد وصل الأدب العربي إلى القارئ الألماني من خلالهم وغدا نجيب محفوظ والغيطاني وجبران خليل جبران ومحمد شكري وغيرهم أسماء مشهورة في الأوساط الثقافية الألمانية.

سادسا المجالات والمتاحف:

هنالك عدد لا بأس به من المجالات المتخصصة في الآداب العربية والإسلامية أو في أمور السياسة والاقتصادية بالمنطقة وربما كان من أهم هذه الدوريات مجلة "عالم الإسلام" Die welt des Islam التي يرأس تحريرها المستشرق إشتيفان فيلد Stefan wild وهي مجلة تعني بالتراث والحداثة في الإسلام وبها مقالات لا غنى للباحث عن الاطلاع عليها ومن أسف أن ما ينشر بها لا يترجم إلى العربية.

وهناك مجلة "الشرق" Orient ويرأس تحريرها المستشرق أودو اشتاين باخ Steinbach وهي مجلة تعني بالأمور المعاصرة في العالم الإسلامي المعاصر.

بقي أن ألقى الضوء على أهم اتجاهات المستشرقين الألمان وأستطيع أن أصنفهم على النحو الآتي:

الاتجاه الأول: الموسوعيون التراثيون.

يرى هؤلاء أن التراث العربي والإسلامي بحر يجب خوضه وقد أنفقوا سنوات عمرهم في هذا التراث قراءة وتحقياً ونقداً وتحليلاً وأهمهم كما أشرت آنفاً بروكلمان Brockelmann وفرايتاج Freytag والشاعر والأديب فريدريك روكرت Ruckert الذي اعتنى بشعر المعلقات ومقامات الحريري وترجمة ديوان الحماسة لأبي تمام مع تعليقات وافية وغير ذلك ومنهم سيمون فايل Weil ومارتن هارتمان Hartmann وشبيتا Spitta وأوجست فيشر August Fischer وليتمان Littmann ونولا كه Theodor Noldeke وأدم ميترز Adam Mez^(١)، والمستشرفة الألمانية أنا ماري شيمل Annemarie Schimmel.

الاتجاه الثاني: المستشرقون التراثيون المتخصصون.

وهم كثر ومعظمهم أعضاء جمعية المستشرقين الألمان

Die Deutsche Morgenlandische Gesellschaft.DMG التي تأسست في ١٨٤٥، وقد عقدت مؤتمرها العلمي السابع والعشرين في رحاب جامعة بون وكنت أحد المشاركين فيه، وقد ضم أكثر من خمسمائة مستشرق واستمر من التاسع والعشرين من شهر سبتمبر حتى الثاني من أكتوبر ١٩٩٨، وقد تنوعت الأبحاث بين التراث والمعاصرة لكنها اتجهت نحو التخصص.

ولوحظ أن أعدادا كبيرة من المستشرقين الشبان قد احتلت مكانها بين جيل الكبار وأهم الشبان: إشتيفان كوت Stephan Guth وباتريك فرانكه Franke وفيريناكليم Verena Klemm وغيرهم ممن تنوعت مشاربهم ورؤاهم تجاه الاستشراق وحاولوا من خلال المناهج الحديثة استحداث طرق جديدة، وقد أثبت المستشرق راينهارد شوله Schulze رؤية جديدة في طرق التجديد في علم الاستشراق.

ومن الكبار إشتيفان فيلد Stepan Wild وأنجليكا نويفيرت Angelika Newirth وفيبيك فالتر Wiebke walter وجيرهارد إندرس Gerhard Endress ومونيكا فاطمة مولبوك Monika Fatima Muhlback والمستشرفة جوردون كريمر Gudrun Kraemer وروتراود فيلاند Rotraud wielandt وغيرهم ممن يستحقون أن أتناولهم في موضع آخر.

ولقد عثرتُ في إحدى زياراتي على مخطوط فريد في العروض العربي وهو مخطوط "كتاب العروض" لعلي بن عيسى الربعي المتوفى سنة ٤٢٠ هـ وقمت بتحقيقه وعلى الرغم من مضي أكثر من ألف عام على المخطوط إلا أن حالته جيدة، وقد اغتظت ذات مرة من المبالغة في حفظ المخطوطات، وكانت إحدى موظفات المكتبة ترمقني وأنا أقلب المخطوط، وودتُ أن تقلب لي المخطوط بدلا عني، فصحتُ بها في لطف مازحا: ربما يكون هذا المخطوط بخط جدي!

فأردفت على التو: لكن لم يحافظ عليه أبوك!

وربما كانت على حق في ذلك، حتى لو قلنا إنهم قد سرقوا هذه المخطوطات! وقد تفضل البروفيسور إشتيفان فيلد Stefan Wild بكتابة تقديم واف معرف بالكتاب وبمنهج الخليل بن أحمد؛ ونظرا لأهمية بحثه هذا فقد ترجمته إلى العربية

واعتمدهُ أساساً لهذا البحث.

المستشرق Stefan Wild إشتيفان فيلد.

يعد البروفيسور إشتيفان فيلد من كبار المستشرقين الألمان وقد وُلد في ١٩٣٧ بمدينة Leipzig لايبزيغ، ونال درجة الدكتوراه في ١٩٦١ ونال درجة الأستاذية في ١٩٦٨ من جامعة ميونيخ وعمل في ١٩٦٢ بالمعهد الألماني للأبحاث الشرقية ببيروت، ثم معهد الاستشراق بجامعة Heidelberg هايدلبرج خلال الفترة ١٩٦٣-١٩٦٨، وفي عام ١٩٦٨ عُيّن مديراً للمعهد الألماني للأبحاث الشرقية ببيروت حتى ١٩٧٣، وشغل منصب الأستاذية بجامعة أمستردام منذ عام ١٩٧٤ حتى ١٩٧٧؛ ومنذ عام ١٩٧٧ عمل أستاذاً بجامعة بون؛ وحصل على جائزة Helga und Edzard Reuter Preise.

وقد نشر عدداً من الكتب والأبحاث في مجالات علوم اللغة والأدب العربي والاستشراق وعلوم الإسلام، وحوار الحضارات؛ كما أسهم في إصدار المنشورات الإسلامية؛ ويعد مدير تحرير مجلة "عالم الإسلام" *Die Welt des Islams*.
International Journal for the Study of Modern Islam

ومن أشهر أعماله:- كتاب العين وعلم اللغة العربية Wiesbaden ١٩٦٥.

- القرآن (Hrsg., Leiden 1996).

- الإنسان والنبى والله فى القرآن (Münster 2001).

عروض الخليل بن أحمد

أو

كم ابن مناذر^(٧)

Prof.Dr.Stefan Wild

بقلم المستشرق البرفيسور اشتيفان فيلد - جامعة بون

بينما كان الخليل بن أحمد يمشي في سوق الصفارين بالبصرة سمع إيقاع المطارق المنتظم من النحاسين على الطشوت والكؤوس النحاسية فكان ذلك سبب اكتشافه نظرية العروض؛ على نحو ما روى المؤرخون العرب. ومغزى هذه الأسطورة واضح فهي تشير إلى أن أي عبقرى يستمد اكتشافاته من الحياة اليومية، فمثل التفاحة التي سقطت من الشجرة فألهمت إسحق نيوتن اكتشاف نظريته "قوة الجاذبية الأرضية" ألهم إيقاع المطارق: تَن، تَن، تَن، تَن الخليل إلى وضع أسس نظام البحور العربية الكلاسيكية. وسواء أخذت هذه القصة في الواقع أو لم تحدث كقصة تفاحة نيوتن فإن ذلك ليس له أهمية تذكر.

وقد رويت روايات كثيرة حول كتاب العروض للخليل؛ فقد روى المرزباني: "سأل الأخفش الخليل: لم سميت الطويل طويلاً؟"^(٨) ^(٩) وما ذكره أبو الطيب عبد الواحد بن علي أن "مما أبدع فيه الخليل اختراعه العروض التي حظرت على أوزان العرب وألحقت المفخمين بالمطبوعين وبلغنا عن الخليل أنه تعلق بأستار الكعبة وقال: اللهم ارزقني علماً لم يسبقني إليه الأولون ولا يأخذه إلا عني الآخرون ثم رجع وعمل العروض"^(١٠)، ويضيف "أحدث الخليل أنواعاً من الشعر ليست من أوزان العرب (...). أخبرني أصحابنا أن للخليل بن أحمد قصيدة على فَعَلَنْ فَعَلَنْ ثلاث متحركات وساكن ، وأخرى على فَعَلَنْ فَعَلَنْ بمتحرك وساكن"^(١١).

وقال النضر بن شميل: "كان أصحاب الشعر يَمرون بالخليل فيتكلمون في النحو، فقال الخليل: لا بد لهم من أصل، فوضع العروض؛ فخلا في بيت ووضع فيه طسناً فجعل يقرعه بعود ويقول: فاعلن مستفعلن فعولن.

قال فسمعه أخوه، فخرج إلى المسجد، فقالوا: يا أبا عبد الرحمن مالك؟
أصابك شيء؟ أتحب أن نعالجك؟، قال: وما ذاك؟ قالوا: أخوك يزعم أنك قد
خولطت، فأنشأ يقول: (من الكامل)

لو كنت تعلم ما أقولُ عذرتني أو كنتُ أجهلُ ما تقولُ عذلتُكَ
لكن جهلتُ مقالتني فعذلتني وعلمتُ أنك جاهلٌ فعذرتُكَ

وشبه أحد البدو كلام الخليل بن أحمد غير المفهوم بلغة الغجر والروم ويَعده
ابنه مجنوناً بينما ينظر ابن خلكان إلى الابن على أنه "ولد متخلف".
يناقش الخليل القدرية ويرى أنهم رجال جدل *spekulativ* وينقل لنا
المرزباني مناقشته مع قدري.

وذكر حمزة الأصفهاني أن الخليل قال: "أيها السائل عن فهم القديم؛ إن قلت:
أين هو؟ فقد أبتته؛ وإن قلت: كيف هو؟ فقد كفتته، هو شيء شيء ولا شيء لا
شيء (لا شيء) وشيء لا شيء ولا شيء شيء".
فقال أبو شمر له: هذا هو الكتاب الذي لا يجمع ولا يفرق؛ هذا هو البدعة
التي يرفع الله بها من الأرض البدعة".

وتؤكد هذه الآراء عبثية كتاب الخليل في أعين بعض معاصريه وعدم تقبلهم
لما توصل إليه.

إن كتاب عروض الخليل - وهو أقدم كتاب في العروض العربي - كتاب
مفقود، وبإمكاننا أن نخمن أنه كان مخطوطة صغيرة جداً. وإذا وثقنا في رواية
أخرى فإن كمّ ابن منذر بإمكانه أن يسع كل كتاب الخليل ببساطة.

أي أن هذا الكتاب لم يكن حجمه يزيد عن صفحتين على أقصى تقدير، ومن
المتوقع أن تكون الدوائر العروضية الخمس وأسماء البحور وتفعيلاتها مرسومة
فيه؛ وكذلك تعريف العنصرين الأساسيين في العروض العربي وهما: السبب
والوتد. وكان على الخليل بن أحمد أن يخترع لغة خاصة بالعروض حتى يُصور
نظام العروض بدقة. ولهذا الغرض كان يجب على الخليل أن يجرد الخط العربي
التقليدي من خصائصه الخطية المتوارثة. فلكي يوضح النظام الصوتي العربي

وحتى يؤسس النظام العروضي كتب الخليل: هذا هاذا، وفاعلٌ فاعلن.
وإذا كان هذا النظام خطوةً ثوريةً فإن اكتشاف نظام المقطع الصوتي في اللغة العربية وضع منهاجاً جديداً يجب أن تقاس مدى أهميته باكتشاف دي سوسير de Saussure.

إن اللغة العربية -حسب وصف الخليل- تتركب من مقطعين صوتيين أو وحدتين فقط. ولا تطابق هاتان الوحدتان الكلمات العربية فهي -في معظم الأحوال- أصغر من الكلمات المستقلة، وهي لا تطابق الفونيمات Phonemen التي يكاد نظام كتابتها يطابق الحروف الكتابية. هذه الوحدات ليست متطابقة مع مصطلح المقاطع الصوتية في علم اللغة الحديث ولكن تقترب منها إلى حد كبير، وفي كل الأحوال يمكن تحويلها بسهولة إلى أصوات لغوية. من الممكن أن نقارن اكتشاف الخليل بن أحمد باكتشاف تكوين اللغة من مقاطع حيث إن وحدتي الخليل: السبب والوئد تثبت لنا محاولته الناجحة في تطور نوع من النظرية الجزئية للمقاطع الصوتية في بنية اللغة العربية.

ويوجد فوق الفونيمات وتحت مستوى الكلمات الواقعية نظام مزدوج يفسر تنوع اللغة العربية حسب تنوع إمكانات تركيب عناصرها المحدودة: فكل الألفاظ العربية تتكون من سبب ووتد وهما كالمقطعين الصوتيين: القصير والطويل ذوي الإمكانات التركيبية المختلفة للفونيمات. كما أن كل الألفاظ العربية بإمكانها أن تصور على أنها تركيبات مختلفة من سبب ووتد، وهذه هي أساسيات نظرية الخليل اللغوية. كل الكلمات العربية أو معظمها بإمكانها فوق ذلك أن يعبر عنها بأوزان تركيبية محدودة نسبياً من سبب ووتد. ولتوضيح هذه الوحدات الكبرى التي تصف إلى حد ما المستوى اللغوي الأعلى استخدم الخليل صيغ الفعل من الجذر الواحد وهو فَعَلَ المكون من (ف، ع، ل).

منذ الخليل يعبر عن الوزن الأساسي في علم الصرف العربي بفعل: فَعَلَ. ويقال استفعل، مفعول... إلخ. وهذه الصيغة تستخدم حتى الآن منهاجاً في وصف اللغة العربية. ومن المعروف أيضاً أن اصطلاحات النحو وعلم الصرف في اللغة

العبرية تبنى على هذا النحو أيضاً.

وإضافة على ذلك فإن الخليل قد اكتشف خطأ عروضياً خاصاً يصور به السبب والوئد تصويراً دقيقاً يتكون من [٥] دائرة صغيرة و [/] حركة. وأخمن أن هذين الرمزين كانا عنصرين أوليين ثم تطورا بعد ذلك إلى مساواة الدائرة الصغيرة بحرف الهاء والحركة بحرف الألف العربي. بإمكان اللغة العربية أن تكتب بالتركيب الثلاثي من دائرة صغيرة وحركة وسكون [اللاشيء].

إن ما سمّيته المستوى الفوقي والمستوى التحتي استخدمه الخليل في نظام بديع لفرعين من علم اللغة العربية، المستوى الفوقي أدى إلى تطور علم المعاجم العربية: إن جميع الألفاظ العربية بإمكاننا أن نعبر عنها بتركيبات ثنائية الجذر أو ثلاثية أو رباعية أو خماسية الجذر. وهذه الجذور المجردة التي لا تنتمي إلى الواقع اللغوي تُركب على أسس أنموذجية معينة. إن الإمكانيات التركيبية يعبر عنها بتصريفات جذر فعل فعل. وبإمكان الجذور أن تنظم علمياً حسب الخصائص الصوتية لأحرف الجذر، وقد نظم الخليل الفونيمات في اللغة العربية حسب مخرجها الصوتي. في معجم الخليل [العين] الذي يعد أول معجم في اللغة العربية - بيد أنه لم يتمه - يضع جميع الكلمات حسب نظام صوتي حسابي معقد في أبواب جنورها؛ كل جذر له موضع في فصيلة جنره تتكون نظرياً من مجموعة من الحروف في جميع تركيباتها المحتملة، وعلى سبيل المثال فإن أحرف الجذر الثلاثي ك-ت-ب تكون مجموعة متفرعة لأسرة جذرية: ك-ب-ت؛ ك-ت-ب؛ ب-ك-ت؛ ب-ت-ك. ثم يفصل الخليل بين المواضع (الصيغ) المستخدمة فعلاً والتركيبات النظرية فقط.

إن معجم الخليل يسمى بمعجم العين حسب الفونيم عين وهو الفونيم الذي - حسب تقسيم الخليل بن أحمد للفونيمات العربية - يوجد في أعرق مخرج صوتي وهو الحلق.

في المستوى التحتي يجد الخليل في ثنائية السبب والوئد مفتاح تقاعيل الشعر العربي، وبالطبع فإن الخليل لم يدع ابتكاره التقاعيل العربية فقد وجد الشعر العربي واللغة العربية كما كانت من قبل بيد أنه ابتكر مفتاحاً لوصف نظام البحور ومن

المحتمل أنه ابتكر بعض تسميات البحور العربية.

إذا كانت إحدى وظائف البحث العلمي هو التنظيم المنهجي فإن الخليل كان عبقرياً في نظامه المنهجي. وفي وصفه للبحور العروضية العربية على أنها صور فردية للإيقاعات الخمسة الرئيسية الخاصة بالدوائر الخمسة نرى النظام المتقن الذي يبدو - لأول نظرة - غير منظم في الواقع. فبحور القصائد العربية الموجودة كانت عالمه الواسع حيث ينتمي بعضها إلى بعض انتماءً روحياً وانسجماً سرياً. وقد أصبح هذا التماسك الروحي واضحاً للناظر والمستمع حيث إن وصف البحور المختلفة في دائرة ما وضح من خلال توزيع السبب والوتد فيها مما أوجد انتماءهم إلى تفعيلية واحدة، كما أنهم ينتمون إلى تراكيب مقطعية متساوية: فالبسيط والطويل والخفيف يندرجون تحت تفعيلية فعيل [إذا وزنا أسماء البحور صرفياً]، والمتقارب والمتدارك.. إلخ. وقد انتبه الجاحظ إلى جهود الخليل في وضع التسميات حيث قال "وكما وضع الخليل بن أحمد لأوزان القصيد وقصار الأرجاز ألقاباً لم تكن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك الألقاب وتلك الأوزان بتلك الأسماء، كما نكر الطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل وأشباه ذلك"، وكل ذلك يؤكد صفة الخليل التي أطلقها عليه الصفدي بأنه "فيلسوف دولة الإسلام".

ربما تعدى الخليل في بعض الأحيان غرضه في دافعه نحو التنظيم، وقد اتهم بأنه اخترع بحوراً لم تكن موجودة في الواقع لأن لها موضعاً في نظامه العروضي وربما كان هذا الاتهام الذي رماه به بعض المتأخرين ظلماً حيث اعتقد أن عالماً قديراً كالخليل الذي فرّق منهجياً في كتابه العين بين الجنور المستخدمة فعلاً والجنور النظرية في اللغة العربية لم يكن في حاجة إلى أن يدّعي وجود بحور غير موجودة حتى عصره؛ لم تكن موجودة لكن كان بإمكانها أن توجد.

على أية حال لم يتطور علم العروض العربي بعد الخليل إلا قليلاً. وفي إحدى الروايات عن تاريخ علم العروض العربي رُويت رواية جديرة بالاهتمام فقد كان الخليل يزن أبيات الشعر العربي حسب اكتشافه العروضي بصوت عالٍ؛ وكذلك صنع تلامذته ومعاصروه. وكانت الدوائر أشكالاً لها نوع من الخط السري؛

من يهمهم بصوت عالٍ وفي نفس اللحظة يكتب أشكالاً غامضة لا تفهم إلا بعد تفسير وظائفها فسوف يُقال عنه - في أفضل الأحوال - إنه مجنون؛ وإذا لم يك محظوظاً فإن معاصريه الجهلاء يصنعون منه ساحراً وكافراً، هذا الاتهام لم يدخره الناس للشاعر البصري محمد بن منذر أحد معاصري الخليل - على نحو ما يرويه الأصفهاني - "كان محمد بن عبد الوهاب الثقفي أخو عبد المجيد يعادي محمد بن منذر بسبب ميله إلى أخيه عبد المجيد، وكان ابن منذر يهجوّه ويسبه ويقطعه، وكل واحد يطلب لصاحبه المكروه ويسعى عليه، فلقي محمد بن عبد الوهاب ابن منذر في مسجد البصرة ومعه دفتر فيه كتاب العروض بدوائره، ولم يكن محمد بن عبد الوهاب يعرف العروض، فجعل يلحظ الكتاب ويقرؤه فلا يفهمه، وابن منذر متخافل عن فعله؛ ثم قال له: ما في كتابك هذا؟ فخبأه في كُمّه، وقال: وأي شيء عليك مما فيه؟"

فتعلق به ولبيته، فقال له ابن منذر: يا أبا الصلّت الله الله في دمي! فطمع فيه وصاح: يا زنديق في كُمك الزندقة؛ فاجتمع الناس إليه فأخرج الدفتر من كُمّه وأراهم إياه، فعرفوا براءته مما قذفه به ووثبوا على محمد بن عبد الوهاب واستخفوا به، فانصرفوا ووثب يجري!".

في تاريخ علم العروض العربي توجد فجوة كبيرة. وهذه المخطوطة "كتاب العروض" للربيعي (ت ١٠٢٩/٥٤٢٠م) التي حققها زميلي وصديقي الأستاذ الدكتور محمد أبو الفضل بدران تعدّ هي وكتاب العروض لابن جنّي (ت ١٠٠٢/٥٣٩٢م) من أقدم التأليف في علم العروض العربي. وحسب علمي فإن أقدم عرض لعروض الخليل وأكمله نجده في العقد الفريد لابن عبد ربّه (ت ٩٤٠/٥٣٢٨م). برغم أنه يذكر اسم الخليل بين الحين والآخر في عرضه هذا ويستشهد بأمتة الخليل الشعرية فإن أسلوب النص في تفاصيله بشكل عام يعود إلى ابن عبد ربّه؛ وعلى ما يبدو فإن كتاب عروض الخليل لم يكن بحوزته. والأمر كذلك أيضاً لدى ابن جنّي والربيعي فهما لم ينقلا مباشرة من نص الخليل. إذن يتبقى لدينا السؤال: من أين أخذ ابن عبد ربّه وهو بعيدٌ في الأندلس؟ ومن أين أخذ ابن جنّي والربيعي معرفتهما بعروض

الخليل؟ أو بشكل أدق: أين كتاب العروض للخليل بن أحمد؟ يبدو أنه قد ضاع كلياً. وربما من خلال ما نُقل من آراء مضادة وإضافات لكتاب عروض الخليل بن أحمد نتمكن من أن نصل إلى إعادة تصوّر كيف كان كتاب الخليل بن أحمد.

إن سيرة الخليل حسب المصادر المتاحة لنا لم تُكتب بعد. فمثلاً ما الذي نعرفه عن علاقة الخليل بالمعتزلة؟ ما الذي نعرفه عن كتاب التوحيد المنسوب إليه؟ كلّ هذه موضوعات للبحث لم يكن ممكناً لهذه المقدمة ولهذا التحقيق أن يتطرقا إليها. لكن الحقيقة المؤكدة هي أن كتاب الخليل بن أحمد يُعدّ أقدم وأهم أثر خلفه عبقرى من عباقرة الحضارة العربية.

إشتيفان فيلد.

تعقيب:

أثار مقال البروفيسور إشتيفان فيلد عدداً من النقاط التي يجب الوقوف

حيالها:

- قضية تسمية البحور الشعرية وعلاقتها بالإيقاع.
- علاقة الأسباب والأوتاد بالتسمية.
- عبقرية الخليل بن أحمد في اكتشاف لغة خاصة بالعروض، تجرد الخط العربي التقليدي من خصائصه الخطية المتوارثة.
- اكتشاف نظام المقطع الصوتي في اللغة العربية.
- نظرية السبب والوتد.
- المستوى الفوقي الذي أدى إلى تطور المعاجم.
- أثر المستوى التحتي.
- أثر الخليل بن أحمد بالمعتزلة.
- أين كتاب الخليل بن أحمد؟ وما حجمه؟
- من أين أخذ ابن عبد ربه الأندلسي وهو بالأندلس كتاب الخليل؟
- تصوّر كيف كان كتاب الخليل بن أحمد؟
- ما الذي نعرفه عن كتاب التوحيد المنسوب إليه؟

إن هذه النقاط والأسئلة تطرح أسئلة كثيرة جدية بالبحث؛ وإذا كان تصور إشتيفان فيلد لِكَمَّ ابن مناذر صغيراً؛ فإن من المحتمل أن يكون كُمَّه كبيراً كما كانت الملابس والحل في عصره وبذا يكون كتاب العروض للخليل ليس صغيراً كما تصوره بل حوى البحور والتفعيلات والعلل والزحافات وربما كان ذا أوراق كبيرة متعددة.

إن مقال البروفيسور إشتيفان فيلد يفتح رؤى جديدة في العروض العربي لما تُدرس بعد؛ وأحرى بنا أن نوليها اهتماماً ونقداً، وربما كان موقف الجاحظ من الخليل موقفاً يعتمد على موقف الخليل من المعتزلة.

كما أميل إلى أن دوراً كبيراً قام به العروض في حفظ مفردات اللغة العربية؛ إذ إنني أفترض أن كثرة صيغ الجموع في اللغة وقسماً كبيراً من ألفاظها المترادفة؛ وما طرأ على بنية بعض ألفاظها يعود إلى العروض؛ لأن الشاعر يجد نفسه مضطراً إلى لفظة يحدد البحر العروضي ترتيب أسبابها وأوتادها فيلجأ إلى مرادف مهجور أو مبتكر أو إلى جمع مهجور أو غريب لم يرتضه البلاغيون لكن الوزن طلبه.

بقيت نقطة أخرى: من قراءة المخطوطات القديمة يتضح أن رمز الساكن (/) ورمز المتحرك (٥) أو (٨) على عكس ما نستخدمه الآن، وهي ظاهرة جدية بالالتفات والتحليل والنقد؛ على نحو ما سأتناوله في بحث قادم إن شاء الله تعالى.

- (١) هتتر: كفاحي.
- (٢) Siehe: Rudi Paret: Arabistik and Islamkunde an deutscher Universitaeten, Deutsche Orientalisten Seit theodor Noldeke, Steiner Wiesbaden, 1966.
- (٣) Carl Brockelmann: Geschichte der Arabischen Literatur, Leiden 1938.
- (٤) عبد الله بن محمد الحبشي: تصحيح أخطاء بروكلمان، الأصل، لترجمة ط. المجمع الثقافي، أبوظبي، ١٩٩٨.
- (٥) نجيب العقيقي: المستشرقون جـ ٢، ص ٣٤٢-٥١٢، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠.
- (٦) القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه.
- (٧) ترجمة أ.د. محمد أبو الفضل بدران
- (٨) [المترجم] ورد في العمدة لابن رشيق:

ونكر أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاج اختلاف الناس في ألقاب الشعر؛ فحكى عن الخليل شيئاً أخذت به اختصاراً وتقليداً؛ لأنه أول من وضع علم العروض وفتحها للناس، وغادرت ما سوى ذلك من قول أبي إسحاق للزجاج وغيره لا على أن فيه تقصيراً.

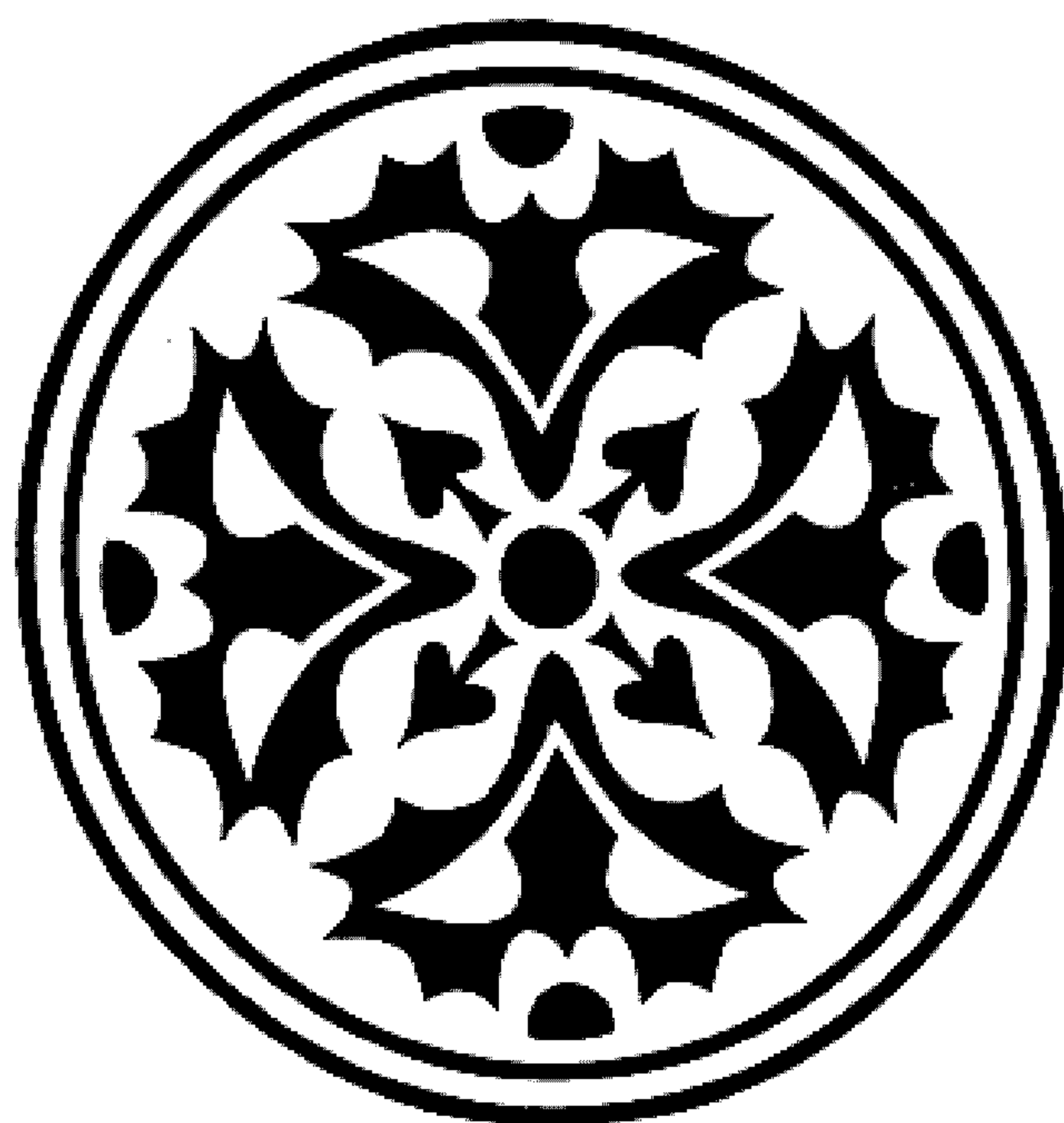
نكر الزجاج أن ابن دريد أخبره عن أبي حاتم عن الأخضر قال: سألت لخليل بعد أن عمل كتاب العروض: لم سميت الطويل طويلاً؟ قال: لأنه طال بتمام أجزائه، قلت فالبسيط؟ قال: لأنه تبسط عن مدى الطويل وجاء وسطه فعلم وأخره فعلم، قلت فالمديد؟ قال: لتمدد سباعيه حول خماسيه، قلت فالوفور؟ قال: لوفور أجزائه وتداً بوتد، قلت فالكامل؟ قال: لأن فيه ثلاثين حركة لم تجتمع في غيره من الشعر، قلت فالهزج؟ قال: لأنه يضطرب؛ شبه بهزج الصوت، قلت فالرجز؟ قال: لاضطرابه كاضطراب قوائم الناقة عند القيام، قلت فالرمل؟ قال: لأنه شبه برمل الحصير لضم بعضه إلى بعض، قلت فالسريع؟ قال: لأنه يسرع على اللسان، قلت فالمنسرح؟ قال: لانسراحه وسهولته، قلت فالخفيف؟ قال: لأنه أخف السباعيات، قلت فالمقضب؟ قال: لأنه مقضب من السريع، قلت فالمضارع؟ قال: لأنه ضارع للمقضب، قلت فالمجتث؟ قال: لأنه اجث، أي: قطع من طويل دائرته، قلت فالمتقارب؟ قال: لتقارب أجزائه؛ لأنها خماسية كلها يشبه بعضها بعضاً.

وقد وردت هذه الرواية في بعض المصادر الأخرى مثل: مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعي؛ ونور القبس من منتخب المقتبس للمرزباني.

(٩) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٢ ص ١٧ بيروت د.ت.

(١٠) أبو الطيب عبد الواحد الحلبي: مراتب النحويين ص ٣١.

(١١) السابق ص ٣٢.



**آراء المستشرقين في نسبة كتاب العين
للخليل: غراف دولا سال أنموذجاً**

٢٠١٥

أ.د. محمد خير محمود البقاعي
جامعة الملك سعود – السعودية



آراء المستشرقين في نسبة كتاب العين للخليل: غراف دولا سال أنموذجاً

أ.د. محمد خير محمود البقاعي

قال أبو بكر بن دريد مؤلف معجم "جمهرة اللغة"، وتلميذ الخليل بن أحمد: "ولم أجز في إنشاء هذا الكتاب إلى الإزراء بعلمائنا ولا الطعن في أسلافنا، وأنى يكون ذلك، وإنما على مثالهم نحتدي، وبسببهم نفتدي، وعلى ما أصلوا نبنتي، وقد ألف أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي رضوان الله عليه كتاب العين فأتعب من تصدى لغايته، وعنى من سما إلى نهايته، فالمنصف له بالغلب معترف، والمعاند متكلف، وكل من بعده تبع أقر بذلك أم جحد". وقد قال الدكتور هادي حسن حمودي في كتابه "الخليل وكتاب العين" إن ابن دريد، وهو صاحب ثاني معجم في العربية بعد كتاب العين، تاريخياً كان في وسعه أن ينكر كتاب الخليل، وأن يشن قوارع الكلام ليجعل من كتابه "الجمهرة" ابتداءً جديداً لم يسبق إليه، ولكن ابن دريد كان يتمتع بذلك الخلق العلمي الرصين الذي يعترف بفضل من سبق وينزل الناس منازلهم التي يستحقونها^(١).

أردت أن أبدأ مداخلتي بهذين النصين لتأملهما في ضوء واقعنا العلمي والثقافي اليوم.

أما السيدة غراف دولا سال Mme Graf -de la Salle فلم أجد لها ترجمة وافية، فقد أخل بها كتاب "المستشرقون" للعقيقي، و"موسوعة المستشرقين" لعبد الرحمن بدوي، وأقدم ما وجدت لها بحثاً بعنوان: داخل البيت العربي في قسنطينة (الجزائر)، منشور في المجلة الإفريقية "Revue Africaine"، العدد ٨١، ١٩٣٧م، ص ٥١٩-٥٣٠، والبحث موقع باسم "الآنسة غراف، أستاذة في مدرسة البنات في تونس العاصمة، وعضو الجمعية الأثرية في قسنطينة، والجمعية التاريخية الجزائرية". ويبدو أنها اكتسبت بعد الزواج اسم "دولاسال"، وهو اسم زوجها. أما آخر أبحاثها فيعود إلى عام ١٩٥٠م، (وهو بحث بعنوان: إسهام في دراسة الفلكلور

التونسي: المعتقدات والعادات النسائية المتعلقة بالقمر^(٢). ولها بحث آخر بعنوان: ملاحظات عن الحكايات حول نبات الضرغوس (أذريون الماء) التونسي (الأحديان)^(٣).

وفي حواشي بحثها عن الفلكور التونسي تشير الكاتبة إلى الكاتب الفرنسي الشهير ليسنيل دو لا سال Laisnel de la salle، وهو مختص في الفلكور الفرنسي. ويبدو أنها توقفت عن النشر بعد عام ١٩٥٠م؛ فقد راجعت المجلات التي شاركت في الكتابة فيها: (المجلة الإفريقية، إبلا، حوليات معهد الدراسات الشرقية)، كما راجعت "مجموعة التراجم والمذكرات العائدة لجمعية البحوث الأثرية لمنطقة قسنطينة من عام ١٩٥٠م إلى بدايات عام ١٩٦٠م، فلم أجد أي معلومات عنها.

أما بحثها عن الجدل الذي دار حول نسبة "كتاب العين" إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي^(٤)، فقد أشار إليه فؤاد سزكين في كتابه "تاريخ التراث العربي"^(٥)؛ ونُشر في مجلة "إبلا"؛ وهي مجلة معهد الآداب العربية للأباء البيض في تونس (السنة الحادية عشرة، الفصل الأول ١٩٤٨م، العدد ٤١، ص ٣٧-٤١). تقول المؤلفة:

إن أقدم معجم عربي يستحق هذه التسمية، ونعني المعجم الجامع الذي يرتب الكلمات حسب جذورها، هو "كتاب العين" الذي يعود زمن تأليفه إلى نهاية القرن الثاني أو بداية القرن الثالث الهجري. وهو يُنسب على وجه العموم إلى الخليل بن أحمد. ولكنه على الرغم من ذلك فإن أدبيات غزيرة من النقد والدفاع، ومن التصحيح والتدقيق نشأت حول هذا الكتاب خلال أكثر من قرنين من الزمن.

والروايات التي تخص ذلك الجدل معروضة بالعربية؛ جانب منها في كتاب "الفهرست" للنديم، وكثير منها في كتاب "المزهر" للسيوطي. ونجد بعضاً من تلك الروايات أيضاً في كتب أخرى مختلفة مثل: "كشف الظنون" لحاجي خليفة.

جهد برونليش^(٦) Braünlich في بحث عنوانه "الخليل وكتاب العين"^(٧)، نشرته مجلة "إسلاميكا"، في العدد الثاني لعام ١٩٦٢م في جمع كل المعلومات التي تخص "كتاب العين"، وما يتعلق منها بالنقد الموجه إليه على وجه الخصوص. وحرص برونليش أيضاً على ذكر كل الأعلام الذين أنكروا أن يكون الخليل مؤلف

هذا العمل المعجمي. ويكاد يكون هذا البحث دراسة جامعة لهذه القضية.

ونحن نرى من المفيد أن نذكر فيما يلي الكتب التي استخدمها برونليش في تحبير بحثه مرتبة حسب تسلسلها التاريخي: (الجمهرة لابن دريد؛ نزهة الألبا لابن الأنباري؛ الفهرست لابن النديم؛ إرشاد الأريب لياقوت؛ الخصائص لابن جني؛ المزهر، والاقتراح للسيوطي؛ كشف الظنون لحاجي خليفة).

والحال أن الروايات التي ينقلها إلينا كل واحد من هؤلاء المؤلفين هي نوعان:

تأكيدات ليست إلا مجرد شهادات، وتحليلات تتصبب إما على الجانب التاريخي وإما على مادة الكتاب نفسه. وتتضوي تحت لواء القسم الأول الروايات الآتية:

١. ينقل إلينا السيوطي في "المزهر"، مج ١، ص ٤٧ (وحاجي خليفة في كشف الظنون، مج ٥، ص ١٢٢، وياقوت في الإرشاد، مج ٦، ص ٢٢٢) عن الأزهرى في "تهذيب اللغة" أن الليث بن المظفر ألف "كتاب العين" بعد موت الخليل ونسبه إليه ليضفي على كتابه قدراً أكبر من الثقة. ولكنه لما لم يشأ أن ينكر الرواية التي ترفع الكتاب للخليل فإنه تلقب هو نفسه بهذا اللقب. وليس للخليل في هذا الكتاب إلا ما هو مسبوق بعبارة "أخبرني الخليل"؛ ويقال إن الخليل عمد قصداً إلى عبارة غامضة ليقتنع الجمهور بقسم الكتاب الذي وضعه هو.

٢. وهناك رواية أخرى تنسب للخليفة عبد الله بن المعتز (ياقوت، مج ٦، ص ٢٢٣؛ المزهر، مج ١، ص ٤٨؛ حاجي خليفة، مج ٥، ص ١٢١؛ الفهرست، مج ١، ص ٤٢). كان لليث على الخليل كثير من الأيادي البيضاء، وقد وجدته الخليل عالماً جليلاً فباعه كتاب العين بمائة ألف درهم. فعكف الليث على قراءته ليل نهار حتى حفظ نصفه عن ظهر قلب. ولكن زوجة الليث أرادت في يوم من الأيام الانتقام منه لأمر شخصي فعمدت إلى حرق المخطوطة. ولما لم يكن هناك نسخة أخرى من الكتاب، وكان الخليل قد توفي منذ زمن عمد الليث على الفور إلى كتابة القسم الأول الذي يحفظه عن ظهر قلب، ولجأ إلى كل علماء عصره ليعيد تأليف القسم الثاني.

٣. أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي (المتوفى سنة ٥٣٥٠هـ) يقول: كما في (المزهر، مج ١، ص ٤٨؛ وحاجي خليفة، مج ٥، ص ١٢٢) في كتابه مراتب اللغويين نقلاً عن ثعلب (المتوفى ٥٢٩١هـ) أن خطة كتاب العين وضعها الخليل، ولكن المادة التي ضمتها هذه الخطة استمدت من علماء العصر.

٤. وهناك رواية ثالثة تفترض أن الخليل أملى على الليث مباشرة بلا وسيط (فهرست، مج ١، ص ٤٣؛ ابن الأنباري، نزهة...، ص ٥٥؛ إرشاد، مج ٦، ص ٢٢٧).

إن هذه الشهادات الثلاث التي يصعب التوفيق بينها تلقي مسبقاً ظلالاً من الشك حول حقيقة مؤلف "كتاب العين". هذا من جهة، وهناك من جهة أخرى اعتبارات ذات طبيعة تاريخية يمكن أن تلقي بعض الضوء على القضية:

١. ينقل ياقوت في "إرشاد، مج ٦، ص ٢٢٧" أن تلميذ الخليل النضر بن شمير سئل عما إذا كان يعرف كتاب العين فأنكر ذلك. وعندما سئل إن كان أستاذه قد ألف هذا الكتاب فأجاب أن ذلك مستحيل لأنه هو نفسه لم يسمع قط أستاذه يذكر ذلك، وأنه لم يغادر البصرة إلا بعد موت الخليل.

٢. يقول أبو علي القالي (المتوفى سنة ٥٣٥٦هـ) كما جاء في (المزهر مج ١، ص ٥١؛ حاجي خليفة، مج ٥، ص ١٢٢): إن أبا حاتم السجستاني وأضرابه ينكرون أن يكون هذا الكتاب من تأليف الخليل عندما حُمِل إليهم الكتاب من خراسان في نحو عام ٢٤٠ أو ٢٥٠ للهجرة، أي مدة طويلة بعد موت الفقيه اللغوي الشهير.

٣. وبالتوافق مع الرواية السابقة جاء في (المزهر، مج ١، ص ٥٢؛ وحاجي خليفة، مج ٥، ص ١٢٣) أن ما ينبغي ملاحظته أن أياً من تلامذة الخليل المشهورين الذين نقلوا علوم أستاذهم مثل: النضر بن شمير، ومؤرج السدوسي (ت ١٩٥هـ)، ونصر ابن علي (الغامدي)، وأبو الحسن الأخفش (الصغير سعيد بن مسعدة، ت ٥٢٢٠هـ) لم يشر إلى كتاب العين.

وهناك أخيراً بعض الملاحظات المهمة التي تخص مادة الكتاب وتسمح بتصور المشكلة في هيئة أخرى، وتسمح بشكل من الأشكال في القيام بما يُسمى

النقد الداخلي.

١. جاء في (المزهر، مج ١، ص ٥٢): أن سيبويه، وهو أكثر تلامذة الخليل براعة، وكثيراً ما يذكر أستاذه في كتابه، ينتمي انتماء واضحاً إلى مدرسة البصرة، في حين أن السمة التي تسم "كتاب العين" هي كوفية؛ مثال ذلك نظريته المتعلقة بتشكيل الصوامت *émission des Consonnes*.

٢. جاء في (المزهر، مج ١، ص ٤٠ و ٥٣): أن محمد بن الحسن الزبيدي (المتوفى ٣٧٩هـ) يشير في مقدمته لـ "مختصر العين"^(٨) إلى عدد من الأخطاء التي يرفض أن تُنسب إلى نحوي من طبقة الخليل بن أحمد. ويلتقي معه في هذا ابن جني في كتابه "الخصائص في النحو" إذ تدفعه تلك الأخطاء إلى الاعتقاد أنه لا يمكن أن يكون الخليل قد أسهم في تأليف هذا الكتاب.

٣. جاء في (المزهر، مج ١، ص ٤٢): أن العسكري (المتوفى ٣٩٥هـ) يرى أن الخليل لم يكن ليستشهد بشعراء متأخرين مثل أولئك الذين نجدهم مذكورين في كتاب العين^(٩)، ويعتقد أن في الكتاب نصوصاً خارجية مدسوسة.

٤. وينقل السيوطي أخيراً في (المزهر، مج ١، ص ٤١): رأياً لابن فارس في "فقه اللغة"^(١٠) يستند إلى نص العبارة الأخيرة في كتاب العين (هذا آخر كلام العرب)، وهناك حديث يقول: "العربية لا يحيط بها إلا نبي" وقد كان الخليل كما يقول ابن فارس أكثر ورعاً من أن يدعي مثل هذه الادعاءات. وتبدو لنا عناصر هذه الحجج ذات قيمة متساوية: ولا ينبغي أن ننسى أن مدرستي الكوفة والبصرة لم تكونا قد انفصلتا في العصر الذي يعتقد أن الخليل ألف كتابه فيه، بل إنهما ربما لم تكونا منفصلتين في عهد سيبويه نفسه.

أما القول الذي يحمل الرقم (٢) فإنه يستند إلى حقيقة أن الروايات القديمة لم تشر أبداً إلى الخليل بوصفه لغوياً. ولقبه الذي أكسبه المجد هو "النحوي"^(١١) وليس "اللغوي".

ويستشهد برونليش بقائمة طويلة من المؤلفين المشهورين، مثل: "أبو زيد"،

ابن قتيبة، ابن السكيت، المبرد، الذين لا يظهر الخليل في كتبهم بوصفه حجة في اللغة. إذاً، يظهر أنه من المؤكد أن اللغويين القدامى كانوا يجهلون البحوث اللغوية للخليل، أو أنهم لم يولوها قيمة كبيرة.

وفي مقابل ذلك نجد أن الحجج التي تدعم كون الخليل هو المؤلف هي: إن أقدم ذكر لكتاب العين هو كما يذكر برونليش (كرنكو، ص ٢٦٣) (١٢) في معجم "الجمهرة" لابن دريد، ص ٢٨٧، الذي وضعه مؤلفه على خطة كتاب العين ومنهجه، وفي كتابه الآخر "الملاحن" (١٣) حيث يقول عند الحديث عن مصطلح (دبس): "ذكره الخليل في باب الباء والسين".

ولا ينبغي فضلاً عما سبق أن ننسى الرواية القائلة إن الخليل ألف كتاباً يسمى "فائت العين"، وأن النضر بن شميل ألف "المدخل إلى كتاب العين". وأن هاتين الواقعتين نفترضان وجود كتاب العين قبل سنة ٣٠٢هـ، وهي السنة التي توفي فيها النضر بن شميل (١٤).

إن تفحص الآراء المختلفة المتعلقة بهذا الجدل تزرع في النفوس شكاً مقلقاً حول أصالة نسبة كتاب العين للخليل. ولا يبدو أن الحجج التاريخية التي عرضناها حاسمة لتنزع من الخليل شرف تأليف هذا الكتاب، ولكنها على أية حال لا تقصي إمكانية الإشراف الفعلي على عمل تلامذته عندما كانوا يتلقون العلم عليه.

ويبدو لمراجع كتاب العين أن المقدمة الرائعة التي تعتمد حصراً على آراء الخليل هي من وضع عقلية مبدعة وليست عقلية مجرد عالم لغوي. ولا يمكن أن يكون مؤلف هذا الكتاب إلا نحوياً لأنه تكثر فيه النكات النحوية المتعلقة بالمواد اللغوية. وليس من العبث في نهاية الأمر أن نفترض مثلاً أن الكتاب كله لم يؤلفه الخليل، وأن كثيراً من الفقرات الطويلة، والمقدمة على وجه الخصوص هي للخليل، ولكن وضع الكتاب في صورته النهائية أسندت لليث. ويمكن أن يكون علماء آخرون من تلامذة الخليل أسهموا في ذلك فأضافوا إليه تعليقات أدخلت بعد ذلك في النص بهدف جمع أكبر عدد ممكن من المعلومات المفيدة.

ويبدو أن الجدل لن ينتهي حول هذا الموضوع، وآية ذلك أنه من المؤكد أنه

على الرغم من كل تلك المناقشات فإن اسم الخليل سيظل أبداً مقروناً بكتاب العين. إن هذا البحث الذي قدمت لنا فيه غراف دولاسال ملخصاً وافياً لبحث برونليش يعطينا فكرة عن تبادل المعلومات بين المستشرقين منذ زمن مبكر؛ إذ كانوا يعرضون المعارف الاستشراقية التي تظهر باللغات الغربية كلها (الألمانية والإنجليزية والروسية وغيرها)، ليطلع عليها أبناء جلدتهم ممن لا يتقنون اللغات المذكورة فيسهمون في ذلك بتقدم البحث، وفي عدم تكرار ما قاله الآخرون حتى في لغة أخرى. إن غراف دولاسال نقلت في بحثها حالة البحث في عصرها حول قضية كتاب العين فاطلع عليها المستشرقون الفرنسيون الذين لم يعودوا إلى القضية بل انفتخوا إلى موضوعات أخرى تسهم في تطور المعرفة الاستشراقية. إن المعلومات الواردة في هذا البحث قد تكون اليوم معروفة لدى عامة الباحثين ولكنها كانت عندما ظهرت في عام ١٩٤٨م في بحث غراف دولاسال، وقبل ذلك في عام ١٩٢٦م في بحث برونليش معلومات قيّمة وجديدة لأن أغلب الكتب التي عاد إليها برونليش كانت مخطوطة أو مطبوعة طبعت حجرية غير مفهرسة^(١٥). وأختم بالقول إن البصرة التي كانت في يوم من الأيام حاضرة الثقافة العربية والأدب والفكر، كانت أيضاً ملتقى طرق برية وبحرية عديدة مما أله تجار ذلك الزمن الذين كان لعُمان منهم الحظ الوافر، ولقد جاب الخليل شأنه شأن كثير من العمانيين الذين احترقوا الرحلة وعشقوا الإبحار أصقاعاً كثيرة من العالم المعروف آنذاك؛ وهذا يفتح باب القول في تفتح عبقريته بالاعتماد على المؤثرات التي تلقاها عندما اتجه شرقاً نحو حضارة عريقة هي الحضارة الهندية (حضارة اللغة السنسكريتية) التي ما زالت علاقاتها بالحضارة العربية مختزلة على حساب الاتساع والتضخيم الذي نالته علاقة الحضارة العربية بالحضارة اليونانية انطلاقاً من منظور خاطئ يجعل هذه الأخيرة حضارة الغالبين اليوم متناسين أن الهند شأنها شأن الصين، شهدت حضارات متطورة سبقت اليونان وحضارتهم تطوّرت تطوراً علمياً وأخلاقياً. إن تأثير الخليل بعلوم الشرق لا يعض من عبقريته الفذة^(١٦).

الحواشي.

(١) انظر بحثاً منشوراً على موقع منتدى سنابس لمحمد عبد الخالق: كاتب من مصر يعمل في عمان. www.snsbes.com/forum/pritthread، وبحثاً بعنوان: رأي في كتاب (العين) ونسبته للفراهيديّ بقلم باسم عبد الحميد حمودي على موقع: www.almadapaper.com/sub/09-209/p09.htm

(٢) عنوان البحث بالفرنسية:

Mme. M. Graf de la Salle, Contribution à l'étude du folklore tunisien, Croyances et coutumes féminines relatives à la lune, Mélanges offerts à William Marçais, Éditions G.-P. Maisonneuve et cie 1950, Paris, P.161-183.

وقد ترجمته إلى العربية وأرجو أن ينشر قريباً.

(٣) نشر في حوليات معهد الدراسات الشرقية في الجزائر، مج ٧، (١٩٤٨م)، وعنوانه الفرنسي: Mme Graf -de la Salle, Notes sur le conte populage tunisien "les deux bossus", in Annales de l'Institut d'études orientales, Alger, Tome VII (1948). [البقاعي].

(٤) عنوانه الفرنسي:

Mme. Graf de la salle, Le "Kitāb al-'ayn". le debat sur l'attribution qu'on en fait à al-Khalil in: IBLA, 11/ 1948, P. 37-42.

(٥) انظر الترجمة العربية د. عرفة مصطفى، مراجعة مازن عماوي، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المجلد الثامن، الجزء الأول، علم اللغة إلى حوالي سنة ١٤٢٠هـ، ١٤٠٨/١٩٨٨م، ص ٨٥. [البقاعي].

(٦) إيرش بروينلش Erich Braünlich: مستشرق ألماني، عني بالشعر الجاهلي وحياة البدو واللغة العربية ومعاجمها. ولد عام ١٨٩٢م، كان أستاذاً في جامعة ليبترزغ ومدير معهد الدراسات الشرقية فيها. توفي عام ١٩٤٥م قبل بلوغه الثالثة والخمسين بأيام. من كتبه: بسطام بن قيس، أمير وبطل بدوي في العصر الجاهلي، ليبترزغ ١٩٢٣م؛ وفهارس الشواهد، وهو فهارس للقوافي والشعر الوارد في كتب الشواهد النحوية واللغوية العربية، بالتعاون مع أوغست فشر، ليبترزغ ١٩٤٣م وما يليها؛ وشارك مع أوبنهييم وكاشل في تأليف كتاب "البدو" ليبترزغ ١٩٣٩م. وله من البحوث عدا البحث المشار إليه عن الخليل وكتاب العين بحث بعنوان: في مسألة صحة الشعر الجاهلي، وهو بحث ترجمه الدكتور عبد الرحمن بدوي ونشره في كتابه دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي؛ وله بحث عن أبي نؤيب نشر في مجلة المستشرقين الألمان، ج ١٨، ص ١-٢٣. انظر: موسوعة المستشرقين للدكتور عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م، ص ٦٦-٦٧. [البقاعي].

(٧) Al Khalil und das Kitab al Ayn, Islamica, II, 1926.

وقد عدت إلى هذا البحث في أصله الألماني لأقارنه بما جاءت به المؤلفة فوجدتها تعرض البحث عرضاً وافياً يحيط بأهم ما فيه. [البقاعي].

(٨) Les Manuscrits arabes de l'Escurial 1, Paris 1884 s 394.

ديرمبورغ، المخطوطات العربية في الإسكوريال، باريس، ١٨٨٤م، ص ٣٩٤.

(٩) أورد برونليش في بحثه، ص ٨٣-٨٤ قائمة طويلة بأسماء الشعراء في كتاب العين. [البقاعي].

(١٠) الكتاب المسمى: الصحابي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، وخير طبعاته بتحقيق

مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران، بيروت ١٩٦٣م. [البقاعي].

(١١) انظر في هذا الخصوص كتاب الدكتور جعفر نايف عباينة، مكانة الخليل بن أحمد في النحو

العربي، دار الفكر، عمان، الأردن ١٩٤٨م؛ وبحث الدكتور عبد القادر المهيري، بعنوان:

على هامش المصطلح النحوي في كتاب العين، المنشور في كتابه: نظرات في التراث

اللغوي العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م، ص ١٧٣-١٧٩. [البقاعي].

(١٢) بحث كرنكو عنوانه كما في أصل بحث برونليش: بداية التكوين اللغوي عند العرب حتى

زمن الجوهري، والتوقف عند عمل ابن دريد على وجه الخصوص، في الملحق المنوي

لمجلة الجمعية الآسيوية، أكتوبر "تشرين الأول" ١٩٢٤م. [البقاعي].

(١٣) عاد برونليش إلى طبعة هـ. ثوربيك H. Thorbecke في مدينة هيدلبيرغ، ١٨٨٢م، ص ٢٥،

السطر الثالث. [البقاعي].

(١٤) انظر بحث برونليش ومصادره في هذه الفقرة، ص ٩٤-٩٥. [البقاعي].

(١٥) كان الأب أنستاس الكرمللي حقق قسماً من الكتاب وطبعه في مطبعة الآداب في بغداد عام

١٩١٣م ونسب الكتاب إلى الليث بن سيار تلميذ الفراهيدي، ولكن الدكتور مهدي المخزومي

أحد أبرز محققي كتاب العين ألف كتاباً بعنوان: عبقرية من البصرة، ط ٢، دار الرائد العربي

بيروت ١٩٨٦م، ذكر فيه أن الكتاب للخليل وساعده فيه تلميذه الليث. وممن تناول قضية

الشك من العرب المعاصرين يوسف العث في كتابه "قصة عبقرية"، دار الفكر دمشق

١٩٨٢م؛ ونورية ذاكر العاني في كتابها "المعجمات العربية"؛ والدكتور صلاح الفرطوسي

في مقدمته لمختصر العين للزبيدي الذي حققه، والدكتور هادي حسن حمودي في كتابه:

الخليل وكتاب العين، الناشر المؤلف، لندن ١٩٩٤م، بمناسبة عام التراث العماني، وهو ينقل

عن محقق كتاب "البارع" لأبي علي القالي قوله: "ولكنني بعد أن حققت النص - أي نص

البارع للقالي - وقعت على حقيقة طريفة جديدة بالإعلان وهي أن "البارع" ما هو إلا كتاب

العين للخليل بن أحمد الفراهيدي". [البقاعي].

(١٦) لفت النظر إلى أهمية المصادر السنسكريتية في تطور العلوم العربية ديمتري غوتاس في كتابه المهم: الفكر اليوناني والثقافة العربية، ترجمة وتقديم د. نقولا زيادة، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠٠٣م، ص ٦٣. [البقاعي].



حفل الختام
توصيات النجوة
كلمة المشاركين
كلمة اللجنة التحضيرية

توصيات ندوة الخليل بن أحمد الفراهيدي الدولية

الحمد لله الذي تمت بنعمته الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل الصلوات، وبعد: فبدعوة كريمة من وحدة الدراسات العُمانية في جامعة آل البيت، وبالتعاون مع سفارة سلطنة عُمان الشقيقة لدى المملكة الأردنية الهاشمية، انعقدت في رحاب جامعة آل البيت ندوة علمية دولية باسم ندوة الخليل بن أحمد الفراهيدي الدولية في المدة من السابع والعشرين إلى التاسع والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة سبعة وعشرين وأربعمائة وألف هجرية الموافق للثالث والعشرين إلى الخامس والعشرين من شهر تموز سنة ست وألفين ميلادية، بمشاركة خمسين باحثاً من العلماء المتخصصين من عشر دول عربية يمثلون سبعاً وعشرين مؤسسة علمية عربية.

وقد ناقش المشاركون على مدار ثلاثة أيام قرابة خمسين ورقة علمية تناولت جوانب مهمة من سيرة الخليل وشخصيته وثقافته وميادين علمه وإبداعه وعطائه في: الدراسات القرآنية والحديثية واللغوية والنحوية والعروضية والصوتية والأدبية، وفق رؤى منهجية متباينة بين القديم والحديث، في سبع جلسات علمية مثمرة ترأسها نفر من أبرز العلماء مشكورين.

وبانتهاء جلسات الندوة ومناقشاتها العلمية، اتخذ المشاركون التوصيات الآتية:

- ١- تأكيد فرادة شخصية الخليل بن أحمد الأزدي العُماني ودوره في الفكر العربي الإسلامي خاصة، والفكر الإنساني عامة باعتباره شخصية عالمية أسهمت في تقدم المعرفة البشرية.
- ٢- إجراء مزيد من الدراسات العلمية المنهجية التي تضيء الجوانب الجديدة في سيرة الخليل بن أحمد الفراهيدي وآفاق عطائه العلمي.
- ٣- توجيه العناية إلى استخراج تراث الخليل وإعادة تحقيق المنشور منه تحقيقاً علمياً أميناً باعتماد أصول خطية جديدة وترميم كتبه الضائعة.
- ٤- إجراء مسح توثيقي شامل ودقيق لكل ما كتبه القدامى والمعاصرون عن الخليل بهدف تقديم كشاف بيبليوغرافي مرجعي عن الخليل بن أحمد.

٥- تفعيل حركة ترجمة تراث الخليل إلى اللغات والألسنة الحية والتعريف به عالمياً، لما لذلك من أهمية بالغة في تبيان منزلة الخليل وجهوده الثرة في مسيرة الحضارة الإنسانية.

٦- تعريب الدراسات الغربية الجادة التي تناولت الخليل وإنجازاته العلمية، لما لذلك من دور فاعل في الاطلاع على فكر الآخر والتواصل الحضاري.

٧- دعوة المؤسسات العلمية العربية إلى إقامة ندوات دولية للتعريف بأعلام الأمة ودورهم الحضاري الفاعل على المستوى الإنساني.

٨- إقامة ندوة دولية في العام المقبل عن شخصية ابن دريد الأزدي العماني في رحاب جامعة آل البيت تنظمها وحدة الدراسات العمانية بالتعاون مع سفارة سلطنة عُمان لدى المملكة تقديراً لشخصية ابن دريد الرائدة.

٩- نشر أوراق الندوة في كتاب بعد النظر فيما يصلح للنشر منها لتكون مرجعاً بين أيدي الدارسين والباحثين.

١٠- تشكيل لجنة لمتابعة توصيات الندوة، وتخويل جامعة آل البيت اختيار هذه اللجنة.

وبعد، فإن العلماء والباحثين المشاركين في هذه الندوة الدولية يرفعون بخالص التقدير والعرفان أسمى آيات الشكر والتقدير إلى حضرة صاحب الجلالة الملك عبد الله الثاني ابن الحسين المعظم لما لقوه من طيب الإقامة وحسن الضيافة والرعاية والتنظيم المتميز للندوة، سائلين الله عز وجل أن يحفظ جلالته، وأن يمن عليه بموفور الصحة والعافية، وأن يبقيه سنداً للوطن والأمة.

كما يرفع المشاركون بالمثل خالص الشكر والتقدير والعرفان إلى حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم، داعين له باليمن والصحة والعمر المديد، شاكرين لجلالته دعمه الموصول لوحدة الدراسات العمانية في جامعة آل البيت.

كما يتوجه المشاركون بالشكر والتقدير لسمو الأمير غازي بن محمد المعظم المبعوث الشخصي والمستشار الخاص لجلالة الملك المعظم على تفضله برعاية هذه الندوة العلمية الدولية وانتداب معالي الأستاذ الدكتور عبد السلام العبادي رئيس جامعة آل البيت لافتتاحها.

ويتوجه المشاركون بالشكر والعرفان إلى جامعة آل البيت ممثلة برئيسها معالي الأستاذ الدكتور عبد السلام العبادي الذي أحاط الندوة بحسن عنايته، كما يشكرون وحدة الدراسات العُمانية واللجنة التحضيرية المنظمة للندوة على جهودهم الطيبة في الإعداد والتنظيم للندوة حتى اكتمل نجاحها بالتعاون مع سفارة سلطنة عُمان الشقيقة في المملكة ممثلة بسعادة الشيخ مسلم بن بخيت البرعمي، سفير السلطنة لدى المملكة الأردنية الهاشمية، ومكتب الإفتاء في سلطنة عُمان الشقيقة ممثلاً بسعادة الشيخ أحمد بن سعود السيابي الأمين العام للمكتب ممثل سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليفي المفتي العام لسلطنة عُمان.

ويستذكر المشاركون الجهود الطيبة لجميع المؤسسات العلمية والمراكز الأكاديمية التي أسهمت في إنجاح هذه الندوة.

وفق الله العاملين لخدمة تراث الأمة والتعريف بإنجازات الحضارة العربية الإسلامية وأعلامها المبدعين، والحمد لله رب العالمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كلمة الأستاذ الدكتور صلاح جرار

باسم المشاركين في الندوة

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد النبي الأمين وعلى آله الطاهرين
وصحبه الميامين.

معالي الأستاذ الدكتور عبد السلام العبادي الأكرم، رئيس جامعة آل البيت، مندوب
صاحب السمو الملكي الأمير غازي بن محمد المعظم.

السادة العلماء الأجلاء.

الأخوات والأخوة المشاركون والحضور.

أيها الحفل الكريم.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

ها نحن نتأهب للافتراق على أمل اللقاء المبارك إن شاء الله، بعد أن نظمنا هذه
الندوة المباركة على مدار ثلاثة أيام متتاليات في عقد من العلماء الأماثل والباحثين
من أهل الفكر والنظر والرأي الذين اجتمعوا من بقاع الوطن العربي العزيز كافة، في
رحاب جامعة آل البيت، تظلمهم رعاية الله عز وجل، وتصحبهم عنايته سبحانه، للبحث
في تراث الخليل بن أحمد الفراهيدي والاعتراف بفضلته ومكانته ودوره العلمي والقومي
البارز، وتدارس جهوده في مختلف ميادين المعرفة من لغة ونحو وصرف وعروض وأدب
وغير ذلك.

لقد كانت هذه الندوة حافلة بالكثير من الأبحاث النوعية والآراء السديدة والرؤى
والأفكار الجديدة ووجهات النظر العميقة والأطروحات والاجتهادات المتنوعة والمناقشات
والمقترحات المختلفة، مما يؤكد مكانة الفراهيدي وأهمية جهوده العلمية وامتداد
أثرها عبر الزمان والمكان.

إن من أبرز ما حققته هذه الندوة، بالإضافة إلى هذا العدد الجمّ والوفير من
المشاركات والبحوث المتميزة، أنها وفّرت فرصة نضيسة لتبادل الأفكار والآراء بين
المشاركين والتفاعل بين مختلف الرؤى والأطروحات وتكامل الجهود وإغنائها، مما
يسهم في تطوير الأبحاث المشاركة وتنقيحها والزيادة عليها، وإنني لعلّى يقين أن كلَّ

واحد من المشاركين، كان يحدثُ نفسه في أثناء انعقاد الجلسات العلمية وما يدور فيها من نقاش، أنه سوف يجعل همّه الأول بعد العودة إلى وطنه وجامعته أن يعود إلى ما فاتته من المصادر والمراجع والدراسات وأن يطورَ بحثه وينقّحه ويزيدَ عليه مما أفاده من هذه الندوة العلمية المباركة.

ومما لا شك فيه أن هذه الندوة قد شرّعت أمام أنظار المشاركين أبواباً جديدة للبحث، إذ إن الموضوعات التي تتصل بالخليل بن أحمد وتراثه العلمي لا تنفذ، وانني لعلّ يقين أيضاً بأنه ما من أحد من المشاركين إلا وراوده موضوعٌ جديدٌ وأضرمةٌ مبيّنة في خاطره للكتابة في هذا الموضوع بعيداً عن عيون الباحثين والمختصين.

وانني أعتنم هذه الفرصة لدعوة جامعة آل البيت - حرسها الله - إلى النهوض بمشروع يكون ثمرةً كريمةً من ثمار هذه الندوة وهو أن تُسند إلى لجنة من علماء اللغة القيام بمقابلة ما وصلنا من معجم العين على جميع معاجم اللغة وكتب النحو والصرف التي جاءت بعده ونقلت منه، وذلك لضبط موادّ العين واستكمال ما سقط من هذه المواد مع تحقيقها وتوثيقها التوثيق اللازم.

كما أدعو إلى أن تُخصصَ جامعة آل البيت جناحاً خاصاً في مكتبتها العامة للخليل بن أحمد الفراهيديّ يضمُّ كلُّ ما ألفه الخليلُ وكلُّ ما كُتب عنه من دراسات ومؤلفات وأبحاث بمختلف لغات العالم ومن مختلف المجالات والدوريات ليكون هذا الجناح مرجعاً لكل الباحثين من مختلف أرجاء العالم ممن يبحثون في الخليل وتراثه. ومتى أنشأت الجامعة مثل هذا الجناح أو الزاوية، فإنه يغدو من اليسير حينئذ تحويلها إلى قاعدة بيانات خاصة بالخليل بن أحمد تربط إلكترونياً مع شبكة المعلومات الدولية. ويبقى جهدنا في هذه الندوة والجهود المقترحة - مهما بلغت من الاتساع والشمول والتميز - متواضعة، إذا قيسَت بأهمية ما قدّمه الخليلُ بن أحمد لأمة العرب، إذ إنه بريادته في وضع أول معجم شامل للعربية، وهو معجم العين، يكون قدّم للأمة أهمّ مقوم من مقومات هويتها الثقافية والحضارية، وهو اللغة، فاللغة لأيّ أمة هي الركيزة الأولى لهويتها والسجل لحضارتها وإنجازها وشخصيتها وثقافتها.

ولو أن الخليل بن أحمد - رحمه الله وجزاه خير الجزاء كفاء ما قدم للأمة - لو أنه يقوم قليلاً فينظر حال اللغة العربية في أوطانها، ويرى كيف شابها اللحن والعُجمة، ونالها الاستضعاف والتهميش والتأخير لصالح لغات أخرى لأصابعه الخبيبة

وصدمه الخذلان، وربط بين تلك الحال وما لحقها من الضعف والهوان في هذا الزمان. إن من أوجب الواجبات على المختصين بالعربية وتراثها - أيها الأساتذة الأجلاء والسادة العلماء - أن يتصدوا للذب عن هوية الأمة والدفاع عن لغتها وتراثها وقيمها السامية من خلال السعي الدائب إلى إعلاء مكانتها في أوطانها وخارج أوطانها، والعمل على جعلها لغة العلم والثقافة والمعرفة والإبداع وسائر استخدامات الحياة وعدم التهاون في محاولات تهميشها وتضييق مجالات استخدامها، لأن كل ما يُصيب اللغة من خير أو شر يصيب أهلها، فتنهض بنهضة الأمة، وتراجع بتراجعها.

معالي الأستاذ الدكتور عبد السلام العبادي، مندوب صاحب السمو الملكي الأمير غازي بن محمد المعظم.

يسرني نيابة عن الأخوات والأخوة المشاركين في هذه الندوة أن أتوجه إلى مقام صاحب السمو الملكي الأمير غازي بن محمد المعظم . حفظه الله . ببالح التقدير ووافر الشكر والامتنان على رعايته لهذه الندوة.

كما يسرني أن أتوجه بأصدق آيات التقدير والامتنان إلى معالي الأستاذ الدكتور رئيس جامعة آل البيت على عقد هذه الندوة المباركة مما يدل على غيرة صادقة على العربية وتراثها، وحرص على خدمتها وحمايتها وتحسينها من آثار الغزو الثقافي الهدام وما يتهددها من أخطار وتحديات.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أعرب عن خالص التقدير والشكر لوحدة الدراسات العمانية في جامعة آل البيت وسفارة سلطنة عُمان في المملكة الأردنية الهاشمية على الجهود التي بذلوها في إنجاح هذه الندوة. والشكر موصول أخيراً إلى اللجنة التحضيرية الكريمة، ورئيسها الدكتور محمد محمود الدروبي، مساعد رئيس الجامعة والجندي المجهول الذي واصل الليل بالنهار في الإعداد والتنظيم والمتابعة حرصاً على نجاح هذه الندوة وتحقيقها لأهدافها، سائلين الله عز وجل أن يجزيهم جميعاً خير الجزاء على ما بذلوه وقدموه وما أحاطونا به من رعاية وعناية وكرم ضيافة.

والله تعالى أسأل أن يوفقكم ويوفقنا جميعاً إلى ما يحبه ويرضاه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كلمة الدكتور سعيد جبر أبو خضر

عضو اللجنة التحضيرية

معالي الأستاذ الدكتور رئيس الجامعة الأكرم، مندوب صاحب السمو الملكي
الأمير غازي بن محمد المعظم راعي الحفل حفظه الله.

سعادة الشيخ مسلم بن بخيت البرعمي، سفير سلطنة عُمان لدى المملكة الأردنية
الهاشمية،

سعادة الشيخ أحمد بن سعود السيابي، الأمين العام لمكتب الإفتاء في سلطنة عُمان.

سعادة الأستاذ علي الدرمني، السكرتير الأول في سفارة سلطنة عمان لدى المملكة
الأردنية الهاشمية.

العلماء الأجلاء،

الحضور الفضلاء،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

فبعونه - جلّ في علاه- وتوفيقه وسداده أدركت فعاليات هذه الندوة شاطئ
السلامة، واختتمت جلساتها السبع بالتمام والكمال، وجاءت أيامها الثلاثة مباركة
عابرة بروح الخليل- رحمه الله - ممزوجةً بوحى علمه وخلقه وإيمانه.

فهذه الأيام لا رابع لها، بحسب فلسفة التعليم والتعلم الخليلية، ثم يكن فيها لأي
منا يوم راحة بحمد الله، إنما كانت أيام فائدة وغنيمة، تعلم الواحد منا ممن هو أعلم
منه وأفاد، وكانت أيام أجرٍ لآخرين منا إذ أدلوا بعلمهم فارتوى منه كلُّ ذي ظمأ،
وكانت أيام مذاكرة ومدارسٍ لكثيرٍ منا لقي الواحدٌ من هو بمنزلة، فكانت جدلية
المعرفة بأوج استدارتها وبهائها.

فجاءت البحوث المقدمة في هذه الندوة متممةً بالتخصصية والموضوعية
والشمولية العلمية، فتناولت مختلف جوانب الخليل- سيد أهل الأدب قاطبة في علمه
وزهده- وتحققت في ضوئها الأهداف المنشودة من عقد هذه الندوة الدولية.

وجاءت المناقشات التي تلت كلَّ جلسة، سواء أكانت في قاعة الندوات أو في أروقة
الجامعة ورحابها العامر، لتفتح الباب على مصراعيه أمام بحثٍ ذؤوبٍ لا يحده زمانٌ أو
مكانٌ، أمام بحثٍ مفعم بالإرادة الجادة، ومؤسسٍ على لغة الحوار العمق والهادئ والودّي

الذي تتميز به حضارتنا العربية والإسلامية.

الحضور الكرام،

إن إقامة وحدة الدراسات العمانية في جامعة آل البيت ندوة الخليل بن أحمد الفراهيدي الدولية بالتعاون مع سفارة سلطنة عُمان في المملكة الأردنية الهاشمية - تترجم، بادئ ذي بدء، حجم المعطيات التي تنطلق منها الأسس الثقافية بين البلدين. وتمثل، كذلك، امتداداً لفعاليات موصولة احتفاءً بمسقط عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٦م، فشموس عُمان تسطع في أصقاع الأرض، ونجوم أعلامها الزاهرة وفي مقدمتهم الخليل تنير فضاء مشارق الأرض ومغاربها، فلم تكد تمضي "الأيام الثقافية العمانية في اليونسكو" التي أفردت للخليل ندوة احتفالية بمناسبة مرور ١٣٠٠ عام على ولادته، حتى حملت وحدة الدراسات العمانية في جامعة آل البيت قيس نور الخليل العطرة، وفاءً لروحه الطاهرة.

الحضور الكرام،

ليسرني ويشرفني أن أزجي بالنيابة عن أعضاء اللجنة التحضيرية الشكر والتقدير إلى فرسان العربية ومحبي الخليل ومصابيح هذه الأمة الذين أمدوا هذه الندوة بمقومات الحياة، وبعثوا طاقات التاريخ وإشراقات الحضارة العربية والإسلامية في العقول والنفوس. والشكر موصول لكل من أسهم في نجاح هذه الندوة، بإذن الله، ونخص بالذكر سفارة سلطنة عُمان الشقيقة لدى المملكة الأردنية الهاشمية، ونخص مكتب الإفتاء في السلطنة، وجامعة آل البيت.

وختاماً، فإني أجدد الترحيب بكم في رحاب جامعة آل البيت، بيتكم وبيت العرب والمسلمين.

والله عليكم ورحمة الله وبركاته

فهرس المجلد الأول

الصفحات		
٤-٣	* تقديم الأستاذ الدكتور رئيس الجامعة	
٧-٥	* توطئة	
٢٤-٩	* وقائع حفل الافتتاح	
١٣-١١	* كلمة معالي الأستاذ الدكتور رئيس الجامعة	
١٨-١٥	* كلمة سعادة الشيخ أحمد بن سعود السيابي الأمين العام لمكتب الإفتاء في سلطنة عُمان	
٢٠-١٩	* كلمة الأستاذ الدكتور عوض بن حمد القوزي باسم المشاركين في الندوة	
٢٤-٢١	* كلمة الدكتور محمد محمود الدروبي مدير وحدة الدراسات العمانية، ومساعد رئيس الجامعة باسم اللجنة التحضيرية	
٢٥	* أعضاء اللجنة التحضيرية للندوة	
٢٨-٢٧	* أسماء الباحثين المشاركين في الندوة (مرتبين وفق الحروف)	
٣٦-٢٩	* برنامج جلسات الندوة	
	اسم الباحث	أوراق الندوة
٨٤-٣٩	أ.د. نهاد فليح العاني	* الخليل الفراهيدي والقراءات القرآنية جدلية المبنى والمعنى: دراسة تحليلية
١٢٥-٨٥	د. طه ياسين الخطيب	* منهج الخليل في تفسير غريب القرآن من خلال كتاب العين
١٥٢-١٢٧	أ.د. سعيد جاسم عباس الزبيدي	* الخليل في تفسير التبيان
١٨٢-١٥٣	د. سمير محمد عبيد نقد	* الاستشهاد بالحديث على اللغة في كتاب العين
٢٠١-١٨٣	د. حسين علي بطي	* الصنعة الحديثية في كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي
٢١٩-٢٠٣	د. ناصر لوحيشي	* المنجز العروضي الخليلي: حدوده وملامحه وأبعاده
٢٤١-٢٢١	د. أحمد بن عبد الله السالم	* الخليل بن أحمد عروضياً
٢٦٨-٢٤٣	د. محسن علي السويدي	* قول في نظرية الفراهيدي العروضية
٢٩٤-٢٦٩	أ.د. علي ارشيد محاسنة	* بحر المتدارك وقضية تداركه على الخليل بن أحمد الفراهيدي
٣٢٠-٢٩٥	د. خلف خازر الخريشة	* الدائرة الخليلية وعروض الشعر العربي: جمالية التماثل بين بيت الشعر وبيت الشعر
٣٤٩-٣٢١	أ.د. صادق عبد الله أبو سليمان	* حوسبة اللغة في فكر الخليل: القافية أنموذجاً: دراسة

		وتحليل ونقد
٣٦٤-٣٥١	أ.د. محمد القاسمي	* مدخل لدراسة اللغة الشعرية عند الخليل بن أحمد الفراهيدي
٣٨٨-٣٦٥	أ.د. جاسر خليل أبو صفية	* الخليل بن أحمد وعلم التعمية
٤٠١-٣٨٩	أ. د. محمد البوقاعي	* نظرات في معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي
٤٣٠-٤٠٣	د. عيسى عودة برهومة.	* أثر مقدمة كتاب العين في المعاجم العربية
٤٤٤-٤٣١	أ.د. صلاح محمد جرار	* أثر كتاب العين للخليل بن أحمد في كتاب الإبانة للعوتبي
٤٥٩-٤٤٥	د. حنان محمد حمودة	* أثر الخليل في مجمل ابن فارس
٤٩٩-٤٦١	د. وليد محمد العناتي.	* لغات العرب في معجم العين
٥١٦-٥٠١	د. حميد لحمداني	* الماء في كتاب العين للخليل: دراسة مقارنة:

فهرس المجلد الثاني

الصفحات	اسم الباحث	البحث
٥٥٤-٥١٧	د. معمر حجيج	* صورة الخليل الفراهيدي في التراث النقدي العربي:
٥٦٦-٥٥٥	د. أمّنة بدوي	* الخليل بن أحمد الفراهيدي في المصادر الأندلسية
٦٠٣-٥٦٧	د. يوسف بن محمود فجال	* الخليل بن أحمد عبقرى العلماء
٦٥٠-٦٠٥	أ.د. سعود محمود عبد الجابر	* شعر الخليل بن أحمد الفراهيدي: جمع ودارسة وتحقيق
٦٦٦-٦٥١	د. محمد سالم سعد الله	* المنظومة المعرفية للفراهيدي، دراسة نقدية
٦٨٩-٦٦٧	د. خلود العموش	* صورة الخليل بن أحمد نحويًا كما رسمها جعفر عباينة
٧١٢-٦٩١	د. حسين إرشيد العظامات	* جهود أردنية في دراسة الخليل الفراهيدي
٧٢٧-٧١٣	أ.د. يحيى وهيب الجبوري	* جهود الخليل في العلوم العربية ودعاوى الأثر الأجنبي
٧٥١-٧٢٩	د. سلوى ناظم	* الخليل بن أحمد وأثره في اللغة والأدب العبريين
٧٧٤-٧٥٣	أ.د. عوض بن حمد القوزي	* جهود الخليل في صناعة المصطلحات النحوية
٨٢٠-٧٧٥	أ.د. محمد زرمان	* مساهمة الخليل بن أحمد الفراهيدي في وضع المصطلح
٨٦٦-٨٢١	د. خالد بن عبد الكريم بسندي	* المصطلح النحوي في كتاب العين
٨٩١-٨٦٧	د. عبد الكريم مخلف الهيتي	* المصطلح العروضي ودلالته المعجمية عند الخليل
٩١٢-٨٩٣	د. عمر عبدالرحمن الساري	* حول نسبة منظومة نحوية للخليل
٩٣٧-٩١٣	أ.د. عبد الكريم مجاهد	* الأبعاد اللسانية لنظرية التقلاب الخليلية
٩٦٥-٩٣٩	أ.د. صالح بلعيد	* خليلي بناجي الخليل
١٠١٣-٩٦٧	د. عودة الله منيع القيسي	* الخليل الفراهيدي لنحويًا ونحويًا
١٠٣١-١٠١٥	أ.د. محمد أبو الفضل بدران	* المستشرقون الألمان والخليل بن أحمد، إشتيفان فيلد أنموذجاً
١٠٤٤-١٠٣٣	أ.د. محمد خير محمود البقاعي	* آراء المستشرقين في نسبة كتاب العين للخليل، غراف نولا سال أنموذجاً
١٠٤٥		* حفل الختام
١٠٤٨-١٠٤٦		* توصيات الندوة
١٠٥١-١٠٤٩		* كلمة المشاركين
١٠٥٣-١٠٥٢		* كلمة اللجنة التحضيرية